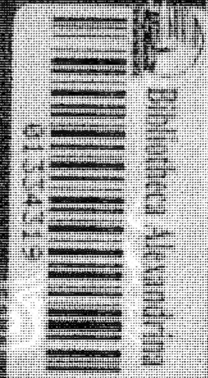
العلامة يوسف الدبس

تاريخ سورية الدنيوي والديني

تاريخ سورية في أيام إسكندر الكبير وخلفائه
وعلى عهد القياصرة الرومانيين إلى آخر القرن الثاني للميلاد

راجعه ودققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود



دار نظير عبود

تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء الثالث

تاريخ سورية في ايام اسكندر الكبير وخلفائه
وعلى عهد القياصرة الرومانيين إلى آخر القرن الثاني للميلاد

راجعه ودققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود

دار نظير عبود

فهرس

عدد | | صفحة

الفصل الأول

أخبار اسكندر الكبير

الفصل الثاني

انقسام ملك اسكندر وفي خلفائه الأولين في سورية

الفصل الثالث

انطيوكوس الأول والثاني وسلوقوس الثاني والثالث ملوك سورية وفي ما كان في أيامهم

الفصل الرابع

انطيوكس الثالث الملقب بالكبير

الفصل الخامس

سلوقوس الرابع وانطيوكس ابيفان ابني انطيوكس الكبير وغيرهما من ملوك سورية

الفصل السادس

قلوبطرة وزبينا وانطيوكس كريبوس وانطيوكس الشيزيكي ملوك سورية

الفصل السابع

باقي ملوك اليونان في سورية إلى انقراض دولتهم فيها

مقالة في تاريخ سورية في أيام الرومانيين

فصل

أخبار سورية واليهودية منذ استحوذ عليهما الرومانيين إلى مولد المخلص

الباب الأول

تاريخ سورية في القرن الأول للميلاد

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في القرن الأول

(تمهيد)

الفصل الأول

أخبار سورية في المدة التي بين مولد المخلص وحرب اليهود والرومانيين

الفصل الثاني

ذكر الحروب بين اليهود والرومانيين

ذيل

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الأول

الفصل الأول

العهد الجديد والمخلص له المجد

الفصل الثاني

العذراء والرسل

الفصل الثالث

التلاميذ والمبشرين والمبتدعين

الباب الثاني

تاريخ القرن الثاني

القسم الأول

التاريخ الدنيوي

(تمهيد)

(فصل)

ذكر بعض أحداث في سورية على عهد هؤلاء الملوك

الفصل الثاني

ما يؤخذ عن الآثار من تاريخ سورية في القرن الثاني والثالث

القسم الثاني

التاريخ الديني في القرن الثاني

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم وبعض الأساقفة في سورية في هذا القرن

الفصل الثاني

من نعلمهم غير هؤلاء من المشاهير الدينيين في سورية في القرن الثاني

خاتمة هذا المجلد

فاتحة الجزء الثالث

بمنّ الله وكرمه وفقنا في تدوين تاريخ سورية منذ خلق العالم إلى أيام اسكندر الكبير. وكانت خاتمة كلامنا في الجزء الأول خبر انقراض دولة الفرس وتقلص ظل سطوتها عن سورية. وألحقنا بذلك تراجم الانبياء فتحتم علينا ان نستتبع كلامنا باخبار سورية على عهد اسكندر الكبير وخلفائه إلى ان تملصت من أيدي دولتهم وخلفهم فيها الرومانيون إلى ان استحوذ عليها الخلفاء المسلمون قبل منتصف القرن السابع للمولد وعليه فقد قسّمنا كلامنا في هذا الجزء إلى مقالتين الأولى في تاريخ سورية في أيام اسكندر وخلفائه والثانية في تاريخها على عهد الرومانيين وعلى الله الاتكال في كل زمان وحال.

تاريخ سورية

على عهد اسكندر وخلفائه

الفصل الأول

أخبار اسكندر الكبير

عد ٣٨٩

(١)

لمحة في تاريخ اليونان إلى مولد اسكندر

قد ذكرنا في العدد ٤١ ان اليونان هم من ولد ياوان بن يافث بن نوح. وان ذريّة ابناء ياوان الأربعة وهم اليشة وترشيش وكثيم ودودانيم أو رودانيم (تكوين فصل ١٠) توطنت بلاد اليونان وما جاورها من الجزر واليابسة. وعليه فياوان هو جد اليونان الأولين على ما قال جمهور من قدماء وحدثاء. ثم لحقت بهم إلى بلادهم جاليات أخصها وأقدمها البلاسج والجمهور، على ان هؤلاء البلاسج من ذريّة يافث أيضاً هاجر بعضهم المشرق. فتوطن فريق منهم تراسة ومكدونية وغيرها من بلاد اليونان وتوغل فريق في البلاد فكانت مساكنه في ايطاليا. واستمر فريق منهم في آسيا الصغرى وكان منهم سكان ترويا وغيرها. ولكن قال الاب قيصر دي كارا اليسوعي (في كلامه على الحثيين وارتحالهم)، ما البلاسج إلّا الحثيون ظعنوا من آسيا الصغرى فحلوا بلاد اليونان والجزر القريبة منها. وابعدوا في البلاد إلى ايطاليا. وقد ذكرنا قوله وما اقامه له من الحجج في العدد ٨٤ حتى العدد ٨٨

فطالعه ويظهر ان البلاسج أتوا بلاد اليونان نحو القرن العشرين قبل الميلاد. وانقسموا إلى قبائل وفصائل عديدة وقد لحقت بالبلاسج إلى اليونان جالية أخرى من الفينيقيين يرأسها قدموس الذائع ذكره. والأظهر الذي قال به أكثر العلماء ان ارتحال هؤلاء كان في القرن الخامس عشر قبل الميلاد (طالع عد ٨٧). وقد اجمعوا على أنّ قدموس إنما هو الذي أدخل الحروف الهجائية في لغة اليونان لتسميتها فينيقية وقدموسية وآرامية. وللقرب بين الحروف القديمة في اللغتين صورة ولفظاً ووضعاً وعدًّا وقد زاد اليونان المتأخرون بعض أحرف على الأصل. وولى قدموس وبعض ولده في بعض أعمال بلاد اليونان. وتبعهم منازيح من مصر فأدخل النزالة الشرقيون الحضارة في تلك البلاد وعلموا أهلها صنائعهم وبثوا فيهم عبادة آلهتهم.

وظهر هناك قوم سموا هيلانيين تغلبوا على البلاسج في القرن السادس عشر إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وبسطوا سرادق ولايتهم على البلاد فارتحل جم غفير من البلاسج إلى الأقاليم القريبة. وتوطنوا فيها وكان من الهيلانيين فصيلة تسمى كراي أو كراشي (اغريق أو كراك). فغلب اسمها على سكان البلاد أجمعين. وانقسم الهيلانيون إلى ثلاث فصائل ايولين ويونين ودوريين، وكانت بينهم وبين غيرهم من سكان بلادهم حروب عديدة أشهرها حرب ثاب سنة ١٣١٣ وسنة ١٣٨٣ ق.م، ثم حرب ترويا المشهورة واختلف في زمانها. فمن قائل إنّها كانت سنة ١٢٨٠ إلى سنة ١٢٧٠ ق.م. ومن قائل سنة ١١٩٣ إلى سنة ١١٨٣ق.م. وممن قالوا بهذا دوري في تاريخ بلاد اليونان (مجلد ١ صفحة ١٣٨). وقال بعض المؤرخين الحديثين إنّ هذه الحرب متأخرة ولم تكن إلّا بعد قرون، وكان لكل فصيلة وعمل ملك مستقل ثم آثر أكثرهم الحكومة الجمهورية فأبطلت أثينا الملكية سنة ١١٣٢، وارغوس سنة ٨٢٠ ق.م، وقرنثية سنة ٧٤٧ق.م ولم تبقَ الملكية إلّا في سبرتا.

وكان بين اليونان والفرس حرب عوان دامت أعواماً طوالاً تسمى الحروب المادية ابتدأت سنة ٤٩٠ ق.م. وكان لليونان فيها انتصارات اثيلة منها استظهارهم على الفرس في ماراتون سنة ٤٩٠ ق.م. وفي سلمينا سنة ٤٨٠ ق.م. وفي بلاتا سنة ٤٧٩ ق.م. وخلدت هذه الحروب ذكر ملسياد وتموستكل وسيمون واريستيد وليونيداس. ورقي اليونان في هذه الحقبة مدارج التقدم في العلوم والفنون والصنائع وذاع حينئذٍ صيت اشيل وسوفكل واريبد في المآسي (TRAGEDIE) واريستوخان

في غيرها من الروايات (COMEDIE) وهيرودت وتوشديد في التاريخ. وانشأ تالس ودموكريت وبيتاغورس وغيرهم معاهد لتعليم الفلسفة وبسط هذا العلم. وأدخل عليه اصلاحات بعدهم سقراط ثم أفلاطون وأرسطو ووضع بقراط اصول الطب، واشتهر فيدناس بصناعة حفر التماثيل وصنع النقوش البديعة.

ثم طرأ على اليونان الوهن والضعف لحروبهم الأهلية وكانت أثينا وسبرتا تتنازعان السطوة والسؤدد فكانت بينهما الحرب المعروفة بحرب المورة استعرت نارها سبعاً وعشرين سنة من سنة ٤٣١ ق.م. إلى سنة ٤٠٤ ق.م. وانتهت بافتتاح السبرتيين أثينا، وبتغلب سطوة سبرتا على بلاد اليونان، على أنّ السبرتيين أساءوا التصرف بسؤددهم، فثار عليهم سائر مواطنيهم وعزّز قونون وايفيكرات وشيرياس جانب اثينا. وعقد انتلشيداس ملك سبرتا صلحاً مذللاً مع ملك الفرس سنة ٣٨٧ ق.م. فأهاج على السبرتيين حنق اليونان أجمعين فتقلص ظل سطوتهم. فانتهز فيلبوس ملك مكدونية فرصة منازعات اليونان فاخضع أكثرهم لنير سلطنته، وأتم اخضاعهم في وقيعة شارونا سنة ٣٣٨ ق.م. رغماً عن بذل ديموستان قصارى جهده في تأليف قلوبهم وتوحيد كلمتهم وتشجيعهم: وفيلبوس هذا هو أبو اسكندر الكبير الذي سنبسط تاريخ أعماله وأعمال خلفائه في هذه المقالة.

عد ٣٩٠

مولد اسكندر وترجمة حياته إلى ملكه

ولد اسكندر لفيلبوس ملك مكدونية ولاولمبيا زوجته في ٢٩ تموز سنة ٢٥٦ ق.م. وروى بلوترك أنّ أباه تطير لورود ثلاث بشائر إليه في يوم واحد مولد ابنه، وانتصار أحد قواده، ونيله الاكليل في ملاعب اولمبيا. وكانوا يتشاءمون بمثل ذلك فخشع إلى المشترى قائلاً: «احل بي حالاً مصاباً خفيفاً بدلاً مما غمرتني به من نعمك». وقال كثير من المؤرخين القدماء ان فيلبوس الملك كتب بعد أيام من ولادة ابنه إلى أرسطو الرسالة الآتية: «أخبرك إنّي رزقت ابناً وشكرت للالهة على رزقهم لي إياه شكراً لا يوازي شكري لهم على ولادته في أيام أرسطو. وأعلل نفسي إنَّك تجعله خلفاً أهلاً لنا وملكاً أهلاً لمكدونية». وحكى بلين (ك٣٦ فصل ١٤) إن يوم ولادته التهمت النار هيكل ديانا في أفسس الذي كان من عجائب الدنيا السبع. فكان

ذلك مشوماً على آسيا الصغرى التي ذللها في بدء ملكه. وكان اسكندر منذ نعومة اظفاره طماعاً عشيق المجد والمعالي وكان كلما تلقى خبر ظفر لأبيه أو افتتاح مدينة لم يشاطر أهل المملكة سرورهم، بل كان يقول للصبيان عشرائه بلهجة آسف: «خلاني أبي يأخذ كاشي ولا يدع لنا ما نصنع».

وأتى سفراء ملك فارس يوماً وأبوه غائب فرحب بهم وأكرم مثواهم حتى دهشوا من ذكائه على حداثة سنة. وزادهم دهشةً أنَّه لم يطارحهم مسألة يشتمّ منها رائحة الصبوة. مثلاً لم يسألهم عن الجنات المعلقة في الجو في بلادهم، ولا عن غنى ملكهم ولا عن الغرائب التي في وطنهم؛ بل سألهم بأي الطرق يسار إلى بلادهم وكم تبعد من مكدونية وبمَ تقوم قوة ملوك فارس؟ وأي موقف يتَّخذ ملكهم أبان الحرب وكيف يسوس شعبه؟ وكيف يعامل أعداءه وما أشبه. فقضى السفراء العجب العجاب وقالوا: «هذا الأمير الصغير كبير وأما ملكنا فغني». ولا يخفى ما في كلامهم من تفضيل اسكندر على مليكهم وليس الغنى بفضل يذكر ويشكر.

وكان اسكندر فهامة متوقد الذكاء خلقاً فما يكون وقد تولى أرسطو أكبر فلاسفة عصره تعليمه وتهذيب أخلاقه. وبالغ في العناية به وكان اسكندر مطواعاً له يقدره حق قدره، ويجلّه اجلاله لأبيه حتى كان يقول إنَّ أباه منَّ عليه بأن يكون من الأحياء وأمَّا أرسطو فبأن يحيى حياة حسنة».

وكان جد التلميذ ونجاحه كفوءاً لعناية استاذه به وقد علَّمه أرسطو العلوم الرياضية والفصاحة والفلسفة إلى غيرها مما يجدر بملك أن يتعلَّمه. وأكبّ اسكندر خاصةً على علم تهذيب الأخلاق الذي مداره على معرفة الانسان فروضه لله ولنفسه ولغيره. ولم يغفل الطب أيضاً فقد حكي عنه أنَّه عالج كثيرين من أصدقائه وجنوده في أمراضهم. وكان ولوعاً بتلاوة أشعار اوميروس ليقتبس منها الحماسة والسجايا الحسنة، حتى إنَّه لما كسب من دارا في حربه قشوة عطوره الثمينة لم يرها تحسن إلَّا لوضع كتب اوميروس فيها. وكتب إلى أرسطو رسالة بينما كان متشاغلاً في الحرب في آسيا ومما قاله فيها: «إنَّه يحب أن يفوق الناس بعلمه الأمور السامية أكثر جداً من أن يفوقهم بعظمته وانبساط ملكه». وكان حزوماً عزوماً لا تثنيه القوة عن عزمه ويثنيه عنه البرهان السديد بسهولة. ولما بلغ السادسة عشرة من

عمره واضطر أبوه أن يبارح مكدونية عهد إليه بتدبير مهام المملكة بمطلق السلطان، فقام بذلك أحسن قيام متصرفاً بالسداد والشجاعة كأعظم الرجال المحنكين بالسياسة. واشتهر بالبسالة والاقدام في حرب شارونا المشار إليه.

عد ٣٩١
ملك اسكندر واخضاعه آسيا

توفي فيلبوس الملك سنة ٣٣٦ وعمر اسكندر ابنه عشرون سنة، فرقى، منصة الملك تحفها أهوال وأخطار. وكان بعض الشعوب المجاورين مكدونية جاهروا بالعصاوة فذللهم وردهم إلى الطاعة وهبّ إلى بلاد اليونان يشتت شمل المتحالفين. وأخذ تاب ودمَّرها وعفا عن أهل أثينا الذين كانوا ناوؤه. ولا نطيل الكلام في أعماله هذه لخروجها عن دائرة غرضنا وسماه قومه القائد العام لجيوش اليونان على الفرس، وعاد إلى مكدونية يتأهَّب للحرب في آسيا.

قد جمع اسكندر كبراء دولته واستشارهم في أمر حملته على الفرس فلم يكن من مخالف لرأيه إلَّا اثنان من أعوانه رغبا إليه أن يتزوَّج قبل سفره، فقال إنَّه يخجل بأن يضيّع زمانه بحفلة زواجه، وأكثر من هباته لعماله وجنوده حتى قال له بردبكاس وزيره: «مولاي ما تبقى لنفسك؟ فقال الرجاء. فأجابه الوزير إذاً يلزم أن يكفينا الرجا مؤونة». ولم يكن جيش اسكندر حينئذٍ إلَّا عشرين ألف راجل وأربعة أو خمسة آلاف فارس. ولكن جميعهم من الكماة الأشداء سار بهم إلى أن عبر الدردنيل ووثب من زورقه ووطأت رجلاه أرض آسيا قبل جميع جنده، وقدَّم محرقات لآلهته، وزحف بجيشه لا يلقى معارضاً إلى أن بلغَ ضفة نهر كرانسيك في فريجيا. وكان أرسيتاس والي هذه البلاد من قبل دارا على الضفة الأخرى ليمنعه عبور النهر وجيشه مئة ألف راجل وأكثر من عشرة آلاف فارس على ما روى ديودرس الصقلي. وكان ممنون الرودسي أحد عمال دارا اشار على قادة جيشه أن لا يحاربوا اسكندر بل أن يدمِّروا البلاد بوجهه ويتركوها قاعاً صفصفا، فيكرههم الجوع أن يعودوا على أعقابهم. ولم يعمل ارسيتاس بمشورته وكان من رأي برمنيون قائد رجال اسكندر أن ينتظر الجيش الغد ليثب غلساً فيعبر النهر بأقل مشقة وخالفه اسكندر قائلاً إنَّه يرى التلوم في عبور نهر عاراً عليه. وقد عبر

الدردنيل ولا يشاء أن يحط من مهابة سطوته وبسالة جنوده. وكانت فرسان العدو تحدق بضفة النهر والرجالة من ورائهم على أكمة بينهم يونان استأجرهم دارا فاقتحم اسكندر النهر وتبعه طليعة من فرسانه. فتهافت الفرس عليهم ورموهم بالنبال كالديم الهطلة فتقهقرت هذه الطليعة وتجندل منها الصف الأول فعاجلها اسكندر ينجدها برجال الميمنة التي كانت تحت أمرته ثم برجال الميسرة التي كانت تحت أمرة برمنيون وتعالى هتاف الجيش كله ووثبوا على الفرس دفعة واحدة فشتتوا شملهم وقتلوا كثيرين منهم وأسروا منهم ألفي رجل.

وقد قُتل من المكدونيين في الكرة الأولى خمسة وعشرون فارساً أقام لهم اسكندر في ديون تماثيل من نحاس. ولم يقتل بعد ذلك من الفرسان إلَّا ستون فارساً ومن الرجالة ثلاثون فدفنهم اسكندر مع سلاحهم تبياناً لبسالتهم. وأعفى آباءهم وأولادهم من كل جزية وضريبة، وكان يعود الجرحى ويفحص حالة جراحهم ويتودَّدهم. ودفن بكرامة قادة الفرس الذين سقطوا في القتال حتى من كان معهم من اليونان الذين استأجرهم الفرس، ولكن كبَّل بالقيود من وقع أسيراً من هؤلاء المستأجرين. وأرسلهم إلى مكدونية لنقضهم عهد المملكة بمحاربتهم اليونان ابناء جلدتهم (روى ذلك أريان ك ١ صفحة ٣٦) وديودورس الصقلي (ك١ صفحة ٥٠٣) وغيرهما. وكانت هذه الموقعة سنة ٣٣٤ ق.م إنَّ هذا الظفر يسَّر لاسكندر افتتاح سائر آسيا الصغرى، فإن سرد (في ولاية أزمير لآن) استسلمت إلى الغازي فتركها وحريتها والعمل بشرائعها. وبلغ أفسس وأعاد إليها الحكومة الجمهورية كما آثر أهلها، وأمر أن تنفق على تجديد هيكل ديانا الجزية التي كانت تُدفع لملوك الفرس، وعرض على أهل أفسس أن يردَّ عليهم كلما أنفقوه على الهيكل، ويقوم بكل ما يقتضى لاتمام بنائه بشرط أن يبيحوه نقش اسمه على جداره، فأبوا وتخلَّصوا منه بقولهم لا يحسن أن يقيم إله نصباً لإله آخر. وأرسل اسكندر شراذم من جنوده تشهد خضوع أهل المدن المجاورة له، وسار في طريق شاطئ البحر فانتهى إلى ميلات المسماة الآن بلانكا، فاغتر أهلها بإنجاد أسطول الفرس الذي كان هناك لهم. ووصدوا أبواب مدينتهم في وجه الغازي فما عتم أن افتتحها وعامل بالحلم سكانها، وأقلع الأسطول الفارسي من هناك. وصرف اسكندر أسطوله ولم يبقِ منه إلَّا ما كان لا بد منه لنقل أدوات الحرب. وفعل ذلك اقتصاداً كيلا يتحمَّل نفقاته على غير داعٍ، وإنَّما كيلا يومل جنوده العود عن جهادهم.

وسار إلى اليكرناس وطن هيرودت أبي التاريخ المسماة الآن بودرون، ولم تجدها نفعاً بسالة ممنون (عامل دارا المشار إليه) الذي كان فرَّ ببعض ذويه من وجه اسكندر إلى هناك، لأنَّ الغازي افتتحها عنوة وانهزم ممنون ببعض أهل المدينة إلى جزيرة كوس القريبة منها.

وبعد هذه الوقائع دان كثير من ملوك آسيا لاسكندر، ومنهم متريدات الثاني ملك بنطوس، ولما كان قد أقبل الشتاء أباح اسكندر من كان تزوج من جنوده تلك السنة أن يرجع إلى أهله مدة الشتاء ليعود إلى المعسكر في فصل الربيع طبق ما رسم موسى في سفر التثنية (فصل ٢٤ عد ٥). وربما كان أرسطو عرف ذلك فلقنه تلميذه اسكندر، ولما كان الربيع سنة ٣٣٣ ق.م زحف اسكندر بجيشه مخضعاً سائر أعمال آسيا الصغرى إلى أن انتهى إلى فيليقية، وأرسل أمامه برمينون إلى ترسيس فبلغها والفرس عاملون على إحراقها كيلا يغنم عدوُّهم هذه المدينة الغنية، فأنقذ برمينون المدينة من الحريق وهزم الفرس. ووصل اسكندر إلى نهر كدنا في خارج هذه المدينة والحر شديد والعرق يرشح من كل مسامه فأحب أن يغتسل به ولم يبتلّ جسمه إلّا وأخذته قشعريرة شديدة، ثم وقف حسّه ورشده حتى خشي عليه أن تدركه المنيّة، وعمت الكآبة جيشه، ولم يجسر الأطباء أن يعطوه أدوية قوية، لأنَّ دارا أذاع أنَّ من قتل اسكندر نقده ألف وزنة، وزوّجه باخته، وملّكه في مكدونية على أنَّ فيليبوس أحدهم الذي كان صديقاً مخلصاً لاسكندر أعدَّ دواءً فعّالاً دنا به إليه فتناول اسكندر الكأس بيمناه وقد كان عاوده رشده، وناول فيليبوس بيسراه رسالة كان كاتبها يحذره اغتيال فيليبوس، وشرب الكأس إلى آخرها غير مبالٍ. فاضطرب فيليبوس كل الاضطراب من هذه التهمة على أنَّ ذلك الدواء نجع باسكندر فبلَّ من مرضه، وعرض بعد ثلاثة أيام على جنده، ففرحوا به وأكثروا الاطراء على الطبيب.

عد ٣٩٢
وقيعة ايسوس بين اسكندر ودارا

إنَّ ممنون الرودسي كان قد أشار على دارا أن يثير الحرب على مكدونية فيمالؤه عليها أهل سبرتا وغيرهم من خصوم اسكندر، فتكون هذه الذريعة الفضلى لرده عن

آسيا، فأذعن دارا لهذه المشورة، وجعل ممنون قائداً لأسطوله في البحر المتوسط لينفذ ما أشار به. فاستولى على ساقس وليسبوس كلها إلَّا مدينة ميتيلين منها ومات إذ كان محاصراً لها. ويئس دارا من البقاء في آسيا فهمّ بالمحافظة على سورية. فألَّب عسكراً جراراً لا ينقص عن ست مئة ألف رجل واستشار القادة فيما يصنع، فأشار عليه القادة اليونان الذين استأجرهم أن يتربص حيث كان في سهل فسيح في بلاد آشور منتظراً عدوه، وإن لم يحسن له التربص فليختر من هذا الجيش رجال الحرب وبسلاءه، ويطلق الباقين لئلا يعرض جنوده كلها للانكسار دفعة واحدة وللتهلكة في يوم واحد. وخالفهم القادة الفرس فأشاروا على دارا أن يزحف بهذا الجيش العرمرم وأوقعوا شبهة الخيانة على القادة اليونان، ورغبوا إليه ان يميتهم فأبى انزال الضرّ بهم، لكنه عمل بمشورة حاسديهم، وأرسل ما كان معه من المال والنفائس إلى دمشق، وسار بجيشه نحو فيليقية ومعه زوجه الملكة وأمه وبناته وابنه الصغير، واما اسكندر فأرسل برمنيون وقسماً من جيشه ليستحوذ على معبر سورية من جهة فيليقية ليأمن من مسير جيشه في ذلك المعبر. فولى برمنيون ايسوس الكائنة على خليج اسكندرونة في الشمال منها وضبط معبر سورية، وأقام فيه حامية وجاء الملك في عقبه واجتاز معبر سورية بسائر جيشه. وترك مرضاه في ايسوس ووفد دارا بجحافله إلى أيسوس وهو يظن اسكندر وراءه. وقد كان تقدمه فزين له أعوانه ان اسكندر منهزم من وجهه نحو سورية فما عليه إلّا ان يتبع آثاره، فقتل دارا المرضى الذين كان اسكندر أبقاهم في ايسوس، واستبقى بعضهم وعرضهم على جيشه ليزيده شجاعة.

وبلغ اسكندر ان دارا من ورائه فكاد لا يصدق الخبر لوفرة سروره به لأن الموقف يلائمه كثيراً. وحسب الآلهة ساقت دارا إلى هذا المضيق ليهلكه فإنّ البحر هناك من جانب وجبل داغ من آخر، وليس بينهما إلّا أرض تضيق عن جحافل دارا الكثيرة، وتكفي جنود اسكندر اليسيرة لحركة الحرب، فسوى المحل الحرج بين قوة الملكين فلم يكن للفرس ان يشغلوا من جنودهم إلّا العشر أو أقلّ منه، وكان لاسكندر ان يشغل عسكره كله. وقام اسكندر ليلاً وقدم الضحايا للآلهة على عادته وأطعم جنوده وساقهم نحو عدوّه. وصفّهم للقتال فجعل نيقانور على ميمنة عسكره من جهة الجبل، وبتلمايس على ميسرته من جهة البحر، وسار هو في قلب جيشه وكان بين الجيشين نهر يسمى بيناروس. وجعل دارا ميمنة جيشه على شاطئ البحر، وأقام ثمة أكثر الفرسان وميسرته نحو الجبل

وعبر النهر منها ثلاثون ألف فارس وعشرون ألف راجل ينوون الإيقاع بجيش اسكندر من الوراء. وأقام تسعين ألفاً في الوسط تسد معبر النهر على المكدونيين.

وأما اسكندر فسار بجيشه أولاً الهوينا لئلا يخل سلك صفوفه حتى إذا دنا من معسكر العدو أطلق العنان هو ومن معه، وأسرعوا اسراع الماء المنهمر من شاهق، آثرين ان يتلاحموا مع العدو على ان يتعرضوا لنباله. وانقضوا على الأعداء يجالدونهم بالسيوف وجهاً لوجه واسكندر في حومة الوغى يعمل سيفه كجندي ويأمر كقائد. وولى من بقي من هذه الفرقة مدبرين ولم يتيسّر لجميع المكدونيين لحاق الملك بهذه الكرة فاخترقت صفوفهم. فأمطر اليونان الذين استأجرهم دارا بنبالهم على من بقي من جيش اسكندر في عبر النهر. فوقع هناك صريعاً بتلمايس بن سلوقوس ومئة وعشرون رجلاً من أعيان مكدونية. وتلظت نار القتال إلى ان بددت ميمنة اسكندر من كانوا امامها وفاجأت اليونان المذكورين عن جانبهم فأوقعت فيهم ملحمة. وشُتت شمل الباقين ووثب فرسان الفرس الذين كانوا عبروا النهر على فرقة التساليين من جنود اسكندر وضايقوهم، ولكن لم يلبثوا ان رأوا جيشهم تبدد وذهب الفرس شذر مذر. فعاد الانكسار تاماً وظفر اسكندر بيناً فتهافت جيش دارا العرمرم على الفرار في تلك المضايق الوعرة فهلك منه جم غفير بأرجل الخيل خارجاً عن ساحة الحرب أيضاً، واما دارا فمذ رأى التواء ميسرة جنده عمد إلى النجاة بالفرار على مركبته. ولما بلغ الحزون في الجبل ترك برفيره وسلاحه، وامتطى جواداً ظل يعدو به إلى أن حجبه الظلام عن لحاق الظافر الذي أخذ مركبته. وكان عدد القتلى من الفرس نحو مئة ألف رجل على ما روى أريان، ومن المكدونيين ثلاث مئة راجل ومئة وخمسين فارساً. وكانت هذه الوقعة في الـ ٢٩ من تشرين الثاني سنة ٣٣٣ أو سنة ٣٣٢ ق م. على قول آخر، وقد رواها بلوترك في ترجمة اسكندر واريان وغيرهم.

وفي الغد زار اسكندر الجرحى غير مبالٍ بألم كان أصابه في فخذه وأمر بدفن القتلى بمعظم التكريم. وخطب مطرياً ما رآه أو سمعه عن بسالة هؤلاء الأبطال، وتوفرت جوائزه على من ظهرت شجاعته من جنوده. وحكى بعض المؤرخين أنه دخل خباء دارا فسمع بكاء نسوة في الخباء الآخر فقال ما البكاء ومن هذه النسوة؟ فقيل له إنهنَّ أم دارا والملكة وبنتاه وابنه وبعض نساء خواصه سمعن أنَّ برفير الملك وسلاحه بيد الظافر فلم يشككن في أنَّه قضى، فأخذنَ في البكاء، فأرسل يبشرهنَّ أنَّ دارا حي ويومنهنَّ قائلاً أنَّه لم يحارب دارا لبغضه له بل لينزع منه ملك آسيا.

وزارهن في الغد ولم يصحبه إلَّا أفاستيون أحد أعوانه المقربين إليه، فلم تعلم أم دارا أيّهما الملك، فخرّت أمام أفاستيون فنبهها من حوله إلى غلطها فخجلت، فجاملها اسكندر قائلاً لم تغلطي فهذا أيضاً اسكندر.

روى بلوترك رسالة لاسكندر يتبين منها أنَّه انقطع بعد ذلك عن زيارة أسرة دارا لئلا يطمح به ميله إلى حب الملكة، فقد كتب في هذه الرسالة إلى برمنيون ليعاقب بالموت بعض الجنود الذين اعتدوا على نساء أعدائهم ما ترجمته: « أما أنا فلا سبيل لأحد ليقول عليَّ إني نظرت أو أحببت أن أنظر إلى امرأة دارا، بل لم أحتمل البتة أنَّ أحداً يتكلَّم في جمالها بحضرتي». فليتأمَّل شبان عصرنا ويتَّعظوا.

عد ٣٩٣

أعمال اسكندر في سورية إلى حصار صور

زحف اسكندر بجيشه يؤم فينيقية وسورية فلم يلقَ معارضاً إلى أن انتهى إلى صور، فإنَّ انخذال دارا الذي كان يلي سورية وتشتيت شمل جيشه أوقع الرعب في قلوب الفينيقيين والسوريين. فدان أكثرهم له طائعين وبينما كان في مراثا المعروفة الآن بعمريت وردت إليه رسالة من دارا يسمي نفسه فيها ملكاً ولا يسمي اسكندر كذلك، ويطلب إليه أن يأخذ من المال ما شاء على شريطة أن يرد عليه أمَّه وامرأته وأولاده. وإنَّه إذا أراد فصل النزاع على الملك كان الفصل في وقعة حرب تستوي فيها جنود الفريقين عدداً وإن أصغى لرأيه فيشير عليه أن يكتفي بملك أجداده ويعرض عن ملك غيره. وإنَّه سيكون معه على اخاء ووداد، وهو مستعد أن يؤمنه ويقبل تأمينه له. فساءت هذه الرسالة اسكندر فكتب إليه ما يأتي: «من الملك اسكندر إلى دارا أنَّ دارا القديم الذي أخذت اسمه أنزل الوبال في اليونان المقيمين على شاطي الدردنيل وغيرهم من جالياتنا، ثم اجتاز البحر بعسكر جرار وأوقد نار الحرب علينا في مكدونية نفسها وفي سائر بلاد اليونان، وكيخسرو بعده أتانا بجيش عرمرم من البربر لينكّل بنا فكسر وذعر في حرب في البحر. لكن ترك خلفه مردنيوس في بلاد اليونان ينتهب في مدننا ويخرّب في قرانا وأرضنا، وكلٌّ يعلم أن أبي فيليبوس اغتاله من أغراهم عمالك برغائب كبيرة، فأنتم الفرس تثيرون حروباً ولا تفكّرون أظالمة هي أم عادلة، وبينما سلاحكم بأيديكم تغرون الأثمة باغتيال

أعدائكم فأنت نفسك وعدت عما قليل بألف وزنة من يقتلني وأنت محتفٌ بجيش عرمرم، فأنا إذاً أدافع عن نفسي ولست المعتدي ولذلك نصرني الآلهة وأخذت قسماً كبيراً من آسيا. وعليه فإذن لم يتوجّب لك عليَّ شيء مما تطلبه فإنْ حضرت إليَّ خاضعاً رددت عليك دون فدية أمك وامرأتك وأولادك. فأريد أن أثبت لك إني أعلم أن أظفر وأعلم أن أحلم على من ظفرت بهم، وإن خشيت أن تمثل بين يدي فعهدي لك إني ضامن لحياتك وإذا كتبت إليَّ مرة أخرى فاذكرنَّ أنّك لا تكتب إلى أي ملك كان بل إلى ملكك».

ولما بلغ الغازي جبيل خرج سكانها إلى لقائه خاضعين مرحبين به فامنهم وشكر لهم خضوعهم له. ولم نجد ذكراً لبيروت عند هذه الأحداث، فلم يكن لها يومئذٍ ما كان لصور من الأهمية. وقد مرَّ في عد ٣٦٩ أنَّ أرتحششتا أوكوس كان خرب صيدا قبل ثماني عشرة سنة وحرق جم منهم نفوسهم في بيوتهم كيلا يتحكّم الفرس فيهم، وبعد أن قفل أوكوس عائداً إلى فارس عاد إلى صيدا من نجا من أهلها وجدَّدوا بناء مدينتهم، وتأصّل فيهم مقت كل ما كان من فارس، فما سمعوا بأخبار قدوم الغازي إلَّا هبُّوا جميعاً رجالاً ونساءً إلى لقائه جبراً على ما جد به من الممانعة لهم ستراتون ملكهم الذي كان محازباً لدارا . فانتزع اسكندر الملك منه وأمر أفستيون نديمه أن يختار من الصيداويين من يراه أهلاً ليملّكه.

وكان افستيون حالاً في دار شابين أخوين من أوجه أهل البلد عُرفا بالفضل والذكاء. فعرض الملك عليهما فأبياه محتجين بأنَّ شريعة مملكتهم تمنع من لم يكن من النسل الملكي أن يرتقي منصَّة الملك. فعجب من ابائتهما ما يلتمسه غيرهما بالحديد والنار وقال لا تنفكا عن هذا العزم أنتما اللذان كانا أوَّل من أدرك أنَّ رفض الملك أشرف من الحصول عليه، ولكن أهدياني إلى رجل من النسل الملكي يذكر إذا صار ملكاً أنكما زينتما رأسه بالتاج. وذكر الأخوان أنَّ كثيرين ممَّن تولاهم الطمع وتعشقوا المجد سيتزلفون إلى أعوان اسكندر بغية الحصول على الملك، وهم غير أهل له فقالا لنديم الملك أنَّهما لا يجدان أولى بالملك من رجل اسمه عبدوليم هو من ذرية ملوكهم، لكنه فقير ألجأته حاجة معيشته أن يشتغل في بستان في ضواحي المدينة. فقال النديم استدعياه إليَّ ليملكه الملك، فمضوا إليه بالمطارف الملكية فوجداه مشتغلاً بقلع الأعشاب الخبيثة من البستان فحيياه تحية الملوك وقال أحدهما له إنزع عنك هذه الأثواب الأخلاق واتّشح بهذه المطارف، واحرس وأنت

فوق العرش على حفظ الفضيلة التي أوصلتك إليه. وإذا صار في يدك الموت والحيوة فلا تنسَ الحال التي كنت فيها والأولى أن يقال التي لأجلها اخترت للملك، أما هو فكان يحسب ذلك اضغاث أحلام، وقال أما تستحييان أن تسخرا مني وتزدرياني. وكابر على مخالفتهما فنفضا الغبار عنه وألقيا عليه البرفير وكررا الإيمان على صدق مقالهما. واستجراه إلى حضرة الملك وذاع الخبر فطرب له الأكثرون وامتعض منه الأغنياء وذوو المطامع، ولما مثل أمام اسكندر حدَّق به طويلاً ثم قال إنَّ هيئتك لا تخالف ما قيل عن أصلك وأروم أن أعلم بأي صبر تحمَّلت الفاقة؟ فقال قدرني الآلهة أن أتحمَّل هذا التاج كما تحملتها، فيداي كانتا تسدان حاجتي، وإذا كنت لا أملك شيئاً لم يعزني شيء. فأعجب جوابه اسكندر فدفع إليه كلَّ ما كان من الأثاث لستراتون سلفه وزاده أشياء مما غنمه من الفرس والحق بمملكته عملاً مجاوراً لها.

وكان اسكندر قد أرسل برمنيون إلى دمشق ليستحوذ على خزائن دارا التي أرسلها إليها كما مرَّ. ولما كان والي هذه المدينة قد يئس من نجاح دارا عمد إلى خيانته. فكتب إلى اسكندر أنَّه سيسلِّم إليه كل ما كان لدارا في دمشق من دراهم أو متاع أو آنية ثمينة، على أنه يروم أن يستر خيانته بتظاهره أنَّه يرسل هذه الأموال إلى دارا لعدم طاقته الاحتفاظ بها في دمشق. فيلتقي أعوان اسكندر حامليها فيغصبونها من أيديهم ففضَّ برمنيون الرسالة المنفذة إلى الملك واتَّفق مع الوالي على ما عزم عليه، وفي الغد سحراً حمل الوالي خزائن دارا وأرسلها مخفورة ببعض الجنود وهو يصحبهم، ولما رأى هولاء جنود برمنيون أظهروا أنّ الرعب أخذ فيهم كل مأخذ فتركوا تلك الخزائن وولوا مدبرين. وكان الوالي أوَّل الفارين وقد حوت من الذهب والفضة والآنية والحلى والحلل الثمينة ما يشذ عن العد والوصف، فضلاً عما كان لبعض أعيان الفرس الذين كانوا في دمشق، وخرجوا منها عند اخراج خزائن الملك فوقعوا في يد جنود اسكندر.

عد ٣٩٤
حصار اسكندر صور وفتحها

سار اسكندر بجيشه من صيدا إلى صور وكانت هذه المدينة ما برحت على

منعتها متوفرة السكان عظيمة الثروة منبسطة الصولة «يؤمها الناس من كلّ صقع للتجارة وقبل أن يبلغها اسكندر أرسل الصوريون إليه وفوداً وهدايا له ومرطبات لجنوده قائلين إنهم يحبون أن يتخذوا الغازي صديقاً لا مولى، فقال اسكندر للوفد إنه يريد أن يدخل مدينتهم ليقدّم ضحية لمعبودهم، فأنكروا عليه سؤاله وساءه إنكارهم. وصرّح بعزمه أن يحاصر مدينتهم فتأهبوا هم للدفاع وكان معظم أبنية صور في جزيرة تبعد عن اليابسة أربع غلوات ولها سور ارتفاعه مئة وخمسون قدماً. وكانت عمدة من القرطجنيين وقتئذٍ في صور أتوا على عادتهم يقدّمون التقادم لهرقل لأنهم جالية من الصوريين، فوعدوا أهل وطنهم القديم بإنجادهم إذا مسّت الحاجة. فزادهم ذلك إصراراً على المدافعة وملأوا أسوارهم وأبراجهم من أدوات حربهم، وسلّحوا شبانهم وطرق صناعهم أيدي من حديد يلقونها على العدو أو على أدواته فتجرها. وكان اسكندر يرى أنّ لا بدّ له من فتح صور ليتيسّر له فتح مصر ولئلا يجترئ دارا على تجديد المغالبة له. ويفسح مجالاً للصوريين ليضموا أسطولهم إلى أسطول الفرس ويستحوذ أعداؤه على مدن الشواطيء ويتصلوا إلى بلاد اليونان فينكلوا بها. وتفوته ثمرة انتصاره وتدور الدوائر عليه، فصمّم على حصار صور ولو حال دون الفتح أعظم الأهوال والمصاعب.

وكان الدنو من الجزيرة لمهاجمتها مستحيلاً إلّا أن يُوضع سدّ يوصلها باليابسة. وكان دون هذا الصنيع مصاعب لا يقوى على إزالتها، ومنها أنّ الدبور (الريح الغربية) تهبُّ عاصفة في البحر ثمة فيقلع التيار كل ما يكون ألقى في البحر. والأمواج تلطم المدينة من كلّ صوب فلا تمكّن من الدنو منها أو من وضع سلالم يتسلّق بها على أسوارها على أنّ بسالة اسكندر لا تثنيها مصاعب ولا عقبات. ومع هذا حاول أن يسترضي الأهلين فبعث منادين ينذرونهم بشرّ العاقبة ويستدعونهم إلى السلم والأمان فقتلهم الصوريون عن آخرهم.

فضاق ذرع اسكندر عن تحمُّل هذه الإهانة وأمر للحال بعمل السدّ. ووجد في أخربة صور القديمة (التي كانت على شاطئ البحر) من الحجارة ما يتكفل بردم البحر هناك، وفي لبنان ما يكفيه مؤونة الأخشاب اللازمة. وتولى اسكندر بنفسه النظارة على الردم فكان حضوره يحمل جنوده على العمل دون كلل ولا ملل، وهو خبير بكسب النفوس خبرته بفنون الحرب، فنجع مسعاهم أولاً لقربهم من البرّ وبعدهم عن المدينة، ولكن كانوا كلما تقدّموا في البحر إزدادت المصاعب لعمق

البحر ولرمي أهل المدينة لهم بالنبال من أعلى الأسوار؛ ولما لم يكن لهم معارض في البحر كانوا يتقدمون بزوارق إلى جانبَي السدّ يخرّبون ما بنى ويعيقون العملَة ويسخرون من المكدونيين قائلين ما أحسن أن نرى هؤلاء الغزاة الطائر صيتهم في العالم يقلّون الحجارة على ظهورهم كدواب الحمل. ولما ظهر السد فوق الماء كانوا يرسلون زوارق فيها رماة بالمقاليع والحراب فتحدق هذه الزوارق بالسدّ وتمطر على العملَة نبالاً وحجارةً فتدمي كثيراً من العملَة. ويضطرون أن ينكفوا عن العمل ليتفرغوا للدفاع عن أنفسهم إلى أن اهتدوا إلى نشر جلود وستائر تقيهم النبال وأقاموا برجَين من خشب في صدر السدّ لمنع العدو من الدنو منه.

وخرج بعض الصوريون إلى البر من حيث لا يراهم المكدونيون فوقعوا على ناقلي الحجارة فقطعوهم ارباً. ووجد بعض الجبليين شرذمة من عساكر اليونان أضلّت طريقها فقتلوا منهم ثلاثين وأسروا ثلاثين. فاضطرّ اسكندر أن يفرّق جنوده في مواقف عديدة صيانةً لهم، ولم يغفل المحاصرون حيلة في منع اسكندر من اتمام سدِّه، من ذلك أنهم أخذوا سفينة من سفائن التجارة وملأوها من الزرجون وغيره من المواد اليابسة الخفيفة، ووضعوا بينها كبريتاً وزفتاً وغيرهما من المواد السريعة الالتهاب، وأقاموا صاريَين علّقوا بكلٍّ منها مرجلاً كبيراً مملؤاً زيتاً، وأثقلوا مؤخر السفينة بحجارة ورمل ليرتفع مقدمها وتحيينوا مهبَّ ريح يلائم مأربهم وسيَّروا سفينتهم وحولها زوارق عديدة، ولما دنوا من السدّ أضرموا النار وقذفوا سفينتهم عليه فتسعَّرت النار. وكان الزيت ينصبُّ عليها من المراجل فتزداد تأججاً حتى أحرقت الأبراج وكلَّ من كان ثمة على السدّ. وكان أي الصوريون يرمون المكدونيين من الزوارق بالنبال والحجارة فقتلوا وأحرقوا منهم كثيرين. ورمى بعضهم نفوسهم بالماء لينجوا سابحين فتهافت الصوريون عليهم يضربونهم بالحجارة والعصي حتى كُسرت أو شُلّت أيديهم فأخذوهم أسرى. وخرج آخرون من المدينة بزوارق فخربوا في جانبَي السدّ واقتلعوا الأوتار وأحرقوا الأدوات.

فلم توهن هذه الخسائر والنوازل عزم اسكندر وأعاد ما تردَّم إلى حاله الأولى. وجدد جنوده آلاتهم وضاعفوا جدّهم وكدّهم حتى كاد السدّ يماس جدران المدينة بسرعة أدهشت الأعداء، ولكن ثارت ريحٌ عاصفة وتلاطمت الأمواج على السدّ تلاطماً عنيفاً فانحلَّت ربطه وتخلَّل الماء بين الحجارة فخرقت في وسطه وتداعى البناء من الجانبين وسقط في البحر. ولو كان المحاصر غير اسكندر لفشل وقنط لا

محالة وأضرب عن هذا الحصار. على أنه كان ذا قلبٍ تحسبه من حديد وذا عزيمة لا تثنيها الشامخات الرواسي، فلم ييأس وهمَّ بتعزيز قوته بوسيلة أخرى، وفكَّر أنَّ لا مطمع له في اتمام سدِّه أو فتح المدينة ما دام الصوريون يضبطون البحر عليه. فجمع ما كان باقياً له من السفن في صيدا، وأتاه إذ ذاك ملك ارواد وملك جبيل بسفاينهم وألحق بذلك سفن صيدا فكان جميعها ثمانين سفينة. ووافاه وقتئذٍ أيضاً عشر سفن من رودس وثلاث عشرة سفينة من غيرها من الجزر وبلغ ملوك قبرص انكسار دارا واستفحال أمر اسكندر فأتوا إليه ومعهم مئة وعشرون سفينة. وأتته نجدة من المورة أربعة آلاف مقاتل. فنزل اسكندر من صيدا في هذا الأسطول مصحوباً ببعض حرسه ميمماً صور فخاف الصوريون وجمعوا سفائنهم في مرافئهم خشية أن يتصل اسكندر إليها. وهو لما رأى ذلك لم يشأ أن يقتحم المرفأ الذي من جهة صيدا بل رمى أناجر أسطوله في جانب السدّ. وجدَّ عملته في اتمامه وكان الصوريون يفرغون جدهم بكفِّهم عن العمل، فلم يقووا على بسالة المكدونيين وتجلُّدهم إلى أن بلغ السدّ غايته. ونصب اسكندر عليه أدوات حصاره ومناجيقه، وأخذ جنوده يرمون المدينة بالحجارة والنبال والمواد المحرقة. وأرسل أسطول قبرص فضبط مدخل المدينة من جهة صيدا وأسطول فينيقية رسى تجاه مرفأها من جهة مصر. أما الصوريون فأقاموا أبراجاً رفيعة متينة فوق أسوارهم من جهة السدّ وطرحوا صخوراً ضخمة في البحر بجانب سائر أسوارهم تمنع الدنو منها. وكانوا يخرجون بزوارقهم فيقطعون حبال المراسي المعلَّقة بها سفن اسكندر. فأقام هو في البحر مترسة من السفن جعل في كلٍّ منها ثلاثين مجذافاً تحمي باقي السفن من سطو العدو. وربط سفنه الأخرى بسلاسل من حديد وعمد إلى آلات ترفع تلك الصخور من جانب الأسوار وتلقيها في البحر حيث لا ضررَّ منها، حتى تمكنت سفنه من مماسة الأسوار. وشدَّ القتال على المدينة من كلِّ صوب براً وبحراً وأمر جنوده أن يهجموا على المدينة نصف الليل من كلِّ جهة. فيئس الصوريون وأشكل عليهم ما يعملون وإلَّا عصفت ريح شديدة فحطمت بعض السفن وعرقلت باقيها عن العمل وأعاقت الفتح.

وبلغ وفود قرطاجنة إلى صور حينئذٍ ولم يكونوا إلَّا ثلاثين رجلاً فاعتذروا للصوريين عن القيام بوعدهم إياهم بنجدة لأنَّ السيراكوسيين أثاروا عليهم حرباً عواناً. فعوَّل الصوريون على أن يُرسلوا نساءهم وأطفالهم إلى قرطاجنة ليتفرغوا للدفاع. ووثبوا على حين غفلة على أسطول قبرص الذي كان يحرس المعقل من

جهة صيدا فغرقوا بعض سفنه وقذفوا بعضها إلى الشاطئ. فتداركهم اسكندر وغرّق بعض سفنهم واستنزلهم إلى حربٍ بحرية انتصر فيها عليهم وأخذ بعض سفنهم. وغرق بعضها ومنعته النبال دخول المعقل وأراح اسكندر جنوده يومين وعاد إلى القتال. وكان أشدَّ من كلٍّ ما تقدَّمه فاقتتل الفريقان كأنهم أسود وكانت الحرب أولاً سجالاً إلى أن فتحت مناجق اسكندر منفذاً في الأسوار تسلَّقت منه فرقة من الجنود يرأسها ادمت رجل من أشجع قادة المكدونيين وقد قُتل حينئذٍ. وصعد اسكندر إلى برج رفيع ملاصق أسوار المدينة وعرف الأعداء أنه الملك فكان هدفاً لأسهمهم وكان هذا من أعظم آيات بسالته. وقتل بنباله كثيرين من حامية السور ثم دنا منهم وكان يجندل بعضاً في أزقة المدينة أو في البحر بضربات سيفه وبعضهم بلكم مجنه. ثم عبر إلى أسوار المدينة وتبعه أعيان جنده واستحوذ على برجَين وفتحت المناجق منافذ أخرى. فدخل بعض المكدونيين وافتتح العسكر البحري المعقل وتولّى برجَين. فانكفأ الصوريون عن الأسوار وتألبوا في ساحة أجينور في وسط المدينة فتتبعهم اسكندر بفرقة حرسه فقتل بعضاً وهزم الباقين. فافتتحت المدينة وانتشر المكدونيون في شوارعها ففرَّ بعض الصوريين إلى الهياكل يستجيرون بالآلهة، وبعضهم دخلوا بيوتهم فأحرقوا نفوسهم فيها. وبعضهم كانوا يسطون على الجنود كيلا يبيعوا حياتهم بثمن بخس، وصعد بعضهم على السطوح يرمون كلَّ مارٍ بحجارة أو غيرها. فأمر اسكندر أن ينهبوا المدينة ويحرقوها ولا يستبقوا إلَّا من لجأوا إلى المعابد. وبعث منادين يذيعون أمره هذا في كل محل ومع هذا لم يلجأ إلى المعابد إلّا البنات والأحداث الذين بقوا في المدينة. وكان بعض رجال الحرب يقيمون على أبواب بيوتهم متوقعين فتك الجنود بهم. وكان الصيداويون دخلوا المدينة مع جنود اسكندر فأنجوا من الصوريون كثيرين لاتصال نسبهم بهم. فالصوريون جالية من صيدا فأنزلوهم في سفنهم وأرسلوهم إلى صيدا وكان عدد هؤلاء الناجين نحو خمسة عشر ألفاً، ومن هذا يتبيَّن وفرة عدد القتلى. فقد وُجد على الأسوار نفسها نحو من ستة آلاف قتيل، وبقي ألفا رجل كلَّ الجنود عن قتلهم. فعلَّقهم اسكندر على صلبان على طول الشاطئ وعفا عن القرطجنيين الذين كانوا أتوا صور على عادتهم لتقدمة الضحايا لهرقل. وقدَّم اسكندر الضحايا لهذا المعبود على عادته المستمرة أن يقدِّم الضحايا لآلهة كل بلاد وصلها. ودام حصار صور سبعة أشهر بدأ فيه

في شباط وافتتحت في آب سنة ٣٣٢ (ديودر الصقلي ك ١٧ اربان ك ٢ وبلوترك في ترجمة اسكندر).

وتمّت بذلك نبوّات الانبياء على صور. فقد تنبأ حزقيال (فصل ٦ و ٢٧) على تدمير بختنصر لها وقد ذكرنا ذلك في عد ١٢٧ فطالعه. ثم جُدد بناؤها وكثُر سكانها. وعادوا إلى خيلائهم وترفهم وفحشائهم ولم يتّعظوا بما أحلَّه الله بهم بواسطة عاهل الكلدان. فأتاح الله لهم هذا العقاب على يد اسكندر وقد كان اشعيا تنبأ بذلك في الفصل ال ٢٣ من نبوّته ومما قال: «ولولي يا سفن ترشيش (التي كانت صور ترسلها إلى اسبانيا) فقد دُمرت حتى ليس بيت ولا مدخل من أرض كتيم (وهي بلاد اليونان) أخبر بذلك. إندهشوا يا سكان الجزيرة التي كان تجّار صيدون وعابرو البحر يملأونها.. عند سماع مصر بالخبر يرتاعون عند سماعهم بخبر صور... من أتمر بذلك على صور التي تتوّج الملوك وتجارها أمراء ومتكسبوها كرام الأرض. ربُّ الجنود هو أتمر بذلك ليذلَّ كلَّ فخر... وقال لا تعودين تفتخرين أيتها المتهتكة العذراء بنت صيدون قومي إلى كتيم اعبري هناك أيضاً لا راحة لك». ويذكرها النبي بمثال بابل التي عظمت أكثر منها ومع ذلك دمرها الرب فقد قال: ها هي هذه أرض الكلدانيين قد أقاموا بروجهم دمروا قصورها فجُعلت خراباً. وفي ذلك اليوم تنسى صور سبعين سنة (المراد المدة التي تبقى فيها صور خربة بعد تدمير اسكندر لها وبعد السبعين سنة يكون لصور مثل أغنية الزانية خذي الكنارة وطوفي في المدينة أيتها الزانية المنسية ... وبعد السبعين سنة يفتقد الرب صور فتعود إلى مؤاجرتها فتزني مع جميع الممالك المسكونة (أي أنَّ صور تعود مأهولة بعد السبعين سنة وترجع إلى تجارتها وعثوها في الأرض إلى أن يأتي المخلّص فتؤمن به) وتصير تجارتها ومؤاجرتها قدساً لرب».

فقد آمن أهلها بالمسيح منذ صدر النصرانية، وقال النبي زكريا (فصل ٩ عد ٣ وما يليه): «قد بنت صور حصناً لها وكثرت الفضة كالتراب والذهب كطين الشوارع هوذا السيد يمتلكها ويضرب في البحر قوّتها فتوكل بالنار فترى اشغلون فتخاف وغزه فتتوجّع جداً». وإذ كان اسكندر متشاغلاً بفتح صور وردت إليه رسالة أخرى من دارا يسميه فيها ملكاً ويقدّم له عشرة آلاف وزنة (قدَّرها رولان بثلاثين مليون فرنك) فدية للأميرات المسبيات. ويعده أن يزُّف إليه ابنته ساتيرا لتكون زوجة له ويترك له ما فتحه من البلاد إلى الفرات. وذكَّره بأنَّ الحظ لا يثبت

على حال، وألمع إلى وفرة الجيوش التي ما زالت في حوزته، وأن لا يحسب عبور الفرات ودجلة أمراً يسيراً. فعقد اسكندر لجنة مشورته فقال: برمنيون لو كنتُ اسكندر لقبلتُ هذه التقدمة فقال له اسكندر: أنا أيضاً لو كنتُ برمنيون لقبلتها. وكتب إلى دارا ما خلاصته: «إنَّ لا حاجة له إلى مال دارا وإنه لم يكن يُحسن به أن يقدِّم ما خرج عن حوزته وأن يطلب قسمة ما قد أضاعه وإنه إن كان يجهل أيهما والي البلاد فليستوضح ذلك بوقعة ولا يطمع بأن يريع بأنهره من عبر بحوراً عديدة وإنه سيتبع آثاره إلى حيث يفرّ» فلما بلغ دارا هذا الجواب يئس من الوفاق بينهما وأخذ يستعدُّ للقتال.

عد ٣٩٥

ذهاب اسكندر إلى أورشليم

إنَّ انكباب الصوريين على التجارة أغفلهم الزراعة فكانوا يشترون مؤنهم من الجليل والسامرة واليهودية، ولما حاصر اسكندر صور ألجئ أن يستجلب أزودة جيشه من هذه المحال. وبعث إليها شراذم من جنوده تخضع أهلها وتكرههم على تقدمة النفقات فأبى اليهود الامتثال قائلين إنهم أقسموا يمين الأمانة لدارا فلا يسعهم أن يخلفوها ما دام حياً. أما السامريون فانقادوا لأمره ولبّوا دعوته وزادوا على ذلك أنهم أرسلوا ثمانية آلاف رجل لإنجاد جنوده في حصار صور. فاستشاط الملك على اليهود وعزم أن يجزيهم شرَّ الجزاء. وروى يوسيفوس في تاريخ اليهود(ك ١١ ف ٨) ما مرَّ وقال إنَّ يدوع عظيم الأحبار حينئذٍ علم حنق اسكندر على اليهود فلجأ إلى الله وفرض على الشعب صلوات وقدَّم ضحايا وظهر الله له في الحلم، وأمره أن يفتح أبواب المدينة، ويزيِّن شوارعها بالزهور والرياحين، وأن يخرج للقاء اسكندر هو وسائر الكهنة بملابسهم الحبرية البيضاء. وأن لا يخشوا هذا الغازي لأنه يكون لهم نصيراً. فقصَّ يدوع على الشعب الحلم الذي رآه، ولما أقبل الغازي خرج هو وسائر الكهنة والشعب إلى لقائه بمعظم الاحتفاء. وكان من انضمَّ إلى جيش اسكندر من الفينيقيين وغيرهم يحسبون الملك يبيحهم نهب أورشليم، ويفتك بعظيم الأحبار جزاءً لعصيان اليهود أوامره. فكان العكس، لأنَّ الغازي لما رأى هذا الجمّ الغفير وفي مقدمته رئيس الأحبار وعلى رأسه التاج وعصابة من ذهب كُتب عليها اسم الله.

ويحفه الكهنة بملابسهم البيضاء تقدَّم اسكندر وحده وسجد للاسم الكريم وحيًّا عظيم الكهنة قبل أن يحييه أحد. فاجتمع اليهود حينئذٍ حول اسكندر، وجأروا إلى الله بالدعاء ليوليه كلَّ توفيق، فتعجَّب ملوك سورية وأعوان الملك أجمع من صنيعه. وقال له برمينيون كيف تسجد لحبر اليهود أنت الذي يسجد لك العالم كلّه؟ فأجابه اسكندر لم أسجد للحبر بل للإِله الذي هو خادمه. لأني لما كنت في مكدونية أفتكر بأية ذريعة أتوسل لفتح آسيا ظهر لي في الحلم متشحاً بمثل هذه الملابس. وأمرني أن لا أخاف وأن أعبر الدردنيل ووثقني بأنه يحرس جيشي ويُكسبني مملكة الفرس. ثم عانق الغازي عظيم الأحبار وسار توّاً إلى الهيكل، حيث قدَّم الذبائح، كما كان يرشده عظيم الأحبار الذي أطلعه على نبوّات دانيال المؤذنة بأنَّ ملكاً يونانياً يقرض مملكة الفرس. وحقَّق له أنه هو الملك الذي جاءت النبوَّة به. فطُرب اسكندر لذلك كثيراً وجمع في الغد رئيس الأحبار والشعب، وأمرهم أن يسألوه ما شاءوا لينعم عليهم به. فسأله يدوع أن يطلق لشعبه أن يعيشوا بحسب شرائع آبائهم، وأن يعفيهم من الجزية سنة في كل سبع سنين لأنهم لا يستثمرون أراضيهم فيها. فأجاز لهم ذلك ثم أوصاه الحبر باليهود المتوطنين في بابل ومادي ليطلق لهم أيضاً أن يعيشوا بحسب شرائعهم. فأطلق لهم ذلك وقال إذا شاء بعضهم أن يتجندوا في جيشي فأبيحهم أن يحفظوا دينهم ويعملوا بعاداتهم فدخل في جنديته كثير منهم.

وسار اسكندر من أورشليم ميمماً غيرها من المدن المجاورة لها ففتحت له أبوابها. وطلب إليه السامريون أن يحلّ في مدينتهم وأن يشرِّف هيكلهم في غريزيم كما صنع لهيكل أورشليم فقال إنه سيمضي إلى هناك عند عودته، وسألوه أن يعفيهم من الخراج في السنة السابعة. فسألهم من أية أمَّة أنتم؟ قالوا: عبرانيون. فقال: أيهود أنتم؟ قالوا: لا. فقال: لا أعفي من ذلك إلَّا اليهود. ومع هذا سوف أنظر في الأمر عند عودتي فإذا وقفت على الحقيقة أمرت بما رأيته عادلاً، وصرفهم وقال لجنودهم أن يتبعوه إلى مصر فيعطيهم أرضاً. وكذلك نراه صنع بعداً فإنه أقامهم حرساً في الصعيد. انتهى ما رواه يوسيفوس. قال الأب فيكورو (في معجم الكتاب في كلمة اسكندر) إنَّ رواية يوسيفوس هذه لم ترد في الأسفار المنزلة ولا في التواريخ العالمية، ولكن تؤيدها التقليدات اليهودية والسامرية. وذكر كثيرون من العلماء والمؤرخين الذين أيَّدوها إلى أن قال: «مهما يكن من الأحداث التي ذكرها

يوسيفوس مفصَّلة فمما لا ريب فيه أنَّ الغازي أدخل بعض اليهود في جنديته. وروى ذلك هيكاتا، وأورد يوسيفوس قوله في رده أبيون (ك ٢ فصل ٢٢) ولا ريب أيضاً في أنه كان في الاسكندرية التي بناها اسكندر جمٌّ غفير من اليهود. ولا أقلّ من أن نقول أنَّ الرعاية والرفق اللذين أبداهما خلفاء اسكندر الأولون لليهود ليسا إلّا نتيجة سياسة اسكندر ومتابعة خلفائه له بهما. قلنا وقد قال كثيرون من مؤرخي العرب إنَّ اسكندر أكرم اليهود ومنهم أبو الفدا، فإنه قال (في مجلد ١ صفحة ٤٧) «ومرَّ اسكندر في طريقه على بيت المقدس وأكرم بني إسرائيل».

عد ٣٩٦
فتح اسكندر غزة

قد انتهى اسكندر في مسيره إلى غزه فلقي فيها حرساً غفيراً يتأمر عليهم باتيس أحد خصيان دارا. وكان كمياً أميناً لمولاه وقد ذب عن مدينته مبدياً آيات البسالة. فلم يتسنَّ لاسكندر فتحها إلّا بعد مضي شهرين على حصارها العنيف. وقد أصاب اسكندر وقتئذٍ جرحان، وحملته ثورة حنقه على أن يعامل باتيس وجنده وأهل مدينته بقسوة عظيمة لا معذرة له فيها. فأبسل بحدِّ السيف ألفَي رجل وباع البقية ونساءهم وصغارهم، ولما أتوه بباتيس مأخوذاً في حومة الوغى ومضرجاً بدماء جراحه، لم يقدِّر شجاعته حقَّ قدرها. ولم يلطف به بل انتهره قائلاً أنت لا تموت كما تتمنى فتهيأ لتحمل برحاء العذاب الذي يخترعه الثائر، فنظر باتيس إلى اسكندر نظرة مزدرٍ ولم يفه بكلمة، فازداد حنق الملك لصمته وقال هاكم هذه الجسارة فهل حنى ركبته أو برزت من فمه كلمة مؤذنة بالخضوع؟ لأذيقنَّه مرَّ العذاب على هذا الصمت المهين، وإذا لم أستنطق فمه بكلمة فأستنطقه بالزفرات وتنفس الصعداء. ويظهر أنه كان كلما علا شأنه ساءت أخلاقه لأنه ثقب عقبه بين العرقوب والعظم. وأدخل فيه حبلاً شدَّه إلى عجلة وجرَّه حول المدينة حتى قضى. وكان يتفاخر بأنه اقتدى باشيل الذي هو من سلالته إذ صنع مثل ذلك بجثة هوكتور مجرراً لها حول أسوار ترويا كما ذكر اوميروس.

وقد أرسل اسكندر أكثر ما غنمه في غزة إلى اولمبيا أمه وقلوبطرة أخته وإلى بعض أصحابه. وأهدى إلى لاونيداس حاكم مكدونية خمس مئة قنطار (القنطار مئة

ليبرا) من البخور وخمس مئة قنطار من المرّ متذكراً أمراً كان وقع له في حداثته مع لاونيداس، وهو أنَّ هذا الحاكم رأى اسكندر يوماً عند تقدمة الذبائح يأخذ من البخور ملء راحتيه ويلقيه في النار فقال له إذا فتحت البلاد التي تستجلب هذه الطيوب منها فيكون لك أن تبذر ما شئت منها، وأما الآن فاحرص على ما يوجد منها فكتب له اسكندر حينئذٍ: «إني مرسل إليك شيئاً كثيراً من البخور والمرّ كيلا تضن بشيء على الآلهة». وترك اسكندر حامية في غزه وزحف بجيشه إلى مصر.

عد ٣٩٧

استسلام مصر إلى اسكندر وبنائه الاسكندرية

بلغ اسكندر في اليوم السابع من سفره من غزه إلى بالوس وهي المسماة اليوم فرما أو طينة (طالع عد ١٠٠). وكان مقت المصريين للفرس شديداً لما أنزلوه بهم من التنكيد والضيق والاحتقار لآلهتم أيضاً. وكانوا يهوون خلع نير ولايتهم أياً كان المالك بعدهم. ولذا لما ظهرت طلائع جيش اسكندر في تخومهم أسرع جمٌّ غفير منهم لملاقاته مجاهرين بالطاعة لسلطانه. فسار بهم إلى منف عاصمة مصر يومئذٍ. ولما رأى مازاي واليها من قبل دارا أنَّ لا وسيلة له للمدافعة ولا رجاء بأنَّ مولاه ينجده فتح أبواب العاصمة للغازي، واستسلم إليه ودفع إليه ثماني مئة وزنة. وهي عبارة عن أربعة ملايين وأربع مئة ألف فرنك فكانت مصر غنيمة باردة لم يلقَ فيها مقاوماً.

وهمَّ اسكندر أن يمضي من منف ليزور هيكل يوبيتر (المشتري) عمون الكائن في صحارى افريقيا على مسافة اثنتي عشرة مرحلة من منف، وهذا المعبود يسميه اليونان ذأوس المشتري؛ والمصريون عمون إلى أن تغلَّب عليه الاسمان أي المشتري وعمون. وكان قدماء المصريين أنشأوا له هذا الهيكل وبجّلوه وأغنوه بتقادمهم ونذورهم. وكان غرض اسكندر في هذه الزيارة استرضاء المصريين. وقد قرأ في كتب اوميروس وغيرها أنَّ أكثر الأبطال القدماء كانوا يتباهون بأنهم ابناء أحد الآلهة ـ ومن أقوال أرسطو أستاذه: «إنَّ الملك السامي الذكاء إله بين البشر». فأحب أن يتفاخر بهذا النسب تعظيماً له في أعين مسوديه في وادي النيل وعلي شاطئ الفرات ودجلة، إذ كان كلٌّ من ملوك هؤلاء يدعى أنه ابن أحد الآلهة. وعليه

فأرسل يرتئبي كهنة هذا الهيكل لينوّلوه بغيته، وسار معرضاً نفسه وجنوده لأخطار ومهالك في تلك الصحارى الجرداء المحرقة لا تلويه عن عزمه نصائح خلاّنه ولا مشورات قوّاده إلى أن انتهى إلى هذا الهيكل. فحقق له أقدم كهنته أنه ابن المشتري وأنَّ الإلٰه نفسه يسميه بهذا الاسم فتقبَّل هذا الاسم بالمسرّة وأقرّ بأنَّ المشتري أبوه. وسأل الكاهن هل كان المشتري أبوه قد قيّد له الاستيلاء على العالم كلّه فأجابه أنه سيملك البسيطة كلّها. ولا ينفك ظافراً إلى أن يُحصى في مصاف الآلهة، فقدَّم اسكندر ضحاياه وتقادمه النفيسة لهذا الهيكل وطفق منذ حينئذٍ يكتب في رسائله وأوامره: «اسكندر الملك ابن المشتري عمون».

وقد كان عند مروره في ساحل البحر تجاه جزيرة فاروس شاهد محلاً يصلح لأن تكون فيه مدينة كبرى فخطط أسسها وعيَّن فيها محال الهياكل والساحات. ووكّل بناءها إلى ديفوكرات المهندس الذي اشتهر بتجديد بناء هيكل ديانا في أفسس بعد احتراقه وسماها باسمه اسكندرية. وبعد عوده من هيكل المشتري تعهَّد مبانيها واستأتى إليها سكاناً من كلِّ قطرٍ ميسّراً لهم الاقامة والاتجار فيها. واستدعى إليها كثيراً من اليهود مبيحاً إياهم أن يدينوا بدينهم ويعملوا بشريعتهم وجعلهم إسوة المكدونيين الذين أقامهم فيها. وأنشأ فيها لكلِّ أمّةٍ هيكلاً تعبد فيه آلهتها ولم ينقضِ زمان إلّا وأصبحت أعظم مدن المشرق لموقعها على ساحل البحر المتوسط. وقربها من مصبّ النيل والبحر الأحمر وصارت محطة للتجارة بين المغرب والمشرق وخلفت صور في عظمة تجارتها. ومضى اسكندر منها إلى منف يقضي ما بقي من فصل الشتاء وأقام على مصر واليّين وطنيّين لإدارة المهام المدنية. وعهد بقيادة الجنود الذين تركهم فيها إلى قادة مكدونيين خشية الانقلاب عليه.

عد ٣٩٨

عود اسكندر من مصر لمحاربة دارا ووقعة اربيل

قد سُرَّ اسكندر بأخبار كُتبت إليه منبئة بعود ساقس وكوس ولسبوس من جزر اليونان إلى الاتحاد مع المكدونيين، وإنه لم يبقَ أسطول للفرس في بحر الروم إلّا وامسى في حوزة الغازي، فاطمأنَّ إلى أنه لم يعد في الجانب الغربي من المملكة من مناوئ أو معارض له، وأنه حان الحين لملاحقة دارا وقرض ملكه والاستيلاء على

الجانب الشرقي من مملكة الفرس. فنهض بجيشه من مصر إلى صور وأقام فيها الملاعب وقفاها بالذبائح للآلهة. وكان قبل سفره إلى مصر ولّى أندروماك على سورية فأتي يوماً السامرة لإصلاح بعض الشؤون، فثار عليه السامريون وأحرقوه في البيت الذي دخله ربما ذلك لأنَّ اسكندر ضنَّ عليهم بما جادبه على اليهود. فحنق اسكندر عليهم وأمات كلَّ من اشترك في هذه الفعلة القبيحة. وطرد الباقين من السامرة وأقام مكانهم جاليةً من المكدونيين ووهب بعض أرضهم لليهود. وعرض حينئذٍ أن أدركت الوفاة ملكة دارا فعظم الاحتفاء بدفنها وبالغ في تعزية آلها. وفرَّ أحد خصيانها إلى دارا فأعلمه بموتها وبما أبداه اسكندر من الحفاوة بدفنها فتأسى ولكن خامره ريب في عفافها من قبل الملك الشاب، فخلا بالخصي وسأله مستحلفاً إياه بإيمان معظمة عما إذا كانت الملكة لم تضع شرفها قبل حياتها. فقصَّ الخصي على دارا ما حمله على العجب من أدب اسكندر وعفَّته. فرفع يديه إلى السماء مبتهلاً إلى الآلهة أن يحفظوا مملكته، وإذا قيَّضوا ثلّ عرشه فلا يجلس غير اسكندر على عرش كورش.

وقد سار اسكندر بجيشه من صور مجتازاً في سهول البقاع وبعلبك وحمص وتدمر وانتهى إلى تبسك على الفرات. فعبر هذا النهر على جسر وتطرّق إلى دجلة فتيسّر له عبوره لقلّة مائه إذ كان ذلك في أواخر شهر أيلول ومن حسن طالعه أنَّ الجنود الذين أرسلهم دارا لضبط معابر النهر عليه أبطأ قدومهم فلم يتداركوه. وأقام اسكندر بجيشه يومين على عدوة النهر اراحةً لجنده وطلب دارا الصلح مرتين فلم يجبه اسكندر إليه. وأرسل إليه أخيراً عشرة رجال من أخصّ أقربائه يشكر له حسن معاملته ويعرض عليه شرائط أخرى للصلح أفضل من الأولى. فأجابهم اسكندر: «قولوا لمولاكم لا محلَّ للشكر بين قومٍ تعمدوا الحرب وإذا كنت عاملت آله بالرقة واللطف فلم أصنع ذلك حباً به بل حباً بنفسي، فلا أروم الانتقام من الأسرى والنساء بل ممن حملت أيديهم السلاح، ومن حيث أنه لم ينفكّ يغري جنودي ويحضهم على خيانتي وقتلي، فقد عزمت على لحاقه والتنكيل به لا بمنزلة عدو محارب بل بمنزلة مغتال وسام، وأنّى يصالحني على ما ملكت يدي فإن اكتفى بأن يكون الثاني بعدي لا سوياً لي ربما سمعت له. وأنبئوه أنَّ العالم لا يتحمَّل شمسين ولا موليين، وعليه فليختر إما الاذعان اليوم أو الحرب غداً، ولا يؤملنَّ اليوم حظاً أحسن من حظه

في ما مضى»، فخطاب دارا مشعر بضعفه وجواب اسكندر مؤذن بخيلائه وصلفه.

وزحف اسكندر بجيشه نحو معسكر دارا فأقبل عليه مساءً. فأشار عليه برمينيون أن يباغت العدو ليلاً فأجابه على مسمع الجند لا يليق باسكندر أن يسترق الظفر. وخشي دارا المفاجأة له فقضى جيشه ليلهم وسلاحهم بأيديهم أما اسكندر فأرق في أول ليله ثم استغرق في نومه حتى عجب جنوده. وأتاه برمينيون يوقظه ويبدي له عجبه من رقاده مطمئناً في يوم هائل فاصل حظ العالم. فأجابه: لِمَ لا أنام مطمئناً؟ والعدو مقبل مستسلم إلينا». ثم أخذ سلاحه وامتطى جواده وجال بين صفوف جيشه وبشّر وجهه يبشّر بالظفر وأخذ يحضّ جنده أن يحافظوا على مجدٍ كسبوه. ويزيدوا عليه فخراً تخلّده لهم الأيام. وكان بين عداد الجيشين بون كبير فكان جيش دارا لا أقلّ من ست مئة ألف راجل وأربعين ألف فارس. وقال بعض المؤرخين أنه كان ينوف على مليون من الرجال. وأما جيش اسكندر فكان أربعين ألف راجل وسبعة أو ثمانية آلاف فارس. ولكن كان في جيش دارا كثير من السوقة وغير المدربين وجنود اسكندر كلهم من الكماة المحنكين.

وقد تسعرت نار الحرب في الثاني من شهر تشرين الأول سنة ٣٣١ ق.م وكان اسكندر في ميمنة جيشه وبرمينيون في ميسرته واتخذ دارا موقفاً تجاه اسكندر. وكانت الحرب أولاً سجالاً وكان للفرس عجلات يشدّون إليها مجازّ أطلقوها على جيش المكدونيين، فأمطر هؤلاء النبال وأكثروا من قعقعة السلاح حتى ندت الخيل وعادت على الفرس فأضرّت بهم أكثر من ضرّها بأعدائهم. وأمر اسكندر قائد فرسانه أن يقتحم فرسان الفرس فوثب عليهم وخرق صفوفهم. فأتبعه اسكندر محفوفاً بفرسانه وأصبح في وسط الأعداء واشتد الطعان وكان دارا في مركبته، واسكندر على جواده فعاجل حامل سلاح دارا بضربة صرعه بها، وظنّ الفرس والمكدونيون أنَّ دارا قُتل. وفرّ أقاربه الذين كانوا على يسراه ولكن تداركه من كانوا على يمناه وجعلوه في وسطهم وخجل من الهزيمة فاستمرّ بين أمل ويأس. وعاودت النخوة بعض جنوده فاشتدَّ القتال بل أصبح مذبحة وعراكاً إلى أن تغلّب المكدونيون ففرّ دارا وتتبّع اسكندر آثاره. وانجلى الظفر في الميمنة وأما في الميسرة التي كان يقودها برمينيون فتفاقم الخطر لأنَّ شرذمة من فرسان الفرس والهنود اخترقوا صفوف الفرسان المكدونيين واتصلوا إلى محل الأسرى فتسلّح هؤلاء كلٌّ بما وصلت يده إليه. وانضموا إلى فرسان الأعداء وتهافتوا على المكدونيين الذين أمسى

القتال عليهم من أمامهم وورائهم. وأرسل برمينيون يُعلم اسكندر بما حلَّ به من الخطر فهبَّ راجعاً عن لحاق دارا لينجد مسيرته. فالتقى بفرسان الأعداء وقد انتهبوا ما كان في المعسكر فاشتدَّ العراك بين الطرفين فقُتل من حرس اسكندر نحو من ستين فارساً لكنه استظهر على أعدائه. ودروا أنَّ دارا انهزم وجنوده ولّوا الإدبار فتشتت شملهم ولحقوا برفقائهم وتتبَّع برمينيون أثرهم فاتكاً بهم ثم عاد اسكندر وبرمينيون من ملاحقة دارا إلى اربيل فوجداه زايلها تاركاً خزائنه وسلاحه. فانقرضت بهذه الحرب دولة الفرس. وقال اريان إنه قُتل بهذه الحرب نحو من الفرس من ثلاث مئة ألف رجل. وقال غيره: إنَّ عدد القتلى مئة وثلاثون ألفاً. وقال بعضهم تسعون ألفاً وغيرهم أربعون. وأما جيش اسكندر فقُتل منه ألف ومئتا رجل أكثرهم من الفرسان على ما قال اريان المذكور. وقد وُجدت في ايطاليا صفيحة تُعرف الآن بصفيحة كيجي مُثلت فيها إمرأتان تحمل كلٌّ منهما بيدها دائرة صوَّرت فيها حرب فرسان، وتُريق باليد الأخرى دم ضحية على مذبح زين بصور. فالامرأتان كناية عن اوروبا وآسيا وحرب الفرسان عبارة عن وقعة اربيل وتدل عليها الخطوط المنقوشة تحت الدائرة والدائرة نفسها مشعرة بأنها تقدمة تقدمها أوروبا وآسيا في أحد الهياكل اجلالاً لاسكندر لأنه خط على أعلاها وأسفلها ما بين مولد اسكندر ومجده المخلَّد.

عد ٣٩٩

استحواذ اسكندر على بابل وشوشن وغيرهما وقتل دارا

إننا نوجز الكلام في هذه الأحداث لخروجها عن دائرة غرضنا تاريخ سورية. ولم يكن بدٌّ من ذكر شيء تعميماً للفائدة ورعايةً لمساق التاريخ، فنقول إنَّ اسكندر بعد وقعة اربيل اقبل على هذه المدينة واحرز الغنائم الوفيرة التي تركها دارا فيها من فضة وذهب وأسلحة وحلل وحلى ولم يطل المكث ثمة خوف الوباء الذي فشا فيها لفساد الهواء بجثث القتلى. وتطرّق إلى عدوة دجلة ولما دنا من بابل خرج للقائه مازاي واليها بأبنائه الكبار مسلّماً المدينة إليه. وخف الكهنة والحكام والأعيان والشعب لاستقباله حاملين التقادم. وقدَّم اسكندر الضحايا لبال (بعل) وأمر بتجديد هيكله وغيره من الهياكل التي كان كيخسرو دمَّرها وجاد بما وجده في هذه المدينة

على فرسانه وجنوده. ونصب الولاة على الأعمال التي أخضعها وسار بجنوده نحو المشرق فانتهى بعد مسيرة عشرين يوماً إلى سوس (شوشن الكتاب عاصمة ملوك الفرس في الشتاء). فأرسل واليها أبوليت ابنه للقائه واعداً بتسليم المدينة إليه. فدخلها بمعظم الحفاوة ووجد في خزائنها ما قدَّره بعضهم بمئتين وخمسة وسبعين مليوناً من الفرنكات. وأتته في هذه المدينة نجدة من رجال مكدونية وتراسة والمورة خمسة عشر ألف رجل عاضوه عمن تركهم حامية في المدن التي استولى عليها وولّى أرشيلاوس على شوشن ونصب ابوليت حاكماً في اقليم شوشن كلّه.

ومما يُذكر له فيُشكر أنه بينما كان في شوشن أرسل إليه من مكدونية شيء من أنسجة البرفير والحلل الثمينة فأهداها إلى سيسكمبيس والدة دارا مع من يحسن صنع مثلهما. وقال إذا راقك هذا النسيج فعلّمي بنات ابنك أن ينسجنَ على هذا المنوال ترويحاً للنفس. فساء هذا الكلام الأميرة وهطلت عيناها بالدموع لأنَّ الفرس كانوا يحسبون أشغال النساء بنسيج الصوف من أقبح العار. ودرى اسكندر سبب استيائها فعاد إليها وقال: «أترين أمي هذه الحلل التي أنا متشحٌ بها فهي هدية من أخواتي بل هي من عمل أيديهنَّ أيضاً. فأسألك أن توقني أنَّ عادة بلادي خدعتني فلا تحسبنَّ جهلي تعمداً لإهانتكِ وأظنني لم أقصِّر بشيء مما علمته من عادات قومكم. فقد علمت أنَّ الابن لا يجلس بحضرة أمه دون إذنها وترين أني ما جلست أبداً أمامكِ إلّا بأمركِ ولا أزيدكِ علماً بأنكِ كلما اردتِ أن تخرّي لي مانعتكِ من ذلك. وحسبكِ شاهداً على اجلالي لكِ أني دعوتكِ أبداً أمي ولا يحق هذا الاسم إلّا لأولمبيا التي ولدتني». فحبذا أن يستفيد من هذا المقال أبناؤنا الاجلال لوالديهم وبناتنا الانكباب على الأعمال اليدوية وكبراؤنا الاحترام لمن ساواهم أو كان دونهم.

قد ترك اسكندر آل دارا في شوشن وزحف بجيشه يؤمّ برسابوليس (المسماة اليوم استيكار على قول دورى وشهل مناراي الأربعين عموداً على ما في الأعلام الكتابية) وهي عاصمة ملك الفرس. وكان الطريق إليها عسر المسلك تحول دونها فيافي لا ماء فيها وجبال وعرة ومضايق حرجة لقى اسكندر منها الأمرّين. فقد قطع اديوبرزان الفارسي الطريق عليه في مضيق حفت به الجبال من الجانبين، وأخذ رجاله يلقون الصخور منها على اسكندر وجنوده حتى كاد يستحيل عليه العبور، لولا أنْ يهديه اسير يوناني طريقاً سار بها إلى أعلى الجبل ببعض شجعان، فاستحكم على

العدى من خلفهم وأمامهم فهزمهم، وقبل أن يصل إلى برسابوليس التقاه نحو ثماني مئة، وفي رواية أربعة آلاف رجل من اليونان كان الفرس أسروهم وشوّهوهم بقطع أيدٍ وأرجل، وصلم آذان وجدع أنوف. فاغرورقت عينا اسكندر بالدموع فأمّنهم وطيّب قلوبهم ووعدهم أن يقضوا على ما بقي من حياتهم بين أهلهم في أوطانهم. ودخل اسكندر المدينة وقد فرَّ كلٌّ من أهلها إلى حيث ساقه خوفه. فانتهب الجنود ما كان فيها وقتلوا من وجدوا فنهاهم اسكندر عن القتل وهتك حرمة النساء. وقيل أنه أحرق قصور الملوك، وقال بعضهم إنه أحرق المدينة والأرجح أنه لم يحرق شيئاً بل استحوذ على الأموال التي جمعها الفرس إليها. ووجد في خزائنها ما عدَّله بعضهم بست مئة وستين مليوناً من الفرنكات عدا الأسلحة والحلل وغيرها.

وبعد أن دانت لاسكندر عواصم الفرس سار يتعقّب دارا فبلغ اكتار التي يسميها الكتاب احمتا وهي همذان. وكان دارا بارحها قبل ثمانية أيام وقيل بخمسة أيام فترك غنائم حربه فيها يحرسها برمينيون. وجدَّ في لحاقه فقطع في أحد عشر يوماً أربع مئة وثمانين كيلو متراً، وبلغ إلى راجس على مقربة من طهران فاتصل به أنّ دارا جاوز أبواب بحر الخزر، وبينما هو يئس من ادراكه أقبل عليه خادمان له يبشران أن بان باسس والي بقطريانا (اقليم في توركستان كان يتصل جنوباً بالهند). قد قبض على دارا وغلله ومضى به في طريق خراسان فهبَّ للحاقه وسار ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ متتالية، وفي اليوم الرابع ركب وخمس مئة رجل من خيار جنوده ما بقي سالماً من خيلهم فأدركوا باسس رفقاءه فانهزموا من أمام اسكندر. ولما لم يطاوعهم دارا على المسير وعجز باسس عن نقله فقتله فوجد اسكندر دارا ولكن صريعاً مخضباً بدمائه فعظم الاحتفاء بمأتمه وحنَّط جثته وسيَّرها بكل اجلال إلى والدته لتدفنها على عادة ملوك الفرس في مدافن أسلافه وكان مقتل دارا سنة ٣٣٠ في شهر تموز.

وهمّ اسكندر بادراك باسس الذي عاد إلى بقطريانا وسمي نفسه ملكاً فيها، وبعد مشاق عنيفة انتهى اسكندر إلى بلاده وأخضعها له، وسُلم باسس إليه فجلده في المعسكر على مرأى جنوده، ودفعه إلى أقرباء دارا ليثأروا منه بدمه، وكان ذلك سنة ٣٢٩. ثم توغل اسكندر في البلاد من كل وجهة فلم يترك في آسيا إلى أبواب الهند اقليماً أو عملاً إلّا أخضعه ولا شاكي سلاح إلّا إذلّه ولا قلعة حصينة إلّا افتتحها أو فتحت أبوابها له. ومن الأحداث المهمة في هذه الأثناء ان فيلاتاس

ابن برمينيون علم بمكيدة على الملك فكتم سرها ثلاثة أيام وأفشاه غيره، فهذا الكتمان وفرط كلمات من فم فيلاتاس على الملك ورسالة ملتبسة من والده أوقعت على فيلاتاس شبهة الخيانة فشكاه اسكندر إلى الجنود، فعذبوه وانطقه الألم بشيء ولم يتمكن من تبرئة ساحته في كتمان السر، فرجمه الجنود فمات واتبعوا به كثيراً من اصدقائه من علية الجند، وكان ابوه باقياً في همذان يحرس الخزائن وخيف ان يحدث ثورة، فارسل إليه اسكندر رسولاً على الهجين ومعه كتاب مزور باسم ابنه. وبينما كان يتبصر به اغتاله الرسول فقضى هذا الليث المغوار. ومنها ان اسكندر عند فتحه قلعة بخارى وجد اسرة رجل فارسي له ابنة اسمها ركسان بديعة الجمال، وكان من دأبه ان يجمع في المدن التي يليها بين اليونان والوطنيين بالزواج والسكنى فشاء ان يؤيد ذلك بمثاله فتزوج بركسان فسر أبوها واستسلم إليه وتبعه سائر القوم.

عد ٤٠٠

غزوة اسكندر الهند وعوده منها

بينما اسكندر في جهة بخارى وفد عليه وفد من قبل أومفيس ملك أحد أعمال الهند يستنجده على ملك في جواره يسمى باروس. ويعده بفتح أبواب الهند وكان الهوس قد تولى اسكندر بفتح الأمصار وقهر الملوك وإذلاله لهم، فترك وكان الهوس قد تولى اسكندر بفتح الأمصار وإذلاله لهم، فترك عشرة آلاف راجل وثلاثة آلاف وخمس مئة فارس، لضبط البلاد التي اخضعها أخيراً. وسار بمئة وعشرين ألف رجل وخمسة عشر ألف فارس وفي ربيع سنة ٣٢٦ق.م عبر نهر الهندوس وسار مع أومفيس الذي استنجده لمحاربة باروس، فانتصر عليه وأسره بعد وقعة هائلة. وأمعن في البلاد محارباً غانماً حتى بلغ نهر هيفاس فتوقف هناك لا لكلال في قوته أو فتور في عزيمته بل لأن جنوده أنهكتهم المشاق، وهالتهم العواصف والأمطار مدة سبعين يوماً متتالية، ولم يبقَ عليهم من الملابس ما يستر أجسامهم. فأخذوا يتألبون زمراً زمراً ويتذمرون فاستدعى اسكندر رؤساءهم وقال: «إننا على مقربة من نهر الكنج والبحر المحيط الشرقي الذي يتصل بالمحيط الهندي ويكتنف البسيطة كلها، ويتيسر لنا أن نتصل من خليج العجم إلى أعمدة هرقل أي بوغاز جبل طارق. ونخضع افريقيا كما أخضعنا آسيا فنجعل تخوم العالم تخوم ملكنا».

إلى أن قال: «لو إني كنت لا أقاسمكم المشاق والأخطار لكان لكم وجه في جبانتكم وساغ لكم أن تشكوا من أن فريقاً يتحمل المتاعب وفريقاً ينعم بالجزاء. ولكن الأخطار والمشاق سواء بيننا والجزا عند نهاية الخطة. فهذه البلاد لكم وهذه الخزائن خزائنكم. فقد أخضعنا آسيا وأرى أن نتمم خطتنا وأنولكم فوق ما تأملون، فمن شاء منكم أن يعود إلى وطنه فأنا بنفسي أصحبه إليه، ومن شاء أن يبقى في مكان آخر غمرته بمواهب لا تقدر». فلم يفه أحد منهم ببنت شفة فقال: « من لا يصوب هذا المقال فليتكلّم فظلوا صامتين. وأخيراً كشف شانوس أحد قدماء القادة عن رغبة جميعهم في استعطافه ليتركهم يعودون إلى مكدونية وهناك يجد الملك شباناً يطعمون بالمجد والفخار. ويودون أن يخلفوا الجنود القدماء». وصوب جميعهم هذا الكلام فاستاء اسكندر واعتزل ثم جمع الرؤساء في الغد وقال: «لا أكره أحداً على أن يتبعني فملككم لا ينكف عن مسيره ويجد جنوداً أمناء، ومن شاء الانصراف فلينصرف أمضوا فقولوا لليونان: إنكم تركتم ملككم». ومضى فاحتجب في خبائه ثلاثة أيام آملاً أن يغيرّ أحد أعوانه أفكار جنده فخاب متمناه، فاستدعى حينئذٍ بعض المقربين إليه وقال إمضوا فبشروا الجنود بالعود.

فضج الجنود ضجيج المسّرة والابتهاج عند تلقي هذا الخبر وتسارعوا إلى خباء اسكندر يشكرون له على رفقه بنفسه وبهم فاستقبلهم بهشاشة وبشاشة. وترك لباروس ما كان أخذه منه واصطلحه على خصمه اومفيس ولم يُقم ولاة أجنبيين في الهند على ما ملك فيها كما صنع في غيرها، بل ترك الحكام الوطنيين يلون أمورهم مشترطاً عليهم الأمانة في محالفاتهم له وأن يدفعوا له جزية ما سنوية. وأخذ في المسير قاصداً بابل وخشية ملل القارئ نضرب عن تفصيل ما قاساه وجنوده في هذا السفر الشاق الطويل، ونقتصر منه على ما ألمّ به في مدينة أوكسيدراك فإنَّ سكّان هذا الصقع تألبوا عليه والتقوه بجيش لا ينقص عن ثمانين ألف راجل وعشرة آلاف فارس وتسع مئة مركبة، فاستظهر اسكندر عليهم وتتبعهم إلى مدينتهم اوكسيدراك، وحاصرها وأمر بوضع السلالم على أسوارها ورأى الجند لا يسرعون بذلك فانتزع سلماً من أحدهم وتسلَّق به إلى أعلى السور وتبعه قائدان، فتسارع الجنود إلى لحاقه خيفة عليه، فانحطمت السلالم وبقي الملك وحده ولا منجد له، وأمسى هدفاً لأسهم العدى من الأبراج والأسوار. وأعمته الجسارة فوثب إلى ساحة المدينة وهي غاصة بالأعداء، فبلغ الأرض منتصباً على قدميه وسيفه بيده. فقتل من كان الأقرب

إليه وارتاع الباقون ودنا منه رئيس الأعداء طامعاً أن يقتله فعاجله اسكندر بضربة ألقاه بها صريعاً، ووجد جذع شجرة أسند ظهره إليه وكان يرد السهام بترسه فلم يجسر أحد أن يقترب إليه، بل صوَّب هندي سهماً إليه خرق درعه وأصابه فوق القرحقة (رأس الورك) اليمنى. فسال كثير من دمه وبلغ حينئذٍ القائدان اللذان لحقا به وبعض الجنود فتعجلوا الذب عنه، وتمكنوا من فتح باب في أسوار المدينة فدخلها جنود اسكندر وحُمل هو إلى خبائه ضنيكاً منهوكاً يخشى موته من جرحه. فقلق ذووه سبعة أيام إلى أن منَّ الله عليه بالعافية وواصل سيره إلى شوشن وكان وصوله إليها سنة ٣٢٤.

عد ٤٠١
أعمال اسكندر بعد عودته ووفاته

استدعى اسكندر بعد بلوغه شوشن بعض الولاة الذين أساءوا المسعى في غيابه، فقتل بعضهم وعزل بعضهم. ورأى الاتّحاد بين المكدونيين والفرس لم ينجح فصرف همته إلى تمكينه، وكان تزوج ركسان الفارسية فتزوج ابنة دارا المسماة برسين، على ما روى أريان، أو ستاتيرا على ما روى بلوترك. وزوّج أفستيون نديمه باختها دريباتيس وجلّة قادته، ببنات أشراف الفرس. فعقد في يوم واحد ثمانين زواجاً ليوثق عروة علاقة قادته وكلّف الجنود أن يقتدوا به واعداً بصلات وافرة من تزوج بامرأة آسياوية، فتقدَّم لذلك عشرة آلاف جندي فكان مشهد عزَّ له النظير. ورام اسكندر أن يعزز الاتّحاد بأن يضم جنوداً وطنيين إلى جنوده. وأرسل له الولاة ثلاثين ألف شاب فسلحهم وعلمهم النظام العسكري كالمكدونيين، فانكاد هولاء وحسدوا أولئك. وتناسوا فضل ملكهم الذي كان عما قليل قام كرماً بوفاء دينهم، وقد بلغ عشرين ألف وزنة (لا تقل عن مئة مليون فرنك). وتذمَّروا وطلبوا الانصراف إلى أوطانهم فحنق اسكندر ونزل عن منصته وتبعه حرسه، فسعى إلى من كانوا أكثر تعنتاً بين القوم وألقى القبض عليهم وأمر بتسليمهم للعذاب، ثم رقى عرشه وخطب فيهم مذكراً لهم ما صاروا إليه من المجد والفخر، وقال اذهبوا فقولوا لليونان أنّكم تركتم اسكندر فالجئ أن يثق بالبربر الذين قهرهم واعتزل في خبائه يومين لا يكلّم أحداً.

وفي اليوم الثالث استدعى روساء الجنود وسامهم أن يجمعوا عسكراً من الفرس وحدهم، ودرى ذلك المكدونيين فأسرعوا إلى خبائه يستميحونه الصفح والعفو وأن يريهم طلعته. ولما رأى تذللهم وبكاهم رقَّ لهم ومزج دموعه بدموعهم وقال أنتم أسرتي ولا اسميكم بغير هذا الاسم وصنع لهم مأدبة جمع فيها تسعة آلاف منهم وأطلق عشرة آلاف ليعودوا إلى أوطانهم. وفي فصل الربيع سنة ٣٢٣ ق.م أتى إلى بابل فوجد وفوداً من جميع أصقاع العالم المعروف يومئذٍ ينتظرونه هناك من قرطاجنة والحبشة وليبيا ومن أصقاع أوربا. وقال أريان إنَّه لم يجد أثراً لوفد من قبل الرومانيين ولعلهم كانوا يومئذٍ في شاغل عما كان في بابل. وكانت نفس اسكندر أمَّارة بفتح بلاد أخرى كالعربية وممالك افريقيا وأوربا. وكانت الراحة تتعبه حتى قال فيه بعضهم لو ملك العالم بأسره لفتش عن عالم آخر يملكه ليروي غليل مخيلته ويبرد إوار مطامعه. وأشغل نفسه ببعض إصلاحات داخلية إلى أن يتيسر له الزحف على أحد هذه الأقاليم، ومن هذه الإصلاحات احتفاره مرفأ في بابل يجمع فيه مياه النهر ليسع ألف سفينة، وإزالة الأسوار التي كان أقامها ملوك الفرس في دجلة منعاً لسير السفن فيه، ثم عنايته بتجديد بناء السد الذي كانت تُضبط فيه مياه الفرات، وقد ثغر وطغا النهر فغرق كثيراً من الأرضين وكان أكبر همه أن يجدِّد هيكل بال الذي كان كيخسرو دمره ويزيده عظمة على ما كان عليه، وقد أشغل فيه عشرة آلاف من جنوده شهرين ولكن أدركته المنية قبل اتمامه.

فإنَّ هذا الملك لسروره بانتصاراته ونجاته بيسالته من المخاطر التي حفت به أكثر من المآرب منهوماً بالمآكل والمشارب حتى كان يضيع رشده أحياناً. فأصابته حمى لازمته عشرة أيام وفي اليوم الحادي عشر شعر بدنو المنون منه. فانتزع خاتمه من يده ودفعه إلى برديكاس وأمره أن ينقل جثته إلى هيكل عمون في مصر. وسأله أحد كبار أعوانه قائلاً: «لمن مولاي الملك من بعدك؟ فقال: لارشدكم». وقضى نحبه في الحادي والعشرين من نيسان سنة ٣٢٣ ق م. على ما روى فيكتور دوري. وعن رولان أنَّ الاكتشافات الحديثة أثبتت أنَّ وفاة هذا الغازي كانت في صيف ٣٢٤ ق.م وقال كونيتوس كرس (ك١٢ فصل ١٣) أن الغازي مات مسمماً وإنَّ بعض كبراء دولته أصحاب هذه الدسيسة أشاعوا أنَّه قضى لافراطه في شرب الخمر ليخفوا جناياتهم الفظيعة. ولكن قال بلوترك (في ترجمة اسكندر) وأريان (في تاريخه) إنَّه لم يكن عند وفاة اسكندر مظنة لأحد بالسم ولم يظهر عليه شيء من

أعراضه في حياته ولا بعد مماته. والصحيح أنَّ السمَّ الذي أماته إنَّما هو المسكر كما أمات ويميت كثيرين غيره. ولما نُشر نعيه عمَّت الكآبة والغم والبكاء دون فارق، بين يوناني وفارسي أو غيرهما في جميع أنحاء مملكته الفسيحة. وكان حزنهم لموته يذكرهم حسناته وصفاته الحسنة وينسيهم سيئاته ونقائصه. وبلغ النعي والدة دارا فكان وقعه عليها أشد من وقع خبر موت دارا فإنَّها قضت فور سماعها هذا الخبر. وإليك مثال رأس هذا البطل مأخوذاً عن تمثال رخام محفوظ في متحف فلورنسا في إيطاليا (دورى مجلَّد ٣ صفحة ٣١٣).



قال ابن الأثير في الكامل ولما مات اسكندر أطاف به من معه من الحكماء اليونانيين والفرس وغيرهم... فقال كبيرهم ليتكلَّم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزياً وللعامة واعظاً. ووضع يده على التابوت وقال: «أصبح آسر الأسراء أسيراً» وتلاه غيره من الحكماء لشذرات نذكر بعضها لا لتيقننا صحة وقوعها بل لما حوته من الحكم والفكاهة. قال أحدهم من أعجب العجب أنَّ القوي قد غُلِب

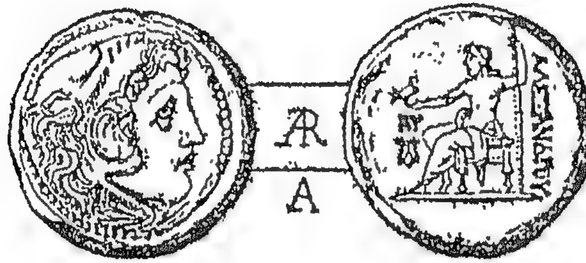
والضعفاء لاهون مغترون. وقال آخر قد كنت لنا واعظاً فما وعظنا موعظة أبلغ من وفاتك . فمن كان له معقول فليعقل. وقال آخر رُبَّ حريص على سكوتك إذ لا تسكت هو اليوم حريص على كلامك إذ لا تتكلَّم. وقال آخر كم أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت. وقال آخر وكان صاحب كتب الحكمة قد كنتَ تأمرني أن لا أبعد عنك فاليوم لا أقدر على الدنو منك. وقال آخر من ضاقت عليه الأرض طولاً وعرضاً ليت شعري كيف حالك بما احتوى عليك منها؟ وقال آخر أنظروا إلى حُلم النائم كيف انقضى وظلَّ الغمام كيف انجلى. وقال آخر إنَّ دنيا يكون هذا في آخرها فالزهد أولى أن يكون في أوَّلها. وقالت أمُّه حين بلغها خبر موته: لئن فقدت من ابني امره لم يفقد من قلبي ذكره.

وعامة المؤرخين تسميه ذا القرنين كناية عن القوة والبطش. ولكن قال أبو الفدا في التاريخ: «قد استفاض على ألسنة الناس أنَّ لقب اسكندر المذكور ذو القرنين وهو أيضاً غلط فإنَّ لفظه ذو عربية محض وذو القرنين (المذكور في القرآن) من ألقاب العرب ملوك اليمن... وذو القرنين الصعب بن الرائش... ابن سبا».

أما جثة اسكندر فحُنطت ووُضِعت في تابوت ثمين ولم يتيسَّر نقلها إلى مصر إلَّا بعد سنتين من قبل الاختلاف الذي جرى بين أعوانه كما سترى. وإلى أن تكاملت عدد هذا النقل من تمهيد الطرق وصنع المركبة البديعة النفيسة التي نقل بها، وصَحب نعشه ألوف من الجنود. والتقاه بتولمايس مصحوباً بمواكب الجند إلى سورية، ولم يتسنَّ له أخذه إلى هيكل المشتري عمون كما كانت وصيَّته وأحلَّ نعشه أوَّلاً في منف ثم نقله إلى الاسكندرية. وأقام له هيكلاً عظيماً وقال لاون الافريقي (الذي كان في القرن الخامس عشر كتاب ٨ صفحة ٦٧٧) إنَّ مدفن اسكندر كان باقياً إلى أيامه في الاسكندرية، لكنه يريد بذلك تابوتاً من حجر وكان في الاسكندرية في أحد الجوامع منقوشاً بالخطوط الهيروكليفية بصناعة بديعة وهو الآن في المتحف البريطاني. وكان الاسكندريون يعتبرونه تابوت اسكندر باني مدينتهم لكن منشأ ذلك تقليد لا شاهد صدق له. والمعلوم الآن من الخطوط المنقوشة عليه أنَّه تابوت أميرتاي أحد ملوك الدولة الثامنة والعشرين في مصر وكان حاكماً فيها في نحو سنة ٤٠٠ ق م.

وقد كان دانيال تنبأ على اسكندر ومملكة اليونان مشيراً إلى ذلك (في ف ٢

عد ٣٢ و ٣٩) بأنَّ بطن التمثال الذي رآه بختنصر من نحاس كناية عن مملكته وشبهه (في ف ٧ عد ٦) بنمر له أربعة أجنحة ثم بتيس معز له قرنٌ عجيب كسر قرني الكبش (ف ٨ ع ١٥) ثم قال فيه (ف ١١ عد ٣): «ويقوم ملك جبار يتسلط سلطاناً عظيماً ويفعل كيف شاء ومتى قام (وفي رواية متى قبض عليه) تنكسر مملكته وتنقسم إلى أربع رياح السماء ولا تكون لعقبه». وقد وصفه صاحب سفر المكابيين الأول (ف ١) وصفاً مجملاً مبيناً انه أوقع بدارا واثار حروباً كثيرة. وفتح حصوناً متعددة وقتل ملوك الأرض واجتاز إلى أقاصي الأرض وسلب غنائم جمهور من الأمم فسكتت الأرض. ودونك مثالاً لسكة اسكندر الكبير ترى في الوجه الأول منها صورته ملتفاً رأسه بقطعة من جلد أسد وفي الوجه الثاني صورة المشتري جالساً على كرسي وعلى يمناه نسر وبيسراه صولجانه وقد كُتب وراءه كلمة اسكندرس.



إنَّ كل ما رويناه من تاريخ هذا الغازي مأخوذ عن اريان وقد وُلد نحو سنة ١٠٥ ق.م في كتابه غزوات اسكندر وعن بلوترك الفيلسوف اليوناني وقد ولد في نحو ٤٨ ق.م في كتابه تراجم المشاهير لا سيّما ترجمة اسكندر. ثم ديودر الصقلي وقد ولد في القرن الأول قبل المسيح في كتابه الموسوم بالمكتبة التاريخية وكانت أربعين كتاباً والباقي منها ١٥ كتاباً. ويوستينوس قد ولد في مبادي القرن الثاني في كتاب تاريخه. ثم كوينتوس كرس ويظن انه كان في القرن الأول للمسيح في كتابه تاريخ اسكندر وغيرهم وقد اعتمدنا في ذلك رواية رولان في تاريخ الفرس واليونان وفيكتور دروي في تاريخ بلاد اليونان

الفصل الثاني

انقسام ملك اسكندر وخلفاؤه الأولون في سورية

عد ٤٠٢

ما كان من كبراء دولة اسكندر بعد وفاته

جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١ عد ٦ وما يليه) بعد ما أوردناه آنفاً: «وبعد ذلك انطرح (اسكندر) على فراشه واحس من نفسه بالموت. فدعا عبيده الكبراء الذين نشأوا معه منذ الصبا فقسم مملكته بينهم في حياته، وكان ملك اسكندر اثنتي عشرة سنة ومات. فتملك عبيده كل واحد في مكانه ولبس كلّ منهم التاج بعد وفاته». قد أكثر الملحدون من التنديد بقول الكتاب ان اسكندر قسم في حياته مملكته بين كبراء دولته مستمسكين بان هذا التقسيم في حياة اسكندر لا أثر له في كتب المؤرخين القدماء. وبأن أحدهم كوينتوس كورس قال (في الكتاب ١٠ فصل ٥) ظن بعضهم ان أقاليم المملكة قسمت بحسب وصية اسكندر. وعلى ما وجدنا أنّ هذا الخبر المستفاض على ألسنة الناس لا صحة له وان ذكره بعض المؤرخين». على اننا لا نرى وجهاً لإيثار شهادة مؤرخ لاتيني على شهادة كاتب شرقي أقدم منه لم يأتِ بذكر وصيّته، بل أنّ المؤرخ اللاتيني صرح أنّ هذا الخبر مستفاض على الألسنة. وذكره بعض المؤرخين وقد حقق هربولت (في المكتبة الشرقية صفحة ٣١٨)، وموسى خوران (في تاريخ الأرمن مجلد ٢ صفحة ١١)، ويوحنا ملالاس (في تاريخه صفحة ١٩٥) إنّ التقليد بتقسيم اسكندر ملكه على أعوانه مستفاض كثيراً في المشرق.

هذا وأنّ الروايات القديمة يخالف بعضها بعضاً في موت اسكندر وفي تعيين من يخلفه، فروى أريان وكينتوس كورس إنّه جعل الخلافة للأرشد منهم. وروى

ديودر الصقلي ويوستينوس إنّه دفع خاتمه لبرديكاس، ففي هذا الخلاف لا يحق لأحدٍ أن يدّعي بأن كاتب سفر المكابيين لم يورد الصحيح فضلاً عن أنَّ هذا الكاتب لم يقل إنَّ اسكندر قسم ملكه على أعوانه ورقاهم المقام الملكي. بل صرح بالعكس إنَّه لم يلبّس أحد منهم التاج أي لم يملك إلّا بعد وفاته. وعليه فيمكن أن يكون تحرير معنى الآية أنَّ اسكندر نصّب على كلٍ من الأقاليم واحداً من أعوانه ليتولاه باسمه (فيكورو في الموجز الكتابي عد ٥٦٣). أما المؤرخون القدماء المشار إليهم فرووا أنَّ كبراء دولة اسكندر اجتمعوا بعد موته يتداولون في من يخلفه في الملك. وإنَّ برديكاس دخل عليهم وبيده خاتم الملك فوضعه على العرش المنصوب في ردهة الاجتماع. وكانت ركسان الملكة حبلى في الشهر الثامن فقال يلزم ان نختار رئيساً يمتثلْ الجميع أمره إلى ان تلد ركسان. وكان يأمل اصابة الانتخابات له فخالفه نيارك (صهر برسين زوج أختها). وكانت برسين زوجة اسكندر الأخرى ولدت ابناً فقال إنَّ الخليفة ولد وهو هرقل ابن برسين وخالفها بتلمايس فقال ليس من شيمة المكدونيين ان يخضعوا لابن برسين أو ابن ركسان بل الأُولى ترك العرش فارغاً. وان يعهد بولايته إلى من كانوا من أصحاب مشورة الملك فحسن كلامه في أعين كبراء الدولة. واستاء منه الجنود فلم يعولوا عليه بل ثبت بينهم ان يعهد في تدبير المملكة إلى برديكاس وإلى ليوناس في آسيا، وإلى انتباتر وكراتر في أوروبا إلى ان تلد ركسان ابناً. وكان ملياكر عدواً لبرديكاس فأثار عليه الجنود الرجّالة غيرة من الفرسان الذين كانوا يحازبون برديكاس، وزين لهم اختيار أريداي أخا اسكندر لأبيه لخلو عروقه من الدم البربري. فاختاروه على عدم كفايته وخمول ذكره واتوا به إلى ردهة الاجتماع، فأبى كبراء الدولة قبوله فهددهم الجنود واجلسوه على العرش، فانتشب القتال بين الفريقين وجرح بعض. وحال بعض الكبراء بين المتعاركين وخاف برديكاس فخرج من بابل وتبعه الفرسان، على ان تعاظم الخطر دعاهم للائتلاف. فعاد برديكاس والفرسان إلى بابل، وقر رأيهم أن يشاطر اريداي بن ركسان (ان ولدت ذكراً) الملك. وان انتيباتر يتسلط في أوروبا. وكراتر يدبر الأمور بأمر اريداي. وبرديكاس يكون في منزلة الوزير الأول وملياكر نائباً له ولم يمر زمن إلّا وقتل برديكاس ملياكر.

ثم ولدت ركسان ابناً سمّوه اسكندر. وأقروا له بالملك مع اريداي، ولم يكن لكليهما إلّا اسم ملك لأنَّ الأول طفل والثاني غير كُفءٍ. وكانت الولاية لكبراء

الدولة وقادة الجند واقتسموا أقاليم المملكة بينهم. فكان ليسيماك في تراسة وما جاورها. وانتيباتر وكواتر في مكدونية وبلاد اليونان. وبتلمايس في مصر وما فتحه اسكندر في افريقية. ولاوميدون في سورية وفينيقية، وغيرهم في غيرها من الأقاليم والأعمال. وتركوا في أكثر آسيا الشمالية الولاة الذين أقامهم اسكندر. وكان سلوقوس بن انطيوكس رئيساً على الفرسان المتحدين، وكسندر بن انتيباتر رئيساً على فرق الحرس، ولم يتخذ برديكاس ولاية اقليم بل اتخذ قيادة الجيش في آسيا، والوصاية على الملكين، والسلطان المطلق بحجة خاتم اسكندر الذي استمر في يده.

على أنَّ هذا التقسيم كان منبعاً لمنازعات وحروب هائلة لأنَّ كلاً من هؤلاء الولاة كان يدعي الاستقلال ويريد أن يحرز السلطة السامية على الآخرين. على أنهم حرمة لاسكندر لم يسمِ أحد نفسه ملكاً في حياة أخيه وابنيه اللذين ملكوهما. وقتلت ركسان ضرَّتها ساتيرا امرأة اسكندر الأخيرة بنت دارا وأختها دريباتيس أرملة افستيون. وتحالف برديكاس واومان والي الكبادرك على محاربة بتلمايس والي مصر. وكراتر وانتيباتر واليّ مكدونية، وانتيكون والي بمغيليا وفريجيا، وأتى برديكاس إلى مصر ماراً بدمشق لمحاربة بتلمايس. فقتله بعض جنده غيلةً في مصر بعد أن انتصر بتلمايس عليه سنة ٣٢١ ق.م، فأقيم انتيباتر مكانه في تدبير الملك، وأقام على الجيش الآسياوي انتيكون حليفه وأمره بلحاق اومان حليف برديكاس. وكانت بينهما حربٌ هائلة انتهت بأن قبض انتيكون على اومان وسجنه ثم قتله سنة ٣١٥ ق.م، فاندكَّ ركن قوى للأسرة الملكية على أنَّ انتيباتر أدركته الوفاة سنة ٣١٣ ق.م ولما احتضر أوصى أن يخلفه بوليسبركون في تدبير الملك والولاية على مكدونية موثراً له على ابنه كسندر حباً بخير المملكة. وجعل ابنه ثانياً له فاستدعى بوليسبركون اولمبيا أم اسكندر الكبير فاستحوذت عليه. وأصبحت قطب مدار الأعمال فقتلت سنة ٢١٧ ق.م اريداي الملك بعد أن ملك اسماً ست سنين وأربعة أشهر. وأتبعت به امرأته وأحد ابناء انتيباتر ومئة رجل من أصدقاء كسندر بن انتيباتر الذي أخذ الوجاهة على بوليسبركون. فهبَّ كسندر من المورة إلى مكدونية ليثأر من اولمبيا، فتحصنت في قلعة مع ركسان والملك ابنها آملة أن يدفع عنها بوليسبركون مدبر الملك، فخاب أملها لأنَّ الجنود انحازوا إلى كسندر. فدافعت إلى أن ألجأها الجوع والمرض في حرسها أن تستسلم. فوعدها كسندر أن يبقى على حياتها، وهيَّج أهل من قتلتهم للدعوى عليها، وأرسل يقول لها سراً أن تفرّ بحراً

قاصداً تغريقها. فقالت إنها تؤثر أن تحاكم فأنفذ مئتي جندي ليقتلوها فلبست ملابسها الملكية واتكأت على نديمتين لها فهابها الجنود. ولم يُمدد أحدٌ إليها يداً فأنفذ إليها كسندر أهل من قتلتهم فقتلوها سنة ٣١٦ ق.م. وكان كسندر يرغب في أن يقتل ركسان وابنها الملك فلم يتهيأ له ذلك يومئذٍ وتزوج بتسالونيس أخت اسكندر الكبير رغبةً في اكثار محازبيه ومريديه ليكون خليفة لاسكندر.

فاستفحل أمر كسندر في مكدونية وبلاد اليونان، واشتدَّت شوكة انتيكون في آسيا وفرَّ سلوقوس والي بابل من وجهه إلى بتلمايس في مصر. وكان اسكندر الملقَّب باكوس وأمه ركسان كاسيرين في مكدونية. فسوَّلت نفس انتيكون له أن يكون خلفاً لاسكندر الكبير، وأن يخضع بلاد اليونان أيضاً محتجاً بأن ينتصر لابن اسكندر. فنهض لمقاومته بتلمايس والي مصر وكسندر والي مكدونية وليسيماك والي تراسة. وأراد انتيكون أن يفصل بينهم فأخذ يصطنع سفناً في صيدا وجبيل وطرابلس وفي صقلية ورودس. وزحف بجيشه إلى صور فحاصرها مقاوماً بتلمايس وحالف الأثوليين (قبيلة من بلاد اليونان) لمناصبة كسندر، وأرسل إليها اسكندر بن بوليسبركون مدبر الملك قبلاً ومعه ألف وزنة ليستأجر جنوداً بها، ويُغري اليونان على خلع كسندر لقتله أم ملكهم وأسره ابنه وأمه ويعدهم بالحرية. وقام ليسيماك بإنجاده عدواً له وانتشبت الحرب سنة ٣١٥ ق.م فلم ينجح انتيكون هذه السنة بل انكسرت جنوده في حرب بحرية، وأخذ بتلمايس منه جزيرة قبرص. وكذلك استظهر كسندر على أحلافه في بلاد اليونان وعلى اسكندر بن بوليسبركون. وفي سنة ٣١٤ ق.م حاز انتيكون بعض الظفر وافتتح صور بعد حصارها خمسة عشر شهراً. وفي سنة ٣١٣ ق.م كانت لهم حروب أيضاً في بلاد اليونان وتراسة وآسيا الصغرى، ولم تأتِ بعاقبة فاصلة. ولكن في سنة ٣١٢ ق.م عهد انتيكون إلى ابنه ديمتريوس أن يمنع المصريين عن الدخول إلى سورية. فكسر بتلمايس وسلوقس جيشه عند غزة وتقهقر ديمتريوس إلى أشدود. ثم قام منها إلى طرابلس وأسرع سلوقس بالعود إلى ولايته في بابل. وسمع انتيكون بانكسار جيش ابنه عند غزة فهبَّ لنجدته بعسكر كبير فلم يجسر بتلمايس أن ينازله بل عاد إلى مصر. واستمرت سورية بحوزة انتيكون ولم يكن من هذه الوقائع مدة أربع سنين ما يفصل الخلاف. وكسب انتيكون الولاية على سورية المجوفة واليهودية وفينيقية، وحفظ أملاكه وتعب الفريقان فرميا السلاح، وعقدا عهدة سنة ٣١١ ق.م من شرائطها أن يبقى حكم

مكدونية لكسندر إلى أن يبلغ اسكندر اكوس ابن اسكندر الكبير رشده. وأن يستمر انتيكون على ولاية آسيا الصغرى وسورية، وليسيماك على تراسة، وبتلمايس على مصر وما يليها مع قبرص ورودس. وأما سلوقوس فلم يؤتَ بذكره لأنه كان يظن أنه منهزم مع أنه كان قد عاد إلى بابل وقبله أهلها بمعظم الاحتفاء. وتألَّب إليه عدد غفير فانتصر على أعوان انتيكون، واستفحل أمره في بابل وسائر الولايات التي في شرقي الفرات. ومن سنة عوده إلى بابل التي هي سنة ٣١١ ق.م يبتدي تاريخ السلوقيين الذي يسميه بعضهم تاريخ اسكندر. وكان يؤرخ به النصارى وغيرهم قديماً. وهو المسمى في سفرَي المكابيين تاريخ دولة اليونان. على أنَّ السوريين واليونان يقولون إنَّ السنة الأولى منه تبتدي في الخريف سنة ٣١٢ ق.م وتنتهي في الخريف سنة ٣١١ ق.م. وأما اليهود فيحسبون الأولى منه تبتدي في الربيع سنة ٣١٢ ق.م وتنتهي في الربيع سنة ٣١١ ق.م والمعول على الأول. على أنَّ هذه العهدة لم تبطل المطامع ولم تفصل الخلاف وكانت وبالاً على من بقي من أسرة اسكندر، لأنَّ كسندر قتل اسكندر اكوس وأمه ركسان اما بالسمّ أو بالسيف خلافاً لما شرط في العهدة. ولم يبقَ من ذرية اسكندر الكبير إلَّا ابنه هرقل وأمه برسين فقتلهما كسندر بواسطة بوليسبركون نفسه سنة ٣٠٩ ق.م، وقتل انتيكون قلوبطرة أخت اسكندر أرملة ملك الأبير، لأنَّ بتلمايس استدعاها من سرد اليه آملاً أنَّ زواجه بها يزيد في عدد محازبيه، فأرسل انتيكون فقتلها سراً سنة ٣٠٨ ق م. وعاد يعاقب النساء اللائي تسببن في قتلها. وعليه فلم تكن العهدة إلَّا هدنة دامت قليلاً وعاد هؤلاء الولاة إلى القتال، حتى حاصر ديمتريوس ابن انتيكون أثينا وفتحها. وأقام فيها حكومة جمهورية وأتى بأسطول يحارب بتلمايس فانتصر عليه في وقعة بحرية شهيرة أخذ بها سلامينا في قبرص واستولى على الجزيرة كلها، وحينئذٍ سمى انتيكون نفسه ملكاً وسمى ابنه كذلك واقتدى به باقي الولاة. فسمي بتلمايس ملكاً في مصر، وكسندر ملكاً في مكدونية، وليسيماك ملكاً في تراسة. وأخيراً تحالف كسندر وبتلمايس وليسيماك وسلوقس على انتيكون سنة ٣٠٢ ق.م. واجتاز ليسيماك ملك تراسة إلى آسيا الصغرى، فأخضع فريجيا وليديا وغيرهما في شمالها وزحف بتلمايس إلى فلسطين وفينيقية، وسورية المجوفة فاستحوذ عليها ما عدا صور وصيدا، فأنه بقي محاصراً لهما، ومشى سلوقس بجيشه على أعمال آسيا الصغرى الشرقية فدخلها ظافراً. وانتشب القتال بين ديمتريوس بن انتيكون وكسندر

في تساليا ولما رأى انتيكون المضايقة له من كلّ جهة استدعى ابنه من بلاد اليونان. فكانت في ايسوس فريجيا سنة ٣٠١ ق.م وقعة هائلة بين جيوش الملوك المتحدين وبين جيش انتيكون ابنه ديمتريوس، كانت الفاصلة لأنَّ انتيكون وقع قتيلاً وابنه ديمتريوس انهزم بخمسة آلاف راجل وأربعة آلاف فارس، وتشتت شمل باقي جيشهما. وسنأتي على باقي أخبار انتيكون وابنه في الأعداد التالية.

واقتسم الملوك الظافرون المملكة فأصاب ليسيماك آسيا الصغرى إلى جبل طورس مضافة إلى تراسة، وأصاب سلوقس سورية الشمالية وما بين النهرين وما في شرقيهما إلى الهند، وأصاب بتلمايس اليهودية وفينيقية أي سورية الجنوبية إلى عكا مضافة إلى مصر وما يليها. وبقي كسندر في مملكته وما يسترده من بلاد اليونان وأخذ صقلية لأخيه. فأصبحت الممالك أربعاً كما تنبأ دانيال وقد طرأ عليها بعض التغيير كما سترى.

عد ٤٠٣

ولاية لاوميدون في سورية وانتزاع بتلمايس لها من يده

بعد أن أبنَّا في العدد السابق ما كان من كبراء دولة اسكندر رغبةً في توفير الفوائد، ورعايةً لمساق التاريخ وتيسيراً لادراكه، تحتَّم علينا العود إلى جُلِّ غرضنا وهو تاريخ سورية. فقد رأيت أنَّ كبراء دولة اسكندر بعد اقرارهم بالملك لاريداي أخي اسكندر ولابنه، اقتسموا أقاليم المملكة بينهم وأصاب لاوميدون سورية. ولما اشتدَّت الحرب بين انتيكون واومان رأى بتلمايس والي مصر أنَّ ضمّ اليهودية وفينيقية وجزيرة قبرص إلى مملكته ضربة لازب وقاية لمصر من مهاجمة عدو له، وطمعاً بتوسيع نطاق ولايته. فسيَّر نيكاتور إلى سورية بجيش برّاً وسار هو بأسطول يدوخ مدنها البحرية، فاستظهر نيكانور على لاوميدون وأخذه أسيراً. وافتتح بتلمايس المدن الساحلية وأصبحت سورية طوع يديه. فساء نجاحه السريع أقرانه على أنَّ انتيباتر كان بعيداً في مكدونية فلم يُبدِ حراكاً، وانتيكون كان مشتغلاً بحرب اومان فلم يعترض هذه الزيادة على أملاك بتلمايس.

وقد أنبأنا يوسيفوس (ك ١٢ فصل ١ من تاريخ اليهود) إنَّ اليهود رعوا الأمانة لملكهم لاوميدون مبرَّةً ليمينهم على الطاعة له. فقاوموا بتلمايس فشخص إلى

اليهودية بجيشه وحاصر أورشليم زماناً طويلاً فلم يتيسّر لهم فتحها إلى أن درى بأنَّ اليهود يحترمون يوم السبت فلا يأتون فيه عملاً. فهاجم المدينة في يوم سبت وقعد اليهود عن الدفاع فافتتح المدينة، وعامل أهلها وسائر اليهود أولاً بغاية القسوة، وأخذ منها أكثر من مئة ألف أسير إلى مصر. على أنه لما تذكر بسالتهم وحفظهم العهد لواليهم وحكامهم غير ظنه ووثق بهم واختار منهم لخدمته ثلاثين ألف رجل وعهد إليهم في حراسة القلاع المهمة في مملكته.

عد ٤٠٤

انتزاع انتيكون سورية من يد بتلمايس

قد مرَّ أنَّ بتولمايس كسندر وليسيماك وسلوقس تحالفوا على انتيكون وحاربوه سنة ٣١٥ ق م. وأخذوا منه قبرص التي كان استحوذ عليها. ففي سنة ٣١٤ ق.م حشد جيشاً كبيراً وسار به إلى سورية قاصداً أن يثأر من بتلمايس بانتزاعها من يده، وأن يأخذ سفن سورية وفينيقية لحاجته الشديدة إلى أسطول في محاربة المتحالفين؛ إذ لم يكن يطمع بفوزه عليهم إن لم تكن في يده فُرض سورية وفينيقية وعدد كافٍ من السفن. ودرى بتلمايس ما أضمر انتيكون فأخذ إلى مصر كلَّ ما وجد من السفن في مدن فينيقية، واستحاط في تقوية هذه المدن بتكثير الحامية فيها. فلقيَ انتيكون مُرَّ العناء في فتح صور ويافا وغزة ولم يفتتح صور إلَّا بعد حصارها خمسة عشر شهراً. وجدَّ في اصطناع السفن في جبيل وطرابلس كما مرَّ مشغلاً ألوفاً من الرجال في قطع الأشجار من جبل لبنان، وفي نقلها وبناء السفن حتى بنى في سنة واحدة أسطولاً كبيراً. واستأتى سفناً أخرى من قبرص ورودس وغيرهما من الجزر المحالفة له حتى عاد يؤمل السيادة في البحر، وأخصَّ ما حمله على ذلك تهويل سلوقس عليه بمئة سفينة أعاره إياها بتلمايس ليروِّع جنود انتيكون ويُضعف قلوب حلفائه.

وبينما كان انتيكون متشاغلاً في فينيقية بلغه أنَّ جيش كسندر استحوذ على محال عديدة في آسيا الصغرى. فأسرع إليها بفريق من جنده وترك الباقي تحت أمرة ابنه ديمتريوس، وضايق أسطول انتيكون صور مانعاً عنها كلَّ مدد وقوت. فاضطرَّ أهلها إلى الاستسلام وطلب الجنود الذين أقامهم بتلمايس فيها الأمان ليخرجوا منها

بأمتعتهم فأعطوه. وشرط أهل المدينة المحافظة على دمهم ومالهم فعمل بشرطهم، ذلك ناطق بأنَّ جنود انتيكون كانوا رأوا شدَّة بأس أهل مدينة صور ومناعة مدينتهم وصعوبة فتحها، فتساهلوا لهم مع أنَّ اسكندر كان دمَّر صور قبل تسع عشرة سنة فقط فانبعثت من رقادها، وعادت إلى قوَّتها في هذا الوقت الوجيز. كل هذا نتيجة جدّ أهلها في الاتجار والصناعة وقد كانت حينئذٍ قطب التجارة بين المشرق والمغرب.

أما بتلمايس فسار بأسطوله إلى جزيرة قبرص وأخضع ولاتها له ومنهم نيكوكاس ملك بافوس (الباف)؛ إلَّا أنَّ هذا الملك انحاز بعد سنة أو سنتين إلى انتيكون. وحالفه خفية ودرى بتلمايس خيانته فأمر بعض عماله في الجزيرة بقتله، فلم يقتلوه بنفسهم بل حملوه على أن ينتحر مزينين له أنه خيرٌ له من قتلهم إياه فانتحر. وكان بتلمايس أمر عماله أن لا يمسوا الملكة والأميرات بضرّ فلم يتيسَّر لهم منعهنَّ من الضرر بأنفسهنَّ، ولأنَّ الملكة قتلت بناتها بيدها، وحرَّضت سلفاتها على الانتحار ثم انتحرت هي. ولما رأى اخوة الملك ما كان ألقوا النار في زوايا القصر الأربع فاحترقوا به. هذا ما رواه ديودر الصقلي (ك ٢٠ صفحة ٧٦١) والعهدة عليه. أما ديمتريوس بن انتيكون فانتهى بجيشه إلى غزة فكانت هناك وقعة ارتعدت لها الفرائص بين جيش ديمتريوس وجيش بتلمايس وسلوقوس (الذي كان فرَّ إلى مصر كما مرّ). وانجلى القتال عن خمسة آلاف قتيل وثمانية آلاف أسير من جيش ديمتريوس، وأُخذت خيله وخيامه وماله وأمتعته وعاد هو إلى أشدود ثم إلى طرابلس تاركاً لبتلمايس فينيقية وفلسطين وسورية المجوفة. وسأل بتلمايس قبل قيامه من أشدود أن يرخّص له بدفن قتلاه فأنكر عليه سؤاله، إلَّا أنه ردَّ عليه خيامه وأمتعته وأصدقاءه وخدامه دون فداء قائلاً أنْ ليس الغرض من الحرب بينهما المال بل الفخار. فسُرَّ ديمتريوس بكرم بتلمايس وسأل الآلهة أن يتيحوا له فرصة ليكافئه بمثله. وتتبَّع بتلمايس ديمتريوس فاستردَّ المدن الساحلية ولما بلغ صور همَّ ادرونيك واليها من قبل انتيكون أن يقاومه معتمداً على اخلاص الصوريين لمولاه. فخاب أمله لأنَّ الأهلين والحرس أكرهوه على الاستسلام. وخاف أن يقتله بتلمايس فكان ما لم يأمل، فأنَّ بتلمايس جامله وأكرمه.

على أنَّ انكسار ديمتريوس لم يوهن عزيمته بل أخذ يحشد جنوداً في شمالي فينيقية، ويحصِّن مدناً وسمع أبوه انتيكون بانتصار بتلمايس عليه فقال: «انتصر

بتلمايس على أحداث فسيلقى عما قليل حرب رجال». وكتب له ابنه يستأذنه باستئناف القتال مع بتلمايس فشجعه عليه. وسيَّر بتلمايس شيل أحد قوَّاده بجيش جرار يتتبَّع آثار ديمتريوس ليطرده من سورية. فأدركه في طرابلس (على ما يُظن) أو في شماليها. وانتشبت الحرب بينهما فاستظهر ديمتريوس على شيل، وشتت عسكره وأخذه أسيراً مع ستة آلاف من جنوده فغنم بأمتعته وذخائره. ولم يكن سروره بظفره أكثر منه بسنوح الفرصة له ليكافئ بتلمايس على كرمه السابق له، فانه ردَّ عليه قائد جيشه وأصدقاءه وأمتعة جنده وتقادم نفيسة. وبلغ انتيكون خبر انتصار ابنه فأسرع من فريجيا إلى سورية ولما لقي ابنه عانقه وفاضت مدامعه طرباً. ورأى بتلمايس أنَّ ليس في مقدوره أن يحارب انتيكون فآثر العود إلى مصر على القتال، وهدم قلاع عكا ويافا والسامرة وغزة. وأخذ كل ما وصلت إليه يده من ثروة الأهلين وجماً غفيراً منهم. أو هم لحقوا به راضين على ما روى يوسيفوس (ك ١٢ في تاريخ اليهود فصل ١). وعادت فينيقية وفلسطين وسورية المجوفة إلى ولاية انتيكون. وكان ذلك سنة ٣١١ ق.م (ديودر ك ١٩ صفحة ٧٢٩). واستمرت قبرص في يد بتلمايس ثم سيَّر انتيكون بعد أخذه سورية أحد قادة جيشه إلى العرب النبطيين الذين كانوا يشنّون الغارة على سورية فيسلبون ويقتلون. فنكّل بهم واستردَّ بعض ما سلبوا لكنهم كمنوا له في طريقه فقتلوه وجماً من رجاله. واسترجعوا السلب فحنق انتيكون منهم وبعث عليهم ابنه ديمتريوس فلم يتيسَّر له لحاقهم ولا الاستحواذ على بلادهم. فعقد معهم عهدة من حيث كان، وعاد إلى أبيه فوجهه إلى أثينا فحاصرها وافتتحها وأقام فيها حكومة فوضوية كما مرّ.

عد ٤٠٥

أخذ ديمتريوس قبرص وحرب رودس واسترجاع بتلمايس بعض سورية

قد أمر انتيكون ديمتريوس أن يسير بأسطول كبير وجيش وافر ليأخذ جزيرة قبرص من يد بتلمايس. فأرسل وفداً يدعو، أهل رودس إلى محالفته فأبوها وسار إلى قبرص فاحتلَّ أرضها. وزحف بجيشه إلى سلامينا عاصمتها فالتقاه مينيلاس أخو بتلمايس. وتسعرت نار الحرب بينهما فاستظهر ديمتريوس وانهزم مينيلاس إلى المدينة تاركاً في ساحة النزال ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير. وكتب إلى أخيه بتلمايس

يخبره بما كان ويستعجله بنجدته. واستأتى ديمتريوس من سورية كثيراً من الحديد والأخشاب والعمَلَة الحاذقين لصنع الآلات اللازمة لحصار سلمينا. واخترع حينئذٍ آلة سموها هاليبول ومعناها آخذة المدن. وهي برج من خشب طوله من كلّ جهة ٧٥ قدماً وارتفاعه ١٥٠. مركّب على عجلات يدنونه حين الحصار من الأسوار والرماة فيه. ولما تكاملت عِدده احتاط أسوار المدينة وأخذ يرميها بمناجيقه وآلات حربه ودام الحصار أياماً إلى أن فتح ثلمة كبرى في الأسوار. ويئس المحاصرون من النجاة إلّا أن يخرجوا بوثبة شديدة على العدو وهم لا يوقنون بالظفر. فركموا ليلاً كثيراً من الأخشاب اليابسة والمواد السريعة الالتهاب وألقوها من أعلى الأسوار على المناجق والآلة المذكورة وباقي أدوات الحرب فالتهمتها النار. وتسارع جيش ديمتريوس لاطفائها فلم يتيسّر لهم إلّا وقاية قليل منها وتعطل أكثرها.

وأتى بتلمايس سريعاً من مصر بمئة وخمسين سفينة. وكتب إلى أخيه في سلامينا أنه إذا التحم القتال واشتدَّ أجيجه فليأخذ الستين سفينة التي عنده إلى مرفأ سلامينا ويضرب بها سفن ديمتريوس من ورائها. وكان ديمترييوس احتاط بأن ترك عشر سفائن تخفر المرفأ الذي كان ضيقاً. وصفَّ جيشه حول المدينة وفي كل مكان مشرف على البحر. وانقضَّ بمئة وثمانين سفينة على أسطول بتلمايس فغرّق بعض سفنه وكسر بعضها، وغنم سبعين منها بما كان فيها، ولم يبقَ لبتلمايس إلّا ثماني منها فرَّ بها مدحوراً. وبعد هذا الانتصار بحراً يئس مينيلاس من المدافعة واستسلم لديمتريوس هو وجنوده وأهل المدينة. وأراد ديمتريوس أن يكافئ مرة أخرى بتلمايس على ما صنع إليه في حرب غزة فأطلق له أخاه مينيلاس وابنه لاونتيسك وأرسلهما إليه بلا فدية مع أصدقائهما وخدامهم وأمتعتهم، وكان ذلك سنة ٣٠٦ ق.م. وقد مرَّ أنَّ أنتيكون سمى نفسه ملكاً بأثر هذا الانتصار وسمى ابنه كذلك. وقد أقام ديمتريوس تمثالاً من رخام ذكراً لانتصاره في جزيرة سامترلس. ووجد هذا التمثال شانبواسو قنصل فرنسا في هذه الجزيرة سنة ١٨٦٣ م ونقله إلى متحف اللوفر. وتوجد مسكوكات باسم ديمتريوس هذا يرى فيها صورة امرأة يعبِّر بها عن الانتصار قائمة على مقدَّم سفينة وبيدها اليمنى بوق تنفخ به، وفي شمالها راية النصر ذكراً لانتصاره هذا (دورى مجلد ٣ صفحة ٣٨٧). وبلغت انتيكون أخبار انتصار ابنه فارتقص طرباً وهمَّ أن يستثمر هذا الانتصار فحشد في سورية جيشاً لا يقلُّ عن مئتي ألف رجل. وكتب إلى ابنه ليلتقيه ليضربا مصر وينتزعا ملك

بتلمايس. وكانا يحسبان انكساره في قبرص ميسراً الظفر به في مصر فكان غير ما حسبا. فقد سار الجيش براً والأسطول بحراً. وانتهيا إلى غزة وكان من رأي الربانيين أن ينتظر الأسطول مرور مغيب الثريا إذ تكثر عنده العواصف عادةً. وكان رأي انتيكون أن يباغت بتلمايس قبل أن يستعد للدفاع. وعمل برأيه فإنه أمر ديمتريوس أن يحتلّ عند أحد مصاب النيل. وجدّ هو أن يفتح ممراً إلى البلاد فثارت عواصف أضرّت كثيراً بأسطول ديمتريوس. وأبدى الحرس الذي أقامه بتلمايس على مصبّ النيل آيات البسالة في الدفاع فلم يمكنه من الاحتلال. ولقى انتيكون عقبات ومصاعب لا يقوى عليها حتى قنط من دخول البلاد. وأخذ جنوده يأبقون لأنَّ بتلمايس أرسل منادين يذيعون باسمه على جنود عدوِّه عند استقائهم الماء أنَّ كلَّ جندي آبق فله منه منان (تساوي ١٨٣٣ فرنكاً). وكلَّ ضابط آبق فله وزنة (تقدَّر ٥٥٠٠ فرنك). فكثُر عدد الآبقين لا طمعاً بالمال فقط بل لأنهم كانوا يوثرون خدمة بتلمايس على خدمة انتيكون. فإنَّ هذا كان أمسى شيخاً صعب المراس متكبراً قاسياً، وذاك كان ليِّن العريكة طلِق الوجه رقيقاً جوَّاداً. ولما رأى انتيكون أنه يستحيل عليه دخول مصر وعازته المؤن لجنوده، وفشا فيهم المرض وكثُر الآباق عاد إلى سورية والخجل دثاره والكآبة شعاره. وخسر في هذه الغزوة كثيراً من جوده وسفائنه وكان ذلك بسنة ٣٠٥ ق.م. واشتدَّ ساعد بتلمايس وعظُم بأسه ولم يعد أحد يزاحمه بعد ذلك على ولايةٰ مصر، ولهذا جعل بتلمَايس الفلكي اليوم السابع من تشرين الثاني السنة المذكورة بدءاً لتاريخ سني البتلمايسيين أو البطالسة وهي التاسعة عشرة بعد وفاْة اسكندر.

وكان في رودس حكومة فوضوية شديدة البأس ميَّالة إلى بتلمايس، وكان ديمتريوس دعاهم لمحالفته في حرب قبرص فأبوا كما مرّ. فأرسل انتيكون ابنه ديمتريوس لحربهم ليثأر منهم ومن بتلمايس ويزيد أملاكه وقوَّته. فمضى ديمتريوس إليها بأسطول كبير وعسكر وافر فكانت بين ديمتريوس والرودسيين حروب عديدة خلدت الذكرى لبسالة الفريقين وتجلُّدهما وثباتهما، وانتهت هذه الحروب بعهدة صلح وقَّع الفريقان عليها. ومن شرائطها أن تبقى جمهورية رودس والرودسيون على حقوقهم وسلطتهم ولا يخضعون لدولة أيتها كانت؛ وإنَّ المحالفة التي كانت بينهم وبين انتيكون تستمر ثابتة وبقوَّتها. يلتزمون أن ينجدوه في كلِّ حروبه إلَّا إذآ كانت الحرب مع بتلمايس، وإنَّ الجمهورية تدفع لديمتريوس مئة رجل يختارهم ليكونوا

بمنزلة رهينة على العمل بموجب العهدة. وقالوا إن قبل أن يزايل ديمتريوس رودس أهدى أهلها جميع آلات الحرب التي استعملها في حصار مدينتهم. فباعوها بثلاثمائة وزنة (تساوي مليون وست مئة وخمسين ألف فرنك). وأضافوا إلى ثمنها مبلغاً آخر واصطنعوا بها تمثالاً للشمس في رودس كان إحدى عجائب الدنيا السبع. وكان صانعه شارس دي ليندوس وقضى في عمله اثنتي عشرة سنة، وبعد ست وستين سنة من نصبه، أسقطته زلزلة. روى ذلك بلين (ك ٣٤ فصل ٧) وكان ذلك لسنة ٣٠٤ ق م.

ثم انتهز بتلمايس فرصة غياب انتيكون وابنه ديمتريوس عن سورية فحمل عليها. واسترجع فينيقية واليهودية وسورية المجوفة ما عدا صور وصيدا لأنَّ انتيكون كان ترك فيهما عدداً غفيراً من المحافظين. وحاصر بتلمايس صيدا ولكن ورد عليه خبر لم يكن صحيحاً وهو أنَّ انتيكون انتصر على عسكر المتحدين، وأنه قادم لنجدة صيدا. فأعطى أهلها هدنة خمسة أشهر وقفل إلى مصر (رواه ديودر الصقلي وهو آخر أخباره).

عد ٤٠٦

سلوقس وديمتريوس في سورية

قد مرَّ (عدد ٣٨٤) أنَّ الملوك الأربعة المتحدين بعد انتصارهم على انتيكون في وقعة ايبسوس اقتسموا مملكته. فكانت سورية الشمالية من مملكة سلوقس، واستمرَّت فلسطين إلى عكا وسورية المجوفة تحت ولاية بتلمايس ملك مصر، على أنَّ مملكة سلوقس كانت فسيحة الأنحاء تشتمل على ما مرَّ ذكره من سورية وما بين النهرين ومملكة الفرس إلى الهند، ولكنها سُميت مملكة سورية لأنَّ سلوقس بنى أنطاكية وأقام فيها هو وخلفاؤه المعروفون بالسلوقيين نسبةً إليه. وسمى سلوقس المدينة التي بناها أنطاكية نسبةً إلى أبيه أو ابنه انطيوكس لأنَّ كليهما سُميا بهذا الاسم. وكانت هذه المدينة عاصمة المشرق أعواماً متطاولة في مدة السلوقيين والقياصرة الرومانيين. وكان انتيكون بنى على مقربة منها مدينة سماها انتيكونية فنقضها سلوقس. وبنى بأنقاضها مدينة ونقل إليها سكان انتيكونية وبنى أيضاً سلوقية وسماها باسمه. ومن قائل أنها كانت على ضفة دجلة وهي سلوقية ما بين النهرين

الآن، ومن قائل أنها كانت عند مصبّ العاصي محل السويدية الآن، ومن قائل أنه بنى المدينتين على دجلة والعاصي وهو الأظهر. وسماهما باسم واحد، وبنى أيضاً أباميا على اسم امرأته ابنة ارتباس الفارسي وكانت على العاصي قريبة من حماه. واللاذقية على اسم أمه لوذيقه إلى غيرها من المدن (سترابون ك ١٦ صفحة ٧٤٩).

أما ديمتريوس بن انتيكون فانهزم بعد وقعة ايبسوس إلى افسس برجاله وفرسانه. ثم سافر إلى أثينا حيث كان ترك سفنه وماله وامرأته ديدامية آملاً أن يرحب به أهلها لما صنعه إليهم من المعروف. فأرسلوا إليه وفداً يبلغه أنَّ الشعب لا يقبل أحداً من الملوك، وأنهم شيّعوا امرأته بكرامة إلى ماكارا (مدينة بين أثينا وقرنثية) فأبدى لهم شكواه وعتابه. وسأل أن يردوا عليه سفنه فردوها، فسار بها ونزل على بعض أملاك ليسيماك فأغنى رجاله بما غنم منها واشتدَّ ساعده. وكان ليسيماك عقد عهدة مع بتلمايس وتزوج بنته فوجس سلوقس من هذه المعاهدة وصالح ديمتريوس وعاهده. وتزوج ابنته ستراتونيس فسُرَّ ديمتريوس بعضد اتخذه وأتى بابنته وأسطوله من بلاد اليونان إلى سورية واحتلَّ في طريقه بعض مدن قيليقية. وكان بليسترك أخو كسندر ملك مكدونية يلي هذا الاقليم فمضى إلى سلوقس يشكو إليه أمره، معيباً عليه اتحاده مع ديمتريوس عدو سائر الملوك. وعلم ديمتريوس فانقضَّ على خزينة هذا الاقليم فاستلبها وعاد إلى سفنه وسار إلى سلوقس. فزفَّ إليه بنته وعاد إلى قيليقية فاستحوذ عليها ودرجت امرأته ديدامية وكان قد صالح بتلمايس بواسطة سلوقس. فتزوج بابنته وعظم شأنه واستفحل أمره إذ ملك قيليقية وكان قد بقي له من أملاكه قبرص وصور وصيدا وأسطول كبير وناهيك به عزة من اعتضاده بسلوقس وبتلمايس.

وانتبه سلوقس إلى أن تعظيمه شأن ديمتريوس وتقويته إياه وبال عليه. فسأله أن يتخلّى له عن قيليقية ويدفع إليه مبلغاً جزيلاً من المال فلم يُجب سؤاله. ورغب إليه سلوقس أن يردَّ عليه صور وصيدا لأنهما من مملكة سورية وهو ملكها فقال له لو ضويقت في حروب عديدة كحرب ايبسوس لما شريت صداقة سلوقس بهذا الثمن الفاحش وهبَّ إلى صور وصيدا وحصَّنهما تلافياً من أخذ سلوقس لهما. وبعد أن أمَّن على أملاكه في آسيا مضى إلى أثينا ينكّل بها جزاءً على صنعهم القبيح به بدلاً من صنعه المعروف إليهم. فحاصر مدينتهم وافتتحها واجتزأ بالتونيب لهم على قبح معاملتهم له، وأقام لهم حكاماً أجمعوا على استحسان توليتهم. ثم مضى إلى

المورة وحارب ملكها وانتصر عليه. وبلغه حينئذٍ شائمة أنّ ليسيماك أخذ كلما كان يملكه في آسيا الصغرى، وأنَّ بتلمايس أخذ قبرص وهو محاصر سلمينا حيث كانت أمه وزوجته وأولاده. فأسرع في العود فوجد بتلمايس افتتح سلمينا وردَّ عليه أهله دون فداء، لكنه أخذ بعد ذلك صور وصيدا واستحوذ سلوقس على قيليقية فلم يبقَ لديمتريوس شيء من أملاكه (بلوترك في ترجمة ديمتريوس).

قلَّ ما وُجد رجل مثل ديمتريوس كثُر عليه اقبال الدنيا وأدبارها، فبعد أن أمسى معدماً كما رأيت حدث أن قضى كسندر ملك مكدونية. فتنازع ابناه انتيباتر واسكندر الملك وكانت أمهما تفضِّل اسكندر الصغير فقتلها ابنها انتيباتر. فاستنجد اسكندر ديمتريوس ليثأر من أخيه بدمها فلبَّى ديمتريوس دعوته على أنه لم يبلغ مكدونية إلَّا وكان بيروس ملك الأبير أصلح الأخوين، فالتقى اسكندر ديمتريوس بالترحاب. وبلغه تبدُّل الحال وأنه لم يعد في حاجة إلى معاونته فامتعض ديمتريوس وكان اسكندر يكرِّم مثواه ويجامله وهو وجس من قوَّته ودهاه. وبلغ ديمتريوس يوماً أنَّ اسكندر يروم ابعاده عنه فعاجله بالقتل غيلة فهاج المكدونيون عليه أولاً لاقدامه على هذه الجريمة الفظيعة. فاعتذر لهم ديمتريوس عن فعلته وجعلهم لمقتهم لأنتيباتر (لاغتياله أمه) يوثرونه عليه. فرضوا عنه وملكوه فيهم سنة ٢٩٤ ق.م، واستمرَّ على منصَّة الملك في مكدونية سبع سنين وأخذ سنة ٢٨٨ ق.م يعدُّ العُدد ويحشد الجيش ليسترجع ملك أبيه في آسيا. فانضوى تحت رايته مئة ألف جندي ونيف، وجهَّز خمس مئة سفينة، فجدَّد بتلمايس وليسيماك وسلوقس محالفتهم عليه وانضمَّ إليهم بيروس ملك الابير.

وقد كُشف في أثينا عن صفيحة كُتبت عليها خطوط مؤذنة بعهدة بين بتلمايس وأثينا والمورة وأحزابهم، غايتها المدافعة عن الحرية العامة ضدَّ من يخربون بلاد اليونان وينقضون السنن والرسوم التي افترضها قدماؤهم. وزحفت عساكر ليسيماك وبيروس إلى مكدونية فافتتح بيروس بيريا (في مكدونية) حيث كانت نساء أكثر الجنود وأولادهم، فانشقُّوا عن ديمتريوس وحازبوا بيروس ونادوا به ملكاً على مكدونية. فاضطرَّ ديمتريوس أن ينهزم متنكراً بزي جندي ويعود إلى بلاد اليونان حيث بقيت بعض المدن خاضعة له، فترك ابنه انتيكون والياً عليها. ومضى إلى آسيا يتطلَّب غنيمة فأخذ بعض أعمال من مملكة ليسيماك. فهبَّ اكاتوكل بن ليسيماك لمقاومته وبعثه على الانهزام فأدَّاه تطوافه إلى ترسيس في قيليقية. وأرسل منها يشكو

حالة عسره إلى سلوقس صهره طالباً امداده بما يقوم بأوده وأود من بقي معه من جنوده، فرفق به سلوقس أولاً، وكتب إلى عماله أن يقدِّموا له كلما يحتاج إليه. ثم تذكَّر دهاءه وخاف أن يمكر به فعمد على إهلاكه، وسار بجيشه إليه ففرَّ ديمتريوس من وجهه وأرسل إليه أن يبيحه العبور نحو المشرق ليقضي ما بقي له من الحياة مطمئناً، فلم يركن سلوقس إلى صدق مقاله، وضبط الطرق عليه، أما ديمتريوس فلجأ إلى القوَّة وعبر تلك المخافر ودخل إلى سورية فعاودته شجاعته لكنه أصيب بمرض عضال فتركه بعض جنوده. وهمَّ بعد ابلاله من المرض أن يباغت سلوقس فيقتله. وفشا سرّ خديعته وضاقت به الحيَل، فعزم أن يفرّ إلى سفنه فوجد المعابر مخفورة بتحرز، فاختبأ في بعض الغابات إلى أن ألجأه الجوع أن يستسلم لسلوقس فأخذه أسيراً سنة ٢٨٦ ق.م وأقامه في مدينة في جوار اللاذقية تاركاً له فيها حريته، فقضى ما بقي من عمره مستكناً متحملاً مصابه بصبرٍ جميل متشاغلاً بالصيد واللعب سلواناً لنفسه. ولكنه عكف على معاقرة الخمرة، فأصابه مرض قضى به سنة ٢٨٣ق.م بعد أن استمر أسيراً ثلاث سنين، ولم يكن له من العمر حينئذٍ إلّا أربع وخمسون سنة (بلوترك في ترجمة ديمتريوس).

عد ٤٠٧

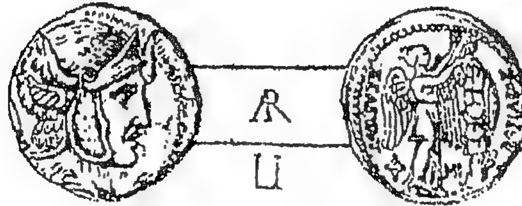
محاربة سلوقس ليسيماك وقتله واغتيال سلوقس

روى يوستينوس (ك ١٧ ف ١) وابيان (في تاريخ السوريين صفحة ١٢٨) وغيرهما أنَّ ليسيماك زوَّج ابنه اكاتوكل بليسندرة ابنة بتلمايس ثم تزوج هو بأختها ارسينوا. وكان له ابناء فعظمت الغيرة بين الأختين احتساباً لمن يكون الوريث بعد وفاة ليسيماك. واشتدَّت الضغائن بينهما وأتى بتلمايس جيرانوس أخو بتلمايس فيلادفوس ملك مصر إلى قصر ليسيماك وكانت ليسندرة شقيقة له. فتوهمت اريسنوا أنه إذا توفي ليسيماك قتلها جيرانوس وأتبع بها بنيها ليملك اكاتوكل صهره، وما انفكَّت تزعج ليسيماك الملك زوجها بشكواها اكاتوكل، ووشايتها به أنه يبدي مؤامرات على حياة أبيه وأخذ تاجه حتى ألقى ابنه في السجن ثم قتله. وفرّت لسندرا وأولادها وأخوها جيرانوس واسكندر بن ليسيماك الآخر إلى سلوقس، وحملوه على إعلان الحرب على ليسيماك وانحاز كثيرٌ من أعوان ليسيماك إلى سلوقس اشمئزازاً من غدره بابنه. وكان سلوقس ميالاً إلى هذه الحرب طمعاً بتوسيع نطاق ملكه فعزم عليها راغباً.

وقبل أن يزحف بجيشه على ليسيماك تخلّى لابنه انطيوكس عن أعمال كثيرة من ملكه، ولم يبقَ لنفسه إلّا الأعمال التي بين الفرات والبحر. وزوَّجه أيضاً بامرأته ستراتونيس لأنه ظهر له شغفه ثم سار في آسيا الصغرى فلم يلقَ معارضاً حتى انتهى إلى سرد (في ولاية إزمير الآن). فحاصرها وافتتحها وغنم خزائن ليسيماك التي كانت فيها فعبر ليسيماك الدردنيل وأتى آملاً أن يوقف سلوقس عن تقدُّمه، فانتشب القتال بينهما فاستظهر سلوقس على ليسيماك وقتله واستحوذ على مملكته كلِّها وسُرَّ بانتصاره، وبأن يرى أيضاً نفسه قد بقي وحده في الحياة من قادة اسكندر، وقد ظفر بالظافرين، وهذا الانتصار قد أكسبه لقب نيكانور (ومعناه الظافر والمنتصر) الذي سمى نفسه ويسميه به المؤرخون تمييزاً له عن خلفائه الذين سموا سلوقس وكان ذلك لسنة ٢٨١ ق.م.

على أنه لم يعش بعد هذا الظفر إلّا ستة أشهر، فإنه مضى إلى مكدونية ليضع يده على ما كان لليسيماك فيها ويقضي ما بقي من عمره في وطنه العزيز، فحالف عليه جيرانوس بتلمايس الذي كان غمره بنعمه وإحسانه وأكرم مثواه عند فراره إليه وأصحبه معه في هذه الغزوة ناوياً أن يجلسه على عرش أبيه في مصر، فأبى خلقه الذميم إلّا الخيانة، وغمط النعمة وقتل المحسن إليه غيلةً سنة ٢٨٠ ق.م. وقد ملك سلوقس بعد أن سمى ملكاً في أثر وقعة ابسوس عشرين سنة، وكان ملك قبل ذلك إحدى عشر سنة إذ جعل بدء ملكه في السنة الثانية عشرة بعد وفاة اسكندر الكبير؛ فجملة سني ملكه إحدى وثلاثون سنة، وكان حسن الأخلاق محباً العدل مستمسكاً بالدين ليِّن العريكة شفوقاً يحبب الرعية به بحلمه.

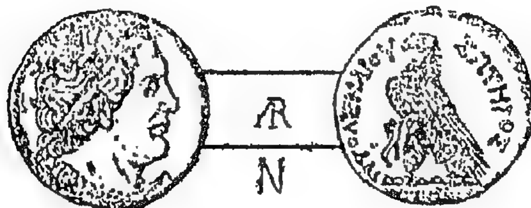
هذا مثال صورة سلوقس الأول على سكته. ففي الوجه الأول مثال رأسه وعليه



خوذة ذات قرنين وأذن ثور. وفي الوجه الثاني مثال الظفر قايماً متجهاً نحو اليمين رافعاً يديه على خوذة ودرع وترس، وقد كُتب على الصورة سلوقس باسيليوس أي الملك سلوقس.

وأما جيرانوس الخائن فحسب أصدقاء ليسيماك أنّه قتل سلوقس ثأراً بليسيماك فملّكوه فيهم، وكان يخشى أخته ارسينوا أرملة ليسيماك ويحذر منازعة أبنائها له. فأكرهها على الزواج به على عادتهم القبيحة ثم قتل ابنيها ونفاها، فسلّط الله عليه الغال (وهم قبيلة أتت من الشمال فدوخت البلاد وتوطن السواد الأعظم منها في فرنسا فسُميت غالية). وأعمى بصيرته عن التحوّط في المحاربة لهم فأخذوه أسيراً وقتلوه. وكان في هذه الأثناء أنَّ بتلمايس المعروف بسوتر بن لوغوس تخلّى عن ملكه سنة ٢٨٥ ق.م لابنه فيلادلفوس (تأويل الكلمة محب أخيه) ثم توفي سنة ٢٨٤ ق.م بعد أن ملك عشرين سنة سمى فيها ملكاً وتسع عشرة سنة بعد وفاة اسكندر الكبير. فجملة سني ولايته في مصر تسع وثلاثون سنة. وكان عالماً محباً للعلماء ألّف كتاباً في ترجمة اسكندر لم يبلغ إلينا، ولكن أكثر القدماء من الثناء عليه وكان مثالاً للحكمة والعدل والشفقة. وقد رفع مصر في مدة ملكه إلى أعلى مقام بين الممالك الأخرى. وكان يجانب الإسراف والعظمة. ومما يُذكر له في هذا الشأن أنَّ بعض أعوانه قال له يوما: إنَّ الملك يلزمه غنى أكثر مما هو عليه. فقال إنَّ عظمة الملك الحقيقية ليست بأن يكون غنياً بل بأن يغني غيره. وهو الذي أخذ في إنشاء مكتبة اسكندرية الذائعة الصيت ثم زادها ابنه بتلمايس فيلادلفوس وبعض خلفائهما. وقد استمرت فينيقية وسورية المجوفة والعربية وجزيرة قبرص خاضعة لمملكة مصر في أيامه.

وهذا مثال سكة بتلمايس الأول ترى في وجهها الأول صورة رأسه مكللاً وفي الوجه الثاني صورة نسر كُتب عليها بتلمايس سوتاروس.



الفصل الثالث

انطيوكس الأول والثاني وسلوقس الثاني والثالث ملوك سورية وما كان في أيامهم

عد ٤٠٨
انطيوكس الأول

قد مرَّ أنَّ سلوقس قبل حملته على ليسيماك تخلّى لابنه انطيوكس عن بعض أملاكه، وبعد مقتله سنة ٢٨٠ ق.م استبدَّ بالملك كله وسمي سوتراي المخلِّص، لأنه نجّى مملكته من حملات الغال المشار إليهم آنفاً. ومن الأحداث المعروفة في أيامه أنه زوّج ابنته اباميا بماغاس والي ليبيا. فثار ماغاس على بتلمايس فيلادلفوس ملك مصر مع أنه كان أخاه لأمه. واستقلَّ في ولايته بعد أن كانت خاضعة لمصر بل سوَّلت له نفسه بأن يثلَّ عرش بتلمايس ويملك في مكانه، وحشد جيشاً كبيراً وضرب اسكندرية واستحوذ عليها. ولكن نشأت فتنة في بلاده بعثته على العود إليها فانتهز بتلمايس هذه الفرصة ولمَّ شعث جنده وهبَّ لمقاومته. واستنجد ماغاس بحميه انطيوكس وتعاهدا أن يثب كلٌّ منهم على مصر من جهة. ودرى بتلمايس بما أسراه فأشغل انطيوكس في الدفاع عن مدنه البحرية لأنه أرسل إليها جنوداً يحتلّون بعضها وينكلون بسكّان بعضها. فاضطرَّ أن يلزم مملكته دون براح ورأى صهره أن لا طاقة له وحده على حرب بتلمايس. وكسر جيشه في وقعة فرغب عن عزمه على الاستيلاء على مصر وكان ذلك لسنة ٢٦٤ ق م.

وقد توفي في هذه الأثناء فيلاتر ملك برغام في آسيا الصغرى. فطمع انطيوكس في أن يأخذ ما كان له من البلاد ويُلحقه بمملكته. فحشد الجيش وسار به فالتقاه اومان ابن أخي فيلاتر وخليفته مدافعاً عن ملكه فاستظهر اومان على

انطيوكس المعتدي وشتت عسكره. ولم يفقد شيئاً من أملاكه بل زادها بانتصاره زيادة كبيرة وكان ذلك لسنة ٢٦٢ ق.م. وعاد انطيوكس إلى أنطاكية مدحوراً فوجد أحد أبنائه أنشأ فتنة في مدة غيابه فقتله. روى ذلك تروك بومباي وقال بعضهم وهو أرجح أنَّ رواية تروك مغلوط فيها ثم سمى انطيوكس الأول ابنه الآخر ملكاً في حياته ودعاه باسمه انطيوكس. وكان رزقه من ستراتونيس ابنة ديمتريوس التي كانت زوجة لأبيه سلوقس، ثم زوّجه إياها كما مرّ، وعاش انطيوكس الأول بعد ذلك مدة قليلة. وقضى سنة ٢٦١ ق.م في رواية وسنة ٢٦٠ ق.م في رواية أخرى وذكر له بعضهم حروباً مع المكدونيين والغلاطيين وغيرهم لم نظفر بتفصيل أحداثها.

عد ٤٠٩
انطيوكس الثاني وما كان في أيامه

إنَّ انطيوكس هذا ابن انطيوكس الأول رقي منصَّة الملك سنة ٢٦٠ ق.م ولُقِّب ثاوس أي الإلٰه تمييزاً له عمن سمي بهذا الاسم من ملوك سورية. وكان أول من لقَّبه بهذا الاسم أهل ميلات في آسيا الصغرى لأنه أنقذهم من جور والٍ اسمه تيمرك كان عصا بتلمايس فيلادلفوس ملك مصر (الذي كان له أملاك في آسيا الصغرى). واستقلَّ في ذلك الاقليم وبغى وجار فلجأ أهل ميلات إلى انطيوكس فظهر عليه وقتله فأحبوه كالآلهة. وسموه إلٰهاً وهي عادة سيئة كثر التملُّق بها في تلك القرون، وسمى أهل إزمير أمه ستراتونيس آلهة أيضاً. وكان باروز المؤرخ البابلي الشهير في أيام هذا الملك لأنه قدَّم له كتابه. وقال بلين (ك ٧ فصل ٥٦) إنَّ تاريخه كان ينطوي على مراقبات فلكية مدة أربع مئة وثمانين سنة، ولما كان وُلاة بابل من المكدونيين تعلَّم باروز اللغة اليونانية. وارتحل أولاً إلى جزيرة كوس مولد ابقراط وأنشأ مدرسة يعلِّم فيها علم الهيئة.

ثم انتقل إلى أثينا فأكسبه علمه أرفع منزلة من الاكرام حتى أقاموا له تمثالاً وجعلوا له لساناً من ذهب. وقد بلَّغ إلينا يوسيفوس واوسابيوس شذرات من تاريخه جلت لنا الالتباس عن كثير من آيات العهد القديم وكانت ذات فائدة كبرى في معرفة ملوك بابل.

وكان في أيامه أنَّ بتلمايس ملك مصر أراد أن يحتكر لمملكته التجارة في البحر وكان ذلك للصوريين. فكانوا يستأتون السلع بالبحر الأحمر إلى إيله وتقلها القوافل إلى مرفأ بين فلسطين ومصر فتُشحن إلى صور. فبنى بتلمايس مدينة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر وسماها برنيس (أو برنيقة) باسم أمه. وكانت السلع تأتيها من الهند والعربية وفارس والحبشة وتقلُّها القوافل إلى النيل وتسير به إلى اسكندرية فتُشحن منها إلى المغرب. وتستأتي منه البضائع إليها فتحمل إلى الآفاق في المشرق. وأنشأ بتلمايس كثيراً من السفن تمخر في البحر المتوسط والبحر الأحمر فكان هذا داعياً للتحاسد بين انطيوكس وبتلمايس. وتلاه داعٍ آخر للقتال وهو أنَّ ماغاس ملك ليبيا المار ذكره صالح بتلمايس ووعده أن يزوِّج بنته برنيس الوحيدة بابن بتلمايس البكر ويترك له مملكته مهراً لها. وأدركت الوفاة ماغاس قبل اتمام وعده فهمّت امرأته اباميا أخت انطيوكس بأن تخلف هذا الوعد، فاستدعت ديمتريوس أخا ملك مكدونية واعدة بأن تزوجه بنتها وتسلِّم إليه ملك أبيها، فلبى دعوتها لكنه أساء إلى الوزراء وقادة الجيش فتحالفوا عليه واغتالوه على فراشه، فأتت برنيس إلى مصر وزُفت إلى ابن بتلمايس وانهزمت أمها إلى أخيها انطيوكس. وطفقت تغريه بمحاربة بتلمايس ملك مصر وليس على دهاء النساء عسير.

فقد انتشبت سنة ٢٥٥ ق.م بين انطيوكس وبتلمايس حرب طالت مدتها ووخمت عاقبتها. ولم يشهدها بتلمايس لنحافة صحته بل كان يكل أمرها إلى قادة جيشه. وأما انطيوكس فكان يرأس جيشه الذي جمعه من كلِّ أصقاع ملكه في كلِّ وقائعه ولم يتحفنا المؤرخون بتفصيل ما كان. ولعلّه لأنه لم تكن في هذه الحروب عائدة كبرى لأحد الفريقين أو لم تكن فيها أحداث مهمة وإن طال زمانها، على أنَّ عاقبتها كانت سيئة على مملكة سورية، لأنه بينما كان انطيوكس متشاغلاً في حرب مصر نشأت مشاغب وثورات في الأعمال الشرقية من المملكة، ولم يتمكن انطيوكس من تداركها عن قرب، فعظُمت وأفضت إلى إنفصال البرتيين عن مملكة سورية، واقامتهم رجلاً اسمه ارساس ملكاً عليهم. وكذلك عصى تيودت والى بقطريان (في تركستان) وجعل نفسه ملكاً. وحذا هذا الحذو سائر القبائل في تلك الأصقاع حتى خسر انطيوكس سنة ٢٥٠ وسنة ٢٤٩ ق.م كلَّ الأقاليم الشرقية من مملكته، ولم يبقَ له منها شيء في ما وراء دجلة.

فهذه الشؤون بعثت انطيوكس على الاستفاقة ومصالحة بتلمايس ملك مصر

فعقد الصلح بينهما سنة ٢٤٩ ق.م وكان من شرائطه أن يطلّق انطيوكس لاوذيقة امرأته . ويتزوّج ببرنيس بنت بتلمايس وأن يمنع ابنيه من امرأته الأولى من ارث الملك. ويعهد بالتاج الملكي إلى البنين الذين يرزقهم من ابنة بتلمايس. وبعد التوقيع على العهدة طلّق انطيوكس امرأته لاوذيقة وإن كانت أخته لأبيه وله منها ابنان. وأتى بتلمايس بينته إلى سلوقية عند مصبّ العاصي (السويدية) والتقاه انطيوكس إليها فزُفت إليه برنيس بمعظم الاحتفاء. على أنَّ مثل هذه الزيجات المنعقدة لمآرب سياسية أو مطامع سيئة قلَّما تخلو من الغائلة وسوء العاقبة.

عد ٤١٠
نبوة دانيال على ما ذكرنا من الأحداث

إنَّ دانيال تنبأ بهذه الأحداث قبل وقوعها بثلاثة قرون ونيف نبوات بينة حتى تذرع الملحدون بوضوحها للتكذيب بأنها كتبت في أيامه. وقد أبنا فساد مدعاهم في عد ٣٥٣ واليك ما قال في الفصل الحادي عشر عد ٢: «ها أنَّ ثلاثة ملوك يقومون من بعد في فارس». يريد بهؤلاء الملوك كورش الذي كان مالكاً عندما كتب دانيال وكمبيس ابنه. ودارا ابن هيستسب» والرابع يستغني بغنى أوفر من الجميع وعند تقويه بغناه يثير الجميع على مملكة ياوان) أي مملكة اليونان. ويريد بهذا الملك كيخسرو الذي حشد الجيش العرمرم وحارب اليونان كما مرّ. ثم يقول النبي (عد ٣): «ويقوم ملك جبار يتسلط سلطاناً عظيماً ويفعل كيف يشاء» وليس من لا يتبادر إلى فهمه دون تكلف ان المراد بالملك الجبار ذي السلطان العظيم إنما هو اسكندر الكبير ويحققه كلامه التالي (عد٤): «ومتى قام تنكسر مملكته وتقسم إلى أربع رياح السماء ولا تكون لعقبه ولا في مثل سلطانه الذي تسلطه، لأنّ مملكته تمزق إلىغير أولئك أيضاً». وقد رأيت أنَّ مملكة اسكندر الفسيحة الأرجاء قد قسمت بعد منازعات وخصومات إلى أربع ممالك، ولم يكن في أحداها أحد من أعقابه إلّا ابنه الصغير الذي كان له اسم ملك فقط قبل هذه القسمة، وقام في هذه المملكة امراء من غير أعوانه انشأوا فيها ممالك مستقلة كالكبدوك وأرمينيا وهرقلية على البوسفور كما أشار النبي إلى ذلك بقوله: «تمزق إلى غير اولئك أيضاً».

ثم يقول النبي (عد ٥): «ويتقوى ملك الجنوب» يريد بالجنوب ملك مصر

لوقوعها في جنوبي اليهودية، وبالشمال سورية لوقوعها في شماليها، وبهذا الملك بتلمايس بن لاغوش. «لكن أحد هؤلاء الملوك يقوى على هذا ويتسلط ويكون سلطانه عظيماً»، ويريد بهذا سلوقوس نيكانور ملك سورية. فإنَّ بتلمايس كان يلي مصر وليبيا والقيروان والعربية وفلسطين وسورية المجوفة، وبعض الأعمال البحرية في آسيا الصغرى وقبرص وبعض الجزائر وبعض جزائر الأرخبيل وبعض مدن بلاد اليونان منها قرنثية. لكن سلوقوس كان ملكه أكثر اتساعاً وسلطانه أكثر امتداداً لأنه كان يلي كل ما كان في سورية الشمالية وجبل طورس إلى نهر الهندوس في الهند، وأعمالاً في آسيا الصغرى. وملك قبيل موته على تراسة ومكدونية أيضاً.

وإليك ما قال النبي فيما ذكرناه في العدد السابق في حرب انطيوكس وبتلمايس وعهدة الصلح بينهما واتيان بتلمايس بابنته ليزوجها بانطيوكس (عد ٦): «وبعد انقضاء سنين يتعاهدان (أي انطيوكس وبتلمايس) وتأتي بنت ملك الجنوب إلى ملك الشمال للمسألة لكنها لا تملك قوة الذراع ولا يقوم نسلها. وتُسلم هي والذين أتوا بها وولدها ومن قوّاها في تلك الأوقات». وسترى تمام نبوّة دانيال في هذه الفقرة الأخيرة لأنَّ انطيوكس طلَّق امرأته برنيس بنت بتلمايس ثم قتلتها ضرَّتها كما سيمر بك. وحسبك ما مرَّ دليلٌ على صحة تنزيل الأسفار المقدسة، وشهادة الله لها إذ يُنذر أنبياءه بأحداث يستحيل على قوّة بشرية ادراكها قبل قرون من وقوعها، فتتمُّ في أوقاتها بكل دقائقها وقرائن أحوالها.

عد ٤١١

وفاة بتلمايس وما يعزى إليه من العناية بالترجمة السبعينية

لم يعش بتلمايس فيلادلفوس بعد عوده من سورية إلى مصر إلَّا سنتين وقضى نحبه سنة ٢٤٧ ق.م، وله من العمر ثلاث وستون سنة. ملك في ثماني وثلاثين سنة منها (على ما في قانون بتلمايس الفلكي) وترك ابنَين وابنة ولدتهم له ارسينوا بنت ليسيماك. أكبرهم بتلمايس افرجات ملك بعده وأصغرهم المسمى ليسيماك باسم خاله عصا أخاه فقتله، والبنت هي برنيس التي زوَّجها بانطيوكس الثاني. وكان لبتلمايس فيلادلفوس معائب ونقائص منها نفيه ديمتريوس فالر الفيلسوف الشهير وتسببه بموته لأنه أشار على أبيه عند مذكراته في شأن الخلافة بما يخالف مصلحة بتلمايس، وإن كان منطبقاً على الانصاف، ومنها أنَّ غناه الفاحش جرّه

إلى الإسراف والترف والعكوف على الملاذ كما يحدث عادةً. ومنها أنه لم يكن شجاعاً ولا رجل حرب على أنه كان له محامد ومآثر كثيرة منها محبته للعلم والعلماء، ورغبته في تقديم الصنائع ورواج سوقها وكرمه وجوده على العلماء والشعراء، حتى كان في وليجته كثير من مشاهيرهم. وقد زاد كثيراً في عدد كتب المكتبة التي أنشأها أبوه وأقام كثيراً من المدارس والمنتديات العلمية ووسَّع نطاق التجارة في بلاده، وعنى بنجاحها وتأمين طرقها وأحسن معاملته للتجار الأجنبيين ليكثر ترددهم إلى بلاده، وذلك مما أسعد مملكته وأنمى ثروتها. ورفع سرادق الأمن فيها وكان أساساً لنجاح مصر قروناً عديدة.

ومما يعزى إليه من المآثر عنايته بترجمة التوراة من العبرانية إلى اليونانية وهي الترجمة المعروفة بالسبعينية. فإنَّ كاتباً يونانياً اسمه ارستاي كان عاملاً عند بتلمايس فيلادلفوس كتب رسالة مطوَّلة أنبأنا بها أنَّ هذا الملك أشار عليه ديمتريوس فالر رئيس مكتبته المار ذكره آنفاً أن يجمل هذه المكتبة بترجمة لشريعة اليهود. فصوَّب مشورته وكتب إلى اليعازر رئيس أحبار اليهود أن يرسل إليه رجالاً خبيرين بشريعة اليهود وأهلاً لأن يترجموها إلى اليونانية. وأنفذ رسالته إليه بيد ارستاي المذكور وأطلق لمئة وعشرين ألفاً من اليهود المقيمين في مصر أن يعودوا إلى مواطنهم. فبعث إليه اليعازر اثنين وسبعين رجلاً من علماء اليهود ستة من كلِّ سبط من أسباطهم الاثني عشر. فترحَّب بتلمايس بهم وأكرم مثواهم فترجموا له التوراة أي أسفار موسى الخمسة إلى اليونانية في اثنين وسبعين يوماً في جزيرة فاروس (التي كانت عند مدخل مرفأ الاسكندرية ثم ألحقت باليابسة وأقيمت فيها منارة).

فأجزل جوائزه لهم وبعث هدايا ثمينة إلى رئيس الأحبار فصدَّق العلماء ارستاي هذه ورووها عنه. وقد أفرد يوسيفوس الفصل الثاني عشر من تاريخ اليهود لتفصيل أخبار هذه الترجمة وللثناء على بتلمايس فيلادلفوس. وروى فيلون الاسكندري والتلمود والقديس يوستينوس واكليمنضوس الاسكندري والقديس ايريناوس أنَّ بتلمايس أقام كلاً من المترجمين في مخدع منفرداً فكانت ترجماتهم متطابقة؛ وحسب القديس ايرونيموس هذا التفريق بين المترجمين من الأقاصيص، لكنه لم ينبذ رسالة ارستاي بل أجمع العلماء على صحتها. ولكن امترى في صحتها لويس فيغاس في صدد القرن السادس عشر وسكالينجر في أواخره. وتابعهما بعدئذٍ على رأيهما كثيرٌ من أهل النقد زاعمين أنَّ تلك الرسالة ليست لارستاي. قال الأب

فيكورو (في الموجز الكتابي عد ١٠٥): «وإن كان لتلك الرسالة سمة الأقاصيص إلَّا أنه لا يخلو أصلها من الصحة ومن نبذها من المنتقدين نبذاً مطلقاً وزعم أنَّ الترجمة اليونانية للتوراة وضعت خاصة لسدِّ حاجة اليهود المقيمين في الاسكندرية. فقد تجاوز حدّ الاعتدال كثيراً فيمكن أن يُظن ولا محالة أنَّ اليهود حسنوا وبالغوا في إيراد أخبار عن هذه الترجمة، ولكن لا يمكن البتة أن يقال أنهم اختلفوا. كل ذلك لأنَّ اسم الترجمة السبعينية نفسه الذي كان لهذه الترجمة من أقدم الدهر لا بدَّ أن قد كان منشأه عن حدث وضعي».

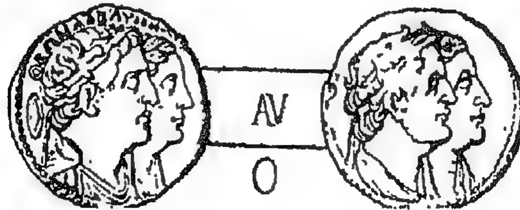
إنَّ المؤرخين العرب المسلمين متفقون على أنَّ التوراة اليونانية عنيَ بترجمتها بتلمايس الثاني. قال أبو الفدا في المجلد الأول من تاريخه (صفحة ٥): «وأما التوراة فهي التوراة التي اختارها المحققون من المؤرخين وليس فيها ما يقتضي الإنكار من جهة الماضي من عمر الزمان، وهي توراة نقلها اثنان وسبعون حبراً قبل ولادة المسيح بقريب من ثلاثمائة سنة لبطلميوس اليوناني الذي كان بعد الاسكندر ببطلميوس واحد (أي بطلميوس الثاني)... ولذلك اعتمدنا على هذه التوراة دون غيرها» ثم قال (في صفحة ٣٤): «لما مات الاسكندر ملك بعده بطلميوس بن لاغوس عشرين سنة ثم ملك بعده بطلميوس محب أخيه (ترجمة كلمة فيلادلفوس). وهو الذي نُقلت له التوراة وغيرها من كتب الانبياء من اللغة العبرانية إلى اللغة اليونانية... قال أبو عيسى أنَّ بطلميوس الثاني محب أخيه المذكور لما تولَّى وجد جملة من الأسرى منهم نحو ثلاثين ألف نفس من اليهود. فأعتقهم كلهم وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم. ففرح بنو إسرائيل بذلك وأكثروا له من الدعاء والشكر وأرسل رسولاً وهدايا إلى بني إسرائيل المقيمين في القدس. وطلب منهم أن يرسلوا إليه عدة من علماء بني إسرائيل لنقل التوراة وغيرها إلى اللغة اليونانية. فسارعوا إلى امتثال أمره ثم إنَّ بني إسرائيل تزاحموا على الرواح إليه... واختلفوا ثم اتفقوا على أن يبعثوا إليه من كلِّ سبطٍ من أسباطهم ستة نفر فبلغ عددهم اثنين وسبعين رجلاً. فما وصلوا إلى بطلميوس المذكور أحسن قراهم وصيَّرهم ستاً وثلاثين فرقة وخالف بين أسباطهم وأمرهم فترجموا له ستاً وثلاثين نسخة بالتوراة. وقابل بطلميوس بعضها ببعض فوجدها مستوية لم تختلف اختلافاً يعتد به. وفرّق بطلميوس النسخ المذكورة في بلاده وبعد فراغهم من الترجمة أكثر لهم الصلات. وجهَّزهم إلى بلدهم. وسأله المذكورون بنسخة من تلك النسخ فأسعفهم بنسخة فأخذها المذكورون وعادوا بها إلى بني إسرائيل ببيت المقدس. فنسخة التوراة المنقولة

لبطلميوس حينئذٍ أصحّ نسخ التوراة وأثبتها» هذا رأيه وكذا قال ابن خلدون في الجزء الثاني من تاريخه (صفحة ١٨٩).

قال كثيرون من المؤرخين أنَّ السبعين عالِماً ترجموا أسفار العهد القديم كلها، والصحيح الذي يعول عليه أنهم لم يترجموا إلّا أسفار موسى الخمسة. وهي التوراة أولاً لأنَّ التقليد الصحيح يُنبئنا بأنهم لم يترجموا إلَّا التوراة، وإنَّ باقي الأسفار التي تشتمل عليها الترجمة السبعينية الآن قد ترجمها غير أولئك العلماء والحقوها بترجمتهم للتوراة رغبةً في إفادة اليهود الذين توفر عددهم تلك الأيام في افريقية، حتى كان في الاسكندرية حينئذٍ خمسا السكان من اليهود والثلاثة الأخماس من غيرهم، ثم تيسيراً لاتمام فرضهم بتلاوة هذه الأسفار وقد كان أكثرهم يجهل العبرانية أو لا يُحسن ادراكها. قال القديس ايرونيموس (في تفسيره نبوَّة ميخا فصل ٢ عد ٩): «إنَّ الظاهر من تقليدات يوسيفوس واليهود أنهم (أي السبعين عالماً) لم يترجموا إلَّا أسفار موسى الخمسة وقدموها لبتلمايس الملك».

ثانياً لأنَّ المحققين أثبتوا أنَّ بين ترجمة التوراة وبين ترجمة غيرها من الأسفار في السبعينية اختلافاً في استعمال الألفاظ وتركيب الجمل، والنسق وذلك مؤذن بأنَّ هذه الترجمات لم تكن كلها في زمن واحد، ولم يترجمها مترجم واحد فترجمة التوراة كانت نحو سنة ٢٧٠ ق.م وترجمة سائر الأسفار كانت على التعاقب فقال فم الذهب (مقالة ٥ في متى): إنَّ الترجمة السبعينية كانت كأنها كاملة سنة ٢٣٠ ق.م وقال بعض المحققين إنها لم تكمل كلها إلَّا على عهد بتلمايس محب أمه الذي ملك من سنة ١٨١ إلى سنة ١٤٦ ق م.

وإليك مثالاً لسكة بتلمايس الثاني فيلادلفوس. فعلى الوجه الأول صورتا رأسه ورأس ارسينوا الثانية زوجه والتاج عليهما. وفي الوجه الثاني صورتا رأس أبيه ورأس أمه برنيس. وقد كُتب على الوجه الأول ثاون الغون أي الإلهين الأخوين.

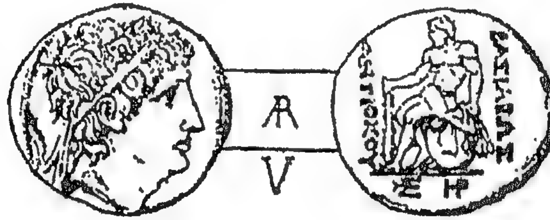


عد ٤١٢

قتل لوذيقة انطيوكس الثاني وامرأته برنيس ثم مقتل لوذيقة وأخذ سورية

لم يبلغ انطيوكس الثاني نعي حميه بتلمايس الثاني المذكور إلّا وطلّق ابنته برنيس، واسترد امرأته الأولى لوذيقة مع ابنائها. وكانت لوذيقة موقنة بتقلبه وعدم ثباته على حال. فخافت أن يطلّقها ثانيةً ويعود إلى برنيس ضُرَّتها فيخسر أبناؤها حق الملك بمقتضى عهدته مع بتلمايس بأن يخلفه ابناء برنيس لا ابناء لوذيقة. فدسَّت هذه سماً لانطيوكس قضى به سنة ٢٤٦ ق.م (بلين ك ٧ فصل ١٢ ويوسيفوس ك ١٧ فصل ١).

وإليك مثالاً لسكته فترى على الوجه الأول رأسه والتاج عليه. وعلى الوجه الثاني صورة هرقل جالساً على صخرة مغطاة بجلد أسد وبيمناه مثال الظفر ويسراه ممتدة إلى الصخرة وكُتب على جانبيه باليونانية باسيلاوس انطيوخس أي الملك انطيوكس.



وأنامت لوذيقة في فراشه رجلاً اسمه اريتمون يشبه الملك كلَّ الشبه هيئةً وصوتاً، فأوصى كثيرين من عائديه أن يرفق كبار الدولة والشعب بامرأته لوذيقة العزيزة وبابنها سلوقس. وأذاعت باسمه أمراً بأن يخلفه بكره سلوقس على منصة الملك، وبعد ذلك نشرت خبر موته فرقي ابنها سلوقس عرش الملك. على أنها لم تكن في مأمن من ضُرَّتها برنيس وابنها. وتعصَّب ملك مصر لهما فدبرت على إهلاكها بالاتفاق مع ابنها سلوقس، ودرت برنيس بمكيدتها ففرَّت إلى برج في دفنة (مدينة على العاصي في الجنوب الغربي من أنطاكية). فاغتالها من أقامتهم لوذيقة

على حراستها وقتلوا ابنها أولاً ثم أتبعوها به مع جميع المصريين الذين لحقوا بها إلى هنالك.

وتمت بذلك كما مرَّ نبوَّة دانيال الذي قال (فصل ١١ عد ٦): «وبعد انقضاء سنين يتعاهدان (أي ملك الجنوب وملك الشمال بتلمايس وانطيوكس). وتأتي بنت ملك الجنوب إلى ملك الشمال للمسالمة لكنها لا تملك قوة الذراع ولا يقوم نسلها وتُسلَّم هي والذين أتوا بها وولدها ومن قواها في تلك الأوقات».

ولما كانت برنيس مخفورة في دفنة ذاع خبرها فرقَّ لمصابها كثيرون من سكان مدن آسيا الصغرى. وأرسلوا جيشاً إلى انطاكية لانقاذها وسارع أخوها بتلمايس افرجات (الذي كان خلف أباه في ملكه) بعسكر جرار إلى سورية لينجي أخته وابنها، على أنّ كلا الجيشين لم يبلغا دفنة إلَّا بعد مقتل برنيس وابنها فصرف بتلمايس والآسياويون عزيمتهم إلى أن يثأروا بدمهما. واتَّحد الجيشان تحت قيادة بتلمايس فتشفى من غيظه العادل بقتله لوذيقة وباستيلائه على سورية وقيليقية، ثم عبر الفرات واستحوذ على كل مدن ما بين النهرين إلى بابل ودجلة (ابيان في السوريين فصل ٦٥ ويوستينوس ك ٢٧ فصل ١ والقديس ايرونيموس في تفسير نبوَّة دانيال فصل ١١)، ولولا أن ترغمه على العود إلى مصر فتنة نشأت في مملكته لدانت له أقاليم مملكة سورية كلها. وأقام في انطاكية أحد قادة جيشه ليَلي ما ملكه إلى جبل طورس وآخر ليلي ما وراءه. وعاد إلى مصر موقراً بغنيمة كبيرة قُدرَّت بما قيمته مئتان وعشرون مليوناً من الفرنكات عدا آنية الذهب والفضة وخلا نحواً من ألفين وخمس مئة تمثال بعضها من تماثيل مصر التي كان كمبيس أخذها إلى بلاد فارس من مصر عند حملته عليها. فسُرَّ بذلك رعاياه المصريون الشديدو التمسك بأصنامهم وشكروا له صنيعه ولقبوه حينئذٍ افرجات. وتأويله المحسن على قول بعضهم. وقد تمت بذلك نبوَّة دانيال الذي قال (فصل ١١ عد ٧): «ويقوم مكانه فرع من أصولها (أي من أصول بنت ملك الجنوب ويروى من أصوله أي أصول ملك الجنوب أي ملك مصر والمعنى واحد). ويزحف بجيش ويدخل حصن ملك الشمال ويجري فيهم عمله ويغلب ويسبي آلهتهم إلى مصر مع مسبوكاتهم والآنية النفيسة من الفضة والذهب. ويبقى أكثر من سني ملك الشمال (كذا في ترجمة الآباء اليسوعيين المطبوعة، في بيروت وفي بعض الترجمات ويحرز كلَّ نوع من الفوز على ملك الشمال). ويدخل ملك الجنوب إلى مملكته (أي مملكة الشمال)

ويرجع إلى أرضه (أي أرض مصر)». فوضوح هذه النبوّات جعل الملحدين يحسبونها أخباراً بعد وقوع أحداثها وقد أبنّا بطلان زعمهم.

ومما رووه أنَّ برنيس امرأة بتلمايس نذرت عند ذهاب الملك في هذه الحملة أن تجزَّ شعرها إن عاد سالماً وتقدمه للآلهة فوفت نذرها عند عوده غانماً. وأرسلت شعرها إلى هيكل في قبرص كان بناه بتلمايس فيلادلفوس تكرمةً للزهرة، وبعد قليل لم يوجد هذا الشعر فحنق الملك زوجها على كهنة الهيكل. وكان في اسكندرية وقتئذٍ فيلسوف من سامس اسمه قوتون فقال للملك اخماداً لغضبه إنَّ شعر برنيس نُقل إلى السماء وأشار إلى سبع كواكب قريبة من ذنب الأسد لم يكن علماء الهيئة قد وضعوا لها اسماً قائلاً إنْ هي إلَّا شعر برنيس. وتابعه على قوله بعض العلماء حينئذٍ تملقاً له وللملك فكان هذا اسم تلك النجوم إلى اليوم.

وروى يوسيفوس (في كتابه رد مزاعم ابيون) أنَّ بتلمايس عند رجوعه من حملته هذه مرَّ بأورشليم وقدَّم لإله إسرائيل كثيراً من الذبائح تكرمةً له لنصره على ملك سورية، ولعلَّ الكهنة أطلعوه على نبوّات دانيال فاعتقد أنَّ من أولاه الظفر إنما هو الإله الذي أنذر بهذه الأحداث بفم أنبيائه قبل وقوعها بقرونٍ وكان ذلك لسنة ٢٤٥.

عد ٤١٣

سلوقس الثاني وما كان في أيامه

إنَّ سلوقس الثاني لما رأى بتلمايس عاد إلى مصر جهَّز أسطولاً ومضى يستردّ إلى طاعته المدن التي ثارت عليه، ولكن ثار عاصف شديد غرَّق سفنه وعسكره ولم ينجُ إلَّا سلوقس وقليل من حاشيته. وخرجوا إلى البر عراة كأن السماء سلحت عليه الرياح والأمواج انتقاماً منه. كما قال القديس يوستينوس وكان شعبه قد مقتوه واشمأزوا من قتله زوجه وابنه. فلما حلَّت به هذه النازلة رقوا لحاله وقالوا كفاه عقاب الله له وعادوا إلى الاستمساك واللياذ بعقوته فتيسَّر له استرداد بعض أعمال ملكه وحشد جيشاً يدوخ به من استمروا على العصيان على أنه لم ينجح لأنَّ بتلمايس استظهر عليه وأهلك نصف جيشه. فعاد إلى انطاكية سنة ٢٤٤ق.م مذعوراً نادباً سوء حظه لأنه لم يلح طالع سعده إلَّا افل.

وكان أهل إزمير ومناسيا من محازبي أسرة ملوك سورية وقد مرَّ أنهم نزلوا انطيوكس ثأوس أبا سلوقس وستراتونيس أمه منزلة الآلهة، فتحالفوا على افراغ مجهودهم بإنجاد سلوقس، فشكر لهم وأولاهم نعماً ومواهب فنقشوا صورة معاهدتهم على نجدته على عمود من رخام، وقد كشف عن هذا العمود ونقله توما كونت دي اروندل إلى اكسفرد في أيام كرلوس الأول ملك انكلترا وهو الآن في كلية اكسفرد.

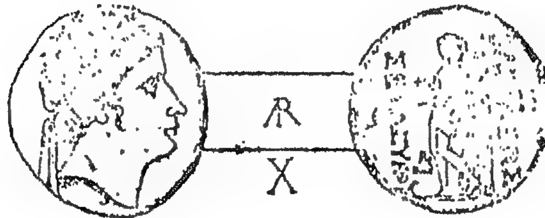
ورأى سلوقس أنَّ انضمامه إلى أخيه انطيوكس أكبر ذريعة يتوسل بها إلى تقويته. فلجأ إليه ووعده أن يوليه على أعمال آسيا الصغرى الملحقة بمملكة سورية على شريطة أن يأتي بجيشه ليتعاضدا في الحرب فقبل أخوه شرطه، وأتى إليه معتمدا لا المحافظة على مملكتهما بل اتخاذها لنفسه، لأنه كان طماعاً يلتقف كلَّ ما وصلت إليه يده حلالاً كان أو حراماً. ولذلك لُقب هياركس أي الصقر أو البازي. وعلم بتلمايس باتفاقهما عليه فصالح سلوقس خشية أن يقوى عليه الأخوان ووقَّع الملكان سنة ٢٤٣ ق.م على هدنة بينهما مدة عشر سنين.

أما انطيوكس فاستمرَّ يحشد الجند ويعدُّ العدد مظهراً أنه يصنع ذلك إنجاداً لأخيه ومبطناً ثل عرشه والملك مكانه. ودرى سلوقس بما أضمره أخوه فعبر جبل طورس قاصداً إيقافه، واحتجَّ انطيوكس بوعد سلوقس له بالولاء على أعمال آسيا الصغرى. وأنكر أخوه عليه التزامه بالقيام بوعده إذ تملَّص من الحرب التي استنجده من أجلها، فلم ينكفّ انطيوكس عن مطامعه ولا أجابه سلوقس على سؤاله. فانتشب القتال بينهما قرب انكوره في غلاطية واستظهر انطيوكس على أخيه ونجا سلوقس بنفسه. وشاع أنه قُتل على أنَّ انطيوكس قلَّما انتفع بانتصاره لأنَّ الجنود الذين استأجرهم من الغال صدقوا ما شاع عن قتل أخيه. فهمّوا أن يلحقوه ويصنعوا ما طاب لهم في آسيا بعد مقتل الأميرين. فاضطرَّ انطيوكس أن يدفع لهم كل ما كان له من المال لجنوده (يوستينوس ك ٢٧ فصل ٢). وعاد سلوقس وانطيوكس الأخوان إلى النزاع والقتال غير مبالين بانتزاع ارساس والي البرتيين واومان ملك برغام بعض أعمال مملكتهما. وبعد وقائع عديدة بينهما ظهر سلوقس على انطيوكس وهزمه، لكنه استمر يسطو على بعض الأماكن بما بقي معه من الجند إلى أن طُرد أخيراً من ما بين النهرين. ولجأ إلى ارياراط ملك الكبادوك الذي كان تزوج بابنته فنقم على حميه وصمَّم على ابعاده عنه فهرب

انطيوكس إلى مصر ليلجأ إلى بتلمايس عدو أسرته. فقبض عليه بتلمايس وأودعه السجن بتحرز، فبقي فيه إلى سنة ٢٢٦ ق.م فتيسَّر له الفرار ولكن قتله اللصوص في طريقه (ابيان في السوريين ك ٦٥ ويوستينيوس ك ٢٧ وايرونيموس في تفسيره نبوّة دانيال فصل ١١).

ولما أُريح سلوقس من القلق الذي أحدثه أخوه همَّ أولاً بتأمين مملكته ثم سار بجيشه نحو المشرق عازماً أن يكبح من ثاروا عليه. ويسترد الأقاليم التي أخذها منه ارساس والي البرتيين على أنه لم ينجح بحملته هذه وأُرغم أن يعدل عن عزيمته. لأنه حدث شغب في مملكته فاضطرَّه أن يسارع بالعود إليها ليُخمد سعير الثورة فيها وأن يدع مجالاً لخصمه ليتقوى ويستعِّد لحربه. وبعد أن أخمد سلوقس شبوب الفتنة في بلاده عاد لمحاربة ارساس. فكانت هذه الحملة شراً من الأولى لأنَّ جنوده انكسرت، ووقع هو أسيراً بيد عدوِّه. وكان البرتيون يعيِّدون كلَّ سنة ليوم انتصارهم هذا ويعتدونه أول يوم لتحرير بلادهم وسمّوا ارساس ملكاً عليهم. وكان عندهم بمنزلة كورش عند الفرس واسكندر عند المكدونيين. وقد عظَّم ملكهم حتى غالب الرومانيين فلم ينتصروا عليه، وأما سلوقس فبقي عند البرتيين خمس سنين أو ستاً إلى أن توفي سنة ٢٢٦ أو سنة ٢٢٥ ق.م بكبوة جواده به. ويُلقَّب بكلنيشيوس أي الظافر وقد ملك نحو عشرين سنة وترك ابنَين اسم الأكبر سلوقس والأصغر انطيوكس. وابنة زوجها لمتريدات ملك بنطوس وخلفه ابنه سلوقس فكان الثالث بهذا الاسم.

وإليك مثالاً لسكة سلوقس الثاني فترى في الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني صورة ابولون واقفاً وبيمناه حربة وقد ضربت في هرقلية وكُتب عليها سلوقس باسيلاوس أي سلوقس الملك.

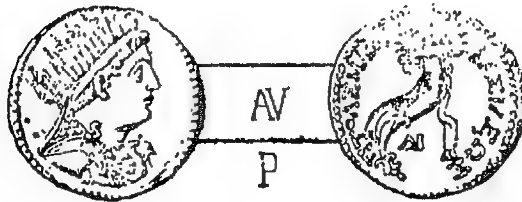


وروى يوسيفوس (ك ١٢ في تاريخ اليهود فصل ٣ و ٤) أنّه كان في أيام سلوقس الثاني وبتلمايس افرجات سنة ٢٣٣ ق.م أنَّ الونيا رئيس أحبار اليهود تقاعد عن دفع الجزية المعتاد دفعها كلَّ سنة لبتلمايس، وقدرها عشرون وزنة وذلك كناية عن مئة وعشرة آلاف فرنك. وتراكم المبلغ لتأخرهم عن الدفع سنين. فأرسل بتلمايس اتنيون أحد عماله إلى أورشليم ليُرغم أهلها على دفع الخراج الموظف عليهم وهددهم بالطرد من أرضهم. فعظم القلق في أورشليم وأوفدوا يوسف ابن أخي اونيا الحبر وكان اشتهر بذكائه وتقواه وانصافه. فنال حظوة كبيرة عند بتلمايس وأكرم مثواه وبرّأ ساحة عمه من جريمة التقاعد عن الدفع.

ثم طرحت ضرائب سورية المجوفة واليهودية والسامرة في المزاد ولم يدفع بعض تجار اليهودية في بدلها إلّا ثمانية آلاف وزنة، وذلك عبارة عن أربعة وعشرين مليوناً من الفرنكات. فالتزمها يوسف بستة عشر ألف وزنة أي ضعفَي البدل وسأله الملك كفيلاً يضمن المبلغ فقال إنه يقدِّم كفيلاً لا يعترض أحد على صلاحيته. فقال الملك: سمّه فقال: هو الملك والملكة فضحك الملك. ولما كان يتيقّن صدقه وعلو مداركه أقطعه تلك الأعمال عشر سنين. فقام بما وجب عليه مرضياً الملك وأهل وطنه. وأدركت الوفاة بتلمايس افرجات وخلفه ابنه بتلمايس فيلوباتر أي محبّ أبيه سنة ٢٢٢ ق م.

وإليك مثالاً لسكة بتلمايس الثالث. ففي الوجه الأول صورة رأسه مكللاً وفي الوجه الثاني صورة قرن رمز على الخصب والاقبال.

وقد كُتب عليها بتلمايس باسيلاوس أي بتلمايس الملك.

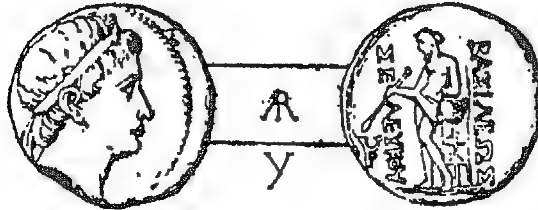


عد ٤١٤

سلوقس الثالث

أما سلوقس الثالث ابن سلوقس الثاني فملك سنة ٢٢٦ ق.م ولقّبوه بشيرونوس وتأويله الصاعقة، ولكن لم يكن في لقبه معنى يصدق عليه لأنه كان ضعيف الجسم واهن العزيمة. وكانت مدة ملكه قصيرة وكأنه لم تكن له سلطة لا على الجنود ولا في أعمال المملكة، ولولا تدبير ابن خاله اخايوس شؤون المملكة لاستحوذ عليها بتلمايس أو غيره من أعدائها، لأنها كانت في أسوأ حال من جراء أعمال أبيه الذميمة. ولما كان أثال ملك برغام استولى على آسيا الصغرى كلها حشد سلوقس جيشاً وسار به يصحبه اخايوس لقتال أثال. وترك تدبير المملكة لقائد اسمه هرمياس ولم يكن لسلوقس مال يدفعه إلى جنوده. وكان الجنود يزدرونه لضعفه فتحالف عليه نيكاتور واباتوريوس من عماله ودسّوا له سماً فقتلوه به سنة ٢٢٣ ق.م في السنة الثالثة لملكه. فثأر اخايوس من قاتليه لأنه أمات العاملين وكلَّ من اشترك معهما في هذه الجريمة الفظيعة، وأحسن تدبير الجيش والمدافعة حتى منع أثال أن يستفيد من هذه الفعلة الذميمة. ولولا حسن تدبيره لما بقي شيء من أملاك سورية وآسيا الصغرى. فعرض الجنود وكثيرٌ من أهل الأقاليم تاج الملك على اخايوس فأبى كلَّ الاباء وسعى بأن يكون التاج محفوظاً لوارثه الشرعي وهو انطيوكس أخو الملك المتوفي. وكان أخوه أرسله إلى بابل ليقتبس العلوم وحسن التربية فاستدعاه أخايوس إلى انطاكية. وأجلسه على العرش سنة ٢٢٢ ق.م وهو انطيوكس الملقَّب الكبير الآتي ذكره (يوستينوس ك ٧ فصل ٣ وغيره).

وإليك مثالاً لسكة سلوقس الثالث ففي الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني صورة ابولون وبيده اليمنى حربة وقد كُتب عليها سلوقس باسيلاوس أي سلوقس الملك.



الفصل الرابع

انطيوكس الثالث الملقَّب بالكبير

عد ٤١٥

حروب انطيوكس الأولى في شرقي المملكة وفي سورية

استوى انطيوكس الثالث على منصَّة الملك سنة ٢٢٢ ق.م وهمَّ بإصلاح شؤون المملكة وإعادتها إلى رونقها السابق. وبعث مولون أحد قوّاد جيشه ليَلي بلاد ماداي وأخاه اسكندر ليَلي فارس. وعهد إلى اخايوس المشار إليه بولاية أعمال آسيا الصغرى وأقام ابيجان رئيساً على حرسه. واستوزر هرمياس كما كان في أيام أخيه فاسترد اخايوس كلما كان أتال أخذه من مملكة سورية، وأكرهه أن يقتصر على مملكته في برغام. أما مولون واسكندر فازدريا حداثة الملك وجاهرا بالعصيان عليه. واستبدَّ كلٌّ منهما في ما ولي عليه فاستدعى انطيوكس رجال مشورته سنة ٢٢١ ق.م وسألهم ما يرون أيزحف بجيشه إلى المشرق ويكبت العاصين أم يسير إلى الجنوب ليستردَّ ما اختلسه ملك مصر من مملكته في سورية. فقال ابيجان إنه يلزم الملك أن يسارع إلى المشرق فإما أن يرهب العاصيان صولة الملك ويذلا له، وإما أن يصرّا فتبعث هيبته أهل البلاد على مقاومتهما وتسليمهما إليه. فقاطعه هرمياس الوزير وقال إنَّ مضيّ الملك بجيش يسير إلى العاصين يعرِّضه لخطر الوقوع في يد الثائرين، فالأولى أن يحمل على بتلمايس الذي لا همَّ له إلَّا في بلاده. فعمل بقول الوزير وعهد بقيادة الجيش لمحاربة مولون، وأخيه إلى كسنيون وتيودت، وسار الملك بفريق من الجيش نحو سورية المجوفة ليستردَّها من ملك مصر.

ولما بلغ الملك إلى سلوقية (السويدية) وجد لوذيقة ابنة متريدات ملك بنطوس أتوا بها ليتزوجها. فأقام ثمة مدة للاحتفاء بزفها إليه فكدَّر صفاء كأس الهناء خبر

انتصار مولون وأخيه على جيشه. فانتبه إلى غلطه بالانقياد لرأي هرمياس وهمَّ أن يُضرب عن سفره إلى سورية المجوفة، ويعود إلى الشرق ليخمد أنفاس الثائرين. فعارضه هرمياس قائلاً إنه يجدر بالملك أن ينطلق لقتال ملك مثله. ويحطّ من قدره أن يقاتل عماله إذا عصوا بل يبعث عليهم بعض رجال حربه فانقاد أيضاً الملك لقوله ضعفاً لا تيقناً بسداده. وأرسل إلى المشرق كسانيتاس ليترأس على القائدين المرسلين أولاً ولم يكن محنكاً ولا أهلاً لهذا المقام. وثقلت رياسته على سالفيه فانتصر مولون واسكندر على الجيش الملكي، وبدَّدوا شمله واستحوذوا على بابل وسائر مدن ما بين النهرين.

أما انطيوكس فسار بجيشه إلى سورية المجوفة وانتهى إلى السهول الواقعة بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي. فوجد تيودت والي سورية المجوفة من قبل بتلمايس قد حصَّن معابر الجبلَين تحصيناً محكماً، حتى يئس الملك من العبور بين تلك الحصون. واضطرَّ أن يعود على آثاره واستدعى رجال ندوته وفاوضهم في أمر العاصين. فعاد ابيجان إلى اثبات رأيه في المسارعة لكبتهما وأن لا يترك لهما مجالاً ولا زماناً لئلا يزداد قوة وجرأة؛ أما هرمياس فأخذ يُقرِّع ابيجان ويطعن به ويستحلف الملك أن لا يرغب عن حملته على سورية المجوفة، وإلَّا فيحسب ذلك عليه جبانة وخفة وتقلباً. وحاشاه من ذلك وهو الكمي الحكيم وأطرق المستشارون خجلاً. وصبر انطيوكس على جسارة هرمياس كعادته ولكن أجمع رجال الندوة على الإعجال بتدارك العاصين. وأظهر هرمياس من نفسه تصويب رأيهم وأخذ يُغري بالإسراع إلى تنفيذه، فسار الملك بجيشه إلى ابامبا (المعروفة بقلعة المضيق). على مقربة من حماه ولم يخرجوا منها إلَّا وحصل شغب بين الجنود لعدم وفاء علائفهم. فقلق الملك واعتاص عليه وجه التخلُّص فأتاه هرمياس يضمن له وفاء العلائف للجنود بحيث لا يسمح لأبيجان أن يصحبه في هذه الحملة. وكان في نيَّته أن يحطّ من قدر ابيجان في ذهن الملك وميله إليه عالماً أنَّ الملوك ينسون خدم رجالهم إن بعدوا عنهم. فثقل على الملك اجابة سؤاله وكان متيقِّناً حاجته إلى ابيجان لاخلاصه ومهارته في فنّ الحرب لكنه رأى أنَّ لا مناص له من ارضاء هرمياس. فأمر ابيجان أن يتخلَّف عنه في ابامبا، فسُرَّ هرمياس بنيل مأربه إلَّا أنه خشي أن يعود ابيجان لخدمة الملك فيثأر منه. فاحتال أن دسَّ بين أوراق ابيجان رسالة لفَّقها وأمضاها باسم مولون أحد الثائرين موذنة بمؤامرة يهتمّ بها ابيجان على الملك. وأمر هرمياس الكسيس والي قلعة

اباميا أن يمضي يوماً إلى ابيجان، ويبلغه أنه مأمور بالكشف عن أوراقه، ولدى الكشف وجد تلك الرسالة المزوَّرة. فأرسلها إلى الملك فلم يتلوَّم بفحص ولا محاكمة بل تلاها على مسمع بعض أعوانه، فاعتقلت ألسنتهم عجباً ودهشةً وأمر بقتل ابيجان فقُتل.

ثم عبر انطيوكس الفرات وكان فصل الشتاء فأراح جنوده مدة ثم جمعهم في ربيع سنة ٢٢٠ ق.م وباغت أحد العاصين، فظهر عليه ظهوراً تاماً وبدَّد شمل جنوده وبلغ به اليأس إلى أن انتحر. وكان أخوه اسكندر في فارس وكان لهما أخ آخر اسمه نيولاس فرَّ إلى اسكندر يخبره بما كان، ولما رأيا أنَّ لا قوة لهما على قتال الملك الظافر قتلا أولاً أمهما ونساءهما وأولادهما ثم انتحرا كيلا يقعا في يد الملك. فهذا جزاء من عصى ملكه. وعاند ولّي أمره ثم دان من بقي من عسكر العاصين للملك (بوليب ك ٥) فعاد إلى سلوقية على دجلة معتنياً بتدبير الأعمال التي أخضعها واختار لها عمالاً أمناء خبراء. ومضى بجيشه إلى جرجيا (كرجستان) فذُلَّ له ملكها ارتابان فصالحه على ما حسُن له من الشروط.

وبلغه وقتئذٍ أن قد وُلد له ابن فعمَّ السرور الملك وأعوانه والجنود. وطفق هرمياس وزيره يفكِّر كيف يغتال الملك ليكون ولياً على ابنه محرزاً السلطان المطلق في المملكة وكان الجميع يمقتونه لتشامخه وقحته، والشعب يئس من ظلمه وقسوته ولم يكن أحد يجسر أن يبلِّغ الملك شكاوي رعاياه من وزيره خيفة جوره. وكان للملك طبيب اسمه ابولوفان أحرز ثقته به وكان يدخل عليه دون حاجب. فقصَّ يوماً على الملك جور وزيره واعتسافه وهضمه حقوق الرعية وحذَّره من غدره له لئلا يحلّ به ما حلَّ بأخيه من الاغتيال. فإليك مثالاً للخدمة الصادقة ولنفع المقربين إلى الولاة إذا احتكوا وصدقوا. وما أحسن قول من قال إنَّ أعظم نعمة يمنُّ الله على الملوك بها إنما هي أن يقيم كلام المتملقين وصمت الصادقين. فانتبه الملك بنصيحة طبيبه إلى مراقبة أعمال وزيره فتحقق ما أسرَّه الطبيب إليه واعتزل يوماً من معسكره بحجَّة ترويح نفسه. واستصحب هرمياس ونفراً من الجند الموثوق بهم ولما خلا بهم المكان أمر الجند بقتل هرمياس فبطشوا به فجزاه الله بما جنى على ابيجان وغيره. فشمل المملكة السرور لقتله وتسارع أهل اباميا عند سماعهم بخبر مقتله إلى رجم امرأته وأولاده بالحجارة لشدَّة حنقهم من مظالمه (بوليب ك ٥ صفحة ٤٠١ وغيره).

عد ٤١٦

حرب انطيوكس وبتلمايس في سورية

قد عاد انطيوكس إلى انطاكية بعد أن أصلح أحوال الأعمال الشرقية في مملكته. وقضى ثمة فصل الشتاء مكثراً من مذاكرة وزرائه فيما يترتَّب عليه أن يصنعه لتأمين مملكته. وردِّها إلى مجدها السالف وكان حينئذٍ أمران مهمان: استنقاذ ما اختلسه بتلمايس من مملكته في سورية كما مرّ، واخضاع اخايوس الذي استبدَّ في ولاية آسيا الصغرى. وسُميَ ملكاً بعد أن كان أبي تاج ملك سورية كما رأيت. وأجمع الملك ووزراؤه على أن يحاربوا بتلمايس أولاً. وأمر الجنود أن يجتمعوا في اباميا ليسيروا إلى سورية المجوفة إلَّا أنَّ ابولوفان طبيب الملك أثبت في مجلس بحضرته أنَّ الحملة على سورية المجوفة وترك سلوقية وراءهم بيد أعدائهم غلط مبين. وكان موقع سلوقية عند مصبّ العاصي (في مكان السويدية الآن أو على مقربة منها). وكان بتلمايس افرجات عند غزوته سورية ليثأر بدم أخته برنيس استحوذ عليها وأقام فيها حامية مصرية. وكانت هذه المدينة مرفأ لأنطاكية عاصمة الملك فأورد ابولوفان كلَّ هذه الحجج بأجلى بيان حتى بعث الملك ووزراءه على العمل بقوله. فحاصر الجنود سلوقية وافتتحوها وطردوا المصريين منها ٢١٩ ق م.

ثم سار الملك بجيشه إلى سورية المجوفة. وكان تيودت واليها المشار إليه آنفاً قلب ظهر المجن لبتلمايس ووعد انطيوكس بتسليم هذه البلاد إليه، ذلك أنَّ أعوان بتلمايس محبّ أبيه زيَّنوا له أنَّ تيودت كان له أن يصنع أكثر مما صنع عند حملة انطيوكس الأولى كأن يقبض عليه أو يقتله. فاستدعى إلى اسكندرية فقرفه أعوان الملك وهدَّدوه بالقتل فبرّأ ساحته وأخرسهم بحججه. فردّوه إلى ولايته لكنه لم ينسَ افتراءهم عليه وسوء معاملتهم له. ورأى فحش الملك وأعوانه وعكوفهم على ملاذهم وتعسُّفهم الرعية وتقاعدهم عن فروضهم حتى قيل عن الملك أنه قتل أباه تعجيلاً لارثه الملك، وأنه لُقِّب بفيلوباتر أي مُحِّب أبيه من باب التسمية بالأضداد. وأمات أمه برنيس وأخاه ماكاس لئلا يزاحمه، فلمَّا رأى تيودت هذه الحال وسمع أخبار هذه الفظائع آثر أن يخدم مولى آخر. واستحوذ لدن عوده على صور وعكا وجاهر بميله إلى انطيوكس، وأخذ يراسله ويستدعيه ليغشى البلاد. وكان لبتلمايس عامل آخر في سورية يسمى نقولا ضبط معابر لبنان ليمنع انطيوكس من الاتيان إلى

فلسطين. ودافع شديد الدفاع إلى أن أُرغم على تخلية تلك المعابر. واستحوذ انطيوكس على صور وعكا حيث قبل تيودت جيشه بالترحاب. وكان في عكا مخازن المؤن والعُدد لجنود بتلمايس ففتحها انطيوكس. وكان لملك مصر هناك أربعون سفينة أمَّر انطيوكس عليها ديونات وأوعز إليه أن يسير بها إلى بالوس (فرمي). وعزم هو أن يزحف براً إليها ليفتح مصر، ولكن قيل له أنَّ الوقت حينئذٍ وقت فتح أسداد النيل فيستحيل المسير في أرض مصر. فأضرب عن عزمه وتشاغل بفتح مدن سورية الجنوبية ودان بعضها له طائعاً ثم استولى على دمشق بحيلة اصطنعها على دينون واليها. وكانت نهاية أعمال الحرب في هذه السنة سنة ٢١٩ ق.م حصار دورا (الطنطورا) التي كان نقولا قد حصَّنها. وأقام فيها مدافعاً دفاع الأبطال حتى قنط انطيوكس من فتحها وهادن نقولا أربعة أشهر. وأقام تيودت والياً على كلٍّ ما كسبه في هذه الحملة. وأرجع جنوده تقضي فصل الشتاء في سلوقية (السويدية).

وهمَّ بعضهم في مدَّة الهدنة بإيقاع الصلح بين الملكين وكان كلٌّ منهما يرغب في كسب الزمان، فبتلمايس ليتيسَّر له الاستعداد للحرب وانطيوكس لينتهز فرصة يردّ بها اخايوس إلى طاعته. وكان بتلمايس يدَّعي أنَّ سورية المجوفة وفينيقية والسامرة واليهودية وقعت في نصيب بتلمايس في قسمة المملكة بعد مقتل انتيكون بين بتلمايس وسلوقس وكسندر وليسيماك، ولذا يطلب بقاء هذه الأعمال في حوزته. وكان انطيوكس يزعم أنَّ الأعمال المذكورة وقعت في نصيب سلوقس ملك سورية وهو وارثه وخليفته في ملك سورية فهي له. وكان بينهما مشكلة أخرى فإنَّ بتلمايس كان يتطلَّب أن تشتمل عهدة الصلح بينهما اخايوس، وانطيوكس يرفض ذلك رفضاً شديداً معيباً على بتلمايس تشييعه لوالٍ عصى مولاه وهو يتحيَّن اختلاس ملكه.

فانقضت مدة الهدنة ولم يُقضَ أمر فعاد الملكان سنة ٢١٨ ق.م إلى المحاربة. فعهد بتلمايس إلى نقولا المذكور آنفاً بقيادة جيشه لما أبداه من بينات البسالة والأمانة. وامَّر على أسطوله باريجان وأوعز إليه أن يسير إلى موانئ فينيقية لضرب الأعداء. فجمع نقولا الجيش في غزة ثم سار به فضبط المعابر التي بين البحر ولبنان إذ لا بدَّ لأنطيوكس من العبور من هناك. وأما انطيوكس فأمر ديونات رئيس أسطوله أن يسيِّر سفنه للقاء العدو. وسار هو في رأس جيشه براً والتقى الأسطولان والجيشان عند معابر لبنان التي ضبطها نقولا. وانتشبت الحرب بحراً وبراً عند نهر

الكلب على ما يُظن. أما في البحر فكانت الحرب سجالاً، وأما في البر فاستظهر انطيوكس وأكره نقولا أن يتقهقر إلى صيدا تاركاً في ساحة القتال أربعة آلاف رجل بين قتيل وأسير، واتبع الأسطول المصري نقولا إلى مياه صيدا. فتعقَّب انطيوكس الجيش المصري بحراً وبراً إلى صيدا لكنه وجدها منيعة وعدد جيش العدو وافراً، وله ما يكفيه مؤناً وعدداً زماناً طويلاً. فأرسل أسطوله إلى صور وزحف هو بجيشه إلى الجليل فاستولى على مدن عديدة وعبر الأردن واستحوذ على تلك البلاد التي كانت نصيباً لسبطَي رأوبين وجاد ونصف سبط منسى. ودنا فصل الشتاء فعاد إلى السامرة وولَّى عليها ايبولوكس وشيراس اللذين تركا مولاهما بتلماس. وانحازا إليه وترك لهما خمسة آلاف من جنوده لضبط البلاد وأتى بباقي جنده يقضي فصل الشتاء في عكا (بوليب ك ٥ صفحة ٤٢١).

ثم في الربيع سنة ٢١٧ ق.م استؤنف القتال بين الملكين فإنَّ بتلمايس أرسل إلى فرمي سبعين ألف راجل، وخمسة آلاف فارس وثلاثة وسبعين فيلاً. وأخذ بنفسه أمرة جنده وأتى فخيَّم في رافيا في جهة غزة. والتقى جيشا العدوين هناك وكان جيش انطيوكس ينيف قليلاً على جيش عدوِّه. فإنه كان تحت امرته اثنان وسبعون ألف راجل وستة آلاف فارس ومئة فيل وفيلان. وحلَّ الجيشان على مقربة أحدهما من الآخر وكانت بينهما أولاً مناوشات على الماء والكلاء. ودخل تيودت المذكور آنفاً ذات ليلة المعسكر المصري يحجبه الظلام ويصحبه نفران من تبعته فظنَّه الجنود مصرياً. وانتهى إلى خباء بتلمايس عازماً أن يقتله ويدك ركن الحرب بضربة واحدة، فلم يجده فقتل طبيبه وهو يحسبه الملك وجرح اثنين فقلق الجيش ونجا تيودت في جناح الظلام وعاد إلى معسكره.

وفي الغد صفَّ الملكان جيشهما وقام كلٌّ منهما أمام صفوفه ليشجِّع جنوده. ولم تكتفِ ارسينوا أخت بتلمايس وامرأته أن تجرئ الجنود قبل التحام القتال بل لم تغادر بعلها في معمعة النزال. فظهر انطيوكس في ميمنة جيشه على ميسرة بتلمايس وتوغَّل في لحاقهم على غير رويَّة. فكان ذلك وبالاً عليه لأنَّ ميمنة جيش بتلمايس انتصرت على ميسرة جنده. وتحوَّلت لضرب قلب جنده من جانبه فقويت عليه وكسرته قبل أن يتمكَّن انطيوكس من العود لنجدته. ورقب أحد القادة القدماء حركة قسطل الحرب فاستدلَّ منها على أنَّ قلب جيشهم قد انكسر. ودلَّ انطيوكس على ذلك فأسرع عائداً لنجدة جنده ولكن فاته إصلاح غلطه لأنه وجد

عسكره تشتت شمله، فانحاز هو عن العدو إلى غزة تاركاً في ساحة القتال عشرة آلاف قتيل وأربعة آلاف أسير. ولم يرَ من نفسه القوة على استئناف القتال فعاد ببقية جنده إلى انطاكية تاركاً ما كسبه من البلاد. وتزاحمت أقدام الوفود من مدن فلسطين وفينيقية عند بتلمايس يبدون له خضوعهم وسرورهم بعودهم إلى ولايته على عادة الكثيرين من مواطنينا إلى اليوم أن يغادروا المغلوب شامتين ويتزلّفوا إلى الغالب متملّقين. وجاء في سفر المكابيين الثالث (فصل ١ وليس هو من الأسفار المنزلة) أنَّ بتلمايس أراد بعد انتصاره أن يجول في المدن التي استولى عليها وانتهى إلى أورشليم وقدَّم محرقات وتقادم لإله إسرائيل. ورغب في أن يدخل إلى قدس الأقداس الذي لم يكن الدخول إليه مباحاً إلّا لعظيم الأحبار مرة في السنة. فمانعه عظيم الكهنة واللاويون مبينين له حرمة المحل ونهي إلههم عن الدخول إليه. وعظُم قلق الشعب فلم ينثنِ الملك عن عزمه بل إزداد رغبة في الدخول. واتصل إلى موقف الكهنة فألقى الله عليه رعباً شديداً أسقطه على الحضيض. فحُمل إلى الخارج كأنه ميت ثم ترك المدينة وقلبه موعب حنقاً على اليهود ولسانه ناطق بالوعيد لهم. وأثار عليهم بعد ذلك اضطهاداً ذريعاً لا سيما على من توطّن منهم في الاسكندرية وحاول اكراههم على عبادة أصنامه.

أما انطيوكس فأرسل إلى بتلمايس بعد عوده إلى انطاكية يسأله الصلح لأنه رأى انكساره أذهب مهابته في أعين شعبه. وخشيَ أن يلاحقه بتلمايس من جهة ويثب عليه اخايوس من أخرى فيثلاً عرشه ويشطرا مملكته. وفوَّض إلى وفده أن يتساهلوا مع بتلمايس في التخلية عن الأعمال التي كانت سبب النزاع وهي سورية المجوفة أي كل ما بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي من البلاد وفلسطين وفينيقية. فوقَّع بينهما أولاً على هدنة مدة سنة وقبل انقضائها وقَّع على الصلح على الشرائط المذكورة أي أن يتخلى انطيوكس لبتلمايس عن فلسطين وفينيقية وسورية المجوفة. ورغب بتلمايس في هذا الصلح مع مقدرته على أخذ مملكة سورية كلها لراحته وحرصاً على ترفه وملاذه. فساء هذا الصلح شعبه وأفضى استياؤهم إلى الثورة عليه، ونكَّب عن حرب خارجية فدهمته حرب أهلية (بوليب ك ٥ صفحة ٤٢٨ ويوستينوس ك ٣ فصل ١ والقديس ايرونيموس في تفسير نبوّة دانيال فصل ١١).

وقد تمَّت بذلك نبوّة دانيال (فصل١١ عد ١٠) حيث قال: «ولكن ابني ذاك (سلوقس الثاني أبي انطيوكس الثالث وفي رواية أحد ابني ذاك) يتهيجان ويجمعان

جمهور جيوش كثيرة. ويزحف أحدهما (انطيوكس الثالث في حربه الأولى) ويطمو ويعبر ويحل ويحارب حتى إلى حصنه (أي حصن بتلمايس). فيستشيط ملك الجنوب ويخرج ويقاتل ملك الشمال (انطيوكس االثالث في الحرب الثانية). فيبرز جمهوراً عظيماً (من الجنود) فيجعل الجمهور (أي جمهور جنود سورية) في يده فيستأصل الجمهور (السوري) ويرتفع قلبه. ويصرع ربوات لكن لا يعتزّ» إشارة إلى ما مرّ من ثورة المصريين على بتلمايس.

عد ٤١٧

قتل انطيوكس اخايوس وانتهائه بغزوته إلى الهند

بعد أن اطمأنَّ انطيوكس بعقده الصلح مع بتلمايس صرف همَّه إلى قتال اخايوس الذي استبدَّ في آسيا الصغرى ليرده إلى طاعته. فعبر جبل طورس سنة ٢١٦ ق.م واتفق مع أثال ملك برغام على مهاجمة اخايوس عدو كليهما. فضايقاه من كلِّ جهة حتى أُرغم أن يترك ساحة الحرب وينزوي في مدينة سرد. فحاصره انطيوكس فيها وتعسَّر عليه فتحها مدة سنة ونيف كثُرت فيها الوقائع على الأسوار إلى أن فتحها انطيوكس بحيلة احتالها أحد قوَّاده. وفرَّ اخايوس إلى القلعة وتحصَّن فيها مدافعاً دفاع الأبطال ولكن خانه اكريتيان كان أحدهما في مصر فأرسله بتلمايس لينقذ اخايوس حليفه. وزوَّده مبلغاً وافراً من الدراهم وقال الخائن إنَّ له صديقاً في معسكر انطيوكس يخفر جانباً من القلعة المتحصِّن فيها اخايوس فيغريه بفتح مجال له للفرار. ومضى إلى صديقه وكشفا الأمر لانطيوكس وعاهداه أن يسلماه اخايوس بهذه الحيلة. فنقدهما مبلغاً آخر وأوصل أحدهما إلى اخايوس الرسائل التي أتى بها من مصر. فخُدع وخرج من حصنه ليهرب فقبضا عليه وسلَّماه إلى انطيوكس فقطع رأسه (بوليب ك ٥). وكان ذلك مصداقاً لقول الرسول (رسالته إلى طيطوس فصل ١ عد ٢): «إنَّ أهل قريطش (أي اكريت) كذَبّة ماكرون» وكان مقتل اخايوس لسنة ٢١٥ ق م.

ثم أقام انطيوكس بعد مقتل اخايوس مدة في آسيا الصغرى ينظِّم أمور مملكته وسار بجيشه سنة ٢١٢ ق.م نحو المشرق وكان ارساس الثاني ملك البرتيين انتهز فرصة حرب انطيوكس وبتلمايس واستولى على ماداي. فحاربه انطيوكس واستظهر

عليه وطرده من هذه البلاد وغنِم ما وجده فيها ولا سيما في هيكل انيا أو انايت الآلهة حيث وجد أعمدة مغشاة بالذهب. وكثيراً من الأجرّةِ مصنوعاً من فضة وبعضه من ذهب أيضاً. فسكّ ذلك انطيوكس فكان منه ما قدّره بعضهم باثنين وعشرين مليوناً من الفرنكات. ثم جدَّ انطيوكس في لحاق ارساس إلى بلاده وكانت بينهما وقائع عديدة فلم ينتصر انطيوكس على عدوّه كلَّ الانتصار. ولكنه قصَّر ولايته على تخوم بلاده ثم صالحه على أن تبقى له بلاد البرتيين ويلزمه أن يُنجد انطيوكس في محاربته أهل الأعمال التي ثارت عليه وكان ذلك لسنة ٢٠٨ ق.م.

وفي السنة التالية أي سنة ٢٠٧ ق.م زحف بجيشه إلى مملكة بكتريان في تركستان وكانت تخومها تتصل قديماً بالهند. فحارب ملكها اوتيدم وضايقه فأوفد إليه يطلب الصلح محتجّاً بأنه لم يكن من رعيّته وعصاه بل أنَّ أسلافه ملكوا هذه البلاد بما أراقوا من دمائهم في الحروب. وأبان له أنه إن طالت الحرب بينهما أتى التتر فأخذوا البلاد من كليهما. وكان انطيوكس أعياه الجهاد فقبِل الصلح وأرسل إليه اوتيدم ابنه فوقَّع على الصلح بينهما سنة ٢٠٦ ق.م وكان من شرائطه أن يقدِّم لانطيوكس فيلة فأخذها انطيوكس وعبر جبل قوه قاف وانتهى إلى الهند. فجدَّد عهدته مع ملكها وأخذ منه أفيالاً فكانت جملة الأفيال التي أتى بها في هذه الحملة مئة وخمسين فيلاً. ثم عاد في طريق فارس وبابل وما بين النهرين إلى انطاكية سنة ٢٠٥ ق.م وحملاته هذه أكسبته لقب الكبير (بوليب ك ١٠ صفحة ٦٢٠).

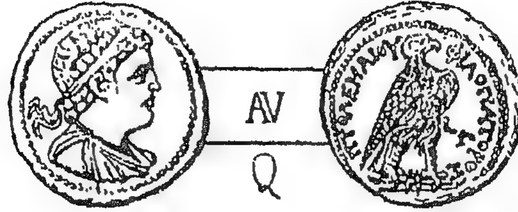
عد ٤١٨

وفاة بتلمايس فيلوباتر واسترداد انطيوكس فلسطين وما تبعها

لم تكن مدة مذ عاد انطيوكس إلى انطاكية إلّا وبلغه نعي بتلمايس فيلوباتر (محب أبيه). فقد توفي سنة ٢٠٤ ق.م شهيد الخمرة والملاذ كما أصاب ويصيب أكثر من يعكفون عليهما وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة. رُقي إلى عرش الملك في العشرين منها واستمر عليه سبع عشرة سنة. وخلفه ابنه بتلمايس ابيغان وعمره خمس سنين فقط.

وهذا مثال لسكة بتلمايس الرابع. ففي الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه.

وفي الوجه الثاني صورة نسر وجهه إلى اليمين. وقد كُتب عليها بتلمايس فيلوبتروس.



وكان انطيوكس ملك سورية وفيلبوس ملك مكدونية يتوددان بتلمايس ويُظهران الاستعداد لإنجاده، لكنهما على فور خبر وفاته هبّا لمناصبة طفله طامعين خلافاً لفروض الانسانية والعدل أن ينتزعا منه ملكه الذي ورثه عن أبيه. وعقدا عهدة على قتل الوريث وتشطير مملكة مصر ليأخذ فيلبوس كاريا وليبيا والقيروان ومصر. وانطيوكس ما بقي من المملكة واحتلَّ هذا فلسطين وسورية المجوفة. واستحوذ على مدنها وما يليها بوقعتين أو ثلاث. ولكن لم يهنأ الملكان بغنيمتهما الباردة إلَّا وسلَّط الله عليهما الرومانيين فنكلوا بمملكة فيلبوس. وانتزعوها أخيراً من يده وضايقوا انطيوكس وخلفاءه لأنَّ رجال دولة مصر لما رأوا مؤامرة فيلبوس وانطيوكس على ملكهم الصغير لجأوا إلى الرومانيين طالبين حمايتهم. وعرضوا عليهم الوصاية على الملك القاصر وتدبير شؤون المملكة إلى أن يبلغ اشده. وكان الرومانيون حرصى على أن لا يزداد فيلبوس وانطيوكس قوّة وصولة وغنى بأخذهما مصر، فلم يترددوا في قبول الوصاية وعيَّنوا ثلاثة مفوضين يحملون بلاغاً إلى الملكين لينكفّا عن الاعتداء على ملك مصر الذي هم أوصياء عليه، وإلَّا فيشهرون الحرب عليهما. وكان من المفوضين مرقس اميل لابيدوس أقامه رجال الندوة في روما وصيّاً على بتلمايس. فأتى اسكندرية وأخذ يتعاطى مهام وصايته فدبَّر شؤون المملكة كما يسَّرت له الحال ونصب ارستومان وزيراً للمملكة فأحسن تدبيرها بحكمة وأمانة (طيطس ليف ٣١ عدد ١٤).

واضطر انطيوكس أن يسير بجيشه إلى آسيا الصغرى لمحاربة أتال ملك برغام فانتهز ارستومان هذه الفرصة. فأرسل سكوباس قائد جيش مصر ١٩٩ إلى سورية

يسترد الأعمال التي أخذها انطيوكس. فأخذ اليهودية ومدناً كثيرة في غيرها وأقام حامية في قلعة أورشليم وعاد يقضي فصل الشتاء في الاسكندرية موقراً بالغنائم التي أخذها من المدن التي فتحها (القديس ايرونيموس في تفسير نبوَّة دانيال فصل ١١ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٣). أما انطيوكس فأرغمه الرومانيون أن يغادر محاربة أتال ويصطلح معه ففعل مكرهاً وعاد إلى سورية فلم يصبر على ما فعله المصريون في بلاده ابان غيابه. فجيَّش الجيش وغشا سورية الجنوبية وكان سكوباس رجع من الاسكندرية إليها فالتقى الجيشان في بانياس في قضاء مرج عيون. فظهر انطيوكس على الجيش المصري وبدَّده شذر مذر وفرَّ سكوباس إلى صيدا بعشرة آلاف جندي بقيت من جيشه. فتتبَّعه انطيوكس وحاصر المدينة وضايقه بمنع الزاد عن المدينة فأرسلت حكومة مصر ثلاثة من أحسن قادة جندها، ونخبة عسكرها لرفع الحصار فلم يكن لهم إليه سبيل لأنَّ انطيوكس احتاط في كل شيء. واضطر سكوباس أن يقبل شروطاً مذلِّلة له ولحكومته. وعاد بمن بقي من جنده إلى الاسكندرية عُزَّلاً لا سلاح لهم عراة ليس لهم من الملابس إلَّا ما يسترهم (بوليب ك ١٥ وابيان في السوريين ك ١ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ٢ فصل ٣). وسار انطيوكس من صيدا إلى غزة فناوأه أهلها لكنه قهرهم وأباح جنوده أن تنتهب مدينتهم. وترك حاميته في المعبر لئلا تتعقبه جنود مصر. وعاد على عقبه فأخضع لسلطته فلسطين كلها وسورية المجوفة. ولما علِم اليهود دنو انطيوكس من بلادهم خرجوا للقائه وبأيديهم مفاتيح مدنهم وحصونهم. وأتى أورشليم فخفَّ للقياه الكهنة والشيوخ بمعظم الاحتفاء وعاونوه على طرد المحافظين الذين كان سكوباس أقامهم في قلعة أورشليم. فجاد عليهم بنِعم وامتيازات وصدر أمره أن لا يدخل أجنبي داخل أسوار هيكلهم. وفي ذلك إشارة إلى محاولة بتلمايس أن يدخل جبراً إلى قدس الأقداس فأصابه ما أصابه كما مرّ (في عد ٣٩٨). وكان ذلك سنة ١٩٨ ق.م (يوسيفوس في المحل المذكور آنفاً).

قد كان بذلك تمام نبوَّة دانيال (فصل ١١ عد ١٢ وما يليه حيث قال: «فإنَّ ملك الشمال (انطيوكس الثالث) يرجع ويبرز جمهوراً أكثر من الأول وبعد انقضاء الأوقات والسنين (أي بعد بضع سنين) يزحف بجيش عظيم ومال كثير وفي تلك الأوقات يقوم كثيرون (أي فيلبوس ملك مكدونية وأهل سورية) على ملك الجنوب (بتلمايس ابيفان). ويترفَّع بنو عتاة شعبك (أي بعض اليهود) لتمام الرؤيا فيسقطون.

ويأتي ملك الشمال (انطيوكس الثالث) ويركم تلاً ويأخذ المدن المحصنة فلا تقوم أمامه أذرع الجنوب (المصريون) ولا شعب مختاريه ولا تكون قوّة للمقاومة (في وقعة بانياس). فالآتي عليه يفعل كيف يشاء (في حصار صيدا كما مرّ) ولا أحد يقوم أمامه فهو يقوم في الأرض الفاخرة (اليهودية) فتصير بتمامها تحت يده».

وكان انطيوكس مولعاً بالفتح وعزم أن يردَّ مملكة سورية إلى تخومها الأولى على عهد سلوقس نيقانور، فبعد أن استحوذ على سورية كلها همّ أن يصنع كذلك في آسيا الصغرى لكنه خشي أن يفترص المصريون غيابه ويسطوا على أملاكه. ويمنعوه اكمال رغائبه فأرسل وفداً إلى مصر يعرض زفاف ابنته قلوبطرة إلى بتلمايس ايبفان متى بلغ العروسان مبلغ الزواج. وإنه في يوم الزفاف يتخلّى عن أعمال سورية الجنوبية مهراً لبنته. فاستحسن رجال دولة مصر ما عرضه ووقّع الفريقان على عهدة بهذا المعنى. ووثق المصريون بكلام انطيوكس فتركوه يصنع ما عنَّ له في غير مملكتهم (القديس ايرونيموس في تفسيره نبوّة دانيال فصل ١١).

عد ٤١٩

حملة انطيوكس على آسيا الصغرى ومناصبة الرومانيين العداوة له

بعد أن اطمأنَّ انطيوكس من ناحية المصريين بعهدته معهم زحف بجيشه إلى آسيا الصغرى سنة ١٩٦ ق.م فاستولى فيها على مدن عديدة حتى افسس وكانت حينئذٍ ازمير وغيرها من المدن اليونانية في آسيا ناعمة باستقلالها وحريتها. ورأى أهلها انطيوكس عازماً أن يبسط سلطته عليها فجزموا أن يدافعوا عن استقلالهم. ورأوا من نفسهم الضعف من مناورة عدوِّهم القدير فلجأوا إلى الرومانيين طالبين حمايتهم. ورُئي في روما أنَّ لا مناص من قصر انطيوكس عن التقدم نحو المغرب لما ينجم عن ذلك من سوء العاقبة. فلبّوا دعوة المدن اليونانية بطيبة خاطر، وأرسلوا للحال وفداً إلى انطيوكس وكان قبل بلوغ الوفد إليه أرسل فريقاً من جيشه فحاصر ازمير. وعبر بالفريق الآخر من جيشه الدردنيل وأخذ بعض مدن تراسة. ووجد ليسيماكية متهدمة فأخذ يجدد بناءها ليجعلها عاصمة لملك ابنه سلوقس في تراسة. وبلغ يومئذٍ وفد الرومانيين إليه في تراسة يصحبهم بعض مفوضي المدن اليونانية في آسيا ولم يكن بين الملك والوفد في المقابلة الأولى إلَّا المجاملة. ولكن عند الشروع

في بيان الغرض من ارسال الوفد تبدّلت المجاملة بالنفرة لأنَّ كرنيلوس أحد الوفد طلب إلى انطيوكس أن يردّ على بتلمايس كلّ المدن التي اختلسها منه في آسيا، وأن يتخلى عن المدن التي كانت تخصّ فيلبوس ملك مكدونية إذ لا يحقُّ له أن يجني ثمرة حرب الرومانيين لهذا الملك، وأن يترك المدن اليونانية في آسيا وشأنها واستقلالها. وقال إنَّ الرومانيين يستغربون عبور انطيوكس إلى أوروبا بجيش جرار براً وبحراً ولا يتاولون ذلك إلّا بمعنى أنه يروم مناوأتهم. فأجابه انطيوكس أنَّ بتلمايس سيحصل على ما يروم عند زواجه بابنته كما أبرم الأمر بينهما وإنَّ المدن اليونانية في آسيا التي تلتمس البقاء على استقلالها يلزمها أن تسأل في ذلك انطيوكس لا الرومانيين. وقال إنه يجدِّد بناء ليسيماكية لتكون عاصمة لملك ابنه سلوقس لأنَّ تراسة تخصّه. فإنَّ جده سلوقس نيقانور أخذها من ليسيماك وقد أتى هو ليضع يده على ميراثه، وإنه لا يرى وجهاً لمنازعتهم له على المدن التي أخذها من فيلبوس وختم كلامه بأنه يسأل الرومانيين أن لا يتداخلوا فيما يكون في آسيا ويقتصروا على ما يكون في إيطالية.

فطلب الوفد أن يُرخَّص لمفوضي ازمير وليسيماك بالدخول إلى غرفة الاجتماع فرُخِّص لهم. وأطلقوا اللسان بشكواهم فاحتدم انطيوكس شديد الاحتدام وقال ليس الرومانيون قضاة في هذه الأمور فأرفض المجلس على نفرة وخلاف مبين.

وشاع وقتئذٍ أنَّ بتلمايس ابيفان ملك مصر توفي فأسرع انطيوكس إلى أسطوله ميمماً مصر ليستحوذ عليها. وترك ابنه سلوقس في ليسيماكية ليُتمّ ما بدأ فيه، على أنه علِم في أثناء مسيره أنَّ خبر وفاة بتلمايس لم يكن صحيحاً. فمضى إلى جزيرة قبرص عازماً أن يستولي عليها فهبَّ عاصف غرَّق كثيراً من سفنه وجنوده. فاضطرَّ أن يضرب عن عزمه وتحوَّل بما بقي من أسطوله إلى سلوقية (السويدية). ومضى يقضي فصل الشتاء في انطاكية (طيطوس ليف ك ٣٣ عد ٣٨ وبوليب ك ١٧ وابيان في حروب سورية صفحة ٨٦).

وأما خبر وفاة بتلمايس فمصدره مؤامرة دبَّرها سكوباس رئيس جيشه فإنَّ هذا رأى الجيش كله طوع يديه، وأنَّ الملك صغير لا يُحسن كبته فسوَّلت له نفسه أن يقتله ويأخذ تاجه ويستبِّد بملكه، فدرى بذلك ارستومان وزيره فقبض على سكوباس وأثبت جريمته وقتله وكلَّ من شاركه فيها (بوليب ك ١٧ صفحة ٧٧١).

عد ٤٢٠

حروب انطيوكس والرومانيين

لم يجاهر انطيوكس الرومانيين بالعداوة بل أحبَّ قبل ذلك أن يعزِّز قوَّته باتخاذ الملوك مجاوريه حلفاء له. فمضى إلى رافيا في تخوم فلسطين من جهة مصر بابنته قلوبطره فزوَّجها لبتلمايس ايفان. وتخلَّى عن سورية المجوفة وفلسطين مهراً لها على شرط أنه يُبقي له نصف دخل هذه الأعمال، كما نصَّ في المعاهدة على أنَّ هذا الزواج عاد وبالاً على انطيوكس لأنَّ ملكة مصر آثرت نفع زوجها على نفع لأبيها فتمت بذلك نبوَّة دانيال (فصل ١١ عد ٧) حيث قال: «ويجعل (ملك الشمال انطيوكس) وجهه ليدخل بقدرة مملكته كلها (أي مملكة بتلمايس). ثم يصالحه ويعطيه بنت النساء وفي نيَّته أن يفسدها لكنها لا تثبت ولا تكون له» بل تؤثر نفع بتلمايس بعلها.

بعد عود انطيوكس إلى انطاكية زوَّج بنتاً أخرى له باريارات ملك الكبادوك. وأراد أن يزوِّج الثالثة باومان ملك برغام فلم يرضها حرصاً على رضى الرومانيين عنه. ثم زحف انطيوكس إلى آسيا الصغرى فبلغ افسس عازماً على معاقبة أهل بيسيديا لشغبهم. وأرسل ابنه إلى أعمال المشرق ليؤمنها وقد وفد عليه حينئذٍ انيبال القرطاجني عدو الرومانيين الشهير. وقد كان استمرَّ في قرطاجنة ست سنين مستكناً بعد عقد الصلح مع الرومانيين. ثم وشي به أنَّ بينه وبين انطيوكس مراسلات الغرض منها محاربة الرومانيين في إيطاليا. فأرسل رجال ندوتهم وفداً للبحث عن هذه الوشاية حتى إذا وُجدت صحيحة أمروا أهل قرطاجنة بتسليمه إليهم. ودرى انيبال ما يسرون ففرَّ بنفسه إلى صور. وشخص منها إلى انطاكية فلم يجد انطيوكس فتتبعه إلى افسس وسُرَّ انطيوكس بلقياه لما عهد به من المهارة في الحرب ولما اعتاده من كسر جنود الرومانيين. وعزم على الحرب وأخذ يستعدّ لها سنة ١٩٦ وسنة ١٩٥ ق م. وتوفرت المداولات بين الفريقين سنة ١٩٣ ق.م ولكن لم يكن الغرض منها إلَّا كسب الوقت لتكملة العدد الحربية واستطلاع كلٍّ منها ما اعتمد عدوُّه. وكان الرومانيون انتصروا سنة ١٩٧ ق.م على فيلبوس الخامس ملك مكدونية حليف انطيوكس فاشتدَّ بأسهم واستخفّوا بانطيوكس. وكان انيبال يرى أنه يلزم محاربة الرومانيين في ايطاليا ولم يكن يطلب إلَّا مئة سفينة وعشرة آلاف

راجل، وألف فارس ليمضي بهم إلى قرطاجنة آملاً أن يبعث أهلها على الانضمام إليه، وإنه إذا لم ينجح بضمّهم إليه سار تواً إلى ايطاليا بأسطوله. ولا تعوزه الوسائل لإشغال بال الرومانيين، وأنه يلزم الملك أن يغشو اوروبا بباقي جيشه فيقيم في مكان ما في بلاد اليونان ويهدّد الرومانيين بأنه سيزحف إلى ايطاليا. وأرسل انيبال رجلاً من صور إلى قرطاجنة ليعد أهلها لقبول ما يرتئيه. فافتضح أمره وظهر مأربه فانهزم من قرطاجنة وأخبر رجال ندوة قرطاجنة الشعب الروماني بما كان.

وكان فيلبوس أحد وفد الرومانيين في آسيا الصغرى وعلِم أنَّ انطيوكس مشتغل في حرب بيسيديا، وأنَّ انيبال في افسس فأتاه وأكثر من الترداد إليه مجدّاً بأن يوثقه بأنَّ لا خوف عليه من قِبَل الرومانيين فلم يثق انيبال بكلامه. لكنه صيد بمكيدته بأن أوقعت كثرة تردداه إليه شبهة انطيوكس باخلاصه وتحرُّزه منه. ولذلك لم يعد يستدعيه عند عقد مشوراته. وشعر انيبال بتغيُّر الملك عليه فقابله. ومن جملة ما قال: «إني منذ صبوتي آليت أني أكون عدواً للرومانيين ما حييت وهذه اليمين هي التي جعلتني أحاربهم ستاً وثلاثين سنة. وأبعدتني عن وطني وألجأتني إليك فإن خيَّبت آمالي أرغمتني أن أجول الأرض مهيّجاً على عداوة الرومانيين. وإن عوَّلت على حربهم فاكتب اسمي في أعلى جريدة محبيك، وإن اضطررت إلى مسالمتهم فاسألنّ رأي غيري فلا أشير على أحد بالمسالمة لهم». فأظهر له انطيوكس عوده إلى الثقة به. وكانت منازعات بين عشائر اليونان في بلادهم واختلاف بين عشيرة الأتوليين وبين الرومانيين. فاستدعى اليونان انطيوكس ليأمِّن بلادهم ويفصل هذا الخلاف فأتى بلاد اليونان فاستاء الرومانيون من ذلك وعالنوه بالحرب فحاربه بعض اليونان. وانحاز بعضهم إلى الرومانيين. وأشار عليه انيبال أن يستقدم كلَّ جنده من آسيا فلم يُصغِ له أو ضاق الوقت على قدومهم. واستحوذ انطيوكس على مدن كثيرة في تساليا وأتى كلشيس (المعروفة الآن باغريبو في بلاد اليونان). فأُغرم ببنت مضيفه كأنه ابن عشرين سنة وقد جاوز الخمسين وذُهل عن مهامه وصرف مدة الشتاء بملاهي زواجه. ولهي جنده بملاذهم اقتفاءً به ولم يستفق إلَّا عندما علم أنَّ اشيل قائد الرومانيين قد باغته في تساليا. فهبَّ لمناوأته لكنه لم يجد من جند اليونان محازبيه إلَّا قليلين. وفاته تدارك خديعته ولم يتيسَّر له إلَّا أن يضبط مضايق جبل ترموبيل. وأن يستنجد الأتوليين (عشيرة يونانية). وحال المطر والعواصف دون بلوغ الجيش من آسيا ولم يكن يصحبه إلَّا عشرة آلاف رجل. وزحف إليه أشيل

بعسكر جرار وأرسل كاتون نائبه بفريق من الجند ليتسلّق على الجبل، ويتمكن من ضرب العدو ففعل. وشتت أولاً بعض جنود انطيوكس الذين عارضوه في طريقه. ثم شنَّ الغارة على قلب جيش العدو والتقاه أشيل من الجهة الأخرى فأوقع بأعدائه. وأُصيب انطيوكس بضربة حجر كسرت أسنانه فبعثه الألم على مغادرة ساحة القتال، ولم يستطع جيشه أن يقف أمام الرومانيين. فذُعر وأعمل الرومانيون السيوف فيهم فهلك منهم خلق كثير وكان ذلك لسنة ١٩٢ ق م. وأوفد أشيل البشائر إلى روما فطُرب أهلها بها وأمر رجال ندوتها باقامة صلوات عامة وتقدمة ذبائح للآلهة شكراً لهم على ما أولوا جنودهم من الظفر. وكانوا قدَّموا مثل هذه الذبائح عند مضي جنودهم للحرب وليت المسيحيين عباد الإله الحق يتشبَّهون بعباد الآلهة الكذبة في الخشوع لله وشكره. (طيطوس ليف ك ٣٦ وابيان في السوريين صفحة ٣٤٣).

أما انطيوكس فعاد إلى افسس راكناً إلى كلام المتملقين بأنَّ الرومانيين لا يجسرون أن يعبروا آسيا. وكان انيبال ناصحاً له أن لا يطمئن إلى تزويق كلامهم فأنه لا مناص له في أقرب حين من مدافعة الرومانيين في آسيا براً وبحراً. فيلزمه إما أن يتخلَّى عن الملك وإما أن يستعِّد للقتال لأنَّ الرومانيين عازمون أن يتولّوا على العالم كله. فأدرك الملك عظم الخطر الملِّم به وأمر بتعجيل الجيش من المشرق. وجهَّز أسطولاً وسار إلى تراسة فحصَّن ليسيماكية وغيرها من الحصون ليمنع الرومانيين من العبور إلى آسيا بالدردنيل. وعاد إلى افسس وأمر بوليكسانيد أمير أسطوله أن يضرب أسطول الرومانيين الذي كان قد بلغ إلى جزر الأرخبيل. فضربه ولكن ظهر الرومانيون عليه وغرَّقوا عشراً من سفنه. وأخذوا منه ثلاثة عشرة سفينة، فهمَّ انطيوكس بتجهيز أسطول آخر وأرسل انيبال إلى سورية ليأتيه بسفنها. وأقام ابنه سلوقس على فريق من الجيش ليحافظ على سواحل البحر ومضى هو بالفريق الآخر يقضي فصل الشتاء في فريجيا.

أما الرومانيون فأقاموا على قيادة جيشهم سنة ١٩٠ ق.م كرنيليوس شيبيون بدلاً من أشيل. وتطوَّع أخوه شيبيون الافريقي بأن يكون نائباً له. وزحفا بجيش الرومانيين من تسالية إلى مكدونية وتراسة ليعبرا به إلى آسيا. وأوعز إلى أسطول الرومانيين بأن يلتقيهم لتيسير معبر الجنود. وأتى لنجدتهم أسطول رودس فوثب أسطول انطيوكس على سفن الرودسيين في مرسى ساموس فغرق وحُرق تسعاً

وعشرين سفينة منه. فتغيَّظ الرودسيون منه والتقوا انيبال الذي كان آتياً بسفن سورية وفينيقية تجاه بمفيليا. فاستظهروا بمتانة سفنهم ومهارة بحارتهم على هذا القائد العظيم وهزموه إلى البر وحصروه حتى استحال عليه أن ينفع انطيوكس بشيء. وحاول انطيوكس أن يستميل إليه ملك بتنيا فخاب أمله لأنَّ الرومانيين سبقوه إلى صداقته. فعاد إلى افسس واستعرض جيشه. وأمر بوليكسانيد أمير أسطوله أن يضرب أسطول الرومانيين مرة أخرى ففعل ولكن انتصر الرومانيون عليه وأرغموه أن ينهزم إلى افسس. فأعمى الله بصيرة انطيوكس وأمر جيشه الذي كان في ليسيماكية وغيرها من المدن المجاورة الدردنيل أن يترك هذه المدن مخافة أن يقع في أيدي الرومانيين، فغادرها تاركاً ما كان له فيها من المؤن غنيمة باردة. وعبروا إلى آسيا (طيطوس ليف وابيان في المحال المذكورة).

ولما علم انطيوكس أن الرومانيين عبروا إلى آسيا تيقَّن هلاكه وودَّ لو نار الحرب على انطيوكس فذُعر وانهزم. ودارت الدوائر عليه لأنه قُتل من عسكره نحو من خمسين ألف رجل وأُسر ألف وأربعمائة ولم يُقتل من عسكر الرومانيين إلَّا ثلاث مئة راجل وثمانون فارساً، وانهزم انطيوكس وعاد مدحوراً إلى سورية. ولم يشهد هذه الوقعة انيبال إذ استمرَّ محصوراً في بمفيليا ولاشيبيون الافريقي لأنه بقي مريضاً. ودانت جميع مدن آسيا الصغرى إلى الرومانيين وكان ذلك لسنة ١٩٠ ق.م (طيطوس ليف ك ٣٧ وبوليب ف ٢٤ وابيان في المحل المذكور) وقد تمَّت بذلك نبوَّة دانيال حيث قال (ف ١١ ع ١٨): «يصرف (أي انطيوكس الثالث ملك الشمال) وجهه نحو الجزائر (أي جزائر البحر المتوسط وبلاد اليونان) ويأخذ كثيراً منها ويزيل قائد (روماني وهو شيبيون الآسياوي) تعبيره حتى لا يعود يعيِّره» وفي نسخة وعاره يقع عليه.

عد ٤٢١

الصلح بين انطيوكس والرومانيين وغرامة الحرب

لما بلغ انطيوكس إلى انطاكية بعث وفداً إلى القائد الروماني يرأسه انتيباتر ابن أخيه يسأل الصلح والأمان. فوجد الوفد القائد في افسس وكان أخوه شيبيون بلَّ من مرضه. فتوجهوا إليه أولاً ثم سار بهم إلى القائد فلم يلتمسوا معذرة لانطيوكس

بل سألوا الصلح باسمه متذللين ومما قالوا: «قد عفوتم أنتم الرومانيين أبداً بعزة نفسكم عن الملوك والشعوب الذين انتصرتم عليهم ولا شك في أنكم تصنعون الآن كذلك بعد انتصار جعلكم سادة العالم كلّه، حتى ضارعتم الآلهة فدعوا المنافسة للناس جانباً وارفقوا بالمائتين». فعقد القائد لجنة مشورته وجزموا على ما يجيبون ثم أدخلوا الوفد. وأخذ سيبيون الافريقي في الكلام فقال إنَّ الرومانيين لا تهولهم الشدَّة ولا ينتفخون بالظفر وعليه فلا يطلبون بعد الحرب إلَّا ما طلبوه قبلها، ولهذا يلزم انطيوكس أن يتخلّى عن كل ما وراء جبل طورس من آسيا الصغرى ويفي نفقات الحرب البالغة خمسة عشر ألف وزنة، وهي عبارة عن ثلاثة وثمانين مليوناً من الفرنكات، فينقد الآن خمس مئة وزنة ويدفع ألفين وخمس مئة وزنة بعد أن يُثبت رجال الندوة عهدة الصلح. ويُقسَّط الباقي أنجماً إلى اثنتي عشرة سنة فيدفع كل سنة ألف وزنة، ويقدّم عشرين رجلاً يختارهم الرومانيون رهائن ويُسلم إلى الرومانيين انيبال عدوَّهم وتواس الأتولي الذي تسبَّب باصطلاء هذه الحرب، فقبل الوفد هذه الشروط برمَّتها.

وبعث القائد بكوتا مع وفد انطيوكس إلى روما ليطلع رجال الندوة على ما كان ويلتمس اثباته، ونقد انطيوكس القائد الخمس مئة وزنة في افسس. وقدَّم له الرهائن وكان منهم انطيوكس ابنه الذي رقي بعداً إلى منصَّة الملك. وسمي انطيوكس ابيفان. أما انيبال وتواس فمذ شعرا بتعاطي أمر الصلح فرّا قبل التوقيع على عهدته. وكان بلوغ كوتّا ووفد انطيوكس إلى روما باعثاً على أعظم السرور والابتهاج، وفرضت الحكومة اقامة الصلوات العامة وتقدمة الذبائح للآلهة ثلاثة أيام متتالية شكراً للآلهة على ما قيَّضوا لجيشهم من الظفر. ثم مثل وفد انطيوكس بحضرة رجال الندوة ولم يسألوا إلَّا اثبات عهدة الامان والصلح التي أجراها شيبيون القائد فأثبتها رجال الندوة ثم أيدت في ديوان الشعب وكان ذلك ١٨٩ ق.م (طيطوس ليف ك ٣٧ عد ٤٥ وبوليب راس ٢٤).

وقد جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ٨ عد ٦ إلى ٨) استطراداً ذكر بعض الشروط المذللة التي وضعها الرومانيون على انطيوكس، فإننا نرى يهوذا المكابي عند كلامه في اقتدار الرومانيين وقهرهم الملوك يقول: «وكسروا انطيوكس الكبير ملك آسيا الذي زحف لقتالهم ومعه مئة وعشرون فيلاً وفرسان وعجلات وجيش كثير جداً. وقبضوا عليه حياً وعلى الذين يملكون بعده جزية عظيمة ورهائن ووضائع

معلومة. وأن يتركوا تملصاً من حرب جناها على نفسه دون روية في عواقبها. وبعث وفداً إلى روما يعرض شرطاً للصلح وكان رئيس الوفد هركليد البيزنطي وكان يأمل عقد الصلح بعناية سيبيون الافريقي لأنَّ ابنه كان أسيراً عند انطيوكس. فاستهلَّ هركليد كرمه في الندوة الرومانية بالتماس عذر لمولاه عن قبول الصلح فيما مضى لدواعٍ قد زالت الآن وإنه لرغبته في أن يثبت للرومانيين أنه لا يبقى ملكاً في اوروبا بل يترك كلما فيها للرومانيين، قد تخلّى عن ليسيماكية واستقدم جنوده منها وإنه مستعد أن يتخلَّى عن ازمير ولميساك واسكندرية في ترويا وغيرها من المدن لمحالفيهم. كما طلبوا إليه أولاً وإنه لا يأبى أن يدفع نصف نفقات الحرب. واختتم كلامه مذكراً رجال الندوة بتقلُّب الأيام وعدم ثباتها على حال، وإنه لا يمكن التعويل على حسن الحظ في كل آن ويكفي أن تشمل تخوم ملكهم اوروبا الواسعة الأرجاء، وإنهم إذا طمعوا أن يكون لهم شيء في آسيا فلا يأنف مولاه من تنويلهم ما يبتغون بحيث توضع تخوم راهنة لا يتجاوزها فيما بعد. فكان الجواب على كلامه أنَّ مولاه تسبب في انتشاب الحرب فيُغرَّم بدفع نفقاتها كلها وأنه لا يكتفي بتخليه عن المدن التي ذكرها بل يلزمه أن يُطلق الحرية لجميع سكان آسيا كما أطلقهالجميع اليونانيين. وإنَّ ذلك يستلزم تخليه عن كلما كان في آسيا الصغرى وراء جبل طورس.

ولما رأى هوكليد أنه لم ينجح في الندوة حاول أن يستميل شيبيون الافريقي. فأتاه واعداً من قِبل الملك بأن يرد عليه ابنه دون فدية. ولجهة أخلاق الرومانيين اسمعه أنَّ الملك ينقده مبلغاً وافراً ويخوِّله سلطاناً مطلقاً لديه إن عاونه على عقد الصلح. فأجابه شيبيون: «لا اتعجَّب من جهلك أخلاقي وأخلاق الرومانيين لجهلك حالة مولاك الذي أوفدك إلينا. وقد زعمت أنه لا ينبغي الاعتماد على الحظ في كلِّ حين وإنَّ هذا يحملنا على الصلح فمولاك بتركه لنا ليسيماكية وعدم معارضتنا في عبور الدردنيل قد وضع لنا حكمة في فمه، ونيراً على عنقه ولم يبقَ له إلَّا أن يذل لنا في كلما نريد، وأما ردُّه عليَّ فلا يغريني شيئاً فيما إني فرد أشكر له على هذا الإحسان وهذه الهدية الثمينة. ولكن بما أني رجل الحكومة فلا يحقُّ له أن يأمل شيئاً من قِبَلي فاذهب وقُلْ له إنه إذا وثق بي فليطرح سلاحه ويتقبَّل كلما يُعرض عليه من شرائط الصلح، فهذا ما يشير به عليه صديق مخلص وأمين له.

وقد رأى انطيوكس أنَّ الشروط التي توضع عليه بعد الانكسار في الحرب لا تكون أشدّ عليه منها قبلها فآثر الحرب ولو غُلب فيها على قبول شرائط الصلح

المذللة له دونها. واستعدَّ للقتال وعرف أنَّ شيبيون مريض فأرسل إليه ابنه وكان علَّة لشفائه. وبعد أن عانق ابنه طويلاً قال له اذهب فقُل لوفد الملك إني شاكر له وليس لي ما أبدي له به دليل عرفاني جميله إلَّا مشورتي عليه أن يؤخر إيقاد الحرب إلى أن يعلم إني عدت إلى المعسكر لأنه كان متخلفاً عن الجيش لمرضه. وكان يأمل أنَّ الملك يزيد التبصُّر في غائلة الحرب أياماً عملاً بمشورة شيبيون. وكان جيشه سبعين ألف راجل واثني عشر ألف فارس وأربعة وخمسين فيلاً. وكان جيش الرومانيين منظماً ورجاله مدربين في القتال وجيش انطيوكس لفيفاً مؤلفاً من أخلاط من أمم عديدة. ولما طال المكث وجيش الملك لم يبدِ حراكاً خشي الرومانيون أن يدخل فصل الشتاء فيؤذي البرد رجالهم في الخيَم. فصفَّ القائد الروماني صفوفه للحرب واقترب من معسكر الملك فخرجت جيوش انطيوكس إليهم، وانتشب القتال وظفر انطيوكس بفرسانه على ميسرة الرومانيين. ورأى مرقس اميليوس أحد أمراء الجيش فرار جنودهم فأسرع بفريق منهم منجداً ومؤنباً الهاربين على جبانتهم. وأمر جنده أن يبطشوا بطلائع الفارين ففعلوا. وآثر الفارون العود لساحة القتال على القتل فعادوا وأضرموا بلاد الهند وماداي وخيار بلادهم. وأخذوها منه وأعطوها لأومنيس الملك»

وكل ذلك يطابق ما رويناه عن المؤرخين القدماء، فالجزية الفاحشة والرهائن والتخلّي عن كل البلاد الواقعة وراء جبل طورس رويناها عنهم كما رأيت وربما كانت كلمة الهند خطأً من النساخ صوابه بلاد اليونان في آسيا، ولم يفِ انطيوكس الجزية المضروبة عليه كلها إذ لم يعش بعد الصلح إلَّا سنتين كما سترى. فلزم من ملك بعده أن يفي ما بقي من أنجمها في مدة السنين العشر مصداقاً لما جاء في الكتاب. وقد أجمع كلّ المؤرخين القدماء الذين كتبوا أخبار هذه الأحداث أنَّ اومنيس أو اومان ملك برغام عاون الرومانيين بنفسه ورجاله على انطيوكس. فأعطوه كلما طلب ولم ينفرد كاتب سفر المكابيين إلَّا بذكره أنَّ الرومانيين قبضوا على انطيوكس حياً وهذا يؤذن به قوله عهدة شديدة الجور والقسوة عليه (ملخص من معجم الكتاب لفيكورو في كلمة انطيوكس الثالث).

ذيل في سفرَي المكابيين

لما كنا نستشهد كثيراً سفرَي المكابيين في كلامنا الآتي كان الجدير بنا أن نُطرف قراءنا بلمعة يتبيَّن منها صحة هذين السفرَين وكاتبهما وترجمتهما وزمان

كتابتهما. فالكنيسة الكاثوليكية تحصي هذين السفرين بين الأسفار المنزلة سنداً إلى تقليد الآباء والمجامع منذ القرون الأولى للنصرانية. وما حواه هذان السفران من تاريخ سورية ومصر يطابق ما رواه المؤرخون العالميون القدماء. وتاريخ السنين الوارد فيها يوافق كلَّ الموافقة التواريخ التي تؤخذ عن مسكوكات الملوك اليونان في سورية ومصر. وقد نفى البروتسطنت السفرَين من عداد الكتب المنزلة، على أنَّ أكثر علمائهم الآن يثبتون أنَّ كل ما انطويا عليه من أخبار فلسطين والمكابيين يستوجب التصديق ولا مرية في صحته لكنهم يوردون بعض اعتراضات على بعض آياتهما نرِد أكثرها في محالها.

أما كاتب السفر الأول فغير معروف ويظهر من قوله في آخره: «وبقية أخبار يوحنا... مكتوبة في كتاب أيام كهنوتية». إنه كتبه لبضع سنين من موت سمعان الذي كان سنة ١٣٥ ق م. وربما كان ذلك قبل وفاة يوحنا هركان سنة ١٠٧ ق.م. وقد كُتب هذا السفر بالعبرانية لقول القديس ايرونيموس: «إني وجدت سفر المكابيين الأول بالعبرانية. وأما السفر الثاني فباليونانية وهذا ظاهر من نسق عبارته». على أنَّ النص العبراني الأصلي مفقود الآن وترجمته اليونانية عريقة في القدم، لأنَّ يوسيفوس اعتمد عليها في كتابه تاريخ اليهود وكثيراً ما انتحل كلماتها كلمة كلمة، وله ترجمة سريانية طُبعت في جامعة (الكتاب بعدَّة لغات) لاجاي الباريسية وفي جامعة ولتن اللوندنية، وهي مأخوذة عن اليونانية وبينهما طباق بيِّن.

وأما سفر المكابيين الثاني فليس تكملة للأول بل هو مستقلّ بنفسه وهو قسمان، حوى الأول رسالتين من اليهود في فلسطين إلى اخوتهم في مصر. وينطوي الثاني على تاريخ بعض الأحداث. وأما كاتبه فغير معروف أيضاً ويظهر أنه كان في أورشليم. وكان من اليهود المتخرجين بعلوم اليونان وقد كُتب في اليونانية كما مرّ، ولا يمكن أن يُعيَّن زمان كتابته لكن من المؤكد أنه لم يُكتب قبل سنة ١٢٤ ق.م ولا بعد سنة ٦٣ ق.م إذ أخذ بومبايوس أورشليم. فيمكن أن يكون قد كُتب في زمان يوحنا هركان الأول الذي قضى سنة ١٠٧ ق.م أو بُعَيده.

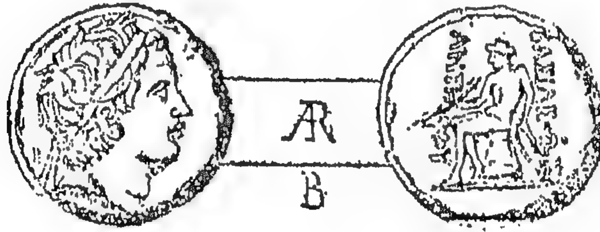
عد ٤٢٢

مقتل انطيوكس الكبير وذكره في سفرَي المكابيين

قد ارتبك انطيوكس في إعداد المال الذي وجب عليه للرومانيين فمضى مطوفاً

في أعمال المشرق يجبو ما يتكفَّل بوفاء الغرامة. وترك تدبير ملكه مدة غيابه إلى سلوقس ابنه الذي جعله وريثاً له، ولما انتهى إلى بلاد العيلاميين في فارس قيل له إنَّ في هيكل يوبيتر بالوس كنزاً عظيماً، فلم يقوَ الملك الوثني مع فاقته القصوى إلى المال على أن ينبذ هذه التجربة الشديدة. وسوَّلت له نفسه ذريعة تذرَّع بها للنهب محتجاً بأنَّ أهل هذه البلاد ثاروا عليه فدخل الهيكل ليلاً وابتزَّ كلما كان في الهيكل من أقدم الدهر، فحنق الشعب وثار عليه وقتله وكلَّ حاشيته. وكان ذلك لسنة ١٨٧ ق.م (روى ذلك سترابون ك ١٦ فصل ٧٤٤ والقديس يوستينوس ك ٣٢ فصل ٢ وديودر فقرة ٢٦ والقديس ايرونيموس في تفسير نبوَّة دانيال إذ قال (ف ١١ ع ١٩): «ويصرف (انطيوكس الكبير) وجهه إلى حصون أرضه ويعثر ويسقط ولا يوجد».

وهذا مثال لسكة انطيوكس الكبير ففي الوجه الأول صور رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني ابولون جالس وبيمينه سهم وفي شماله قوس كُتب عليها باسيلاوس انطيوخس أي الملك انطيوكس.



قد مرَّ أنَّ كاتب سفر المكابيين الأول ذكر استطراداً انطيوكس الكبير واستظهار الرومانيين عليه، لكن لم يقل شيئاً في موته. وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ١ عد ١٣ إلى ١٦): «فإنه إذ كان الملك في فارس يقود جيشاً لا يثبت أمامه أحد نكبوا في هيكل النَّاية بحيلة احتالها عليهم كهنة النَّاية. وذلك أنه جاء انطيوكس ومن معه من أصحابه إلى هناك متظاهراً بأنه يريد أن يقارنها وفي نفسه أن يأخذ المال في سبيل الصداق. فأبرز كهنة النَّاية الأموال ودخل هو مع نفر يسير إلى داخل المعبد ثم أغلقوا الهيكل. فلما دخل انطيوكس فتحوا باباً خفياً كان في أرض الهيكل وقذفوا حجارة رموا بها القائد ثم قطعوهم قطعاً وجزّوا رؤوسهم وألقوها إلى

الذين كانوا في الخارج». ولكن جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ٦ عد ١ فصاعداً) ما مؤداه:

«إنَّ انطيوكس الملك كان يجول في الأقاليم العليا وسمع بذكر المايس وهي مدينة بفارس مشهورة بأموالها من الفضة والذهب وأنَّ بها هيكلاً فيه كثير من الأموال وسجوف الذهب والدروع والأسلحة. فأتى وحاول أن ينهب المدينة فلم يستطع لأنَّ أهل المدينة ثاروا عليه وقاتلوه فهرب ومضى من هناك راجعاً إلى بابل. وجاءه مخبر بأنَّ الجنود التي وُجهت إلى أرض يهوذا قد انكسرت فبُهت واضطرب جداً وانطرح على الفراش وأوقع الغمّ في السقم ومات هناك انطيوكس في السنة المئة والتاسعة والأربعين» لتاريخ السلوقيين. وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ٩ عد ١ وما يليه) ما ملَّخصه: «إنَّ انطيوكس كان منصرفاً عن بلاد فارس بالخزي وكان قد زحف على مدينة اسمها بر سابويس. وشرع ينهب الهياكل ويعسف المدينة فبادر الجموع إلى السلاح فدفعوه فانهزم بالعار. ولما كان عند احمتاه بلغه ما وقع لنكانور وأصحاب تيموتاوس في اليهودية فاستشاط على اليهود مهدداً. فضربه الرب ضربة معضلة فلم يفرغ من تهديده حتى أخذه داء في أحشائه ومغص اليم في جوفه، ولم ينكفّ عن كبريائه بل كان يحثّ على الإسراع في السير حتى سقط من عجلة. فترضضت جميع أعضاء جسمه حتى نتن جسده وانبعثت منه الديدان وتساقط لحمه فارعوى عن ضلاله. وكتب إلى اليهود رسالة رقيقة (مثبّتة في الفصل المذكور) لكن الله لم يعفُ عنه بل مات بعد آلام مبرحة على الجبل في أرض غربة».

وقد كان في تفسير هذه الآيات وتوفيق إحداها مع الأخرى إشكال عند المفسرين لا سيما لعدم التفريق بين انطيوكس وانطيوكس بعدد أو لقب. كما نصنع الآن وقد سمي ثلاثة عشر ملكاً من ملوك سوريا باسم انطيوكس. ووهم كثير منهم أنَّ انطيوكس الذي ذكر في الفصل الأول من سفر المكابيين الثاني أنه قُتل في الهيكل وانطيوكس الذي ذُكر أنه مات في مرضه إنما هما واحد. ولا يخفى ما في ذلك من التناقض البيِّن بين موت أحدهما قتيلاً وموت الآخر من مرض وإن اتفق الخبران بذكر نهب هيكل. فهب الكاتب غير ملهم فلا ينقض قوله الأول بقوله الثاني، فالصحيح إذاً أنَّ انطيوكس الذي قُتل في الهيكل وجاء ذكره في الفصل الأول من سفر المكابيين الثاني إنما هو انطيوكس الثالث الملقَّب بالكبير. وقد ذكرنا

آنفاً أقوال المؤرخين القدماء إنه مات كذلك وإنَّ انطيوكس الذي مات مريضاً في الطريق والذي جاء ذكره في الفصل السادس من سفر المكابيين الأول وفي الفصل التاسع من سفر المكابيين الثاني إنما هو انطيوكس الرابع الملقَّب بابيفان مضطهد اليهود. وهو ابن انطيوكس الثالث. وقد أوجز صاحب السفر الأول بخبر موته وأسهب صاحب السفر الثاني فيه (ملخص عن المعجم الكتابي لفيكورو في كلمة انطيوكس الثالث).

إنَّ انطيوكس الثالث الكبير لم يضطهد اليهود كما فعل ابنه انطيوكس الرابع ابيفان على أنهم تحملوا أشدَّ الضيق ولا سيما في سني ملكه الأولى لدى حربه مع ملك مصر. قال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٢١ فصل ٣): «إنَّ محاربة هذا الملك (انطيوكس الكبير) لبتلمايس محب أبيه ولابنه الملقَّب ابيغان أوقعت اليهود في أشدّ الضيق غالباً كان أم مغلوباً حتى كانوا حينئذٍ أشبه بسفينة تلطمها الأمواج من كل جهة إذ كانوا في وسط المتحاربين». ولو لم يُقتل انطيوكس في هيكل النتَّاية لعاد إلى اليهودية ومصر ليحشد ما يفي به غرامة الرومانيين وليثأر من ملك مصر. ولهذا نرى اليهود الذين كتبوا الرسالة المثبتة في أول سفر المكابيين الثاني إلى اخوانهم المتوطنين في مصر يقولون: «إنهم شكروا الله الشكر الجزيل على أنه خلصهم من أخطار جسيمة». وقد رُقي انطيوكس هذا منصة الملك سنة ٢٢٣ ق.م واستمر عليها إلى سنة ١٨٧ ق.م فمدة ملكه ست وثلاثون سنة وخلفه ابنه سلوقس الرابع.

الفصل الخامس

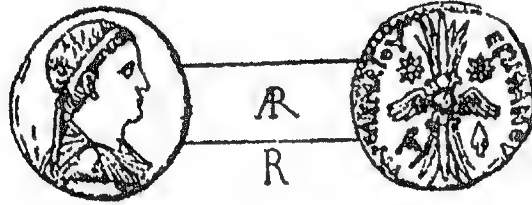
سلوقس الرابع وانطيوكس ابيفان ابنَي انطيوكس الكبير

عد ٤٢٣
سلوقس الرابع

خلف انطويكس الكبير بكره سلوقس الرابع ولُقِّب فيلوباتور أي محب أبيه. وكان خامل الذكر ذليلاً لإذلال الرومانيين مملكة سورية واثقالها بغرامة الحرب إذ كان يترتب عليه بمقتضي عهدة الصلح مع أبيه أن يدفع لهم كلَّ سنة ألف وزنة وهو عبارة عن خمسة ملايين وخمس مئة ألف فرنك. وقد مرَّ أنَّ بتلمايس ابيفان ملك مصر كان تزوج بقلوبطرة ابنة انطيوكس فولدت في سنة وفاة أبيها ابناً خلف أباه. وسُمي بتلمايس فيلوماتور أي محب أمه. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٤) إنَّ أهل المملكة كلها سُروا ببشرى ولادته وذهب كثيرون من أعيان سورية ووجهائها إلى الاسكندرية للتهنئة بمولده، ولما كان يوسف ابن أخت اونيا الحبر (قد مرَّ ذكره) هرماً لم يتمكن من المسير أرسل هركان أصغر بنيه. وكان هركان ذكياً رقيقاً لطيف المحاضرة فرحَّب الملك والملكة بهؤلاء الأعيان، وأدبوا لهم فأراد بعض الجلساء أن يسخر من هركان لصغر سنِّه فوضعوا أمامه العظام التي جرَّدوا اللحم عنها، وقال أحدهم للملك: «هاكَ مولاي كم من العظام أمام هركان فكذلك أبوه يلتقم دخل سورية كلها». لأنَّ الملك كان أقطعه إياها فضحك الملك وقال لهركان: من أين لك هذه العظام كلها؟ فأجابه: «لا عجب مولاي لأنَّ الكلاب تأكل اللحم مع العظام كما صنع هؤلاء وأما الناس فيأكلون اللحم ويتركون العظم كما صنعت». فضحك الملك حتى استلقى وخجل من عبثوا به، وقدَّم هركان وحده أكثر مما قدَّمه أعيان سورية معاً فأحرز مسرَّة الملك والملكة وأحبَّاه وأكرماه.

وعزم بتلمايس ايبفان أن يثير حرباً على سلوقس ملك سورية. وأخذ يستعدُّ لها فسأله أحد أعوانه من أين له المال لنفقة هذه الحرب، فقال له إنَّ أصدقاءه يغنونه من المال فتوهَّم أعوان الملك وعماله أنه يريد أن يثقلهم بنفقات الحرب. وكان تعسف الرعية وجار فيها وتوفرت ثوراتهم عليه وكان عماله يؤثرون نفعهم على إداء فروض الأمانة له. فدسّوا له سماً قضى به سنة ١٨١ ق.م بعد أن ملك أربعاً وعشرين سنة. وخلفه ابنه بتلمايس محب أمه المار ذكره وعمره ست سنين وكانت أمه قلوبطرة تدبِّر الملك.

وهذا مثال لسكة بتلمايس الخامس فترى في الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني صورة صاعقة مجنَّحة وقد كُتب عليها بتلمايس ايبفان.



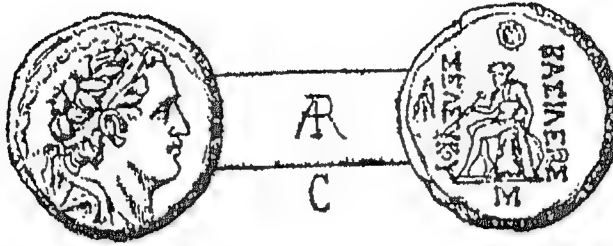
ولم يكن في أيام سلوقس الرابع ما يستحق الذكر إلّا ما رواه لنا صاحب سفر المكابيين الثاني في الفصل الثالث، وهو أنَّ أورشليم كانت حينئذٍ عامرة آمنة وسُنن الله محفوظة بعناية اونيا الكاهن العظيم، حتى أنَّ سلوقس كان يؤدي من دخله الخاص جميع النفقات اللازمة لتقدمة الذبائح. ووقع خصام بين سمعان من سبط بنيامين الذي كان مقلداً الوكالة على الهيكل، وبين اونيا الحبر لظلمٍ أجراه على المدينة. فانطلق سمعان إلى ابلونيوس. قائد جيش سلوقس في بقاع سورية وفينيقية. وأخبره أنَّ الخزانة التي في أورشليم مشحونة بالأموال وإنَّ ذلك لا يختص بتقدمة الذبائح. فأعلم ابلونيوس الملك بذلك وهو لحاجته المعلومة للمال أرسل هليودورس وأمره بجلب هذه الأموال ولما بلغ أورشليم أحسن اونيا ملتقاه. فحدَّثه هليودورس بما كوشف به الملك وسأله عن حقيقته. فأجابه الحبر إنَّ ذلك المال هو ودائع الأرامل واليتامى وإنه كله أربعون قنطار فضة (نحو مئتَي ألف فرنك). ومئتا قنطار ذهب (نحو ستة ملايين فرنك). ولا يجوز هضم حقّ من ائتمنوا قداسة الهيكل

ومهابته، فأصرَّ هليودورس على تنفيذ أمر الملك بحمل الأموال إلى خزانته. وكان في المدينة ارتعاش شديد وانطرح الكهنة بحللهم أمام مذبح الرب خاشعين. وكان فؤاد اونيا الحبر يتفطّر لعظم المصاب وتبادر الناس أفواجاً للصلوة العامة في الهيكل. وازدحمت النساء في الشوارع باسطات أيديهنَّ إلى السماء وشخص هليودورس إلى الخزانة بشرطه لكنَّ الله صرع كلَّ من اجترأ على الدخول إلى الهيكل. وأخذهم الإنحلال والرعب، وظهر لهم فرس عليه راكب مخيف وجهازه فاخر وضرب هليودورس بحوافر يديه، وتراءى له فتّيان عجيبا القوة بديعا البهاء فوقفا على جانبيه يجلدانه جَلداً متواصلاً حتى أثخناه بالضرب. فسقط لساعته على الأرض وغشيّه ظلام كثيف فحملوه إلى الخارج وهو أبكم لا يُبدي حراكاً. فبارك اليهود الرب الذي مجّد مقدسه وسأل بعض أصحاب هليودورس اونيا الحبر أن يبتهل إلى العلي ليمنَّ عليه الحيوة إذ كان أصبح على آخر رمق. وخشيَ الحبر أن يتّهم اليهود بمكيدة كادوها لهليوورس فقدَّم الذبيحة من أجل خلاصه فظهر الفتّيان بهيئتهما الأولى لهيلودرس، وقالا له عليك بجزيل الشكر لأونيا لأنَّ الرب منَّ عليك بالحياة من أجله وأنت فاخبر الجميع بقدرة الله العظيمة. فقدَّم هليودورس ذبيحة للرب. وخشع إليه وشكر اونيا ورجع بجيشه إلى سلوقس معترفاً بما عاينه وعاناه من أعمال الله. ولما سأله الملك من يراه أهلاً ليرسله إلى أورشليم قال إن كان لك عدو أو صاحب دسيسة فارسله إلى هناك يعد إليك مجلوداً إن نجا فإنَّ في الموضع قدرة إلهية لا محالة».

أما سلوقس الملك فجزاه الله عن هذه الجريمة بيد من أرسله لسلب الهيكل، وذلك أنَّ انطيوكس الكبير كان قدَّم ابنه الآخر انطيوكس رهينة للرومانيين بمقتضى شرائط عهدة الصلح كما مرّ. واستمرَّ انطيوكس هذا في روما ثلاث عشرة سنة. وأحبَّ سلوقس أن يستقدمه إليه لداعٍ يعلمه الله فأرسل ابنه الوحيد المسمى ديمتريوس ليكون بدلاً منه في روما فأصبح كلا وارثي الملك بعيدَين عن سلوقس. فابنه لسفره إلى روما، وأخوه لأنه لم يكن عاد إليه. فانتهز هليودورس فرصة غيابهما فدسَّ السم للملك ليأخذ تاجه فمات سنة ١٧٥ ق م. بعد أن ملك إحدى عشرة سنة، وتمّت بذلك نبوّة دانيال (فصل ١١ عد ٢٠) حيث قال: «ويقوم بعدهُ (أي بعد انطيوكس الكبير» من يجيز المختلس (أي يؤدي الرومانيين المختلسين غرامة الحرب) في فخر المملكة وفي أيام قلائل ينكسر لا في غضب ولا في قتال». وفي

رواية أخرى: «ويقوم مكانه رجل خامل الذكر وليس أهلاً لاسم ملك فيهلك بعد سنين قلائل لا بقتل ولا بقتال».

ودونك مثالاً لسكة سلوقس الرابع حيث ترى في الوجه الأول مثال رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني رسم ابولون وفي يمينه سهم وفي شماله قوس وقد كُتب عليها باسيلاوس سلوقس أي الملك سلوقس.



عد ٤٢٤

ملك انطيوكس الرابع الملقَّب ايفان وصفاته

لما كان انطيوكس عائداً من روما مرَّ بأثينا فبلغه فيها منعى أخيه سلوقس الرابع، وإنَّ لهليودورس الدعيّ جماً غفيراً من المحازبين، وإنَّ بتلمايس ملك مصر يدَّعي ملك سورية مدلى إليه بنسب أمه بنت انطيوكس الكبير، وأخت سلوقس وانطيوكس هذا. فلجأ انطيوكس إلى اومان ملك برغام وأخيه أتال فعاوناه على طرد هليودورس وارتقائه عرش الملك. وأخذ لنفسه لقب ايفان وتأويله الشريف على أنَّ أخلاقه السيئة الذميمة جعلت بعضهم يسميه ابيمان وتأويله والمجنون والأحمق، ولم يكتفِ بلقب ايفان بل سمى نفسه في بعض مسكوكاته إلٰهاً وغازياً.

وقد وصفه بوليب المؤرخ الذي كان معاصراً له بما يأتي: «إنه كان يحب العزلة عن قصره وأعوانه فيطوف هنا وهناك في المدينة مصحوباً بخادم أو خادمَين فقط. وكان كثير التردد إلى حوانيت الصاغة الذين يصنعون الحلى الفضية والذهبية مكثراً البحث مع الحفارين والنقاشين مبدياً غرامه بصناعتهم. وكان يوّد مخالطة سفلة

القوم ومحادثتهم ويأكل ويشرب مع ضيوفهم متطفلاً على موائدهم، وإذا علِم أنَّ بعض الشبان التأموا في موضع للهو باغتهم بحضوره بينهم. وكان أكثرهم يفر منه وكان يتعرَّى من ملابسه الملكية ويتدثَّر بالوشاح الروماني فيأخذ بيد بعض السفلة ويعانق غيرهم. ويسألهم أن ينتخبوه لمقام في مملكته، فإذا حاز الانتخاب استوى على كرسي من عاج على عادة الرومانيين وسمع الدعاوي متأنياً. وأبدى الرصانة والعناية في أحكامه حتى حار فيه العقلاء. فكان بعضهم يحسبه ساذجاً وبعضهم ممسوساً. وكان في تنويله المواهب للناس يهب بعضهم عظيمات وبعضهم ثمراً وبعضهم ذهباً. ويكرم أحياناً من لم يعرفهم ولم يرَهم وكان يستحمّ في الحمامات التي يستحمُّ بها عامة الناس وعند تكاثرهم فيها». فبهذه الصفات وصفه بوليب (ك ٢٦ فصل ١٠) وغيره من المؤرخين، وقالوا إنه كان مولعاً بالسكر بغيضاً للوجهاء متقلباً قاسياً كنيرون.

ولذلك صحَّ ما تنبَّأ به عليه دانيال إذ قال (فصل ١١ عد ٢١): «ويقوم مكانه (أي مكان سلوقس الرابع) حقير لا يُعطى مزية ملك لكنه يدخل بدسيسه ويحوز الملك بالتملُّق» (لاومان وأخيه كما مرَّ ولبعض كبراء قومه). وهو لم يملك ملكاً شرعياً لأنَّ الملك كان يحق لديمتريوس ابن أخيه سلوقس. وقد جاء ذكره في الأسفار المقدسة أكثر من كل من سواه لسبب اضطهاده اليهود. فقد ذكره دانيال(فصل ١١ من عد ٢١ إلى عد ٤٥) وسفر المكابيين الأول (فصل ١ من عدد ١١ إلى عد ٦٧ وفي الفصلين الثاني والثالث والسادس من عد ١ إلى عد ١٦) وسفر المكابيين الثاني (من الفصل ٤ عد ٧ إلى الفصل التاسع عد ٢٩) كما سترى.

عد ٤٢٥
غزوتا انطيوكس ابيفان الأولتان لمصر

كانت قلوبطرة أخت انطيوكس تدبِّر مملكة مصر بعد وفاة زوجها بتلمايس ايبفان بما أنها وصيّة على ابنها بتلمايس فيلوماتور (أي محب أمه). وقد أحسنت القيام بمهام الملك وأحكمت إصلاح شؤونه على أنها أدركتها الوفاة سنة ١٧٣ ق.م. فعُهد بتدبير الملك إلى ليناي أحد أشراف البلاد. وبتربية الملك الصغير إلى اولاي

أحد الخصيان. فطالبا انطيوكس بأن يردَّ على ملكهما فلسطين وسورية المجوفة فكان هذا الطلب باعثاً على الحرب بين المملكتين. وكان المصريون يحتجّون بأنَّ هذَين الاقليمَين وقعا منذ بادئ بدء قسمة للملك بين خلفاء اسكندر في نصيب بتلمايس الأول. واستمرّا كذلك إلى أن غصبهما انطيوكس الكبير من بتلمايس ابيفان. ثم وهبهما مهراً لابنته أم الملك بمقتضى عهدة الصلح بين انطيوكس الكبير وبتلمايس ابيفان؛ أما انطيوكس ابيفان فكان يجحد الأمرين ويدَّعي أنَّ سورية كلها مع فلسطين وسورية المجوفة وقعت بعد قسمة مملكة اسكندر في نصيب سلوقس نيقانور. وأنَّ شرط هبة الاقليمين مهراً لم يكن إلَّا تلجئة فهو فاسد باطل لم يُعمل به.

وكان حينئذٍ بلوغ بتلمايس فيلوماتور السنة الخامسة عشرة من ملكه وأُعدَّت الحفلات للاحتفاء بتتويجه على عادة المصريين، فأرسل انطيوكس ابولونيوس أحد كبراء دولته ليهنئ الملك، وجلَّ غرضه أن يكشف عما هناك من المقاصد والاستعداد لأخذ فلسطين وسورية المجوفة. ولدى عوده أنبأ الملك بتصميم المصريين على الحرب فسار إلى يافا متفقداً تخوم البلاد آمراً بتحصينها (مكابيين ٢ فصل ٤ عد ١١). ومرَّ على أورشليم فاستقبله أهلها بعظيم الاحتفاء ولم يغنهم ذلك عن شرّه وقسوته بعداً عليهم وعلى اليهود أجمعين واجتاز إلى فينيقية وعاد إلى انطاكية.

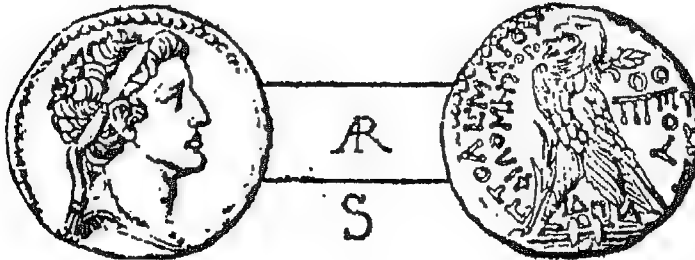
ثم أوفد ابولونيوس المذكور إلى روما يلتمس معذرة له في ابطائه عن إداء قسط الغرامة في أجله ودفعه حينئذٍ. ثم قدَّم لبعض وجهاء الشعب آنية ذهبية من قبل مولاه. وسأل تجديد العهدة معه والمودَّة له كما كانتا في أيام أبيه محققاً أنه حليف أمين مخلص الاخاء للرومانيين، وإنه لم ينسَ تفضُّلهم عليه وتلطُّفهم به إذ كان رهينة عندهم. وكانوا يعاملونه كملك فعاد ابولونيوس وصحبه في وفادته شاكرين ما لقوه من الاكرام والتجلَّة من قِبل رجال الندوة والشعب (طيطوس ليف ك ٤٢ عد ٦). فاطمأنَّ انطيوكس إلى صداقة الرومانيين ورأى أن لا ينتظر خروج أعدائه في مصر عليه فسار بجيشه إلى تخوم مصر.

وأرسل إلى الرومانيين وفداً آخر يثبت لهم حقوقه على فلسطين وسورية المجوفة لكي يوقفهم على المعارضة له لاتخاذهم حماية مصر، فالتقى الجيشان المصري والسوري على مقربة من بالوز (المعروفة الآن بفرما)، وانتشب القتال سنة ١٧١ ق.م فاستظهر انطيوكس على المصريين، واقتصر يومئذٍ على تحصين تخومه كيلا

يكون لأعدائه سبيل أو مطمع في الاجتياز إلى فلسطين. وعاد إلى صور يقضي فصل الشتاء فيها وأحلَّ جنوده في جوارها. وجدَّ في التأهب لحملة أخرى على مصر حتى إذا كان الربيع سنة ١٧٠ ق.م سيَّر جيشه براً وأسطوله بحراً لمناوأة بتلمايس فانتصر عليه ثانيةً. وأخذ بالوز وتوغَّل في مصر ونهى جنوده عن قتل المصريين فأناله حلمه ميلهم إليه. فكان كلما انتهى إلى بلد خرج أهله إليه مستسلمين فأخذ القطر المصري كله إلَّا الاسكندرية. أما بتلمايس ابن أخته فإما أُخذ في الحرب وإما أتى طائعاً إلى خاله انطيوكس. فأكرم مثواه وكان يعامله كصديق ونسيب ويأكل على مائدته. وأظهر انطيوكس من نفسه أولاً أن يدبِّر مملكة ابن أخته كوصي عليه حتى إذا تمكن في البلاد فعل ما شاء فيها. وانتهب وجنوده كلَّ نفيس فيها (مكابيين ١ فصل ١ عد ١٧ إلى ٢٠ ومكابيين ٢ فصل ٥ عد ١ وايرونيموس في تفسير نبوَّة دانيال وديودر في المنتخبات صفحة ٣١١).

أما أهل الاسكندرية فلمّا رأوا ملكهم بتلمايس فيلوماتور أمسى أسير خاله انطيوكس وأطلق له التصرُّف بملكه كيف شاء اعتبروه ساقطاً من منصَّة الملك. فرقّوا إليها أخاه سنة ١٦٩ق.م وسموه أولاً بتلمايس افرجات أي المحسن، ولما رأوا سوء تصرفه لقبوه كاشرجات أي المسيء. ثم سموه فيسكون (أي البطن الذي لا يهمه إلَّا بطنه) لأنه كان منهوماً مولعاً بالمآكل. أما بتلمايس فيلوماتور فلم يكن وغداً أو جباناً بطبعه لكن اولاي الخصي وزيره المذكور عوَّده الترف والعكوف على الملاذ في صبوته ليستمر على ذلك في شبابه. ويظلّ هذا الوزير الخائن قابضاً على زمام الملك مدبراً شؤونه كما يطيب له.

وهذه صورة لسكة بتلمايس السادس فيلوماتور ففي الوجه الأول مثال رأسه



متوجاً. وفي الوجه الثاني مثال نسر عليه سعف نخل واقف على صاعقة. وقد كُتب عليها بتلمايس فيلوماتور.

وقد تمّت بذلك نبوّة دانيال حيث قال: (فصل ١١ عد ٢٥ وما يليه) «ويستنهض (ملك الشمال انطيوكس ابيفان) قوّته وقلبه على ملك الجنوب (بتلمايس فيلوماتور) بجيش عظيم. فتهيّج ملك الجنوب للقتال بجيش عظيم قوي جداً لكنه لا يقوم لأنهم يفكرون أفكاراً عليه والذين يأكلون طعامه هم يكسرونه فيطمي على جيشه ويسقط قتلى كثيرون وقلبا هذين الملكين إنما هما للسوء يتكلمان بالكذب على مائدة واحدة وذلك لا ينجح».

عد ٤٢٦
تزلّف اليهود إلى انطيوكس وأخذه أورشليم وانتهابه الهيكل

إنّ معاشرة اليهود لأسيادهم اليونان في مصر وسورية أبعدتهم شيئاً فشيئاً عن إيمان أجدادهم وعاداتهم الحمية. فنشأ بينهم حزب يجنح إلى اقتباس تصورات اليونان والعمل بعاداتهم. وكان مركز هذا الحزب أورشليم واصحابه بعض الشبان المقلقين ذوي المطامع. وحسبوا تسلّم انطيوكس عرش الملك وسيلة يتزلّفون بها إليه لنفوذ كلمتهم في اليهودية. واتخذ الملك ذلك ذريعة للمداخلة في أمور قومهم ودينهم وأرسلوا إليه نفراً منهم يكاشفونه بما في نفوسهم ويستميحونه أن يُطلق لهم العمل به فتلقى رسلهم بالترحاب. وأباحهم العمل بكل ما نووا فأقاموا مدرسة وثنية في المدينة المقدسة واستطرقوا عادات اليونان. وهذا ما أشار إليه صاحب سفر المكابيين الأول (فصل ١ عد ١٢ وما يليه) حيث قال: «وفي تلك الأيام خرج من إسرائيل ابناء منافقون فأغروا كثيرين قائلين: هلمّ نعقد عهداً مع الأمم حولنا فإنّا منذ انفصلنا عنهم لحقتنا شرور كثيرة. فحسن الكلام في عيونهم وبادر نفر من الشعب وذهبوا إلى الملك فأطلق لهم أن يصنعوا بحسب أحكام الأمم. فأثبتوا مدرسة في أورشليم على حسب سنن الأمم. وعملوا لهم غلفاً وارتدّوا عن العهد المقدّس ومازجوا الأمم وباعوا أنفسهم لصنع الشرّ».

وكان من هؤلاء رجل اسمه ياسون أخو اونيا الثالث رئيس الأحبار، سوّلت له نفسه أن يأخذ الرئاسة من أخيه فتزلّف إلى انطيوكس وكان اسمه يشوع، فبدّله

بياسون وهو لفظ يوناني كما روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٥). وقد ذكر لنا خبره سفر المكابيين الثاني (فصل ٤ عد ٧ وما يليه) فقال ما ملخَّصه: «إنه وفد على الملك ووعده بثلاث مئة وستين قنطار فضة (مليون وتسع مئة وثمانين ألف فرنك) وبثمانين قنطار (أربع مئة وأربعين ألف فرنك) من دخل آخر. وضمن له فوق ذلك مئة وخمسين قنطاراً غيرها إن رخَّص له الملك في اقامة مدرسة لترويض الشبان. وأن يكتتب أهل أورشليم في رعوية انطاكية فأجابه الملك إلى ذلك. وتقلَّد الرياسة وما لبث أن صرف شعبه إلى عادات الأمم وألغى الاختصاصات التي أنعم بها الملوك على اليهود. وأبطل رسوم الشريعة وأدخل سنناً تخالفها. وأقام مدرسة لترويض الشبان وساق نخبتهم إليها فتمكن الميل إلى عادات اليونان والتخلُّق بأخلاق الأجانب حتى لم يعد الكهنة يحرصون على خدمة المذبح. واستهانوا بالهيكل وكانوا يستخفون بمآثر آبائهم ويتنافسون بمفاخر اليونان. ولذلك أحاقت بهم رذيئة شديدة لأنَّ مخالفة شريعة الله لا تذهب سدى. ولما جرت في صور المصارعة التي كانت تُجرى مرة في كل خمس سنين وكان الملك حاضراً أرسل ياسون رسلاً ومعهم ثلاث مئة درهم فضة لتقدَّم ذبيحة لهركليس (هرقل الأله). فاستهجن الرسل إنفاقها على الذبيحة، فقالوا أن تُنفق في بناء سفن. واستمر ياسون في الحبرية ثلاث سنين (أي من سنة ١٧٤ إلى سنة ١٧١ق.م) على أنَّ الله لم يترك هذه الجرائم دون عقاب، لأنَّ ياسون الذي قتل أخاه قتله منلاوس، وذلك أنَّ ياسون وجَّه منلاوس هذا إلى الملك يحمل إليه أموالاً ويفاوضه في أمور مهمة فتزلَّف منلاوس إلى الملك. وأحال رياسة الأحبار إلى نفسه بأن زاد ثلاث مئة قنطار فضة على ما أعطى ياسون. فرجع ومعه أوامر الملك وكانت له أخلاق غاشم عنيف وأحقاد وحشٍ ضارٍ. فطرد ياسون وفرَّ إلى بلاد العمونيين لكن منلاوس لم يفِ الملك ما وعده به من أموال، واستخلف ليسيماكوس أخاه وسرق آنية ذهبية من الهيكل أهدى بعضها إلى اندرونكس الذي كان الملك أقامه نائباً عنه مدة غيابه في طرسوس (ترسيس). وباع بعضها في صور وغيرها فأقام اونيا الحجة عليه وهو معتزل في دفنة (على مقربة من انطاكية). فأغرى منلاوس اندرونكس أن يقبض على اونيا فأرسل إليه رجلاً خدعه. وعاهده بقسم حتى خرج من حماه فاغتاله ولم يرْعَ للعدل حرمة. وشقَّ على كثير من سائر الأمم قتله بغياً، ولما عاد الملك إلى انطاكية رفع إليه الأمر فاستاء جداً. فنزع الأرجوان عن اندرونكس ومزَّق حلله

وأطافه في المدينة. وقتل قاتل اونيا في المكان الذي اغتاله فيه، وأما ليسيماكوس فسلب أيضاً باغراء منلاوس أخيه كثيراً من مال الأقداس. وذاع خبر سلبه واجتمع الجمهور عليه فسلّح ثلاثة آلاف رجل للتنكيل بهم، فتناول بعضهم حجارة وبعضهم هراوى وبعضهم رماداً حثوه من كلٍّ جانب على أصحاب ليسيماكوس. فجرحوا بعضاً وصرعوا بعضاً وهزموهم بأجمعهم وقتلوا سالب مال الأقداس عند الخزانة. ورفع كبراء اليهود الدعوى على منلاوس إلى الملك وهو في صور ورأى منلاوس نفسه محكوماً عليه. فأرشى بطلماوس أحد أعوان الملك بمال جزيل فاستمال الملك إليه وحكم بتبرئته وهو علّة كل شرّ. وقضى بالموت على ثلاثة رجال من اليهود كان الجمهور أرسلهم لاقامة الدعوى عليه وحلَّ بهم العقاب الجائر، فشقَّ هذا الجور حتى على الصوريين. وبذلوا نفقات دفنهم بسخاء واستقرّ منلاوس في الرياسة وكان يزداد خبثاً وشراً وضراً لأهل وطنه. وجاء في الفصل الخامس في سفر المكابيين الثاني المذكور (عد ٥ وما يليه) ما مؤداه: «وأرجف قومٌ أنَّ انطيوكس مات في مصر فاتخذ ياسون (الذي كان فرَّ إلى بلاد العمونيين) جيشاً ليس بأقلّ من ألف نفس وهجم على أورشليم بغتة ودفع الذين على الأسوار. وأوشك أن يأخذ المدينة فهرب منلاوس إلى القلعة وطفق ياسون يذبح أهل وطنه بغير رحمة ولم يفطن أنَّ الظفر بالاخوان إنما هو عين الخذلان. لكنه لم يحز الرئاسة لأنَّ الجمهور تقوّى عليه فهرب ثانيةً إلى أرض بني عمون. فطرده ارتاس زعيم العرب وجعل يفر من مدينة إلى أخرى والجميع ينبذونه ويمقتونه مقت من هو قتّال لأهل وطنه حتى دُحر إلى مصر، ثم مات غريباً جزاءً لتعزيبه كثيرين ولم يبكه أحد عقاباً له لأنه أبكى كثيرين».

ولما سمع انطيوكس بثورة ياسون اتّهم اليهود بالانقضاض عليه فزحف من مصر ببعض جيشه وأخذ أورشليم عنوة. وأمر جنوده أن يقتلوا كلَّ من صادفوه ويذبحوا المختبئين في البيوت. فطفقوا يهلكون الشبان والشيوخ والنساء والأطفال حتى أهلك منهم ثمانين ألفاً في ثلاثة أيام. وبيع منهم عدد ليس بأقلّ من عدد القتلى، ودخل الهيكل وكان دليله منلاوس الخائن للشريعة والوطن. وأخذ من الآنية المقدسة مع ما أهدته ملوك الأجانب تكرمةً لموضع المقدس. فكان ما حمله انطيوكس من الهيكل ألفاً وثماني مئة قنطار وبادر إلى الرجوع إلى انطاكية وكان ذلك لسنة ١٧٠ ق.م. طالع أيضاً سفر المكابيين الأول (ف ١ عد ٢١ وما يليه).

عد ٤٢٧

حملة انطيوكس الثالثة على مصر

قد مرَّ (في عد ٤٢٥) أنَّ الاسكندريين أسقطوا بتلمايس فيلوماتور عن منصة الملك إذ رأوه أسير خاله انطيوكس ورقوا إليها بتلمايس افرجات أخاه. فلما بلغ ذلك انطيوكس تذرَّع به للعود إلى مصر. فجهَّز حملته الثالثة عليها مُظهراً أنه يريد ارجاع ابن أخته الملك المعزول إلى ملكه ومبطناً الاستيلاء المطلق على مملكة مصر. وسار بجيشه تواً إلى الاسكندرية عامداً إلى أن يحاصرها، فاستشار بتلمايس افرجات وزيرَيه فأشارا عليه أن يستدعي جميع قواد الجيش ويفاوضهم في طريقه للتملّص من النازلة. وبعد مفاوضات عديدة أجمع رأيهم على أنَّ قرائن الأحوال تقضي عليهم بمصالحة انطيوكس، وأن يكلّف سفراء دول اليونان الذين في الاسكندرية أن يتوسطوا الصلح. فمضى هؤلاء السفراء يصحبهم مفوَّضان من قِبل بتلمايس إلى انطيوكس. فتقبلهم بالترحاب وأكرم مثواهم ووعدهم أن يصغي في الغد لما يكاشفونه به، ولما كان اليوم الثاني تكلّم سفير اخائيا أولاً ثم غيره من السفراء وأجمعوا على أنَّ اولاي وزير بتلمايس فيلوماتور هو الذي تسبَّب بالحرب بسوء تصرفه، وحمله الملك الصغير السن عليها. وتطرقوا إلى مدح الملك الجديد وتخميد غضب انطيوكس عليه ليستميلوه إلى تعاطي الصلح معه. فوافقهم انطيوكس على ما ذكروا من سبب الحرب، وأخذ يؤيِّد حقه في الاستيلاء على فلسطين وسورية المجوفة مورداً حججه على ذلك. وأبرز صكوكاً تبيِّن منها حقه في الولاية على هذَين الاقليمَين حتى أقرَّ له به أعضاء هذه اللجنة (بوليب فصل ١٨). وأرجأ الكلام في شرائط الصلح إلى وقت آخر وجعلهم يرجون عقده.

على أنه بعد هذا الجواب ارتحل من محله وحلَّ تجاه الاسكندرية وأخذ في حصارها، ولما رأى ذلك بتلمايس افرجات وأخته قلوبطرة وجَّها وفداً إلى روما يشكوان سوء حالهما، ويستنجدان الشعب الروماني. فمثل الوفد أمام رجال الندوة وعليهم ثياب الحداد وقالوا إنَّ جميع الشعوب والملوك يجلّون سلطة الشعب الروماني ولا سيما انطيوكس لما لهذا الشعب الكريم عليه من الأيادي، وعليه فإذا أبلغه رجال الندوة إنهم يستهجنون محاربته لملوك هم حلفاء لهم انصرف انطيوكس للحال ولا مرية عن الاسكندرية، وعاد بجيشه على عقبه إلى سورية، وأما إذا أبت

حكومة روما اجابة سؤال بتلمايس وقلوبطرة فلا يبقى لهما بعد طردهما من الملك إلّا أن يفرّا إلى روما. ولا يليق بالشعب الروماني أن يُهمل حلفاءه دون إنجاد ولا امداد في أقصى حاجتهم إليهما. فكان لكلامهم أشدّ وقع في قلوب رجال الندوة. ولم يكن من السداد في سياسة الرومانيين أن يتركوا انطيوكس يعظّم ويبسط سطوته على سورية ومصر، فأوفدوا ثلاثة رجال إلى مصر يبلغون انطيوكس وبتلمايس أن يتنكّبا عن كل عدوان وينكصا عن كل حرب ومن خالف منهما لم يعتدّه الشعب الروماني صديقاً ولا حليفاً.

وكان قبل سفر الوفد الروماني من روما أن شخص إلى الاسكندرية عمدة من الرودسيين لتعاطي الصلح بين الملكين. ومضوا إلى انطيوكس وأكثروا من إيراد الحجج الداعية إلى الصلح، فقاطعهم الحديث قائلاً لا حاجة إلى هذا التطويل إنّ التاج لأُكبر الأخوين وأنا عاهدته وسالمته. فإن دُعي وأُجلس على عرش الملك انقضت الحرب. قال هذا وجُلّ غرضه منه أن يُلقي الفتنة ويوقد الحرب بين الأخوين حتى إذا انتهكتهما عاد إليهما. وكان رأى من نفسه عجزه عن فتح الاسكندرية فانصرف بجيشه عنها وولّى بتلمايس فيلوماتور ابن أخته على سائر البلاد. واستبقى لنفسه بالوز (فرما) لتكون له بمنزلة مفتاح لمصر ليدخلها كلما عنّ أو طاب له. وبعد أن دبّر ولايات مصر كما حسُن له عاد إلى انطاكية سنة ١٦٩ ق م.

على أنّ احتفاظ انطيوكس على بالوز لنفسه فتح عيني بتلمايس فيلوماتور فصحا من سكر ترفه، وأدرك أنّ خاله لم يستبقِ لنفسه مفتاح مصر إلّا حتى إذا أجهدته وأخاه الحرب بينهما، وأعجزتهما عن دفعه التهم مملكتهما كفريسة له. ولذا أرسل يقول لاخيه إنه راغب في مصالحته. وأتمّت قلوبطرة أختهما الوفاق بينهما على أن يملك الأخوان في مصر معاً. وعاد فيلوماتور إلى الاسكندرية وانبسط الأمان في مصر كلها وفرح أهلها لا سيما الاسكندريون لزوال ما عانوه من مشاق الحرب (بوليب فصل ٨ وطيطوس ليف ك ٤٧).

عد ٤٢٨

حملة انطيوكس الرابعة على مصر

لما اتصل بانطيوكس خبر اتفاق الملكين الأخوين في مصر استشاط غضباً. وعزم

أن يفرغ قوّته في المناوأة لهما، فسيَّر أسطوله إلى قبرص للاحتفاظ عليها وسار بجيش عرمرم عامداً إلى الاستيلاء على مصر غير مستتر غرضه كما كان يفعل قبلاً. فالتقاه في طريقه رسل من قِبل فيلوماتور يقولون له إنه غير جاحد نعمته بل يعترف أنه لم يلِ مصر إلّا بأياديه، ويستحلفه بأن لا ينقض بسلاحه واعتسافه مابناه بحلمه، وأن يكاشفه بما يحبّ. فلم يصانع انطيوكس هذه المرة ولم يداهن، بل جاهر بأنه عدو للأخوين كليهما. وقال للرسل أنه يرغب في أن تُترك له قبرص وبالوز إلى ما شاء الله مع جميع الأرضين الواقعة على ضفة النيل من جهة بالوز. وأنه لا يصالحهما إلّا على هذه الشروط. وعيَّن يوماً لردّ الجواب له ولما انقضى ذلك اليوم زحف بجيشه إلى مصر وانتهى إلى منف مخضعاً البلاد التي اجتاز بها. ثم وافاه رسل سائر البلاد مستسلمين إليه وركب طريق الاسكندرية عازماً أن يحاصرها فتدين له مصر. وقد كان فاز بما تمنى لو لم يلتقِ به الوفد الروماني هناك ويُخمد جذوة عزيمته، ويُعطِّل مقاصده، لأنه لما أشرف على الاسكندرية خرج للقائه بوبيليوس أحد وفد الرومانيين. وكان انطيوكس يعرفه في روما حيث كان رهينة فبسط يده إليه ليحييه تحية صديق قديم، فأمسك بوبيليوس وأراد أن يعلم أولاً أصديقاً لروما يحيي أم عدواً لها وأبرز له درج وفادته. وسأله أن يقرأه فقرأه وقال إنه يفاوض مستشاريه ويجيبه عما قليل، فحنق بوبيليوس لطلبه مهلة. وخطَّ بعصاه على الرمل دائرة حول انطيوكس وانتهره قائلاً: «أجِب حكومة روما قبل أن تخرج من الدائرة التي خططتها لك». فدُهش انطيوكس من شدة الأمر وفكر قليلاً وقال إني صانع ما تحب حكومة روما! فمدَّ حينئذٍ بوبيليوس يده إليه وحيَّاه ولاطفه. قال أحد المؤرخين يا لعظمة الرومانيين فإنَّ كلمة من مفوَّضهم راعت ملك سورية ونجَّت ملكي مصر. وخرج انطيوكس من مصر في اليوم الذي عيَّنه له بوبيليوس الذي عاد مع رفيقيه إلى الاسكندرية، فوقَّع معهما على عهدة الصلح بين الأخوين. وساروا إلى قبرص فصرفوا أسطول انطيوكس عنها. وكان انتصر على أسطول مصر فردَّ بوبيليوس الجزيرة إلى ملكَي مصر ورجع إلى روما يعلم حكومته بما كان من وفادته.

وبلغ إلى روما حينئذٍ وفدان أحدهما من قِبل انطيوكس والثاني من قِبل ملكَي مصر وأختهما قلوبطرة فقال وفد انطيوكس: «إنَّ مولاهم يفضِّل السلامة التي أولاه إياها رجال حكومة روما على كل ظفر كان يمكنه الحصول عليه وإنه امتثل أوامر الوفد الروماني امتثاله لأوامر آلهته». وأما وفد الملكَين فقالوا: «إنَّ الملكَين وأختهما

يعترفون بالفضل لدولة روما وشعبها أكثر مما يعترفون به من الفضل لأبيهم وأمهم بل لآلهتهم أيضاً، إذ خلصوهم من شديد الضيق، وأجلسوهم على منصّة أجدادهم التي كانوا قد طُرحوا عنها» فدونك هذه المبالغات والتملقات التي لم تكن لتنتهي إلى اليوم في شرقنا. وكانت هذه الأحداث لسنة ١٦٨ ق.م (بوليب فصل ٩٢ ك ٢٩ ق ١١ وطيطوس ليف ك ٤٥ وديودر الصقلي ك ٣١ وابيان في السوريين فصل ٦٦ والقديس يوستينوس ك ٣ فصل ٣).وإلى ذلك أشار دانيال إذ قال (فصل ١١ عد ٢٨). فيرجع (انطيوكس) إلى أرضه بمال كثير ويجعل قلبه على العهد المقدّس (كما رأيت أنه صنع في هيكل أورشليم). ثم يرجع إلى أرضه. وفي الميعاد يعود ويُقبل إلى الجنوب (بحملته الرابعة) ولكن لا تكون الأواخر كالأوائل. لأنَّ سفن الكتيم (سفن الرومانيين) تأتي عليه فيكتئب ويرجع ويستشيط على العهد المقدَّس فيفعل ثم يرجع ويلتفت إلى تاركي العهد المقدَّس» كما سترى إنه فعل بأورشليم واليهود.

عد ٤٢٩

اضطهاد انطيوكس لليهود واكراهه لهم على اتباع مذهبه

قد عاد انطيوكس من مصر كئيباً يائساً فرام أن يتشفّى من غيظه بتنكيله باليهود فأرسل عند اجتيازه فلسطين ابولونيوس رئيس الجزية إلى مدن يهوذا باثنين وعشرين ألف جندي. وأمره أن يذبح كلَّ بالغ منهم ويبيع النساء والصبيان. ولما وفد إلى أورشليم أظهر السلام، وتربصَّ إلى يوم السبت حتى إذا دخل اليهود في عطلتهم أمر أصحابه أن يتسلَّحوا، ويذبح جميع الخارجين للتفرُّج. ثم اقتحم المدينة بالسلاح وأهلك خلقاً كثيراً (مكابيين ٢ فصل ٥ عد ٢٤ وما يليه). وجاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١ عد ٣٣ وما يليه) عدا ما مرّ: «إنه سلب غنائم المدينة وهدم بيوتها وأسوارها من حولها. وسبوا النساء والأولاد واستولوا على المواشي. وبنوا على مدينة داود سوراً عظيماً متيناً وبروجاً حصينة فصارت قلعة لهم. وجعلوا هناك أمّة أثيمة رجالاً منافقين فتحصَّنوا فيها... وسفكوا الدم الزكي حول المقدس ونجَّسوا المقدس. فهرب أهل أورشليم بسببهم فأمست مسكن غرباء». واستمرَّت القلعة المذكورة يتحصَّن فيها جنود ملك سورية ولم يقوَ على طردهم منها إلّا سمعان المكابي بعد ست وعشرين سنة أي سنة ١٤٣ ق.م.

ولمّا حقّق انطيوكس ايبفان ظفر قائد جنده وتحصّنه أورشليم عمد إلى اكراه اليهود على أن يتركوا سنّتهم. ويدينوا بدينه ويعبدوا آلهته ويذبحوا لها. فقد جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١ عد ٤٣ وما يليه) ما ملخصّه: «كتب الملك انطيوكس إلى مملكته كلها بأن يكونوا جميعهم شعباً واحداً ويترك كلٌّ واحدٍ سنّته. فأذعنت الأمم لكلام الملك وارتضى كثيرون من بني إسرائيل دينه وذبحوا للأصنام. ودنسوا السبت وأنفذ كتباً إلى أورشليم ومدن يهوذا أن يتبعوا سنن الأجانب ويمتنعوا عن المحرقات في المقدس. ويدنسوا السبوت والأعياد ويبتنوا مذابح ومعابد للأصنام ويذبحوا الخنازير النجسة. ويتركوا بنيهم قلفاً حتى ينسوا الشريعة ويغيّروا جميع الأحكام ومن لا يعمل بمقتضى كلام الملك يُقتل. وأقام رقباء على جميع الشعب وأمر مدائن يهوذا أن يذبحوا في كلّ مدينة فانضمّ إليهم كثيرون من اليهود وكل من نبذ الشريعة. وفرّ كثيرون إلى الجبال والمغاور وفي اليوم الخامس عشر من كسلو في السنة المئة والخامسة والأربعين للسلوقيين أي في شهر كانون الأول سنة ١٦٨ ق م. بنوا مذبحاً للأصنام على مذبح المحرقات في هيكل أورشليم. وفي الخامس والعشرين من شهر كسلو المذكور قدّموا على هذا المذبح الضحايا للأوثان وما وجدوه في أسفار الشريعة مزّقوه، وأحرقوه بالنار وكلّ من وُجد عنده سفر العهد أو أتبع الشريعة فإنه مقتول بأمر الملك، والنساء اللواتي ختنّ أولادهنّ قتلوهنّ بمقتضى الأمر. وعلّقوا الأطفال في أعناقهنّ وقتلوا الذين ختنوهم. وعزم كثير من بني إسرائيل أن لا يأكلوا نجساً واختاروا الموت لئلا ينجّسوا أو يدنسوا العهد المقدّس فماتوا».

وجاء مثل ذلك في سفر المكابيين الثاني (فصل ٦ عد ١ إلى ١٢) مع زيادة عليه: «إنهم كانوا كلّ شهر يوم مولد الملك ينساقون قسراً للتضحية، وفي عيد ديونيسيوس أحد آلهتهم يضطرون إلى الطواف اجلالاً له وعليهم أكاليل من اللبلاب، وإنّ امرأتين سعي بهما أنهما ختنتا أولادهما. فعلّقوا أطفالهما على ثدييهما وطافوا بهما في المدينة علانية ثم ألقوهما عن السور. ولجأ قومٌ إلى مغاور كانت بالقرب منهم لاقامة السبت سراً فوُشيَ بهم فأحرقوهم بالنار وهم لا يجترئون أن يدافعوا عن أنفسهم اجلالاً لهذا اليوم العظيم». وختم كاتب هذا السفر كلامه هذا بقوله: أرجو من مطالعي هذا الكتاب أن يحسبوا هذه النقم ليست للهلاك بل لتأديب أمّتنا». فهذه أعمال هذا الملك الجائر وهذا انتقام الله من اليهود لأنهم تركوا سننه وتزلّفوا إلى ملك وثني.

وأنبأنا سفر المكابيين الأول (ف ٢) إنه خرج في تلك الأيام من أورشليم كاهن اسمه متتيا بن يوحنا. وسكن في مودين (المعروفة الآن بالميدية على ما في كتاب الألفاظ الكتابية وفي تآليف كاران وهي في جهة اللّد وسيأتي الكلام فيها). وكان له خمسة بنين ولما رأى ما يصنع من المنكرات قال: ويلٌ لي لِمَ وُلدت؟ وطفق يندب ويرثي سوء حال شعبه ومزَّق هو وبنوه ثيابهم. وتحزَّموا بالمسوح وناحوا مناحة شديدة وقدِم عمال الملك إلى مودين. وكلفوا متتيا أن يمضي أمر الملك فيكون وأهل بيته من أصدقائه. فأجابهم حاشى لنا أن نترك شريعة إلٰهنا ونحيد عن ديننا يمنة أو يسرة فلئن طاعت الملك كلُّ الأمم فأنا وبيتي واخوتي نسلك عهد آبائنا. وأقبل يهودي ليذبح على مذبح الأوثان فوثب عليه متتيا وقتله على المذبح وقتل رجل الملك. وصاح بصوتٍ عظيم كلُّ من غار للشريعة فليخرج ورائي وهرب هو وبنوه إلى الجبال. ونزل كثيرون ممن يبتغون البِرّ إلى البرية. وعرف رجال الملك الذين في أورشليم فجروا في أعقابهم فأدركوهم وناصبوهم القتال يوم السبت. وكلفوهم الخروج فلم يخرجوا وقاتلوهم فلم يردوا ولم يرموهم بحجر حرمةً للسبت فقتلوهم. وكانوا ألف نفس وأخبر متتيا وأصحابه فناحوا عليهم وعزموا أنَّ كلَّ رجل أتاهم مقاتلاً يوم السبت يقاتلونه ولا يموتون كما مات اخوتهم. واجتمع إليهم جماعة من ذوي البأس وكلُّ من انتدب للشريعة وانضمَّ إليهم الفارون. فازدادوا بهم تعزيزاً وألَّفوا جيشاً وأوقعوا بمن حادوا عن محجَّة الشريعة حتى فرَّ الباقون إلى جنود الملك. وجال متتيا في البلاد وهدموا المذابح الوثنية وختنوا كلَّ من وجدوه أغلف من بني إسرائيل وتتبَّعوا المتجبرين. وأنقذوا الشريعة من أيدي الأمم والملوك وأذلّوا الأثمة. ولما دنا يوم موت متتيا حرَّض بنيه أن يغاروا للشريعة ويبذلوا نفوسهم دونها. وذكَّرهم بابراهيم ويوسف وفنحاس ويشوع وكالب وداود وايليا وحننيا وعزريا وميخائيل ودانيال كيف غاروا لسنَّة الله فجزاهم خير الجزاء. وجعل أحد بنيه سمعان رجل مشورة ليسمع لشعبهم ويكافئوا الأمم ويواظبوا على وصايا الشريعة. ثم باركهم وتوفي سنة ١٤٦ ق.م للسلوقيين وسنة ١٦٧ ق.م وقد ذكر يوسيفوس كلَّ هذه الأحداث (ك ١٢ في تاريخ اليهود فصل ٦ إلى فصل ٩) على عدم اعتقاده صحة تنزيل سفرَي المكابيين.

عد ٤٣٠

قتل انطيوكس العازار والاخوة السبعة المكابيين

إنَّ العازر هذا كان من علماء السنَّة إذ جاء في سفر المكابيين الثاني (ف ١٦ عد ١٨): إنه كان «من متقدمي الكتبة» وقال القديسان غريغوريوس النزينزي وامبروسيوس تبعاً ليوسيفوس إنه كان من النسل الكهنوتي واختلف في مكان قتله. فمن قائل إنه كان في انطاكية بحضرة انطيوكس، ومن قائل إنه كان في أورشليم. وكان انطيوكس شخص إليها ومثل هذا الخلاف في مكان مقتل الإخوة السبعة ومنشأه أنه جاء في ترجمة الكتاب الموسوم بحكم العقل، والمنسوب إلى يوسيفوس أو مقتل هؤلاء كان في انطاكية لكن الأصل اليوناني خالٍ من ذكر انطاكية. ويوسيفوس نفسه قال (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٧) انَّ مقتلهم كان في أورشليم. وروى القديس ايرونيموس (في الأماكن العبرانية في كلمة مودين) انه كان يدل على مدافنهم في انطاكية. وقال القديس اغوسطينوس (الخطبة الأولى في المكابيين) إنه أُقيمت كنيسة على اسمهم في انطاكية ولما كان كل من تكلموا في مقتل العازار أتبعوه بخبر مقتل الإخوة السبعة فإن صحَّ أنهم أُشهدوا في انطاكية صحَّ أنه أُشهد فيها أيضاً.

ومهما يكن من مكان مقتل هؤلاء الشهداء فقد أنبأنا الكتاب أنَّ أعوان انطيوكس أكرهوا العازار بفتح فيه على أكل لحم الخنزير فآثر الموت مجيداً على الحياة ذميماً. وقذف لحم الخنزير من فيه فخلا به الموكولون بأمر الضحايا وكانوا يعرفونه قبلاً وجعلوا يحثونه أن يهيئ لحماً بيده ويأكله متظاهراً بأنه يأكل من لحم الضحايا التي أمر بها الملك. فأجابهم بغير توقُّف بل أسبق إلى الجحيم فلا يليق بسننا الرياء لئلا يظن كثير من الشبان أنَّ العازار وهو ابن تسعين سنة انحاز إلى مذهب الأجانب، فإني لو نجوت الآن من نكال البشر لا أفرّ من يد القدير لا في الحياة ولا بعد الموت، وإذا فارقت الحياة ببسالة أبقيت للشبان قدوة شهامة ليتلقوا المنية ببسالة في سبيل الشريعة المقدسة. قال هذا وانطلق من ساعته إلى عذاب التؤثير والضرب فتحوَّل من أبدوا له الرأفة إلى القسوة عليه حتى أُثخن جراحاً. ولما اشرف على الموت قال: يعلم الرب وهو ذو العلم المقدَّس إني وأنا قادر على التخلُّص من الموت أكابد في جسدي عذاب الضرب الأليم وأما في نفسي فأحتمل ذلك مسروراً لأجل مخافة الله. وقضى تاركاً موته قدوة شهامة وتذكار فضيلة لأمَّته بأسرها.

وأما الإخوة السبعة فقُبض عليهم مع أمهم وأشخصوا أمام انطيوكس الملك فأخذ يُكرههم على تناول لحم الخنزير معذباً إياهم بالمقارع والسياط فقال له أحدهم: ماذا تبتغي؟ إنَّا نختار الموت ولا نخالف شريعة أبائنا. فحنق الملك وأمر بإحماء الطواجن والقدور وأن يُقطع لسانه ويُسلخ جلد رأسه. وتُجدع أطرافه على عيون اخوته وأمه، وإذا بقي فيه رمق أمر أن يُلقوه في تلك الطواجن. وكانوا هم وأمهم يحضّ بعضهم بعضاً على تحمُّل الموت بشجاعة. وقضى الأول فساقوا الثاني إلى الهوان ونزعوا جلد رأسه مع شعره وسألوه هل يأكل من لحم الخنزير قبل أن يعاقب في جسده عضواً عضواً فقال لا. فأذاقوه العذاب كالأول وفيما كان على آخر رمق قال للملك أنت أيها الفاجر تسلبنا الحياة الدنيا ولكن ملك العالمين إذا متنا في سبيل شريعتنا أقامنا لحياةٍ أبدية. ثم شرعوا يستهينون بالثالث وأمروه فدلع لسانه وبسط يديه بقلبٍ جليد قائلاً إني من رب السماء أوتيت هذه الأعضاء ولأجله أبذلها وإياه أرجو أن أستردها من بعد. ولما قضى عذبوا الرابع ونكلوا به مثل اخوته ولما أشرف على الموت قال للملك جيداً ما يتوقعه من يقتل بأيدي الناس من رجاء اقامة الله له، أما أنت فلا تكون لك قيامة للحياة. ثم استاقوا الخامس وعذبوه فقال للملك إنك تفعل ما تشاء لأنَّ لك السلطان على البشر ولا تظنّ أنَّ الله خذل ذريّتنا، فاصبر قليلاً ترَ بأسه الشديد كيف يعذبك أنت ونسلك. وأتوا بالسادس وعذبوه فقال عند موته للملك لا تعتزّ بالباطل فنحن جلبنا على أنفسنا هذا العذاب لأننا خطئنا إلى إلٰهنا، وأما أنت فلا تحسب أنك تُترك سُدىً بعد تعرضك لمناصبة الله. وكانت أمهم تحضُّهم على تحمُّل الموت ببسالة رجلية ثم أحضر الملك أصغرهم وأخذ يحرضّه ويؤكّد له بإيمان أنه يغنيه ويسعده ويقلّده المناصب إذا ترك شريعة آبائه فلم يصِخ الغلام. وألحَّ الملك على أمه أن تحرِّضه على ما يبلغه الخلاص فاستهزأت بالملك وانحنت إلى ابنها وقالت يا بني ارحمني أنا التي حملتك في جوفها تسعة أشهر وأرضعتك ثلاث سنين وعالتك إلى هذا السنّ. أنظر إلى السماء والأرض واعلم أنَّ الله صنع الجميع من العدم فلا تخف من هذا الجلاّد وكُن مستاهلاً لاخوتك. وفيما هي تتكلَّم قال الغلام ماذا تنتظرون؟ إني لا أطيع أمر الملك، وإنما أطيع أمر الشريعة التي أُلقيت إلى آبائنا على يد موسى. والتفت إلى الملك قائلاً وأنت أيها المخترع كلَّ شرّ على العبرانيين إنك لن تنجو من دينونة الله. ولقد صبر اخوتنا على ألم ساعة ثم فازوا بحياة أبدية وهم في عهد الله. وأما أنت

فسيحلُّ بك بقضاء من اللهالعقاب الذي تستوجبه. فحنق الملك من هذا التونيب فزاده نكالاً على اخوته وقضى هذا الغلامِ طاهراً. وأخيراً ماتت الأم على أثر بنيها (مكابيين ٢ ف ٧). ولم ينبئنا الكتاب كيف أماتوها ولكن جاء في كتاب حكم العقل المشار إليه آنفاً. إنَّ بعض أعوان انطيوكس أغروه بقتلها، ولما سمعت أسرعت لساعتها وطرحت نفسها في النار لئلا يمسَّها أحد هؤلاء الأشرار. وقال بعضهم إنَّ الملك عذَّبها كبنيها. وقال فيكتوريان الافريقي في شِعره عن المكابيين إنها ماتت لفرحها. ومن تقليدات الشرقيين التي ذكرها أبو الفرج إنَّ اسمها شموني أو اشمونية. وفي كتاب حكم العقل إنَّ اسماء بنيها المكابي وابير وبكري ويهوذا واكوس وارث ويعقوب (كلمت في معجم الكتاب).

لما كان هؤلاء الشهداء يُسمّون مكابيين كما سمي يهوذا المكابي واخوته الآتي الكلام فيهم كان الخليق بنا أن نلخِّص شيئاً من أقوال العلماء في هذا الاسم وأصله. فقال بعضهم إنَّ اسم مكابي مشتق من كابا العبرانية ومعناها أباد وأتلف لأنهم كانوا يُبيدون أعداء الرب. وقال غيرهم إنه مشتق من مخابي ومعناه الجراح والضربات لأنهم كانوا يضربون باسم الله. وقال آخرون إنه مشتق من مخابا العبرانية بمعنى مخبا بالعربية لأنَّ المكابيين اختبأوا أولاً في المغاور هرباً من الاضطهاد، ثم خرجوا منها وأوقعوا بمضطهديهم إلى غير ذلك من التأولات. على أنَّ القول الأعمّ الذي قال به الجمهور إنَّ هذا الاسم أُخذ من أنَّ المكابيين كانوا يصنعون على أعلامهم وتروسهم أربعة أحرف تقابل م. ك. ب. ي. تبتدئ بها أربع كلمات مي كماكا يلوهيم يهوه ومعناها: «من مثل الرب بين الآلهة». وهذا القول هو الأظهر والأمثل (كلمت في معجم الكتاب في كلمة مكابي).

عد ٤٣١

انتصار يهوذا المكابي على عساكر انطيوكس وغيرهم

قد مرّ (في عد ٤٢٩) أنَّ متتيا غار للرب وانضمَّ إليه كثيرون من ذوي البأس، وعند احتضاره أقام ابنه يهوذا المكابي رئيساً على الجيش ليتولى قتال الشعوب. وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ٨ عد ١ وما يليه) إنَّ يهوذا المكابي ومن معه كانوا يتسللون إلى القرى ويندبون ذوي قرابتهم ويضمون من ثبتوا على دين اليهود حتى

جمعوا ستة آلاف رجل وكانوا يبتهلون لله لينقذ شعبه. ولما أصبح المكابي في جيش يثق برحمة الله بأنه ينتصر على الأمم جعل يفاجئ المدن والقرى ويحرقها. وتغلَّب على الأعداء في مواضع جمَّة وكانت أكثر غاراته ليلاً. وذاع خبر شجاعته وجاء في سفر المكابيين (فصل ٣ عد ١٠):

«فحشد ابلونيوس والي السامرة من قبل انطيوكس جيشاً عظيماً وأتى لمناوأة بني إسرائيل. فخرج يهوذا للقائه فأوقع به وقتله وجمعاً غفيراً من جنوده. وهزم الباقين وسلب غنائمهم وأخذ سيف ابلونيوس وكان يقاتل به، وسمع سارون قائد جيش سورية من قبل انطيوكس وأراد أن يتمجَّد بثأره بدم ابلونيوس ارضاءً لمولاه. فجهَّز جيشاً عديداً وأتى به إلى عقب بيت حورون (المعروفة الآن بين اور في الشمال الغربي من أورشليم طالع عد ٣١٧). فخرج يهوذا للقائهم بنفر يسير ولما رأوا الجيش مقبلاً قالوا ليهوذا: كيف نطيق قتال مثل هذا الجمّ القوي؟ فقال: ما أسهل على الله أن يدفع الكثيرين إلى أيدي القليلين، وحضَّهم على الاتكال على الله. وهجم على الأعداء بغتة فانكسر سارون وجيشه أمامه فتبعه في عقبة بيت حورون إلى السهل. فسقط منهم ثماني مئة رجل وانهزم الباقون، فوقع خوف يهوذا واخوته على الأمم الذين حولهم».

أما انطيوكس فكان متلاهياً في انطاكية بأعياد أقامها فيها على عادة اليونان وبلغته هذه الأخبار عن انكسار جيوش عماله مرتين. فاستشاط غيظاً وجمع جيشه كله عازماً أن يسير إلى فلسطين. فيبيد أمَّة اليهود عن آخرهم على أنه لم يجد في خزائنه مالاً يقوم بنفقات الحرب. فأرجأ الانتقام من اليهود بنفسه إلى وقت آخر وقسم جنوده قسمَين أمَّر ليسياس على فريق منهم. واستخلفه على أمور الملك من نهر الفرات إلى حدود مصر. وأمره أن يوجِّه إلى اليهود جيشاً يكسر ويستأصل شوكة بني إسرائيل. ويمحو ذكرهم من فلسطين. وينزل الأجانب في جميع تخومهم. ويقسم أرض اليهود بينهم وسار هو بالشطر الباقي من الجيش إلى ما وراء الفرات يجبي المال لسدّ عوزه. أما ليسياس فاختار بطلماوس بن دوريماتس ونكانور وجرجياس من ذوي البأس المقربين من الملك. ووجّه معهم أربعين ألف راجل وسبعة آلاف فارس ليأتوا أرض يهوذا ويدمروها على حسب أمر الملك. فبلغ الجيش إلى قرب عماوس (المعروفة الآن بهذا الاسم على ١٥ ميلاً من أورشليم في الشمال الغربي الأعلام الكتابية).

ونزلوا في أرض السهل وسمع تجار البلاد بأنَّ انطيوكس أمر ببيع اليهود. فأتوا بشيء كثير من الفضة والذهب ليشتروا من بني إسرائيل عبيداً. ورأى يهوذا واخوته تفاقم الشرّ واحتشدت الجماعة للابتهال إلى الله والقتال. وكانت أورشليم مهجورة لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد من بنيها وجنود الملك في قلعتها. فساروا إلى المصفات قبالة أورشليم (وهي المعروفة بشعفات في شمالي أورشليم عد ٢٤٤). وصاموا في ذلك اليوم ولبسوا المسوح وحثوا الرماد على رؤوسهم. ونشروا كتاب الشريعة تالين له ورتب يهوذا قواد الشعب. وأمر من أخذ في بناء أو خطب امرأة أو غرس كرماً أو كان خائفاً أن يرجع إلى بيته ثم سار بالجيش. ونزلوا في جنوب عماوس وكان يهوذا عازماً أن يوقع بالعدو في الغداة ولكن بلغه أنَّ جرجياس أخذ فريقاً من جيش الملك خمسة آلاف راجل وألف فارس ويريد أن يباغتهم ليلاً في طريق أهداه إليه بعض الجاحدين من اليهود. فاصطاده بالأحبولة نفسها التي نصبها له لأنه غادر محله عامداً إلى ضرب عسكر الملك الذي أصبح ضعيفاً لانفصال جرجياس وجنوده عنه، ولما انتهى جرجياس إلى محل يهوذا لم يجده وظنَّه هرب من وجهه فطلبه في الجبال. ولما كان الصباح أشرف يهوذا على عسكر الملك. فخرجوا لقتاله فأرشد قومه إلى الاتكال على الله واندفقوا على الأعداء فاستظهروا عليهم، وهزموهم إلى السهل وتعقبوهم وقتلوا منهم ثلاثة آلاف رجل.

وقال يهوذا لجنده لا تطمعوا في الغنائم لأنَّ الحرب لا تزال قائمة علينا لأنَّ جرجياس وجيشه على مقربة منا في الجبل. ولم يفرغ يهوذا من هذا الكلام حتى ظهرت فرقة تتشوف من الجبل. فرأت أنهم قد انكسروا ومحلتهم يتصاعد الدخان منها. فخافوا ورأوا جيش يهوذا متحفزاً للقتال، ففروا جميعاً وتعقبهم يهوذا فقتل منهم كثيرين حتى كان عدد القتلى في هذه المواقع تسعة آلاف رجل كما في سفر المكابيين الثاني (فصل ٨ عد ٢٤). وقد جاء فيه (عد ٢٠ وما يليه) إنَّ يهوذا علم أنَّ تيموتاوس وبكسديس عاملَي الملك يحشدان جنوداً لقتاله. فوثب بجيشه عليهما فقتل عشرين ألفاً من جنودهم وأخذوا منها حصوناً مشيدة. ورجع بقومه يسبّحون الرب بعد أن غنموا كثيراً من الفضة والذهب والأسلحة وغيرها. فجعلها يهوذا سهاماً متساوية لجنده وللضعفاء واليتامى والأرامل والشيوخ. ونزع نكانور ثيابه الفاخرة وانساب في البلاد إلى انطاكية متنكراً وكان ذلك سنة ١٦٥ ق م.

ووفد من نجوا من جيش الملك إلى ليسياس وأخبروه بما جرى فبُهت وانكسر عزمه، ولما كانت السنة المقابلة سنة ١٦٤ ق.م جمع ستة آلاف راجل منتخبين (كذا في طبعة الآباء اليسوعيين في بيروت ولعله سهو من النسَّاخ قديماً أو من مرتبي الحروف حديثاً لأنَّ في غيرها من النسخ ستين ألفاً وهو ما تقتضيه القرائن. ويستلزمه ارساله أولاً أربعين ألفاً وهو ظاهر من الكلام التالي أنَّ يهوذا لاقاهم بعشرة آلاف ورأى جيش العدو قوياً فصلَّى إلى الله. فإذاً كان جيش ليسياس ستين ألف راجل وعززه بخمسة آلاف فارس). وحلَّ بهم في بيت صور في جنوبي أورشليم فالتقاه يهوذا. والتحم القتال فسقط من جيش ليسياس خمسة آلاف رجل وانهزم الباقون، وعاد ليسياس إلى انطاكية كئيباً يحشد جنوداً آخرين ليعود إلى اليهودية. واغتنم يهوذا هذه الفرصة لتطهير المقادس في أورشليم فاجتمع كل الجيش، وصعدوا إلى جبل صهيون فرأوا المقدس خالياً، والمذبح منجَّساً ، والأبواب مُحرقة. وقد طلع النبات في الديار كما يطلع في غابة فناحوا نوحاً عظيماً. ووضع يهوذا رجالاً يصادمون أهل القلعة، واختار كهنة فطهروا المقادس. ورفعوا الحجارة المدنسة إلى موضع نجس. وبنوا مذبحاً جديداً على رسم الاول. وصنعوا آنية مقدَّسة جديدة وأعادوا رتب الهيكل كما كانت. ودشَّنوا المذبح الجديد في ١٥ من شهر كسلو (كانون الأول) سنة ١٦٤ ق.م.

وقدموا ذبيحة بحسب رسم الشريعة. وكان عند الشعب سرور عظيم وأُزيل تعبير الأمم، وقد حسد هؤلاء الأمم اليهود على ظفرهم وقوَّتهم. وائتمروا أن يبيدوهم من بينهم. وطفقوا يقتلون ويهلكون منهم فضرب يهوذا بني عيسو في أدوم لأنهم كانوا يضايقون بني إسرائيل. فاستظهر عليهم وسلب غنائمهم وكان هناك قبيلة تُعرف ببني بيان كانوا يكمنون لبني إسرائيل في الطريق فألجأهم يهوذا البروج وحاصرهم. وابسلهم وأحرق بروجهم وكل من كان فيها بالنار وعبر إلى بلاد بني عمون. فصادف عسكراً قوياً وشعباً كثيراً تحت قيادة تيموتاوس والي ذلك الاقليم من قبل انطيوكس. فواقعهم في حروب كثيرة فظفر بهم وأوقع فيهم وفتح يعزير (المعروفة الآن على الراجح بيت زرعة الأعلام الكتابية) وتوابعها ثم عاد إلى اليهودية. فأتاه كتاب من بني إسرائيل المقيمين في جلعاد (السلط) يقولون فيه إنَّ الأمم الذين حولهم اجتمعوا عليهم تحت قيادة تيموتاوس والجأوهم إلى حصن عزموا

أن يفتتحوه ويبيدوهم. وبينما هم يقرأون الكتاب إذا برسل آخرين قد وفدوا من الجليل وثيابهم ممزقة. وأخبروا بمثل ذلك قائلين قد اجتمعوا علينا من بطلمائس (عكا) وصور وصيدا وكل جليل الأمم ليبيدونا. فعقد يهوذا والشعب مجمعاً في ما يصنعون وقال يهوذا لسمعان أخيه: اختر لك رجالاً وانطلق واستنقذ اخوتك الذين في الجليل وأنا ويوناثان أخي ننطلق إلى أرض جلعاد. وتركوا حامية في اليهودية فناصب سمعان الأمم حروباً كثيرة فاستظهر عليهم وتبعهم إلى باب عكا. وعبر يهوذا مع يوناثان الأردن وتوجها إلى باصر (بصر الحريري) فاستحوذا على المدينة وقتلا كلَّ ذكرٍ فيها وسلبا غنائمهم. وأحرقا المدينة وسارا منها ليلاً إلى الحصن الذي كان بنو إسرائيل لجأوا إليه فوجد يهوذا نار الحرب متسعرة على اخوته. فقسم جيشه ثلاث فرق من وراء الأعداء ونفخوا بالأبواق. وجأروا بالصلاة وعلم جيش تيموتاوس أنه المكابي فهربوا من وجهه فضربهم ضربة عظيمة. وقتل منهم ثمانين ألف رجل وانصرف إلى المصفاة (المعروفة بسوف في عبر الأردن) فافتتحها. وقتل رجالها وغنم ما فيها وأحرقها وافتتح سائر مدن جلعاد.

وجمع تيموتاوس جيشاً آخر قبالة رافون (الراجح أنها المعروفة الآن برافة في عبر الأردن على أربعة أميال من اذرعات في الجنوب الغربي الأعلام الكتابية) واستأجر العرب. فخرج يهوذا عليهم وهو في مقدمة جيشه فانكسروا أمامه والقوا سلاحهم. وفرّوا إلى المعبد الذي في قرنائيم (تل عشترة في عبر الأردن). فاستولى يهوذا على المدينة وأحرق المعبد مع كل من كان فيه. وجمع يهوذا جميع بني إسرائيل الذين في جلعاد لينصرف بهم إلى أرض اليهودية. فبلغوا إلى عفرون (ولم يُعيَّن موقعها بعد وهي في عبر الأردن بين تل عشترة وباسان) ولم يكن لهم أن يحيدوا عنها يمنة ولا يسرة وأغلق أهلها على أنفسهم وردموا الأبواب بالحجارة. وأرسل يهوذا يستميحهم العبور بأرضهم دون مضرَّة لهم فأبوا. فأمر يهوذا جيشه أن يهجم كل واحد من محله فهجموا وحاربوا المدينة يوماً وليلة. فأُسلمت إليهم وأهلك كلَّ ذكر فيها ودمرها وسلب غنائمها. واجتاز فوق القتلى ثم عبروا الأردن وبلغوا إلى أورشليم بسرور وابتهاج. وقدَّموا المحرقات شكراً لله.

ثم سمع يوسف بن زكريا وعزريا اللذان كان يهوذا أقامهما على الحامية في اليهودية خبر انتصار يهوذا فقالا لنقم نحن أيضاً لنا اسماً فأخذا جيشاً وزحفا إلى يمنيا (المعروفة الآن بيبنه في الجنوب الغربي من الرملة بين يافا شمالاً واشدود جنوباً

طالع عد ٣١٨). فخرج إليهم جرجياس ورجاله فكسروهم وقتلوا منهم ألفي رجل لأنهم خالفوا وصية يهوذا بأن لا يحاربوا الأمم في غيبته.

وعظم اسم يهوذا واخوته في عيون بني إسرائيل والأمم وخرجوا فحاربوا بني عيسو في جنوب اليهودية وضربوا حبرون (الخليل) وتوابعها. وهدموا سورها واحرقوا البروج التي حولها. وتوجَّه يهوذا إلى أشدود فهدم مذابح الأجانب فيها وأحرق منحوتات آلهتهم. وسلب غنائم المدن وعاد إلى اليهودية (مكابيين ١ ف ٣ و ٤ و ٥ ومكابيين ٢ ف ٨ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢).

عد ٤٣٢

هلاك انطيوكس ايبفان

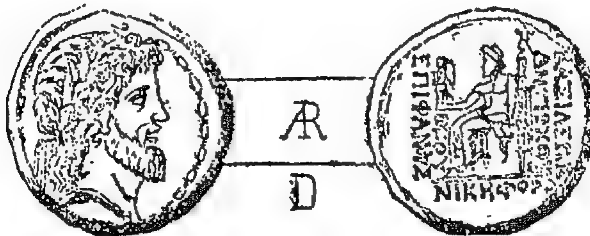
قد مرَّ في العدد السالف أنَّ انطيوكس سار بفريق من جيشه إلى ما وراء الفرات يجبي الأموال. وترك الفريق الآخر إلى ليسياس ليقهر اليهود ويستأصل شافتهم. وجاء في سفر المكابيين الأول (فصل ٦ وما يليه) ما ملخَّصه: «إنَّ انطيوكس كان يجول في الأقاليم العليا وسمع بذكر المايس مدينة بفارس مشهورة بأموالها، وإنَّ فيها هيكلاً حوى كثيراً من الأموال وسجوف الذهب والدروع والأسلحة التي تركها ثمَّ الاسكندر المكدوني. فأتى وحاول أن يأخذ المدينة وينهبها فثار عليه أهلها وقاتلوه. فهرب ومضى بغمٍّ شديد راجعاً إلى بابل وجاءه من فارس مخبر بأنَّ الجنود التي وُجِّهت إلى أرض يهوذا قد انكسرت. وأنَّ ليسياس قد انهزم من وجههم وأنَّ اليهود قد هدموا ما كان بناه على مذبحهم في أورشليم وحصنوا مدينتهم فاضطرب جداً. وانطرح على الفراش وقد أوقعه الغمّ في السقم وأيقن بالموت فدعا أصحابه. وكشف لهم عن علَّة كربه وأنه يتذكر المساوئ التي صنعها في أورشليم وإنه لذلك أصابته هذه البلايا. ودعا فيلبوس أحد أصحابه وأقامه على جميع مملكته ودفع إليه تاجه وحلَّته وخاتمه وأوصاه بتدبير انطيوكس ابنه ومات هناك في السنة المئة والتاسعة والأربعين للسلوقيين» وهي سنة ١٦٣ ق م.

وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ٩) ما موداه: «إنَّ انطيوكس كان منصرفاً عن بلاد فارس بالخزي لأنه كان زحف على مدينة اسمها برسابوليس. وشرع يسلب الهياكل ويعسف المدينة فثار الجموع إلى السلاح فدفعوه فانهزم منقلباً بالعار.

ولما كان عند احمتا بلغه ما وقع لنكانور وأصحابُ تيموتاوس فاستشاط غضباً. وأزمع أن يحيل على اليهود ما لحقه من الشرّ وأمر سائق عجلته أن يجدَّ في السير وقال لآتينَّ أورشليم وأجعلها مدفناً لليهود. فضربه الله بداء في أحشائه ومغص أليم. واستمر مع ذلك يحثُّ على الإسراع في السير حتى سقط من عجلته فترضضت جميعُ أعضاء جسمه ونتن جسده. وتساقط لحمه وأعوانه الذين كانوا يزيِّنون له أنه يمسُّ كوكب السماء لم يكن أحدٌ منهم يطيق حمله لشدَّة نتانته بل أمسى هو نفسه لا يطيق نتنه.

وأخذ ينزل عن كبريائه ويتعقَّل الحق ويتضرَّع إلى الله، ونذر أنَّ المدينة المقدسة التي كان ينوي هدمها وجعلها مدفناً سيجعلها حرَّة وأنه سيساوي اليهود بالأثينيين ويزيِّن هيكل أورشليم بأفخر التحف، ويردّ إليه الآنية التي أخذها منه مضاعفة. ويقدِّم نفقات الذبائح من دخله الخاص بل إنه يتهوَّد ويطوف المعمور منادياً بمقدرة الله فلم تسكن آلامه. وقنط من نفسه وكتب إلى اليهود رسالة أُثبتت في الفصل التاسع المذكور ضمَّنها إظهار مودَّته لهم وإعلامهم بأنه عيَّن ابنه انطيوكس للملك وثقته بأنهم يبقون على الولاء له ولابنه. ثم قضى انطيوكس بعد آلام مبرحة كما كان يفعل بغيره ومات ميتة شقاء على الجبال في أرض غربة. فنقل فيلبوس المذكور جثته إلى انطاكية وانصرف إلى مصر خوفاً من ابن انطيوكس وليسياس مدبره. وقد مرَّ معنا ذكر شيء من ذلك في عد ٤٠٤ وقد ذكر سفر انطيوكس هذا إلى بلاد فارس، ورغبته في انتهاب الهيكل، وتهزيم الأهلين له وموته في الغربة (عد ١ سفرَي المكابيين ويوسيفوس) بوليب ك ٣١ فصل ١١ وابيان في السوريين فصل ٦٦ وبرفير على ما ذكر القديس ايرونيموس في تفسيره ف ١١ من نبوَّة دانيال).

وإليك مثالاً لسكة انطيوكس ابيفان ترى في الوجه الأول صورة رأسه مكللاً



بالغار ولحيته مطلقة. وفي الوجه الثاني صورة المشترى جالساً وفي يمينه مثال الظفر وفي شماله الصولجان وقد كُتب عليها باسيلاوس انطيوخس ثاوس ابيفانيوس نيكافور أي الملك انطيوكس ابيفان نيكافو.

وقد رأيت أنَّ ما جاء في سفرَي المكابيين عن خبر موت انطيوكس يطابق ما رواه فيه المؤرخون القدماء الوثنيون. ولكن زعم بعضهم أنَّ كاتبَي سفرَي المكابيين لم يتفقا في رواية هذا الخبر، بل إنَّ كاتب السفر الثاني أتى بقولين متناقضين. فقال في فصل ١ عد ١٦ إن انطيوكس قُتل في هيكل الننّاية، وقال في فصل ٩ إنه مات لمرضه على الجبال. وقد أبنّا آنفاً عد (٤٠٤) أنه لا وجه للاعتراض بهذا التناقض لأنَّ انطيوكس الذي قُتل في هيكل النّناية إنّما هو انطيوكس الثالث الكبير. وانطيوكس الذي مات لمرضه في الجبال إنما هو انطيوكس الرابع ابيفان ابن الأول. وهذه حجّة بيّنة ماحقة لكل تناقض. وجلُّ ما يتمحلون لاثبات التناقض بين كلامَي صاحب السفر الأول، وصاحب السفر الثاني في خبر وفاة انطيوكس الرابع ابيفان إنما هو أمران: الأول أنَّ صاحب السفر الأول سمى المدينة التي كان فيها الهيكل المايس، وصاحب السفر الثاني سماها برسابوليس. ففي ذكر المايس زلَّة قلم لأنَّ أحسن النسخ اليونانية المخطوطة روت الآية هكذا: «وكان في المايس (أو المائداي بلاد العيلاميين) بفارس مدينة مشهورة». وهذه الرواية إنما هي الصحيحة إذ لا عين ولا أثر لمدينة اسمها المايس. وعليه فكاتب السفر الأول لم يعيِّن اسم المدينة التي كان الهيكل فيها بل عيَّن اسم الاقليم أو العمل وهو بلاد العيلاميين في مملكة فارس، كما ذكره بوليب وابيان أيضاً في المحال المار ذكرها آنفاً. وأما كاتب السفر الثاني فعيَّن المدينة وقال إنها برسابوليس مدينة الفرس الشهيرة المسماة الآن شهل منار أي الأربعين عموداً، ولما كان هذا السفر كُتب في اليونانية يمكن أن يقال إنَّ المراد ببرسابوليس لا علم هذه المدينة بل ما تفسره كلمة برسابوليس المنحوتة من برسا أي فارس وبوليس أي مدينة والمعنى مدينة الفرس أو عاصمتهم. ويكون المراد شوشن في بلاد العيلاميين التي كانت أخصّ مقرّ لملوك الفرس والتي كان اليهود يعرفونها في تاريخ استير واحشورش. وعليه فتُرَدّ الروايتان إلى معنى واحد.

والأمر الثاني الذي تمحلوه لاثبات زعمهم هو أنَّ صاحب السفر الأول قال: «جاءه من فارس مخبر بأنَّ الجيوش التي وُجهت إلى أرض يهوذا قد انكسرت». وصاحب السفر الثاني قال: «ولما كان عند احمتا (المسماة الآن تخت سليمان

وهمذان على ما في الأعلام الكتابية) بلغه ما وقع لنيكانور». واحمتا في بلاد ماداي لا فارس على أنه لا تناقض في كلام كاتبي السفرين بل كل ما بينهما إنما هو اختلاف في التعبير والمعنى واحد. فكاتب الأول أراد بفارس كل ما اشتملت عليه هذه البلاد من مملكة الفرس وماداي من جملتها، لأنها وإن كانت اولاً مستقلّة إلّا أنها ضُمَّت بعداً إلى مملكة الفرس. وكاتب السفر الثاني عيَّن المحل الذي بلغت فيه انطيوكس أخبار كسر جنوده، وهو احمتا وهذا مطابق لما ذكره المؤرخون اليونانيون من أنَّ انطيوكس قضى في تاب التي هي بيت احمتا وبرسابوليس (ملخص من معجم الكتاب لفيكورو في كلمة انطويكس الرابع).

وقد مضى انطيوكس سنة ١٦٤ أو سنة ١٦٣ ق.م بعد أن ملك إحدى عشرة سنة وإليك ما تنبأ به دانيال (فصل ١١ عد ٣٠ وما يليه) على اضطهاده اليهود: «ويرجع (انطيوكس بعد حملته الرابعة على مصر) ويستشيط على العهد المقدَّس فيفعل ثم يرجع ويلتفت إلى تاركي العهد المقدَّس (من اليهود) وتقوم منه أذرع (أي يرسل عمالاً) وتدنس مقدس العزة. وتزيل المحرقة الدائمة وتقيم رجاسة الخراب (كما فعل في الهيكل). وبالتملقات يجعل المنافقين في العهد يكفرون أما الشعوب الذين يعرفون إلاههم فيتشددون. ويعملون والعقلاء من الشعب يعلمون كثيرين (كما صنع متتيا وبنوه) إلى أن يقول: «ويصنع الملك كيف شاء ويترفع ويتعظَّم على كل إله ويتقوَّل بالغرائب على إله الآلهة وينجح إلى أن يتم الغضب لأنَّ التحديد قد قضى وتفزعه أخبار من الشرق والشمال. فيخرج بحنق شديد ليدمِّر ويبسل كثيرين (وقد حقق تاشيت أنَّ خروج انطيوكس بفريق من جيشه لم يكن لجباية الجزية فقط بل لأنَّ البرتيين ثاروا عليه). وينصب أخبيته مثل قصور بين البحار في جبل فخر القدس ويبلغ حدَّه وليس له من نصير». كذا في طبعة الآباء اليسوعيين البيروتية وعن رولان إن في الأصل العبراني: «وينصب أخبيته في ابدنو البحرين في جانب زابي المقدس.

وقال لا تخلو هذه الآية من غموض إذ ليس في الجغرافية القديمة اسماء ابدنو وزابي على أنَّ برفير عدو النصرانية الألدَّ أقرّ ان هذه الآية تشير إلى حملة انطيوكس على ما وراء الفرات وموته في هذه الحملة. وعليه فزابي هي تاب أو تابا حيث مات انطيوكس على ما روى بوليب كما مرّ.

عد ٤٣٣
تملّك انطيوكس الخامس وسياسة ليسياك مدبّره

بعد وفاة انطيوكس رُقي إلى منصّة الملك ابنه انطيوكس الخامس. ولُقّب اوباتور أي الشريف أباً ولم يدم ملكه إلّا سنتين من سنة ١٦٤ إلى ١٦٢ ق.م أي من سنة ١٤٩ للسلوقيين إلى سنة ١٥١. قال ابيان (فصل ٤٦ و ٦٦ في السوريين) إنّ عمره كان حين ملك تسع سنين وعن برفير (على ما روى اوسابيوس في التاريخ) إنه كان عمره اثنتي عشرة سنة وكان أبوه قبل سفره من انطاكية اقام ليسياس مدبراً له. على أنه لدى احتضاره نصب فيلبوس أحد أصدقائه وقادة جيشه وأخاه رضاعاً مدبراً للملك ووصياً على الملك الصغير (مكابيين ١ فصل ٦ عدد ١٤ إلى ١٧ و٢ فصل ٩ عد ٢٩). فلما بلغ ليسياس خبر وفاة الملك ووصيته الأخيرة رأى نفسه مضطراً أن يغيّر سياسته في جانب اليهود، وأن يعدل عن حشد الجنود ليثأر من يهوذا المكابي وقومه لأنهم هزموا جيشه كما مر. وصرف همّه إلى توطيد انطيوكس الخامس في عرش الملك وإلى تأييد حقه في الوصاية عليه. فكان يخشى على الملك من منازعة ابن عمه ديمتريوس له في الملك لأنه الوريث الشرعي له. ولم يكن عمه انطيوكس ابيفان إلّا دخيلاً عليه ومختلساً له. وخاف على نفسه مضادة فيلبوس له بوصية الملك الأخيرة. فقضت عليه الحال أن يتربّص في انطاكية وأن لا يباشر حرباً وأن يعقد عهدة صلح مع اليهود يبيحهم بها مباشرة فروض دينهم.

وقد أشار إلى ذلك كاتب سفر المكابيين الثاني إذ قال (فصل ١١ عد ١٣): «وإذ كان الرجل (ليسياس) صاحب دهاء أخذ يفكر في ما أصابه من الخسران وفطن أنّ العبرانيين قوم لا يقهرون لأنّ الله القدير مناصر لهم. فراسلهم ووعد بأنه يسلّم بكل ما هو حق ويستميل الملك إلى موالاتهم. فرضيَ المكابي بكل ما سأل ليسياس ابتغاءً لما هو أنفع وكل ما طلب المكابي من ليسياس بالكتابة قضاه الملك». وكتب ليسياس رسالة إلى شعب اليهود بأمر الملك يخبرهم بها أنّ الملك أجاب كل ما تتحمله الحال من سؤلهم، ويعدهم بالخير إن بقوا على الاخلاص. وأرسل إليهم صورة رسالة الملك إليه وملخصُّها إنه منذ انتقل والده إلى الآلهة لم يزل همه أن يكون أهل مملكته طيبي القلب منقطعين إلى شؤونهم، وإنه بلغه أنّ اليهود غير

راضين بما أمرهم به والده من التحوّل إلى سنن اليونان، وهم متمسكون بسننهم، وهو يريد أن هذا الشعب يكون خالياً من البلبال كغيره. ولذلك يحكم بأن يرد لهم الهيكل وأن يساسوا بمقتضى عادات آبائهم. وأرسل لهم أيضاً رسالة من الملك يؤمنهم فيها ويبيحهم استعمال أطعمتهم وشرائعهم كما كانوا عليه من قبل وإن من هفا منهم فيما سلف فلا اعنات عليه. وأيّد الرومانيون هذه الرسائل برسالة وجهوها إلى اليهود لأنهم كانوا يؤثرون بقاء الملك الصغير في عرش سورية على انتزاع ديمتريوس له منه لأنَّ ديمتريوس كان رهينة عندهم كما مرّ. وكانوا على يقين من شدَّة بأسه واهليته للملك ولا توافقهم سياسة ملك قوي. وكل هذه الرسائل مثبتة في الفصل الحادي عشر من سفر المكابيين الثاني.

قد كانت الضرورة قضت على ليسياس بهذا التصرف ولم يكن مخلصاً ولا سيما ليهوذا المكابي. وكان بقلبه منه حزازات لا تزول لكسرة جنوده وإلحاقه العار به. وكان يأمل أن يأتي يوم يتشفى فيه بإنفاذ ما أمر به انطيوكس ابيفان لابادة اليهود. ويستدل على ذلك من تأييده الحزب المضاد ليهوذا المكابي لا سيما منلاوس الخائن لأمته الذي أخذ رياسة الكهنوت بمال. وتسبب بقتل اونيا والذي قربه ليسياس من الملك حتى جعله يبني رسالته على ما أطلعه عليه وأن يرسله إلى اليهود ليشافههم كما في رسالة الملك المشار إليها. ومهما يكن من دخيلة ليسياس فقد أقام اليهود سنة ١٦٤ ق.م ناعمي البال حتى أمكنهم أن يحرثوا أرضهم ويحصدوا غلاّتها كما جاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ١٢ عد ١). وغنم يهوذا المكابي واخوته هذه الفرصة وضرب المدن وعشائر مجاوريهم التي كانت تسطو عليهم وقد رأى بعضهم أنَّ حروب يهوذا للعشائر التي ذكرناها في عد ٤١٣ نقلاً عن الفصل الخامس من سفر المكابيين الأول كانت في مدة هذه الهدنة بعد موت انطيوكس ابيفان لا قبله كما يظهر في محل وضعها في الكتاب قبل خبر موته. على أننا حفظاً لسياق الكتاب واتباعاً لرأي الأكثرين الذين ذكروها قبل وفاة انطيوكس ومنهم يوسيفوس ذكرنا أخبارها قبل خبر وفاته. ونذكر في العدد التالي أخبار حروبه الأخرى مع هذه العشائر كما وردت في سفر المكابيين الثاني فصل ١٢ بعد ذكره تأمين انطيوكس الخامس لليهود كما مرّ.

عد ٤٣٤

حروب يهوذا مع بعض العشائر وعمال الملك

أنبأنا سفر المكابيين الثاني (فصل ١٢) إنَّ بعض عمال الملك لم يدعوا لليهود راحة ولا سكينة بل كانوا يحرّشون بين الأمم واليهود على القتال، وينجدون الأمم ليسطوا عليهم. من ذلك أنَّ أهل يافا أتوا اغتيالاً فظيعاً فإنهم دعوا اليهود مواطنيهم أن يركبوا هم ونساءهم وأولادهم قوارب أعدّوها لهم ولا عداوة بينهم، فوثق اليهود منهم ولما أمعنوا في البحر أغرقوهم وعرف يهوذا فنادى بمن معه. ودعا الله الديّان العادل وسار إلى يافا ليلاً فضربها وهرب كثيرون من أهلها إلى السفن. فأضرم النار في المرفأ وأوقد السفن وقتل من فرّوا إليها. وعلمَ أنَّ أهل يمنيا (بنية بين يافا واشدود) نووا أن يغتالوا اليهود مساكنيهم، فسار إليهم وأحرق المرفأ مع الأسطول حتى رُؤي ضوء النار من أورشليم. وسار برجاله ينوي الإيقاع بتيموتاوس عامل الملك لأنه علّة هذه الشرور. فتصدى لهم خمسة آلاف من العرب الرحّل ومعهم خمس مئة فارس. فاستظهر يهوذا عليهم وسألوه أن يعاقدهم على أن يؤدوا إليه مواشي ويمدوه بمنافع أخرى فصالحهم وانصرفوا إلى أخبيتهم، ثم أغار على مدينة حصينة اسمها كسفيس (لم يُعيَّن محلها ولا يُعلم أفي شرقي الأردن أم في غربيه هي). فافتتحوها على مناعة أسوارها. وقتلوا كثيرين من أهلها وجدّوا في السير متتبعين تيموتاوس حتى انتهوا إلى الكرك. تُعرف بهذا الاسم إلى اليوم في شرقي البحر الميت) فلم يظفروا به لأنه كان انصرف من تلك المواضع، لكنه ترك حرساً منيعاً في بعضها. وخرج قائدان من رجال يهوذا وقتلا من الجنود الذين تركهم تيموتاوس في الحصون ما ينيف على عشرة آلاف.

ثم علم المكابي أنَّ تيموتاوس في جهة قرنيم (تل عشترة في عبر الأردن) ومعه مئة وعشرون ألف راجل وألفان وخمس مئة فارس. فقسم المكابي جيشه فرقاً وحمل على تيموتاوس ولما بدت أول فرقة من جيش يهوذا داخل الأعداء الرعب والرعدة فبادروا المفرّ من كل جهة حتى كان بعضهم يؤذي بعضاً. وتتبّع يهوذا آثارهم يثخن فيهم حتى أهلك منهم ثلاثين ألفاً. ووقع تيموتاوس في أيدي روسيتاوس وسوسيباتر من قادة جيش يهوذا. فطفق يبتهل إليهما أن يطلقوه حياً فيحسن إلى كثيرين من آبائهم واخوتهم (الذين كانوا عنده) فخلوا سبيله لذلك.

وتيموتاوس هذا كان والياً في عبر الأردن من قبل انطيوكس وهو غير تيموتاوس الآخر رفيق بكيديس الذي قتله رجال يهوذا في برج حازر كما في سفر المكابيين الثاني (فصل ١٠ من عد ٢٤ إلى عد ٣٧). وأغار يهوذا على قرنيم المذكورة وقتل خمسة وعشرين ألف نفس ثم زحف إلى عبرون (في عبر الأردن بين تل عشترة وبايان إحدى المدن الحصينة) فأخذها وصرعوا من الذين في داخلها خمسة وعشرين ألفاً. ولعلَّ هذه الوقعة في عفرون هي التي ذكرت سفر المكابيين الأول فصل ٥ عد ٤٦ وقد ذكرناها في عد ٤١٣).

ثم هجموا على مدينة بيت شان (باسان) إلَّا أنَّ اليهود المقيمين فيها شهدوا بأنَّ أهلها مصافون لهم وأنهم عاملوهم بالإحسان في أزمنة الضيق. فشكروا لهم وأوصوهم أن لا يزالوا على المصافاة، ثم جاءوا إلى أورشليم لقرب عيد الأسابيع وهو عيد البنديكستي بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح. وبعد العيد أغاروا على جرجياس قائد جيش الملك في أرض أدوم فبرز إليهم بثلاثة آلاف راجل وأربع مئة فارس فاقتتل الفريقان، وسقط من اليهود عدد قليل، وأدرك دوسيتاوس المشار إليه جرجياس وقبض على ثوبه واجتذبه يريد أن يأسره حياً، فعدا عليه فارس من الأعداء فقطع كتفه. وفرَّ جرجياس ثم استظهر يهوذا على أعدائه وشتَّت شملهم. وسار بجيشه إلى مدينة عدّلام (المسماة الآن عير الماء على عشرة أميال من بيت جبرين شرقاً على ما قال اوسابيوس وعلى ما في الأعلام الكتابية). ولما كان السبت دفنوه هناك وجاءوا ليحملوا جثث القتلى ويدفنوهم في مقابر آبائهم فوجدوا تحت ثياب كل واحد الواطاً (أي معاليق أو ما يعلق) من أصنام يمنيا التي انتهبوها، والسنَّة تحظِّر على اليهود ذلك فتبيَّن للجميع أنَّ هذا كان سبب قتلهم. وانثنوا يبتهلون إلى الله أن تُمحى تلك الخطيَّة واتخذ يهوذا ذلك موعظة أرشد بها قومه أن ينزِّهوا أنفسهم عن الخطيَّة إذ رأوا بأعينهم ما أصاب من أثِموا. «وجمع من كل واحد تقدمة فبلغ المجموع الفي درهم من الفضة فأرسلها إلى أورشليم ليقدِّم بها ذبيحة عن الخطيَّة وكان ذلك من أحسن الصنيع واتقاه لاعتقاده قيامة الموتى، لأنه لو لم يكن مترجياً قيامة الذين سقطوا لكانت صلاته من أجل الموتى باطلاً وعبثاً، لاعتباره أنَّ الذين رقدوا بالتقوى قد ادُخر لهم ثواب جميل وهو رأي مقدس وتقوى. ولهذا قدَّم الكفارة عن الموتى ليحَلُّوا من الخطايا». وهذه الآيات برهان جلي قاطع على عقائد قيامة الموتى ووجود المطهر

وانتفاع الموتى بصلوات الأحياء. ولذلك كانت من جملة الحجج الدامغة التي أقامها اللاهوتيون الكاثوليكيون لاثبات هذه العقائد.

عد ٤٣٥

محاربة انطيوكس الخامس لليهود

إنَّ الذي أوقد جذوة هذه الحرب إنما هم الجاحدون من بني إسرائيل لا سيما منلاوس الخائن المشار إليه آنفاً. وإليك خلاصة هذه الحرب عن سفر المكابيين الأول (فصل ٦ عد ١٨ إلى آخره)، وسفر المكابيين الثاني (فصل ١٣ برمَّته). قد مرَّ أنَّ بعض حامية الملك كانوا يقيمون في قلعة أورشليم فكانوا يصدّون بني إسرائيل عن الدخول إلى الهيكل، ويتعمَّدون إنزال المضرَّة بهم من كل جانب. فعزم يهوذا المكابي على الإيقاع بهم، وحشد الشعب فحاصروهم في القلعة فخرج بعضهم من الحصار وانضمَّ إليهم نفر منافقون من إسرائيل. فانطلقوا إلى الملك قائلين إنَّ ابناء شعبنا يضطهدوننا لأننا ارتضينا أبيك والعمل بأوامره والآن يحاصرون القلعة بغضاً لنا وكل من صادفوه منا قتلوه. ونهبوا أملاكنا وتجاوزوا إلى جميع تخومنا وحصَّنوا بيت صور (تسمى الآن بهذا الاسم على ما في الأعلام الكتابية وعن اوساب أنها على عشرين ميلاً من أورشليم نحو الجنوب وما جاء في سفر المكابيين الثاني فصل ١١ عد ٥ أنها: «على نحو خمس غلوات من أورشليم». زلَّة قلم من الناسخ معجم الكتاب لكلمت).

فسُرَّ ليسياس بهذه الشكوى ولم يكن ديمتريوس عاد من روما ولا فيلبوس من مصر. فاطمأن إلى أنَّ انطيوكس استتب له الملك وإنه حان الوقت للانتقام من المكابي وقومه، ولذلك جعل الملك يجمع جيشه ويستأتي جنوداً مستأجرين من ممالك أخرى ومن الجزائر حتى صار عدد جيشه مئة ألف راجل وعشرين ألف فارس واثنين وثلاثين فيلاً على ما في سفر المكابيين الأول (ف ٦ عد ٣٠) وفي سفر المكابيين الثاني (فصل ١٣ عد ٢). «مئة وعشرة آلاف راجل وخمسة آلاف وثلاث مئة فارس واثنين وعشرين فيلاً» قال فيكورو (في معجم الكتاب) إنَّ العدد الثاني حرَّفته يد النساخ كما وقع في كثير غيره. وحمل الملك وليسياس على اليهودية من جهة الجنوب فاجتازا في بلاد أدوم ولم يخجل منلاوس الخائن أن ينضمّ إلى

أعداء أمّته ووطنه طامعاً في العَود إلى رياسة الأحبار. ولكن إما لأنه لم يُحسب أميناً للملك كما لم يكن أميناً للآلهة أو لسبب آخر يعلمه الله أشرب ليسياس الملك أنَّ الرجل كان السبب في تلك النوازل. فأمر الملك أن يذهبوا به إلى البرية ويقتلوه فأخذوه إلى برج عالٍ ودفعوه من أعلاه فهلك المنافق ولم يحصل على تربة يُوارى فيها.

وسار عسكر الملك فحاصر بيت صور المشار إليها أياماً كثيرة ولم يقدروا حينئذٍ على فتحها. وأمر يهوذا الشعب أن يبتهلوا إلى الله فتضرَّعوا إليه بالبكاء والصوم والسجود ثلاثة أيام. وسار يهوذا ينجد أهل بيت صور ثم انصرف وحلَّ بقومه في بيت زكريا (تسمى اليوم أيضاً بهذا الاسم وهي في الجنوب الغربي من بيت لحم أعلام الأماكن الكتابية) تجاه محلَّة الملك. فبكَّر الملك في الغدّ ووجَّه بأس جيشه إلى طريق بيت زكريا. وتأهبت الجيوش للقتال وأرووا الفيلة بعصير العنب والتوت ليهيِّجوها للقتال. وأقاموا حذاء كل فيل خمس مئة فارس منتخبين يذهبون معه حيث ذهب. وكان على كل فيل برج حصين من الخشب فيه رجال من ذوي البأس. وانتشروا في الجبال والبطاح وأكثروا من الجلبة والهتاف وتقدَّم يهوذا وجيشه للمبارزة فاستظهروا على الأعداء أولاً وقتلوا منهم ست مئة رجل على ما في سفر المكابيين الأول (فصل ٦ عد ٤٢). ولكن جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١٣ عد ١٥). أربعة آلاف رجل وأهلك أول الفيَلة مع القوم الذين كانوا في برجه» فلا بدّ من زلَّة قلم في أحد العددَين ورأى العازار بن سوأران فيلاً عليه الدرع الملكية فظنَّ الملك عليه وأراد قتل الملك وتخليص شعبه وتخليد اسمه فعدا إلى الفيل ودخل بين قوائمه وقتله فسقط عليه الفيل ومات مكانه.

على أنَّ يهوذا رأى سطوة الملك وكثرة جيشه فتنحَّى من هناك. وعقد الملك صلحاً مع أهل بيت صور فخرجوا من المدينة لنفاد الطعام من عندهم، فاستولى الملك على مدينتهم وأقام فيها حرساً للمحافظة، وزحف بجيشه إلى أورشليم وحاصرها أياماً طويلة إلى أن نفذ الزاد من عندهم فتفرَّقوا كل واحدٍ إلى موضعه ولم يبقَ إلَّا نفر يسير. وكان بالعناية الربانية أنَّ فيلبوس الذي كان قد فرَّ إلى مصر كما مرّ انتهز فرصة شخوص الملك إلى اليهودية وخفَّ إلى شمالي المملكة، واستدعى الجنود الذين كانوا ساروا في صحبة انطيوكس ايفان فلبّى دعوته كثيرٌ منهم، وزحف بهم إلى انطاكية وتبوَّأ تخت الملك. وبلغ ذلك ليسياس فبادر إلى

الملك وقادة الجيش قائلاً قد قلّ طعامنا والمكان الذي نحاصره حصين وأمور المملكة تستحثنا فلنعاقد هؤلاء الناس ونبرم صلحاً معهم ومع أمّتهم، ونبيحهم السلوك بسننهم كما كانوا من قبل، فإنهم لأجل نقضها غضبوا وفعلوا كلما فعلوا فحسُن الكلام في عيون الملك ورؤساء جيشه.

وارسلوا اليهود بالصلح فأجابوا وأبرم الصلح على تركهم وما يدينون وحلف الملك والرؤساء على ذلك. فركن اليهود وخرجوا من حصونهم فدخل الملك إلى جبل صهيون ورأى الموضع حصيناً فنقض ما وقّع عليه ولم يبرَّ يمينه. وأمر بهدم السور فهُدم ولكن نجا اليهود وقفل الملك مسرعاً إلى انطاكية. فقاتل فيلبوس الذي كان تسنم منصّة الملك وافتتح المدينة عنوة. وعن يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٩) إنَّ الملك قتل فيلبوس أيضاً. وفي سفر المكابيين الثاني (فصل ١٣ عد ٢٤) إنَّ الملك صافى المكابي ونصبه قائداً وحاكماً من بتلمايس (عكا) إلى آخر بلاد اليهود، فشقَّ ذلك على أهل عكا فأقنعهم ليسياس وسكّنهم. قال الأب فيكورو (في معجم الكتاب في كلمة انطيوكس الخامس) إنَّ حقّ اليهود بمباشرة أمور دينهم بعد أن قرّره لهم انطيوكس الخامس اوباتور لم يعد أحد من ملوك سورية ينازعهم عليه أو يعارضهم به. واضمحلَّ عزم انطيوكس ابيفان على أن يجعل عباد الله يونانيين أخلاقا وديناً. ولم تكن حروب اليهود بعد ذلك مع ملوك سورية لأجل دينهم بل لأجل استقلالهم المدني. وكانت كل هذه الأحداث لسنة ١٦٣ ق.م.

عد ٤٣٦

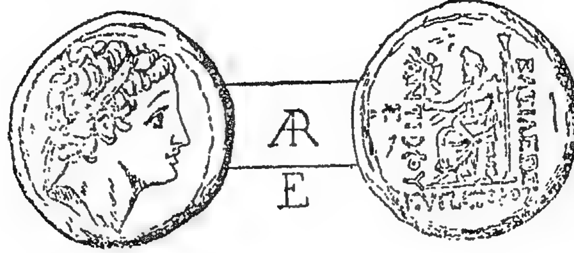
مقتل انطيوكس الخامس وليسياس وملك ديمتريوس سوتر

قد مرَّ أنَّ ديمتريوس ابن سلوقس الرابع كان رهينة في روما وإنَّ حق الملك بعد أبيه كان له لأنَّ أباه سلوقس هو بكر انطيوكس الكبير. فانتزعه منه عمه انطيوكس ابيفان واستمرَّ ديمتريوس في روما لما علم بوفاة عمه تقدَّم إلى رجال الندوة في روما ملتمساً اجلاسه على تخت أبيه. فيكون شديد الاخلاص للرومانيين لأنه عاش بين ظهرانيهم أعواماً عديدة فيحسب رجال الندوة كآباء له وبنيهم كاخوته. فآثر هؤلاء الحكّام مصلحة الجمهورية الرومانية على اجابة سؤال ديمتريوس العادل. ورأوا أنَّ الأصلح لهم أن يكون على تخت سورية ملك قاصر كما كان انطيوكس الخامس

لا شاب شديد البأس كديمتريوس. ولذلك أصدروا أمراً أثبتوا فيه تسنم انطيوكس عرش سورية وأوفدوا اكتاف ولوكرتيوس واوديليوس إلى سورية بأن يكون كل شيء طبق العهدة التي جرت بينهم وبين انطيوكس الكبير. وكان غرضهم أن يضعفوا هذه المملكة ما أمكنهم ليتيسّر لهم التقامها وقتاً ما، وكلفوا وفدهم أن يمرَّ في الاسكندرية وينظر في الخلاف الذي كان وقع بين ملكَي مصر الأخوين بتلمايس فيلوباتور وتلمايس فيسكون وكانت النتيجة ما دبَّره هؤلاء الوفد في مصر اقتسام هذه المملكة بأمر رجال الندوة الرومانية بين الملكَين الأخوين. فأعطوا فيسكون ليبيا والقيروان وفيلوباتور مصر وجزيرة قبرص ايهاناً لقوَّة هذه المملكة أيضاً طبقاً للرغائب المشار إليها. وسار الوفد الروماني إلى سورية وجد أنَّ لملكها من السفائن والفيَلة أكثر مما نصَّ عليه في العهدة بين انطيوكس الكبير والرومانيين. فأحرقوا من السفن وقتلوا من الفيَلة ما زاد على العدد المتفق عليه، فأوغر هذا الصنيع قلوب الشعب. وأخذت الحماسة من رجل اسمه لبتين كلَّ مأخذ فوثب على أكتاف الوافد الروماني وهو يستحم وقتله. ونسب هذه الفعلة إلى ليسياس مدبر الملك فأرسل رسلاً إلى روما يبرئ ساحة الملك وساحته من هذه الجريمة. فلم يُجب رجال الندوة الرسل إلَّا بأنهم يحفظون لأنفسهم الفحص والعقاب على هذه الجريمة.

قد ظنَّ ديمتريوس أنَّ حنق الرومانيين على انطيوكس اوباتور ييسّر له نيل بغيته العود إلى سورية فتقدَّم إلى رجال الندوة ثانية مستميحاً الترخيص له بالعود إلى وطنه. فأنكروا عليه الاجابة لما قرَّ من مقاصدهم فانسلَّ من روما خفية محتجاً بأنه ماضٍ للصيد وأسرع إلى استيا فوجد سفينة من قرطاجنة متأهبة للسفر إلى صور. فركبها ولم يُعلم مفره في روما إلَّا بعد ثلاثة أيام فأرسل الديوان الروماني في اثره وفداً يرقب ما يأتيه أما هو فحلَّ في طرابلس. وشاع أنَّ الرومانيين أرسلوه ليستحوذ على تخت أبيه. ويستردَّ ملكه وإنهم مصممّون على معاونته. فحلَّ الرعب في قلبَي انطيوكس الخامس وليسياس مدبره واعتبر الجمهور انطيوكس منحطاً على الملك. وأرفضوا عنه وانحازوا إلى ديمتريوس. وقبض بعض جنود انطيوكس انفسهم على مولاهم ومدبره وأتوا بهما إلى ديمتريوس فقال لا تروني وجوههما. فأخذهما الجنود وقتلوهما واستوى ديمتريوس على سرير الملك، وكان ذلك لسنة ١٦٢ ق.م (بوليب فصل ١١٤ وابيان في السوريين وبوستينوس ك ٣٤ فصل ٣ وسفر المكابيين الأول فصل ٧ عد ١ و ٢ والمكابيين الثاني فصل ١٤ عد ١ و ٢).

وهذا مثال لسكة انطيوكس الخامس فترى على الوجه الأول رأسه مكللاً. وفي الوجه الثاني رسم المشتري وبيمناه مثال الانتصار. وقد أسند يسراه إلى صولجانه وكُتب عليها باسيلاوس انطيوكس اوباتور أي الملك انطيوكس اوباتور.



وكانت باكورة أعمال ديمتريوس أنه أنقذ أهل بابل من ظالمَين. اسم أحدهما دتيمرك كان انطيوكس ابيفان أقامه والياً على بابل. واسم الثاني هركليد كان أقامه على الخزينة. فقتل ديمتريوس دتيمرك لأنه كان أقدم على العصاوة واكتفى لهركليد بالنفي، فشمل السرور أهل بابل، وسموا الملك سوتر أي المنقذ والمخلِّص فكان هذا لقبه.

عد ٤٣٧

حروب جنود ديمتريوس ويهوذا المكابي إلى مقتله

قد كان رجل من بني هارون الذين لا تحق لهم الرياسة على الكهنة اسمه يواقيم أو لياقيم. تزلَّف إلى اليونان طمعاً أن يصير رئيس الأحبار وغيَّر اسمه ليكون شبيهاً بالاسماء اليونانة داعياً نفسه الكيمس (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٩). وبعد مقتل منلاوس الخائن الآخر كما مرّ (عد ٤١٧) أقامه ليسياس مدبر الملك في أيام انطيوكس الخامس. فلما تسنم ديمتريوس الأول سرير الملك أتاه الكيمس يصحبه بعض الجاحدين من بني إسرائيل. فسعوا لدى الملك يهوذا المكابي واخوته وبمن يضادهم من الشعب قائلين له قد أهلكوا أصحابك وطردونا من أرضنا لأننا مخلصون الطاعة لك، فان حسُن بعينيك فارسل رجلاً تثق به يفحص عما أنزلوه بنا وببلادك ورعاياك من الدمار، ويعاقبهم على هذه الجرائم، فاختار الملك

بكيديس أحد أمنائه ووالي عبر الفرات وأرسله إلى اليهودية، وقلّد الكيمس رياسة الأحبار وجعله رفيقاً لبديكيس وأصحبهما بجيش كثيف. ولما وصلا إلى اليهودية آثر بيكيديس الحيلة على الحرب وأرسل رسلاً إلى يهوذا واخوته يخاطبونهم بالسلم فلم يركن المكابيون إلى كلامهم. ولكن وافى بعض المقدمين في الشعب بكيديس والكيمس لطلب السلم لأنهم قالوا إنَّ مع الشعب كاهناً من نسل هرون فلا يظلمنا، فتقبّلهم بكيديس بالترحاب وحلف لهم أنه لا يريد بهم ولا بأصحابهم سؤاً فصدقوه. لكنه لم يلبث أن قبض على ستين رجلاً منهم وقتلهم في يومٍ واحد. ثم أرسل فقبض على كثيرين فذبحهم وسلّم البلاد إلى الكيمس وأبقى معه جيشاً يؤازره، وقفل بكيديس راجعاً إلى انطاكية عند الملك.

فانضمّ إلى الكيمس جميع المفسدين في الشعب واستولوا على أرض يهوذا وألحقوا بإخوتهم الصالحين مضار كثيرة فلم يتحمّل يهوذا المكابي فظائعهم. فهبَّ منكِّلاً بهم ورادعاً لهم عن التمادي في شرّهم. فعاد الكيمس من أورشليم إلى الملك يشكوا إليه معارضة يهوذا إنفاذ أوامره وتنكيله بكل من أخلص الطاعة للملك. وأهدى إليه اكليلاً وسعفة من ذهب وأغصان زيتون مما يختصّ بالهيكل. فأرسل الملك نكانور أحد قادة جيشه وأمره بابادة اليهود وأصحبه بجيش جرار. فلجأ نكانور أيضاً إلى المكر وأرسل يخاطب يهوذا واخوته قائلاً لا يكون قتال بيني وبينكم وأنا قادم في نفر قليل لأواجهكم. وأتى إلى يهوذا وحيّا أحدهما الآخر تحية سلام، وكان في نيّة نكانور أن يختطف يهوذا إن قدر فلم يتيسّر له حينئذٍ. فعاد إلى معسكره وعلم يهوذا ما كانوا ينوون فأجفل ولم يعد إلى مواجهته. ثم أرسل نكانور إليه رسلاً لعرض الصلح وإمضائه وبعد البحث في الأمر طويلاً عيّنوا يوماً للمواجهة. وأقبل نكانور وأتى يهوذا وأقام رجالاً متسلحين يرقبون في مواضع موافقة مخافة أن يدهمهم الأعداء بشرّ. وتفاوضا وعقدا اتفاقاً وأقام نكانور بأورشليم لا يبدي منكراً وكان كثير الترداد إلى يهوذا وصبا إليه قلبه وحثّه على الزواج فتزوّج ولبث في راحة.

ولما رأى الكيمس ما بينهما من المصافاة والتودّد عاد إلى ديمتريوس الملك يقول إنَّ نكانور رأى رأي فساد واتفق مع يهوذا وآخاه فاستشاط الملك غضباً. وكتب إلى نكانور إنه ساخط من ذلك الاتفاق. وأمره أن يبادر إلى ارسال المكابي مقيّداً إلى انطاكية. فاحتار نكانور وشعر يهوذا أنه قد تغيَّر عليه فتغيَّب

عنه: ورأى نكانور أنَّ لا مناص له من إنفاذ أمر الملك ولم تُغنه الحيلة. فعمد إلى قتال يهوذا وخرج إليه بجيشه فالتقيا عند كفرسلامة (عن سمت إنها تسمى اليوم كفرسلوان في جوار أورشليم. وعن كوندر إنها تسمى سلمه في جوار يافا اعلام الأماكن الكتابية). فسقط من جيش نكانور نحو خمسة آلاف رجل وفرَّ الباقون إلى مدينة داود.

ثم خرج نكانور وأتى نحو الهيكل فخرج الكهنة وبعض الشيوخ يستعطفونه. ويرونه المحرقات المقدمة عن الملك فسخر منهم وتعذرهم. وأقسم لهم أنهم إن لم يسلموا إليه يهوذا ورجاله فيحرق الهيكل. وانصرف عنهم بحنق شديد فعاد الكهنة إلى الهيكل يصلّون لله باكين لينقذ هيكله وشعبه من أيدي الظالمين. وكان في أورشليم شيخ محمود السمعة حتى سُمي بأبي اليهود. فأراد نكانور أن يُبدي حنقه عليه فأرسل إليه أكثر من خمس مئة جندي ليقبضوا عليه، ولما رأى الشيخ الجنود أوشكوا أن يفتحوا باب الدار وأصبح محاطاً من كل جهة، وجأ نفسه بالسيف فلم يمت لساعته. ولما دخل الجنود داره رقي إلى أعلاها وألقى نفسه إلى أسفل. فبقي فيه رمق واشتعلت فيه الحمية فعدا بين الجنود. وقام على صخرة عالية وقد نزف دمه فأخرج أمعاه وضرب بها الجند داعياً لرب الحياة والروح أن يردهما عليه وقضى.

ثم خرج نكانور من أورشليم ونزل بيت حورون (بيت اور) ونزل يهوذا بادسته (المعروفة اليوم باداسه أيضاً على ثلاثين غلوة من بيت اور غرباً أعلام الأماكن الكتابية). وصلَّى المكابي وألحم الجيشان القتال في ١٣ من شهر آذار وانكسر جيش نكانور وكان هو أول من سقط في القتال، فتشتَّت شمل جيشه، وألقوا سلاحهم هاربين فتبعهم يهوذا ورجاله من اداسة المذكورة إلى مدخل جازر (المعروفة اليوم بتل جازر على أربعة أميال غرباً من عمواص طالع عد ٢٧٧). ونفخوا وراءهم في أبواق الإشارة فالتقاهم الناس من كل جانب وصدموهم. فارتدوا إلى جهة من يتعقبونهم فأبادوهم عن آخرهم. وأخذوا غنائمهم وأسلابهم وقطعوا رأس نكانور ويمينه التي مدَّها نحو الهيكل وأقسم أنه سيخربه. وأتوا بهما وعلقوهما على القلعة في أورشليم دليلاً بيّناً على نصرة الله. وجعلوا اليوم الثالث عشر من آذار عيداً لذكر هذا الانتصار في كل سنة. واستراحوا أياماً قليلة وكان

ذلك لسنة ١٦١ ق.م (مكابيين ١ فصل ٧ ومكابيين ٢ فصل ١٤ و ١٥ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ١٦).

ولما كان يهوذا يعلم ما للرومانيين من الاقتدار والعظمة والصولة وما يتأتى من حنق ديمتريوس عليه وعلى أمّته لقتل وزيره نكانور وقرض جنوده، أرسل رجلين من أعيان شعبه إلى روما يبغي عقد الموالاة والمسالمة مع الرومانيين. فرحّب أهل الشورى بوافدي يهوذا، وأكرموا مثواهما وأجابوا سؤال مرسلهما. وكتبوا كتاباً على ألواح من نحاس وأرسلوه معهما إلى أورشليم ليكون تذكاراً للمسالمة والمناصرة. ونسخة هذا الكتاب مثبّتة في سفر المكابيين الأول في الفصل الثامن ومؤداه: «تحقيق المسالمة والمناصرة بين الشعب الروماني وأمّة اليهود وإنه إذا قامت حرب على الرومانيين أو مناصريهم لزم اليهود إنجادهم بما أمكن على نفقاتهم. وكذلك إذا قامت حرب على اليهود ناصرهم الرومانيون على نفقاتهم. وإنهم كتبوا إلى ديمتريوس الملك يلومونه على اثقال نيره على مناصريهم اليهود، وإنهم إن عادوا يتظلّمون منه فينتصرون لهم ويقاتلونه بحراً وبراً.

أما ديمتريوس فوغر صدره على يهوذا ورجاله وأرسل بكيديس والكيمس ثانية بجيش كبير فنزلا على أورشليم. ثم انطلقا إلى بئروت (المعروفة الآن بالبيري على ثلاث ساعات من أورشليم في طريق نابلس) في عشرين ألف راجل وألفي فارس ولم يكن مع يهوذا إلّا ثلاثة آلاف رجل ورأوا كثرة عدد الجيش فهبّوا ينسابون حتى لم يبقَ منهم إلّا ثماني مئة رجل. فانكسر قلبه واسترخت عزائمه ولم يكن وقت لرد رجاله وأراد الباقون معه أن يصرفوه عن عزمه، فقال حاشاي أن أهرب منهم وإن كان قد دنا أجلنا فلنموتنَّ عن اخوتنا متشجعين. وبرز جيش العدو ووقفوا بازائهم ومقدمة الجيش كلها من ذوي البأس. وكان بكيديس في الميمنة. فقصده يهوذا ومعه كل ذي قلب ثابت ودام القتال من الصباح إلى المساء. وكسر يهوذا جيش الميمنة وتعقبوا أثرهم إلى جبل اشدود، ولما رأت ميسرة العدو انكسار الميمنة انقلبوا على آثار يهوذا ورجاله. واشتدَّ القتال وصرع كثيرون من الفريقين وسقط بينهم يهوذا البطل الصنديد. فحمله يوناثان وسمعان أخواه ودفناه في قبر آبائه في مودين فبكاه شعب إسرائيل بكاءً عظيماً، وناحوا عليه أياماً كثيرة واجتمع أصحاب يهوذا ورؤساء اليهود المستقيمو الرأي، واختاروا يوناثان رئيساً وقائداً مكانه (مكابيين ١ فصل ٩ عد ١ إلى ٣٠).

عد ٤٣٨

محاربات يوناثان وبكيديس قائد جيش الملك

علم بكيديس أنَّ يوناثان خلف أخاه يهوذا فطلب قتله فنجا يوناثان وأخوه سمعان ومن معهما إلى برية تقوع (وهي في عبر الأردن غير تقوع التي بين الخليل جنوباً وبيت لحم شمالاً). فزحف بكيديس إليهم بجيشه إلى عبر الأردن فأرسل يوناثان أخاه يوحنا إلى البناطيين أوليائهم يسألهم أن يعيروه عدتهم الوافرة. فخرج بنو عبري من ميدبا (تُعرف الآن بهذا الاسم في شرقي عبر الأردن). فقبضوا على يوحنا ومن معه وذهبوا بهم فكمن يوناثان ورجاله لبني عيري وهم سائرون في حفلة عرس فقتلوا منهم كثيرين انتقاماً لدم أخيهم. ووفد بكيديس إلى شطوط الأردن والتحم القتال ومدَّ يوناثان يده ليضرب بكيديس فانصاع إلى الوراء. وقُتل من جنوده في ذلك اليوم ألف رجل. وعبر يوناثان ورجاله النهر سابحين فلم يلحقهم بكيديس بل عاد إلى أورشليم وبنى قلعة وحصَّن أريحا وعماوس وبيت حورون (بيت اور) وبيت ايل (بيت اين) وجازر (تل جازر) وغيرها، وجعل فيها حرساً يراغمون إسرائيل وأخذ ابناء وجهاء البلاد رهائن وسجنهم في قلعة أورشليم.

وأمر بكيديس الكيمس الحبر الخؤون أن يهدم حائط دار المقدس الداخلية وشرع في التدمير فضربه الله باعتقال لسانه، وأصابه فالج حتى لم يعد يستطيع أن ينطق بكلمة فمات في عذاب أليم وكان ذلك لسنة ١٦٠ ق م. ولما رأى بكيديس أنَّ الكيمس مات عاد إلى الملك وأخذ الرهائن المذكورين معه فهدأت أرض يهوذا سنتين إلى أن ائتمر المنافقون من بني إسرائيل، وأرسلوا إلى بكيديس وفداً حمله على العود إلى اليهودية بجيش عظيم وبعث بكتب إلى نصرائه في اليهودية أن يقبضوا على يوناثان ومن معه فلم يكن لهم لما يبتغون سبيل. لأنَّ يوناثان درى بذلك فانصرف هو وأخوه سمعان ومن معهما إلى بيت حجلة (المعروفة الآن بعين حجلة في الجنوبي الشرقي من اريحا). وبنى هدومها وحصَّنها وقبض على خمسين رجلاً من أصحاب الفتنة. وقتلهم على ما فسَّر الحجري آية الكتاب (مكابيين ١ فصل ٩ عد ٦١) التي تخلو من لبس . فزحف بكيديس بجيشه وحارب بيت حجلة أياماً كثيرة. وترك يوناثان أخاه سمعان في المدينة ومضى ينكل بأعدائه وخرج سمعان ومن معه من المدينة وأحرقوا مناجيق العدو واستظهروا على بكيديس وضايقوه جداً

فاستشاط غضباً من المنافقين الذين أشاروا عليه بالخروج إلى اليهودية. وقتل كثيرين منهم وأزمع الانصراف إلى مولاه فراسله يوناثان في عقد المصالحة فأجابه إليها. وحلف له أنه لن يطلبه بسوء كل أيام حياته وردَّ إليه الأسرى الذين أسرهم من قبل وعاد إلى انطاكية. وكان ذلك خاتمة أسفاره إلى اليهودية واستولى الأمان في بني إسرائيل وسكن يوناثان في مكماش (مخماس على سبعة أميال من أورشليم شمالاً). وأخذ يحاكم الشعب واستأصل المنافقين من إسرائيل (مكابيين ١ فصل ٩).

عد ٤٣٩

تزلُّف ديمتريوس إلى الرومانيين والمؤامرة عليه واستحواذ اسكندر على عكا

يظهر أنَّ ديمتريوس بلغته رسالة الرومانيين المذكورة بأن ينكِّب عن اعنات اليهود لأنهم من أنصارهم ولذلك لم يعد بكيديس ولا غيره لمحاربتهم بل روى بوليب (فقرة ١٢٠) إنه أخذ يتزلَّف إلى الرومانيين بكل ما عنَّ له من الوسائل ليعرفوه ملكاً على سورية، ويجددوا معه العهدة التي كانت لهم مع أسلافه. وعلم أنهم أرسلوا وفداً إلى اريارات ملك الكبادوك فأوفد إليهم منيوثر وزيره يجاملهم، ويعرض عليهم بغية الملك فأمَّلوه بنيل الملك ما يبتغي. ثم أرسل إليهم ديمتريوس وهم في بمفيليا ثم في رودس يحقق لهم أنه سيكون مطواعاً لكل ما يهوون فنال بواسطة هؤلاء الوفد ما أمل. وأقرَّ له الرومانيون بملك سورية وجددوا العهدة معه، ثم أرسل منيوثر وغيره إلى روما سنة ١٥٩ق م. وأهدى الندوة اكليلاً ثميناً دليلاً على شكره للرومانيين لما لقيه عندهم إذ كان رهينة في روما. وبعث إليهم بلثين الذي اغتال اكتاف سفيرهم كما مرّ ورجلاً يونانياً اسمه سقراط كان في سورية حينئذٍ. وكان يدافع عن المغتال المذكور فقبل رجال الندوة رسل الملك بالترحاب والتكريم ولم يلتفتوا إلى الرجلَين المجرمَين حافظين لأنفسهم الحق أن يطلبوا في وقت آخر ما يهوون من الترضية عن قتل سفيرهم.

ولما أُريح ديمتريوس من الحرب ونعم باله من الهمّ والبلبال عكف على الملاذ واللهو. وبنى له قصراً في ضواحي انطاكية وعلى جوانبه أربعة أبراج وولع بالخمر وغوائله وأنف الاهتمام بمشاغل رعيّته. وكان يستمر سكران أكثر يومه حتى وقفت

أشغال الملك وتآمر عليه كثير من شعبه حتى هولوفرن الذي كان جعله ملكاً على الكبادوك. فطُرد من هناك لشرّه فكشف الملك عن وجه المؤامرة وتداركها بقتل كثيرين واستبقى هولوفرن طامعاً بأنه يحتاج إليه يوماً في محاربة اريارات. على أنَّ نار الفتنة لم تخمد إذ كان ينفخ بها بتلمايس فيلوباتور ملك مصر لخلاف بينه وبين ديمتريوس على جزيرة قبرص. وأنال ملك برغام واريارات ملك الكبادوك لمحاربة ديمتريوس لهما انتصاراً لهولوفرن المذكور. وائتمر هؤلاء الملوك الثلاثة على ديمتريوس وأسروا إلى هركليد خازن انطيوكس ابيفان الذي كان ديمتريوس نفاه من بابل كما مرّ (عد ٤٣٦) أن يجد شخصاً يدّعي أنه ابن انطيوكس ابيفان. وينازع ديمتريوس الملك فوجد رجلاً اسمه بالا ظنَّ الأكثرون أنه كان من سفلة الناس نسباً ومن ازمير موطناً. لكنه أهل لما اختير له من المكر وقال كثيرون إنه كان ابن انطيوكس ابيفان حقاً ومنهم استرابون (فصل ١٣) ويوسيفوس في تاريخ اليهود (ك ١٣ فصل ٢). وسمّاه سفر المكابيين الأول (فصل ١ عد ١) ابن انطيوكس وكلامه يتحمل أنه أراد الحقيقة أو حكاية ماسمى نفسه به. ومهما يكن من نسب بالا فقد أرشده هركليد إلى ما يصنع وجعل الملوك الثلاثة يقرّون له إنه ابن انطيوكس ابيفان. وتستيراً لدهائه أخذ معه لاوذيقة ابنة انطيوكس ابيفان حقيقة واستطاع بمكره وخديعته أن ينال له من الندوة الرومانية كتاباً يخوّلونه به أن يعود إلى سورية ليستردَّ ملكه. ووعدوه بالمعاونة له على ادراك بغيته وعاد هركليد ببالا إلى سورية، ويسّر له كتاب الرومانيين أن يحشد جنوداً فاستحوذ أولاً على عكا وسمى نفسه اسكندر بن انطيوكس ابيفان. وملك سورية وانضمَّ إلى رايته كثيرون من مخالفي ديمتريوس (بوليب ك ٣٣ فصل ١٦ وابيان في السوريين فصل ٦٧ ويوستينيوس ك ٣٥ فصل ١ وغيرهم) وكان ذلك لسنة ١٥٣ ق.م.

عد ٤٤٠

جدّ كل من الملكَين في استمالة يوناثان إليه وقتل اسكندر ديمتريوس

إذا علمتَ ما مرّ تهيأ لك ادراك ما جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١٠ عد ١ وما يليه) حيث قال ما ملخصه: «وفي السنة المئة والستين لتاريخ السلوقيين وهي سنة ١٥٣ ق.م صعد الاسكندر الشهير ابن انطيوكس وفتح بطلمايس (عكا)

فقبلوه. وملك هناك وجمع ديمتريوس الملك جيوشاً كثيرة وخرج لملاقاته في الحرب. وشعر بحاجته إلى نصير فأنفذ إلى يوناثان كتاباً متقرّباً إليه بالاطراء قاصداً أن يسبق اسكندر إلى موالاته. وأذن له أن يجمع جيشاً ويصنع أسلحة وردَّ عليه الرهائن الذين كانوا في قلعة أورشليم. فتلا يوناثان الكتاب على مسامع الشعب وجزعوا جزعاً شديداً. وطفق يوناثان يبني أسوار أورشليم ويحصِّنها فهرب الغرباء الذين كانوا في الحصون التي بناها بكيديس كما مرّ. وعلم الاسكندر بما وعد به ديمتريوس يوناثان وما صنع هو وأخوته من الحروب، فعزم أن يتَّخذه ولياً ومناصراً فكتب إليه مسمياً إياه أخاه وسائلاً أن يكون له وليّاً ونصيراً. وأقامه كاهناً أعظم في أمَّته وأرسل إليه أرجواناً وتاجاً من ذهب مما لا يلبسه إلَّا الملوك. فلبس يوناثان الحلَّة المقدَّسة المختصة برؤساء الأُحبار واستمرَّت هذه الرياسة في ذرية المكابيين إلى أيام هيرودوس، وجمع يوناثان جيشاً وجهّز أسلحة.

فشقَّ ذلك على ديمتريوس وقال كيف تركنا الاسكندر يسبقنا إلى مصافاة اليهود والتعزز بهم، وكتب إليهم قائلاً إنه بلغه إنهم محافظون على عهود ولايته ثابتون في مودَّته ولم يتقرَّبوا إلى أعدائه وإنه يستحسن ثوابهم على ما يفعلون ويعفيهم. ويحطّ عن جميع اليهود كل جزية ومكس الملح الذي كان يلزم اداؤه للحكومة على كلما يُنفق أو يُباع منه، ومن ضريبة الأكاليل إذ كان يضرب ضريبة على الرعية أن يدفع كلٌّ منهم شيئاً من ثمن أكاليل تُقدَّم للملك. ويُترك لهم ثلث الزرع ولا يريد به على الأصحّ ثلث الحبوب الحاصلة من الزرع بل ثلث البذر. فمن بذر مثلاً اثني عشر مداً لزمه أن يدفع للملك أربعة أمداد من الحبوب كأنهم اصطلحوا على ذلك بدلاً من العشر (الحجري في تفسير هذه الآيات). وأعفاهم أيضاً من دفع نصف أتاء الشجر أي ثمارها في أرض اليهودية وما الحق بها من أرض السامرة والجليل. وأمر أن تكون أورشليم مقدَّسة وحرَّة هي وتخومها ولا تدفع شيئاً من العشور والضرائب. وقال إنه يتخلَّى عن فعلتها للكاهن الأعظم ليقيم فيها من اختار ويطلق جميع النفوس التي سبيت من اليهود بلا فدية. ويُعفى الجميع من أتاوة المواشي ويبيحهم الاعتناء بأعيادهم وسبوتهم. وتكون تلك الأيام أيام ابراء وعفو لجميع اليهود فلا يثقل أحد عليهم في أي أمر كان.

وأن يكتتب من اليهود في جيش الملك إلى ثلاثين ألف رجل يعطون وظائف كسائر الجنود ويفوَّض إلى بعضهم النظر في مهام المملكة. ووهب بطلمايس (عكا

التي كان اسكندر استحوز عليها) وما يتبعها لهيكل أورشليم لأجل نفقة الأقداس. ويزيد عليها كل سنة خمسة عشر ألف مثقال من الفضة. فتُعطى للهيكل من دخل الملك الخاص وإنَّ ما بقي من مال الحكومة في السنين السالفة يتخلّى عنه لأعمال الهيكل. وخمسة آلاف مثقال فضة التي كانت تؤخذ من دخل الهيكل تترك رزقاً للكهنة القائمين بالخدمة ومن لاذ بالهيكل ومن للملك عليه مال أو أي حق كان فليعفَ. ونفقة البناء والترميم في الهيكل وبناء الأسوار في أورشليم وسائر اليهودية تُعطى من حساب الملك.

فلم يثق يوناثان ولا الشعب بهذه المواعيد لأنهم تذكروا ما أنزل ديمتريوس بهم وما أنزلوه بجيوشه. فآثروا اسكندر على ديمتريوس واستمروا على مناصرته كل الأيام. «ثم انتشبت الحرب بين الملكين ففي الوقائع الأولى كانت سجالاً لم يظهر أحدهما على الآخر (يوستينيوس ك ٣٥ فصل ١). ولكن في سنة ١٥٠ ق.م اشتدَّ القتال وكان الملوك الثلاثة المذكورون ويوناثان ينجدون اسكندر برجالهم. وفي الوقيعة الأخيرة التي دامت النهار كله ظهرت ميسرة ديمتريوس على ميمنة اسكندر فتتبعتها طويلاً تاركة الملك يقاتل في قلب جيشه وميمنته. فتقوى عليه الأعداء وكبا حصانه وهو منهزم في وحول فقُتل برمي السهام واستتب الملك لاسكندر (مكابيين ١ فصل ١٠ عد ٤٨ إلى عد ٥٢) ويوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٢) واسترابون (ك ١٦ فصل ٢). وكانت مدة ملك ديمتريوس اثنتي عشرة سنة من سنة ١٦٢ إلى سنة ١٥٠ ق م.

وهذا مثال لسكة ديمتريوس الأول فترى في الوجه الأول رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني رسم السعد جالس على كرسي وفي يمناه عصى الملك وفي شماله



بوق دلالة على الرعد والخصب. وقد كُتب عليها باسيلاوس ديمتريوس سوتروس أي الملك ديمتريوس سوتر أي المخلِّص.

عد ٤٤١

مصاهرة اسكندر لبتولمايس وتعزيزه يوناثان وهيكل اليهود في مصر

إنَّ الملك اسكندر رغبةً في تعزيز سلطته أرسل إلى بتلمايس ملك مصر يقول إذ قد رجعت إلى أرض مملكتي وجلست على عرش آبائي واستتبَّ لي السلطان. فهلمَّ الآن نوالي بعضنا بعضاً وهب لي ابنتك زوجة فأصاهرك وأهدي إليك هدايا تليق بك. فأجابه بتلمايس مبدياً سروره من استتباب الملك له ودعاه ليوافيه إلى عكا فيزف ابنته قلوبطرة إليه هناك. فالتقى الملكان في عكا وأُقيم العرس على عادة الملوك بمعظم الاحتفاء. وكتب الملك اسكندر إلى يوناثان أن يقدم لملاقاته فانطلق إلى عكا في موكب مجيد. وأهدى للملكَين وحاشيتهما هدايا نفيسة فعظُمت منزلته لديهما. وقد وشى به رجال منافقون من بني إسرائيل فلم يصغ الملك إليهم بل أمر أن يلبسوا يوناثان أرجواناً. وأجلسه إلى جانبه وقال لعظمائه اخرجوا معه إلى وسط المدينة. ونادوا أن لا يتعرَّض أحد له في أمرٍ من الأمور ولا يسوءه بشيء من المكروه. فهرب من وشوا به واعزه الملك وأقامه قائداً وشريكاً في الملك. وعاد إلى أورشليم سالماً مسروراً (مكابيين ١ فصل ١٠ عد ٥١ إلى ٦٧). وروى يوسيفوس (ك ٢ في رد ازعام ابيون).

إنَّ اونيا بن اونيا الثالث لما لم يحصل على رياسة الأحبار بعد موت عمه منلاوس مضى إلى مصر، وتزلَّف إلى بتلمايس فيلوماتور وقرينته الملكة قلوبطرة فاحتفيا به وأكرما مثواه. فسأل الملك أن يأذن له في هيكل لليهود في مصر كهيكلهم في أورشليم فيكونون له أخلص الرعية في طاعته. فأجاب الملك سؤاله وأمر أن تكون رياسة الأحبار في هذا الهيكل له ولذريته من بعده. على أنَّ اليهود ابوا إلّا المقاومة لهذا الأمر الذي تنهاهم سنَّتهم عنه ولا تبيحهم أن يكون لهم هيكل إلّا هيكل أورشليم. وما برحوا يكابرون اونيا إلى أن أُفحمهم بنبوّة اشعيا (فصل ١٩ عد ١٨ وما يليه) حيث قال: «في ذلك الزمان تكون خمسة مدن في أرض مصر تتكلَّم بلغة كنعان وتحلف برب الجنود. يقال لإحداها مدينة الشمس

(هليوبولي) في ذلك اليوم يكون مذبح للرب في داخل أرض مصر... فيكون علامة وشهادة لرب الجنود في أرض مصر لأنهم يصرخون إلى الرب من مضايقهم. فيُرسل لهم مخلّصاً ورباً فينقذهم». فمعرفة هذا الأمر قبل حدوثه بقرون تعلو مدارك البشر ويخالف كل الخلاف قرائن الأحوال في أيام اشعيا فنبوَّته عليه من أعظم النبوَّات.

عد ٤٤٢

ثورة ديمتريوس الثاني على الملك اسكندر

إنَّ الملك اسكندر لما خلا له الجو من الحرب والنزاع انقطع إلى الملاذ وعكف على الترف والبطالة، وترك مهام الملك إلى خلٍّ له يسمى امونيوس. فهذا قتل لاوذيقة أخت ديمتريوس وانتيكون ابنه الذي كان قد استمر في سورية بعد مقتل أبيه. واغتال كل من وجدهم من النسل الملكي ليجعل مولاه في مأمن من المنازعة له على الملك الذي اختلسه بمكره. فمقت الشعب الملك وكثر أنينه من اعتزاله المهام ومن سوء تصرف عماله. وكان ديمتريوس بكر ديمتريوس الأول فاراً إلى كريت وكان بلغ أشده. وعلم تذمُّر الخاصة والعامة من الملك فانتهز الفرصة وهبَّ من كريت سنة ١٦٠ للسلوقيين وهي سنة ١٤٧ ق م. فحلَّ في قيليقية فلبَّى القوم دعوته لمقتهم الملك واستحوذ على تلك البلاد. فصحا اسكندر من سكر غفلته وهبَّ من رقاد توانيه وجهَّز جيشاً سار به لمناوأة ديمتريوس. وترك لتدبير الملك في انطاكية هياركس وديودت المسمى تريفون. وبلغه أنَّ ابولونيوس والي بقاع سورية وفينيقية جاهر بالإنحياز إلى ديمتريوس . فأمره في ولايته كما كان من قبل اسكندر وأقامه على الجيش فكتب إلى حميه بتلمايس ملك مصر أن ينجده برجاله فأبطأ في إنجاده.

أما يوناثان فاستمر يخلص في الطاعة لاسكندر فراسله ابولونيوس قائلاً ليس لنا من مقاوم إلَّا أنت فعلامَ تناهضنا في الجبال؟ فإن كنت واثقاً بجيوشك فانزل إلينا في السهل فنتبارز هناك. فاختار يوناثان عشرة آلاف رجل وخرج بهم من أورشليم وتبعهم أخوه سمعان ونزل تجاه يافا فأغلق حرس ابولونيوس في وجهه الأبواب فحاصر المدينة فخاف أهلها. وفتحوا له الأبواب فاستولى يوناثان على يافا وبلغ الخبر ابولونيوس فقدِم بجيش كثير وثلاثة آلاف فارس وأظهر من نفسه أنه عابر إلى

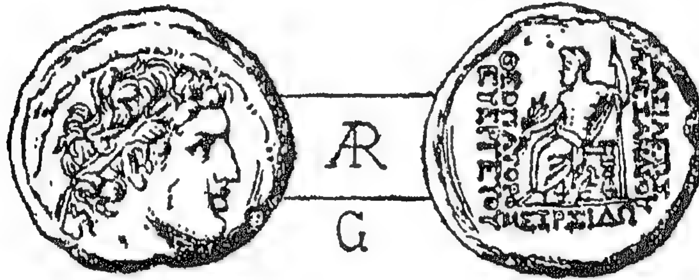
اشدود ثم عطف بغتة إلى السهل. وترك ألف فارس وراءه يكمنون ليوناثان الذي تعقَّبه إلى اشدود. والتحم القتال بين الفريقين فوثب أولئك الفرسان يرمون ساقة يوناثان بالسهام حتى أعيت خيلهم. فحينئذٍ برز سمعان بجيشه والحم القتال على الفرسان فشتت شملهم وانتصر يوناثان على جيش ابولونيوس، ففرّوا إلى اشدود ودخلوا بيت راجون معبد صنمهم فأحرقه والمدينة وما حولها وأخذ غنائمهم. وكان عدد القتلى ثمانية آلاف رجل ثم سار يوناثان إلى اشقلون (عسقلان) فخرج أهل المدينة للقائه باجلال عظيم وعاد غانماً إلى أورشليم. وبعث إليه اسكندر الملك بعروة من ذهب كما كان يهدي لابناء الملوك ووهب له عفرون وتخومها ملكاً (مكابيين ١ فصل ١٠ عد ٦٧ إلى ٨٦).

أما بتلمايس السادس ملك مصر فجمع جيوشاً كثيرة وجهَّز سفناً عديدة. وسار إلى سورية مظهراً أنه يريد إنجاد صهره اسكندر الملك ومبطناً الاستيلاء على مملكته وإلحاقها بمملكة مصر. ففتح له أهل المدن أبوابها والتقوه بالتجلَّة حسب وصية الملك اسكندر. وكان بتلمايس كلما خرج من مدينة أبقى فيها حرساً من الجند ولما وصل إلى اشدود أروه هيكل داجون المحرَق والمدينة وضواحيها المهدومة فلم يفه الملك ببنت شفة.

ولاقاه يوناثان إلى يافا باجلال ثم شيَّعه إلى نهر الوتاروس (المعروف الآن بالنهر الكبير في شمالي طرابلس اعلام الأماكن الكتابية). فاستحوذ بتولمايس على المدن الساحلية إلى سلوقية التي على مصبّ العاصي (المعروفة الآن بالسويدية). وأرسل ديمتريوس أن يعقد عهداً بينهما ويعطيه ابنته قلوبطرة التي كان زوَّجها بالملك اسكندر مدَّعياً أنَّ هذا الملك رام قتله. فتغيَّر عليه والذي ذكره يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٣) من سبب هذا التغيير هو أنه لما كان بتلمايس في عكا اكتشف مكيدة لاغتياله صلاها له امونيوس وزير اسكندر. فكتب إلى الملك أن يعاقبه على ما جنى فأجابه إنه لم يتحقق أنَّ لوزيره ضلعاً في هذه الجناية فاستاء بتلمايس. وذكر ديودر مثل هذا السبب على ما جاء في فقرات المؤرخين اليونان لمورل على أنَّ الكتاب قال: إنه «تجنَّى عليه طمعاً في ملكه» (مكابيين ١ فصل ١١ عد ١١). ومهما يكن فبتلمايس دخل انطاكية ووضع على رأسه تاجين تاج آسيا، وتاج مصر، وفرَّ امونيوس وزير اسكندر متنكراً بزي امرأة وعرفه بعض أهل انطاكية فقتلوه.

ولما علم اسكندر وهو في قيليقية بما كان خفَّ لقتال حميه بتلمايس والتحم القتال بين جيشي الملكَين فدارت الدوائر على اسكندر. وتشتت جنوده وانهزم هو بخمس مئة فارس إلى زبدئيل أحد أمراء العرب فقطع الأمير رأسه، وأرسله إلى بتلمايس في انطاكية. إلَّا أنَّ بتلمايس لم يعش بعد ذلك إلَّا قليلاً، وأدركته المنية (مكابيين ١ فصل ١١ عد ١ إلى ١٩ ويوسيفوس ك ٣٥ فصل ٢ وديودر في مجلد ٢ فصل ٢٠ في الفقرات المذكورة). وكانت وفاة الملكين سنة ١٤٦ وعند بعضهم سنة ١٤٥ ق م. واستتبَّ الملك في سورية لديمتريوس الثاني الملقَّب نيكانور أي الظافر أو الغازي.

وهذا مثال لسكة اسكندر بالا. ففي الوجه الأول صورته والتاج على رأسه. وفي الوجه الثاني صورة المشتري وفي يمناه رمز الصاعقة. وفي يسراه الصولجان وقد سُكت في صيدا سنة ١٦٥ للسلوقيين. وكُتب عليها باسيلاوس الكسندروس ثاوبتروس افرجاتوس أي الملك اسكندر المتألِّه الأب المحسن.



عد ٤٤٣

سوء تصرف ديمتريوس نكانور

إنَّ الملك ديمتريوس أساء السعي منذ بدء ملكه واعتمد على رجل من اكريت اسمه لستان كان ابوه ارسله إليه لدن تسعُّر الحرب مع اسكندر بالا. فعند عود ديمتريوس إلى سورية أصحبه لاستان ببعض المتطوعين من الأكريتيين فوثق به وترك له زمام أعماله فنفر قلوب من كان لمولاه أن يعتصم بهم. وكانت باكورة أعماله السيئة أن جعل الملك يأمر بقتل الحرس الذين كان بتلمايس أقامهم في مدن سورية

فقتلهم جنوده. وحنق منه الجنود المصريون الذين كانوا أجلسوه على أريكة الملك بتهزيمهم عدوّه الملك اسكندر فغادروه وقفلوا إلى مصر. ثم طفق يبحث عن كل من خالفه أو خالف أباه في حروبه الأخيرة ويقتصّ من كل من وجده منهم بالقتل. وبعد أن فرغ من التنكيل بهؤلاء حسب أنه لم يبقَ له عدو ولا مقاوم وصرف السواد الأعظم من جنوده. ولم يُبقِ إلّا على الأكريتيين وبعض الجنود الاجانب فمقته شعبه وعاداه الجنود الذين أعدمهم الرزق.

أما يوناثان فلما رأى استتباب الراحة والأمن في اليهودية عزم أن يُنقذ شعبه من ضيق الرجال المقيمين في قلعة أورشليم. فجمع الرجال وأعدَّ العُدد وحاصر القلعة فانطلق قوم من مبغضي أمّته إلى ديمتريوس يوشون به ويخبرونه بحصاره القلعة. فاستشاط ديمتريوس غضباً وسار لساعته إلى عكا وكتب إلى يوناثان أن يكفَّ عن حصارالقلعة ويبادر إلى ملاقاته في عكا. فأمر يوناثان رجاله أن يستمروا على حصار القلعة وأخذ بعض الشيوخ والكهنة وكثيراً من الفضة والذهب والحلل وغيرها من الهدايا وانطلق إلى الملك. فاحتفى به الملك وعامله معاملة أسلافه له وأقرّه في رياسته الكهنة. وفي كل ما كان له من الاختصاصات وسأله يوناثان أن يعفي اليهودية والمدن الملحقة بها وأرض السامرة من كل جزية فيدفع له ثلاث مئة قنطار (عبارة عن ثلاث مئة ألف ريال) فارتضى الملك بذلك. وكتب إلى يوناثان وأمّة اليهود كتاباً ضمَّنه نسخة الكتاب الذي أرسله إلى عامله في فلسطين وفحواه أنه رأى أن يُحسن إلى أمّة اليهود لمحافظتهم على ما يحقّ له. وإنه يقرّر لهم حدود اليهودية والمدن الثلاث والملحقة بها من أرض السامرة وهي افيرمة (غزة افرائيم المعروفة بالطيبة). ولدة (وهي اللدّ في الجنوب الشرقي من يافا وفي شمالي الرملة). والرمتائيم (ولم يُعيَّن محلها وهي غير الرامتائيم صوفيم أي الرامة التي في اليهودية أعلام الأماكن الكتابية). وإنه عفاهم من الجزية وغيرها من الضرائب «بناءً على ما تعهّد به له يوناثان» وهذه الرسالة مثبتة في سفر المكابيين الأول (فصل ١١). وعاد ديمتريوس إلى انطاكية وإلى معاقرة الخمرة والانكباب على المعاصي وتعسُّف الرعية. فضاق ذرع شعبه وعال صبرهم عن التحمُّل فثاروا عليه ثورة اشترك فيها عامتهم وخاصتهم كما سترى.

وكان في مصر بعد وفاة بتلمايس السادس أنَّ الملكة قلوبطرة زوجته أفرغت جدَّها في تمليك ابنها منه. ويظهر مما جاء في البابير المصري إنَّ بين بتلمايس

فيلوماتور المتوفى وبين بتلمايس افرجات الآتي ذكره ملكاً آخر يسمى بتلمايس اوباتور وهذا مُشعر أنَّ مسعى الملكة لم يُخفق. على أنَّ بعض أعيان الملكة عنوا بتمليك بتلمايس فيسكون أخي الملك المتوفي. وكان مالكاً في القيروان كما مرَّ وخافت قلوبطرة على نفسها فاستدعت اونيا وعسكراً من اليهود للذب عنها. وكان في الاسكندرية يومئذٍ سفير للرومانيين اسمه ترموس أصلح ذات البين بينهما على أنَّ فيسكون يتزوَّج قلوبطرة ويربي ابنها ليكون ولي العهد ويرث الملك بعد وفاته. لكنه ما عتَّم بعد تزوّجه بالملكة واستوائه على أريكة الملك أن قتل ابن الملكة في حضنها يوم العرس نفسه. واستتبَّ الملك لفيسكون وهذا لقب إزدراء معناه البطِن (الذي لا يهمه إلَّا بطنه) لقَّبه به قومه كما مرّ. واللقب الذي اتخذه في ملكه هو بتلمايس افرجات أي المحسن. وكان ذلك سنة ١٤٥ ق م. (يوستينوس ك ٣٨ فصل ٨ ويوسيفوس في رد مزاعم ابيون ك ١ ف ٢ وغيرهما).

عد ٤٤٤

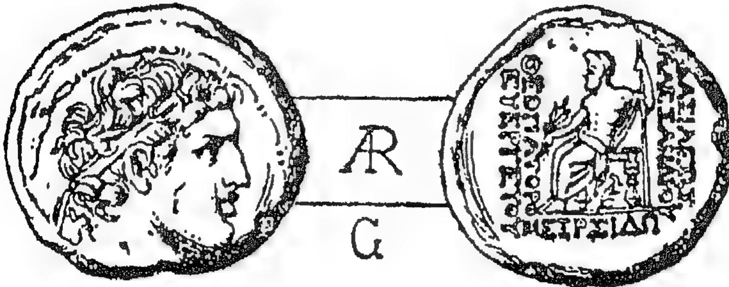
الثورة على ديمتريوس نكانور

قد مرَّ أنَّ ديمتريوس الثاني أثار الرعية بتعسّفه وسوء تصرفه فديودرت الملقَّب تريفون (وهو الذي كان الملك اسكندر بالا أقامه على تدبير المملكة مع هياركس في مدة غيابه عن انطاكية كما مرّ). انتهز فرصة مقت الشعب والجنود لديمتريوس فمضى إلى ايملكوئيل أمير العرب الذي كان يربي انطيوكس ابن الملك اسكندر بالا والحَّ عليه أن يسلم إليه الأمير الصغير ليملِّكه مكان أبيه. وقصَّ عليه ما يفعل ديمتريوس وما له في قلوب الجيش والشعب من العداوة. وكان في عزم تريفون أن يستعين بانطيوكس ليثلّ عرش ديمتريوس فإذا نال ما ابتغى دبَّر على انطيوكس وأخذ الملك لنفسه. فالأمير العربي لم يذعن اولاً لما زيَّنه له تريفون ولم يُسلم إليه انطيوكس. «فمكث تريفون هناك أياماً كثيرة» (كما في سفر المكابيين ١ فصل ١١ عد ٤٠) يزيد في الإلحاح والتزيين لأمير العرب إلى أن سلَّم إليه انطيوكس.

وكان في أثناء غياب تريفون في بلاد العرب أن اشتدَّ شغب الشعب والجند في انطاكية على ديمتريوس وإنَّ يوناثان استمر محاصراً قلعة أورشليم ولم يتيسّر له فتحها. فكتب إلى ديمتريوس أن يأمر باخراج الجنود منها فأجابه الملك أنه سيفعل

ذلك وسأله أن يُرسل إليه رجالاً من أمّته لأنّ جيوشه كلها خذلته. فوجّه يوناثان إليه ثلاثة آلاف رجل أشدّاء البأس ففرح الملك بهم وتعزّز جانبه. وأراد أن يأخذ السلاح من أهل انطاكية فتألّبوا عليه وكانوا نحو مئة وعشرين ألفاً واحتاطوا قصره مصممين على قتله. فدعا الملك اليهود ومن بقي أميناً له لنجدته فشتتوا شمل المشاغبين وأحرقوا المدينة. وقتلوا كثيرين من أهلها وانتهبوا كل نفيس فيها. فتزلّف الأهلون للملك وصالحوه وألقوا السلاح وعاد اليهود إلى أورشليم بغنائم كثيرة. على أنّ ديمتريوس أخلف في كل ما وعد يوناثان به وتغيّر عليه وضايقه. وعاد إلى ما كان عليه من الاعتساف للرعية وإذ ذاك عاد تريفون من بلاد العرب ومعه انطيوكس. وهو غلام صغير فاجتمع إليه جميع الجنود الذين سرحهم ديمتريوس وانضوى تحت رايته كل بغيض للملك وهم السواد الأعظم. ونادوا به ملكاً ووثبوا على ديمتريوس فأُرغم أن يغادر انطاكية وينزوي في سلوقية (السويدية). واستولوا على فيَلة الملك وأجلسوا انطيوكس بن اسكندر على منصّة الملك ولقبّوه ثاوس أي الإله (مكابيين ١ فصل ١١ عد ٣٨ إلى ٥٧ يوستينيوس ك ٣٨ فصل ٩ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ ف ٩ وابيان في الرسائل فصل ٦٨ واسترابون ك ١٦). وكان ذلك لسنة ١٤٥ أو لسنة ١٤٤ ق.م ولم يكن بذلك ختام ملك ديمتريوس نكانور فسترى أنه عاد إليه.

وهذا مثال لسكة ديمتريوس الثاني ففي الوجه الأول صورته مكللاً مطلق اللحية. وفي الوجه الثاني المشتري وفي يمينه تمثال الظفر وفي يساره الصولجان. وقد سكّت في صيدا سنة ١٨٥ للسلوقيين، وقد كُتب عليها باسيلاوس ديمتريوس ثاوس نكانور أي الملك ديمتريوس المتألّه نكانور.



عد ٤٤٥

ما كان في أيام انطيوكس السادس

إنَّ هذا الملك استوى على أريكة الملك من سنة ١٦٧ إلى سنة ١٧٠ للسلوقيين كما يؤخذ عن سكته وهذا يطابق ما جاء في سفر المكابيين. ويوافق سنة ١٤٥ إلى سنة ١٤٢ ق.م وبعد أن طرد تريفون الملك ديمتريوس الثاني من انطاكية. افترص سخط اليهود على ديمتريوس لاخلاف وعوده لهم ليستميل يوناثان إلى محازبة انطيوكس السادس. فجعل الملك يكتب له أنه يقرُّه في رئاسة الكهنة ويقيمه على اليهودية وملحقاتها. ويتَّخذه من أصدقائه وأرسل إليه آنية من ذهب لخدمته وأباحه أن يشرب في آنية الذهب. ويلبس الأُرجوان بعروة ذهب. وأقام أخاه سمعان قائداً للجيش من صور إلى تخوم مصر وخرج يوناثان فطاف في عبر الأُردن وفي المدن فألَّب جيشاً كبيراً في سورية قسمه إلى عسكرَين قاد هو فريقاً وأخوه سمعان فريقاً آخر. فنكلوا بأعداء الملك وأدّوه خدامات تُذكر فتُشكر.

منها أنَّ يوناثان انصرف إلى غزة فأغلق أهلها الأبواب في وجهه فحاصرها وأحرق ضواحيها ونهبها. فسأله أهلها الأمان فأمَّنهم وأخذ ابناء رؤسائهم رهائن وأرسلهم إلى أورشليم ثم جال في البلاد إلى دمشق فأتى قوّاد جيش ديمتريوس إلى قادش الجليل (المعروفة اليوم بقادس في غربي الحولة) يناوئونه فزحف لملاقاتهم إلى ماء جناشر (بحيرة طبرية). ثم سار إلى سهل حاصور (المعروفة الآن بجبل حضيرة في جوار قادس اعلام الأماكن الكتابية). فلاقاهم الأعداء في السهل واكتمن لهم فريق في الجبل. ولما انتشب القتال ثار الكمين عليهم ففرَّ السواد الأعظم من رجال يوناثان فجثا يصلّي. ثم قام بمن بقي معه يستأنف القتال فانهزم أعداؤه ولما رأى ذلك رجاله رجعوا وتعقَّبوا العدو إلى قادس وقتلوا منهم في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل وعاد يوناثان إلى أورشليم. وأما أخوه سمعان فحاصر بيت صور (المار ذكرها) أياماً كثيرة إلى أن سأله أهلها الأمان فأمَّنهم. وأقام فيها حرساً (مكابيين ١ فصل ١١ عد ٥٧ إلى عد ٧٤).

ثم بلغ يوناثان أنَّ قواد ديمتريوس عادوا لمحاربته بجيش يزيد على جيشهم الأول فلم يمهلهم أن يطأوا أرضه بل التقاهم إلىأرض حماه. وأرسل جواسيس إليهم فأخبروه أنهم مزمعون أن يهجموا عليهم ليلاً. فأمر جيشه أن يسهروا

وسلاحهم بأيديهم الليل كله، وعلم الأعداء أنهم متأهبون للقتال فداخلهم الرعب والرعدة، فأضرموا النار في محلتهم وفرّوا. ولما علم يوناثان صباحاً بفرارهم تعقبهم فلم يدركهم لأنهم كانوا قطعوا نهر العاصي. فارتدَّ إلى قبيلة من العرب يسكنون في تلك الأنحاء ويُسمَّون زبدين فضربهم وسلب غنائمهم. ثم أتى دمشق وأما أخوه سمعان فمضى إلى اشقلون (عسقلان) والحصون القريبة منها ثم ارتدَّ إلى يافا واستحوذ عليها لأنه سمع أنَّ أهلها يريدون أن يسلموا حصنها إلى أحزاب ديمتريوس. وأقام في المدينة حرساً وعاد يوناثان إلى أورشليم. وائتمر مع شيوخ الشعب أن يبني حصوناً في اليهودية ويرفع أسوار أورشليم، ويفصل بين القلعة والمدينة. وأتمَّ ذلك هو وأخوه سمعان (مكابيين ١ فصل ١٢ عد ٢٤ إلى ٣٩).

وكان في هذه الأثناء أنَّ يوناثان سيَّر إلى روما رجالاً ليقرِّروا الموالاة بينهم. ويجدِّدوها فدخلوا الشورى وبلَّغوا رجالها الغرض من ارسالهم فرحبّوا بهم وعند عودهم، كتبوا إلى عمالهم في الأقاليم أن يحسنوا مثواهم ويبلغوهم أرض يهوذا بسلام. وكتبوا إلى الملوك مناصريهم الرسالة المثبتة في الفصل الخامس عشر من سفر المكابيين الأول (عد ١٦ إلى ٢٤) يعلنون فيها مناصرتهم لليهود، وأن لا يقيم عليهم أحدٌ حرباً وأن يُسلموا من فرَّ منهم من أهل الفساد إلى سمعان الكاهن الأعظم ليجزيهم بحسب شريعتهم. وأرسل يوناثان مع وفده إلى روما كتباً إلى اسبرطه (في المورة) وأماكن أخرى. وذكر صاحب سفر المكابيين الأول (فصل ١٢ عد ٥). نسخة هذه الكتب إلى أهل اسبرطة وملخَّصها: «من يوناثان الكاهن الأعظم وشيوخ الأمة والكهنة وسائر شعب اليهود إلى أهل اسبرطه اخوتهم سلام. إنَّ اريوس ملككم قديماً كان قد أنفذ إلى اونيا الكاهن الأعظم كتباً يشهد فيها أنكم اخوتنا فتلقَّى اونيا الرسول بالاكرام. وأخذ الكتب المصرَّح فيها بالمناصرة والموالاة فنحن وإن لم تكن بنا حاجة إلى ذلك لما لنا من التعزية في الأسفار المقدَّسة قد أثرنا مراسلتكم لنجدِّد الاخاء والموالاة لئلا نُعَدّ من الأجانب عندكم، إذ قد مضى على مكاتبتكم زمان مديد. وإنّا في الأعياد لا نزال نذكركم في الذبائح وفي الصلوات كما يليق أن يذكر الاخوة. ويسرُّنا ما أنتم عليه من الاعتزاز وأما نحن فقد أحاطت بنا مضايق كثيرة وحروب عديدة. وقاتلنا الملوك الذين من حولنا وكرهنا أن نثقل عليكم وعلى سائر مناصرينا في تلك الحروب، فإنَّ لنا من السماء مدداً يمدُّنا. وتخلَّصنا من أعدائنا والآن اخترنا رجلَين من وجهائنا وأرسلناهما إلى

الرومانيين لنجدِّد عهود الموالاة بيننا وبينهم. وأمرناهما أن يقدِّما إليكم ويقرئاكم السلام ويسلما إليكم كتباً في تجديد الاخاء ولكم جميل الصنيع إن أجبتم إلى ذلك». ثم ذكر نسخة رسالة اريوس الملك إلى اونيا الكاهن الأعظم فكان مآلها: «قد وُجد في بعض الكتب أن الأسبرطيين واليهود اخوة من نسل ابراهيم وإذ علمنا ذلك فلكم جميل الصنع إن راسلتمونا فيما أنتم عليه من السلام، والآن مواشيكم وأملاككم هي لنا وإنَّ مالنا هو لكم هذا ما أوصينا أن تبلغوه».

اختلف العلماء في هذه القربى بين اليهود والأسبرطيين فقال كثير منهم لا قربى بين القبيلتين بل المراد من كلام الكتاب إنما هو الاخاء والموَّدة لا الأخوَّة من جهة الأصل الجامع بينهما. وقالوا إنَّ صحيح ترجمة كلام ملك اسبرطة إنما هو: «قد وُجد في بعض الكتب أنَّ بين الأسبرطيين واليهود الذين من نسل ابراهيم موالاة واخاء». وأثبتوا قولهم بما جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١٢ عد ٨ وهو: «فتلقى اونيا الرسول بالاكرام وأخذ الكتب المصرَّح فيها بالمناصرة والموالاة» كما روينا آنفاً. ثم بما جاء في جواب الأسبرطيين المثبت في الفصل الرابع عشر من هذا السفر (عد ٢٢) وهو: «ودوّنا ما قالوه في دواوين الشعب هكذا. قد قدم علينا تومانيوس ابن انطيوكس وانتيپاتر بن ياسون رسولا اليهود ليجددا ما بيننا من الموالاة». حيث لا ذكر للأخوَّة والقربى التي أول من قال بها يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٥ وك ١٣ فصل ٩). وقد كشف العلماء عن كثير من الأغلاط له.

وأما من قالوا بالقربى وهم كثيرون أيضاً فلهم في منشئها وأصلها أقوال، والأولى أن يقال احداس مختلفة. فمن قائل إنَّ الأسبرطيين من ولد إحدى إمرأتَي ابراهيم هاجر أو قطورة. ومن قائل إنهم من ولد امرأة لعيسو اتخذها من اليونان. ومن قائل إنهم من ولد قدموس الفينيقي أو أحد جاليته الذين احتلّوا بلاد اليونان. ولما كان قدموس فينيقياً حيث مواطن العبرانيين وهموا أنَّ أصله من نسل ابراهيم. ومن قائل إنَّ اسبرطة وضع أُسسها رجل يهودي اسمه سبرطون (ملخَّص عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة لكديمونيين). وقالوا: إنَّ السبرطيين يشبهون اليهود في أمور كثيرة منها شريعتهم وعادتهم أن يغتسلوا كل يوم وثباتهم وبسالتهم. وعن القديس ايرونيموس (في تفسير فصل ٢٣ من نبوَّة اشعيا) إنَّ بختنصر لما استحوذ

على اليهودية فرَّ كثيرون إلى قبرص ومكدونية وبلاد اليونان. وكذلك لما خرِّب أورشليم فقد يكون ذلك منشأ هذه القربى المدَّعى بها.

عد ٤٤٦

اغتيال تريفون يوناثان وانطيوكس السادس

كان تريفون هائماً بتاج الملك ولم يرق انطيوكس إلى العرش إلَّا ليحطّه يوماً عنه ويجلس عليه مكانه لكنه كان يخشى سطوة يوناثان. فأحبَّ أن يهلكه وسار بعسكر إلى بيت شان (بيسان) فالتقاه يوناثان في أربعين ألف رجل منتخبين للقتال. فلم يجسر تريفون أن يمدّ إليه يداً بل تلقَّاه بالاكرام. وأهدى إليه هدايا وأمر جنوده أن يطيعوه طاعتهم لنفسه وقال له لِمَ ثقلت على هؤلاء الرجال وليس بيننا حرب فاطلقهم. وانتخب لك منهم نفراً قليلاً. وهلمَّ معي إلى بطلمايس (عكا) فأسلمها إليك هي وسائر الحصون ثم أنصرف أنا راجعاً لأني لهذا جئت. فصدَّق يوناثان كلامه وصرف جيشه وأبقى معه ثلاثة آلاف وترك أَلفَين منهم في الجليل وسار مع تريفون في ألف إلى عكا، ولما دخلها أغلق أهلها الأبواب وقبضوا عليه وقتلوا جميع من كان معه، وأرسل تريفون جيشاً وفرساناً إلى الجليل لإهلاك جميع رجال يوناثان. ولما علم هؤلاء أنَّ يوناثان قُبض عليه ومن كانوا معه قُتلوا شجعوا أنفسهم، وتقدَّموا وهم متضامنون متأهبون للقتال، ورأى طالبوهم أنهم مستبسلون فرجعوا عنهم وعاد رجال يوناثان إلى أورشليم (مكابيين فصل ١٢ عد ٣٩ إلى ٥٣). فداخل الشعب الرعب والرعدة فصعد سمعان إلى أورشليم وشجَّع قومه فاختاروه قائداً لهم ووعدوا أن يفعلوا كل ما يقول. فحشد جميع الرجال وجدَّ في اتمام أسوار أورشليم وحصنها، ووجه يوناثان بن ابشالوم إلى يافا في عددٍ وافٍ من الجيش، فطرد من كانوا فيها من قبل تريفون وأقام هناك وزحف تريفون من عكا في جيش عظيم ومعه يوناثان مخفوراً، وعلم أنَّ سمعان قد قام في مكان أخيه وأنه مزمع أن يلحم الحرب معه. فأنفذ إليه رسلاً يقول إنما قبضنا على يوناثان لمالٍ كان عليه للملك، فالآن أرسل مئة قنطار فضة وابنَيْ يوناثان رهينة لئلا يغدر بنا إذا أطلقناه وحينئذٍ نطلقه. فعلم سمعان أنه يكلِّمه بمكر ومع ذلك أرسل إليه المال والولدَين مخافة أن يقال أنه أضرَّ بالشعب لأنه لم يرسل ذلك، فأخذ تريفون المال والولَدين. واستمرَّ يغير على البلاد ويدِّمرها وسمعان وجيشه يقاومونه حيث ما

تقدّم. وأنفذ الذين في قلعة أورشليم يقولون لتريفون أن يأتيهم في طريق البرية وينفذ إليهم ميرة. فجهّز تريفون جميع فرسانه للمسير في ذلك الليل ولكن تكاثر الثلج حال دون مسيرهم. فارتحل تريفون إلى أرض جلعاد (السلط) ولما قارب من بسكاما (لا يُعرف موقعها إلّا أنها في السلط) قتل يوناثان ودفنوه هناك سنة ١٤٣ ق م. ورجع تريفون إلى انطاكية ليغتال الملك إذ لم يعد يخشى أحداً في التوصّل إلى غرضه.

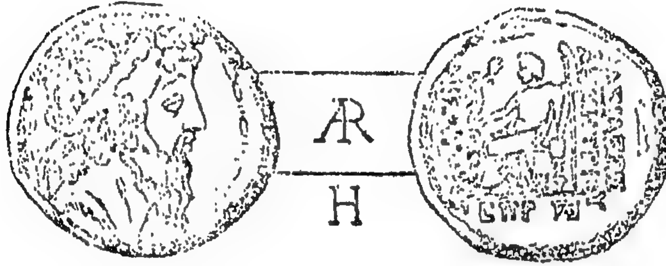
وأرسل سمعان وأخذ عظام أخيه ودفنها في مودين في مدافن آبائه. وناح عليه بنو إسرائيل نوحاً عظيماً وندبوه أياماً كثيرة. وأقام سمعان على قبر أخيه واخوته بناءً رفيعاً بحجارة منحوتة. ونصب على القبور سبعة أهرام لأبيه وأمه واخوته الأربعة. وكان أقام هرماً لمدفنه حتى كانت الأهرام سبعة وزيّنها بالنقوش. وجعل حولها أعمدة عظيمة عليها رسم أسلحة وسفن تخليداً لذكرهم (مكابيين ١ فصل ١٣ عد ١ إلى ٣٠). وقال كاتب السفر: «هذا هو القبر الذي صنعه بمودين باقياً إلى اليوم». وقد بقيت هذه المدافن قائمة إلى أيام يوسيفوس لأنه ذكرها بل إلى أيام القديس ايرونيموس إذ قال في الأماكن العبرانية: «مودين قرية في جانب ديوسبوليس (اللد) كان فيها المكابيون وترى مدافنم فيها إلى اليوم».

إنَّ العالِم كاران (في كتابه في فلسطين مجلد ٢ في السامرة صفحة ٥٥ وما يليها ثم في صفحة ٣٥٥ و ٤٠٤ و ٤١٥ وفي كتابه الموسوم بالأرض المقدَّسة في كلامه على مودين) أطال الكلام في مودين هذه. وحقَّق أنها المسماة الآن المدية في جوار اللد، وقد احتفر فيها باحثاً عن مدافن المكابيين فوجدها. وأثبت أنها هي هي بأدلَّة راهنة، وردَّ كلما يمكن أن يُرد على صحة ذلك من الاعتراضات، وهمَّ كثيراً بأن يشتري الأرض التي فيها هذه المدافن، ويجعلها ملكاً لحكومة افرنسا فلم يتيسَّر له. وقد كان الأب عمنوئيل فورما أحد الآباء الفرنسيين تقدمه في القول أنَّ المدية هي مودين حيث مدفن المكابيين سنة ١٨٦٦ م والدكتور سنبدركتي وكندر الإنكليزيين قالا بذلك سنة ١٨٦٩ م ثم أكمل هو (أي كاران) هذا الاكتشاف عن هذه المدافن سنة ١٨٧٠م.

أما تريفون فلم يُبطئ بعد عوده إلى انطاكية أن قتل انطيوكس الملك الصغير بذريعة أنه مريض مرض الحصاة. فاستدعى الأطباء ليباشروا له عملية جراحية واسرَّ

إليهم أن يقتلوه بها فقتلوه. ولم يكن من يثأر بدمه فملك تريفون مكانه ولبس تاج آسيا (مكابيين ١ فصل ١٣ عد ٣١ و ٣٢ وطيطوس ليف رسالة ٥٥ وابيان في الرسائل فصل ٦٨ يوستينوس ك ٣٦ فصل ٢ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٧) وكان ذلك لسنة ١٤٢ ق.م.

وإليك مثالاً لسكة انطيوكس السادس ففي الوجه الأول مثال رأسه وعليه تاج تنبعث منه أشعة. وفي الوجه الثاني رسم فارسَين على جواديهما ورماحهما مشرَّعة وعليها علامات دالة أنها ضربت في هرقلية سنة ١٦٩ للسلوقيين. وكُتب عليها باسيلاوس انطيوخس أبيفانيوس ديونيسيوس أي الملك انطيوكس ابيفان ديونيسيوس .



عد ٤٤٧
ما كان في أيام تريفون إلى مقتله

أحبَّ تريفون أن يقرَّ له الرومانيون بالملك تأييداً له فأرسل إلى روما وفداً وأهدى إلى ندوتها معهم تمثال الحظ من ذهب يساوي زنة عشرة آلاف قطعة من ذهب. فتقبَّله الرومانيون إلَّا أنهم كتبوا عليه أنه هدية من الملك انطيوكس الذي كان تريفون قتله إشعاراً بأنهم لم يقروا له بالملك. على أنهم لما بلغهم خبر وفاة يوناثان أسفوا عليه شديداً. وكتبوا إلى سمعان أخيه مع رسوله فوميانوس على ألواح من نحاس يجددّون معه ما كان لهم من الموالاة والمناصرة مع أخويه يهوذا ويوناثان. وكتب إليه أيضاً رؤساء الأسبرطيين رسالتهم المثبتة في سفر المكابيين الأول (فصل ١٤). جواباً على الرسالة التي كان أخوه يوناثان أنفذها إليهم وبنى سمعان حصون

اليهودية . وعزّزها بالأسوار والبروج وادَّخر فيها ميرة وأرسل إلى ديمتريوس الملك وهو لاهٍ في اللاذقية، عاكفاً على ملاذه أن يعفي البلاد من الضرائب التي يطلبها تريفون، لأنَّ كل ما فعله هذا إنما كان اختلاساً. وأهدى إليه اكليل ذهب وسعفة فكتب إليه ديمتريوس كتابه المثبت في الفصل الثالث عشر من سفر المكابيين به يثبت له ولامته كل الاختصاصات التي كانت لهم قبلاً، وإنَّ الحصون التي بنوها تكون لهم، وعفا عفواً عاماً عن كل مذنب أو جانٍ إلى ذلك اليوم. وترك لهم كل ضريبة وأباح اليهود أن يكتتبوا في جنديته قاصداً أن يستميلهم إليه لمقاومة تريفون. وبدا بنو إسرائيل يكتبون حينئذٍ أي سنة ١٤١ق.م في توقيع الصكوك والعقود في السنة الأولى لسمعان الكاهن الأعظم قائد اليهود ورئيسهم (مكابيين ١ فصل ١٣ عد ١٦ إلى عد ٤٣).

ونزل سمعان على غزة وحاصرها بجيشه وصنع دبابات، وأدناها من المدينة ووثب من فيها على المدينة فحصل اضطراب عظيم. وصعد أهلها رجالاً ونساءً وأولاداً إلى السور يصرخون إلى سمعان سائلين الأمان. فأمَّنهم ودخل المدينة بالتسبيح وطهَّر البيوت التي كان فيها أصنام. وحصَّن المدينة وبنى فيها منزلاً وضايق الذين كانوا في قلعة أورشليم. فمات كثير منهم جوعاً فطلبوا الأمان فأمَّنهم وأخرجهم من هناك. وطهَّر القلعة من النجاسات ودخلها بمعظم الاحتفاء ورسم أن يعيِّد ذلك اليوم بسرور كل سنة. وحصَّن جبل الهيكل الذي بجانب القلعة وجعل ابنه يوحنا قائداً على جميع الجيوش. وأقام بجازر (تل جازر على أربعة أميال غرباً من عمواص) مكابيين ١ (فصل ١٣ عد ٤٣ إلى ٥٤). وجعل يافا مرسى للسفن وفتح مجازاً للجزائر. ووسَّع تخوم مملكته واستتبَّت الراحة والسلم في اليهودية وما ألحق بها. وكتب الشيوخ والكهنة وعامة الشعب في سنة ١٧٢ق.م وهي سنة ١٣٩ ق.م والثالثة لسمعان صكاً لسمعان أقروا به بالفضل له ولاخوته. وأقرّوه قائداً لأمَّتهم وكاهناً أعظم وحتَّموا أن يطيعه الشعب كله ولا يعارضه أحد. وقبِلَ سمعان ذلك ووقَّعوا جميعاً على هذا الصكّ الذي كتبوه على ألواح من نحاس وحفظوه في خزانة الهيكل.

أما ديمتريوس فاستفاق أخيراً من رقاد غفلته ولهوه إذ وافاه وفود من المشرق يستنجدونه على البرتيين الذين كانوا استحوذوا على كل البلاد الواقعة بين الهند والفرات. فهبَّ ديمتريوس لنجدتهم آملاً في أن ينجدوه بعداً على تريفون، فعبر

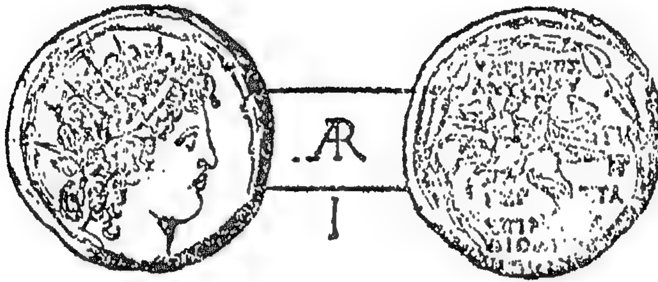
الفرات. وانضوى تحت رايته العيلاميون والفرس وغيرهم واستظهر على البرتيين في وقائع عديدة، على أنَّ ملكهم ارساكيس أو ارساس (كما كان جميع ملوكهم يسمون بهذا الاسم نسبةً إلى ارساكيس أول ملوكهم وكان علمه الشخصي متريدات) استظهر عليه وأخذه أسيراً وطوَّفه في كل الأعمال التي دوخها ليحسن الخضوع له. ثم عامله بمنزلة ملك وأكرم مثواه وزوَّجه بابنته رودوكون، وشرط عليه أن لا يبارح مملكته. وكان ذلك لسنة ١٤٠ ق.م.

ولما علمت قلوبطرة امرأته أنه وقع أسيراً بيد البرتيين تحصَّنت مع أولادها في سلوقية (السويدية). وترك كثيرون من الجنود تريفون لاعتسافه وانكبابه على الملاذ وتوانيه عن مهام المملكة. وحازبوا الملكة قلوبطرة على أنها لم تكن في مأمن من تريفون فبلغها زواج ديمتريوس بابنة متريدات. وكان أبناؤها صغاراً لا ترجى منهم المقدرة على خلع تريفون. وتسنم عرش الملك فراسلت انطيوكس صيدات أخا ديمتريوس زوجها أن يتزوَّجها فتقدر بعونه على اتخاذ الملك فلبَّى دعوتها. وكتب وهو في رودس (ابيان في السوريين فصل ٦٨) إلى سمعان قائد اليهود رسالته المثبة في الفصل الخامس عشر من سفر المكابيين الأول يستحثه على مناصرته لطرد تريفون. ويخوِّله اختصاصات كثيرة حتى أن يضرب في بلاده سكة خاصة. ثم تزوج قلوبطرة وسمى نفسه ملك سورية وحمل على سورية بجيش نحو مئة وعشرين ألفاً حشد أكثرهم من بلاد اليونان وآسيا الصغرى والجزائر، وانضمَّ إليهم من كان عند قلوبطرة. وزحف لقتال تريفون وكان شعبه وجنوده قد مقتوه فتركه كثيرٌ منهم وانحازوا إلى انطيوكس، ولما رأى تريفون عجزه عن مناوأة انطيوكس فرَّ من وجهه. وأحرق بيروت وسار إلى دورا (الطنطورة على مقربة من عكا) فحاصره انطيوكس فيها بحراً وبراً. فهرب تريفون بحراً إلى طرطوس ثم إلى حماه موطنه. فقُبض عليه هناك وقُتل (يوستينوس ك ٣٦ فصل ١ وابيان في السوريين ف ٦٨ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ ف ٩ و ١٢ وسفر المكابيين الأول فصل ١٤) وكان أخذ انطيوكس الملك وقتل تريفون سنة ١٣٨ ق م.

ولكن أين كانت بيروت التي أحرقها تريفون فالمعوَّل عليه بالاجماع إلى الآن أنها كانت حيث هي الآن. وإنَّ المدينة في أيام السلوقيين كانت في موقعها نفسه في أيام الرومانيين. على أنَّ الاكتشافات التي يعني بها الدكتور روفيه الافرنسي في ما وراء نهر الغدير أدَّته إلى العثور على آثار قديمة فينيقية ومسكوكات كُتب عليها

ما يُشعر بأنَّ المدينة القديمة كانت هناك وأنها كانت تسمى أيضاً لاذقية كنعان. وقد وُجد أيضاً هناك مدافن فينيقية وآنية خزفية عليها أحرف فينيقية. وما برح مجداً في التنقيب هناك علَّه يتوصَّل إلى اثبات رأيه بأنَّ بيروت القديمة كانت في المحل المذكور، على أنَّ ما نراه إنَّ ما كُشف عنه حتى الآن غير كافٍ لاثبات ما يخالف رأي الأقدمين. ونعلم من جهة أخرى أنَّ لاذقية كنعان كان اسماً عند الأقدمين للمحل المعروف الآن بأم العواميد على مقربة من الطنطورا على ما يؤخذ من بعض الخطوط التي عثر عليها رنان هناك وذكرها في كتابه الموسوم ببعثة فينيقيا.

وإليك مثالاً لسكة تريفون ففي الوجه الأول رسم رأسه مكللاً. وفي الوجه الثاني صورة نسر طاوٍ جناحيه على صاعقة وكُتب عليها باسيلاوس تريفون اوتوكراتوس أي الملك تريفون المستقل.



عد ٤٤٨

حرب انطيوكس السابع مع اليهود

إنَّ انطيوكس هذا هو ابن ديمتريوس الأول الملقَّب بسوتر وأخو ديمتريوس الثاني الملقَّب بنكانور. رُقيَّ إلى منصَّة الملك سنة ١٣٨ ق.م كما مرَّ. قال بعضهم أنه سمي صيدات لولوعه بالصيد. والأمثل ما قاله فيكورو (في معجم الكتاب) إنه سمي كذلك لأنه وُلد في صيدا في بمفيلية نصيدات بمعنى الصيداوي. (اوسابيوس في تاريخه). وقد رأيت أنه قبل أن بلغ مملكته كتب إلى سمعان يستنجده ويثبت له اختصاصاته ويزيد عليها. فأرسل إليه سمعان وهو محاصر لدورا ألفَي رجل منتخبين نصرةً له وفضة وذهباً وآنية كثيرة. على أنَّ انطيوكس الملك لما رأى استفحال أمره

وفرار عدوِّه آثر اتباع خطة أكثر سلفائه في مناصبة اليهود. وتغيَّر على سمعان ولم يقبل رجاله ولا هداياه. ونقض عهده له وأرسل إليه اتينوبيوس أحد أصحاب الملك يقول من قِبله إنكم استوليتم على يافا وجازر وقلعة أورشليم وهي من مملكتي فتخلّوا عن هذه المدن. وأدوا خراج ما تسلطتّم عليه في خارج اليهودية خمس مئة قنطار فضة. وعمّا أتلفتموه خمس مئة قنطار أخرى وإلّا فتأهبوا للقتال. فأجابه سمعان أننا لم نأخذ أرضاً لغريب، ولم تستولِ على شيء لأجنبي. لكننا استرددنا ميراث آبائنا الذي استولى عليه أعداؤنا. ويافا وجازر كانتا تجلبان على شعبنا نكبات شديدة فاستحوذنا عليهما. ونؤدي عنهما مئة قنطار فضة. فلم يجبه اتينوبيوس بكلمة وعاد إلى الملك. وقصَّ عليه ما رآه من مجد سمعان وخزانة آنيته الفضيَّة والذهبية وأثاثه الوافر. وبلغه جوابه فاستشاط الملك غضباً وأقام كندباوس قائداً على جيشه الساحلي. وأمره أن يزحف إلى اليهودية ويقاتل اليهود، وهو عاد بجيشه إلى الشمال متعقباً تريفون الذي كان فرَّ إلى طوطوس كما مرّ (مكابيين ١ فصل ١٥ عد ٢٦ إلى ٤٠).

وبلغ كندباوس إلى يمنيا (يبنة الآن بين يافا شمالاً واشدود جنوباً) وحصن قدرون (قطرة الآن على خمسة أميال من يبنة شرقاً الأعلام الكتابية). وجعل يرغم الشعب ويغير على اليهودية. فصعد يوحنا ابن سمعان وأخبر أباه بما كان. ولمّا كان سمعان قد شاخ وابناه يهوذا وسمعان بلغا أشدهما فأرسلهما لقتال كندباوس. وانتخب في البلاد عشرين ألفاً من رجال الحرب والفرسان جعلهم تحت أمرة ابنَيه، ولما بلغوا السهل التقاهم جيش عظيم من الرجالة والفرسان. وكان بين الجيشين وادٍ ورأى يوحنا رجاله خائفين من عبور الوادي. فعبر هو أولاً وأتبعه رجاله وألحموا الحرب ونفخوا في الأبواق المقدَّسة فانكسر أمامهم كندباوس وجيشه وقُتل منهم كثيرون. وفرَّ الباقون وجُرح يهوذا ابن سمعان فتعقبهم أخوه يوحنا فتحصَّنوا في قدرون التي حصَّنها كندباوس. فأخرجهم يوحنا منها وفرّوا إلى البروج التي في أشدود فأحرقها يوحنا. وقتل منهم ألفَي رجل وعاد إلى أرض يهوذا بسلام (مكابيين ١ فصل ١٦ عد ١ إلى عد ١١).

وكان الملك أقام بطلماوس بن ابوبس صهر الكاهن الأعظم قائداً في بقعة أريحا. وكان غنياً فتشامخ وسوَّلت له نفسه الأمّارة بالسوء أن يستولي على البلاد

ويقتل سمعان وبنيه. وكان سمعان يجول في المدن يتعهَّد مهامها فنزل إلى أريحا هو وابناه متتيا ويهوذا. فأنزلهم بطلماوس في حصن بناه يسمى دوق (يُعرف الآن بعين دوق في جوار أريحا اعلام الأماكن الكتابية). وأدب لهم مأدبة عظيمة وأخفى هناك رجالاً. ولما شرب سمعان وابناه وثب عليهم بطلماوس ورجاله فانتزعوا سلاحهم وقتلوهم وبعضاً من غلمانهم بخيانة فظيعة. وكتب بطلماوس إلى انطيوكس يخبره بذلك ويسأله أن يُرسل إليه جيشاً فيسلمه البلاد كلها. ووجَّه قوماً إلى جازر ليقتل يوحنا بن سمعان وآخرين ليستولوا على أورشليم وجبل الهيكل. وعلم يوحنا بما عمله الخائن وقبض على الرجال الذين أتوا ليقتلوه فقتلهم عن آخرهم. ولم يطرفنا كاتب سفر المكابيين الأول بما صنعه يوحنا بعد ذلك إلَّا بقوله الذي هو خاتمة سفره: «وبقية أخبار يوحنا وحروبه وما أبداه من الحماسة وبناؤه الأسوار التي بناها وأعماله مكتوبة في كتاب أيام كهنوته الأعظم منذ تقلَّد الكهنوت الأعظم بعد أبيه». وكان مقتل سمعان لسنة ١٧٧ للسلوقيين الموافقة سنة ١٣٥ أو سنة ١٣٤ ق.م.

على أنَّ الكتاب في أيام كهنوت يوحنا مفقود، ولكن أنبأنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٥). واوسابيوس (في تاريخه كتاب ٢ فصل ١٩) إنَّ يوحنا أتى أورشليم وحشد الرجال على بطلماوس ففرَّ إلى حصن الدوق فحاصره يوحنا فيه. وكاد يفتحه ولكن بطلماوس كان أسر أم يوحنا وأخوين له فأصعدهم إلى أعلى السور متهدداً يوحنا بأنه يلقيهم إلى أسفل إن لم يرفع الحصار عنه. فأخذت يوحنا الشفقة على أمه وأخويه فرفع الحصار لكن الخائن قتلهم بعد ذلك وفرَّ إلى زينون ملك فيلادلفيا. وهي عمان في عبر الأُردن.ثم انطيوكس السابع حاول أن ينتقم لكندبوس قائد من اليهود فلبَّى دعوة بطلماوس قاتل سمعان وغشي اليهودية بجيشه. وخرَّب ودمَّر في البلاد وحاصر أورشليم وأوشك أن يفتتحها لكنه خوفاً من الرومانيين صالح يوحنا على شروط لم تكن ثقيلة على اليهود منها أن يطرحوا سلاحهم. ويؤدوا إليه جزية يافا والمدن الخارجة عن اليهودية. وأن يقبلوا حرساً من قبله في مدنهم فقَبِل يوحنا شروطه إلَّا اقامة الحرس في مدنهم. وافتدى ذلك بدفعه إلى الملك مبلغاً وافراً من المال، ثم وقَّع على الصلح. ويوحنا هذا يلقَّب بهركان وقد خلف أباه في رئاسة الكهنوت والولاية على اليهودية.

عد ٤٤٩
تتمّة أخبار انطيوكس السابع

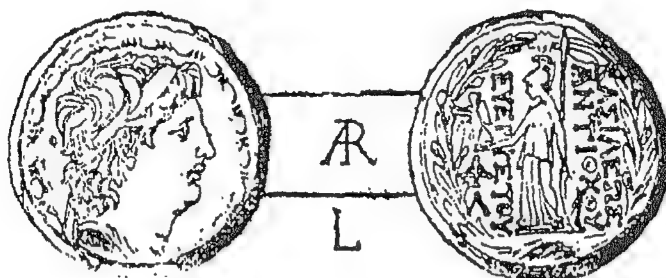
قد أحبَّ انطيوكس أن يستميل الرومانيين إليه فأرسل إلى شيبيون الافريقي الثاني وهو في اسبانيا هدايا كثيرة نفيسة. فأخذ بعض رؤساء جنوده شيئاً منها فجمع شيبيون جنده كلهم وأمر بحضرتهم أن تسلم تلك الهدايا كلها إلى خازن العسكر ليكافئ بها من امتاز من الجنود بإداء خدمته فدونك مثالاً للنزاهة وعزة النفس وحسن السياسة. وقد مرَّ أنَّ ديمتريوس الثاني كان أسيراً عند ملك البرتيين فأطلق له الذهاب حيث شاء. ولم يخطر عليه إلَّا الخروج من مملكتهم، فحاول مرتَيْن الهرب والعود إلى سورية فلم ينجح. وكان ملك البرتيين يطمع في الولاية على سورية على بعدها عنه وكان يتحيَّن فرصة ليغشى سورية بحجَّة أن يرد ديمتريوس صهره إلى ملكه فيستولي هو عليها. فأراد انطيوكس السابع أن يتدارك هذا الأمر قبل وقوعه فحشد جيشاً وافراً ينيف على ثمانين ألف مقاتل من نخبة رجاله. واتَّبعهم جمّ غفير من الطباخين والحلوانيين والمغنيين والنساء، فاستظهر انطيوكس أولاً على فرآت الثاني ملك البرتيين (الذي كان قد خلف أباه متريدت) في ثلاث وقائع واسترد منه بلاد بابل ومادي، وخلعت جميع أعمال المشرق التي كانت من مملكة سورية نير الطاعة للبرتيين وخضعت لانطيوكس. وربما كان حينئذٍ ما رواه يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٦) عن نقولا الدمشقي وهو: «إنَّ الملك انطيوكس أقام قوس انتصار على عدوة نهر ليكوس (نهر الكلب) ذِكراً لانتصاره على إندات قائد جيش البرتيين. وكان يوحنا هركان أمير اليهود مرافقاً لانطيوكس في هذه الحروب وشاطره شرف الظفر، وعاد بعده إلى أورشليم مكرماً مهيباً وكان ذلك سنة ١٣١.

واستمرَّ الملك وجيشه يقضون فصل الشتاء سنة ١٣٠ق.م في أعمال المشرق المذكورة. ولكثرة الجيش وتبعته تفرقوا في محال عديدة يبعد بعضها عن البعض آمنين غير مبالين بأنَّ تشتتهم يحول دون اجتماعهم إذا دهمهم العدو. وأثقلوا على أهل البلاد وبغوا واستطالوا فتآمر الأهلون مع البرتيين عليهم. ووثبوا عليهم في يوم واحد في كل الأماكن فقتلوهم. فأسرع انطيوكس بمن كان حوله من الجنود لانقاذ القريبين من محلته. فارتكم الأعداء عليه وقتلوه ومن لم يُقتل من جنوده أُخذ أسيراً

ولم يفلت إلَّا قليلون أتوا إلى سورية بهذا النبأ المفجع، فعمَّ الحزن والكآبة السوريين إذ قلّ ما كانت أسرة لم تُفجع بأحد رجالها (يوستينوس ك ٣٨ فصل ٩ و ١٠ وابيان في السوريين فصل ٩٦ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣' فصل ١٦ وغيرهم). وكان ذلك لسنة ١٣٠ ق.م.

وهذا مثال لسكة انطيوكس السابع. ففي الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني رسم بالا وبيدها اليمنى مثال الظفر وفي اليسرى سهم.

وقد كُتب عليها باسيلاوس انطيوخس افرجاتوس أي الملك انطيوكس المحسن.



وكان انطيوكس السابع حليماً ذا صفات حميدة كثيرة وروى عنه بلوطرخ إنه ضلَّ طريقه في يوم خرج فيه إلى الصيد فأوى إلى كوخ لفقراء، فقروه ممّا أمكنهم ولم يعرفوه. وفيما هم على العشاء سألهم عما يسمعون عن الملك وسيرته في الرعية فقالوا هو أميرٌ حليمٌ حسن الخصال على أنَّ ولوعه بالصيد يغفله مهام المملكة وشدَّة ثقته بعماله كثيراً ما يحول دون اتمام نياته الصالحة فلم يفه بكلمة. وفي الغد بلغ بعض حاشيته إلى الكوخ فقصَّ عليهم ما سمعه في المساء ثم أقبل على توبيخهم فقال: «إني منذ اتخذتكم لخدمتي لم اسمع كلمة تبيِّن حقيقة ما أنا عليه إلَّا أمس من هؤلاء الفقراء». وبحث فَرَآت بين جثث القتلى عن جثة انطيوكس فوجدها ووضعها على نعش من فضة. وأرسلها إلى سورية لتُدفن في مدافن آبائه، ووجد بين الأسرى ابنة له بديعة الجمال فراقه حسنها فتزوج بها.

عد ٤٥٠

عود ديمتريوس الثاني إلى سورية وما كان إلى مقتله

إنَّ فَرَآت لما انتصر عليه انطيوكس السابع سرَّح ديمتريوس إلى سورية مصحوباً بفريق من الجند آملاً أنَّ رجوعه إلى سورية ينشأ عنه قلق يبعث انطيوكس على العود عنه إلى مملكته. لكنه بعد مقتل انطيوكس وجيشه أسف على ما صنع وأرسل كتيبة من الفرسان تسترد ديمتريوس من طريقه فلم يدركوه. لأنه أسرع في مسيره خائفاً من أن يجد على الملك ما يثنيه عن عزمه. فبلغ ديمتريوس انطاكية واستوى على عرش الملك مبدياً مظاهر السرور بينما كان أهل مملكته متشحين بأطمار الحداد على قتلاهم.

وانتهز يوحنا هركان هذه الفرصة فمدَّ حدود ولايته وبسط سلطته على مواضع عديدة في سورية وفينيقية وبلاد العرب. وهمَّ أن يجعل نفسه مستقلاً في ولايته مطلق الأمر ففاز بذلك لأنه منذ حينئذٍ استبدَّ هو وذريته في الملك على اليهود. وخلعوا نير ولاية ملوك سورية ولم يبقَ لهم علاقة معهم (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٧ واسترابون ك ١٦ ويوستينوس ك ٣٦ فصل ١).

أما فَرَآت فهمَّ أن يحمل على سورية ليدرك ثأره من حملة انطيوكس على مملكته، ويكبح ديمتريوس عن الاستطالة عليه في تجهيز جيشه فثار عليه التتر الذين كان استنجدهم لقتال انطيوكس فلم تبلغ رجالهم إليه إلَّا بعد انقضاء الأمر. وقُتل انطيوكس ورأى فَرَآت نفسه في غنى عنهم فصرفهم ولم يدفع إليهم ما عاهدهم به من الأجرة، فانقلبوا عليه وحاربوه حتى قتلوه. فأنقذ قتل فَرَآت سورية من شرِّه ونجا ديمتريوس من غائلة حربه، على أنَّ ديمتريوس لم ينجُ من غوائل أعماله السيئة لأنه تمادى في صلفه واعتسافه وبغيه، فجُزي بما جنت يداه. وإليك ما كان.

قد رأيت أنَّ بتلمايس فيسكون أفحش في مصر حتى أنه في يوم زفاف قلوبطرة أخته، وأرملة أخيه إليه قتل في حضنها ابنها الذي كان وُلد لها من أخيه بتلمايس فيلوماتور ثم كره قلوبطرة. وهام قلبه بابنةٍ لها من أخيه فطلَّق الأم وأبعدها. وتزوج بابنتها المسماة قلوبطرة أيضاً على عادتهم في تسمية بنات الملوك بهذا الاسم. وأجلب الطامة الكبرى على الاسكندريين بأنه جعل الأجانب من جيشه يقتلون جمّاً غفيراً من شبانهم عند اجتماعهم في حفلة. فحنق الشعب عليه

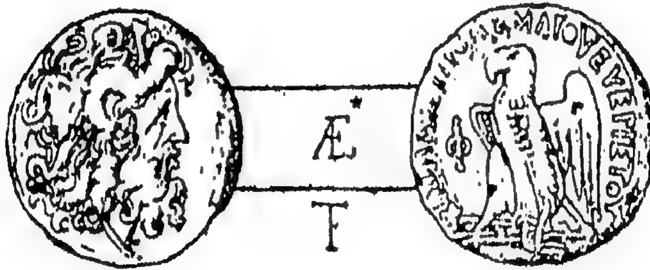
وتسارعوا إلى إلقاء النار في قصره ليحرقوه فيه، لكنه كان قد فرَّ منه إلى قبرص. فنادوا قلوبطرة امرأته التي طلَّقها ملكة عليهم، فجهزَّ جيشاً لمحاربة هذه الملكة ومحازبيها. وخشي أن يستدعي الاسكندريون ابنه الذي كان قد ولاّه القيروان ويملّكوه فيهم. فاستدعاه واغتاله فور وصوله إليه لمجرَّد ما توهمه فعظم اشمئزاز الشعب من فظائعه، وحطَّموا كل ما له من التماثيل في اسكندرية، وظنَّ هو أنَّ قلوبطرة الملكة حملتهم على ذلك. وكان له منها ابن أخذه معه إلى قبرص فذبحه وقطَّع جثته قطعاً. وأبقى الرأس على سلامته ليُعرف رأس من هو، ووضع الجثة في صندوق أرسله مع حرس إلى الاسكندرية، وأمرهم أن يقدِّموا الصندوق للملكة يوم عيد مولدها الذي كان قريباً فأتموا أمره. واستحال ذلك العيد مأتماً وبعثت هذه الفظيعة البربرية الشعب ورجال الدولة على حمل السلاح للحال فجهزوا جيشاً يتكفَّل بعدم عود هذا المسخ إلى عرش مصر. وجعلته الملكة تحت أمرة مرسياس وأعدَّ هو جيشاً أمر عليه هيجيلوس وسيره على الاسكندريين والتحم القتال. فظهر جيش فيسكون على عسكر الملكة وأخذ قائده أسيراً فراسلت الملكة ديمتريوس ملك سورية صهرها لأنه كان متزوجاً بابنتها البكر من بتلمايس فيلوماتور ووعدته بتاج مصر. فلبَّى ديمتريوس دعوتها لساعته وخفَّ بجيشه فحاصر بالوس (فرما).

على أنَّ ديمتريوس كان شعبه يمقته مقت المصريين لملكهم فلم يبرح انطاكية إلَّا وثار عليه شعبها ثم تبعهم أهل اباميا (قلعة المضيق) وغيرهما من المدن. فأرغم ديمتريوس أن يغادر مصر ويعود لتدويخ بلاده. أما الملكة قلوبطرة فلما رأت أنَّ لا نصير لها وأنَّ المصريين كسر فيسكون شوكتهم، أخذت خزائنها وفرَّت إلى حمى ابنتها قلوبطرة ملكة سورية. وقد علمت مما مرّ أنَّ قلوبطرة هذه كان أبوها بتلمايس فيلوماتور قد زوَّجها أولاً بالملك اسكندر بالا ثم أخذها منه وزوَّجها بديمتريوس الثاني؛ ولما أسره البرتيون تزوَّجت بأخيه انطيوكس صيدات وبعد مقتله عادت إلى ديمتريوس زوجها. وكانت هذه الملكة في عكا عند بلوغ أمها إليها.

ولما تركت قلوبطرة الاسكندرية عاد إليها فيسكون واستتبَّ له الملك فأراد أن ينتقم من ديمتريوس فحمل رجلاً اسمه اسكندر زبينا ابن بائع خلقان في اسكندرية على أن يدَّعي أنه ابن الملك اسكندر بالا، وينازع ديمتريوس الملك وجهَّز له من مصر جيشاً سيَّره إلى سورية. وعن يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٧) إنَّ زبينا هذا كان من ذرية سلوقس وأيّاً كان فقد انحاز إليه السواد الأعظم من أهل

سورية دون تروئة في صحة دعواه إذ كانوا يرغبون التملص من حكومة ديمتريوس أيّاً كان الحاكم فيهم بعده. والتحم القتال بين جيش زبينا وجيش ديمتريوس على مقربة من دمشق فانكسر عسكر ديمتريوس وانهزم هو إلى عكا حيث كانت الملكة. فانتهزت هذه الفرصة للانتقام منه لزواجه في مدة أسره بابنة ملك البرتيين. ووصدت أبواب المدينة فاضطرّ ديمتريوس أن يفرّ إلى صور وهناك قُتل فأخذت قلوبطرة قسماً من الملك وملك زبينا في باقيه. فيا لمشهد مفجع لا يعلم به من الأسبق إلى الفظائع النساء أم الرجال من هؤلاء الملوك والملكات. فحيث ليس وازع من قبل الدين لا تستغرب هذه الفظائع. وكانت هذه الأحداث سنة ١٣٠ إلى سنة ١٢٥ ق م. (يوستينوس ك ٣٨ فصل ٨ و ٩ وطيطوس ليف ك ٣٩ وديودور في الفقرات التي أذاعها مولر ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٧ وغيرهم).

وهذا مثال لسكة بتلمايس السابع فيسكون ففي الوجه الأول صورة رأس المشتري عمون. وفي الوجه الثاني صورة نسر باسط جناحيه وقد كُتب عليها باسيلاوس بتولماوس افرجاتوس أي الملك بتلمايس المحسن.



الفصل السادس

قلوبطرة وزبينا وانطيوكس كريبوس وانطيوكس الشيزيكي ملوك سورية

عد ١٥٤

قلــوبطرة

قد مرَّ أنَّ مملكة سورية بعد مقتل ديمتريوس قُسمت إلى قسمين ملكت قلوبطرة في عكا وجنوب المملكة، وملك زبينا في انطاكية وشماليها. وكان لقلوبطرة من ديمتريوس ابنان أكبرهما يسمى سلوقس همَّ أن يستوي على عرش أبيه وأعلن أنه ملك سورية. وحازبه قوم على أنَّ أمه كانت تحرص على الملك. وتطمع في بقائها على منصَّته ويوغر صدرها على ابنها لمزاحمته لها فيه. وتخشى أن يثأر منها بدم أبيه الذي عملت على قتله فقتلته بيدها طاعنة له بمدية في بطنه. وقد استأصل طمعها الاشعبي في الملك الحنو الوالدي من قلبها ومن تملكته أمياله قادته إلى ما تنفر منه الضواري أنفسها. فلم يملك سلوقس إلَّا سنة* واحدة من سنة ١٢٥ إلى سنة ١٢٤ ق.م.

وبعد أن اغتالت قلوبطرة ابنها سلوقس فكرت بأنَّ الشعب المعتاد الحروب كشعبها لا تستقيم له حال ما لم يتوله ملك يسير في رأس جيشه.. وخشيت أن يثور الشعب عليها ويثلّ عرشها فتذرَّعت بذريعة أن تملِّك ابنها الصغير فتتلافى ثورة الشعب وتبقى لها السلطة المطلقة. وكانت أرسلت انطيوكس ابنها الصغير إلى أثينا لاقتباس العلوم فاستدعته وملَّكته سنة ١٢٣ق.م لكنه لم يكن له إلَّا اسم ملك ومرجع جميع مهام الملك إليها، وهو لحداثته جعل أعنة الأمر والنهي طوع يديها. وسُمي انطيوكس كريبوس أي الكبير الأنف لكبر أنفه وسماه يوسيفوس فيلوماتور

(أي محب أمه). وهو يسمي نفسه في سكته انطيوكس ايفان وبعد حربه الآتي ذكرها مع زبينا وبلوغ رشده أراد أن يستبد في ملكه فلم تتحمَّل أمه قلوبطرة الطمَّاعة هذا الاستبداد. وعزمت أن تهلك ابنها هذا الثاني كما أهلكت الأول وتقيم على أريكة الملك ابناً آخر لها رُزقته من انطيوكس صيدات. وكان بعد حدثاً فتستمر أزمَّة الملك بيدها وعاد انطيوكس كريبوس ذات يوم إلى قصرها تعباً فهيأت له كأس شراب دسَّت له فيها سماً وقدمتها إليه وكان يحذر مكرها به فسألها أن تشرب هي الكأس حرمةً لها لأنها أمه. وألحَّ عليها أن تجرعها فأبت.

فاستدعى شهوداً وقال لها: لا وسيلة لك لتبرئة ساحتك من ظني بك السوء إلَّا أن تشربي هذه الكأس التي قدمتها لي. فلم يبقَ لها مناص إلَّا بأن تجرع الكأس فيهلكها السم أو يثبت عند ابنها مكرها به فيقتلها فآثرت التهام الكأس فهلكت به. وكانت كالباحث على حتفه بظلفه ونجت سورية من ذات الفظائع المخيفة التي كانت داهية دهماء لها سنين عديدة وكان موتها سنة ١٢٠ ق.م (طيطوس ليف ك ٦٠ يوستينوس ك ٣٩ ف ١ و ٢ وابيان في السوريين ف ٦٩ وغيرهم).

عد ٤٥٢

زبينا ويوحنا هركان أمير اليهود

قد مرَّ أنَّ زبينا ملك في انطاكية وما يليها سنة ١٢٨ وثار عليه ثلاثة من عماله. وحازبوا قلوبطرة واستحوذوا على مدينة اللاذقية وعصوه فيها. فزحف إليهم بفريق من جيشه. وأرغمهم على الاستسلام إليه. والخضوع له فرفق بهم وعفا عنهم. فقد كان حليماً عادلاً يعامل بالأنس والرقَّة كل من عاشره أو سأله أمراً. فأحبَّه مسودوه حتى من أنفوا من استعماله المكر لتسنم العرش ورغبة في توطيد دعائم ملكه عقد عهدة مناصرة وموالاة مع يوحنا هركان أمير اليهود. وانتهز يوحنا هذه الفرصة لرسوخ ولايته على أمَّته وتأييد حريتهم الدينية والمدنية وانبساط سلطتهم. فاستحوذ على ميدبا وغيرها من المدن في شرقي الأردن وقهر السامريين والأدوميين. وأوفد رسلاً إلى روما يجدِّد عهد الموالاة بينه وبين الرومانيين كما كان في أيام أبيه سمعان فرحَّب رجال الندوة برسله وأجابوهم إلى كل ما سألوا. ولما كان انطيوكس صيدات انتزع من سمعان يافا وغزة وبعض المدن التي كانت تحت

أمرته خلافاً لتوصية الرومانيين باليهود حتّمت الندوة الرومانية أن تُرد هذه المدن إلى اليهود وأن يعوّضهم ملوك سورية مما صرفوه من النفقات خلافاً لعهدة الرومانيين. وأن يحذروا كلّ الحذر من أن يسيّروا جنودهم في أرض اليهود وقد ذكر يوسيفوس صورة هذا الأمر من الندوة الرومانية في تاريخ اليهود (ك ١٣ فصل ١٧).

وكان فيسكون ملك مصر يعتدّ نفسه ولي نعمة زبينا فطالبه أن يكون منقاداً ومطيعاً له. وأبى زبينا ذلك فحنق عليه فيسكون وعزم أن يحطمه كما رفعه واتفق مع قلوبطرة ابنة أخيه وجهّز جيشاً عظيماً وسيّره إلى كريبوس ابنها وزوّجه ابنته تريفان. فاشتدّ ساعد كريبوس بهذه النجدة واستظهر على زبينا وأرغمه على الفرار إلى انطاكية. وحسُن عند زبينا أن ينتهب هيكل المشتري في انطاكية ليقوم بنفقات الحرب وشعر الأهلون بذلك فثاروا عليه وطردوه من مدينتهم. فمضى يطوف من مكان إلى آخر إلى أن قُبض عليه وأُشعر أي قُتل سنة ١٢٣ ق.م.

عد ٤٥٣

انطيوكس كريبوس

قد علمت أن الملك انطيوكس كريبوس استراح من مزاحميه على الملك أمه قلوبطرة وزبينا بقتله إياهما. واستتبّ له الملك مدة ست سنين أي من سنة ١٢٠ إلى سنة ١١٤ ق م. وبينا كان مهتماً بتجهيز جيش لمحارة اليهود ثار عليه أخوه انطيوكس الشيزيكي نسبةً إلى شيزيك بلدة في آسيا الصغرى كانت أمه أرسلته ليتربى فيها. وانطيوكس هذا هو أخو انطيوكس كريبوس لأمه لأنه ابن قلوبطرة المار ذكرها من انطيوكس صيدات. وكريبوس ابنها من ديمتريوس الثاني. وخشي كريبوس أن ينازعه أخوه الملك وأراد أن يدسّ له سماً يهلكه به فشعر الشيزيكي بالمكيدة واضطرّ أن يجمع جيشاً للمدافعة عن نفسه والمحافظة على الملك. وكان في مصر أنّ بتلمايس فيسكون قضى نحبه في الاسكندرية سنة ١١٧ ق.م بعد أن ملك في مصر تسعاً وعشرين سنة. وكان له ابنان شرعيان من قلوبطرة ابنة أخيه (التي تزوّجها بعد أن طلّق أمها كما مر عد ٤٣١) لاتير واسكندر وترك ملك مصر لامرأته قلوبطرة ولمن تختاره من ابنَيها، فآثرت اسكندر على لاتير الأكبر، فناصبها الشعب العداء وأكرهها على أن يشاركها لاتير في الملك لأنه

الكبير. فأذعنت لكنها أجبرته قبل أن يتوّج في منف على عاداتهم أن يطلّق قلوبطرة أخته البكر وامرأته التي كان يحبها كثيراً، وأن يتخذ سيلانة أختها الصغرى التي لم يكن يميل إليها. ولما رأت قلوبطرة لاتير طلّقها تزوجت بانطيوكس الشيزيكي ولمعرفتها باحتياجه إلى الرجال لمناوأة أخيه كريبوس أتته بجيش بدلاً من المهر. فأصبحت القوّة الحربية عند الأخوين متوازية فألحما القتال ودارت الدوائر على الشيزيكي ففرّ إلى انطاكية حيث كان ترك امرأته قلوبطرة وهمّ بأن يحشد جيشاً آخر. ولكن عاجله أخوه كريبوس وحاصر انطاكية وافتتحها فألحّت عليه امرأته تريفان أن يسلّم إليها قلوبطرة التي أمست أسيرة. فلجأت قلوبطرة إلى معبد في انطاكية تظنّ أنّ أعداءها لا ينتهكون حرمته فأنكر كريبوس على امرأته اجابة سؤالها محتجاً بحرمة المعبد التي لجأت قلوبطرة إليه وإنه لا نفع لهما ولا ضرّ لعدوهما من قتلها. وذكّرها أنّ قلوبطرة هي أختها لأبيها وأمها وابنة عمّ أمه وبأنه ليس من شيَم الملوك أن يعاملوا بالقسوة من انتصروا عليهم. ولا سيما النساء فلم تكن هذه الحجج كلها لتقنع تريفان ووهمت أنّ الملك زوجها لا يمانعها من قتل قلوبطرة شفقةً عليها بل لأنه متيّم بها. وأرسلت شرذمة من الجند إلى المعبد فتشبّثت قلوبطرة بأحد جانبَي المذبح ولم يتكمن الجند من انتزاعها إلّا بقطع ساعدَيها ثم قضت سنة ١١٣ ق.م داعية على من تسبّب بقتلها وسائلة الإله الذي جرت عليها هذه القسوة أمام عينيه أن ينتقم لدمها.

وأما قلوبطرة أمهما فلم يهمها قتل إحدى بناتها ولا الجريمة الأخرى الفظيعة بل كان كل همها منصرفاً إلى تمكين سلطتها في مصر. وجعلت ابنها اسكندر ملكاً في قبرص آملة أن ينجدها إذا شاء ابنها لاتير أن يستبدّ في الملك دونها. على أنّ جريمة موت قلوبطرة في سورية لم تتركها العناية الربانية زماناً دون عقاب. لأنّ انطيوكس الشيزيكي جهّز جيشاً آخر وأتى لمحاربة أخيه كريبوس. فاستظهر عليه سنة ١١٩ ق.م وقبض على تريفان وأذاقها مرّ العذاب جزاءً لقسوتها على أختها، واضطرّ كريبوس أن يفرّ من سورية تاركاً إياها لأخيه الظافر (يوستينوس ك ٣٩ فصل ٣ و ٤ و ٥ وابيان في آخر كلامه في متريدات واسترابون ك ١٧ وبلين ك ٢ فصل ٦٧ وغيرهم).

عد ٤٥٤
انطيوكس الشيزيكي ويوحنا هركان أمير اليهود

لم تنقضِ سنة حتى عاد انطيوكس سنة ١١١ ق.م إلى سورية بجيش عظيم واستظهر على أخيه ثم اتفقا على أن يقسما هذه البلاد بينهما. فكان نصيب الشيزيكي فينيقيا وسورية المجوفة إلى دمشق وأقام في هذه المدينة. ونصيب كريبوس سائر المملكة وأقام انطاكية وانكبَّ كلاهما على الترف وأُصيبا بغوائله.

وبين كان الملكان لاهيين مسترفين كان يوحنا هركان يزيد في صولته وثروته. ورأى أنَّ لا خوف عليه من سطوتهما فعزم أن يُلحق السامرة لولايته. وأرسل ابنَيه ارسطوبولس وانتيكون فحاصراها سنة ١١٠ ق.م فاستنجد السامريون انطيوكس الشيزيكي ملك دمشق فأنجدهم بجيش تولَّى أمرته بنفسه فالتقاه الأخوان وانتشبت الحرب واستظهرا عليه وتتبعا جنوده إلى شيتوبولي (بيسان). ونجا هو بنفسه وعاد ابنا هركان سنة ١٠٩ ق.م إلى حصار السامرة فلجأ أهلوها ثانيةً إلى ملك دمشق ولما لم تكن له جنود كافية لرفع الحصار طلب إلى بتلمايس لاتير ملك مصر. فأرسل إلي ستة آلاف جندي خلافاً لارادة أمه الملكة قلوبطرة فإنه كان بين وزرائها والمقربين إليها كلشياس وحانانياس اليهوديان ابنا اونيا الذي بنى الهيكل في مصر كما مرّ. وكانا يستميلانها إلى المحاماة عن أُمَّتهما فلامت ابنها على ارسال هؤلاء الجنود وكادت تعزه عن الملك لتورطه بهذه الحرب خلافاً لرضاها. ولما بلغ الجنود المصريون إلى فلسطين ضمَّهم ملك دمشق إلى جنده ولم يجسر أن يناوىء محاصري السامرة بل أخذ يسطو على الغرباء. ويسلب ويخرّب ويقطع الطريق على ابناء السبيل آملاً أن يردّ جيش اليهود عن حصار السامرة إلى الذبّ عن بلادهم فلم يصب سهمه المرمى. واستمرَّ ابنا هركان يحاصران السامرة وانتقص عدد جنود ملك دمشق في بعض المناوشات مع الأهلين. ومن قبل فرار بعضهم مرض آخرين فآثر الملك العزلة في طرابلس على بقائه بين جنود ضعفت عزيمتهم. وخمدت حميتهم وقلَّ عددهم وأمَّر على من بقي من جنوده كلميندر وابيكرات. فالأول منهما قُتل في مناوشة. والثاني يئس من فوز جنود مولاه. ففضَّل نفعه على فرضه وأخذ من هركان مبلغاً من المال وتخلَّى له عن بيسان وسائر المدن التي كانت لملك دمشق في تلك الناحية.

أما أهل السامرة فلما رأوا أنَّ لا نصير لهم وقد ضايقهم الحصار سنة كاملة استسلموا إلى هركان سنة ١٠٨ ق م. فدكَّ مدينتهم وجعلها قاعاً صفصفاً واحتفر فيها حفراً وحوَّل الماء إليها حتى لا يمكن تجديد بنائها ولم يجدَّد إلَّا في أيام هيرودس الذي سمى المدينة الحديثة سبسطية ومعناها في اليونانية السعيدة تكرمة لأغسطوس قيصر الذي معناه في اللاتينية السعيد. أصبح هركان وقتئذٍ مالكاً اليهودية والجليل والسامرة ومدناً أخرى في تخومها واستفحل أمره. وغدا من مشاهير الملوك في أيامه ولم يكن أحد من جيرانه يجترئ أن يناصبه حرباً ولكن حسده بعض قومه. وكان بين اليهود في تلك الأيام شيعتان فريسيّون وصادوقيّون. فالفريسيّون كانوا يتظاهرون بالمحافظة على السنَّة بتدقيق لكنهم كانوا يضيفون إليها تقليدات يدّعون أنهم تلقوها عن قدمائهم. ويتشبثون بها أكثر من السنَّة على مخالفتها غالباً لها ويعتقدون خلود النفس وحياة أخرى. ويتظاهرون بالفضيلة والعيشة القشفة ليعتبرهم الشعب ومن وراء ذلك كبائر وكبرياء. وطمع أشعبي في حشد المال ونيل الكرامات والخطط الرفيعة ثم بغضة شديدة لكل من يقاومهم ورياء في عمل الخير لاراءة الغير. وقد سمّوا أنفسهم فريسيين بمعنى مميزين وحكماء وأما الصادوقيون نسبةً إلى رجل اسمه صادوق أو بمعنى الصادقين الأبرار فكانوا يزدرون تقليدات الفريسيّين. ويُنكرون خلود النفس والحياة الأخرى وقيامة الأجساد وكان الأغنياء في الشعب وكثيرون من رجال مجمعهم الذين يُناط بهم تدبير مهام المملكة والدين من هذه الشيعة. وقد استمرَّ الشيعتان في أيام المخلِّص كما هو ظاهر في الأناجيل.

فيوحنا هركان كان يداري الفريسيّين ويسترضيهم وقد استدعاهم يوماً ما إلى مأدبة ألقى فيها خطاباً. ومما قاله فيه إنه جدَّ دائماً ليكون عادلاً في الناس مرضياً لله بحسب تعليم الفريسيين. وقال من رآني منكم شذذت في شيء عن ذلك فأسأله أن يبثه إليّ لأُصلح نفسي. فأطرأ جميعهم هركان وصوَّبوا كلامه إلَّا رجلاً اسمه العازار نهض فقال بما أنك سألتنا أن نقول لك الحق بلا مراياة فإن كنتَ عادلاً فاترك رئاسة الكهنوت لغيرك. واحفظ الملك لنفسك فسأله هركان وما الداعي لهذا؟ قال شهد كثير من الشيوخ الموثوق بصدقهم أنَّ أمك كانت أسيرة وابن الأجنبية لا يحق له أن يكون رئيس الكهنة. وكان كلامه هذا تهمة واختلاقاً، فعظم القلق وطلب هركان مجازاة المفتري فلم يحكم عليه رئيس الفريسيين إلَّا

بالسجن والضرب. فاستقلَّ هركان هذا الجزاء وكان له صديق من الصادوقيين اسمه يوناثان أغراه بترك الفريسيين والاستمالة إلى شيعته. فقاطع الفريسيين لكن لم يعش بعد ذلك إلَّا سنة وتوفاه الله سنة ١٠٧ ق.م بعد أن تولَّى رئاسة الكهنوت وحكومة اليهود تسعاً وعشرين سنة (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ ف ١٨).

عد ٤٥٥

اسكندر ملك اليهود وبتولمايس لاتير وقلوبطرة في سورية

إنَّ ارسطوبولس ابن هركان خلف أباه بعد وفاته في الولاية على اليهود وسُمي ملكاً وأشرك أخاه انتيكون في ملكه. وطرح سائر اخوته في السجن. وضيَّق على أمه حتى أماتها جوعاً لدعواها أنَّ أباه جعل عند وفاته الولاية في يدها. وسعى بعضهم بأخيه انتيكون لديه حتى حملوه بفسادهم على قتله. ثم اطَّلع على عتوِّهم فأسف وندم على ذلك ولا ندامة الكسعي لأنَّ شديد أسفه كان علَّة لمرضه وموته فلم يملك إلَّا سنة واحدة. وصنع إلى شعبه خدمات كثيرة وحارب الإيطوريين (سكان اللجا) وقهرهم. وأكرههم على أن يختتنوا ويسلكوا بحسب سنَّة اليهود. ذكر ذلك يوسيفوس في تاريخ اليهود (ك ١٣ فصل ١٩). واستشهد له بفقرة من كلام استرابون قال فيها: «إنَّ هذا الملك كان حليماً ليِّن العريكة صنع إلى اليهود معروفاً كبيراً لأنه اهتمَّ كثيراً بتوسيع تخوم بلادهم وضمَّ إليها جانباً من ايطورية وألحق سكانها باليهود إذ جعلهم يختتنون».

وبعد وفاة ارسطوبولس أخرجت امرأته صالومي اخوته من السجن ونادت بأحدهم يوحنا المسمى اسكندر أيضاً ملكاً. وأقرَّ اليهود بالملك له لأنه بكر هركان لكنه كان آثر ارسطوبولس عليه فاسكندر قتل أحد اخوته لأنه أخذ ينازعه الملك. وأبقى على أخ آخر له لأنه أقرَّ له به وكانت باكورة أعمال الملك اسكندر أنه جهَّز جيشاً ومضى لمحاربة أهل عكا لأنهم وأهل غزة لم يخضعوا لحكومة اليهود. فظهر عليهم وأرغمهم على الفرار فتحصنوا في مدينتهم وأقام اسكندر الحصار عليها. ولجأ أهلها إلى بتلمايس لاتير وقد علمت أنَّ بتلمايس هذا كان قد أرسل ستة آلاف جندي لأنجاد أهل السامرة على اليهود غير مبالٍ بممانعة أمه قلوبطرة شريكته في الملك ونفورها من ذلك. فحنقت أمه عليه لهذا وغيره وأبعدت عنه امرأته سيلانة.

وأكرهته على الخروج من مصر بحيلة أنها هشمت بعض خصيانها واستدعت الشعب إلى اجتماع في الاسكندرية وأرتهم الخصيان مجرحين قائلة أنَّ ابنها لاتير أنزل بهم هذه الجراح لمدافعتهم عنها لأنه رام قتلها. فاستشاط الشعب على لاتير ووثبوا عليه فانهزم بسفينة إلى قبرص. واستدعت حينئذٍ أمه ابنها اسكندر الذي كانت أقطعته قبرص وجعلته شريكاً لها في الملك مكان لاتير الذي أجبرته أن يجتزئ بقبرص (يوستينوس ك ٣٩ فصل ٤).

ولما وصل رسل أهل عكا إلى لاتير هبَّ دون ابطاء لنجدتهم على أنَّ أهل عكا تغيَّروا على لاتير لخوفهم أن يأتي فيملك عليهم. وشعر هو بتغيير عزمهم فحلَّ بعسكره الذي كان نحواً من ثلاثين ألف رجل في سيكامينوس (المعروفة الآن بحيفا) في جوار عكا وأخذ يراسل اسكندر ملك اليهود ليعقد عهدة معه إلى أن درى أنَّ اسكندر يراسل أم قلوبطرة لتأتي بجيشها وتعاونه على طرد لاتير من فلسطين فانقلب عليه وجاهر بعدوانه، وعزم أن يُنزل به كل ما استطاع من السوء. وكان ذلك لسنة ١٠٥ ق.م وفي سنة ١٠٤ قسم لاتير جيشه إلى عسكرين أمَّر على أحدهما أحد قادته ليحاصر عكا لاخلاف أهلها وعدهم له. وزحف بالآخر لمناوأة اسكندر ونجد أهل غزة لاتير بكثير من رجالهم، والتحم القتال بين لاتير واسكندر على عدوة الأردن فظهر لاتير عليه وقتل من جيش اليهود ثلاثين ألف رجل وأسر كثيرين. وقد روى عنه أنه أقدم على فظيعة ترتعد منها الفرائص فإنه أتى عند المساء قرية يحتلها فوجدها ملأى من النساء والأطفال. فذبحهم عن آخرهم وقطَّع جثثهم ارباً ووضعها في مراجل وأظهر أنه يريد أن يعدَّ منها عشاءً لجنده ليحسب الناس أنهم يأكلون اللحم البشري فيشتد رعبهم في القلوب. ثم أخذ لاتير ينكل ويسلب ويخرِّب البلاد ولولا تدارك قلوبطرة أمر الملك اسكندر وأمَّته لاستحوذ لاتير على فلسطين واذلَّ اليهود كل الاذلال.

فإنَّ قلوبطرة خشيت أن يملك ابنها لاتير اليهودية وفينيقية ويتيسَّر له أن يعود إلى مصر ويثلّ عرشها فجمعت سنة ١٠٣ ق.م جيشاً جراراً عهدت بقياته إلى كلشياس واتانياس اليهوديين المذكورين آنفاً. وجهَّزت أسطولاً أتت به فحلَّت في فينيقية (ابيان في ترجمة متريدات). وأخذت مبلغاً وافراً من المال وحلاها الثمينة. وأرسلتها مع حفيدها اسكندر إلى جزيرة كوس لتكون في مأمن عليها إذا حلَّت بها نازلة. ولما علم لاتير بقدوم أمه رفع الحصار عن عكا واعتزل في سورية المجوفة

فأرسلت فريقاً من جندها مع كلشياس ليتبعه وأقامت هي الحصار على عكا مع انانياس، وضايقتها حتى افتتحتها فأقبل اسكندر ملك اليهود بهدايا نفيسة ليمكنها في الاستمالة إليه على أنَّ بغضها لابنها لاتير كان مغنياً له عن كل وسيلة لاسترضائها عنه. فقد تلقته بالترحاب وأكرمت مثواه وعززته وزيَّن لها بعض حاشيتها أن تنتهز هذه الفرصة النادرة الوقوع لتستحوذ على اليهودية وسائر مملكة اسكندر بقبضها عليه. وكانت تجنح إلى ذلك إلَّا أنَّ حنانياس شعر بما يزينون لها فمثل أمامها قائلاً ما أعظم العار علينا إن عاملنا على هذا النحو حليفاً لنا يشاركنا في المناوأة لاتير. لعمرك مولاتي إنَّ هذا ينافي الشرف والأمانة اللذين هما اس الهيئة الاجتماعية والعمران. ويعود بالضرّ على جلالتك ويحمل اليهود أجمع أن يتحالفوا علي بغضك وهم منبثون في المعمور كله. فأذعنت لقوله وجدَّدت عهدها لاسكندر فما أنفع المستشارين الصادقين للولاة وما أحوجهم إليهم.

وعاد اسكندر إلى أورشليم وحشد جيشاً عبر به الأردن وحاصر مدينة كدارا (في شرقي الأردن). وبعد أن قضى لاتير فصل الشتاء في غزة رأى أنَّ استحواذه على فلسطين بعيد المجال صعب المنال ما دامت أمه تقاومه فيه فعاد إلى قبرص. وهي رجعت إلى مصر سنة ١٠١ ق.م (يوستينوس ك ٣٩ راس ٤ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٢٠ و ٢١). وزاد يوسيفوس على ذلك أنَّ اسكندر فتح كدارا وغيرها من المدن في عبر الأردن وعاد ينكل بأهل غزة لإنجادهم لاتير عليه. وخرَّب في بلادهم وحاصر مدينتهم ولم يفتحها إلَّا بعد أشهر من المضايقة لهم.

عد ٤٥٦

تتمَّة أخبار انطيوكس كريبوس وانطيوكس الشيزيكي أخيه

وقد علمت قلوبطرة بعد عودها إلى الاسكندرية أنَّ ابنها لاتير عقد عهدة في دمشق مع انطيوكس الشيزيكي ملكها، وأنه تأهب ليسترد تاج مملكة مصر استناداً إلى مناصرة انطيوكس له فزوَّجت انطيوكس كريبوس بابنتها سيلانة التي كانت أبعدتها عن لاتير. وأرسلت إليه جيشاً ومالاً ليقوى على مقاومة أخيه الشيزيكي. وكان كما دبَّرت قلوبطرة أن انتشبت الحرب بين الأخوين فلم يتيسَّر للشيزيكي أن يعاون لاتير بشيء فطاش سهمه. ورأى بتلمايس اسكندر الذي أشركته أمه في

الملك معها جورها واعتسافها البربري لأخيه لاتير حتى انتزعت منه امرأته وزوَّجتها بعدوِّه، فآثر العزلة على الملك مع أم وقاح الوجه لا تتَّقي فظيعة في سبيل مأربها. على أنَّ الشعب ألحَّ عليه وجاهر بأنه لا يطيق أن تنفرد أمه بالملك فيهم، فاضطرَّ أن يعود إلى الملك وإن لم يكن له فيه إلَّا الاسم. واستمرَّت الحرب بين ملكي سورية إلى أن اغتال هركليون انطيوكس كريبوس ملك انطاكية سنة ٩٧ ق م. وكان له خمسة ابناء منهم أكبرهم سلوقس، لكن أخاه انطيوكس الشيزيكي استولى بعد موته على انطاكية. وحاول أن ينتزع سائر المملكة من ابن أخيه على أنَّ هذا حشد جيشاً عظيماً وعزم أن يباغت عمه في انطاكية. فخرج عمه عليه والتقى الجيشان واشتدَّ القتال فظفر سلوقس بعمه انطيوكس وشتت شمل جنوده وأخذه أسيراً وقتله سنة ٩٥ ق م. ودخل سلوقس انطاكية ظافراً واستتب له الملك في سورية كلها (طيطوس ليف ك ٧٠ ويوستينوس ك ٣٩ فصل ٥ واسترابون ك ١١ ويوسيفوس ك ١٣ فصل ٢١).

الفصل السابع

باقي ملوك اليونان في سورية إلى انقراض دولتهم فيها

عد ٤٥٧

سلوقس بن انطيوكس كريبوس وانطيوكس اوساب

قد احرز سلوقس الملك على سورية كلها بعد مقتل عمه لكنه لم يستطع أن يستقر فيه زماناً طويلاً لأنَّ انطيوكس اوساب ابن عمه انطيوكس الشيزيكي فرَّ من انطاكية عند دخول سلوقس إليها. فأتى ارواد وسمى نفسه ملكاً سنة ٩٣ ق.م وزحف بجيش جرار لمناوأة سلوقس. واستظهر عليه حتى أكرهه أن ينهزم إلى المصيصة في قيليقية ويترك المملكة للظافر. وأثقل سكان المصيصة واعنتهم بطلبه منهم الذخائر والتجند له فعصوه وتألبوا عليه، وأحاطوا بالدار التي كان حالاً فيها

وألقوا النار فيها فاحترق مع كل من كان معه هناك. وجمع انطيوكس وفيلبوس أخواه رجالاً وغشيا المصيصة سنة ٩٢ ق. م فافتتحاها وأخرباها وقتلا بحدّ السيف كل من وجداه من أهلها. فالتقاهما انطيوكس اوساب عند العاصي واستظهر عليهما، وأراد انطيوكس أن يعبر العاصي بجنوده فغرق فيه. وكان سمي ملك سورية وهو الحادي عشر بهذا الاسم وفيلبوس تحوَّل عن وجه العدو بجمٍّ من الرجال تكاثر عديدهم حتى استطاع أن يناوئ الملك اوساب وينازعه الملك.

أما انطيوكس اوساب فلكي يعزز ملكه تزوج بسيلانة أرملة انطيوكس كريبوس. وكانت هذه الأميرة الذكية استبقت لنفسها بعض أعمال من المملكة وكان لها جنود ذوو بأس ومهارة فتعزز جانب اوساب بها. على أنَّ بتلمايس لاتير لم يصبر على الإهانة له بأخذ امرأته فاستأتى ديمتريوس اوثِر رابع ابناء كريبوس من اكريت حيث كان للتربية. ونصبه ملكاً على دمشق. وكان الملك انطيوكس اوساب وفيلبوس بن كريبوس متشاغلين بمحاربة أحدهما الآخر. فخلا الجو لديمتريوس في دمشق وظهر فيلبوس على اوساب في وقعة هائلة وأرغمه أن يترك مملكته ويلجأ إلى متريدات الثاني ملك البرتيين الملقَّب بالكبير. وغدا ملك سورية منشطراً بين ديمتريوس في دمشق وفيلبوس في انطاكية وهما أخوان ابنا انطيوكس كريبوس.

أما اوساب فأمدَّه البرتيون بجيش وعاد بعد سنتين أي سنة ٨٩ ق.م إلى سورية واستحوذ على بعض الأعمال التي كانت له أولاً. وكانت له حروب أخرى مع فيلبوس ثم أنَّ انطيوكس وانيس خامس ابناء كريبوس حشد جيشاً فاستولى على دمشق مكان أخيه ديمتريوس. وسمى نفسه ملك سورية المجوفة واستمر على ذلك ثلاث سنين أي إلى سنة ٨٦ (رواه المؤرخون المار ذكرهم).

وكانت أحوال مصر يومئذٍ أسوأ من أحوال سورية فإنَّ قلوبطرة لم تكن لتصبر على اشتراك ابنها اسكندر معها في الملك فعزمت أن تغتاله لتستبدَّ وحدها في السلطان، ودرى ابنها بعزمها فسبقها إلى ما دبَّرت عليه وبعث جنوداً فقتلوها واستراحت الأرض من هذه الداهية الدهماء التي أبت الشفقة أن تحل في قلبها على أم أو ابن أو ابنة لها في سبيل ادراك مطامعها فجوزيت بما جنت. ولكن بخيانة أخرى أفظع من كبائرها إذ قتلها ابنها ولم تعطفه عاطفة البنوَّة إلى الشفقة. وكانت هذه الفظائع المتواترة منذرة ولا مراء بدنو زوال مملكتي اليونان في مصر وسورية.

وقد قيّض الله الرومانيين للانتقام من هؤلاء الملوك والملكات لقتلهم ابناءهم وبناتهم وآباءهم وأمهاتهم وإخوتهم وأخواتهم حتى تنفر الضواري أنفسها من هذه المنكرات الفظيعة. ولما رأى الاسكندريون ما قد أقدم عليه ملكهم ثاروا عليه وطردوه من الملك، واستدعوا أخاه لاتير وأعادوه إلى عرش الملك واستمر عليه إلى وفاته. وحاول اسكندر استرداد الملك فخفق مسعاه وقُتل في إحدى حملاته. وكان ذلك سنة ٨٩ أو سنة ٨٨ ق.م (يوستينوس ك ٣٩ فصل ٤ وغيره).

عد ٤٥٨

اختيار السوريين تغران ملكاً عليهم وبقاء سيلانة في عكا

قد ضاق ذرع السوريين بالحروب المتصلة بين ملوكهم وعيل صبرهم في تحمّل اعتسافهم وأعناتهم وسئمت أنفسهم معاصيهم، فعزموا أن ينبذوهم جميعاً ويختاروا ملكاً أجنبياً ينقذهم من عنفهم وتقسماتهم، ويذيقهم طعم الراحة بعد مرارة الحروب. ورغب بعضهم في اختيار متريدات ملك البنطوس وبعضهم في تسليم أمرهم إلى بتلمايس لاتير ملك مصر، على أن الأول كان مشتغلاً في الحرب مع الرومانيين، والثاني كان أبداً عدواً للسوريين فعدلوا عن كليهما إلى انتخاب تغران ملك ارمينية. وأرسلوا إليه وفداً يبثون إليه عزمهم ويكاشفونه في قبوله فقبل ما عرضوا عليه وأتى سورية سنة ٨٣ ق.م ولبس تاج ملكها. واستمرَّ ملكه فيها ثماني عشرة سنة وقد وليها مدة اربع عشرة سنة بقيل ينوب عنه اسمه مفادات.

أما انطيوكس اوساب فقد طرده مسودوه وتغران فانهزم إلى قيليقية وقضى باقي عمره خامل الذكر وفيلبوس لا يعلم ما كان من أمره، والظاهر أنه قُتل في أحد الوقائع. وسيلانة امرأة اوساب تمكنت من أن تُبقي لنفسها عكا وجانباً من فينيقية ومن سورية المجوفة. فملكت في هذه الأعمال سنين عديدة وكان لها ابنان أكبرهما يسمى انطيوكس وأصغرهما سلوقس. (يوستينوس ك ٤٠ فصل ١ و ٢ وابيان في السوريين ويوسيفوس في تاريخ اليهود كتاب ١٣ فصل ٢٤).

وقد توفي في مصر بتلمايس لاتير بعد أن ملك في مصر بعد وفاة أمه سبع سنين (وكان ملك فيها مع أمه إحدى عشرة سنة وفي قبرص ثماني عشرة سنة). ولم يكن له ولد شرعي إلّا ابنة اسمها قلوبطرة أيضاً وعلمها الشخصي برنيقة.

خلفته في الملك لكن الندوة الرومانية أرسلت إلى مصر اسكندر ابن اسكندر أخي لاتير ليملك في مصر وتفادياً من الخلاف واغاظة الرومانيين اتفقت قلوبطرة مع اسكندر أن تتزوج به ويملكا معاً، على أنَّ اسكندر قتلها بعد تسعة عشر يوماً من زفافها إليه. فثار عليه الجنود وقتلوه بعدها على الأصح والأظهر. وقال بعضهم إنهم طردوه فقط فأتى صور وملك فيها سبع سنين ثم مات وأوصى أن يرثه الرومانيون. وكثُر القلق في مصر من جراء ذلك وطمعت سيلانة أخت لاتير وأرملة انطيوكس اوساب أن تأخذ لنفسها تاج مصر. وارسلت ابنيها انطيوكس وسلوقلوس سنة ٧٣ ق.م إلى روما فأقاما سنين فيها يزينان للندوة تمليك أمهما أو أحدهما. فخفق مسعاهما لأنَّ الرومانيين كانوا منهمكين في الحرب مع متريدات ولأنهم أبوا أبداً سياسة أن يضموا سورية ومصر إلى مملكة واحدة مخافة أن تقوى عليهم فيعسر ضمّها إلى مملكتهم. ومرَّ أحدهما انطيوكس في صقلية عند عوده فاحتال فرس واليها عليه وابتزَّ منه منارة من ذهب مرصعة بجواهر ثمينة. كانت معدَّة لمعبد في روما، فعاب شيشرون هذا الاحتيال والطمع في الولاة الرومانيين في خطبته ٦ في فرس وهي من أحسن خطبه.

أما في مصر فبعد مقتل اسكندر أو مفره ملك الشعب بتلمايس اولات سنة ٧٣. وعلى قول بعضهم سنة ٨٠ واستمرَّ في الملك إلى سنة ٥٢، وإن تقطَّع ملكه بطرده مرتين وخلفه ابنه بتلمايس الثاني عشر والملقَّب دانيس أو ديونيس وتزوج بأخته قلوبطرة الشهيرة وسيأتي الكلام فيها.

عد ٤٥٩

انطيوكس الآسياوي واستيلاء الرومانيين على سورية

قد مرَّ أنَّ السوريين ملَّكوا فيهم تغران ملك الأرمن سنة ٨٣ أو سنة ٨٢ وكان مفادات يدبر مملكته بمنزلة قيل خاضع له وهذا هو الأظهر والذي عليه المؤرخون. وعند بعضهم أنَّ تغران استحوذ على سورية سنة ٧٠ وقالوا: إنَّ سيلانة أرملة انطيوكس العاشر اوساب ملكت في سورية سنة ٨٠ إلى سنة ٧٠. ولعلَّ المراد ملكها في عكا على فينيقية وسورية المجوفة كما ذكرنا. ومهما يكن من هذا الخلاف فالرومانيون بعد حروبهم العديدة مع متريدات ملك بنطوس وإذلاله أقاموا

الحرب على تغران ملك أرمينية فاستعاد اليه مفادات الذي كان يلي سورية بأمره لحاجته إليه. وكان انطيوكس ابن الملكة سيلانة عاد من روما كما مرَّ فاستوى على عرش سورية سنة ٦٩ ق.م وقام يدّبر هذه المملكة أو قسماً منها أربع سنين أو خمساً. على أنَّ كولوس قائد جيش الرومانيين انتصر سنة ٦٩ في وقائع عديدة على تغران، وأخذ أهم مدنه ثم أكمل بومبايس القائد الروماني الظفر به وأرغمه أن يدفع غرامة الحرب للرومانيين ستة آلاف قنطار. عبارة عن ثلاثة وثلاثين مليوناً من الفرنكات، وعلى أن يوقّع سنة ٦٤ على عهدة يتخلّى بها الرومانيون عن سورية والكابادوك وأرمينيا الصغرى ويستبقي لنفسه ارمينيا الكبرى. وبعد أن كلَّ بومباس من حرب متريدات وتغران أتى سورية، وأتى انطيوكس الآسياوي للقياه آملاً أن يقرّه بومبايوس في ملكه بواسطة لوكولوس الذي كان أباحه أن يلي ما ولي في سورية عند ترك تغران لها. فأبى بومبايوس إلَّا أن يلتهم ملكه ويجعله اقليماً رومانياً محتجاً بأنَّ تغران تخلّى له عنه وأن ليس من السداد أن يترك ثمرة انتصاره على تغران، وإنَّ انطيوكس لا يحرز الشجاعة والأهلية اللازمتين لضبط هذه البلاد واستيلاء الأمن فيها. وإذا تُركت بيده كانت عرضة للخراب ولغزوات العرب وسطوة اليهود عليها. وبهذه الحجج الواهنة خسر انطيوكس تاج ملكه، واضطرَّ أن يعيش كعامة الناس وانقرضت به دولة السلوقيين في سورية سنة ٦٤ أو سنة ٦٥ق.م. وأرسل بومبايوس قايديه سكاوروس وكابتيوس فأخضع الأول سورية المجوفة ودمشق، والثاني باقي سورية إلى دجلة وأتى بومبايوس إلى دمشق ينظّم أحوال مصر واليهودية (ابيان في السوريين ويوستينوس ك ٤٠ فصل ٢ وبلوطرخ في ترجمة بومبايوس).

أما في مصر فاستمرت دولة اليونان إلى سنة ٣٠ ق.م ولكن طوع أيدي الرومانيين. فإنَّ قلوبطرة ابنة بتلمايس اولات التي تزوجها بتلمايس الثاني عشر ديونيسيوس أخذها وعمره ١٣ سنة وعمرها ١٧ طمعت بأن تكون لها السلطة المطلقة فعظم الخلاف بينهما. وأقيم القيصر الروماني حكماً بينهما فحكم لها مسبياً بجمالها. وعادت إلى الملك سنة ٤٧ وأراد أخوها أن يحارب الرومانيين فاستظهروا عليه وفرَّ فغرق في مياه النيل سنة ٤٨ ق.م فاقام القيصر بتلمايس الثالث عشر ملكاً وتزوج قيصر قلوبطرة وتوفي بتلمايس بعد أربع سنين مسمماً على الأرجح. وخلفه بتلمايس الرابع عشر ابن قيصر وقلوبطرة سنة ٤٢ ق.م وعمره خمس سنين بأمر

حكومة روما الثلاثية أي المؤلفة من ثلاثة رجال. وسموه سنة ٣٣ ق.م ملك الملوك دون أن يكون مالكاً إلّا بالاسم. ثم قُتل بأمر اغوسطوس قيصر سنة ٣٠ وانتهت به دولة اليونان في مصر التي أمست حينئذٍ اقليماً رومانياً. وأما قلوبطرة فبعد مقتل قيصر استدعاها انطونيوس أحد الثلاثة الرجال حكام الرومانيين إلى ترسيس لتبرئ نفسها من الشكوى الواردة عليها. فهام بها وطلّق امرأته أخت اكتاف زميله في الحكم على الرومانيين وتزوج قلوبطرة. وسلّم إليها سنة ٣٣ ق.م بعض أعمال رومانية في المشرق فانتشبت لذلك الحرب بين اكتاف وانطونيوس ودارت الدوائر على انطونيوس فانتحر. وحاولت قلوبطرة أن تصطاد بجمالها ودهائها اكتاف فخفق مسعاها وقتلت نفسها سنة ٣٠ ق.م وانتهت بها سلالة البطالسة.

عد ٤٦٠

فهرست الملوك اليونان في سورية ومصر وسني ملكهم

قد أحببنا أن نذيل كلامنا في الملوك اليونان في سورية بفهرست تتبيّن منه اسماء هؤلاء الملوك وسني ملكهم تذكرة للمطالعين.

اسماء الملوك	سنو ملكهم
اسكندر الكبير في سورية	من ٣٣٣ إلى ٣٢٤ أو ٣٢٣
لاوميدون	من ٣٢٣ إلى ٣٢١
انتيكون وبتلمايس ملك مصر	من ٣٢١ إلى ٣١١
سلوقس الأول	من ٣١١ إلى ٢٨٠
انطيوكس الأول	من ٢٨٠ إلى ٢٦٠ أو ٢٦١
انطيوكس الثاني	من ٢٦٠ إلى ٢٤٦
سلوقس الثاني	من ٢٤٦ إلى ٢٢٥ أو ٢٢٦
سلوقس الثالث	من ٢٢٥ إلى ٢٢٢
انطيوكس الثالث الكبير	من ٢٢٢ إلى ١٨٦ أو ١٨٥
سلوقس الرابع	من ١٨٥ إلى ١٧٥

انطيوكس الرابع ابيفان	من ١٧٤ إلى ١٦٤
انطيوكس الخامس اوباتور	من ١٦٤ إلى ١٦٢
ديمتريوس الأول سوتر	من ١٦٢ إلى ١٥٠
اسكندر الأول بالا	من ١٥٠ إلى ١٤٦ أو ١٤٤
ديمتريوس الثاني نكانور	من ١٤٧ . ١٤٣ . ١٤٠ . ١٣٩ ثم ١٣٠ . ١٣٥
انطيوكس السادس	من ١٤٥ إلى ١٤٢
تريفون	من ١٤٢ . ١٣٨ أو ١٣٩
انطيوكس السابع صيدات	من ١٣٨ . ١٢٩ أو ١٢٨
قلوبطرة في قسم من المملكة	من ١٢٥ . ١٢٠ أو ١٢١
سلوقس الخامس مع أمه قلوبطرة	من ١٢٤ . ١٢٣
زبينا في القسم الآخر من المملكة	من ١٢٨ . ١٢٣
انطيوكس الثاني كريبوس	من ١٢٠ . ١١٦ ثم ١١١ إلى ٩٧ أو ٩٦ مع أخيه
انطيوكس التاسع الشيزيكي مع أخيه	من ١١٦ . ٩٥
سلوقس السادس	من ٩٥ . ٩٣
انطيوكس اوساب العاشر	من ٩٣ . ٩١ ثم ٨٩ إلى ٨٣
انطيوكس الحادي عشر	من ٩١ . ٩٠
ديمتريوس الثالث اوثر في دمشق	من ٩١ . ٨٩ أو ٨٨
فيلبوس في انطاكية	من ٩١ . ٨٣
انطيوكس الثاني عشر في دمشق	من ٨٩ . ٨٦ أو ٨٤
سيلانة أرملة انطيوكس في عكا	من ٨٠ . ٧٠
تغران ملك الأرمن	من ٨٢ أو ٧٠ . ٦٩ أو ٦٤
انطيوكس الثالث عشر الآسياوي	
في بعض المملكة ٦٩	. ٦٤

فجملة سني ملك اليونان في سورية من دخول اسكندر إليها سنة ٣٣٣ إلى

أخذ الرومانيين لها سنة ٦٤ على الأظهر مئتان وتسع وستون سنة. وقد علمت أنّ تاريخ السلوقيين فيها بُدئ فيه سنة ٣١١ فتكون مدة ملك السلوقيين فيها مئتين وسبعاً وأربعين سنة.

ولما كان البطالسة ملوك مصر ملكوا في جنوبي سورية مدّات طويلة وإن منقطعة وكثرت العلاقات بين مملكتي مصر وسورية رأينا أن نلحق فهرست ملوك مصر وسني ملكهم بفهرست ملوك سورية.

فهرست البطالسة ملوك مصر من اليونان

اسماء الملوك	سنو ملكهم
اسكندر الكبير	٣٣٢ إلى ٣٢٣
بتلمايس الأول سوتر	٣٢٣ — ٢٨٥
بتلمايس الثاني فيلادلفوس	٢٨٥ — ٢٤٧
بتلمايس الثالث افرجات	٢٤٧ — ٢٢٢
بتلمايس الرابع فيلوباتور	٢٢٢ — ٢٠٥
بتلمايس الخامس ابيفان	٢٠٥ — ١٨١
بتلمايس السادس فيلوماتور	١٨١ — ١٤٦
بتلمايس السابع فيسكون	١٤٦ — ١١٧
بتلمايس الثامن لاتير	١١٧ — ١٠٧
بتلمايس التاسع اسكندر	١٠٧ — ٨٨
قلوبطرة	٨٨ — ٨٣
بتلمايس لاتير بعد عوده	٨٨ — ٨١
بتلمايس العاشر اسكندر	٨١ — ٨٠
برنيقة	٨٠ — ٨٠
بتلمايس الحادي عشر اولات	٨٠ — ٥٢

بتلمايس الثاني عشر ومعه قلوبطرة	٥٢ — ٤٨	
بتلمايس الثالث عشر	٤٨ — ٤٢	
بتلمايس الرابع عشر	٤٢ — ٣٠	
قلوبطرة كانت مع هؤلاء		
الملوك من سنة	٥٢ — ٣٠	

فجملة سني هؤلاء الملوك من سنة ٣٣٢ التي أخذ فيها اسكندر الكبير مصر إلى سنة ٣٠ التي قتل فيها اغوسطوس قيصر بتلمايس الرابع عشر ثلاث مئة سنة وسنتان.

تتمة تاريخ ملوك اليهود
إلى هيردوس الكبير

قد استوفينا في كلامنا الماضي أخبار المكابيين أمراء اليهود ورؤساء أحبارهم إلى سمعان المكابي. وذكرنا في عد ٤٤٧ أنَّ يوحنا هركان بن سمعان المكابي خلف أباه في رياسة الكهنة والولاية. وفي عد ٤٤٩ أنَّ هركان بسط سلطته على محال عديدة في سورية وفينيقية. واستبدَّ في ولايته وفي عد ٤٥١ أنه وسَّع تخومها وأرسل وفداً إلى روما يجدِّد عهد الموالاة بينه وبين الرومانيين فأجابوه إلى ذلك. وفي عد ٤٥٢ أنه حاصر السامرة وافتتحها رغماً على ملك دمشق وملك مصر فاستفحل أمره في اليهودية والجليل وغيرها. وغدا من مشاهير الملوك وتوفي سنة ١٠٧ ق.م. وفي عد ٤٥٤ أنَّ ابنه ارسطوبولس خلفه وسمي ملكاً على اليهود. وأشرك أخاه انتيكون في الملك معه لكن لم يملك إلَّا سنة. وخلفه أخوه اسكندر وافتتح عكا وغزة وحاربه بتلمايس لاتير فاستظهر عليه ثم نجدته قلوبطرة وعاهدته وعاد إلى أورشليم معززاً. فنعود الآن إلى تتمَّة أخبار ملوك اليهود هؤلاء في هذا الفصل الذي أفردناه للكلام فيهم.

عد ٤٦١

تتمّة أخبار الملك اسكندر ووفاته

قد أنبأنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٢١) أنه قد كثُر القلق في ملك اسكندر لمقت شعب اليهود له حتى أنه دخل الهيكل في عيد المظال. وكان من عادتهم أن يأتوا إلى الهيكل في هذا العيد بأغصان النخل والليمون. فأخذ الشعب يرشق اسكندر على رأسه بأثمار الليمون ويقذفه بالشتائم قائلين إنه كان أسيراً فلا يحق له أن يكون حبراً ويقدّم الذبائح لله، وربما كان المراد ما فاه به قبلاً العازار إنَّ أم هركان كانت أسيرة. فاحتدم صدر اسكندر غيظاً، وخرج عليهم بحرسه فقتل منهم ستة آلاف رجل ولم يعد يركن إلى اليهود. فأخذ لنفسه حرساً من الأجانب من بيسيديا وقيليقية نحواً من ستة آلاف رجل كانوا يصحبونه حيث توجَّه. وكان ذلك لسنة ٩٥ ق م. ولما أخمد جذوة ثورة اليهود عليه سنة ٩٤ ق.م أقبل على محاربة الأجانب فانتصر على عبيد ملك العرب. وذلَّل الموابيين وغيرهم وافترض الجزية عليهم وكمن له أعداؤه في مضيق عسر المسلك وزحمه قطار من الابل فلم ينجُ إلّا بشق النفس. وهلك كثيرون من رجاله فطرب مسودوه بتذليله وجرأهم مصابه على محاربته فحاربوه ست سنين حتى قتل من الفريقين نحو خمسين ألفاً. وفتح مدينة كان العصاة تحصَّنوا فيها، وقبض على ثماني مئة رجل وأتى بهم إلى أورشليم وصلب جميعهم في يومٍ واحد. واستحضر نساءهم وأطفالهم فأبسلهم تجاه عيونهم وصنع في ذلك اليوم مأدبة لنسائه وسراريه في مكان مشرف على القتلى، فكان هذا المشهد الأليم له ولهنَّ من أسباب المسرَّة وكان ذلك لسنة ٨٦ ق.م.

وذكر يوسيفوس (فصل ٢٣ من الكتاب المذكور) إنَّ الملك اسكندر بعد أن أخمد ثورة سورية افتتح مدناً أخرى لدن تشاغل ملوك سورية بمحاربة بعضهم بعضاً. وعاد إلى أورشليم وعكف على الملاذ ومعاقرة الخمرة فأُصيب بحمّى الربع، ودامت عليه ثلاث سنين ولم يكن ينكفّ عن الحروب. وبينما كان محاصراً حصناً في شرقي الأردن اشتدَّ مرضه واحتضر فدخلت عليه اسكندرة الملكة وقالت وعيناها مغرورقتان بالدموع إلى يد من تتركني وأولادك وأنت عالم بضغائن الشعب كله وبغضه لك؟ فقال إن عملتِ بمشورتي حفظتِ الملك لكِ ولأبنائك فاخفينَّ موتي

على جنودي إلى أن يفتتحوا هذا الحصن؛ وإذا رجعتِ منتصرة إلى أورشيم فتزلّفي إلى الفريسيين وخوّليهم ما يهوون من الوجاهة أمامكِ، فأنتِ عالمة بما لكلمتهم من النفوذ عند الشعب فمن أحبوه جعلوا الشعب يحبه ومن قلوه جعلوه يقلا. فاستدعيهم لدن وصولك إلى أورشليم، وأرنّهم جثتي وقولي لهم ها جثة ملككم بين أيديكم فاصنعوا بها ما شئتم، فإن أحببتم أن لا تواروها التراب جزاءً عما أنزله بكم من المضار فلكم، وإن رغبتم أن تكرموا دفنته فلكم، وحققي لهم أنكِ لا تصنعين شيئاً في الملك دون مشورتهم وارشادهم، وأنا موقن أنهم يحتفون بدفني ويعززونكِ. قال هذا الكلام وقضى نحبه سنة ٧٩ وعمره تسع وأربعون سنة. وقد ملك سبعاً وعشرين سنة وترك ابنَين هركان وارسطوبولس وأوصى بالملك لامرأته اسكندرة ما حييت. وأن يخلفها بعد وفاتها من تختاره من ابنَيه.

عد ٤٦٢

ملك اسكندرة وابنها هركان

قد عملت اسكندرة بمشورة زوجها وجعلت نفسها وأولادها طوع أيدي الفريسيين قائلة إنها تكمل بذلك ارادة زوجها الأخيرة. فاستمالت قلوب الفريسيين إليها وأغضوا على قلاهم له، واستبدلوه بالتكريم والتجلة لذكره. وأخذوا يُطرئونه ويُذكّرون بأعماله الخطيرة في جانب تعزيز مملكتهم وبسط تخومها. وبعثوا الشعب على الاحتفاء بدفنه بنفقات بليغة حتى لم يكن لأحد أسلافه مثل هذا الاحتفاء. وقامت اسكندرة تدبر شؤون الملك كما أوصى زوجها. وجعلت هركان رئيس الأحبار وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وثلاثين سنة وعهدت بتدبير أهم أمور الملك إلى الفريسيين. وألغت الأمر الذي كان يوحنا هركان أصدره لابطال تقليدات الفريسيين، فاندفعوا يعملون بها أكثر من ذي قبل. واضطهدوا أشدَّ الاضطهاد كل من كان يقاومهم قبلاً والملكة مغلّلة الأيدي لا تستطيع أن تغايرهم عالمة بما رأت في أيام زوجها من عظمة مضار الحرب الأهلية وما تجرّه من الغوائل العديدة. وقضت بأنَّ في الحرب شراً أكبر من شرّ ذلك الاضطهاد وهم كانوا يختلقون كل يوم شكاوي على خصومهم. فضاق ذرع محازبي الملك اسكندر وخلاّنه في حياته عن تحمّل هذا الاضطهاد، وجاءوا ووجوههم الجماء الغفير إلى الملكة ومعهم

ارسطوبولس ابنها الثاني. وذكَّروها بخدماتهم وأمانتهم لزوجها وبما كابدوه من المشاق والمخاطر في حروبه، ويسوءهم أن يحسب ذلك الآن جناية يقتصّ منهم خصومهم بسببها فلا وجه لاضطهادهم إلّا اخلاصهم لزوجها ولها. وسألوها اتخاذ الوسائل الواقية وكفّ هذه القسوة عنهم أو تسمح لهم أن يهاجروا إلى غير بلادها أو تقيمهم حيث حامية تتكفَّل بوقايتهم. فرقَّ قلب الملكة ورثت لتظلّمهم ولكنها لم تشأ أن تخلف وعدها للفريسيين بأن تستسير برأيهم. وخشيت سطوتهم ولم ترضَ أن ترخِّص لهم بالمهاجرة لئلا تمسي فريسة لهذه الشيعة وليس لها من يذب عنها. فعوَّلت أن تقيمهم في القلاع والحصون فتجمع بين الوقاية لهم والانتفاع بهم في حين حاجة.

وقد مرضت الملكة سنة ٧٠ ق.م ويئس من شفائها واحتضرت. فانسلَّ ابنها ارسطوبولس من أورشليم ليلاً لا يصحبه إلّا خادم واحد ومضى إلى القلاع والحصون التي كان فيها أصدقاء أبيه فقبلوه بالترحاب؛ وفي مدة خمسة عشر يوماً تجاهر بالمحازبة له الحرس المقيم في اثنين وعشرين حصناً، فأصبح أكثر جنود الملكة طوع يديه. وكان الشعب سئمت نفوسهم استبداد الفريسيين. فتسارعوا إلى الانضواء إلى ارسطوبولس ولم يكونوا يؤملون نفعاً من هركان لتشبثه بالميل إلى الفريسيين ولقلَّة أهليته. ولما رأى الفريسيون استفحال أمر ارسطوبولس أتوا إلى الملكة ومعهم هركان ابنها يُنبئونها بما كان، ويسألونها أن تتدارك الأمر وتعاونهم على كبت ارسطوبولس. فأجابتهم أنها لم تبقَ لها مقدرة على تدبير هذه الشؤون فتترك العناية بها لهم. وأوصت أن يخلفها هركان وبعد هنيهة أدركتها الوفاة سنة ٧٠ ق.م بعد أن ملكت تسع سنوات.

وبعد وفاتها أخذ ابنها هركان الملك وأجهد الفريسيون أنفسهم بالمناصرة له وكانوا بعد خروج ارسطوبولس من أورشليم أخذوا امرأته وولده. وأقاموهم في حصن ليكونوا رهينة توقفه عن المغايرة لهم. فلم يتوقف وحشدوا جيشاً والتقاهم ارسطوبولس بمثله. ونشبت الحرب في جوار اريحا فكانت القاضية لأنَّ السواد الأعظم من جنود هركان غادروه وانحازوا إلى أخيه. فأُجبر على أن يفرّ إلى أورشليم واتخذ محازبوه الهيكل ملجأ. وارغموا بعيده على الخضوع لارسطوبولس وقضت الحال على هركان أن يتخلّى لأخيه عن تاج الملك ورياسة الكهنوت وأن يعيش كأحد الناس تحت حماية أخيه متصرفاً بأملاكه. فلم يدم ملكه إلّا ثلاثة أشهر

وكان ذلك لسنة ٦٩ ق.م (يوسيفوس في تاريخ اليهود كتاب ١٣ فصل ٢٤ وك ١٤ فصل ١).

عد ٤٦٣

ارسطوبولس الثاني

لم يستقرّ ارسطوبولس على سرير الملك إلّا ونشأ قلق في مملكته أحدثه انتيباس (المسمى أيضاً انتيباتر) أبو هيرودس وكان هذا الرجل ادومياً أصلاً يهودياً مذهباً كغيره من الادوميين الذين أجبرهم يوحنا هركان أن يتهودوا. وكان من رجال دولة الملك اسكندر واسكندرة زوجه ومن المقربين إلى بكرهما هركان رجاء أن يرفع مقامه إذا استوى على أريكة الملك، ولما أخفق مسعاه بسقوط هركان عن العرش وارتقاء ارسطوبولس إليه. بذل قصارى جدّه في إعادة هركان إلى ملكه فلجأ أولاً إلى أرنياس حارس ملك العربية الحجرية ليعاونه على بغيته، فأتى لمحاربة ارسطوبولس. فانتصر ارسطوبولس عليه وأنجده سكاوروس قائد جيش الرومانيين ثم أتى بمبايوس إلى سورية سنة ٦٤ و ٦٥ ق.م عائداً من محاربة متريدات. فأراد أن ينظر في دعوى هركان وارسطوبولس الذي استدعاه بمبايوس وهو في دمشق فلبّى دعوته. وأتى جمّ غفير من اليهود يسألون بمبايوس أن يريحهم من ولاية كليهما لأنه لم يكن من عادتهم أن يتولاهم ملوك بل أن يسوسهم رئيس كهنة، ويقضي بينهم بحسب سنّتهم. أما هركان فكان يشكو أنّ أخاه انتزع الملك منه خلافاً للحق لأنه البكر وأن ليس له إلّا حقول قليلة لا تقوم بأوده. وأنّ أخاه كاللص يسطو على جيرانه وينهب مالهم. وكان انتيباس أحضر كثيراً من اليهود ليشهدوا على أخيه، وأما ارسطوبولس فأجاب إنه لم ينزع الملك من أخيه إلّا لأنه لم يكن أهلاً له وقد ازدراه الشعب لأنه رجل بليد مكسال، فاضطرّ أن يقبض على أزمة الملك لئلا تقع بيد أجنبي، وأحضر شهوداً على دعواه كثيراً من أعيان البلاد.

أما بمبايوس فتبيّن له أنّ ارسطوبولس اعتدى على أخيه لكنه لم يبرز حكمه خشية أن يبدي ارسطوبولس ما يحول دون قهر بمبايوس العرب، فأصرفهما متلطفاً وقال إنه سوف يمرّ في اليهودية بعد أن يخضع ارتياس والعرب، فينظر حينئذٍ في هذا الخلاف ويسوّي بينهما فشعر ارسطوبولس بما كنّه بمبايوس فبارح دمشق حيث

كانوا لساعته ولم يودعه. وأسرع إلى اليهودية يسلّح قومه ويتأهب للمدافعة فجعل نفسه بهذا التصرف عدواً لبمبايوس.

وزحف بمبايوس بجيشه إلى بلاد العرب وكان ارتياس ملكهم يزدري الرومانيين، ولكن لما دنت جحافلهم من بلاده قنط، وأرسل وفداً يقول أنه خاضع لهم فلم ينكف بمبايوس عن المسير حتى بلغ مدينة حجر عاصمة الملك وأخذها، وقبض على ارتياس ثم خلى سبيله لقبوله الشروط التي اقترحها عليه. ثم عاد بمبايوس إلى دمشق وسيّر جنوده على ارسطوبولس فلقيه في حصن يسمى الكسدرون كان أبوه بناه وسماه باسمه. وأمره بمبايوس أن يخفّ إليه فتردد ارسطوبولس متشاغلاً عن المجئ والحّ عليه أصحابه أن يمضي علّه يقي البلاد من الحرب. فأتى وحدّثه بمبايوس في أمر الخلاف بينه وبين أخيه فبذل ارسطوبولس مجهوده في اقناعه وأرجأه بمبايوس إلى مقابلة أخرى.

وعاد إليه ارسطوبولس مرات آملاً أن يستميله بهذا التلطف إلى الحكم له ولم ينكفّ عن التأهب للحرب لئلا يحكم بمبايوس عليه. وشعر بمبايوس بذلك فأسره آمراً أن يُسلم إليه كلما أعدّه للقتال، وأكرهه على أن يمضي أمراً بذلك إلى جميع رؤساء الحصون. فوغر صدر ارسطوبولس من هذا التحكّم وأسرع بعد خروجه من عند بمبايوس فحلّ بجيشه أولاً في اريحا ثم أمّ أورشليم على أنه ما لبث أن ندم على ما صنع وخرج للقياه. وبذل قصارى جهده ليسترضيه عنه واعداً بالخضوع المطلق له وبمبلغ جسيم من النقود تفادياً من الحرب فقبل بمبايوس ما عرضه عليه. وأوفد كابينيوس مع كتيبة من الجنود ليقبض المال فوصد أهل أورشليم أبوابها، وأخذوا يصيحون على القائد أنهم لا يقبلون الوفاق. فقبض بمبايوس على ارسطوبولس وغلّله وزحف بجيش إلى المدينة. وكان محازبو ارسطوبولس يريدون الدفاع ومريدو هركان يهوون فتح أبواب المدينة لبمبايوس. ولما رأى محازبو ارسطوبولس تغلّب خصومهم عليهم انحازوا إلى جبل الهيكل للدفاع ونقضوا الجسور التي على الوهاد. ففُتحت أبواب المدينة ودخلها بمبايوس وحاصر الهيكل فلم يتهيأ له فتحه مدة ثلاثة أشهر ولاستحال عليه فتحه لولا تشبث المحاصرين بحفظ وصيّة السبت، لأنهم كانوا يرون أنه يجوز لهم أن يدفعوا عن أنفسهم يوم السبت، ولكن لا يجوز لهم أن يوقفوا الأعداء عن أعمالم. فأخذ الرومانيون في أيام السبوت يركمون الوهاد، ويحكمون في محلها أدوات حربهم ولا مقاوم لهم.

واتصلوا أخيراً إلى أن قوّضوا برجاً وانفتح لهم منفذ في الأسوار فوثبوا على أعدائهم وأوقعوا فيهم. وأبسلوا بحدّ السيف اثني عشر ألفاً منهم وكان الكهنة يقدّمون الذبائح في الهيكل فلم يبالوا بما كان من الصراخ وقعقعة السلاح ولم يبرحوا مواقفهم حتى اختلط دم بعضهم بدم ذبائحم.

فدخل بمبايوس الهيكل حتى قدس الأقداس، فأسخط ذلك اليهود وهيّجهم على مقت الرومانيين، ولم يمس بمبايوس خزينة الهيكل لعلمه أنَّ أكثر الأموال فيها ودائع لبعض الناس جيء بها إلى الهيكل لتكون في مأمن. وقال شيشرون الخطيب (في خطبة محاماة لفلاك) إنَّ بمبايوس لم يصنع هذا اجلالاً لدين اليهود المخالف لعقائد الرومانيين بل ليظهر نزاهته وترفعه وليقطع مجال التقوّل عليه. وقد فارق بمبايوس سعده بعد دخوله الهيكل فلم يكن له انتصار بعد انتصاره على اليهود، وقد نقض حينئذٍ أسوار أورشليم وأسر ارسطوبولس وابنَيه اسكندر وانتيكون وابنته وأخذهم إلى روما. وأقام هركان على الملك وسكاوروس على باقي سورية وألحق مدناً كثيرة من مملكة اليهود بمملكة سورية. وكان ذلك لسنة ٦٣ ق.م (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٤ فصل ٢ إلى فصل ٨ وفي حربهم مع الرومانيين ك ١ فصل ٤ و ٥).

عد ٤٦٤
ما كان في أيام هركان الثاني

لم يستقر هركان في منصّة الملك إلَّا وزعزعها اسكندر بن ارسطوبولس لأنه فرَّ من طريقه إلى روما وعاد إلى اليهودية. وحشد جيشاً سنة ٥٧ ق.م ليثلَّ عرشه. ولما كان هركان ضعيفاً لا يقوى على محاربة ابن أخيه لجأ إلى الرومانيين، فاستظهر كابينيوس قائد جيشهم على اسكندر، وأتى إلى أورشليم وأقرَّ هركان في رياسة الكهنوت. وجعل حكومة اليهود جمهورية وأقام اعيان الشعب على تدبير شؤون بلادهم التي قسّمها إلى خمس ولايات. وتتبّع آثار اسكندر وضايقه حتى استسلم إليه ولكن لم تستتب الراحة إلَّا قليلاً لأنَّ ارسطوبولس فرَّ من سجنه في روما وعاد إلى اليهودية مع ابنه انتيكون. وانضمَّ إليه جمٌّ غفيرٌ فأرسل كابينيوس جنوده إليه وصرف ارسطوبولس كل من رأى أنَّ لا نفع له منهم. واستبقى معه ثمانية آلاف

من رجال البأس المحنكين بالحروب. والتحمت الحرب فأبدى ارسطوبولس ورجاله آيات البسالة والشهامة في ذلك اليوم إلى أن دارت أخيراً عليه الدوائر. فقُتل من رجاله خمسة آلاف وفرَّ ألفان فاستعصى على قمة جبل وخرق ارسطوبولس صفوف الأعداء بمن بقي معه، وبلغ عند المساء إلى ماكرون فوجدها قد دُمرت في الأحداث السالفة وهمَّ أن يرمِّم فيها شيئاً ولكن باغته الرومانيون فأقام يدافع عن نفسه يومين بشجاعة ولا شجاعة الأسود إلى أن انتصر الجيش الكثيف عليه وعلى رجاله القليلين. فقبضوا عليه وأرسلوه إلى كابينيوس ثم إلى روما مع ابنه انتيكون. وردَّ رجال الندوة أولاده لأنَّ كابينيوس كتب إليهم أنه وعد أمهم أن يستردَّهم مكافأة لها على تسليمها بعض الحصون إليهم. وكان ذلك لسنة ٥٤ ق.م (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٤ ف ١٠ و ١١ في حربهم ك ١ ف ٦).

على أنَّ اسكندر بن ارسطوبولس لم يلزم السكينة بعد عوده إلى اليهودية بل انتهز فرصة غياب كابينيوس إلى مصر، وحشد جمّاً غفيراً من اليهود وقتل كل من وقع بيده من الرومانيين. فعاد كابينيوس من مصر واستمال بعض اليهود إليه ولكن بقي مع اسكندر ثلاثون ألفاً عزموا أن يناوئوا الرومانيين فخُذلوا. وسقط منهم عشرة آلاف في القتال وفرَّ اسكندر بمن سلم من جنوده وجاء كابينيوس إلى أورشليم عملاً برأي انتيباس يدبر أمور اليهود.

وكان كابينيوس استدعته الندوة إلى روما ليحاكم على مخالفات لأوامرها. وأقامت كراسوس على سورية مكانه وأتى إلى أورشليم ولم يطاوعه طمعه الاشعبي أن يمسك نفسه عن أموال الهيكل كما صنع بمبايوس قبلاً. بل ابتزَّ كل ما وجد فيه من النقود وآنية ذهبية بحجَّة أن يقوم بنفقات الحرب على البرتيين. ثم سار لحرب هؤلاء فانتصروا عليه وعاد إلى شمالي سورية فلم يقووا أن يدخلوها ثم أتى اليهودية. وحارب من حازبوا ارسطوبولس وابنه اسكندر وأخذ منهم ثلاثين ألف أسير وكان ذلك لسنة ٥٣ ق.م.

ولما استحوذ قيصر على روما سنة ٤٩ ق.م وفرَّ بمبايوس وأكثر رجال الندوة من وجهه أطلق ارسطوبولس من السجن وأرسله إلى سورية للمحافظة على هذا الاقليم، فلم يهنأ ارسطوبولس بأمانيه بحماية قيصر لأنَّ محازبي بمبايوس أماتوه مسمماً. فأخذ أصحاب قيصر جثته وحنَّطوها ثم نُقلت إلى مدفن الملوك. وأما ابنه

اسكندر فقتله شيبون في انطاكية بأمر بمبايوس. ولما غزا قيصر مصر سنة ٤٧ ق.م ملاحقاً بمبايوس أنجده انتيباس من قبل هركان بجيش اتخذه من العرب واليهود ومن رجال بتولمايس الذي كان يسكن في أعمال لبنان وفاز انتيباس (أبو هيرودوس) بمنزلة كبرى أمام قيصر وعظُم اسمه. وأتى قيصر بعد ذلك إلى سورية فطفق انتيكون بن ارسطوبولس يتزلَّف إليه ويتوسَّل ليقيمه على عرش أبيه. ويشكو من هركان وانتيباس وسعى بهما فلم يسمع قيصر له لما اصطنعاه إليه من الخدمات في حرب المصريين بل أمر أن يستمر هركان على رياسة الكهنة وعلى ولايته على اليهود هو وذريته من بعده. وجعل انتيباس مدبراً لليهودية تحت امرة هركان فنسخ بذلك ما كان كابينيوس أمر به من أنَّ الولاية على اليهود تكون لأعيانهم. وأقام انتيباس بكره فازئيل والياً في أورشليم وهيرودس ابنه الآخر والياً على الجليل سنة ٤٤ ق.م، ورخَّص قيصر لهركان أن يعيد بناء أسوار أورشليم التي كان نقضها بمبايوس. فعني بذلك انتيباس دون ابطاء وعادت أورشليم محصَّنة كما كانت. وفي سنة ٤٤ نفسها في ١٥ آذار كان مقتل قيصر في الندوة غيلة بمؤامرة أخصَّ منشئيها كاسيوس وبروتوس الذي غمره قيصر بنعمه.

وفي سنة ٤٠ ق.م دخل ملك البرتيين إلى سورية وأرسل فريقاً من جنوده إلى اليهودية آمراً أن يقام على أريكة الملك انتيكون بن ارسطوبولس. وحشد انتيكون جيشاً لنجدة عسكر البرتيين وطلب قائد البرتيين هركان وفازئيل أن يأتيا إليه للمفاوضة في وفاق، فلبيا دعوته فقبض عليهما وكبَّلهما بالحديد. أما هيرودس ففرَّ من أورشليم. فدخلت جنود البرتيين المدينة فانتهبوها وقراها وأجلسوا انتيكون على سرير العرش. وسلَّموا اليه هركان وفازئيل مغللين. ولما علم فازئيل أنه لا مفرّ له من الموت انتحر مكسراً رأسه على جدار السجن. وأما هركان فاستبقوا عليه حياً ولكن صلم انتيكون أذنيه كيلا يبقى أهلاً لرياسة الكهنوت، إذ أُمر في سفر الأحبار (ص ٢١ ع ١٦) أن يكون رئيس الأحبار خالياً من كل عيب وتعويه. ثم أسلمه إلى البرتيين ليأخذوه إلى بلادهم حيث لا يتيسَّر له أن يتداخل في أمور اليهودية. وبقي هناك سجيناً في سلوقية باقيلم بابل إلى أن رُقي فرات عرش الملك. فحلَّه من أغلاله وأذِن له أن يتردَّد إلى اليهود الذين كانوا كثيرين هناك. فأجلَّه اليهود كملك ورئيس أحبار، وأمدّوه بما يسهِّل له أن يعيش بحسب مقامه. ثم استدعاه هيرودس إلى أورشليم لكنه قتله بعد ذلك (يوسيفوس

في حروب اليهود مع الرومانيين ك ١ فصل ٦ و ٧ و ٨ وفي تاريخ اليهود ك ١٤ فصل ١٠ إلى ١٧).

عد ٤٦٥

انتيكون وهيرودس

إنَّ هيرودس فرَّ إلى مصر عندما استحوذ البرتيون على أورشليم ثم سار إلى روما واستمال مرقس انطونيوس أحد الرجال الثلاثة رؤساء الحكومة الرومانية. فأفضل عليه بأكثر مما كان في حسبانه فخُجل ما كان يلتمسه أن يُعطى تاج الملك لارسطوبولس بن اسكندر بن ارسطوبولس أخي هركان. ولما كان هيرودس قد خطب مريمنا أخت ارسطوبولس هذا كان يؤمل أن يقام على تدبير الملك تحت أمرته كما كان انتيباس أبوه تحت أمرة هركان. فانطونيوس أقام هيرودس نفسه ملكاً على خلاف عادة الرومانيين أن لا ينتهكوا حرمة السلائل الملكية إذا تقووا عليها. بل يختاروا من شاءوا منها ملكاً يجعلونه تحت حمايتهم. فأقرَّت الندوة هيرودس ملكاً على اليهودية سنة ٣٩ ق.م فلم يقم هيرودس بعد ذلك في روما إلَّا سبعة أيام وأسرع إلى اليهودية فوصلها بعد ثلاثة أيام.

على أنَّ استواء هيرودس على عرش ملك اليهود لم يكن بالأمر اليسير لو لم يكن انتيكون ليتخلَّى له عنه وقد كلَّفه الوصول إليه أتعاباً وأموالاً، فاشتدَّ النزاع بينهما سنتين. فهيرودس صرف فصل الشتاء سنة ٣٨ ق.م حاشداً الرجال مُعداً العُدد ثم زحف إلى أورشليم، وحاصرها بجيش كثيف، وكان انطونيوس أمر سوسيوس والي سورية أن يبذل قصارى جهده في خلع انتيكون وتأييد ملك هيرودس في اليهودية. وبعد اقامة الجنود الحصار مضى هيرودس إلى السامرة فتزوج مريمنا ابنة اسكندر المذكور. وكان هيرودس يؤمل أنَّ تزوجه بهذه الأميرة التي هي من نسل ملوك اليهود يستميل الشعب إليه وييسِّر له نيل بغيته. وبعد عوده ضمَّ جيش سوسيوس والي سورية وجيشه حتى صار الجيشان لا أقلّ من ستين ألفاً. وشدّوا الحصار على أورشليم فأحسن انتيكون وقومه الدفاع مدة ستة أشهر إلى أن دخل الأعداء المدينة من كل جهة. واستحوذوا عليها سنة ٣٧ وملأُوا أزقتها من القتلى وانتهبوا ما فيها ونقضوا بعض أبنيتها.

أما انتيكون فلما يئس من الدفاع أتى إلى سوسيوس وانطرح على قدميه متذللاً. فغلله وأرسله إلى انطونيوس الذي كان حينئذٍ في انطاكية. وأحبَّ انطونيوس أن يبقيه حياً لكن هيرودس طلب إليه أن يميته إذ لا راحة له في ملكه ولا ثبات له ما دام أحد من سلالة الملوك اليهود حياً. وأرشى أعوان انطونيوس بمبلغ جسيم من المال فحوكم انتيكون وحُكم عليه بالقتل ونُفِّذ فيه القضاء الجائر سنة ٣٧ ق م. (يوسيفوس في حروب اليهود ك ١ فصل ١٠ و ١٣ وفي تاريخ اليهود ك ١٤ ف ٢٥ إلى ٢٨ وبلوطرك في ترجمة انطونيوس). فانقضى بموت انتيكون ملك المكابيين وولايتهم بعد أن دامت مئة وتسعاً وعشرين سنة. بدؤها ولاية يهوذا المكابي ونهايتها بمقتل انتيكون سنة ٣٧ ق م. وانتقل الملك من يهوذا إلى هيرودس بن انتيباس الأدومي الأجنبي عن اليهود، فكان ذلك دليلاً على دنو مجيء المخلِّص بحسب نبوَّة يعقوب أبي الأسباط حيث قال في يهوذا: «لا يزول صولجان من يهوذا ومشترع من صلبه حتى يأتي شيلو (أي المخلِّص) وتطيعه الشعوب». فقد تحققت هذه النبوَّة التي كانت قبل مجيء المخلِّص بنحو من تسعة عشر قرناً إذ لم يخلُ سبط يهوذا من أن يكون فيه ملك أو والٍ أو حاكم بحسب الشريعة من ذلك العهد إلى أن تبوأ هيرودس الأدومي عرش اليهودية.

مقالة

تاريخ سورية في أيام الرومانيين

فصل

أخبار سورية واليهودية مذ استحوذ عليهما الرومانيون إلى مولد المخلِّص

عد ٤٦٦

لمعة في تاريخ الرومانيين إلى ملك اغوسطوس قيصر

الرومانيون قبيلة يافتية ظعنت من آسيا إلى اوروبا وأقامت في وسط ايطاليا. ويبتدئ تاريخهم من بناء مدينتهم روما الذي كان في منتصف القرن الثامن قبل المسيح ولم يجمع المؤرخون على سنة بنائها بل اختلفوا فيها بين أن تكون سنة ٧٥٤ أو سنة ٧٥٣ إلى سنة ٧٤٩ ق.م. وقالوا إنَّ رمولوس قتل أخاه راموس لأنه سخر منه لبنائها حقيرة، واستبدَّ في بناء المدينة والملك فيها. ثم خلفه ستة ملوك آخرون في مدة مئتين وأربع وأربعين سنة. لا سبيل إلى تحقيق ما يُروى عنهم ولكن لا نكير أنه عظم شأن روما في مدة ملكهم، وتوفرت ثروتها وامتدَّت تخوم سلطتها إلى كثير من الأعمال المجاورة لها ثم قلبوا حكومتها الملكية سنة ٥٠٩ أو سنة ٥١٠ ق.م واستبدلوها بحكومة جمهورية، يلقون زمامها كل سنة إلى حاكمين يسمونهما قنصلَين ينتخبهما الشرفاء. فتقهقر نجاح الرومانيين، وكثُرت المنازعات بين شرفائهم المسمين بطارقة وبين عامة شعبهم. واستمروا على حالة الضعف هذه مدة فسطت عليهم بعض العشائر المجاورة لهم وكادت تستحوذ عليهم وتقرض دولتهم لو لم يتداركوا أمرهم باقامة ندوة سنة ٤٩٣ مؤلفة من الشرفاء والعامة. ثم توفر تبديل

هيئة حكومتهم واسماء حكامهم في هذه المدة وغزا روما الغاليون (عشيرة من سكان افرنسة القدماء). واستحوذوا عليها وأوشكوا أن يدمروها إلى ما شاء الله سنة ٣٨٩ ق م. على أنَّ منايوس قنصلها وكاميل قائد جيشها أنجياها من التهلكة وطردا الغاليين منها وكانت بين الرومانيين والسمنيين (سكان سمنيوم في ايطاليا الشرقية) حروب عديدة ابتدأت سنة ٣٤٣ وتواترت إلى سنة ٢٧٢ ق.م وعمَّت ايطاليا كلها. وكانت عاقبتها أنَّ السمنيين ذلوا وخضعوا للرومانيين في السنة المذكورة. ثم دان حلفاؤهم لهم على التعاقب إلى سنة ٢٦٤ ق.م فأصبحت ايطاليا كلّها في قبضة الرومانيين. واستفحل أمرهم وعُدّوا من أعظم دول العالم وامتاز رجالهم بالفضائل الجندية والمدنية.

وكانت للرومانيين أيضاً حروب مع القرطاجنيين تُسمى الحروب البونية لأنَّ القرطاجنيين يسمون بونيين أي فينيقيين. لأنهم جالية من فينيقية كما مرَّ في المقالة في الفينيقيين. وأولى هذه الحروب استمرت من سنة ٢٦٤ إلى سنة ٢٤٢ ق م. وأخذ الرومانيون حينئذٍ صقلية الغربية من البونيين ثم استحوذوا دون حرب على سردينيا، وأخذوا قسماً من افرنسة في ما وراء الألب. ثم انتشبت الحرب الثانية بين الفريقين واستمرت من سنة ٢١٩ إلى سنة ٢٠٢ وكان قائد البونيين انيبال الشهير. فأنزل بالرومانيين أشدَّ الوبال، وضايقهم حتى ضاق ذرعهم عن الدفاع وأشرفوا على الهلاك إلى أن حسنت عاقبة هذه الحرب فملكوا صقلية الشرقية وافتتحوا اسبانيا. ثم استؤنفت الحرب بينهم واستمرت من سنة ٢٠١ إلى سنة ١٤٦ فقهر الرومانيون البونيين وأخذوا قرطاجنة. ووطدوا ولايتهم في اسبانيا وفي ما وراء الألب في افرنسة. ثم افتتحوا مكدونية وقرضوا دولتها وجعلوها اقليماً رومانياً سنة ١٤٨ ق.م وكذلك فعلوا بمملكة اليونان سنة ١٤٦ ق م. وطردوا السلوقيين من آسيا الصغرى إلى ما وراء جبل طوروس من سنة ١٤٦ إلى سنة ١٣٣ ق م. ومنذ سنة ١٢٥ ق.م أصبح قسم من افرنسة اقليماً رومانياً ثم انبسطت تخومه من طولوز إلى نيس وأخذوا نوميديا من سنة ١١٢ إلى سنة ١٠١ ق.م. فأصبحت الدولة الرومانية حينئذٍ أعظم دولة في العالم، ولكن داخل رجالها وجنودها الترف والعكوف على الملاذ والخلاف للنظام. وتوفرت المنازعات بين العامة والبطارقة. ودامت سنين عديدة وإن تخللها حروب بينهم وبين التونيين (عشائر من المانيا) من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٠١ ق م. وحروبهم مع متريدات ملك البرتيين من سنة

٨٨ إلى سنة ٦٤ ق م. ثم استؤنف القتال بينهم وكان سيلاً رئيس حزب الأشراف، وماريوس رئيس حزب العامة. فانتصر سيلاً ومحازبوه واستتبَّ له الأمر رهبة. لكن ولدن وفاته سنة ٧٨ق.م استؤنف النزاع بحروب دموية أو مؤامرات خفية منها مؤامرة كاتلينا على شيشرون الخطيب لأنه زاحمه في أن يكون قنصلاً. ثم مؤامرته على الحكومة وخراب روما فكشف شيشرون أمرها وأبان شرّها وضرّها في الندوة بفصاحته الشهيرة حتى أرغم كاتلينا أن يفرّ من روما ويحشد عسكراً من محازبيه فقُتل في أحد المواقع سنة ٦٣ ق.م، وكان بمبايوس قد أخذ سورية سنة ٦٤ كما مرّ في عد ٤٥٨ .

وعهد الرومانيون بتدبير شؤونهم إلى ثلاثة رجال هم بمبايوس ويوليوس قيصر وكراسوس سنة ٦٠ واستمرت الحال كذلك إلى سنة ٥٣ ق.م التي فيها أدركت الوفاة كراسوس. واستمرَّ بمبايوس ويوليوس قيصر فوقعت النفرة بينهما واشتدَّ النزاع وكثرت وقائع الحرب. فاستظهر قيصر على بمبايوس وفرَّ أولاً إلى بلاد اليونان ثم إلى مصر. فتتبعه قيصر إلى أن قُتل بمبايوس بأمر من بتلمايس الثاني عشر وجيء برأسه إلى قيصر. فبكاه واقتصَّ من قاتليه وثلَّ عرش بتلمايس ورقّى قلوبطرة إلى منصَّة الملك سنة ٤٨ ق م. ثم مضى قيصر من مصر فانتصر على فرتاس ملك بنطوس الذي كان عصاه وحطَّه عن عرش ملكه سنة ٤٧ ق.م، ثم عاد إلى افريقية فأباد عسكر مخالفيه من الرومانيين سنة ٤٦ ق.م، ثم زحف إلى اسبانيا فانتصر على ابن بمبايوس وقتله، وأكمل ابادة محازبيه وعاد إلى روما سنة ٤٥ ق.م وعفا عن أعدائه. وجمَّل روما باقامة أبنية كثيرة وحوَّر شرائعها وأصلح الحساب الفلكي المنسوب إليه وأضمر الجمهوريون حقدهم عليه وحنقهم منه، وأشاعوا أنه يريد أن يسمي نفسه ملكاً فتآمروا عليه وكان رؤساء هذه العصابة عليه كاسيوس وبروتوس الذي كان غمره بآلائه فقتلوه في الندوة نفسها في ١٥ آذار سنة ٤٤ ق م.

على أنَّ هذه العصابة لم يتهيأ لها أن تضبط زمام السلطة لأنَّ الشعب أقام ثلاثة حكام آخرين وهم: اكتاف الذي سُمي بعداً اغوسطوس قيصر، ومرقس انطونيوس وأبعدا لابيد. وكان اكتاف قد زوَّج أخته اكتافية بانطونيوس فاتفقا أولاً وحاربا أعداءهما وانتصرا على كاسيوس وبروتوس سنة ٤٢ ق.م وبدَّدا شملهما وأبعدا لابيد زميلهما عن الحكومة. واستقلا بها ثم وقع التحاسد والغيرة بينهما واقتسما المملكة. وأخذ اكتاف المغرب. وأخذ مرقس انطونيوس المشرق وكثرت

المنازعات بينهما. وهام انطونيوس بقلوبطرة ملكة مصر فترك امرأته اكتافية أخت اكتاف زميله واقترن بها. فشقَّ صنيعه على اكتاف وأثار عليه حرباً بحرية عواناً تجاه اكسيوم في طرف بلاد اليونان الغربي دارت الدوائر فيها علي انطونيوس وفرَّ بمعشوقته قلوبطرة إلى اسكندرية. وتتبّعه اكتاف ورأى انطونيوس أنَّ لا مناص له من المنية فانتحر سنة ٣١ ق م. أما قلوبطرة فأفرغت جعبة دهائها وتدللها وتبهرجها لتقتنص قلب اكتاف كما استغوت واستهوت انطونيوس وقيصر. فصادفت جلمود صخرٍ يرد أسهمها عليها فيئست وأماتت نفسها. قالوا جئ إليها بحية ضمن سلَّة تين وقدمت ذراعها إليها فلدغتها وقضت. وقيل دسَّت السمّ في جسمها بابرة والأمثل أن يقال أنها انتحرت، ولا يُعلم بأية وسيلة. فأخذ اكتاف اسكندرية وجعل مصر اقليماً رومانياً. وعاد إلى روما سنة ٢٩ ق.م ظافراً فسماه رجال الندوة أمير الشورى وامبراطوراً أي عاهلاً واغوسطوس أي سعيداً. وابتدأت به الحكومة الملكية سنة ٢٧ ق.م ويسمى غايوس يوليوس قيصر اكتاف اغوسطوس وهو ابن أخت يوليوس قيصر المار ذكره والذي ربّاه ابناً له وإليك صورته عن تمثال في متحف اللوفر في باريس.



عد ٤٦٧

الولاة الرومانيون على سورية إلى مولد المخلّص

قد مرّ أنّ الرومانيين استحوذوا على سورية سنة ٦٤ ق.م وإليك الآن اسماء الولاة الذين أقاموهم عليها إلى مولد المخلّص ملخصاً عن إحدى المقالات المعلقة على معجم الكتاب لكلمت في طبعة الأب مين عن الكتاب الموسوم بصناعة تحقيق التواريخ.

إنّ بمبايوس بعد أن استولى على سورية ودانت له اليهودية أخذ الملك ارسطوبولس الثاني إلى روما وأقام في رياسة الكهنوت هركان. وجعل مرقس اميليوس سكاوروس والياً على سورية سنة ٦٣ ق.م. واقام في دمشق يولي ويعزل الحكام في سورية كما يعنّ له. وروى يوسيفوس (في تواريخ اليهود ك ١٤ فصل ٢ و ٣) إنه ولّى ارسطوبولس على اليهودية. وقد عثر رنان على صفيحة من رخام في صور أُقيمت تكرمة لمرقس اميليوس سكاوروس هذا يعظمونه فيها بألقاب غير مألوفة تملقاً له. وقال رنان: إنّ هذا الأثر كُتب سنة ٦٠ ق.م وعن فرهنر أنه كُتب سنة ٥٩ ق.م وروى استرابون (ك ١٦ فصل ٢) إنّ الصوريين شروا من الرومانيين في بدء ملكهم في سورية حق بقائهم على تدبير شؤونهم بأنفسهم فباعهم سكاوروس إياه. وقد أقام في سورية أربع سنين ثم خلفه لوشيوس فيلبوس سنة ٥٩ ق.م ولم يقم على ولاية سورية إلّا سنة واحدة وخلفه سنة ٥٨ ق.م كورنيليوس مرسيلينوس على أنه دُعي في السنة التالية إلى روما. وأُقيم مكانه اولوس كابينيوس سنة ٥٧ ق.م ولم تكن ولايته إلّا ثلاث سنين. وكانت له حروب مع اليهود كما مرّ في عد ٤٦٣، وخلفه سنة ٩٤ ق.م مرقس كراسوس وهو الذي انتهب الهيكل كما مرّ في العدد المذكور فقتله البرتيون سنة ٥٣ ق.م وأُقيم مكانه غايس لونجينوس. ولم تدم ولايته إلّا سنتين واستُبدل بمرقس بيبولس. فبلغ سورية في بدء الخريف سنة ٥١ ق.م فأقام سنة ونصب مكانه ميتالّوس سيبيون ولم يبقَ في الولاية إلّا إلى شهر آب سنة ٤٩ ق.م وانحاز حينئذٍ أهل سورية إلى محازبه يوليوس قيصر. فأرسل إلى سورية أحد ذوي قرباه المسمى سيستوس قيصر سنة ٤٧ ق.م على أنّ شيشيليوس باسوس أحد محازبي بمبايوس قتله واستتبّت له ولاية سورية سنة ٤٦ ق.م. فنصب يوليوس قيصر غايوس باتس والياً على سورية سنة ٤٥ ق.م وحارب باسوس وأخذ

الولاية منه سنة ٤٤ ق.م ثم خلف باتس استاسيوس مرقس فتخلّى عن الولاية لغايوس كاسيوس أحد رؤساء المؤامرة على يوليوس قيصر. وفي سنة ٤٣ ق.م أرسل مرقس انطونيوس بوبليوس دي لابلاًّ والياً إلى سورية فقبله أهل اللاذقية في شهر أيار، على أنَّ غايوس كاسيوس أخذ اللاذقية بُعيد ذلك وقتل دي لابلاًّ.

وفي سنة ٤٢ ق.م استحوذ مرقس انطونيوس على آسيا كلها وسورية بعد وقعة في مدينة فيليبة في مكدونية، وظفره ببروتس وكاسيوس قاتلي يوليوس قيصر. وولّى على سورية سنة ٤١ ق.م بوبليوس سكسا أحد قادته فاستظهر عليه البرتيون سنة ٤٠ ق.م واستحوذوا على سورية. واتصلوا إلى أورشليم وأقاموا انتيكون بن ارسطوبولس والياً على اليهودية سنة ٤٠ ق.م، لكن بوبليوس باسوس طرد البرتيين من سورية وولي هذه البلاد سنة ٣٩. وفي سنة ٣٨ ق.م وُليَّ عليها اغايوس سوسيوس واستمرَّ على هذه الولاية إلى سنة ٣٤ ق.م حين دُعيَ إلى روما، وأُقيم في مكانه لوشيوس بلانكس وخلفه لوشيوس بيلبوس. ولا يُعلم كم استمر عليها والمعلوم أنه أدركته الوفاة سنة ٣٢ أو بداية ٣١ ق.م وفي هذه السنة وُليَّ سورية كونيتوس ديديوس وكان من محازبي اكتاف اغوسطوس قبل موت مرقس انطونيوس. وخلفه سنة ٣٠ ق.م مرقس مسّالا قُبيل أخذ اغوسطوس اسكندرية وخلفه في سنة ٢٩ ق.م مرقس شيشرون بن شيشرون الخطيب واستمر ثلاث سنين وخلفه في سنة ٢٦ فارون. وفي سنة ٢٣ ق.م سُميَ اغريبا والياً على سورية ومدبراً لسائر الأقاليم الشرقية، لكن اغريبا بقي في مَتَلان وأرسل إلى سورية من ينوب عنه فدبَّر شؤون سورية سبع سنين. وفي سنة ١٦ ق.م أتى اغريبا إلى سورية واستمرَّ فيها إلى سنة ١٢ ق.م ثم دُعيَ إلى روما وخلفه في سورية سنتيوس ساتورنينوس وطيطس فولنميوس. وفي سنة ٦ ق.م جعلهما اغوسطوس قاضيين في دعوى هيرودس على ابنَيه اسكندر وارسطوبولس. وفي سنة ٥ ق.م وُليَ اكونتيليوس فاروس. وحُكم على انتيباتر ابن هيرودس بالموت بدعوى أبيه وخلفه سنة ٥ بعد الميلاد بمقتضى التاريخ العامي[1] ساتورنينوس ولم يلِ سورية

(١) وهو التاريخ الذي بدؤه سنة مولد المخلص على ان هذا التاريخ يبتدئ حقيقة من السنة الرابعة بعد المولد وجعل بعضهم بدءه من السنة الخامسة او السادسة بعده وذلك ان تاريخ المولد لم يبدأ في استعماله إلّا في القرن السادس وبدئ به من السنة الرابعة بعدة أخطاء ولما كشف عن الخطأ فضلوا اتباع الخطأ المطروق على اتباع الصواب المهجور فكان كذلك إلى اليوم.

إلّا سنة وخلفه فيها سنة ٦ بعد الميلاد سولبيسيوس قورينوس بسورية وهو الذي جاء ذكره في بشارة لوقا (فصل ٢ عد ٢) بقوله: «وهذه كانت الكتابة الأولى في ولاية قورينوس بسورية». إنَّ الذي نصَّ عليه المؤرخون القدماء إنما هو أنَّ قورينوس وليَ سورية في السنة السادسة والثلاثين لاغوسطوس وهي توافق سنة ٦ بعد الميلاد. ولوقا يقول إنَّ هذه الكتابة حملت يوسف ومريم أن يأتيا من الناصرة إلى بيت لحم ليكتب اسمه هناك لأنه كان من بيت داود وقبيلته. فولدت المخلِّص فتذرَّع الجاحدون بهذه الآية لتخطئة لوقا البشير بما كتبه فيها. وذهب الآباء والعلماء الكاثوليكيون مذاهب عديدة في توفيق قول البشير على أقوال المؤرخين. فمن قائل إنَّ تحرير الآية في اليونانية «وقد كانت هذه الكتابة قبل (لا الأولى) ولاية قورينوس بسورية». ومن قائل أنَّ قورينوس لم يكن حينئذٍ والياً في سورية بل كان مفوضاً من قبل اغوسطوس قيصر في اجراء هذا الاكتتاب. ويقرب من هذا القول من قالوا إنَّ كلمة ولاية في اليونانية بهذه الآية ليس مدلولها الولاية بل هي بمعنى قصادة أو سفارة أو تفويض أو غير ذلك. على أنَّ الاكتشافات الحديثة قد جلت غياهب اللبس عن وجه الحقيقة حتى لم يعد محل للارتياب فيها. فقد كُشف في البندقية سنة ١٨٨٠ م عن صفيحة كانت على مدفن رجل اسم كونيتوس بالاتينوس وامرأته اسمها كيا. وكان هذاالمدفن في بيروت ولا يُعلم متى نُقلت منها إلى البندقية هذه الصفيحة التي تبيِّن أنَّ بالاتينوس أتمَّ بأمر قورينوس إحصاء أهل مدينة أباميا (قلعة المضيق في جوار حماه). وأوضح وأهمّ مما ورد في هذه الصفيحة ما جاء في صفيحة وُجدت سنة ١٧٦٤ م في تيفولي في ضواحي روما، وهي الآن في متحف لاتران. واليك ملخَّص ما كُتب عليها: «سلبيسوس قورينوس بن بيليوس قد وُليَ وهو في المقام القنصلي اكريت وسيرانيك. وكان والياً من قبل اغوسطوس في أعمال سورية وفينيقية وحارب عشيرة الهومانيين (في جبل طورس). وقتل ملكهم انيتاس وأخضع هذه العشيرة لسلطة اغوسطوس والشعب الروماني وقدَّم رجال الندوة للآلهة الغير المائتين ضحيتين شكراً لما أولوه إياه من الظفر. وأمر أن يوشَّح بحلل الانتصار ووُلي على اقليم آسيا وهو في مقام نائب قنصل. ووُليَ المرة الثانية على اقليم سورية وفينيقية من قبل اغوسطوس». والمتحصل من ذلك أنَّ قورينوس كان والياً المدة الأولى في سورية في سنة مولد المخلِّص كما قال لوقا

البشير. ثم عاد إلى هذه الولاية مرة أخرى في السنة السادسة بعده كما ذكره المؤرخون، وقد ذكروا أيضاً أنَّ إحصاء النفوس والأملاك حصل في تلك المدَّات ثلاث مرات.

عد ٤٦٨

قتل هيرودس ارسطوبولس وشكواه إلى مرقس انطونيوس

مرَّ في عد ٤٦٤ أنَّ الندوة الرومانية أقامت بامداد مرقس انطونيوس هيرودس ملكاً على اليهودية سنة ٣٩ ق.م والأكثرون على أنَّ ذلك كان سنة ٣٧. وذكرنا هناك الحرب التي كانت بين هيرودس وانتيكون بن ارسطوبولس من أسرة المكابيين. فنستقرئ الآن أخبار الرومانيين وهيرودس في مدة ملكه. إنَّ هيرودس كان يخشى أن يقيم في رياسة الكهنوت رجلاً من سلالة ملوكهم لئلا ينازعه الملك. فاستأتى من بابل رجلاً اسمه حنانيل فأقامه فيها وشقّ على اسكندرة حماة هيرودس أم مريمنا امرأته أن يبعد ابنها عن الرياسة. فلجأت إلى قلوبطرة معشوقة مرقس انطونيوس لتستعطفه ليأمر بأن يولي ابنها ارسطوبولس رياسة الكهنوت. فأمر مرقس انطونيوس هيرودس بذلك فاستاء هيرودس لكنه أذعن للأمر تفادياً من اسخاط انطونيوس واسكندرة حماته ومريمنا زوجه. وبقي واجساً من هذا الأمر وحظَّر على اسكندرة أن تخرج من قصرها أو تكاتب أحداً فضاق ذرعها عن تحمُّل هذا التضييق عليها. وكتبت إلى قلوبطرة تستعطفها فأجابتها الملكة أن تفرغ جهدها لتفرّ بابنها إلى مصر. فحاولت الفرار ولكن كُشف أمرها لهيرودس وخشي عاقبة فرارها فتظاهر بالمجاملة لها وأضمر أن يهلك ارسطوبولس إلى أن أهلكه غريقاً في الماء بواسطة بعض محازبيه. فقد دعت اسكندرة هيرودس إلى مأدبة في أريحا فلبَّى دعوتها واستصحب بعض شبان أغروا ارسطوبولس أن يستحم معهم في الأردن لشدَّة الحرّ. وطاوعهم فغرَّقوه واحتجوا أنهم لم يتعمَّدوا هذه الجريمة الفظيعة فعزَّ العزاء على أمه وأخته وسكان أورشليم. وكانت أمه تعلم مكيدة هيرودس على إهلاك ابنها ولا تجسر أن تبوح بها وعظَّم هيرودس الاحتفاء بدفنه، وأكثر من الأسف عليه تبرئة لساحته من إهلاكه.

وكتبت اسكندرة إلى قلوبطرة تبثّ غدر هيرودس بابنها فأفرغت قلوبطرة

قصارى جهدها لتبعث انطونيوس على مواخذة هيرودس بهذه الجريمة الفظيعة. وكان انطونيوس في قيليقية فأتى اللاذقية واستدعى هيرودس إليه فأتى مرتعداً. وأقام على تدبير المملكة يوسف صهره زوج أخته وأسرَّ إليه أن يقتل مريمنا إذا قتله انطونيوس، إذ لا يطيق أن تكون لغيره بعده. وأشاع أعداء هيرودس أنَّ انطونيوس قتله فحضت اسكندرة يوسف أن يخرج معها ومع مريمنا ليضعوا أنفسهم تحت حماية قائد الجيش الروماني. ولكن ما لبث أن وردت رسالة من هيرودس يقول بها أنه بلغ سالماً إلى انطونيوس وطيَّب نفسه بالهدايا التي أهداها إليه وأنه لا خوف من دهاء قلوبطرة. فرغبت اسكندرة ومريمنا عن الالتجاء إلى الرومانيين. ولدى عود هيرودس بثت إليه أخته وأمه ما كان من حماته وامرأته، وقالتا أنَّ يوسف كان يتعاطى مع مريمنا بدالة مفرطة. فسألها هيرودس عن هذا فأنكرته وأقسمت على أنَّ قلبها لم يمل إلى غيره فصدقها وهشَّ لها. وكان يوسف باح إليها بسر هيرودس أن يقتلها إن قتله انطونيوس. ففرطت منها كلمة عتاب تدلُّ على ذلك فنفر هيرودس منها واستشاط غيظاً قائلاً إنه يستحيل أن يبيحها يوسف هذا السر إن لم تكن سلَّمت إليه نفسها. وأرسل فقتل يوسف وألقى اسكندرة في السجن بما أنها علَّة كل هذه الشرور (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٥ فصل ٢ إلى ٥). وكان مقتل ارسطوبولس وهذه الأحداث نحو سنة ٣٢ ق.م.

عد ٤٦٩
محاربة هيرودس العرب وتزلُّفه إلى اغوسطوس

بينما كانت هذه الأحداث في اليهودية إذ انتشبت الحرب بين اكتاف اغوسطوس ومرقس انطونيوس لتقضي لمن يكون ملك الرومانيين منهما. وقد مرَّ أنَّ انطونيوس هو الذي سمى هيرودس ملكاً. وعفا عنه بعد موت ارسطوبولس فألَّب هيرودس جيشاً كثيفاً. واعدَّ عُدداً وفيرة ليمضي لنجدة انطونيوس. وعلم انطونيوس بذلك فمنعه عن الاتيان لنجدته. ورغب إليه أن يزحف بجيشه وعُدده إلى العرب. فدخل العربية والتقاه العرب وانتشب القتال فاستظهر اليهود ولكن لمَّ العرب شعث جيشهم، وجمعوا جيشاً آخر وأتوا فحلّوا في قانا (في عبر الأردن لا قانا الجليل).

واستظهروا على هيرودس لنجدة عسكر قلوبطرة لهم لشدة بغضها لهيرودس لكنه استأنف القتال في عبر الأردن فانتصر عليهم بعد قتال شديد. وقتل منهم خمسة آلاف وحاصر بعضهم في حصن مانعاً عنهم الزاد والماء، فأكرهوا أن يستسلموا إلى هيرودس بحيث يتركهم يمضون في سبيلهم. فلم يصغِ إلى رسلهم ولم يقبل الفضة التي قدَّموها له. فحملهم الضيق على الخروج لقتاله فقتل سبعة آلاف منهم ودان له العرب واتخذوه محامياً لهم.

قد عاد هيرودس من بلاد العرب معتزاً متفاخراً فبلغته أخبار انتصار اغوسطوس على انطونيوس في وقيعة اكسيوم. فذهبت بعزه وسروره وخشي وأصحابه أنَّ صداقته مع انطونيوس ستبعث اغوسطوس على خلعه من منصبه وقتله، فاغتم أصدقاؤه وشمت مبغضوه. وكان هركان قد بقي وحده من سلالة ملوك اليهود فعزم هيرودس أن يميته لئلا يوليه اغوسطوس على فلسطين. وكانت اسكندرة ابنته حماة هيرودس ضاقت ذرعاً عن تحمُّل اضطهاد هيرودس. فحملت أباها هركان أن يكتب إلى أمير العرب المسمى ملكاً يطلب حمايته وأن يمكّنه من الذهاب إليه. ولم تنفك عن الالحاح عليه إلى أن كتب إلى الأمير ما اقترحت عليه طالباً منه أن يُرسل بعض فرسانه ليصحبوه إليه وعهد بابلاغ هذه الرسالة إلى رجل اسمه دوزيتاوس من أعداء هيرودس الألداء لأنه كان أخا يوسف الذي قتله. وكان انطونيوس قتل أخوَين آخرَين له في صور فانتهز الرجل هذه الفرصة ليسترضي هيرودس عنه. فأطلعه على رسالة هركان ورغب إليه هيرودس أن يبلّغ الرسالة إلى أمير العرب، ويطلعه على جوابه بعد عوده ففعل دوزيتاوس ما أمره به، وكتب الأمير إلى هركان أنه يقبله بالترحاب مع كل اليهود محازبيه. فأخذ هيرودس هذه الرسالة واستدعى هركان إلى ندوة مشورته وأطلعه على الرسالة وأمر بقتله. كذا يقصّ هيرودس نفسه هذه القصة. وقال غيره إنَّ قتل هركان لم يكن بهذه الذريعة التي اخترعها هيرودس تبرئةً لنفسه. وكان هركان أقام تسع سنين في رياسة الكهنوت ثم خلف اسكندرة في الملك ولم يبقَ فيه حينئذٍ إلَّا ثلاثة أشهر.

وانتزعه ارسطوبولس أخوه ثم ردَّه بمبايوس إليه فأقام على منصَّة الملك أربعين سنة وحطَّه عنها انتيكون. وأخذه البرتيون أسيراً ثم خلَّى ملكهم سبيله فعاد إلى اليهودية إلى أن قتله هيرودس وقد جاوز الثمانين من عمره.

وبعد أن استراح هيرودس من هركان همَّ بالانطلاق إلى اغوسطوس جازعاً من أن يقتصّ منه لصداقته مع مرقس انطونيوس، ومن أن تنتهز اسكندرة الفرصة فتثير الشعب عليه. وعهد بتدبير مهام الملك إلى فيروراس أخيه وإلى أمه وأخته صالومي. وأوصى أخاه أن يلي الملك إذا حبط مسعاه لدى اغوسطوس. وجعل مريمنا زوجه وأمها اسكندرة في حصن وأقام رقباء عليهما. وانطلق إلى رودس حيث كان اغوسطوس فانتزع التاج عن رأسه قبل أن يدخل عليه، ولم يخاطبه بالتذلل إليه أو بإيراد أعذار غير صحيحة بل قال إنه كان مخلصاً لانطونيوس ويحب أن يبذل قصارى جدّه في أن يحفظ الملك له ولو لم يكن متشاغلاً بحربه مع العرب لضمَّ جيشه إلى جيش انطونيوس مدافعاً معه، وأنه أرسل إليه ازودة ومالاً. وكان يودّ لو أمكنه أن يعاونه بأكثر من ذلك لأنه كان متأهباً أن يفدي صديقه المحسن إليه بماله وجهاده بل بحياته أيضاً، حتى لا يستطيع أحد أن يلومه على تركه إياه قبل يوم اكسيوم.

وقال: «لما رأيت نفسي لم أتمكن من إسعافه بجنودي وكفاحي معه أشرت عليه مشورة أن يقتل قلوبطرة ويأخذ ملكها. ويتفق مع جلالتكم. ولو عمل بمشورتي لاتّقى الفشل لكنه نبذها فكان ذلك وبالاً عليه وحظاً لكم، وإن جعلكم بغضكم له تقتصون مني فلا أتوقف عن الاقرار بحبي له ولا شيء يصدني عن التصريح بذلك علانية. وأما إذا أغضضتم النظر عن الماضي وقدرتم حفظ ذمامي للمحسن إليَّ حق قدره فيتيسر لي أن أبدل اسم انطونيوس باغوسطوس. وأخلص لكم طاعتي وأجعل نفسي أهلاً لخدمتكم ولمدحكم لي عليها». فأعجب اغوسطوس كلام هيرودس الدال على عزّة نفسه وعلى محاشاته النذالة والتذلل. فأمر أن يأتوا إليه بتاجه وجامله وأكرم مثواه واستصحبه معه إلى مصر.

ولما مرَّ اغوسطوس بسورية بالغ هيرودس في الاحتفاء به في عكا، ودفع له مبلغاً جسيماً من المال وأكرم جنوده وأهدى إليه وإلى حاشيته هدايا نفيسة، ولم يبقِ على شيء يعود عليهم بالراحة وتطييب قلوبهم حتى دُهش الرومانيون من سخائه وتيقُّظه لكل ما يتمنون ويحبون (يوسيفوس ك ١٥ فصل ٦ و ٨ و ٩ و ٢٠).

عد ٤٧٠

قتل هيرودس مريمنا امرأته واسكندرة أمها

لم يهنأ هيرودس باستمالة اغوسطوس إليه بل نكَّد عيشه قلق آله وسخط مريمنا واسكندرة أمها عليه. فإنَّ هاتين الأميرتين أيقنتا أنَّ وضعهما في حصن عند ذهابه إلى اغوسطوس لم يكن إلَّا سجناً لهما، فلم تهشّ مريمنا للقائه لاعتقادها أنَّ ما يبديه لها من الحب لم يكن إلَّا مراياة يظنها نافعة له في أعماله. وكانت تتذكر ما أمر به يوسف صهره أن يقتلها إذا قتله مرقس انطونيوس. وكان أكبر رغائب هيرودس بعد عوده أن يرى مريمنا ويقصّ عليها ما وُفق إليه. على أنها عند استماع كلامه لم تكن تبش له، وكانت تتنفس الصعداء حتى أيقن أنَّ كلامه مدعاة لحزنها لا لسرورها. فاضطرب وتنازعه عاملان محبته لها ورؤيته حزنها لنجاحه. ولما رأته أمه وأخته صالومي قلقاً وكانتا تمقتان مريمنا لم تبقيا على تهمة تتهمانها بها لتزيداه حنقاً عليها. ولولا أنه نُبئ أنَّ اغوسطوس استحوذ على مصر وانطونيوس وقلوبطرة انتحرا لقتلها ثم مضى إلى مصر. ورحَّب به اغوسطوس وأولاه الأمر على أربع مئة رجل من الغال كانوا حرساً لقلوبطرة وردَّ عليه ما كان انطونيوس قد سلَّمه إليها من مدن اليهودية. وولاَّه على غزة ويافا وغيرهما فعاد منشرح الصدر لكنه لم يبلغ أورشليم إلَّا التقته أشجانه ونكده من قِبل امرأته وأمها. واعتزل يوماً في مخدعه ورغب أن تحضر مريمنا فحضرت لكنها أخذت تونبه على قتل أبيها وأخيها. وأتبعت ذلك بكلام بعثه على أن يضربها وعلمت أخته صالومي بما كان فوضعت على الجرح ملحاً، وألقت على النار زيتاً. فاستدعى رجال ثقته ليحاكم الملكة واتهمها بأنها حاولت أن تدُّس له سماً فانقاد إلى رغبته ذووه. وحكموا على الملكة البريئة بالموت. ولم يكن هيرودس وأصحابه يرغبون في تعجيل تنفيذ الحكم بل رأوا أن تُسجن في مخدع القصر. فدرت صالومي بما كان فأتت أخاها هيرودس تكثر اقامة الحجج على تعجيل موتها، ومن جملة حججها أنَّ الشعب إذا علم ما كان وأنّها حيَّة ثار على الملك، فالأولى تنفيذ الحكم دون تأجيل. وعمل برأيها فأبدت مريمنا آيات الشجاعة والبسالة عند موتها فلم تخشَ الموت ولم يتبدَّل لونها ولا ذرفت دمعة من عينيها.

أما اسكندرة أمها فأبدت الوغادة والسفل لدى هذا المصاب وتناست أنَّ حظها

سيكون شراً من حظ ابنتها التي كانت تلومها وتوجب الذنب عليها، وتزعم أنها لم تقدِّر محبة الملك لها قدرها. وأما هيرودس فكان أسفه لموتها موازياً لحبه لها في حياتها حتى أوصلته الكآبة إلى نوع من الجنون. وكان ذووه يسمعونه في كل ساعة يناديها باسمها ويبدي من الشكوى ما لا يليق بملك، ولم تكن الملاهي تلهيه عن فقدها. وكان يأمر خدمه ليدعوا مريمنا كأنها حيَّة وأغفل تدبير أمور المللكة. وحدث وباء حينئذٍ أهلك كثيراً من شعبه وذويه واعتبر الناس هذا الوباء نقمة من الله لقتل الملكة البريئة فضاعف ذلك حزن هيرودس وتوغَّل في البرية بحجَّة الصيد وكانت مناخس ضميره تعذبه حتى أُصيب بمرض يئس الأطباء من شفائه. فعاودت الحمية حينئذٍ اسكندرة واستحوذت على قلعتين في أورشليم إلى أن أخذ هيرودس يبل من مرض جسمه. واستمرت قواه العقلية مشوَّشة فأرسل جنوداً قتلوا اسكندرة ولم يكن يبقى على أقرب المقربين إليه، بل قتل منهم كستوبار ولبسيماكوس وانتيباتر ودوزيتاوس المار ذكره وكثيرين غيرهم (يوسيفوس ك ١٥ فصل ١١).

عد ٤٧١

الأبنية التي أنشأها هيرودس وبعض حسناته

إنَّ هيرودس حباً بأن يسترضي اغوسطوس عنه جدّد بناء السامرة وسماها سبسطيه وتأويلها السعيدة في اليونانية مرادفة لكلمة اغوسطوس في اللاتينية ومعناها السعيد. وبنى أيضاً مدينة في محل كان يسمى برج ستراتون وسماها قيصرية نسبةً إليه وموقع قيصرية هذه بين يافا وحيفا في جنوبي الكرمل. وهي غير قيصرية فيلبوس الواقعة في قضاء مرج عيون. ثم أحاط أورشليم بأسوار وبنى قصراً في خارج هذه المدينة في المحل الذي انتصر فيه على اليهود عند محاربته انتيكون كما مرَّ. وروى يوسيفوس (ك ١٥ في تاريخ اليهود فصل ١٤) إنَّ هيرودس نقض هيكل أورشليم الذي كان قد بناه زربابل وبنى هيكلاً حديثاً أعظم وأجمل وأكبر من الهيكل القديم. على أنَّ بعض العلماء تعقبوا مقال يوسيفوس هذا وخطّأوه به. ومنهم الأب هردوين اليسوعي ونطايس اسكندر في تاريخ الحقبة السادسة قبل المسيح في أخبار اليهود (فصل ٢) حيث قال ليس من يقيم نكيراً على أنَّ هيرودس زاد شيئاً على هيكل أورشليم وجمَّله برواقين في جوانبه لكنه لم ينقض الهيكل

القديم ويبنِ هيكلاً حديثاً. وقال إنّ لبعض العلماء في تخطئة يوسيفوس ثلاث حجج الأولى أنَّ هيرودس لم يكن مستقلاً في ولايته بل خاضعاً لولاية الرومانيين. وقد اضطرّ إلى نفقات كبيرة لارضائهم وقد كان بنى قيصرية وسبسطية وأقام فيها هياكل تكرمة لقيصر. وأحاط أورشليم بأسوار وبنى فيها ملاعب إلى غير ذلك من أبنيته ونفقاته. وكان انطونيوس أعطى قلوبطرة أخصب أماكن اليهودية فافترضت عليها مئتي وزنة تُنقد إليها كل سنة وقد كان هيرودس دفع إلى اغوسطوس ثماني مئة وزنة. وبالغ في النفقات على حاشيته وجنوده فمن أين له أن يبني الهيكل كما وصفه يوسيفوس. والحجّة الثانية تؤخذ من نبوّة حجاى حيث قال (فصل ٢ عد ٧).

«هكذا قال رب الجنود إني أزلزل السماء والأرض والبحر واليبس مرة بعد عن قليل. وأزلزل جميع الأمم ويأتي متمنى جميع الأمم (أي المسيح) فاملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود... وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من الأول وفي هذا الموضع أعطي السلام». فالواضح من هذه الآية أنَّ حجاي يريد في البيت الأخير الهيكل الذي بناه زربابل، ويقول إنَّ هذا البيت نفسه يكون أعظم من البيت الأول أي هيكل سليمان لأنَّ المسيح متمنى الأمم يدخل إليه ويقدّسه بنفسه ويملأه مجداً. فإذاً الهيكل الذي كان في أيام المخلّص إنما هو هيكل زربابل لا أنَّ هيرودس نقض ذلك الهيكل وبنى هيكلاً جديداً. والحجّة الثالثة هي إنه ورد في بشارة يوحنا (فصل ٢ عد ٢٠) إنَّ اليهود قالوا للمخلّص: «إنّه في ست وأربعين سنة [١] بني هذا الهيكل فكيف تقيمه أنت في ثلاثة أيام»؟ وهيرودس أخذ في بناء الهيكل سنة ١٩ أو سنة ١٨ ق.م وأكمله في مدة تسع سنوات ونصف على ما قال يوسيفوس فلا يصدق كلامهم على هيكل هيرودس.

على أنَّ العلماء الذين صدقوا مقال يوسيفوس قالوا: كيف يمكنه أن يكتب هذا الخبر الكاذب وهو أفقه أمّته في ذلك العصر. ومن أجل كهنتها ولم يكن مضى على ما أخبر به سنون متطاولة. وكيف يعرّض نفسه لتكذيب اليهود له في أمر بيّن ومهم ولا يفوت ذكر الشيوخ منهم ويشق عليهم أن يعزو إلى هيرودس

---

(١) إنّ بعض الآباء يحسبون سنة تجديد زربابل الهيكل السنة الاولى من ملك كورش على الفرس إلى السنة السادسة لملك دارا ايستاسب وهذه المدة ست وأربعون سنة. وكذا حسبها اليهود مع أن تجديد الهيكل لم يكن إلّا بعد أن أخذ كورش بابل وضمها إلى مملكة الفرس.

الظالم ما بناه آباؤهم. كذا قال ريبيرا أحد هؤلاء العلماء في تفسيره الفصل الثاني من نبوّة حجاى. وتأوّلوا الآية الواردة في بشارة يوحنا بمعنى يؤيّد مذهبهم فقالوا إنَّ هيرودس أخذ في إعداد ما يلزم لبناء الهيكل سنة ١٨ ق.م ولم يأخذ في البناء إلَّا سنة ١٦. واليهود قالوا للمخلّص هذا الكلام سنة ٣٠ لميلاده فهذه هي الست والأربعون سنة وقد كمل بناء الهيكل في تسع سنين كما قال يوسيفوس. ولكن لم تكمل زينته وزخرفته في أيام هيرودس وخلفائه إلَّا بعد سنين عديدة عددها حينئذٍ ست وأبعون سنة على أنَّ سليانوس (مجلد ٦ من تاريخه في سنة ٢٩ ق م) ردَّ برهان ريبيرا قائلاً إنه عندما كتب يوسيفوس هذا الكلام لم يكن بقي شاهد حيّ من اليهود حينئذٍ يؤنب يوسيفوس على خطئه لأنه كتب كتابه تاريخ اليهود في أيام دومطيانوس. وهذا رُقي إلى سدَّة الملك في السنة الثمانين بعد المسيح على ما روى بارونيوس. فإن زدنا عليها الثماني عشرة سنة قبل المسيح عند بناء هيرودس الهيكل كانت جملة السنين ثماني وتسعين سنة فلا يبقى فيها حياً من شهد بناء هيرودس. ثم أنَّ يوسيفوس كتب في اليونانية ولم تكن عامتهم تفهمها وإن فهموها فلم يجسروا أن يؤنبوا يوسيفوس على خطئه، لأنه كان معززاً عند الملوك وقتئذٍ، وكانوا يكبحون أعداءه كما كتب في ترجمة نفسه التي دوَّنها بيده. والحاصل أنَّ أقوال العلماء في هذه المسألة متضاربة كما رأيت والذي يظهر لنا أنَّ قول من صدَّقوا يوسيفوس هو الأصوب والأمثل، وحجج من كذَّبوه غير قاطعة. فإن كان هيرودس بنى في نصف سني ملكه الأولى هياكل وملاعب. وقام بنفقات باهظة على الرومانيين فلا تعوزه في السنين الأخيرة لملكه النفقات اللازمة لبناء الهيكل. وقد كان ملكه استتبَّ له ووسعت تخومه ورد عليه ما غصبته قلوبطرة. وما استشهدوا به من نبوّة حجاي جُلّ ما يُراد به أنَّ الهيكل الذي يدخله المخلِّص يفوق هيكل سليمان شرفاً ومجداً، والست والأربعون سنة التي ذُكرت في بشارة يوحنا تصدق على هيكل هيرودس كما رأيت أكثر من هيكل زربابل الذي لا يقال أنه بُني في ست وأربعين سنة إلَّا خطأً كما رأيت هذا. وقد انتقد العلماء أقوالاً ليوسيفوس حمله على إيرادها رغبته في تعظيم شأن أمَّته أو انخداعه بتقليد غير صحيح مع تقادم العهد عليه أو اعتماده على أقوال غير محققة. وهنا لا وجه من كل هذه ليكتب الكذب في أمر قريب من عهده وفي موطنه ويحط من مجد آبائه الذين بنوا هيكل زربابل وإن لم يكن بقي من شهد بناء هيرودس الهيكل. فقد بقي

كثيرون ممن تلقوا خبر بنائه عن آبائهم فيؤاخذونه بكذبه. ومن حسنات هيرودس ما ذكره يوسيفوس (ك ١٥ فصل ١٢ من تاريخ اليهود) وهو أنَّ اليهودية أُصيبت بوباء ومجاعة شديدة لانقطاع المطر وعدم حراثة الأرض فمات بالوباء والمجاعة كثيرون. وأبدى هيرودس حينئذٍ عنايته بالبائسين فأشغل كثيراً من المحتاجين ببناء المدن والقلاع باذلاً لهم ما يسدّ حاجتهم. وسكَّ كلما كان عنده من الذهب والفضة وأرسله إلى مصر واستأتى تسعين ألف كرّ من الحنطة. فوزَّعها على ذوي الفاقة وأعطى الزارعين بزراً يبذرونه في أرضهم ولا يردّون عوضه إلَّا قدر ما أعطوه.

عد ٤٧٢

قتل هيرودس ابنيه اسكندر وارسطوبولس

كان لهيرودس من امرأته مريمنا التي قتلها كما مرّ ثلاثة بنون وهم اسكندر وارسطوبولس وهيرودس. أرسلهم إلى روما لاقتباس العلوم فمات هيرودس صغيرهم فيها. ومضى هيرودس إلى روما يزور اغوسطوس ويرى ابنيه فأكرم اغوسطوس مثواه وعاد بابنيه إلى اليهودية فرحَّب اليهود بهما. وأكثروا من الاحتفاء بلقياهما والسرور بهما. فشقَّ ذلك على صالومي أخت الملك وعلى كل من تسبب في قتل مريمنا أمهما وخشوا أن يرتقي الأميران إلى سدَّة الملك فيثأران منهم بدم والدتهما. وعزموا أن يكتادوهما كما اكتادوا أمهما وأشاعوا أنَّ الأميرين يمقتان أباهما ويريدان به سوءاً لقتله والدتهما. وبلغت هذه الإشاعة هيرودس فلم يعرها أولاً أذناً صاغية بل استمر يعاملهما كما يحبان. وزوَّج اسكندر بكلافيرة ابنة أرشيلاوس ملك الكبادوك. وأرسطوبولس ببرنيس ابنة أخته صالومي رجاء السلام في أسرته. على أنَّ هذا الزواج لم يخمد أوار حسد صالومي وفيروراس أخي هيرودس. ولم يكن الأميران يبديان الانعطاف إلى أبيهما لتذكرهما قتل والدتهما. وربما أباحا بسرهما إلى بعض من كانا يظنانهم أصدقاء لهم. ومضى هيرودس حينئذٍ إلى اغريبا في بلاد اليونان ولما عاد من سفره أخذت صالومي وفيروراس ينمان إليه أنَّ ابنيه قالا علانية إنه لا بدَّ لهما من أن يثأرا بدم أمهما. وإنهما يتخذان واسطة أرشيلاوس لدي اغوسطوس في الشكوى على أبيهما فأقلق هيرودس هذا الكلام. وعزم أن يستدعي ابنه انتيباتر البكر الذي كان أبعده عنه مع أمه دوريس ليكون مقاوماً لأخويه. فشقَّ على

الأميرين إيثار أخيهما انتيباتر عليهما. وظهر الخلاف بين الوالد وابنيه وكثرت الأقوال بأنَّ هيرودس سيجعل انتيباتر خليفة له وينفي اسكندر وارسطوبولس عن الملك. وكان انتيباتر أيضاً يبعث أباه على إذلال أخويه حتى أخذهما هيرودس إلى روما وشكاهما إلى اغوسطوس بأنهما حاولا قتله.

وأراد اغوسطوس أن يسمع هو بنفسه دعواهم فقال هيرودس رفقاً مولاي بأبٍ ألجأته الحال أن يشكو أمامكم ابنيه اللذين حملتهما الجسارة أن يبغضا أباهما ويحاولا إعدامه الحياة وإنه قد صبر طويلاً عليهما آملاً أن يعدلا عن سوء نيّتهما فعيل صبره، وأُكرِه أن يبوح بشرهما. وقال محتدماً أأستحقّ أن يعاملاني على هذا النحو فما يشتكيان مني؟ وإلى ما يسندان بغضهما لي؟ أما يحق لي أن أترك الملك الذي حزته باقتحام المخاطر وتحمُّل المشاق لمن رأيته من أبنائي أكثر أهلية له؟ أو ما جنيته على هذين العاقين. ألم أكسبهما العلم؟ أو ضننت عليهما بشئ مما يرغبه ابناء الملوك لا للحاجة فقط بل للعظمة؟ ألم أزوِّج أحدهما بابنة ارشيلاوس ملك الكبادوك؟ والآخر بابنة أختي وكان لي أن أعاقبهما بما إني أبوهما وبما إني ملك؟ ولكن أحببت أن آتيك بهما لأنك المحسن إلينا جميعاً لتكون حكماً بيني وبينهما ولا أسألك إلَّا أن تبكتهما وتردهما عن سوء سبيلهما ليتركاني أقضي براحة ما بقي لي من الحيوة.

وبينما كان هيرودس يفوه بهذا الكلام كانت أعين ابنيه تذرف الدموع ويمسكهما الاحترام لوالدهما عن مقاطعته في الحديث أو المجاوبة له، وخشيا أخيراً أن يعدّ صمتهما حجّة عليهما. فوقف اسكندر يبرئ نفسه وأخاه من شكوى أبيهما. فقال لأبيه حسبنا مولاي بينة على حنوك إلينا إنك أشخصتنا إلى هذا المقام السامي ولم ترد أن تعاقبنا بالسلطان الذي لك بما أنك ملك وبما أنك أب، فلولا أنَّ حياتنا عزيزة لديك لما أتيت بنا إلى روما ليكون العاهل أعزه الله قاضياً وشاهداً على موتنا. فما من يأتي بمجرم إلى الهياكل أو الأماكن المقدَّسة ليبسله فيها، والأولى بنا أن نموت أبرياء من أن نعيش وعلينا مظنَّة الاحتيال على إهلاك والدنا. ساعدنا الله على كشف الحقيقة لك لا لننجو من الموت بل لتوقن برأينا. وإن بقيت التهم التي تعتمد عليها ثابتة لديك كان الموت لنا خيراً من الحيوة. فشبيبتنا ومصابنا بفقد والدتنا توقع علينا الشبهة بأننا نريد بك سوءاً. لكنني أسألك أن تمعن النظر أجميع ابناء الملوك الذين لا أم لهم تصدق عليهم مثل هذه الشكوى؟ وهل يكفي

مجرد شبهة للحكم بجناية فظيعة كهذه؟ وإن لم تكفِ الشبهة أفما يحق لنا أن نطلب بيّنة تثبت هذه الشكوى المروعة؟ فهل من يقول أننا أعددنا سماً أو أتينا مكيدة أو أرشينا خادماً أو كتبنا رسالة؟ فقد بكينا أمنا ولكن لم تكن دموعنا لفقدها فقط بل لئلا يظنها أحد أضاعت شرفها. وأطال كلامه إلى أن ختمه بقوله إذا بقيت براءتنا غير ثابتة لديك فنحن نحكم على أنفسنا بالموت كيلا يكون من يشكوك بقتلنا. ومهما كانت الحيوة عزيزة فلا يعز علينا أن نفدي بها اعتبار من أولانا إياها.

وكان كلام اسكندر شديد الوقع في قلب اغوسطوس حتى أيقن براءة الأميرين وبطلان التهم الواردة عليهما، ودُهش من حكمة اسكندر واحتشامه في الردّ على دعوى أبيه. فسأل هيرودس أن يرضى عن ابنيه ولا يصغي إلى الساعين بهما ولا يصدّق مثل هذه الشكايات التي لا يقبلها العقل. وأشار إلى الأميرين أن يدنوا من ابيهما ويطلبا العفو منه فتقدما والدموع تذرف من عيونهما. فعانقهما هيرودس وبكى حتى اغرورقت أعين الحاضرين بالدموع وشكروا جميعاً لاغوسطوس وعادوا إلى اليهودية وكان ذلك لسنة ٧ ق م.

ولم ينكف انتيباتر عن السعاية بأخويه لدى أبيهم وكان يعزو إليهما أموراً لم يأتياها، ويتظاهر أمام أبيه بالمحبة لهما والمدافعة عنهما. وأمر هيرودس وزيره بتلمايس أن لا يصنع شيئاً دون أن يطلع عليه انتيباتر فعظم نفوذه أمام الشعب. وشقَّ على اسكندر وارسطوبولس وجاهة أخيهما عليهما واستاءت كلافيرة امرأة اسكندر من صالومي أخت هيرودس لسعايتها بزوجها ولتقديمها ابنتها امرأة ارسطوبولس عليها. وكان فيروراس أخو هيرودس ينفخ في نار هذا الانقسام حتى بعث هؤلاء هيرودس أن يقبض على ابنه اسكندر ويلقيه في السجن. فسمع ارشيلاوس ملك الكبادوك حموه ما جرى لصهره، فأتى إلى أورشليم وأصلح بين اسكندر وأبيه. وأقام مدة في أورشليم وعاد إلى مملكته فرافقه هيرودس إلى انطاكية ولكنه لم يلبث أن عاد حنقه على ابنيه اسكندر وارسطوبولس بسعاية أخته وأخيه وابنه. وكتب إلى اغوسطوس يشكوهما إليه، فأجابه اغوسطوس أن يستدعي قوماً من الحكماء والعقلاء ويجمعهم في بيروت. ويحاكم ابنيه على ما يدعيه عليهما من الجرائم الحديثة وأن يستدعي ارشيلاوس ملك الكبادوك أيضاً. فسُرَّ هيرودس برسالة اغوسطوس هذه وكتب إلى كل جهة يستدعي من أشار اغوسطوس بدعوتهم إلّا ارشيلاوس فلم يستدعه مخافة أن يعارضه بما ينويه. فاجتمع في بيروت نحوٌ من مئة وخمسين رجلاً منهم

ساتورنينوس وفولمنيوس واليا سورية. ولم يأتِ هيرودس بابنيه إلى بيروت بل تركهما في قرية اسمها بلاتان قريبة من صيدا. ودخل هيرودس دار الندوة وأخذ يشكو ابنيه بحدة وحنق كأنه أضاع رشده ويغري القضاة بأن يشكوا ابنيه معه، وأخذ يقرأ رسائلهما التي لم يكن فيها حقيقة ما يدل صراحة على تعمدهما الغدر به. بل جُلّ ما يتبيَّن منها أنهما حاولا الفرار من سجنهما وقال إنَّ الطبيعة واغوسطوس يخولانه السلطان على ابنيه وأنَّ في سنَّة أمَّته فقرة ناطقة بأنه إذا شكا أب أو أم أولادهما فليضعا أيديهما على رأس المشكو وعلى الحاضرين حينئذٍ أن يرجموه. وإنه كان له أن يقتل ابنيه دون محاكمة لكنه أراد أن يستطلع رأي هذه الجمعية الكبرى التي لم يستدعها لتقضي بل لتصادق على تصرفه العادل فيرتدع الابناء العاقون فيما بعد عن أن يحاولوا قتل آبائهم. ولما سمع المجتمعون هذا الكلام ولم يكن ابناء هيرودس هناك ليدافعا عن نفسيهما أيقن المجتمعون أنَّ لا أمل في الإصلاح. وأثبتوا له ما خوَّله اغوسطوس من السلطان أن يتصرَّف بابنيه كما يحب. وقال ساتورنينوس والي سورية إنه يرى أنَّ عقابهما لازم ولكن لا عقاب بالموت فإنَّ ذلك قسوة فظيعة من أبٍ تزيده فيما بعد حزناً على حزن. وأما فولمنيوس الوالي الآخر فارتأى الحكم عليهما بالموت. وتبعه غيره من المجتمعين الذين اختارهم هيرودس من أصحابه ومحازبيه. فانصرمت حبال الأمل في حياة الأميرين ومضى هيرودس للحال من بيروت إلى صيدا وأخذ ابنيه وسار إلى صور. وأرسلهما إلى سبسطية (أي السامرة) مع بعض جنده فقطعوا رأسيهما. وبلغ اغوسطوس ما عمل هيرودس فقال ذلك القول الشهير: «يستحب المرء أن يكون خنزيراً لهيرودس على أن يكون ابناً له». (يوسيفوس ك ١٦) . وكان ذلك في السنة الخامسة قبل الميلاد بحسب التاريخ العامي وفي السنة الأولى قبله حقيقة.

عد ٤٧٣
باقي مظالم هيرودس وموته

لم يكن قتل هيرودس ابنيه خاتمة مظالمه والنزاع في أسرته فقد كان أوصى أن يخلفه ابنه انتيباتر في الملك، ولم يطمئن انتيباتر إلى اثبات أبيه على وصيّته ما دام حياً. فتآمر سراً هو وفيروراس أخو هيرودس ليقتل أباه وافتضح له سرّهما. وشهد

كثيرون أنَّ ابنه حاول أن يدسّ له سماً. فكان ذلك كصاعقة انقضت على الملك الشيخ وبلغ به حنقه إلى نوع من الجنون. وكان انتيباتر حينئذٍ في روما ولما عاد قرّعه أبوه وغالظه. واستدعى كثيرين إلى ندوة رئيسها كونتيلوس فاروس الوالي الروماني وشكا ابنه انتيباتر بأنه تسبَّب في قتل أخويه. وحاول أن يغدر به فأنكر انتيباتر وأقام الحجَّة بأنه بريء من هذه التهم. وأخذ نقولا الدمشقي صديق هيرودس يستنطق الشهود فحكم على انتيباتر بالموت. وسأل هيرودس اغوسطوس أن يثبت الحكم على ابنه على أنَّ تراكم المصائب والأحزان على هيرودس أوقع به المرض. وحيرته في من يخلفه في الملك من أبنائه كانت تزيد مرضه. وبلغه أنَّ الفريسيين قد اشتركوا في المؤامرة عليه فقتل جمّاً غفيراً ممن ثبتت المؤامرة عليهم وأقام رقباء على الباقين، فأثار الفريسيون عليه شبان المكاتب وكان بين هؤلاء الفريسيين رجلان يهوذا ابن سيبوري ومتى بن مركلوت. وقد سمعا بأنَّ هيرودس يحتضر فبعثا شبان المكاتب فألقوا تمثال نسر من ذهب كان هيرودس أقامه على باب الهيكل. وكانوا يعتبرون ذلك تنجيساً للهيكل وعلم جنود هيرودس فقبضوا على أربعين شاباً من هؤلاء رئيسيهما المذكورين ولدى استنطاقهم أقروا دون خوف بما صنعوه. بل تباهوا به فسُئلوا من بعثكم على ذلك فأجابوا السنَّة بعثتنا عليه، فأمر هيرودس أن يحرقوهم أحياء.

وقد ورد له الجواب من أغوسطوس بأن يعاقب ابنه انتيباتر بما يشاء فخمد تشفيه أوجاعه قليلاً لكنها اشتدَّت عليه بعد هنيهة حتى سئم الحياة وأخذ مدية يطعن بها نفسه ليستريح من الحياة. فانتزع أحد أقاربه المدية من يده وتعاظم الولوال في القصر حتى سمعه انتيباتر وهو في سجنه، وطلب من السجّان أن يطلقه. ولما بلغ هيرودس أنَّ انتيباتر يأمل أن يحيا بعد أبيه أمر حرسه أن يقتلوه للحال فقتلوه قبل خمسة أيام من وفاة هيرودس. يوسيفوس (ك ١٧ في فصول متعددة).

وقد كان يسوع المسيح مخلِّص العالم وُلد في أوائل السنة الأخيرة من ملك هيرودس وعرف هيرودس بمولده من المجوس الذين وافوا من المشرق ليسجدوا له. فأمرهم أن يمضوا إلى بيت لحم وينقبوا عن الصبي وأن ينبئوه إذا وجدوه ليمضي فيسجد له، وتلك حيلة منه ليعلم محله فيقتله مخافة أن ينتزع الملك منه. ولما تحقق أنَّ المجوس سخروا منه ولم يعودوا إليه وتأكد ولادة المخلِّص من تقدمة أبويه له إلى الهيكل، أرسل جنوده إلى بيت لحم فقتلوا كل ذكر فيها من ابن سنتين فما دونهما

ونجا يسوع بإرشاد الملاك ليوسف أن يهرب به إلى مصر (متى فصل ٢ عد ١ وما يليه). وروى بارنيوس وغيره من المؤرخين أنه كان لهيرودس طفل في بيت لحم قُتل في جملة الأطفال الذين قتلهم جنوده. لكن تعقب نطايس اسكندر قول هؤلاء المؤرخين وردّه بحجج منها أنَّ هيرودس كان حينئذٍ في السبعين من سنيه فلا يقرب من الصواب أنه كان له ولد عمره أقلّ من سنتين. ومنها أنَّ يوسيفوس لم يأتِ بذكر قتل هذا الولد لهيرودس مع أنه ذكر قتل كل من قتلهم من أولاده، ومنها أنه لا وجه ليكون ابن لهيرودس في بيت لحم وهو مقيم في أورشليم. وهبّ أنه كان له ابن فيها فلا بد أن يكون وُلد في أورشليم فلا يقتله مخافة أن يأخذ ملكه لأنَّ الرؤساء حققوا له أنَّ المسيح يولد في بيت لحم.

وقد أبان لنا يوسيفوس (ك ١٧ من تاريخ اليهود فصل ٨) أعراض مرض هيرودس فقال إنه كان مصاباً بحمى شديدة محرقة في جوفه لا يشعر بها في ملمسه وكان يحس بجوع كلبي لا شيء يُشبعه. وأمعاؤه متقرحة يقاسي منها مغصاً أليماً ورجلاه متورمتان وخصيتاه مهترئتان ينتثر الدود منهما وأعصابه مأوَّفة لا يمكنه أن يتنفس إلَّا بوجع أليم. وتنبعث من فمه رائحة نتانة تمنع من الدنو منه حتى كان كل من رآه يقضي أنَّ الله عاقبه بهذه الأمراض والأوجاع جزاءً لمظالمه وسفكه الدماء الزكية. وكان آخر جوره واعتسافه أنه أرسل أوجه وجهاء اليهود إلى اريحا وأقام خفراء عليهم وأمر أخته صالومي وزوجها أن يقتلاهم فور موته لتلبس الأمَّة ثياب الحداد بدلاً من مطارف الحبور لموته. وأوصى بأن يكون ابنه ارشيلاوس خلفاً له وقضى هذا السفاك غير مأسوف عليه. وقبل أن يُذاع خبر موته طلقت أخته وزوجها أولئك الوجهاء في اريحا بأمر وقعت عليه بختمه. وعن يوسيفوس أنه ملك أربعاً وثلاثين سنة بعد أن طرد انتيكون من الملك وخمساً وثلاثين سنة بعد أن نصبه الرومانيون ملكاً على اليهودية، وأكثر المؤرخين على أنه ملك سبعاً وثلاثين سنة. وقد كشف ودينكتون ودي فكواي في سيع وهي إحدى قرى البثنية على هيكل كان في عصر هيرودس وسلالته وعلى عدة خطوط فيه منها خط (عد ٢٣٦٤) كتب فيه «أقام عيستوس (اوايستوس) سعودو تمثالاً للملك هيرودس مولاه». وقال ودينكتون في شرحه الأمر في أنَّ هيرودس الوارد ذكره في هذا الخط هو هيرودس الكبير إذ لم يملك غيره في البثنية ووليها بعده ابنه فيلبوس ثم اغريبا الأول والثاني. وكلمة مولاه مشعرة بأنَّ التمثال أُقيم له في حياته. ولعلَّ الجالية التي

أسكنها هيرودس في هذا المحل للمحافظة على طريق اللجا أقامت له هذا التمثال. وقد عللنا نفسنا بالأمل عند كشفنا عن هذا الخط أن نجد تمثالاً لهيرودس يبيّن هيئته فخاب أملنا إذ لقينا التمثال محطماً إلى كسر عديدة بأيدي بشرية فلم نشك في أنَّ المسيحيين الأولين حطموا هذا التمثال انتقاماً من هيرودس لقتله أطفال بيت لحم.

عد ٤٧٤

مولد المخلّص وسنّته

لما كان الانسان عصى ربه وانغمس البشر بأوحال المآثم وتاهوا في بيداء الضلال ولم تكن خليقة كفؤًا لاسترضاء الإله المتسخّط عليهم ولهدايتهم إلى الإيمان الصحيح وسواء السبيل. دعا الله حنوه ورأفته بهم أن يتّخذ كلمة الله أي ابنه أحد أقانيم ذات الإله الواحد الأحد جسداً بشرياً، ويصير انساناً كاملاً مستمراً إلهاً كاملاً، بنوع يفوق المدارك البشرية ويهدي الناس إلى طريق الحياة الخالدة. ويتحمّل مشاق هذه الحياة والآلام أيضاً، ليكفّر بنفسه عن آثامهم ويسترضي الله عنهم. وقد كان أوحى بهذا السر العجيب إلى الآباء القدماء والانبياء، فأكثروا من النبوات عليه. ووعد العالم بهذا المصلح والمخلص الإلهي حتى كان ينتظره كل من اعتقد الوحي، وآمن بتنزيل الله وقد خصَّ الله بهذا الشرف الباذخ سورية وطننا. فقد ولد في بيت لحم وتربّى في الناصرة وأكثر من الترداد إلى أورشليم وغيرها من أماكن فلسطين.

أمّا سنة مولده فمختلف فيها كل الاختلاف حتى جمع بعض العلماء نحو مئتي قول يخالف أحدهما الآخر في تعيين السنة التي ولد المخلّص بها بعد خلق الانسان الأوّل. فاقل هذه السنين ٣٤٨٣ سنة وأكثرها ٦٩٨٤ . وذكر العالم ريشيولي من هذه الأقوال سبعين قولاً. وذكر الأب تورنامين أشهرها فكانت ٩٢ قولاً. وجاء في الكتاب الموسوم بصناعة تحقيق تاريخ الأحداث التاريخية قبل التاريخ العامي مئة وثمانية أقوال. وأشهر هذه الأقوال ما يأتي.

فقال اليهود الحدثاء إنّه كان من خلق الانسان إلى التاريخ المسيحي ٣٧٦١ سنة. وقال سكاليجر ٣٩٥٠. وبثو ٣٩٨٣. وأوساريوس ٤٠٠٤ وكليمنت٤١٣٨. وفي الطبعة الحديثة لكتاب صناعة تحقيق التواريخ المار ذكره ٤٩٦٣. وهالس ٥٤١١.

وجكسون ٥٤٢٦. والكنيسة الاسكندرية ٥٥٠٤. وكنيسة القسطنطينية ٥٥١٠. وأوسيوس ٦٠٠٤ . وبافيسيوس ٦٣١١ . والجداول الالفنسية ٦٩٨٤ . وهذا الاختلاف حاصل من اختلاف الأعداد الواردة في النص العبراني وترجمات التوراة. وعدم التيقن بكون الأعداد التي نراها الآن هي التي خطتها يد موسى. فبمقتضى النص العبراني قد مرَّ من خلق آدم إلى الطوفان ١٦٥٦ سنة. وبمقتضى نسخة السامريين ١٣٠٧. وعلى ما في نسخة السبعين اليونانية ٢٢٤٢. وليس أقل من ذلك الاختلاف على الحقبة التي مرَّت من الطوفان إلى دعوة ابرهيم فهي على ما في النص العبراني ٣٦٧. وعند السامريين ١٠١٧. وفي ترجمة السبعين ١١٤٧. فجملة المدة من خلق الانسان إلى دعوة ابرهيم على ما في النص العبراني ٢٠٢٣. وعلى ما في ترجمة السبعين ٣٣٨٩. وعلى ما في السامرية ٢٣٢٤. وهذا التباين حاصل من خطأ النسخ في الأعداد. وليس أيسر منه فيها وقد خلا بعض النسخ من اسماء بعض الآباء القدماء كقينان الذي خلا منه النص العبراني وهو ثابت في ترجمة السبعين. وفي الأنساب التي ذكرها لوقا البشير، ولم يشأ الله أن يعصم جميع النساخ بآيات تتعدَّد بعديدهم على أنَّ الكنيسة الكاثوليكية لم تحلَّ إلى الآن هذا البحث بل أطلقت لكل من المؤرخين أن يختار ما شاء من هذه الأقوال ولا حرج. ولم تؤثر أحدها على الآخر ويظهر أنَّ آباء الكنيسة الأوَّلين وبعض الحدثاء اعتمدوا ترجمة السبعين. وجميع علماء الكنيسة اليونانية. والقدماء من علماء الكنيسة اللاتينية عوَّلوا على تواريخ هذه الترجمة. وفي السنكساري الروماني في ٢٥ك١ إنَّ مولد المخلِّص كان سنة ٥١٩٩ لخلق الانسان. وقال مشاهير من العلماء منهم باجوس في تنقيح تاريخ بارونيوس وبيتو في (علم الأزمان) إنَّ السنين التي مرَّت من خلق الانسان إلى ميلاد المخلِّص يستحيل تعيينها تعييناً مؤكداً.

على أنَّ المدَّة المعينة في النص العبراني من الطوفان إلى دعوة ابرهيم وقدرها ٣٦٧ سنة هي غير كافية لانتشار الأمم، وتوفُّر عديدهم وحضارتهم التي كانت في أيام ابرهيم ولاسيما في مصر عند شخوصه إليها. فلا أقل من الاعتماد في ذلك على ترجمة السبعين التي تجعل تلك المدة ١١٤٧. أو على النسخة السامرية التي تجعلها ١٠١٧ سنة. لتكون المدة كافية لانتشار الناس في الآفاق، ولحضارتهم المشار إليها. وعلى ذلك تكون المدة من خلق الانسان إلى الميلاد نحواً من ستة آلاف سنة. وهي كافية لمقتضيات الأبحاث العلمية والتاريخية في هذا العصر، ولا تخالفها

تواريخ المصريين والكلدان والصينيين والهنود، بعد أن كشف العلماء ستائر اللبس والخطا والمبالغة عن وجه حقيقتها، على أنَّ المتداول بين أكثر العلماء والذي مشينا عليه في كتابنا هذا إنَّما هو أنَّ المولد كان سنة ٤٠٠٠ وسنة ٤٠٠٤ لخلق الانسان (ملخَّص عن فيكورو في كتابه الأسفار المقدَّسة وانتقاد العقليين لها مجلَّد ٣ صفحة ٤٥٥ طبعة ثالثة. وفي موجزه الكتابي مجلَّد ١ عد ٣١٤ وما يليه صفحة ٥٣٣ طبعة سابعة).

وكذلك اختلف الآباء والعلماء في سنة مولد المخلّص من سني التاريخ الروماني. فذهب ساويروس سولبيسيوس ونيقيطا ونيكوفورس كاليستوس وغيرهم إلى أنَّ المخلّص ولد لسنة ٤٢ لقتل يوليوس قيصر، وهي السنة الرابعة قبل التاريخ العامي. وذهب ترتوليانوس في كتابه ضد اليهود. واكليمنضوس الاسكندري والقديسان ايرنيموس وفم الذهب إنَّه ولد سنة ٤٣ ليوليوس، وسنة ٤١ لولاية أغوسطوس وهي السنة الثالثة قبل التاريخ العامي. وذهب القديس إيوليتوس والقديس أبيفانيوس وأوسابيوس القيصري إنَّ المولد كان سنة ٤٤ ليوليوس قيصر. وسنة ٤٢ لاغوسطوس، وهي السنة الثانية قبل التاريخ العامي. وذهب يوليوس الافريقي وبيدا وغيرهما أنَّه ولد سنة ٤٦ ليوليوس، وهي السنة الأولى من التاريخ العامي. وذهب بعض من القدماء ذكرهما القديس أبيفانيوس (في هرطقة ٥١) إنَّ المخلّص ولد سنة ٥٤ ليوليوس. وهي التاسعة من التاريخ العامي ذكر ذلك نطايس اسكندر في تاريخ القرن الأوَّل (مقالة ثانية). وأثبت بحجج عديدة أنَّ المخلّص ولد في أواخر سنة ٤١ ليوليوس قبل خمس سنين من التاريخ العامي. وفي السنة ٢٦ لوفاة قلوبطرة، والسنة ٣٤ لهيرودس بعد مقتل أنتيكون، وسنة ٧٤٩ لبناء رومة، ومن حججه أنَّ المخلّص ولد قبل سنة كاملة من موت هيرودس. وهيرودس مات سنة ٤٢ ليوليوس قبل التاريخ العامي بأربع سنين. فإذاً المسيح ولد سنة ٤١ ليوليوس قبل التاريخ العامّي بخمس سنين. واثبت ذلك من أنَّه ورد في إنجيل متى (ف٢) إنَّ المسيح ولد في أيام هيرودس الذي قتل الأطفال بعد أيام من مولده إلى غير ذلك من براهينه العديدة.

فليس لنا والحالة هذه أن نقضي بين هؤلاء الآباء والعلماء ونبيِّن من أصاب ومن أخطأ، وحسبنا أن نبيِّن أقوالهم التي لم تصم الكنيسة أحدها بصمة ضلال أو خطأ. على أنَّ التداول في كتب جمهورهم أنَّ ميلاد المخلّص كان للسنة الرابعة قبل

التاريخ العامي، وذلك أنَّ التاريخ بسنة المخلِّص أوَّل من دعا للعمل به دانيس الصغير في القرن السادس. وابتداؤه خطأً من الرابعة بعده ولمَّا أثبت أولو النقد أنَّ المخلِّص ولد قبل ذلك التاريخ بأربع سنين آثروا اتباع الخطأ المشهور على أتباع الصواب المهجور كما مرَّ. أو صوَّب بعضهم قول من رأوا أنَّ سنة الميلاد وسنة بدء التاريخ العامي واحدة وسيأتي لنا كلام في ذلك.

الباب الأوَّل

تاريخ سوريا في القرن الأوَّل للميلاد

إنَّنا نقسم هذا الباب والأبواب التالية إلى قسمين نضمِّن الأوَّل تاريخ سورية الدنيوي، والثاني تاريخها الديني تفادياً من التشوُّش في الكلام عليهما معاً.

القسم الأوَّل

تاريخ سوريا الدنيوي في القرن الأوَّل

تمهيد

عد ٤٧٥

الملوك الرومانيون في القرن الأوَّل

لما كان كلامنا التالي من تاريخ سورية على عهد الملوك الرومانيين يستلزم الكلام في هؤلاء الملوك وسني ملكهم أثرنا تمهيداً له أن نفتتح تاريخ هذا القرن بذكر الملوك الذين كانوا فيه وسني ملكهم بما أمكن من الإيجاز.

قد رأيت أنَّ المخلِّص ولد لسنة ٢٩ أو ٢٨ للملك أغوسطوس قيصر. فأغوسطوس هذا كان اسمه أوَّلاً يوليوس اكتاف بن اكتاف أحد رجال ندوة رومة وابن أخت يوليوس قيصر. ولد في رومة سنة ٦٣ ق م. وبعد وفاة والده تبناه خاله. ولم يكن عمره عند مقتل خاله إلَّا ثماني عشرة سنة، وسمِّي سنة ٤٣ ق.م حاكماً في الجمهورية الرومانية مع مرقس أنطونيوس، ولابيد. ثم وقع الخلاف بينه وبين مرقس أنطونيوس صهره فاستظهر عليه في حرب أكسيوم في بلاد اليونان سنة ٣١ ق.م. وفرَّ أنطونيوس إلى مصر مع قلوبطرة معشوقته فتتبعهما أغوسطوس إلى مصر. فانتحر أنطونيوس وقتلت قلوبطرة أيضاً نفسها كما مرَّ. وجعل أغوسطوس مصر اقليماً رومانياً ولدن عوده سنة ٢٩ ق.م (وعلى قول آخرين سنة ٢٨) إلى رومة سمي عاهلاً. وأغوسطوس أي سعيداً. وكان حليماً لا يتكلَّف القسوة إلَّا عند الحاجة إليها ومحبّاً العلم والعلماء. وضمَّ إلى بلاطه فرجيل وأراس الشاعرين الشهيرين وطيط ليف المؤرِّخ. وسن شرائع مُحكمة وتوفي سنة ١٤ لميلاد المخلِّص في السابعة والسبعين من عمره. وهذا الملك جعل بيروت مدينة أولية وخوَّل أهليها حقوق الرومانيين. وولى عليها القائد مرقس فيبسانيوس أغريبا. وزوجه ابنته جولية ودعا المدينة باسمها جولية فيليكس (أي السعيدة). ويؤيِّد هذا خط ذكره ودينكتون (عد ١٨٤٢) وجد في دير القلعة منقوشاً على أخربة الهيكل الذي هناك المعروف في الآثار بهيكل بعل مرقد أي إله الرقص، فحواه أنَّ أهل بيروت الجالية الرومانية جولية أغوسطو فليكس بيروت أقاموا نصباً لأدريان الملك.

وخلف أغوسطوس طيباريوس وهو ابن نيرون ولد في رومة سنة ٤٢ ق.م وتقلَّب في المناصب واشتهر بالحروب مع الجرمانيين. وزوجه أغوسطوس ابنته جولية بعد وفاة زوجها أغريبا وعيَّنه وريثاً له. ولدى موته سنة ١٤ للمخلِّص رقي إلى منصَّة الملك وأجرى بعض المظالم وقتل بعض الأشراف، وفي السنة الخامسة عشرة لملكه ظهر يوحنا المعمدان يبشِّر وينذر ويعمِّد. وفي السنة ٢٠ منه مات المخلِّص وأدركت الوفاة طيباريوس سنة ٣٧ للميلاد ودونك صورته عن تمثال وجد في جزيرة كبرا وهو الآن في متحف اللوفر.

وخلفه غايوس كاليكولا وهو ابن أخي قيصر الجرماني. تبنَّاه عمَّه طيباريوس وأورثه الملك سنة ٣٧ م وعمره عشرون سنة. فأحسن مسعاه بعض أشهر ثم اعتراه مرض أنقص من قواه العقلية. فانكبَّ على الملاذ والاعتساف والصلف. وهام أن



يُجل كاله وشغف بحصان له حتى سماه قنصلاً، وقتل كثيرين من شرفاء رومة وأغنيائها ليستحوذ على أموالهم. وقيل عنه أنَّه كان عند حنقه يتمنَّى لو كان للرومانيين كلِّهم رأس واحد ليقطعه بضربة واحدة إلى أن اغتاله أحد حرسه سنة ٤١ م.

وخلفه طيباريوس كلود بن دروسوس أخي غايوس أقامه الجنود ملكاً بعد مقتل غايوس. ولد في ليون سنة ١٠ ق.م وكانت بواكير أعماله حسنة لكنَّه ترك أزمَّة الملك بيد ميسالين امرأته وحاشيته. فجاروا وبغوا على كثيرين باسمه ثم قتل امرأته سنة ٤٨ م وتزوَّج أغريبين اخته فاستحوذت عليه أيضاً وجعلته ينبذ ابنه الملقَّب قيصر البريطاني، ويترك الملك لابنها نيرون. وأدركته الوفاة سنة ٥٤ م ويظنُّ أنَّ أغريبين دسَّت له سماً.

ومن الآثار لهذا الملك في بلادنا الهيكل الباقية أطلاله في المحل المسمّى قلعة فقرة في كسروان. فقد وجد خطان في الحصن المحاذي له هما في مجموعة الخطوط في عد ٤٥٢٥ وعد ٤٥٢٦ يتبيّن منهما أنّ هذا الأثر أقامه كهنة هيكل الإله الأعظم تكرمة للملك كلود سنة ٣٥٥ يونانية، الموافقة سنة ٤٣ للميلاد. ليس الإله الأعظم على ما ذكر رنان (في بعثة فينيقية صفحة ٣٣٨) الا عليون أو أدونيس معبود الجبليين المقام الهيكل هناك على اسمه. فيكون هذا الهيكل كهيكل أفقا وهيكل جبيل على اسم هذا المعبود.

وخلفه تلك السنة نيرون بن دوميسيان ولد سنة ٣٧ للميلاد وعند ارتقائه إلى منصّة الملك سنة ٥٤ م ترك اعنة تدبير مهام الملك لابن أغريبين، ولم يلبث أن أبدى القسوة والجور والخلاعة وأبعد والدته عن قصره. فهددته بأنها تنتزع الملك منه وتردّه على البريطاني وريثه الشرعي، فقتله سنة ٥٥ م ثم قتل أمّه وطلّق امرأته اكتافية وقتلها وأمات من تزوجها بعده. ووقع سنة ٦٤ م حريق في رومة وظنّ نيرون مُوقعه فأحال الشكوى على المسيحيين. وقتل كثيرين منهم فتآمر عليه عماله ومقته رجال الندوة، وقُضي بسقوطه عن منصّة الملك. وهمّ أن ينتحر فلم يمكّنه منه كاتب سرّه. وانقضى ملكه سنة ٦٨ م وانقرض به الملك من سلالة قيصر.

وقد كان في أيام كلود ونيرون حاكم في سورية اسمه أو ميديوس كوادراتوس على ما يظهر من خط عثر عليه ودينكتون في بيروت تحت كنيسة الكبوشيين (عد ١٨٤١) يؤخذ منه أنّ أهل بيروت أقاموا نصباً لهذا الوالي الذي دبر سورية على عهد كلود ونيرون من سنة ٥١ إلى سنة ٦٠ م.

وخلفه سبرتيوس غلبه سنة ٦٨ م بعد أن كان قنصلاً في عهد طيباريوس وعاملاً في افريقيا وإسبانيا. وقد درى أنّ نيرون يريد قتله فثار عليه وسمّاه الجنود في إسبانيا ملكاً. ثم أقرّ له بالملك سائر أهل المملكة. ولكن مقته الجمهور لبخله وقسوته فقتله أوتون أحد المقرّبين إليه فلم يملك إلّا ثمانية أشهر.

وخلفه أوتون المذكور سنة ٦٩ م وأقامه الجنود في جرمانيا فيتليوس فكانت بينهما حرب إلى أن ظهر فيتليوس على أوتون في وقيعة بعثت أوتون على أن ينتحر سنة ٦٩ م. وأمّا فيتليوس فأتى رومة وقبله سكانها بمعظم الاحتفاء. ولم يستو على منصّة الملك فيها إلّا وأقام الجنود في المشرق فسبسيان سنة ٦٩م، وأرسل قائد جيشه إلى رومة فافتتحها وقتل سفلة الشعب فيتليوس فيها سنة ٧٠ م.

وكان نيرون أمر فسبسيان بحرب اليهود فدوخ بلادهم كما سيجي. ولم يكن باقياً إلّا أورشليم ومضى إلى رومة فلم يلقَ معارضاً ولا منازعاً فأمَّن أنحاء المملكة وأقام على سرير الملك عشر سنين. وتوفي سنة ٧٩ م تاركاً الملك لابنه طيطوس الذي كان اتبعه إلى اليهودية سنة ٦٦ م وأخذ مدناً كثيرة من اليهود. وبعد أن سمَّى أبوه عاهلاً أبقاه في اليهودية فأتمَّ افتتاحها باستيلائه على أورشليم والهيكل سنة ٧٠ كما سترى. وعاد إلى رومة معاوناً لأبيه على تدبير المملكة وكان في بيروت في أيام فسبسيان حاكم من قبله يسمى قروتون أقام له الأهلون بأمر الملك نصباً كما يؤخذ عن صفيحة عثر عليها ودينكتون على يمين الطريق بين قنصلية افرنسة ودير الكبوشيين في بيروت، وهي عد ١٨٤١ في كتابه خطوط سورية اليونانية واللاتينية.

وخلف طيطوس أباه سنة ٧٩ م فترك ما كان عليه من التهتك بسيرته · واحسن كثيراً إلى من أصيبوا بانفجار البركان فاسوف سنة ٧٩ وبالوباء والحريق في رومة. حتى اشتهر بالشفقة على البائسين والمصابين، ولم يطل الله عمره بل توفاه سنة ٨١م. فلم يملك إلّا سنتين وثلاثة أشهر.

وخلفه أخوه دوميسيان وكانت بواكير أعماله محمودة، وجمّل رومة بآثار عديدة ووفّق للانتصار في بعض الحروب، ولكن تغلَّبت عليه أطواره الوحشية فقتل كثيرين من رجال الندوة وأكابر الرومانيين وأثار على الرومانيين أقسى الاضطهادات وأشدَّها ظلماً، وهيأت امرأته لنجينا مؤامرة عليه وقاية لنفسها من شرّه فقتله أحد المقرَّبين إليها سنة ٩٦ م وعمره خمس وأربعون سنة. ومن آثاره في بلادنا خط ذكره رنان (في كتابه بعثة فينيقية صفحة ٣٤٠) عثر عليه في المحل المسمى درجة مار سمعان في الطريق من العاقورة إلى اليموني كتب فيه اسم «العاهل دوميسان أغوسطوس»، فكأنَّ هذا الملك فتح أو مهَّد هذا الطريق الذي كان طريق الغزاة إلى سورية في الجبل كما كان طريق نهر الكلب في الساحل، وربَّما كانت هذه الطريق تمر بأفقا وتنحدر في وادي نهر ابراهيم إلى أن تبلغ جبيل.

وخلف دوميسيان مرقس نرفا ابن كوشيوس الفقيه. أقامه رجال الندوة سنة ٩٦ م ولم يملك إلّا سنتين وكان ملكه مخالفاً لملك سلفه لأنَّه عامل الرعية بالحلم والعدل. لكنَّه رأى نفسه ضعيفاً عن الإحاطة بتدبير شؤون الملك فتبنا ترايانوس وتوفي سنة ٩٨ م فخلفه في الملك واستمرَّ فيه إلى سنة ١١٧م. ونرجئ الكلام فيه إلى الكلام في القرن الثاني.

الفصل الأوَّل

أخبار سورية في المدَّة التي بين مولد المخلِّص وحرب اليهود والرومانيين

عد ٤٧٦

ارشيلاوس بن هيرودس

إنَّ هيرودس قد تزوَّج عشر نساء أولاهن دوريس أم أنتيباتر الذي قتله قبل وفاته بخمسة أيام. والثانية مريمنا ابنة اسكندر التي قتلها كما مرَّ وكان له منها ثلاثة ابناء اسكندر وأرسطو بولس اللذان أماتهما وهيرودس الذي مات في رومة. وابنتان زوَّج أحداهما بابن أخته صالومي. والثانية بابن أخيه فازائيل. والثالثة من نساء هيرودس بالاس ورزق منها ابناً سماه فازائيل. والرابعة فدرة رزق منها ابنة اسمها ركسان تزوجت بابن فيروارس أخيه. والخامسة مريمنا الأُخرى ابنة سمعان الحبر، وكان له منها هيرودس المسمى أيضاً فيلبوس الأوَّل وهو زوج هيرودية، وقد ولدت صالومي التي رقصت أمام هيرودس أنتيباس وسأله قطع رأس يوحنا المعمدان. والسادسة سامرية ولدت له أرشيلاوس الذي كلامنا هنا فيه. وهيرودس أنتيباس حاكم الجليل، وانتيباس تزوَّج أوَّلاً بابنة أريتاس ملك العرب ثمَّ هيرودية امرأة أخيه وهو حي. ولهذا كان يوحنا المعمدان يؤنبه على ذلك. السابعة قلوبطرة وكان له منها ابنان هيرودس وفيلبوس الثاني رئيس الربع على ايطوريا (الجيدور في جنوبي دمشق وغربي اللجا). وكورة أنطرخون (اللجا كما في الأعلام الكتابية). وقد تزوَّج فيلبوس بصالومي ابنة هيرودية المذكورة. والثامنة البيد ولم يكن له منها إلَّا بنت تزوَّجها ابن فيروراس أخيه. والتاسعة ابنة أخيه، والعاشرة ابنة عمِّه ولم يكن له منهما ولد.

وقد غيَّر هيرودس وصيته بالخلافة له مرات فأوصى أولاً أن يخلفه ابناه اسكندر وأرسطوبولس ثم قتلهما. وأوصى لانتيباتر ثم أماته. وأوصى لهيرودس فيلبوس الأوَّل ولمَّا علم أنَّ امَّه اشتركت في مؤامرة أنتيباتر عليه رغب عنه وأوصى أخيراً أن يخلفه أرشيلاوس في اليهودية والسامرة. وهيرودس أنتيباس في الجليل، وفيلبوس الثاني في اللجا والجولان إلى ينابيع الأردن أي إلى بانياس، وأوصى إلى أخته صالومي بدخل مدن يمنة وأشدود وفاليس (في شمالي ايريحا). وعلق تنفيذ وصيته هذه على ما يشاءه أغوسطوس قيصر ليثبتها أو يعدِّلها كيف شاء وقد ورث ابناء هيرودس الخلاف مع الخلافة له. فكان أحدهم ينازع الآخر ويباريه في استرضاء الشعب ليدلى بذلك إلى إيثار أغوسطوس له.

وبعد أن انتهت أيام الحداد جمع أرشيلاوس الشعب في رواق الهيكل وخطب فيهم واعداً أن يقصي المظالم التي أدخلها أبوه، ويرتِّب كل شيء على ما يهوى الجمهور فلم يكتف الشعب بهذه المواعيد المطلقة، ورفع إليه عريضة يلتمس بها الحط من الخراج ونسخ الضرائب المفروضة على البيع والشراء. وتخلية سبيل الأسرى السّياسيين. ومعاقبة أعضاء اللجنة الذين قبضوا بموت الشبان الذين تسبَّبوا بطرح نسر الذهب عن الهيكل كما مرَّ. ثمَّ تبديل رئيس الأحبار بحبر آخر أكثر أهلية، فلم يرَ أرشيلاوس من السداد أن يذعن لسؤال الشعب ولم يشأ أن يثيرهم عليه فقال: إنَّه سيفعل ما يهوون وأرجأ العمل به إلى أن يثبت أغوسطوس وصية أبيه. وكان حينئذٍ في أورشليم ألوف من اليهود أتوا لعيد الفصح فأوغر الفريسيون صدورهم مذكرين لهم بقتل هيرودس يهوذا. وماتيا وتلاميذهم فأبوا الاذعان وأصرُّوا على اجابة سؤالهم للحال. وتألَّبوا فأرسل إليهم أرشيلاوس جنوداً يفرقون شملهم وتلقاهم أولئك يرمونهم بالحجارة حتى ألجأوهم إلى الهرب. فجمع أرشيلاوس جنوده وساقهم إليهم آمراً أن يبطشوا بهم وأقام فرساناً في السهل ليقبضوا على من يفرون فقتل من اليهود يومئذٍ ثلاثة آلاف رجل.

ثم مضى أرشيلاوس واخوته إلى رومة يسألون أغوسطوس أن يثبت وصية أبيهم أو يلغيها. وكان كل منهم يخاصم الآخر وما زايلوا اليهودية إلَّا والتقى ذوو الأهواء والمفاسد الشقاق بين الأهلين حتى أصبحت اليهودية ساحة قتال. وقام كثير من رؤساء الأحزاب فسمَّوا نفوسهم ملوكاً. وكثر القتل والنهب وحرق المدن وكان أرشيلاوس قبل شخوصه إلى رومة سأل كونتيليوس فاروس والي سورية من قبل

أغوسطوس أن يبقى في اليهودية ليقي البلاد من الهياج فأقام مدَّة هناك. وعاد إلى أنطاكية قصبة ولايته ووكل إلى سابينوس خازن أغوسطوس الذي كان أرسله ليأخذ خزائن هيرودس أن يعنى بحفظ السلام في اليهودية. فأتى سابينوس إلى أورشليم وبدلاً من أن يطفئ النار المتّقدة نفخ فيها ليزيدها اضطراماً. وكان حينئذٍ عيد، البنديكستي فأقبل إلى أورشليم اليهود من كل فج ودار في خلد أكثرهم أن يبطشوا بالرومانيين والهيروديين. وكانت بينهم منازعات أفضت إلى قتل كثيرين منهم وإلى تشتيت شملهم فانتهب الرومانيون الهيكل وأخذ سابينوس وحده أربع مائة وزنة، ودنَّسوا الهيكل وأحرقوا رواقه فاشتدَّ حنق الشعب لذلك. وانحاز كثير من عسكر الهيروديين إلى اليهود لينجدوهم على قتال الرومانيين، وحاصر الثائرون بلاط هيرودس وأخذوا ينقبون تحته ليتداعى البناء ، فاعتزل سابينوس وأقام في الحصن المحاذي القصر فحاصروه فيه. واستنجد سابينوس فاروس والي سورية فأتى إلى نجدته بعشرين ألف رجل واستدعى أريتاس ملك العرب. فلبَّى دعوته وأحدث جنوده وعساكر هذا الملك أضراراً لا تقدَّر في الجليل واليهودية ولما بلغ فاروس إلى أورشليم ارتاع من كانوا محاصرين سابينوس. وأرفض جمعهم وأخذ فاروس منهم ألفي أسير علَّقهم على صلبان فلم تكن هذه الثورة إلَّا لزيادة إذلال اليهودية واستعباد الرومانيين أهليها ومنذئذٍ أبقى الرومانيون في أورشليم فريقاً من جنودهم يخفر عليها.

أمَّا أرشيلاوس واخوته فكان يقرّع أحدهم الآخر ويسعى به حتى حمل تدنئهم وخلافهم أغوسطوس على أن يعتد جميعهم غير أهل للملك. وكان اليهود أنفذوا إليه خمسين رجلاً يشكون من آل هيرودس ويستميحونه أن يضمَّ اليهودية إلى أغوسطوس ثمانية آلاف يهودي من سكان رومة. على أنَّ أغوسطوس أثبت وصية هيرودس إلَّا أنَّه لم يسمح لأرشيلاوس أن يسمى ملكاً بل والياً أو رئيساً على اليهودية والسامرة وأدوم. ووعده أن يسميه ملكاً إن جعل نفسه أهلاً للملك على أنَّ ولاية أرشيلاوس لم يكن فيها ما يهم وقد تزوَّج بكلافيرة أرملة أخيه اسكندر ابنة أرشيلاوس ملك الكبادوك خلافاً لسنّة التوراة لأنَّها ولدت أولاداً لاسكندر واعنت مسودية واعتسف. فشكوه إلى أغوسطوس ولم يشأ أن يكاتبه بل أرسل يستدعيه إلى رومة فشخص للحال إليها ولم يتيسَّر له أن يبرئ نفسه من الشكايات الواردة عليه فعزله أغوسطوس. ونفاه إلى فيان في افرنسة ودامت ولايته عشر سنين أو تسعاً ولا يعلم متى مات في منفاه. وقول متى فيه: (في إنجيله ف ٢ عد ٢٢)

«إنَّه صار ملكاً على اليهودية». معناه صار حاكماً أو والياً أو أنَّ ذويه كانوا يسمونه ملكاً. وبعد نفي أرشيلاوس ألحق أغوسطوس اليهودية وما يليها بولاية سورية، وكان الرومانيون مع ذلك يقيمون عليها ولاةً أو نواباً ولولاة سورية الأمر عليهم.

عد ٤٧٧
هيرودس أنتيباس وفيلبس

قد أجاز أغوسطوس وصية هيرودس أن يكون هيرودس أنتيباس والياً في الجليل، وفيلبوس الثاني والياً في الجيدور واللجا وحوران واستمرَّا على ذلك زماناً طويلاً. لأنَّنا نرى لوقا البشير ذكرهما (ف ٣ ع ١) عندما ذكر مجيء يوحنا المعمدان لينذر في اليهودية إذ قال: «في سنة خمس عشرة من ملك طيباريوس قيصر في ولاية بيلاطس البنطي على اليهودية، وهيرودس رئيس الربع على الجليل وأخوه رئيس الربع على أيطوريا وكورة أنطرخون وليسانيوس رئيس الربع على الأبلية وحنان، وقيافا رئيسا الكهنة كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا الخ» ومن أخبار هيرودس هذا أنَّه حصَّن ووسَّع مدينة بيت صيدا وسمَّاها جولية تكرمة لجولية جدَّة أغوسطوس قيصر أو ابنته. وبنى على بحيرة جانشر مدينة سمَّاها طيبارية اجلالاً لطيباريوس قيصر. وقد تزوَّج ابنة أرتياس (الحارث) ملك العرب ثمَّ طلَّقها نحو سنة ٣٣ للميلاد. وتزوَّج بهيرودية امرأة أخيه فيلبوس وهو حي. وكان يوحنا المعمدان يقيم النكير عليه مؤنباً له على هذا الزواج المخالف للسنَّة. فألقى هيرودس يوحنا في السجن إلى أن أمر بقطع رأسه اجابة لسؤال ابنة هيرودية بايعاز أمِّها كما جاء في أناجيل متى ومرقس ولوقا. فأثار أريتاس حرباً على هيرودس ليثأر لابنته التي طلَّقها. فاستظهرت جنود أريتاس على جنود هيرودس وشتَّتوا شملهم.

وقد أطرفنا يوسيفوس اليهودي شهادة ناطقة بصحة ما رواه الإنجيليون عن يوحنا المعمدان إذ قال (في تاريخ اليهود ك ١٨ فصل ٧) ما ترجمته: «قد أيقن كثير من اليهود أنَّ انكسار جنود هيرودس كان عقاباً من الله له لما أجراه على يوحنا الملقَّب المعمدان. وكان هذا رجلاً متسامياً في التقوى يحض اليهود على الاستمساك بالفضيلة والاستسارة بالبرِّ وقبول المعمودية بعد استرضاء الله بالتوبة، وأن لا يكتفوا بأن لا يقترفوا الاثم بل أن يقرنوا طهارة الجسد إلى طهارة النفس.

وكان جم غفير من الشعب يتبعه ويسمع تعليمه وخشي هيرودس أنَّ ما كان له من السلطان عليهم يبعثهم على ثورة عليه، لأنَّهم كانوا متأهِّبين أن يصنعوا كلَّ ما يأمرهم به. فرأى أن يتدارك الضر قبل وقوعه فألقى يوحنا في السجن في قلعة مشيرا. فعزا اليهود خذلان جنوده إلى حكم الله العادل جزاءً له على عمله الجائر». فكلام يوسيفوس هذا يطابق كلام الإنجيليين في المعمدان إلَّا في سبب طرح هيرودس له في السجن. فإنَّ يوسيفوس روى السبب الذي تمحله هيرودس لسجنه، والإنجيليون رووا الحقيقة وهي مقاومة يوحنا له في أخذ امرأة أخيه.

وكان فيلبوس أخو هيرودس أنتيباس والي الجيدور واللجا وحوران قد أدركته الوفاة سنة ٣١ للميلاد ولم يكن له ولد إلَّا صالومي التي رقصت أمام هيرودس، وطلبت رأس يوحنا وكان أغريبا بن أرسطوبولس بن هيرودس الكبير تربى في رومة، وكان ملوكها يعرفونه وكان كاليكولا غايوس الذي ارتقى إلى منصَّة الملك بعد وفاة طيباريوس سنة ٣٧ م يعزّه. أقام أغريبا على ولاية فيلبوس سنة ٣٩ للميلاد والحق بها ولاية ليسنياس وسماه ملكاً. فأخذت الغيرة أخته هيرودية زوجة هيرودس أنتيباس، فزينت لزوجها أن يمضي إلى رومة ويستعطف غايوس أن يسمِّيه ملكاً، فمضى وصحبته هيرودية آملة أنَّ حضورها في رومة ييسر لبعلها نيل ما يبتغي. على أنَّ أغريبا كتب إلى العاهل يشكو صهره أنتيباس أنَّه كان محازباً لسجان في مؤامرته على طيباريوس. وأنَّه يمالئ أرتبان ملك البرتيين على مناوأة الرومانيين. وأورد بيّنة لشكواه أنَّ في خزائن أنتيباس أسلحة تكفي لسبعين ألف رجل، فاستشاط غايوس غضباً وسأل أنتيباس هل من صحَّة لما يقال أنَّ عنده من السلاح؟ فلم يجسر أن ينكر ذلك فعزله للحال عن ولايته ونفاه إلى ليون وترك لهيرودية ما كان لها من المال، ووعد أن يعفو عنها حباً بأخيها أغريبا فآثرت النفي مع زوجها. روى ذلك يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٨ فصل ٩). لكنَّه روى في محل آخر (في تاريخ حرب اليهود ك ٢ فصل ١٦ وما يليه): إنَّه نفي إلى إسبانية ومات هناك. فقال بعضهم: أنَّ غايوس مضى في السنة التالية إلى افرنسة فأبعد أنتيباس من ليون إلى إسبانية، ولم نعثر على ما يحقِّق سنة موته. وهيرودس أنتيباس هو الذي ازدرى بالمسيح حين آلامه وألبسه ثوباً قرمزياً.

عد ٤٧٨

ليسانيوس ويسمى ليسانياس

وأمَّا ليسانيوس فالصحيح ما رواه يوسيفوس أنَّه ابن ليسانيوس الشيخ والي الأبلية. قال ستروس: «إنَّ لوقا زعم أنَّ ليسانيوس (أو ليسانياس) كان ملكاً بعد مولد المخلِّص بثلاثين سنة، مع أنَّه لا مراء في أنَّه قتل قبل مولده بثلاثين سنة فهذه هفوة صغيرة بستين سنة». فهذا الجاحد لم يميِّز بين ليسانياس الأوَّل وليسانياس الثاني فالأوَّل كان قبل تعميد يوحنا بستين سنة، لكنَّه لم يكن رئيس الربع على الابلية بل كان حاكماً في كلشيس الآتي بيان موقعها وقد ذكره يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٤ فصل ٧). فهذا ظنُّه ستروس جهلاً أو تجاهلاً ليسانياس الذي ذكره لوقا، وقد كشفت الآثار القديمة عن وجه هذه الحقيقة ناطقة بتخطئة ستروس. فأوَّل ملك معروف من آل ليسانياس هو بتلمايس ابن مينا. ذكره يوسيفوس في تاريخ اليهود (ك ١٣ فصل ١٥). وكان شيخ عرب رحلٍ في أنحاء دمشق يسطو على ابناء السبيل. وكان نحو سنة ٨٥ ق.م وأرسلت إليه اسكندرة أرملة اسكندر ملك اليهود ابنها أرسطو بولس ليردعه عن سطوه على دمشق (يوسيفوس في المحل المذكور فصل ١٦).ولمَّا أتى بمبايوس إلى دمشق سنة ٦٣ ق.م كان بتلمايس حاكماً في كلشيس (يوسيفوس ك ١٤ فصل ٧ واسترابون ك ١٦ فصل ٢). وهي المعروفة اليوم بعنجر على طريق العربات من بيروت إلى دمشق على بعد ربع ساعة من محطَّة المصنع (روبنسون في المباحث الكتابية في فلسطين وشوفة وإيزمبر في سورية وفلسطين). فأبقى بمبايوس بتلمايس على ولايته بعد أن غرمه مبلغاً وافراً إلى أن توفي سنة ٣٩ أو سنة ٤٠ ق م.

وخلفه ابنه ليسانياس يوسيفوس في المحل المذكور (وفي تاريخ حرب اليهود ك ١ فصل ٩). ولم يهنأ ليسانياس زماناً طويلاً بملكه لأنَّ قلوبطرة ملكة مصر حملت مرقس أنطونيوس على قتله سنة ٣٤ ق م وأخذت بعض أملاكه (يوسيفوس ك ١٥ فصل ٤). وكان ليسانياس هذا حاكماً في كلشيس والابلية وفي لبنان الشرقي وبعلبك. وتمتد ولايته إلى بانياس والسهول المحاذية لها إلى بحيرة الحولة. ووجد شيء من مسكوكات ليسانياس وعلى رأسه تاج من جهة وفي الجهة الأخرى صورة بالاس واقفة مع خطوط دالة عليه ولا تاريخ عليها فقال بعضهم إنَّها لليسانياس الثاني ومنهم

رنان «في مذكراته لجمعية الخطوط القديمة» وقال غيرهم أنَّها لليسانياس الأوَّل ابن بتلمايس.

ولم تستمر ولاية قلوبطرة على أملاك ليسانياس إلَّا زمناً وجيزاً. وبعد انتحارها خلف ليسانياس ابنه زينودر حاكماً في الجيدور واللجا وحوران أيضاً (يوسيفوس ك ١٥ فصل ٩). ولكن في سنة ٢٣ ق.م أعطى أغوسطوس هيرودس هذه الأعمال وبقي لزينودر كلشيس والأبليه وبعلبك (يوسيفوس في المحل المذكور واسترابون ك ١٦ فصل ٢). ووجدت مسكوكات لزينودر مؤرخة سنة ٢٨٠ و ٢٨٢ و ٢٨٧ للسلوقيين أي سنة ٣٢ و ٣٠ و ٢٦ قبل التاريخ المسيحي. ومات زينودر في انطاكية سنة ١٩ ق.م (يوسيفوس ك ١٥ فصل ١٠). فأعطى اغوسطوس هيرودس بانياس وسهول الحولة وأبقى ليسانياس وزينودر كلشيس والابلية وبعلبك.

وقد وجد بوكوك الجوالة الإنكليزي الشهير سنة ١٧٣٧ م صفيحة في أخربة الابلية نفسها في حائط معبد صغير كتب عليها ما يبين جلياً أنَّه كان في أيام طيباريوس حاكم يسمى ليسانياس رئيس الربع في الابلية وله خادم اسمه نمغا ، وليسانياس هذا ليس ابن بتلمايس الذي أدركته الوفاة قبل تعميد يوحنا بستين سنة. بل ليسانياس الثاني بدليل أنَّه كتب في السطر الأوَّل من هذه الصفيحة: «تجلة للأغوسطسين فالأغوسطسان هما طيباريوس وأمَّه ليفية التي تزوجها اغوسطوس قيصر بعد أن كانت زوجة أبي طيباريوس. قال: رنان نفسه (في مذكراته المار ذكرها): «إنَّ اسم الأغوسطسين الذي كتب في الصفيحة لا يمكن أن يكون المراد به مرقس أوريليوس وفارس إذ لم يكن حينئذٍ عين ولا أثر لليسانياس رئيس الربع ولا يصدق على أحد قبل طيباريوس إذ لم يكن شخصان من السلالة الملكية يسميان أغوسطوس. وليفية لم تسمَ أغوسطا في حياة زوجها أغوسطوس بل سميت بعد وفاته جولية أغوسطة. فإذاً قد كتبت هذه الصفيحة في المدة التي بين سنة ١٤ للميلاد التي قضى فيها أغوسطوس وبين سنة ٢٩ م التي ماتت فيها ليفية». إذاً هذه الصفيحة النفيسة تثبت أنَّ سلالة ليسانياس لم تنقرض بموت زينودر بل كان ملك آخر منها في أيام طيباريوس يسمى ليسانياس الثاني بهذا الاسم وهو الذي ذكره لوقا البشير.

ثم قد وجدت صفيحة أخرى في بعلبك لكنها محطمة. فوجد بوكوك فلذتين منها في أواسط القرن السالف، وعثر بروكّي على فلذة ثالثة منها سنة ١٨٢٣م. وكشف دي سولسي سنة ١٨٥١ م عن فلذة رابعة ولم يتكامل عدد فلذاتها ولكن ما وجد منها إلى الآن وافٍ بالغرض مع تكملة بعض حروف ساقطة من الأصل. وإليك ما كتب فيها: «قد أقامت ابنة هذا الأثر ذكراً لزينودر (ابن) ليسا (نياس رئيس الربع) ولليسا (نياس) وابنا (ئه)». والظاهر من ذلك أنَّ ابنة (اسم أبيها أو زوجها ساقط) أقامت هذا الأثر ذكراً لزينودر بن ليسانياس الأوَّل وذكراً للسيانياس الثاني وابنيه. ويتَّضح جلياً من هذه الصفيحة أنَّه كان بعد زينودر بن ليسانياس. ليسانياس آخر هو الذي ذكره لوقا فقبل هذه الاكتشافات كان للعلماء مذاهب في حل هذا المشكل لم تبلغ التوكيد اللازم وأمَّا الآن فلم يعد محل للامتراء في صحَّة قول الإنجيلي حتى أقرَّ رنان نفسه بصحة مقاله (في مذكراته المثبتة في منشورات جمعية الخطوط القديمة سنة ١٨٦٧ جزء ٢ صفحة ٨٠ (ملخَّص عن الكتاب الموسوم بالعهد الجديد والاكتشافات للأب فيكورو راس ٢ صفحة ١٢٣).

وقال رنان أيضاً (بعثة فينيقية صفحة ٣١٩ في كلامه على الخط المذكور الذي وجد في بعلبك ما ملخَّصه:«إنَّ ليسانياس توفي سنة ١٩ ق.م وهذا الخط أثبت أنَّ أسرة ليسانياس الوالي استمرَّت بعد وفاته وبقي منها أفراد يسمون ليسانياس. وهذا مهم في المبحث الذي نشأ بسبب قول لوقا فصل ٣ عد ١ ففي هذا الخط اسم ليسانياس بمنزلة والٍ في الابلية سنة ٢٨ للميلاد. وهذا أولى في تفسير قول لوقا من افتراض غلط في نصبه لمدة ستين سنة» فهذه شهادة جاحد لصحة الإنجيل ولاهوت المسيح.

وقد توفرت قبلاً الأقوال وتضاربت في موقع الابلية ولم يبق الآن من ريب في ما قاله الأب فيكورو في المحل المذكور. (وفي معجم الكتاب في كلمة ابيلا) إنَّها كانت في موضع سوق وادي بردا في سفح جبل لبنان الشرقي من جهة الشرق. وممَّا حقَّق ذلك خطوط وجدت في هذا المحل ومنها خطان نقشا على جانبي الطريق المفتوحة هناك كتب فيهما: «إنَّ العاهلين مرقس أريليوس ولوشيوس فاروس أورليوس فتحا طريق النهر بخرقهما الجبل على نفقة أهل الابلية بعناية فاروس صديقهما والي سورية». (رواه ودينكتون خط ١٨٧٤) وهذا الخط كتب بين سنة ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ ق.م. وهناك أيضاً خط ذكره ودينكتون (عد ١٨٧٥) كتب فيه : «لسلامة

الملكين أنطونيوس وفاروس اقام هذا النصب نذراً فالوسيوس مكسيموس قائد الفرقة ١٦ الذي وقف على العمل. وعلى مقربة منها مدفن يعرف بقبر أبيل (والعامة تقول هابيل) ووهم بعضهم أنَّه قبر هابيل بن آدم والأمثل أنَّه قبر أحد الأسرة الذي نسب المحل إليها (معجم الكتاب لفيكورو).

عد ٤٧٩

ولاة اليهودية بعد الميلاد إلى بيلاطس البنطي

إنَّ أغوسطوس بعد أن نفى أرشيلاوس عن ولاية اليهودية والسامرة وأدوم في السنة العاشرة من ولايته وهي الحادية عشرة للميلاد. جعل اليهودية وما يليها اقليماً رومانياً وأرسل لتدبير شؤونه كوبونيوس بصفة نائب عن الملك. وأمَّا سورية فكان يليها قورينوس كما مرَّ. وخلف كوبويوس في اليهودية ماريوس أمبيفيوس إلى أن استدعاه أغوسطوس إلى رومة، ونصب مكانه أينوس روفوس وفي أيام ولايته أدركت المنية أغوسطوس قيصر وخلفه طيباريوس للسنة الرابعة عشرة للميلاد. وفي سنة ١٥ أرسل طيباريوس إلى اليهودية فالريوس كراتوس واستمرَّ والياً فيها إلى سنة ٢٥ للميلاد إذ ولى طيباريوس بيلاطوس البنطي، وفي عهده تمَّ سر الفداء العظيم بموت المخلِّص على الصليب. ومن أخبار بيلاطوس إنَّه بينما كان في قيصرية يمضي فصل الشتاء أرسل جنوده إلى أورشليم وعلى أعلامه صورة العاهل فاستاء اليهود من ذلك لحظر سنّتهم عمل الصور. وتسارعوا إليه الجم الغفير يلحُّون باخراج تلك الصور من أورشليم، فأمسك عن اجابة سؤالهم سبعة أيام محتجاً بأنَّ اخراجها مهين للملك فلم يكفُّوا عن إلحاحهم، فأمر جنوده أن يقبضوا عليهم. وصعد على منبر يتهدَّدهم بالقتل إن أصرُّوا على عنادهم فانطرحوا على الأرض وكشفوا عن أعناقهم قائلين أولى بنا أن نموت من أن نخالف سنتنا فعجب من ثباتهم وتشبُّثهم بدينهم. وأمر أن يؤتى بتلك الأعلام من أورشليم إلى قيصرية. ومن ذلك أيضاً أنَّه أراد أن يأخذ مالاً من خزينة الهيكل ليجر الماء إلى أورشليم من منبع بعيد عنها مئتي غلوة فثار الشعب وأتى كثير منهم إلى بيلاطوس يسألونه الإنكفاف عمَّا جزم عليه وكان ما يحدث عادة في هذه الاجتماعات أي إنَّ بعض الثائرين اسمع الوالي ما يهينه، فأمر جنوده أن يتأبطوا هريهم تحت أثوابهم ويحدقوا بهم ولما لم

يكفُّوا عن سجسهم أمر بضربهم. فلم يقف الجنود على حد أمره فأوقعوا بكل من استطاعوا ثائراً كان أم بريئاً فقتلوا وجرحوا كثيرين (يوسيفوس ك ١٨ فصل ٤). ومن أخباره أيضاً ما ذكر في بشارة لوقا (فصل ١٣ عد ١) من أنَّ قوماً أخبروا المخلِّص عن الجليليين الذين خلط بيلاطوس دماءهم بذبائحهم فقال أتظنُّون أنَّ أولئك الجليليين كانوا أخطأ من كل أهل الجليل وأوجه الأقوال في هولاء أنَّهم كانوا من أتباع يهوذا الجولاني الذي ابتدع بدعة، وتابعه عليها قوم أنَّه لا يحل اداء اليهود الجزية لقيصر الوثني فقتل بيلاطوس بعضهم إذ كانوا يقدِّمون ذبائحهم.

وأنبأنا يوسيفوس وفيلون أنَّ بيلاطوس كان بخيلاً جداً طماعاً محباً المال يضحي في سبيل كسبه أقدس فروض العدل. وقد تألَّب السامريون في أيامه ليصعدوا إلى جبل غريزيم بأسلحتهم لأنَّ ماكراً وعدهم أن يريهم الآنية المقدَّسة التي قال أنَّ موسى أخفاها هناك. فعاجلهم بيلاطوس بجنوده وهزمهم وقطع رؤوس وجهائهم فشكوه إلى ويتلُّوس والي سورية الذي كان قنصلاً. فأمره أن يذهب إلى رومة ليبرئ نفسه من هذه القسوة الشديدة، وأرسل مرشلوس صديقه يدبِّر أمور اليهودية فسار بيلاطوس إلى رومة بعد أن ولي اليهودية عشر سنين والتقليد القديم جداً أنَّه نُفيَ إلى فيان في افرنسة وأنَّه انتحر هناك ليأسه كما روى أوسابيوس (ك ٢ فصل ٧).

روى القديس يوستينوس الشهيد (في محاماته) وتورتوليانوس (في محاماته فصل ٥) وأوسابيوس (في التاريخ البيعي ك ٢ رأس ٢ فصل ٣) وتابعهم كثيرون من القدماء والحدثاء: إنَّ بيلاطوس عملاً بعادة الولاة الرومانيين أن يرفعوا تقريراً للعاهل في كل حادث مهم قد كتب لطيباريوس يخبره بأمر يسوع المسيح وما صنع من الآيات وصلب اليهود له وقيامته بعد موته. وإنَّ العاهل كتب إلى الندوة حدث في هذه الأثناء بحسد اليهود ما كنت أنا شاهداً له. فإنَّ الله وعد آباءهم أن يرسل إليهم من السماء قدوسه فيكون ملكهم الحقيقي ويولد من عذراء، فانجز الله وعده في مدة ولايتي على اليهودية. ولمَّا رآه اليهود يرد البصر على العميان ويشفي المخلَّعين ويطهر البرص ويطرد الشياطين ويقيم الموتى ويأمر الأرياح فتطيعه، ويمشي على البحر ولا تبتل قدماه، ويصنع آيات أخرى كثيرة جعلت الشعب يحسبه ابن الله، فحسده رؤساء اليهود وقبضوا عليه وأسلموه إليَّ وأقاموا عليه شكاوي كثيرة كاذبة، وقالوا إنَّه ساحر وناقض لسنَّتهم. وأنا لظنِّي ما يقولونه

صحيحاً جلدته وسلمته إليهم فصلبوه وأقاموا على قبره حراساً لكنه قام في اليوم الثالث بينما كان جنودي يحرسون قبره. فاليهود وخبثهم أعطوا الحراس فضة وأوعزوا إليهم أن يقولوا أنَّ تلاميذه سرقوا جثّته، فأخذ الجنود الفضة وما تمالكوا أن يخفوا ما كان حقيقياً فقالوا إنَّ يسوع المسيح قام وإنَّ اليهود رشوهم بفضة ليخفوا الخبر. فلهذا رأيت من فروضي أن أصدِّقك الحديث على الحقيقة كي لا يصدق كذب اليهود».

عد ٤٨٠

أغريبا

إنَّ غايوس ألحق ولاية هيرودس أي الجليل وعبر الأردن بمملكة أغريبا سنة ٤٠ للميلاد بعد أن سمّاه ملكاً على ولاية فيلبوس عمّه سنة ٣٩ كما مرَّ في عد ٤٧٧. وهام غايوس بأن يحسب إلهاً ويجل كالآلهة. وأراد نصب تمثاله في هيكل أورشليم فقاومه اليهود شديد المقاومة اتَّصل الخبر بغايوس وأغريبا في رومة فاستدعاه، وهدَّده وتوعَّد اليهود لانفرادهم في مضادته حتى غمي على أغريبا، وحمل إلى فراشه. ولما أفاق كتب رسالة مطولة إلى غايوس حملته أن يرغب ولو إلى زمان عن اقامة تمثاله في الهيكل إلى أن حدثت مؤامرة على غايوس لجوره، وبغيه على الرومانيين أيضاً حتى قيل أنَّه كان عند حنقه يبدي تمنيه ولو كان لجميع ما يشعر بأنه متيقّن بصحة ما عمله المسيح، وأنّه يريد أن يخصَّ بالاكرام الذي يجلون به الآلهة. على أنَّ رجال الندوة لم يتابعوا على تيقُّنه ورغبته أنَّ ذكر ترتوليانوس والقديس يوستينوس رسالة بيلاطوس كما مر لا يقام عليه نكير. وكلامهما مؤذن بأنَّ تلك الرسالة كانت تتداولها أيديهم، على أنَّ أوسابيوس والقديس إيرونيموس اللذين دقّقا في هذه الأمور ومن كتب بعدهم لا يظهر أنَّهم رأوا تلك الرسالة أو طالعوا أصلها، لأنَّ نسخها الكثيرة التي بين أيدينا الآن ليست عن الأصل، ولا قديمة ولا تطابق إحداها الأخرى. والقديس غريغوريوس أسقف طور في فرنسة ذكر نسخة منها واعتدها من قلم بيلاطوس حقيقة مع أنَّ جوهرها مأخوذ عن الإنجيل المنسوب إلى نيقوديموس. والحاصل قد اختلفت أقوال الآباء العلماء في صحة رسالة بيلاطوس هذه إلى طيباريوس الملك. وقد ذكر هذه الأقوال كلمت في معجم الكتاب في كلمة

بيلاطوس ونطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الأوّل فصل ٤). والأولى أن يقال في هذا الشأن ما قاله دومينيك منسي في حواشيه على تاريخ نطاليس المذكور ومؤداه: «إنّه لا مراء في أنّ بيلاطوس البنطي كتب إلى طيباريوس منبئاً بما صنعه المسيح وما صنعه اليهود به لأنّه واضح من رسالة بلين الشهيرة إلى ترايانوس إنّ الولاة الرومانيين كانوا ينبئون العاهل بكل ما يحدث في الأقاليم المولين عليها. ولكن هل بقيت رسالة بيلاطوس إلى طيباريوس حتى الآن فهذا لا يمكن تأكيده. وهبها باقية فلا يمكن تمييزها عن غيرها من الرسائل الكثيرة والمختلفة التي أذاعها بعضهم مأخوذة عن الكتب القديمة المخطوطة، ولا يعلم أيُّها صحيح وأيُّها كاذب. وقد جمع فبريشيوس نسخاً عديدة من هذه الرسالة» إلى أن قال منسي «إنّه وجد نسخة في كتاب قديم خط في القرن الثامن وسيذيعها وهي تخالف النسخ التي ذكرها فبريشيوس». وإليك رسالة بيلاطوس إلى طيباريوس عن نسختها الأكثر تداولاً: «من بيلاطوس البنطي إلى طيباريوس الملك السلام قد الرومانيين راس واحد ليقطعه بضربة واحدة كما مرَّ، واغتاله رئيس حرسه في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ٤١ للميلاد. وكان أغريبا باقياً في رومة وكان له باع طويل في تسنم كلود منصّة الملك. ولمّا استتب له كافأه عن اياديه بإعطائه اليهودية كلها، فأصبحت مملكة أغريبا فسيحة الأرجاء واربت على مملكة جدّه هيرودس الكبير. فسرَّ اليهود به وطابت نفوسهم على أنَّ رغبته في ارضائهم وغلوه في التشبُّث بسنَّتهم بعثاه على الجور والبغي فقبض على يعقوب بن زبدى أخي يوحنا وقتله بالسيف سنة ٤٤ للميلاد كما جاء في كتاب أعمال الرسل (فصل ١٢ عد ١ وما يليه) الذي يسميه هيرودس، ثم قبض على بطرس الرسول وأودعه السجن ليقتله بعد الفصح فنجاه ملك الرب بمعجزة كما سيأتي.

قد أنبأنا يوسيفوس (ك ١٩ في تاريخ اليهود فصل ١) إنَّ أغريبا هذا أنال بيروت كثيراً من فضله فلم يضن بنفيس في بنائه فيها ملعباً Theatre ومشهداً وحمامات وايوانات جميلة. فأنشدت في Amphitheatre هذا المشهد أغاني لم تسمع قبلاً. وشوهدت فرج لم يسبق لها نظير، ولكي يرى الشعب مثالاً للحرب في بحبوحة الأمن أتى إلى هذا المشهد بأربع مئة رجل، وقضى عليهم بالموت وقسَّموا إلى قسمين فاقتتلوا واستلحموا حتى لم يبق فيهم حي.

وأنبأنا يوسيفوس أيضاً (في المحل المذكور) أنَّ أغريبا أتى إلى قيصرية في السنة الرابعة لملكه يشهد الملاعب المقامة تجلة للعاهل الروماني. وكان هناك عظماء المملكة

وشرفاؤها وبكّر في اليوم التالي إلى الملعب وعليه حلة نسجت بخيوط من فضّة. ولما وقعت عليه أشعة الشمس انبعثت منها أنوار ساطعة تغشي الأبصار فقال المتملقون الذين يفسد كلامهم قلوب الحكام كالسم الناقع إنّهم أكرموا ملكهم إلى حينئذٍ كانسان، لكنّهم يرون أنّه يلزم اجلاله كإله لأنّه يظهر لهم أنّه فوق طبيعة المائتين. فسكت أغريبا على هذا الكفر بدلاً من أن يجزى قائله شر الجزاء. ورفع نظره إلى‌ما فوق فجحد فوق رأسه بوماً على حبل فاعتده شؤماً عليه. وتطير به وتنفس الصعداء وشعر بمغص يقطع أمعاءه. والتفت إلى أصحابه قائلاً هوذا من جعلتموه يظن نفسه غير مائت يفاجئه الموت سريعاً، فحمل إلى قصره يكابد مر العذاب خمسة أيام وقضى في الخامسة والخمسين من عمره وفي السابعة لملكه. انتهى كلام يوسيفوس ملخصاً وهو مصداق لما جاء في كتاب أعمال الرسل (فصل ١٢ عد ٢٠ وما يليه) حيث قيل: «وكان (هيرودس أغريبا) حنقاً على الصوريين والصيداويين فحضروا إليه بنفس واحدة، وبعد أن استعطفوا بلستس الناظر على مخدع الملك التمسوا المصالحة لأنّ طعام بلدهم من أرض المملكة. وفي يوم معيَّن لبس هيرودس الحلة الملكية وجلس على المنبر وخطب فيهم، وكان الشعب يصيح أنَّ صوته صوت إله لا صوت انسان. وفي الحال ضربه ملاك الرب لأنّه لم يعط المجد لله فأكله الدود وأسلم الروح.

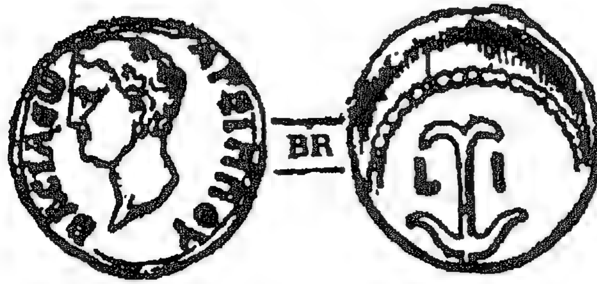
ومن الآثار ما ذكره ودينكتون (في كتابه في الخطوط اليونانية واللاتينية في سورية) فإنَّ الخطّ ٢٣٢٩ الذي وجده في قنوات حوران كتب فيه: «أغريبا الملك العظيم محب قيصر والرومانيين» والباقي محطَّم ولكن يؤخذ منه أن أغريبا (ورجح ودينكتون أنَّ المراد أغريبا الأوَّل) أذاع منشوراً يؤنِّب فيه أهل هذه البلاد على عيشتهم الهمجية. ويحثُّهم أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً ويرعووا عن نوع معيشتهم، وهذا رواه المؤرخون في تلك الأيام لاسيما عن سكان حوران واللجا، فإنَّهم قالوا إنَّهم كانوا يأوون إلى مغاور حرجة المدخل فسيحة الداخل لا مدن لهم، ولا أرضين تحرث. وكان لأهل البثنية نوع ما من الحضارة والحظ ٢٢١١ الذي وجده في المشنف (في البثنية) كتب فيه: «لسلامة مولانا الملك أغريبا أقام ...» والباقي محطَّم فكان المراد أنَّ رجلاً ما أقام تمثالاً أو أثراً لأغريبا، وقال ودينكتون إنَّ المراد هنا قطعاً أغريبا الأوَّل وكلمات الخط مؤذنة بأنَّه كتب بعد عود أغريبا من سفره إلى رومة ابان موت كاليكولا. وتملك كلود سنة ٤١ ويستفاد منه امتداد ملك أغريبا إلى

المنشف والخط ٢٤١٣ الذي وجده في حوران كتب فيه: «في السنة الثالثة لمولانا الملك أغريبا أقام أويدوس مليكاتو مذبحاً أو نصباً للمشتري» ورجَّح ودينكتون أنَّ الكلام في أغريبا الأوَّل.

عد ٤٨١

أغريبا الثاني

هو ابن أغريبا الأوَّل ووصفه يوسيفوس بالصغير أو الشاب تمييزاً له عن أبيه. قد ولد سنة ٢٧ م في رومة لإقامة أبيه حينئذٍ فيها ثم استمرَّ إلى أن توفي أبوه سنة ٤٤ وكان له وقتئذٍ من العمر ١٧ سنة، فوعده كلود بالخلافة لوالده لكنَّه أخلف وعده لدواعٍ أبانها له مستشاروه. وبعث إلى اليهودية كسبيوس فاروس ليليها نيابة عنه ثم جعل سنة ٥٠ أغريبا ملكاً على كاشيد إمارة صغيرة في لبنان الشرقي كانت قصبتها كلشيد محل عنجر كما مرَّ. وكان يليها قبله عمه هيرودس أخو أغريبا الأوَّل وكان كعمِّه مقلدة إليه حراسة هيكل أورشليم وخزينته والسلطان على تسمية رؤساء الكهنة وفي سنة ٥٢ م أقامه كلود ملكاً على الربع الذي كان لفيلبوس وهو الجولان والجيدور واللجا وحوران. ثمَّ ضمَّ إليه ولاية الابلية التي كان فيها ليسنياس وغيرها من المدن (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ٢٠ في فصول) ومسكوكات أغريبا كثيرة وإليك مثالاً منها فترى على الوجه الأوَّل مثال راس أغريبا مكتوباً حوله باسيلاوس أغريبا أي الملك أغريبا وعلى الوجه الثاني مثال مرساة وعلامة دالة على عشرة أي السنة العاشرة، ولعل المراد السنة العاشرة من تاريخ كاشيد وهي الثامنة والخمسون للميلاد.



وقد صحب أغريبا جنود الرومانيين في حملتين على البرتيين وأرمينيا. ولمّا ثار اليهود سنة ٦٦ م على فلورس والي اليهودية لاعتسافه وجوره أتى أغريبا إلى أورشليم يخمد جذوة ثورتهم، وأشار عليهم أن يخضعوا لفلورس إلى أن يصل والٍ يخلفه فحنقوا عليه حتى اضطر أن يهرول هارباً من المدينة. ولما التحم القتال ضمَّ جنوده إلى جيش الرومانيين. وبعد أخذهم أورشليم وسَّعوا تخوم مملكته على أنَّ أخبار هذا التوسيع وما كان من أغريبا بعده إلى مماته نادرة وغير مؤكدة فقيل إنّه مات سنة ١٠٠ م وعمره ثلاث وسبعون سنة وقد وجدت قطعتان من سكته ضربتا سنة ٩٥م، وقيل إنَّه مات في رومة حيث اعتزل مع اخته برنيكة. وكان أغريبا محباً العلوم والصنائع وخبيراً بسنين اليهود وأسفارهم المقدَّسة كما يظهر من قول بولس الرسول له (أعمال الرسل فصل ٢٦ عد ٢ وما يليه): «إنّي أحسب نفسي سعيداً أيُّها الملك أغريبا لأني أحتج اليوم أمامك... ولاسيما وأنت خبير بكل ما لليهود من سنن ومسائل» ومن قوله (عد ٢٦ و ٢٧): «والملك الذي أنا بين يديه أتكلّم بجرأة هو عارف بهذه الأمور ولا أظن أنَّه يخفى عليه شيء منها لأنَّ ذلك لم يحدث فيه زاوية. هل تؤمن بالانبياء أيُّها الملك أغريبا؟ أنا أعلم أنَّك تؤمن بهم. فقال أغريبا لبولس إنَّك بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً». وقد فسَّر بعض المفسّرين الكاثوليكيين هذه الآية بمعنى أنَّ أغريبا أفحمته حجج الرسول وكاد يؤمن بالمسيح. وقال غيرهم إنَّه قال ذلك هازلاً والصحيح أنَّ كلامه غامض مشكل، ولا ريب في أنَّه كان يدافع عن المسيحيين ولا أقل من أنَّه لم يضادهم، وأنَّه تحقق براءة بولس لأنَّه «قال لفستس: كان يمكن أن يطلق هذا الرجل لو لم يكن رفع دعواه إلى قيصر» عد ٣٢ وكان اليهود يأنون منه لممالأته الرومانيين وتودده إلى ولاتهم في اليهودية ولاسيما فستس كما يظهر من الأبركسيس (فصل ٢٥ عد ١٣ و ١٤). وكانوا يشكونه بأنَّه جعل تسمية الأحبار ذريعة لكسب المال. وإنَّه مالأ الولاة الرومانيين على استنزاف خزينة الهيكل وأنَّه كان مشغوفاً باخته برنيكة. وقد ترك آثار ابنية في بيروت وطيبارية (ملخَّص عن المعجم الكتابي لفيكورو).

وقال يوسيفوس (ك ٢٠ من تاريخ اليهود فصل ١١) إنَّ أغريبا زاد ابنية في قيصرية فيلبوس (بانياس) وجملها وسماها نيرونية اجلالاً لنيرون. وبنى في بيروت ملعباً عظيماً وكان يصنع كل سنة ملاعب للشعب فيه. وكان يوزّع براً وزيتاً على أهليها. ولرغبته في تجميل هذه المدينة نقل إليها قسماً كبيراً من كل ما كان نفيساً

ونادراً في غيرها من مدن مملكته. من ذلك كثير من التماثيل البديعة للمشاهير القدماء فمقته مسودوه ولم يصبروا على أن ينتزع ما كان زينة في مدنهم ليزين به مدينة أجنبية.

وأنبأنا يوسيفوس أيضاً (في المحل المذكور أنّه لمّا توفي فستس والي اليهودية وكان نيرون خلف الملك كلود سنة ٥٤ م أرسل البين ليلي اليهودية وحدث حينئذٍ أنّ الملك أغريبا انتزع يوسف من رياسة الكهنوت وقلّدها إلى حنان بن حنان (الذي كان في عهد المخلّص). وكان هذا جسوراً مقداماً ومن شيعة الصادوقيين الكثيري الغلو في سنّة اليهود. فانتهز فرصة وفاة فستس وتأخّر البين عن الوصول إلى ولايته فجمع مجمعاً، وأشخص فيه يعقوب أخا يسوع الملقّب المسيح (هو يعقوب بن حلفي المعروف بالصغير تمييزاً له عن يعقوب بن زبدي المعروف بالكبير. وهو من أنسباء العذراء ويوسف، ولذلك سماه أخا يسوع) وغيره وشكاهم بمخالفة السنّة وقضى عليهم بالرجم فأسخط هذا التجني كل من كان في أورشليم من أولي التقوى والمحبة الحقيقية لحفظ السنّة، فأرسلوا سراً إلى أغريبا يسألونه أن يردع حنان عن مثل هذا التجني إذ لا معذرة له بقبيح صنعه. ومضى غيرهم إلى لقاء البين الذي كان خرج من اسكندرية فأخبروه بما كان وأوضحوا له أن حنان لم يكن يسوغ له أن يعقد مجمعاً دون رخصة. فكتب إلى حنان يبين له سخطه عليه ويهدّده بالعقاب. ولما رأى أغريبا حنق البين عليه عزله من رياسة الكهنوت التي لم يتقلّدها إلّا أربعة أشهر، وأقام عليها يشوع بن دمناوس. هذا ما ذكره يوسيفوس عدو المسيحيين. ورواه أيضاً أوسابيوس في التاريخ البيعي (ك ٢) عن هاجيسيوس الذي كان في عهد خلفاء الرسل الأوّلين أي من سنة ١٣٠ للميلاد. ونرجئ باقي الكلام في يعقوب هذا إلى القسم الثاني من تاريخ هذا القرن. أمّا أغريبا فبعد أن دمّر الرومانيون أورشليم واليهودية اعتزل مع اخته برنيكة في رومة حيث قضى في آخر القرن الأوّل.

ومن الآثار له ما ذكره ودينكتون من الخطوط التي عثر عليها في محال عديدة وأوّلها الخط ٢١١٢ الذي وجده في قرية العيت في البثنية (مملكة باسان) حيث كتب: «في عهد الملك العظيم مرقس يوليوس أغريبا» (والباقي محطّم لا يتحصّل منه معنى) فكأن ذلك كتب تحت تمثال أو بناء . والثاني عد ٢١٣٥ وجده في دير الشاعر من العمل المذكور كتب فيه: «دارايوس الوالي من قبل الملك العظيم أغريبا

وقال ودينكتون روى يوسيفوس (كتاب ٢ في الحرب فصل ١٧) إنَّ أغريبا استأتى من حوران واللجا والبثنية ثلاثة آلاف فارس وأرسلهم إلى أرشليم في أوَّل ثورة اليهود حباً بالسلام. وأمر عليهم دارايوس فلا ريب في أنَّ دارايوس هذا هو الوارد اسمه في هذا الخط. والثالث عد ٢٣٦٥ عثر عليه في سيع على نصف ساعة من قنوات كتب فيه: «أقام هذا البناء فاروس وأغريبا ابنه في عهد الملك العظيم أغريبا محب قيصر وصديق الرومانيين ابن الملك العظيم أغريبا محب قيصر. وصديق الرومانيين» والرابع عد ٢٥٥٢ وجده في حلبون على مقربة من دمشق كتب فيه: «في عهد الملك العظيم مرقس يوليوس أغريبا محب قيصر وصديق الرومانيين أقام... على نفقته» (علم الشخص محطَّم) ومثله الخط عد ٢٥٥٣. وحلبون هي الوارد ذكرها في نبوة حزقيال (ف ٢٧ عد ١٨) بقوله «دمشق متجرة معك... بخمر حلبون بالصوف الأبيض» والأظهر أنَّ المراد بحلبون هذه المدينة في جوار دمشق لا حلبون القريبة من حلب أو حلب نفسها.

عد ٤٨٢

ولاة سورية من الرومانيين إلى حين حربهم لليهود

كان ولاة سورية الرومانيون يقيمون في أنطاكية وقد مرَّ أنَّ قورينوس كان يلي سورية في أيام المخلِّص. ثم خلفه نحو السنة العاشرة للميلاد سيلانوس فاستدعاه طيباريوس إلى رومة لظنِّه أنَّه صديق لقيصر الجرماني (وهو ابن أخي طيباريوس، وقد تبنَّاه الجرماني لانتصاره على الجرمانيين) الذي كان طيباريوس أرسله ليكون رئيساً للجيش في المشرق تخلُّصاً من مزاحمته له على الملك، وولى على سورية رجلاً اسمه بيزون محرزاً ثقته. وشعر الجرماني أنَّ بيزون يخالفه ويتجسَّس أعماله فعزله من منصبه سنة ١٩م، وأمره أن يعود إلى رومة فأذعن له لكنه دسَّ سماً قبل سفره للأمير فأسقمه بعد حين وأماته. وقال عند احتضاره أنَّه لا يمتري في أن بيزون أهلكه وحضَّ أغريبين امرأته التي كانت بنت أغوسطوس قيصر وأصحابه أن يثأروا بدمه منه، فعادت أغريبين إلى رومة وأقامت في الندوة دعوى القتل على بيزون ورأى أنَّه سيحكم عليه فانتحر سنة ٢٠ م.

وأقام رؤساء الرومانيين بعد مفارقة بيزون أنطاكية سنتيوس ساتورنينوس على ولاية سورية. فدبّر شؤونها ثلاث سنين لأنَّ اليوس لميا الذي نصبه طيباريوس والياً على سورية لبث في رومة ولم يغادرها فلم يعده المؤرخون من ولاة سورية. ثمَّ عزل طيباريوس ساتورنينوس وأقام على سورية بمبايوس فلاكوس سنة ٢٣ م فوليها عشر سنين ومات فيها سنة ٣٣ م وقال الأب لنكرو وجدت قطعة من سكة فلاكوس ضربت وعليها تاريخ سنة ٨٢ م فيظهر أنَّ هؤلاء العمال الذين كان طيباريوس يرسلهم إلى سورية لم يؤرِّخوا بسني ملك أغوسطوس بل بتاريخ متعارف في أنطاكية. فإنَّ سنة ٨٢ لا توافق تاريخ أغوسطوس لأنَّ فلاكوس مات في ولايته على ما روى تاسيت سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ لأغوسطوس وهي سنة ٣٣ للميلاد»، واستمرَّت أنطاكية ولا عامل يليها سنتين إلى أن نصب عليها طيباريوس لوشيوس ويتليوس سنة ٣٥م. وفي السنة الثانية لولايته شكا اليهود والسامريون إليه بيلاطوس البنطي فعزله سنة ٣٨ م وأرسله إلى رومة، فنفي إلى فيان في افرنسة كما مرَّ (عد ٤٧٨) ولم يبقَ ويتليوس على ولاية سورية إلّا أربع سنين. واستخلفه الملك غايوس بيليوس بترونيوس سنة ٣٩م فدبَّر أمور هذا الاقليم بالحزم والحلم، وأمره غايوس أن يرغم اليهود على وضع تمثاله في هيكلهم في أورشليم.

وحضر إلى عكا بجيش كثيف يهدِّد اليهود بالحرب فأبوا اجابة سؤاله ولم يرعهم وعيده ولم يثنهم وعده. فأمرهم أن يجتمعوا في طيبارية وخطب فيهم مبيناً غوائل إصرارهم فلم يذعنوا، فكتب إلى الملك مستعطفاً حلمه وموردًا حججهم. وكان أغريبا كتب إلى الملك رسالته المشار إليها عد ٤٧٩ فخمدت ثورة غضبه ثم بلغه أنَّ اليهود حملوا السلاح، فكتب إلى بترونيوس يهدِّده بالموت لتساهله معهم ولإيثاره درهمهم على نفوذ أمره، فلم تبلغ رسالته إلّا بعد موت غايوس. وخلف بترونيوس فيلبس مرسوس سنة ٤٢ م في ولاية سورية وكثر النزاع بينه وبين أغريبا ملك اليهودية، فالتمس هذا من العاهل كلود تبديله فاستدعاه الملك إلى رومة ونصب مكانه غايوس لنجينوس سنة ٤٥م واستمرَّ على ولايته إلى سنة ٥٢م، وخلفه حينئذٍ غايوس كودراتوس. وكان فيْ أيامه نزاع شديد بين اليهود المقيمين في الجليل وبين السامريين أفضى إلى قتل بعض اليهود، وكان والي اليهودية حينئذٍ يسمى كومانوس فشكا اليهود أمرهم إليه فلم ينصفهم لأنَّ السامريين رشوه، فحمل بعض اليهود السلاح ووثبوا على بعض قرى السامريين فانتهبوها وحرقوها، فجمع

كومانوس رجالاً وتعقبهم فقتل كثيرين وأسر غيرهم. وكان كودراتوس حينئذٍ في صور وبلغه ما كان، فأتى السامرة ثم سار إلى اللد فوقف على جلية الأمر، وقتل خمسة رجال ممَّن تسببوا بهذه الثورة وأرسل كومانوس وحنانياس رئيس الأحبار وبعض أعيان اليهود والسامريين إلى رومة، وبعد سماع الملك كلود حجج الفريقين وجد أنَّ السامريين علة في هذه الفتنة فقتل أعيانهم الذين أرسلوا إلى رومة. ونفى كومانوس (يوسيفوس ك ٢٠ في تاريخ اليهود فصل ٥) ومات كودراتوس في سنة ٦٠ م وخلفه في الولاية على سورية دوميتيوس كربولون وكان رئيس الجيش الروماني في المشرق. فدبَّر شؤون سورية إلى سنة ٦٥ م واستدعاه نيرون الذي رقى إلى منصَّة الملك سنة ٥٤ م وأقام مكانه لوشيوس غاليوس وأمره بمحاربة اليهود فانتصروا عليه في ٨ تشرين الثاني سنة ٦٦م. فكتب إلى نيرون يعزو انخذال جنوده إلى خطأ فلورس والي اليهودية وكانت حينئذٍ الحرب التي دمَّرت أورشليم واليهودية وبدَّدت اليهود كما سترى.

عد ٤٨٣

ولاة اليهودية بعد بيلاطوس إلى بداية حربهم مع اليهود

ذكرنا قبلاً ولاة اليهودية إلى بيلاطوس البنطي، ونقول الآن أنَّه بعد نفي بيلاطوس البنطي ويتلوس مرشلوس والي سورية على اليهودية وأثبته غايوس الملك، لكنه نصب عليها بعد ذلك أغريبا الأوَّل كما رأيت (في عدد ٤٧٩) ولما توفي سنة ٤٤ م رغب عن نصب ابنه أغريبا الثاني عليها لصغر سنِّه وانقياداً لمشورة مستشاريه. وأقام عليهم كوسبيوس فاروس لأنَّه كان صديقاً لآل أغريبا ومن أخباره، أنَّه لدن وصوله إلى أورشليم وجد أن حدث نزاع بين اليهود المقيمين في عبر الأردن وبين أهل فيلادلفيا (وهي عمان الآن). وقد وثب اليهود شاكي السلاح على أهل هذه المدينة دون مشورة حكامهم وشيوخهم وقتلوا كثيرين منهم، فقبض على ثلاثة من اليهود ممن كانوا سبباً لهذا التجني وقتل أحدهم ونفى الاثنين. وبعد مدَّة قبض على لص اسمه تلماوس كان يسطو على الأدوميين والعرب وقتله وأراح اليهودية من مقلقي الراحة العامة.

وقد بلغ الكهنة ووجوه أورشليم أمر الملك أن يضعوا ملابس الأحبار في قلعة

أنانيا في أورشليم ليحتفظ عليها وفيها الجنود والرومانيون. فقلق اليهود من هذا ولم يصوبوا المقاومة لأمر الملك فأرسلوا وفداً إلى رومة يسألونه أن يبقي لهم على حريتهم في حفظ ملابس أحبارهم. فانعطف كلود لاجابة سؤالهم تكرمة لأغريبا الثاني الذي كان لائذاً بعقوته. وأمر الوفد أن يمضي إليه ويشكره على ذلك. وكتب رسالة إلى اليهود يؤمنهم بها ويبوح بانعطافه إلى أغريبا وباجابة سؤالهم حباً به (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ٢ فصل ١ و ٢). على أنَّ فاروس لم يستمر على ولايته في اليهودية إلَّا سنتين وخلفه فيها سنة ٤٦ م طيباريوس اسكندر بن اسكندر الأبرش من الاسكندرية، وكان أبوه يهودياً لكنه ارتدَّ عن مذهب اليهود وكان أغنى أهل الاسكندرية، وفي أيامه حصلت مجاعة شديدة في اليهودية، وهذا الوالي قتل يعقوب وسمعان ابني يهوذا الجليلي اللذين كانا هيجا اليهود ليثوروا على الرومانيين بأثر إحصاء قورينوس اليهود. وقام في ولايته سنتين أيضاً وخلفه فيها سنة. ٤٨ م كومانوس المار ذكره. وكان من الأحداث في أيامه أنَّ جندياً رومانياً من حراس باب الهيكل كشف في أيام عيد الفطير عن عورته على مرأى كثيرين من الشعب، فاستاء الجمهور من فظاعة صنعه وحسبوه إهانة لهم بل لله أيضاً. وأخذ المتحمسون يطعنون على كومانوس الوالي قائلين أنَّه بأمره أقدم الجندي على ما بدا منه.

فحنق كومانوس لهذا الطعن وأمر الجند أن يدخلوا بسلاحهم إلى قلعة أنانيا المشرفة على الهيكل. فتوهَّم الناس أنَّ الجنود يثبون عليهم فتهافتوا على الفرار. وازدحموا في الأزقة الضيقة حتى مات منهم كثيرون وانقطع الناس عن الصلوات وتقدمة الذبائح في الهيكل. وانقلب فرحهم بالعيد نوحاً ثم التقى بعضهم في خارج أورشليم بخادم للملك اسمه اسطفان فسلبوه كل ما كان معه. فارسل كومانوس جنوده إلى القرى المجاورة أورشليم لينكلوا بأهلها ويشخصوا أوجهها إليه، فعثر جندي على أسفار موسى فمزقها على مرأى الجمهور، وأكثر من الشتائم للسنة والأمَّة فهاج اليهود وماجوا ولم يصبروا على الإهانة، وأتوا الجم الغفير إلى كومانوس في قيصرية يسألونه معاقبة من جنى على إلههم بتمزيق أسفاره. وخشي ثورتهم عليه فقتل ذلك الجندي وتشفَّت صدورهم واستكانوا. وقد مرَّ بك آنفاً ما أجراه كومانوس عند نزاع اليهود في الجليل والسامريين وهو ما أفضى إلى ارساله إلى رومة ونفيه (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ٢٠ فصل ٣ و ٤).

وخلف كومانوس كلود فيلكس الذي كان والياً على السامرة والجليل فأُلحقت

اليهودية بولايته سنة ٥٢ م وكانت اليهودية في أيامه في أسوأ حال فقد كثُر فيها اللصوص والمكارون ولم يكن يوم يمرّ إلَّا ويعاقب فيه فيلكس بعضهم. وكان من هؤلاء اللصوص رجل اسمه العازر صحبه قوم على شاكلته فاستدعاه فيلكس وأمنه فأتى فأرسله أسيراً إلى روما. وكان فيلكس يمقت يوناتان عظيم الأحبار لتونيبه له على سوء تصرفه. فرشا رجلاً اسمه دورا من أورشليم ليغتاله فاستدعى دورا بعض اللصوص فأتوا إلى أورشليم متظاهرين بالتقوى ودخلوا بين خدمة عظيم الأحبار وخناجرهم تحت أرديتهم فقتلوه، ولم يجزوا على جنايتهم الفظيعة فازدادوا جرأة، وكانوا يأتون في الأعياد وينسابون بين الجمع فيقتلون من أبغضوه ومن رشوا على قتله حتى كانوا يرتكبون هذه الجرائم في الهيكل. روى ذلك يوسيفوس (ك ٢٠ فصل ٥ من تاريخ اليهود). وقال من يتعجّب من هذا بعد أن نظر الله إلى أورشليم بعين الغضب وبعد أن أمسى بيته المقدَّس خلياً من القداسة التي تجعله مكرّماً. فقد أرسل الرومانيين ليعاقبوا هذه المدينة التعيسة بالسلاح والنار ويسبوا سكانها مع نسائهم وأطفالهم لعلَّهم يستفيقون بالعقاب الأليم من سكر اثمهم».

وكان هؤلاء اللصوص يملأون المدينة من القتلى وكان بعض المكّارين يستجذبون الناس من البرية مموّهين أن يروهم آيات ومعجزات. فقبض فيلكس على بعض هؤلاء وسجن بعضاً وقتل بعضاً. وأتى حينئذٍ مصري يدعى النبوَّة وزيَّن لكثيرين أن يتبعوه إلى جبل الزيتون فيلفظ بعض كلمات فتُدكّ أسوار أورشليم. وعلم فيلكس بذلك فتداركه بفريق من جنده فقتلوا ممن أتبعوه أربع مئة رجل، وأسروا مئتين ولم يكن عقاب بعض اللصوص يروِّع الباقين بل استمروا يهيِّجون الشعب على الشغب والثورة على الرومانيين قائلين نفذ صبرهم على تحمُّل نير الرومانيين غير المحتمل. وكانوا ينهبون ويحرقون قرى من لا يتبعهم (يوسيفوس في المحل المذكور).

وفيلكس هذا هو الذي شكا حننيا رئيس الكهنة مع بعض الشيوخ بولس الرسول أمامه، إذ أوثقه قائد آلاف في أورشليم وأرسله إليه في قيصرية كما في كتاب أعمال الرسل (فصل ٢٣ و ٢٤). فأمر فيلكس قائد المئة أن يحرسه ويعامله برخصة ولا يمنع أحداً من خواصه عن خدمته. ولما سمع كلام بولس في البرّ والعفاف والدينونة ارتاع وكان يستحضره مراراً، ولكن قال الكتاب: «إنه كان يؤمل أيضاً أن يعطيه بولس رشوة... ولما انقضت سنتان خلف فستس فيلكس».

إنَّ قول الكتاب هذا مطابق لمارواه المؤرخون العالميون إذ قالوا إنَّ فستس خلف فيلكس وكان ذلك سنة ٦٠ للميلاد. فإنَّ نيرون الملك استدعى فيلكس إلى روما لتظلُّم اليهود منه، وأرسل مكانه فستس فوجد اليهود في حال يرثى لها من اللصوص وتهيّج المشاغبين على سلب الراحة والطمأنينة. من جملة ذلك أنَّ رجلاً كان يدَّعي السحر استجذب كثيرين من البرية واعداً أن ينقذهم من كل سوء فوجّه إليهم فستس كتيبة من الفرسان والرجالة فبددوا شملهم. وقد بنى في أيامه اغريبا داراً تجاه القصر الملكي في أورشليم الذي كان المكابيون قد بنوه. وكانت هذه الدار مشرفة على المدينة كلها وكان اغريبا يرى من غرفته فيها كل ما يحدث حول الهيكل. فشقَّ على أعيان اليهود هذا النبأ لحَظر سنَّتهم التشرّف لما يكون في الهيكل لا سيما عند تقدمة الذبائح. فأقاموا حائطاً رفيعاً يصدّ اغريبا عن رؤية ما يكون في الهيكل وفي الرواق الذي بجانبه ويمنع جنود الرومانيين من أن يخفروا الهيكل أيام الأعياد. فاستاء اغريبا وفستس وأمر بنقض ذلك الحائط فلم يذعن اليهود بل لجأوا إلى نيرون وأوفدوا إليه عشرة من وجهائهم واسمعيل رئيس الكهنة وكلشياس خازن الهيكل. وشفعت بهم بوبيا امرأة نيرون لديه فعفا عن اليهود ورخَّص لهم في بناء الحائط، ولكنه أمسك رئيس الكهنة والخازن عنده رهينة ليخلص اليهود في الطاعة له (يوسيفوس ك ٢ فصل ٧ من تاريخ اليهود). وفستس هذا هو الذي شكا اليهود بولس بحضرته في قيصرية وسمع له أولاً وحده ثم بحضرة اغريبا الملك كما مرّ (في عد ٤٧٨). واستغاث بولس بمحكمة قيصر كما في كتاب اعمال الرسل (فصل ٢٥ و ٢٦).

ومات فستس سنة ٦١ م وأقام نيرون مكانه البين فلم يدع شراً إلَّا وصنعه، وكان يتجر بحقوق العباد ويغصب أموالهم، وأثقل اليهودية بضرائب حديثة. وكان يُطلق من السجون من أودعتهم الحكومة إياها أو ألقاهم أسلافه فيها بحيث ينقدونه مالاً ولا يعتدّ مجرماً إلَّا من لم يدفع له شيئاً. وقد تزلَّف إليه الأغنياء بتقادمهم وسُرَّ به المشاغبون لأنَّ تصرفه أفسح المجال لثورتهم. ولما استدعاه نيرون إلى روما سنة ٦٤م فتح كل السجون فأملأ اليهودية من اللصوص والقَتَلة (يوسيفوس في الحرب ك ٢ فصل ٢٤). وخلفه سنة ٦٥ م جسيوس فلورس فأنسى اليهود بجوره كل المظالم التي كانت في أيام أسلافه. ونرجئ باقي الكلام فيه إلى الفصل الثاني إذ ابتدأت الحروب بين اليهود والرومانيين في أيامه.

وهذه صورة نيرون عن تمثاله في متحف اللوفر



الفصل الثاني

ذكر الحروب بين اليهود والرومانيين

نعتمد في كلامنا في هذه الحروب على ما دوَّنه يوسيفوس اليهودي في تأليفه الذي أفرده لها والموسوم بحرب اليهود للرومانيين من الفصل الخامس والعشرين من الكتاب الثاني فصاعداً إلى الختام. فهو ثقة في ما كتبه عن أُمَّته وشاهد عياني لهذه الحروب بل كانت له بعض وقائع فيها وأُخذ أسيراً كما سترى.

عد ٤٨٤

ايقاد فلورس نار الحرب وما كان في مدة ولايته

كان فلورس جائراً ظالماً لا يكتم جوره بل يتباهى به صارفاً مجهوده في أن يغني نفسه بأموال الناس. وكان ينتهب المدن والقرى حتى أرغم كثيراً من الأغنياء وممن لا يطيقون البغي أن يهاجروا البلاد. وكان غلّوس يومئذٍ والياً في سورية فلم يجسر أحد من اليهود أن يمضي إليه فيتظلَّم من فلورس، لكنه اتَّفق أن شخَصَ غلّوس إلى أورشليم في عيد الفصح في ربيع سنة ٦٦ م وكانت أقدام الحجّاج تزدحم هناك، فشكوا إليه وسألوه أن يرفق بهم وينجّيهم من الداهية الدهماء التي حلَّت بهم بأن يبعد فلورس عن ولايته. وكان هذا الكلام على مسمع من فلورس فكان يسخر من قائليه فوعدهم غلّوس بأن ينصح فلورس ليغيِّر تصرفه. وعاد إلى انطاكية وصحبه فلورس إلى قيصرية، وفكّر أنه إذا دام السلم في اليهودية شكاه اليهود إلى نيرون فيحطه من منصبه، وأما إذا اتَّقدت نار الوغى فيخفي دخانها. وظلَّ قسطلها جرائمه فزاد في شرّه واعتسافه ليبعثهم على الثورة.

وكان في قيصرية نزاع بين اليهود ومواطنيهم من الوثنيين، فكان اليهود يدَّعون أنَّ هذه المدينة لهم لأنَّ هيرودس ملكهم بناها. وأولئك يدَّعون أنَّ مدينتهم كانت قبل هيرودس وإن جدَّد أبنية فيها. وأنه لو أراد أن يخصَّها باليهود لما أقام فيها هياكل وتماثيل لهم. ورُفعت الدعوى إلى نيرون فحكم بها للوثنيين على اليهود. وكان لأحد الوثنيين محل في جانب مجمع اليهود رغبوا إليه أن يبيعهم إياه لو بأكثر من قيمته فأبى، وأخذ يبني حوانيت تضيِّق ممر المجمع. وأراد بعض الشبان اليهود المتحمسين أن يكفّوا العمَلة عن البناء فردعهم فلورس عن المعارضة.وقدَّم له وجهاء اليهود مبلغاً من المال فوعد بأن يوقف البناء. ومضى للحال من قيصرية إلى سبسطية (السامرة) ليفتح مجالاً للقتال بين اليهود والوثنيين. وكان اليوم التالي سبتاً فأخذ أحد الوثنيين يذبح طيوراً على باب المجمع عند خروج القوم منه. فاستاء اليهود من ذلك وحسبوه ابتذالاً لسنَّتهم، فالتحم القتال بين الفريقين ولم يستطع الحرس أن يفرِّق الجمعين. واسرع بعض وجهاء اليهود يشكون أمرهم إلى فلورس في السامرة فألقاهم في السجن مكان أن ينصفهم من خصومهم.

وسمع اليهود في أورشليم خبر هذه المعاملة الجائرة فقلقوا، وأرسل فلورس يطلب من خزينة الهيكل مبلغاً جسيماً من المال محتجاً بأن يصرفه في حاجات للملك. فتراكض الشعب إلى الهيكل يصيحون مستغيثين باسم قيصر لينقذهم من هذا الوالي المعتسف، ويفوه كثير منهم بشتائم ولعنات لفلورس، وبعضهم يستعطي الصدقة من الآخرين لفلورس تهكماً عليه، كأنه سبروت فقير. أما هو فبدلاً من أن يُسرع إلى قيصرية ليُخمد جذوة القتال فيها سار بجيشه من فرسان ورجالة تواً إلى أورشليم لينتقم ممن قذفوه أو عارضوا نفوذ أمره. ولما دنا من المدينة خرج الشعب للقائه والترحيب اخماداً لغضبه. فأرسل إليهم خمسين فارساً يأمرهم بالعود إلى بيوتهم قائلاً إنه لا تغنيه تملقاتهم له بالخروج للقائه عن الإهانات التي ألحقوها به، وإنه يخشى أن يُسمعوه بحضرته ما اغتابوه به بغيبته. فوثب أولئك الفرسان على الجمع فبددوه وعاد كلٌ إلى محله واجساً مرتعداً، وفي الصباح مضى إليه وجهاء الكهنة وسراة الشعب. فقام على المنبر يطلب منهم أن يُسلموا إليه للساعة كلَّ من اغتابوه. فأجابوه أنَّ الشعب كلَّه مقيم على الاخلاص في الطاعة له، وإنه في الاجتماعات العامة لا بدَّ أن يفوه بعض السفلة بما لا يرضاه الجمهور. وإنهم لا يعرفون من هؤلاء السفلة من فرط منه لا يخل بكرامة واليهم. فزاد هذا الجواب فلورس حنقاً وأمر جنوده أن ينتهبوا كل ما يجدون في السوق العليا وأن يقتلوا كل من وجدوا. فاندفع الجنود ينهبون كل ما في الأسواق والبيوت ويقتلون كلَّ من تمكنوا من قتله ولو كان من النساء والأطفال، فبلغ عدد القتلى يومئذٍ ثلاثة آلاف وست مئة وقبضوا على بعض الوجوه وجلدوهم ثم صلبوهم وكان هذا في ١٦ أيار سنة ٦٦ م.

وكانت برنيكة أخت الملك اغريبا في أورشليم فأرسلت إلى فلورس مرات تسأله أن يكفّ جنوده عن سفك الدماء فأعارها أذناً صمّاء. وخرجت بنفسها إليه فأوشك الجنود أن يقتلوها لولا أن تفرّ عائدة إلى قصرها. وفي اليوم التالي أي ١٧ أيار أمر فلورس أهل أورشليم أن يخرجوا إلى لقاء فريق من جنده آتٍ من قيصرية قائلاً إنَّ هذا يحقق له انقيادهم لطاعته فينكفّ عن التنكيل بهم. وأرسل يقول لقائد الجند أن يبطش بالأهلين. فتردَّد الأهلون عن الخروج إلَّا أنَّ الكهنة وسراة الشعب أقنعوهم بذلك فخرجوا وحيّوا الجنود فلم يجيبوهم. وتذمَّر اليهود فوثب الجند عليهم يضربونهم وانهزموا أمامهم، فتتبعهم الفرسان وداست خيولهم كثيرين ومات

كثيرون. وازدحمت الأقدام في مدخل المدينة وكان الجنود الرومانيون يجدّون في أن يسبقوهم إلى الهيكل وقلعة انطونية[1] فقتلوا كثيرين.

ولما رأى اليهود الرومانيين متسارعين إلى الهيكل وقلعة انطونية عاودتهم الحمية وتألبوا فأمطروا على الجنود تهتان حجارة منعهم المسير. ونقضوا البناء الموصل بين القلعة والهيكل فخاب أمل فلورس من انتهاب خزينة الهيكل. واستدعى وجوه المدينة وصرّح لهم بعزمه أن يترك مدينتهم حباً بالسكينة ولا يترك فيها من الجنود إلّا قليلاً من الخفراء أباحهم أن يختاروهم. فاختاروا جوقة يرأسها رجل ضعيف جبان ومضى فلورس إلى قيصرية. وانقسم الشعب إلى حزبين. صوَّب بعضهم الحرب والعصيان على الرومانيين، وبعضهم السكينة والانقياد لهم. وعاد وقتئذٍ الملك أغريبا من الاسكندرية فخطب فيهم خطبة أفصح فيها عن قوّة الرومانيين وغوائل المناوأة لهم. فأذعن السواد الأعظم منهم لكلامه وهمّوا أن يجددوا بناء ما نقضوه وأن يجمعوا ما بقي عليهم من الخراج. ولما رأى اغريبا امتثالهم لمشورته اسمعهم أن يحسنوا الطاعة لفلورس إلى أن ينصب العاهل خلفاً له. فهاجوا وماجوا حتى طردوا اغريبا من المدينة وأوسعوه شتائم ورماه بعض المتحمسين بالحجارة فانصرف إلى مملكته.

ومضى بعض مريدي الحرب إلى قلعة ماسدة (على مقربة من البحر الميت غرباً) ففتكوا بالخفراء الرومانيين وأقاموا فيها خفراء من أمّتهم، وأمر اليعازر رئيس الكهنة أن لا يقبلوا تقادم للهيكل من أجنبي عن اليهود ولو كان العاهل. فعظم الأمر على الكهنة ووجهاء الشعب لأنه تصريح بالعصيان على الرومانيين. وأرسلوا يسألون فلورس واغريبا أن يمداهم بجنود لكبت المشاغبين فلم يحفل فلورس بسؤالهم ليزيد النار اضطراماً. وأرسل اغريبا إليهم ثلاثة آلاف رجل والتحم القتال بين الثائرين ومريدي السلم. فكان الفوز للمشاغبين لتوفّر عديدهم فأحرقوا قصر الملك اغريبا والملكة برنيكة أخته ودام القتال سبعة أيام من ٨ آب إلى ١٤ منه. وكان في

---

(١) هذه القلعة بناها المكابيون وكانت قصراً لملوكهم ثم وسعها وجملها هيرودوس الكبير وسماها انطونية باسم مرقس انطونيوس صديقه وكانت في الزاوية الشمالية الشرقية من الهيكل حيث الآن الثكنة العسكرية. وقد جاء ذكرها مرات في الابركسيس عند الكلام في القبض على بولس الرسول مسماة المعسكر أي محل العسكر.

الخامس عشر منه عيد فزاد عدد الثائرين واستظهروا على مخاصميهم. وحاصروا قلعة انطونية وكان فيها الخفراء الرومانيون فافتتحوها في السابع عشر من آب وقتلوا بالسيف من كان فيها. ثم توجهوا إلى قصر هيرودس حيث كان الجنود الرومانيون ورجال اغريبا فحاصروهم فيه ثمانية عشر يوماً فاستسلم إليهم اليهود ورجال اغريبا وفرّ الرومانيون، وتحصّنوا في ثلاثة أبراج على سور المدينة. فدخل الثائرون المحال التي تركها الرومانيون وقتلوا كل من وجدوه وأحرقوا القلعة وكان ذلك في السابع من أيلول. وقام بينهم رجل اسمه منحيم ابن يهوذا الجليلي فألب إليه جماعة من الحمسين واللصوص. وأتى أورشليم وسمّى نفسه ملكاً وقاتل مع المشاغبين واستعظم نفسه بانتصارهم، وسطا على اليعازر رئيس الكهنة وغيره فتآمروا عليه وقتلوه في الهيكل. وعاد المشاغبون يضيّقون على الجنود الرومانيين في أبراجهم حتى اضطروا أن يطلبوا الأمان، فأعطوه على شرط أن يسلّموا سلاحهم إلى اليهود. ولم يسلموا سيوفهم إلّا ووثب عليهم المشاغبون وقتلوهم عن آخرهم واستبقوا رئيسهم فقط لأنه تهود. وفي ١٧ أيلول سنة ٦٦ م لم يبقَ في أورشليم روماني.

عد ٤٨٥

مقتل اليهود في مدن عديدة

بلغ إلى قيصرية خبر قتل الثائرين الجنود الرومانيين في أورشليم، فاستغنم اليونان والسوريون سكان هذه المدينة هذه الفرصة ووثبوا على اليهود فقتلوا منهم عشرين ألفاً بامداد فلورس؛ فهذه المقتلة بعثت أمّة اليهود على الحنق والانتقام من الوثنيين. فدمروا قرى ومدناً عديدة وقتلوا كل من وقع بيدهم، فثار عليهم السوريون ووثبوا على قرى اليهود ومدنهم فنهبوا وقتلوا وأحرقوا. وأمست سورية في حالة يرثى لها فلم تكن مدينة إلّا وتوفّر فيها الشغب والقلق والقتال. وكان اليهود والوثنيون في سيتوبولي (أي بيسان) اتفقوا على أن يسالم بعضهم بعضاً ويكبحوا معاً كل معتد عليهم، فوفد بعض اليهود إلى هذه المدينة فقاتلهم سكانها وأبعدوهم عنها ولمّا رأى الوثنيون زوال الخطر عنهم أخلفوا وعدهم ووثبوا ليلاً على اليهود فقتلوا منهم ثلاثة عشر ألفاً. واشتهر بينهم حينئذٍ رجل اسمه سمعان بن شاوول تفرّد بالمدافعة عن نفسه وذويه وجندل كثيرين ونجا، لكنه ندم على محاربته قومه مع الوثنيين ولا

ندامة الكسعي فقتل أباه وأمه وامرأته وبنيه؛ ثم وجا صدره بالسيف فمات على جثث أهله. ولما اتصل بسكان باقي المدن ما أجراه أهل بيسان ثاروا على اليهود فقتل أهل عسقلون منهم ألفين، وأهل عكا ألفين، وذبح أهل صور كثيرين وسجنوا كثيرين. وكذلك صنع الوثنيون في مدن عديدة. وأما أهل انطاكية وصيدا واباميا فأبقوا على اليهود فلم يبسلوهم ولم يسجنوهم لقلّة عديدهم ولأنهم لم يروا منهم ما يخلّ براحتهم. وأما مملكة اغريبا وهي الجولان والجيدور وحوران فلم ينجُ أهلها لأنَّ اغريبا مضى لزيارة غلّوس والي سورية في قيصرية، وأناب عنه رجلاً اسمه فاروس أتى إليه وجهاء بعض المدن من اليهود يسألونه أن يُرسل إليهم جنوداً للمحافظة على راحتهم. فبدلاً من أن يحسن ملتقاهم بعث قوماً قتلوهم ليلاً عن آخرهم، ثم لم يدع جوراً واعتسافاً إلّا وأقدم عليه. ولما بلغت اغريبا أخبار ظلمه عزله ولم يقتله لاتصال نسبه بأحد ملوك العرب.

وكان الاسكندريون يبغضون الهيود المقيمين في مدنهم وكان الملوك اليونانيون والرومانيون أولوهم حقوقاً مدنية وامتيازات دينية فاغتنم الاسكندريون فرصة خروج أمّتهم على الرومانيين واجتمعوا في الملعب يتفاوضون في ارسال وفد إلى نيرون. وانسلَّ بينهم بعض اليهود فحسبوهم جواسيس وقبضوا على ثلاثة منهم وأرادوا حرقهم أحياء. فتسارع اليهود مدجّجين بالسلاح لينقذوا اخوانهم وهدَّدوا خصومهم بحرق الملعب بهم. وكان والي المدينة اسكندر طيباريوس رجلاً ارتدَّ عن مذهب اليهود وصار وثنياً فأطلق لجنوده أن ينكلوا بهم. فاندفعوا على اليهود كالضواري فقتلوا منهم خمسين ألفاً وانتهبوا بيوتهم وحوانيتهم.

ولما رأى غلّوس والي سورية الهياج على اليهود من كلِّ فجّ جمع جيشاً سار به إلى عكا. وانضمّ إليه كثيرون من سكان المدن المجاورة لها وأمدَّه اغريبا ببعض جنوده. فزحف قائد الجيش الروماني إلى زابلون ففرَّ أهلها إلى الجبال فانتهبها وأحرق بيوتها التي لم تكن أبنية صور وصيدا وبيروت أحسن منها. ونهب وأحرق القرى المجاورة لها وعاد إلى عكا فشجَّع عوده اليهود وتعقَّبوا السوريين. فقتلوا منهم ألفَي رجل أكثرهم من بيروت كانوا تباطأوا لطمعهم بالإسلاب. ثم سار غلّوس من عكا إلى قيصرية وأرسل كتائب من جيشه إلى يافا فباغتوا أهلها وقتلوهم عن آخرهم. ونهبوا المدينة وأحرقوها وكان عدد القتلى ثمانية آلاف وأربع مئة. وأرسل غلّوس كتيبة من فرسانه إلى جهة السامرة فقتلوا كثيرين من الأهلين. ثم أرسل

غلّوس فريقاً آخر إلى الجليل ففتحت مدينة صافوريس (المعروفة الآن بصفورية في شمالي الناصرة غير بعيدة عنها) أبوابها للجنود الرومانيين واقتدى بها غيرها من المدن، على أنَّ المشاغبين الذين لا يهوون إلَّا الثورة والسطو اعتزلوا في جبل عرمون المقابل لصفورية، فسار إليهم الجنود فظهروا عليهم وقتلوا منهم أكثر من مئتي رجل وأحدقوا بالجبل من كل جهة فقتلوا منهم نحو ألف رجل. وفرَّ قليلون وعرف غلّوس أنَّ كثيراً من اليهود اجتمعوا في برج أفيق (المعروف الآن بفقوعه على قول كندر وبالفولة على رأي كاران في غربي سولم في مرج ابن عامر). فأرسل كتيبة لضربهم فلم يجسروا أن يقوموا في وجه الجند، فنهب الرومانيون أفيق والقرى المجاورة لها وأحرقوها. ثم سار غلّوس إلى اللدّ فلم يجد من أهلها إلَّا خمسين رجلاً لأنهم كانوا مضوا إلى أورشليم لعيد المظال فقتل الخمسين رجلاً. وأحرق مدينتهم وسار بعسكره نحو أورشليم فعبر بيت اور وبلغ إلى جبعة الغربية من أورشليم وأحلَّ جيشه هناك.

عد ٤٨٦
حصار غلّوس أورشليم

لما رأى اليهود دنو جيش الرومانيين من عاصمتهم تركوا حفلات العيد ولم يرعوا وصيّة السبت كما كان أجدادهم يرعونها. وخرجوا على جنود الرومانيين فكسروا طلائعهم واتصلوا إلى قلب الجيش، ولولا أن ينجد الفرسان المشاة لأبادوا جيش الرومانيين. وكان القتلى من الرومانيين خمس مئة وخمسة عشر رجلاً ولم يُقتل من اليهود إلَّا اثنان وعشرون رجلاً. وكانت هذه الوقعة في ٢٦ تشرين أول سنة ٦٦م. وارتدَّ الرومانيون إلى بيت اور وتربَّص غلّوس هناك ثلاثة أيام لا يُبدي حراكاً لإشراف اليهود عليه من قمم الجبال. وأرسل اغريبا رجلَين من حاشيته إلى اليهود يبلغانهم من قِبَل غلّوس أنهم إذا ألقوا سلاحهم وأخلصوا في الطاعة أراحهم من كل ما كانوا يشكون منه. فلم ينثنِ المشاغبون عن عزمهم بل قتلوا أحد المرسلين وفرَّ الآخر مثخناً بالجراح، فساء الشعب صنيع القاتلين وأرغموهم بضرب الحجارة والعصيّ أن يفرّوا إلى المدينة. فاغتنم غلّوس فرصة انقسامهم وزحف إليهم فهزمهم وتعقَّبهم إلى أورشليم، ودخل في جانبها وأقام هناك ثلاثة أيام ينذرهم

بالارعواء. وفي اليوم الرابع صفَّ جنوده للقتال فلم يقف اليهود في وجههم بل تألبوا في الهيكل. فدخل غلّوس المدينة في ٣٠ تشرين أول وحلَّ في أعلاها وحرق بعض بيوتها ولو هاجم اليهود حينئذٍ لأنهى هذه الحرب، لكنه تلوَّم بمشورة بعض قادته. فعاودت الحميّة اليهود وتحصّنوا في الأبراج واستمروا يدافعون ببسالة خمسة أيام وفي اليوم السادس دنا الرومانيون من الهيكل من جهة الشمال. وكان اليهود يرشقونهم بالنبل من شرف الهيكل واتصلت طلائع جنودهم إلى الحائط. فألقت إليه تروسها ومن كان وراءهم ألقى تروسه إلى تروس أولئك فكانت التروس تقيهم النبال وأخذوا ينقبون الحائط، فارتاع بعض المشاغبين وفرّوا ولم يعلم غلّوس ما تولاهم من الرعب وخاف أمطار الخريف وعازته المؤن فرفع الحصار. فحسب اليهود ذلك انكساراً وتتبّعوا ساقة جيشه فقتلوا بعضهم. وفي اليوم الثاني أزاحوهم من محلتهم في أورشليم وتعقّبوهم إلى جبعة محلتهم الأولى. ورأى غلّوس توفُّر عديد أعدائه فآثر أن يترك محلته وما فيها من المؤن وأن يقتل الحمير والبغال ولا يستبقي إلّا على ما يلزم منها لنقل جنوده وأدوات الحرب. وعاد بجيشه نحو بيت اور فسار اليهود في أعقابهم وأحاطوا بهم من كل جانب وقتلوا منهم كثيرين وفرّقوا صفوفهم. وكفَّهم الظلام عن تتبعهم وترك غلّوس أربع مئة رجل من نخبة جنوده وسار بباقي الجند ليلاً إلى انتيبتريس[1] بعد أن هلك من جيشه ستة آلاف رجل. وعند الصباح علم اليهود بخدعة غلّوس لهم فقتلوا الأربع مئة جندي وعادوا إلى أورشليم مبتهجين غانمين. وكتب غلّوس إلى نيرون يشكو فلورس بأنه كان علّة إثارة هذه الحرب وانخذال جنوده. وعظُم هوس اليهود بانتصارهم وقلَّ من بقي منهم يشير بمصالحة الرومانيين. وحازبهم السامريون أيضاً على مناوأة الرومانيين، ونصبوا لكل عمل عاملاً يدبر شؤونه، وأخذوا يعدّون العُدد ويمرنون الشبان على حمل السلاح،

---

(١) سمّاها هيرودوس بهذا الاسم إذ جدد أبنيتها تكرمة لابيه انتيباتر وكان اسمها كفرسابا وعادت الآن تسمّى بهذا الاسم على قول كثير منهم وهي بين اللد جنوباً وقيصرية شمالاً في الطريق المؤدية من يافا إلى نابلس على اثنتي عشرة ساعة من أورشليم. ولكن رجح كاران (مجلد ٢ في السامرة صفحة ٣٦٠ وما يليها) وفيكورو في معجم الكتاب ان انتيباتريس كانت في محل مجدل بابا وهذه على عدوة نهر العوجة واقرب إلى اللد من كفرسابا. وقد ورد ذكر انتيبريس في الابركسيس (فصل ٢٣ عد ٣١) إذ أخذ الجند بولس ليلاً إليها من أورشليم.

ويدرِّبونهم في الحركات الحربية. ولم يدرك الصواب إلّا اليهود المنتصرون فإنهم هاجروا من أورشليم إلى بلد في عبر الأردن يسمى بلاًّ أقاموا فيه.

عد ٤٨٧

ولاية يوسيفوس على الجليل والمناصبة له

كان يوسيفوس المؤرخ في جملة العمّال الذين أقامهم اليهود على الأعمال فقد ولّوه على الجليل وكان يعرف عظمة الرومانيين واقتدارهم. وقد كان زار روما ونال كرامة عند الملكة بوبية ولم يكن يعلِّل نفسه بالأمل أن يتملَّص اليهود من سلطتهم. لكنه كان يأمل أنَّ ثورة اليهود تبعث نيرون على أن يوليهم بعض الامتيازات أو يدع شؤون اليهودية إلى الملك اغريبا كما كان جدّه هيرودس الكبير؛ واغريبا نفسه كان يُظهر استياءه من الثائرين لكنه كان يبطِّن الأمل في أنَّ الثورة تجديه نفعاً بتوسيع نطاق ملكه. ولما بلغ يوسيفوس إلى الجليل صرف قصارى جهده في ترتيب أحوالها. فأقام ندوة مؤلفة من سبعين رجلاً من وجهاء ولايته كالندوة التي الَّفوها في أورشليم. وعيَّن سبعة رجال في كل مدينة من كرام قومها قضاة يفصلون الدعاوى غير المهمة بموجب نظام سنَّه لهم ويحيلون ما كان مهماً منها إليه. وحصَّن بعض مدن ولايته تحوّطاً من مهاجمة الأعداء وجمع عسكراً قال إنه كان عديده مئة ألف رجل. وقد يكون بالغ في قوله وأمر بتمرينهم على الحركات الحربية. واستأجر فرساناً وجعل لنفسه حرساً خمس مئة رجل مدربين مطيعين فسُرَّ القوم به وأثنوا عليه.

وكان في مدينة جسكالا وهي المعروفة اليوم بالجش (كاران في الجليل مجلد ٢صفحة ٩٦) رجل اسمه يوحنا ابن لاوي وصفه يوسيفوس بأنه كان مكّاراً محتالاً كذّاباً طمّاعاً ولعلَّه وصفه بذلك لأنه كان مقاوماً له. وقد سأل يوسيفوس أن يحتكر بيع الحنطة والزيت فينفق ما يربحه في تحصين مدينة الجش فتردَّد في اباحة ذلك. ثم رُخصَّ له فأصبح ثرياً فعزم أن ينفق ثروة في مناوأة يوسيفوس بقتله أو شكوى الجمهور منه طامعاً أن يخلفه. وكان حينئذٍ أنَّ بعض خفراء الطريق في جانب جبل طابور استلبوا قيم بيت الملك اغريبا حللاً ثمينة ومبلغاً وافراً من المال؛ وإذ لم يتمكنوا من اخفاء السلب أتوا به إلى يوسيفوس وهو في تاريكا (المعروفة

اليوم بكرك في جانب بحيرة طيبارية كاران في الجليل مجلد ١ صفحة ٢٧٥). فونَّبهم على صنيعهم وأمرهم أن يستودعوا المسلوب رجلاً عُرف بالأمانة في المدينة، فشقَّ على الخفراء أنه لم يجعل لهم نصيباً من المال. وعلموا أنه سيردّه برمته على الملك اغريبا وأخته برنيكة. فطافوا ليلهم كله في المدن والقرى يبثون للناس أنَّ يوسيفوس خؤون لأمَّته. فاحتشد في الصباح جمٌّ غفير في جانب كرك يصيح بعضهم أن ارجموا يوسيفوس وبعضهم أن احرقوه.

فنبَّه يوسيفوس بعض أصدقائه من رقاده وكان المشاغبون أوشكوا أن يلقوا النار في الدار الحال فيها. فطلع عليهم بثياب رثَّة ممزقة وقد حثا الرماد على رأسه وأناط سيفه بعنقه، وقال لم يخطر لي ببال أن أردَّ المال على اغريبا أو أن أنتفع به عاقبني الله إن شئت أن أكون صديقاً للملك تجاهرونه بالعداوة أو أن أنتفع بما يضرّكم. والتفت إلى أهل كرك فقال إنَّ مدينتكم تحتاج إلى أسوار ولا مال عندكم تنفقونه على ذلك ويطمع أهل طيبارية وغيرها أن يأخذوا هذا المال الذي وقفته على تحصين مدينتكم. فإن لم ترغبوا في ذلك فهأنذا واضع بين يديكم المال لتتصرفوا فيه كيف شئتم؛ وإن صوَّبتم عزمي فعليكم أن تذبوا عني. فوقع الشقاق بين الجمع وتشيَّع له أهل كرك وكانوا نحو أربعين ألفاً. وانسلَّ يوسيفوس إلى داره وأرفض ذلك الحشد ولم يبقَ من المشاغبين إلَّا عدد يسير وثبوا على دار يوسيفوس ليحرقوه، فاستدعى رئيسهم ليفاوضه فيما يريدون وأمر بجلده حتى انتثرت لحمانه وظهرت عظامه، ثم ألقاه إلى قومه فهالهم ما ناله فانصرفوا مدبرين.

وانقسم الجليليون فكان بعضهم محازباً ليوسيفوس وهم السواد الأعظم، وبعضهم الآخر ليوحنا المذكور، ولما رأى هذا أنه لا يتمكّن من المجاهرة بالعداوة ليوسيفوس اعتزل مع ألفَي رجل فارَّة من صور. وكتب إلى أورشليم يشكو يوسيفوس بأنه يحشد جيشاً كبيراً وفي نيَّته أن يستحوذ على أورشليم إن لم يتدارك أمره. وكان سمعان بن غمالائل رئيس المجمع في أورشليم صديقاً ليوحنا ولا ثقة له بيوسيفوس وكان على شاكلته حنان الذي كان قبلاً رئيس أحبار. فحملا الندوة أن تُرسل ألفين وخمس مئة جندي وأربعة من وجوه أورشليم لينذروا الشعب بالارتداد عن يوسيفوس. وأصحبوهم بأمر مؤداه أنه إذا شاء يوسيفوس أن يشخص إلى أورشليم طائعاً ليبرئ ساحته مما ورد عليه فلا يمسّونه بضرّ، وإن أبى فيعاملونه كعدو. فأخبر يوسيفوس أصدقاؤه بما كان وجاهر بالعداوة له أهل بيسان والجش

وطيبارية، لكنه علم أن يُخمد ثورتهم دون قسوة عليهم، وفاز أخيراً بأن يقبض على الوجهاء الأربعة المرسلين من أورشليم، وأن يرسلهم إليها مع رؤساء الثائرين عليه، وعند وصولهم إليها، وعلِم الشعب بما كان وثبوا عليهم وكادوا يقتلونهم ومن أرسلوهم لو لم ينهزموا من وجه الشعب.

ومما عمله في هذه الأثناء ليدخل أهل طيبارية في طاعته أنه كان في كرك فجمع كل ما وجد من السفن. وكان عديدها مئتين وثلاثين سفينة وضع في كلٍّ منها أربعة بحارة؛ ولما أقبل على المدينة أمرهم أن يضربوا على الماء بمجاذيفهم، ودنا بسفينته من المدينة يصحبه سبعة من خفرائه؛ فلما رآه أعداؤه هالتهم كثرة السفن التي كانوا يظنونها ملأى من الجنود. فأخذ يؤنبهم على تصميمهم أن يقتلوا واليهم الذي يُرجى منه نفع كبير في محاربة أعدائهم. ويعتِّبهم على توصيدهم أبواب مدينتهم بوجه من حصنها لوقايتهم وقال إنه مستعد للعفو عنهم إن أرسلوا إليه معتمدين يسترضونه، فأرسلوا إليه عشرة من وجوه المدينة فوضعهم في سفينة وأبعدهم فيها. ثم طلب خمسين رجلاً من رجال مجلسهم وصنع بهم كالأولين. وكان كلما أتاه أناس ألقاهم في السفن التي أتى بها فارغة وأمر أن يأخذوهم إلى كرك. فأخذ الشعب كله يصيح أنَّ كليتوس كان علَّة هذه الثورة وأن يكتفي بجزائه شرَّ الجزاء ويكفّ غضبه عن الباقين. فأمر أحد حرسه أن يقطع يديه فابتهل إليه أن يترك له يداً، فقال أتركها لك بحيث أن تقطعها باليد الأخرى ففعل. وكذا أخمد ثورة أهل طيبارية بسبعة من حرسه وببعض سفن فارغة. وبعد أيام أمر جنده أن ينتهبوا الجش وصفورية لثورة أهلهما عليه، ثم جمع ما أخذه الجنود وردَّه على الأهلين، وكذلك فعل مع أهل طيبارية ليحبّب الشعب إليه. فدونك ما كانت عليه هذه الأمَّة من الانقسامات والخصومات الأهلية وعدوّهم الشعب الروماني واقف لهم في المرصاد بل دنا من الأبواب (يوسيوفوس ك ٢ راس ٤٢ و ٤٣).

عد ٤٨٨

إرسال نيرون فسبسيان لحرب اليهود واستحواذه على الجليل

بلغ نيرون وهو في بلاد اليونان أخبار ثورة اليهود وانتصارهم على جنوده ووفاة غلّوس على أثر إنخذاله. فاختار لمحاربة اليهود فلافيوس فسبسيان الذي كان أذلَّ الإنكليز والألمان. فشخص من بلاد اليونان في فصل الشتاء سنة ٦٧ م وحلَّ أولاً في انطاكية حيث التقاه الملك اغريبا. ثم أتى إلى عكا فوافاه طيطوس من

الاسكندرية وتحت أمرته الجيشان الخامس والعاشر فكان جملة الجيش الروماني ستين ألفاً. وكان اليهود في هذه الفترة حملوا على عسقلان وطردوا الخفراء الرومانيين وقتلوا ثمانية آلاف رجل. وما احتلَّ فسبسيان عكا إلَّا ووفد إليه أهل صفورية وكانوا استمروا على موالاة الرومانيين، وقالوا إنهم طوع يديه في مناوأة أمَّتهم أيضاً، وسألوه أن يصحبهم بفرسان ورجالة لمقاومة اليهود الذين يسطون عليهم. فأصحبهم مسروراً بألف فارس وستة آلاف راجل وكانوا يشنّون الغارة كل يوم على مجاوريهم فينهبون ويقتلون.

وحاول يوسيفوس أن يستحوذ على صفورية فرأى أنَّ الثريا أيسر من ذلك منالاً. ونجد اغريبا وغيره من الملوك الأمناء للرومانيين فسبسيان بفرسان ومشاة ومضى بلاشيد أحد قادة الجيش فجال في البلاد وقتل كل من وقع بيده؛ على أنَّ رجال الحرب تراكموا في المدن التي حصَّنها يوسيفوس. ولما كانت يوتاباط المعروفة في هذه الأيام بجفت (في غربي قانا الجليل وعلى مقربة من جبل كوكب كاران مجلد ١ في الجليل صفحة ٤٧٩) من أحصن المدن أمَّها، فخرج إليه الرجال منها يذبّون عن نفوسهم وعرضهم ومالهم. فظهروا على جيشه وجرحوا كثيرين ولم يقتلوا إلَّا سبعة لأنهم لم يحاربوهم إلَّا بالنبال، ولم يجسروا أن يدنوا من الرومانيين فترك بلاشيد جفت إلى وقت آخر.

وعزم فسبسيان أن يتولّى الجليل أولاً لئلا يكون له أعداء من ورائه، فزحف من عكا إلى تخوم الجليل بجيشه الكثيف فهال خبره اليهود وطفقوا ينسلون من معسكر يوسيفوس قبل أن يروا جيش الرومانيين. ولما رآهم يوسيفوس أوغاداً لا يُرجى منهم ثبات اعتزل بمن بقي منهم بين ظهرانيه إلى طيبارية، وأرسل يُخبر ندوة أورشليم بحالة الجليل وبيأس الرومانيين ويسألهم إنجاده أو الترخيص له من يتعاطي الصلح معهم، أما فسبسيان فسار بجيشه إلى كابارا [1] ففتحها إذ لم يكن فيها من يُحسن الدفاع. وقتل كل من استطاع حمل السلاح فيها وأحرق المدينة وكل ما جاورها من القرى وأبسل سكانها أو باعهم أرقَّاء. وأتى يوتاباط المار تعريفها وكانت محصَّنة

(١) في بعض نسخ كتاب يوسيفوس (حرب اليهود ك ٢ فصل ١٠) كادار في عبر الأردن ولا يتصور ان فسبسيان افتتح حربه بها فالذي عليه الجمهور الآن ان الصحيح كابارا وهي المسماة في أيامنا كبرة على أربعة وعشرين كيلومتراً من عكا شرقاً وعلى اثني عشر كيلومتراً من جفت المار ذكرها شمالاً.

ومنيعة في موقعها الطبيعي لا يتوصَّل إليها إلَّا من جهة الشمال. وكان يوسيفوس قد حصَّن هذه الجهة وأقام فيها أبراجاً وعاد من طيبارية إليها قبل حصارها. فنصب الرومانيون عليها مناجقهم وأدوات حصارهم فقاتل اليهود فيها قتال المستبسل وردّوا وثبات أعدائهم وأتلفوا آلات حصارهم مرات. ودام الحصار خمسة وأربعين يوماً من السابع عشر من أيار إلى غرة تموز سنة ٦٧م، إلى أن دلَّ أحد الخونة الرومانيين إلى محل كان المدافعون فيه قليلي العدد ضعفاء. فوثب الرومانيون على هذا المحل غلساً فدخلوا المدينة من هذا المحل وباغتوا أهلها، فاستظهروا عليهم وقتلوهم عن آخرهم، وكثير من اليهود قتلوا أنفسهم بسلاحهم أو بإلقاء أنفسهم من أعلى الأسوار. فكان من قُتلوا في حصار جفت وعند فتحها نحواً من أربعين ألف رجل. وبيع أكثر من ألف امرأة وطفل أرقّاء. ولما رأى يوسيفوس أنَّ الرومانيين سيفتتحون المدينة لا محالة همَّ بالانصراف من هناك فأمسكه الأهلون. ولما دخل الظافرون المدينة اختبأ في مغارة كان لجأ إليها أربعون رجلاً من اليهود المحازبين. فكشفت امرأة أمرهم وحتَّم القائد على يوسيفوس أن يستسلم إليهم فتحفَّز بذلك بضمانة رجل من أصدقائه اسمه نيكانور. فوضع رفقاؤه السيف على عنقه يتهدّدونه بالقتل إن عاب شرفه بالتسليم بوغادته وآثروا الانتحار. فخطب فيهم خطبة بليغة بيَّن فيها شرّ الانتحار، وحظر السنَّة له، فأعاروه أذناً صمّاء. فقال لهم بما أنكم جزمتم أن تموتوا فلنقترع على من يلزم أن يُقتل أولاً بيد من يليه، ونواصل هذا الاقتراع إلى النهاية حتى لا يقتل أحدنا نفسه بل يقتله آخر. فقبل رفقاؤه ما عرضه متكلاً على أنَّ عناية الله تنجيه على قوله، والأولى أن يقال إنه أضمر أن ينجو بهذه الحيلة. وأخذوا في هذا الاقتراع والعمل به إلى أن بقي يوسيفوس ورجل آخر فسالمه واستمرا حيّين، وحينئذٍ استسلم يوسيفوس إلى يد نيكانور صديقه. فأخذه إلى فسبسيان وكان يريد ارساله إلى نيرون لكن يوسيفوس تنبأ له على أنه سيكون العاهل بعد نيرون، وأنَّ ابنه طيطوس يخلفه فاستبقاه عنده وأعزه وشاع في أورشليم أنَّ يوسيفوس قُتل في جفت، فعظُم النوح والأسف عليه. ولما عُلم أنه حيّ يعزّه الرومانيون انقلب حزنهم عليه بغضاً له وحنقاً عليه.

وكان فسبسيان قد أرسل ترايان إلى يافا مدينة في الجليل قريبة من الناصرة جنوباً، وسيَّر معه ألفَي فارس فقهر أهلها على مناعة أسوارها، وكان عدد القتلى فيها خمسة عشر ألف رجل ما عدا النساء والأطفال الذين أُخذوا أسرى، وبيعوا

أرّقاء، وكان عددهم ألفَين ومئة وثلاثين وكان ذلك في العشرين من شهر حزيران.

وسمع فسبسيان أنَّ السامريين اجتمعوا على جبل غريزيم فأرسل إليهم أحد قادة جيشه بثلاثة آلاف رجل وست مئة فارس؛ فلم يشأ أن يحاربهم على الجبل بل ضيّق عليهم من كل جهة حتى أوهنهم الجوع والعطش، وزحف إليهم وأنذرهم ليرعووا عن غيِّهم ويسلموا إليه سلاحهم، ولما لم يذعنوا اندفع جنوده عليهم فقتلوهم. وكان عددهم أحد عشر ألفاً وست مئة رجل، وكان ذلك في السابع والعشرين من حزيران.

وبعد مدة وجيزة زحف الجند الرومانيون إلى طيبارية ولما كان يوسيفوس ثقَّل على أهلها ونكَّل بهم لم يُبدوا دفاعاً بل فتحوا أبواب مدينتهم، واستسلموا إلى الرومانيين. فسار فسبسيان بجنده إلى تاريكا (مرَّ أنها تُعرف اليوم بكرك في جنوبي طيبارية على البحيرة). فخرج أهلوها على الرومانيين وهزموا طلائعهم وقوَّضوا بعض ما بنوا من متاريسهم، ولما رأوا وفرة الأعداء رجعوا القهقرى فتتبعهم الرومانيون حتى نزلوا في سفنهم وأخذوا يرمون الرومانيين على اليابسة بنبالهم، فأرسل فسبسيان ابنه طيطوس بست مئة فارس، ثم أردفهم بغيرهم من جنده. وبعد محاولات عديدة كان طيطوس أول من دخل المدينة فقتل كثيرين وانهزم كثيرون في سفنهم، وأُبعدوا في البحيرة. وأمر فسبسيان أن يصنعوا له سفناً ولما كان العَمَلة كثيرين والمواد متوفرة في هذه المدينة بُنيت له سفن عديدة في أيام قليلة. وتعقَّب الفارة من السفن فكانت حرب بحرية ولم يكن لليهود نبال. وكانت سفن الرومانيين أمتن من سفنهم فقتلوا من اليهود كثيرين بنبالهم وغرَّقوا بعض سفنهم ومن دنوا اليابسة قتلهم الجنود الذين كانوا على الشاطئ. فكان عدد القتلى في البحر والمدينة ستة آلاف وخمس مئة رجل.

وبعد أن قهر الرومانيون جفت وكرك استسلمت إليهم باقي المدن ولم يبقَ على العصاوة إلَّا كامالا في الجولان والجش وقلعة جبل طابور. وكان موقع كامالا في شرقي البحيرة تجاه مدينة طيبارية في الجولان، ولم نعثر على اسمها الآن ولعلها كانت في محل قلعة الحصن أو في محل خرسا. وكانت من مملكة اغريبا وقد زحف إليها جيش الرومانيين فتصدى أهلها للدفاع. ودنا اغريبا من المترسة لِيُنذر

المشاغبين فأُصيب بحجر خدَّش ساعده اليمنى. وشدَّ الرومانيون الحصار عليها في الرابع والعشرين من أيلول والمشاغبون يبدون آيات البسالة. وكانوا كلما ارتفعت ادوات الحصار على متارسهم تقهقروا إلى داخل المدينة، وبعد ثلاثة أسابيع فتح الرومانيون نافذة في أسوار المدينة دخلوا بها إلى ساحتها. فهرع الأهلون إلى أعلى المدينة والرومانيون يتتبعون آثارهم في أزقَّتهم المعرَّجة فتراكم السكان على السطوح. وأخذوا يرشقونهم بالحجارة من كل جهة فضلّوا طريق الخروج وتبددت صفوفهم ولجأ بعضهم إلى بيوت صغيرة فتداعت لكثرة الحشد فوقها فهلك منهم كثيرون. فأسف فسبسيان لهذه الخسارة الجسيمة لكنه خطب فيهم معزياً مشجعاً وعزَّز جنده لإدامة الحصار. واتَّفق أنَّ ثلاثة من جنوده انسلّوا ليلاً حتى انتهوا إلى أسفل برج في المدينة قريب إليهم. وعاونهم الظلام وغفلة الخفراء أن ينتزعوا من إسِّه خمسة حجار ضخمة وتعجلوا الفرار، فسقط البرج، وهلك كل من كان داخله، وروَّع سقوطه من كانوا في غيره من الأبراج فانهزموا، ومن خرجوا من المدينة لينجوا بأنفسهم أبادهم المحاصرون.

وعند الصباح دخل طيطوس بكتائب منظَّمة من الفرسان والرجالة فيئس اليهود وهرع بعضهم إلى القصر في قمَّة الجبل. وكان منيعاً عسر المسلك تحول الصخور دون إيصال نبال الجند إلى من فيه. «ولما كان الله مؤيداً الرومانيين للانتقام من هذا الشعب التعيس» (هذا من كلام يوسيفوس) سلَّط ريحاً زعازعاً منع اليهود من الاقامة على شُرف القصر وضباباً كثيفاً حجب الرومانيين عن عيونهم. فتلسلقوا إلى قمَّة الجبل وأحاطوا بالقصر وفتحوه، وقتلوا من قاوم ومن استسلم بلا شفقة؛ ولما يئس الباقون من الحياة ألقوا نساءهم وأطفالهم من أعلى الصخور إلى أسفل فكان من هلكوا كذلك خمسة آلاف. وكان ذلك في ٢٣ تشرين الأول سنة ٦٧م. وكان كثيرون من اليهود تحصنوا في قلعة جبل طابور، فأرسل فسبسيان بلاشيد إليهم بست مئة فارس فلم يرَ من السداد أن يقاتلهم بهذا العدد اليسير. وعمد إلى الحيلة وخاطبهم في الصلح واعداً أن يعفو عنهم فشَخَص بعضهم أمامه مضمرين الغدر به. فلاينهم بكلامه واستجذبهم بعيداً عن الجبل فغالطوه وأرادوا ضرب فرسانه فتظاهر بالانهزام أمامهم. ونزل باقيهم من القلعة ليتعقبوه فدار عليهم بفرسانه وفتك بكثيرين منهم وبدَّد شملهم وصدَّهم عن العود إلى القلعة، ففرَّ من بقي منهم إلى أورشليم.

ولم يبقَ من مدن الجليل إلّا جسكالا وهي الجش فأرسل فسبسيان ابنه طيطوس إليها في ألف فارس. وكان فيها يوحنا بن لاوي المار ذكره وهو من أهلها وقد حملهم على الثورة، وعند انتهاء طيطوس إليها خاطبهم برقيق الكلام وقال أتأملون أن تنتصروا وحدكم على الرومانيين وقد قهروا العالم وسائر مدن بلادكم وبقيتم منفردين؟ فصوَّب يوحنا كلامه وقال صدقتَ ولكن اليوم سبت وسنَّتنا تحظِّر علينا كل عمل فيه، فإن شئتَ فامهلنا إلى الغد ننقدْ لك طائعين. فأمهلهم طيطوس وأحلَّ جنوده بعيداً عن المدينة ولم يخفرها. فقام يوحنا ليلاً وأخذ أهلها ومن مالأه من المشاغبين وتعجَّل الفرار بهم إلى أورشليم، ولما أتى طيطوس في الغد إلى الجش فتح له أهلها أبوابها والتقوه رجالاً ونساءً مرحبين. وكانوا يسمونه منقذهم والمحسن إليهم وأخبروه بفرار يوحنا فاغتمَّ لنجاته، وأرسل كتيبة من فرسانه في اثره فلم يُدركوه. ولما أكمل فسبسيان اخضاع الجليل ترك فيه خفراء. وسار بجيشه إلى قيصرية يريح جنده بعدما قاسوه من المشاق، ويستعدّ لإذلال اليهودية (يوسيفوس في الكتاب الثالث من حرب اليهود وفي الكتاب الرابع إلى الفصل العاشر منه).

عد ٤٨٩
الحرب الأهلية في أورشليم

إنَّ يوحنا الجشي عند بلوغه إلى أورشليم أخفى هزيمته وقال إنه لم يرَ من السداد أن يهلك في الجش الحقيرة وفي مقدوره أن ينفع وطنه بالذب عن عاصمة أورشليم التي لا يقوى الرومانيون على الدخول إليها إلّا إن تكون لهم أجنحة. فصدَّقه الأغرار والمغفلون وعظُم القلق والشقاق في أورشليم، وتوفَّر عدد اللصوص في البلاد ولم يعبأ الخفراء في المدن إلّا بأن يعيشوا كما يطيب لهم غير مبالين بردع المعتدين واستتباب الراحة. وانضمَّ رؤساء اللصوص بعضهم إلى بعض وجاءوا جمّاً غفيراً إلى أورشليم ولم يكن لهم من معارض إذ لم تكن ثم سلطة وازعة. وكانوا يحتجّون أنهم قدِموا للجهاد والدفاع عن مدينتهم. ولم يكتفِ هؤلاء أن يسرقوا وينهبوا بل كانوا يقتلون أيضاً من عارضهم أو رجوا من قتله نفعاً أو تشجيعاً. وألقوا في السجن انتيباس حارس الخزينة. وكان من النسل الملكي وغيره من أصحاب

المقام والوجاهة ثم اغتالوهم في السجن متهمين لهم بأنهم وعدوا الرومانيين بتسليم المدينة إليهم. وأطلقوا لنفوسهم التصرُّف برياسة الكهنة وأقاموا فيها غفلاً لا حسب ولا نسب لهم ليكونوا طوع أيديهم. فسئمت نفوس الشعب الصبر على تماديهم في شرّهم فثاروا عليهم بامداد حنان رئيس الكهنة وغيره من الأعيان. وخطب حنان في الشعب خطبة هيَّجتهم على المشاغبين برشق الحجارة أولاً ثم بالسلاح. وحمل الشعب جرحاهم إلى البيوت ونقل المشاغبون جرحاهم إلى الهيكل غير مبالين بتنجيس الهيكل بدمهم وازداد الشعب حنقاً لذلك. وكثُر عديدهم فأزاحوا المشاغبين عن السور الأول وتقهقروا إلى السور الثاني. ووصدوا أبواب الهيكل وكان حنان مع الشعب فأوقفهم عن ملاحقة المشاغبين حرمةً للهيكل. واختار من الحشد ستة آلاف رجل يخفرون في رواق الهيكل ويُستبدلون على سبيل المناوبة بستة آلاف أخرى.

وأما يوحنا الجشي فكان يُظهر تشبثه بحزب الشعب ويبالغ في الاكرام لحنان رئيس الكهنة، ويتزلَّف إلى رؤساء الشعب بخدماته لهم ويبطِّن الغدر بهم وتأييد جانب المشاغبين إلى أن تسنَّت له الفرصة أن ينم لهم أنَّ حنان عزم أن يعزِّز قومه بالاستنجاد بفسبسيان وجيش الرومانيين على خصومه. وأوعز إليهم أن يستنجدوا بمن يقيهم التهلكة وخصَّ لهم أن يستعينوا بالأدوميين فصوبوا رأيه. وأوفدوا إليهم رجلَين فصيحَين عُرفا بالذكاء والاقدام فبعثا الأدوميين على تلبية دعوة المشاغبين. وأُتي من الأدوميين الذين كانوا تهودوا بعشرين ألف رجل؛ ولما علم بذلك حنان وصد أبواب المدينة وأمر فريقاً من الخفراء أن يحرس في الأسواق. ولم يشأ أولاً أن يعاملهم كأعداء بل أن يجعلهم يدركون الصواب. ولذلك قام يشوع أحد قدماء الكهنة خاطباً فيهم من أعلى السور مبيِّناً لهم تمادي المشاغبين في الشرّ وما أقدموا عليه من الفظائع. وداحضاً التهم التي اخترعوها على حنان رئيس الكهنة ووجهاء الشعب بأنهم ينوون الاستغاثة بجيش الرومانيين على المشاغبين أو تسليم المدينة لهم. وأوضح لهم أنَّ عمل المشاغبين نفسه يُضعف قوَّة الأمَّة وييسّر للرومانيين القهر لها. أما الأدوميون فكانوا يقاطعون الخطيب بصراخهم، ويُعدّون اغلاق أبواب المدينة في وجههم عاراً عليهم وإهانة لهم. وقام أحد رؤسائهم في مكان عالٍ، وأخذ يؤنِّب حنان ويشوع الخطيب ووجهاء الشعب على حصرهم في الهيكل من يذبّون عن

حرية الأمّة على اغلاقهم أبواب المدينة التي يحق لكل واحد من الأمّة الدخول إليها. وختم كلامه قائلاً إننا مصمّمون على الدفاع عن وطننا وقهر كل عدو اجنبياً كان أو أهلياً. وسوف نستمر محاصرين لكم إلى أن يأتي الرومانيون فينقذوكم أو ترعووا عن غيّكم.

وفي الليلة التالية ثارت عاصفة وهطلت السماء وفطرت كبد الجو بروق متألقة ورعود قاصفة. وحدث زلزال مرجف وتطير كل بهذه الأحداث، ولقي منها الأدوميون الأمّرين، واجتمع المشاغبون يتفاوضون بوسيلة ينقذونهم بها من مناوأة الأنواء لهم. ففتحوا أبواب الهيكل واندفعوا منها والخفراء غافلون مطمئنون إلى خفارة السماء وانتهوا إلى أبواب المدينة. ففتحوها ودخلوا مع الأدوميين إلى أورشليم فقتلوا بالسيف كل من وجدوه، وعظُم الصراخ والوالوال، وتراكض الشعب بسلاحهم يظنون أنهم يقاتلون المشاغبين، ولما وجدوا الأدوميين في المدينة فارقت الشجاعة أكثرهم. ولم يبقَ في ساحة القتال إلّا بعض الشبان ولا منجد لهم فقتلى الأدوميون والمشاغبون كثيرين. وتعجّل بعضهم الموت لأنفسهم إذ كانوا يلقون نفوسهم من أعلى الأسوار، وجرى الدم من كل جهة حول الهيكل. ولما أسفر الصباح كُشف عن ثمانية آلاف وخمس مئة جثة مجندلة على العفراء. وكان ذلك في شهر شباط سنة ٦٨ م. ولم يكتفِ الأدوميون بهذا بل صرفوا حنقهم إلى الكهنة والوجهاء خاصة، وقتلوا كثيرين منهم، ولم ينجُ حنان رئيس الكهنة ويشوع المار ذكره. ومنعوا من دفنهما ثم عادوا إلى ذبح سفلة الشعب وقبضوا على بعض الشرفاء والقوهم في السجن آملين أن يستميلوهم إليهم. فآثر هؤلاء الموت على مجاراة المشاغبين في خراب وطنهم فقتلوهم جميعاً. وقتلوا زكريا بن باروخ في الهيكل وطرحوا جثته في الوادي القريب منه.

على أنَّ أحد المشاغبين سئمت نفسه هذه الفظائع فكشف الأدوميين برقع انخداعهم وزيف التهم التي اصطنعها رفقاؤه بأنَّ الكهنة والشعب كانوا يريدون تسليم المدينة إلى الرومانيين. وأبان أنَّ لا بيّنة لهم على ذلك ولا دليل، وإنَّ المشاغبين إنما هم الذين عثوا في المدينة ومكروا بالأدوميين أيضاً. فبدأ الأدوميون يندمون على انقيادهم للمشاغبين وخلوا سبيل ألفَي نفس كانوا التجأوا إلى سمعان رئيسهم. وأخذوا في الجلاء عن المدينة فسُرَّ السكان بانصرافهم لتشطير أعدائهم

وطُرب له المشاغبون أيضاً إذ أنه لم تعد لهم حاجة بهم؛ ولأنَّ انصرافهم أطلق لهم حريتهم تامة ليقدموا على ما شاءوا من الفظائع دون مراعاة لأحد. ولما كان وجهاء المدينة غرضاً لبغضهم ملأوا حينئذٍ المدينة من القتلى منهم. ولم يعودوا يشفقون على أحد ممن قاومهم بل اعتدوه جانياً جناية لا تُغتفر، ومن انقطع عنهم أوقعوا عليه شبهة المناوأة لهم. ومن تزلَّف إليهم حسبوه جاسوساً ولم يكن غير القتل عقاباً لكل من وجدوا حجَّة عليه. وانسلَّ بعض اليهود إلى معسكر الرومانيين فراراً من جور المشاغبين فوصدوا أبواب أورشليم وأكثروا الحرس في أزقَّتها وكانوا يقتلون كل من وقعت لهم عليه شبهة الهرب ولم يكن منجياً إلَّا المال فهرب كثيرٌ من الأغنياء.

لقد تقدَّم قادة الجيش الروماني إلى فسبسيان يلحّون عليه بأن يغتنم فرصة انقسام اليهود ويباغتهم بجنوده. فأجابهم بخطبة بليغة إنَّ السداد أن يترك اليهود يقتتلون يوهنون قوَّتهم، وأن يُريح جنوده من الكفاح، وإنَّ مجد الظفر لا يتوقف على القتال بل على حسن العاقبة، والفخر واحد إن قاتل المرء أعداءه أو بَّر على أن يقتلوا نفوسهم. ووقع الانقسام بين المشاغبين فإنَّ يوحنا الجشي كان يتوق إلى الرئاسة وأخذ مقاليد السلطة وتبعه بعضهم خوفاً وبعضهم حباً لأنهم جليليون. فحازبه السواد الأعظم من المشاغبين لرجحانه على غيره من رؤسائهم ذكاءً وشجاعةً ودهاء. واستمر فريق من المشاغبين على الانقياد لرؤسائهم فانقسموا إلى قسمين واتصلوا أحياناً إلى مناوشة بينهم، ولكن كان جُل همّ الفريقين مصروفاً إلى مناصبة الشعب.

وكان رجل آخر اسمه سمعان بن جيورا انضمَّ إلى لصوص كانوا ضبطوا قلعة ماسدة. وأووها وأخذوا ينهبون ويقتلون في القرى المجاورة لها، ثم رأسوه عليهم وأذاع أنه يحرر الأرقَّاء. ويجزي من يتجنَّد معه الأحرار حتى صار يصحبه عسكر لا يقل عن العشرين ألفاً. وخشيَ المشاغبون انبساط سطوته فخرجوا عليه جمّاً غفيراً فبرز لملاقاتهم وقتل منهم كثيرين وهزم الباقين. وزحف على الأدوميين يريد تذليلهم قبل أن يحاصر أورشليم ففتك بهم وأتبعه كثيرون حتى ربا عسكره على خمسين ألفاً ونهب وخرَّب في أدوم. فارتاع منه المشاغبون ولم يجسروا أن يناوءه حرباً وقطعوا الطرق عليه فقبضوا على امرأته وبعض خدامه، وأتوا بهم إلى أورشليم آملين

أن يكونوا رهينة لكفِّه عن سطوه، فهبَّ إلى أبواب أورشليم وطفق يقبض على كل من خرج منها لحاجة فيضربه حتى يميته. وقطع أيدي بعضهم وأرسلهم إلى المدينة يقولون إنه آلى بالله أن يدخل المدينة ويعامل كذلك كل من وقع بيده أو يردوا عليه امرأته. فردّوها عليه وخمد غضبه وعاد يُتّم تنكيله بالأدوميين حتى أرغم كثيرين منهم على الفرار إلى أورشليم. وتتبعهم إلى أبوابها فكان سمعان في الخارج يروِّع أكثر من الرومانيين والمشاغبين. وكان المشاغبون في الداخل يروِّعون الشعب أكثر من سمعان والرومانيين، لأنَّ يوحنا الجشي أطلق لمحازبيه أن يصنعوا ما شاءوا فلم يدعوا جريمة إلّا وأقدموا عليها من نهب وسلب وقتل واعتداء على النساء. وكان الأدوميون من حزب يوحنا فبعثتهم فظائع أصحابه الجليليين على المناصبة له ولهم. وقتلوا بعضهم والتحم القتال فظهر الأدوميون واشياعهم على محازبي يوحنا وتتبّعوا آثارهم إلى القصر الذي كان حالاً فيه، ثم أرغموهم على الفرار إلى الهيكل، وانضمَّ إليهم المشاغبون فعظُم الأمر على الشعب والأدوميين، فخافوا أن يخرج أتباع يوحنا والمشاغبون ليلاً فيحرقوا المدينة. وزيَّن لهم خوفهم أن يستدعوا سمعان بن جيورا ويُدخلوه بجنده إلى المدينة لإنجادهم. فخرج إليه ماتيا الكاهن فلبَّى دعوته ودخل المدينة في شهر نيسان سنة ٦٨م، وأقام الحصار على الهيكل حيث كان ويوحنا الجشي والمشاغبون. وطال القتال بينهم ثم انقسم حزب المشاغبين لأنَّ اليعازر بن سمعان أحد المشاغبين انفصل عن الجشي بحجَّة أنه لم يعد يطيق اعتسافه. والحقيق أنه كان يريد الرياسة لنفسه وتبع اليعازر قوم من المشاغبين. وتحصَّنوا في داخل الهيكل فأصبحت الأحزاب المحاربة ثلاثة: سمعان بن جيورا في المدينة، والجشي في أعالي الهيكل، واليعازر وصحبه في داخل الهيكل؛ وبينا هم على هذه الحال قدم طيطوس إلى أورشليم كما سترى بعد أن نستوفي الكلام في أعمال فسبسيان في اليهودية. واقامته ملكاً (ملخص عن ويسيفوس في تاريخ حرب اليهود ك ٤ في فصول عديدة).

عد ٤٩٠

أعمال فسبسيان في اليهودية واقامته ملكاً

بينما كان فسبسيان في الجليل أو بعد قدومه إلى قيصرية انتهى إليه أنَّ بعض

اليهود الثائرين والذين فرّوا من المدن التي افتتحها أقاموا في يافا التي كان غلّوس أحرقها من أمدٍ قريب، واصطنعوا سفناً يسطون بها في البحر وعلى شواطئ فينيقية وسورية. فأرسل إليهم فريقاً من فرسانه ومشاته ودخلوا يافا ليلاً إذ لم تكن محصّنة. ففرّ سكانها إلى سفنهم وثار في الصباح ريح زعازع كسر بعض السفن على الصخور فقُتل من فيها أو قتلهم الرومانيون. وأبعد بعضهم في البحر فارتفعوا على جبال الأمواج ثم انحطوا عنها فابتلعتهم المياه بسفنهم، وبعضهم ألقوا نفوسهم في البحر فغرقوا أو قتلهم الرومانيون حتى كان عدد القتلى أربعة آلاف ومئتي نفس. وأكمل الجنود تدمير مدينتهم (يوسيفوس ك ٣ في الحرب فصل ٢٩). إنّ الذين فرّوا من جور المشاغبين إلى معسكر الرومانيين سألوا فسبسيان أن يُنقذ من بقوا في أورشليم من شرّ هؤلاء العتاة فأخذته الشفقة عليهم. وعزم أن يدنوا من أورشليم لا ليحاصرها وقتئذٍ بل ليستحوذ على المحال المجاورة لها. ويكون في مأمن من سكانها عند اقامة الحصار حولَ أورشليم. وكان أعيان مدينة كادارا[1] وأثرياؤها يرغبون في السلم والمحافظة على أموالهم. فأوفدوا خفيةً إلى فسبسيان ليسلموا إليه مدينتهم التي كانت مهمة فمضى إليها في بعض جيشه ولم يعلم محبو الثورة بذلك إلّا عند اقباله. فتشفوا بقتل رجل حسيب اسمه دلوزوس كان سبب الوفادة. وانهزموا من المدينة وخرج الأهلون إلى لقاء فسبسيان بمزيد الاحتفاء وأقسموا له يمين الأمانة بل نقضوا أسوار مدينتهم أيضاً ليثبتوا له استمرارهم في ما بعد على الطاعة للرومانيين. فأقام عندهم حرساً فرساناً ومشاة يؤمنونهم اعتداء المشاغبين. وأرسل بلاشيد وخمس مئة فارس وثلاثة آلاف راجل في اثر الثائرين الذين فرّوا، وعاد فسبسيان بباقي جنده إلى قيصرية.

أما بلاشيد فتعقّب الفارين وتحصّنوا في قرية اسمها بيت هنبر (لا يُعلم

(١) المعروفة في أيامنا بأم قيس في عبر الأردن شرقي جسر المجامع وعلى ستة عشر ميلاً من طيبارية في الجنوب الغربي منها. وقال كثير من مفسري الانجيل أنّ كادارا هي التي شفى المخلص فيها المتشيطن الذي خرج الشياطين منه ودخلوا في الخنازير، فعرفت في بحر طيبارية. واسندوا قولهم إلى أنّ الانجيليين الثلاثة متى ومرقس ولوقا سموا المحل كورة الكاداريين. على أنه ورد في العربية كورة الجرجسيين أو كورة جراسا وكادارا بعيدة عن البحر ويفصلها عنه واد عميق ونهر اليرموق المسمى هناك الآن شريعة المندور. وعليه رجح بعضهم أن تكون الآية حدثت في جراسا المعروفة الآن بخرسا في شرقي البحيرة التي تتصل ارضها بها (كاران في الجليل مجلد ١ صفحة ٣٠٦).

موقعها) وانضمَّ إليهم غيرهم من المشاغبين والحموا القتال مع بلاشيد فتقهقر أمامهم إلى محل أصلح للدفاع. ثم كرَّ عليهم وأحدق فرسانه بهم فقتل كثيرين منهم. وأسرع الفرسان بمنعهم من الدخول إلى القرية فلم يدخلها إلَّا القليلون وفتحها بلاشيد وقتل من فيها وأحرقها وهرب من بقوا أحياء نحو أريحا. فتتبعهم فرسان الرومانيون إلى الأردن ولم يتمكن اليهود من العبور لطغيان الماء فقتل الرومانيون منهم خمسة عشر ألفاً وأسروا ألفين وستين وغرَّقوا بعضهم. وأخذوا كثيراً من الجمال والبقر والحمير والغنم واستولى بلاشيد على مكان في عبر الأردن وأقام فيه خفراء من اليهود الذين استسلموا إلى الرومانيين (يوسيفوس ك ٤ في الحرب فصل ٢٥).

وقام فسبسيان بجيشه من قيصرية فحلَّ في انتيبتريس (كفرسابا أو مجدل بابا كما مرّ). وأخرب وأحرق القرى المجاورة، وكذلك فعل في ناحية تمنه (تبنه) وزحف إلى اللدّ ويمنيه فاستسلما له، فنقل إليهما من اعتقد أمانتهم من سكان باقي المدن. وأتى عمواس وأقام جنوده على الممرّ الذي يؤدي إلى أورشليم، وحصَّن بأسوار معسكراً ترك فيه الكتيبة الخامسة من جيشه. وسار بباقيه إلى بيت ليأووت (هي مدينة في سبط شمعون ورد ذكرها في سفر يشوع فصل ١٩ عد ٦ في طرف جنوبي فلسطين. وقال بعضهم إنها في جنوبي أورشليم معجم الكتاب لفيكورو) فأحرقها وأحرق كل ما في جوار أدوم ولم يستبقِ منها إلَّا بعض قلاع حصَّنها وأقام فيها حامية، ثم دخل بلاد الأدوميين وافتتح بعض مدنها وقتل فيها ألفَي رجل، وأخذ نحواً من ألف أسير باعهم أرقَّاء. وهزم سائر الشعب وترك ثمة حامية من جنده تنكل بسكان الجبال، وعاد إلى عمواس بباقي جنده وسار منها إلى السامرة بطريق نابلس. ثم أتى إلى أريحا فانهزم سكانها إلى الجبال التي تجاه أورشليم وقتل بعض من وجدهم في المدينة. وبنى حصوناً في أريحا وغيرها من الأماكن القريبة إلى أورشليم وأقام فيها خفراء. وعاد إلى قيصرية ليزحف بجملة جنده إلى أورشليم.

وقد بلغ فسبسيان حينئذٍ نعي نيرون الملك فإنَّ الندوة حطَّته عن أريكة الملك فانتحر بعد أن ملك ثلاث عشرة سنة وثمانية أيام فاستوى على عرش الملك سنة ٥٤ م ومات سنة ٦٨ م فتوقَّف فسبسيان عن الأعمال الحربية. وبلغه أنَّ غلبا سماه الجنود في اسبانيا ملكاً فأرسل إليه ابنه طيطوس يبدي خضوعه له ويستطلع

أوامره. وصحب اغريبا طيطوس ولكن لم يتجاوزا بلاد اليونان إلّا واتصل بهما أنَّ غلبا قتله أتون أحد المقربين إليه. فلم يملك إلّا سبعة أشهر وسبعة أيام فعاد طيطوس إلى أبيه. وواصل اغريبا إلى روما ثم أقام الجنود في جرمانيا فيتلوس ملكاً فنازع أتون الملك. وكانت وقيعة بين جيشهما في افرنسة فاستظهر جيش فيتلوس وقتل أتون نفسه سنة ٦٩ م ولم يملك إلّا ثلاثة أشهر ويومين. فأسرع فيتلوس إلى روما فقبله أهلها مرحبين. ولم يشأ فسبسيان أن ينقطع عن مهام حربه زماناً طويلاً فزحف في الخامس من حزيران سنة ٦٩ م من قيصرية يريد اخضاع ما بقي من اليهودية. فأخذ مدينة بيت إيل (بيت اين) وأفرائم (الطيبة في شرقي بيت اين) وأقام فيها حامية وقصد أورشليم وقتل في طريقه كثيراً من اليهود وأخضع قواده سائر مدن اليهودية وأدوم. ولم يبقَ إلّا ثلاث قلاع خارجة عن أورشليم وهي ماكرون في الشمال الشرقي من بحيرة لوط، وماسدة في غربيها، وهيروديون في جبل الفريديس في الجنوب الشرقي من أورشليم. فتحصَّن المشاغبون فيها ولم يبقَ لفسبسيان إلّا أن يفتتح أورشليم. وبلغه حينئذٍ أنَّ جنود فيتلوس بعثوا الشعب الروماني على مقته باعتدائهم على الرومانيين فاستاء من ذلك وأجمع جنوده على اقامته ملكاً سنة ٦٩م، وطُربت كل أعمال آسيا لانتخابه، وأتى من قيصرية إلى بيروت فالتقاه فيها موشيان والي سورية ووفود من أكثر مدن الشرق يبثون له سرورهم بملكه ويحققون انقيادهم له. وتذكر حينئذٍ نبوّة يوسيفوس له في حياة نيرون أنه سيخلفه في الملك، فاستدعاه إليه وأطلق له حريته وكسر أغلاله حسب رغبة طيطوس إشارة إلى تبرئة ساحته وعوده إلى كرامته وشرفه. ثم أرسل موشيان والي سورية وأصحبه بقسم وافر من الجيش إلى روما فافتتحها، وقتل سفلة الشعب فيتلوس فيها وسار فسبسيان إلى اسكندرية فمكّن ولاية الرومانيين فيها ثم مضى إلى روما فاستتب له الملك. وترك ابنه طيطوس وجيشاً كبيراً ليتمّ فتح أورشليم والانتقام من اليهود (ملخص عن الكتاب ٥ في حرب اليهود ليوسيفوس في فصول عديدة).

ودونك صورة له مأخوذة عن تمثال له وُجد في ضواحي روما



عد ٤٩١

حصار طيطوس أورشليم وفتحها وخراب الهيكل

قد مرَّ أنَّ رجال الحرب في أورشليم كانوا منقسمين إلى ثلاثة أحزاب. وبلغ من غباوتهم أنهم أحرقوا مقداراً كبيراً من المؤن في إحدى منازعاتهم. أما طيطوس فبعد وداع أبيه في اسكندرية عاد إلى قيصرية، وحشد جنوده ولم يكن عددهم يقلّ عن ثمانين ألفاً، وبلغ أورشليم في شهر آذار سنة ٧٠م. ولما شعر أصحاب الأحزاب بدنّو الخطب العظيم وافق بعضهم بعضاً، وازدادوا في تحصين أسوار أورشليم، وأحلّ

طيطوس جنوده في شمال المدينة على بعد ألف وثلاث مئة متر. وقبل أن يأخذ في حصارها طلب إلى سكانها أن يفتحوا له الأبواب ولم يفترض شروطاً إلَّا أن يخضعوا لسلطان الرومانيين ويدفعوا الخراج كما كانوا يدفعونه قبل الثورة. فأبوا الاذعان وآلوا أن يذبوا عن مدينتهم ولو قُرضوا عن آخرهم. واستعدَّ الرومانيون لاقامة الحصار. وقطعوا جميع الأشجار التي في شمالي المدينة وغربيها لئلا تعوق حركاتهم الحربية. وتقدَّم طيطوس مع بعض فرسانه إلى السور الشمالي ليعاين المواقف. فوثب عليه اليهود من أحد الأبواب، وفصلوا بينه وبين فرسانه. ولولا بسالته وجهد فرسانه لأخذوه أسيراً فتفاءل الأورشليميون بهذه الحادثة وحسبوها يمناً.

وفي اليوم الثاني بينما كانت الفرقة العاشرة تعدّ معسكرها على جبل الزيتون باغتها اليهود فانهزمت ولم تستطع أن تكمل ما بدأت فيه، فهذه المناوشات لم تأتِ بأمر ذي بال لأنَّ اليهود كانوا يضطرون دائماً أن يهرعوا إلى داخل المدينة. وقد تمكَّن الرومانيون أن يقيموا جنودهم في ثلاث نقط حربية وأن يصوِّبوا آلات حصارهم على السور الخارجي. وبُدئ في الحصار في عيد الفصح سنة ٧٠م. وظنَّ طيطوس أنَّ العيد يوقف اليهود عن المعارضة له بإحكام آلات حصاره، ولكن حالما رأى اليهود نصب الأدوات خرجوا عليهم من المدينة، وحطَّموا الأدوات وبدَّدوا العاملين بها ثم عادوا إلى داخل الأسوار ولم يكن هؤلاء من المشاغبين فقط بل من جميع سكان المدينة كل من استطاع أن يحمل سلاحاً رجالاً أو نساءً. فأنهم كانوا من أعلى السور يلقون على الرومانيين الحجارة أو يصبّون على رؤوسهم زيتاً غالياً. وكان الرومانيون يزدادون بسالة حتى أرغموا اليهود بعد خمسة عشر يوماً أي في ٧ أيار سنة ٧٠ م أن يغادروا السور الخارجي. واشتدَّ بعد ذلك القتال على السور الثاني الذي كان المحاصرون بنوه خلف الأول، ولم يقوَ الرومانيون أن يستحوذوا عليه وعلى بيت زيتا إلَّا بعد أيام. على أنَّ ذلك لم يُنهِ القتال بل زاده اشتداداً. وصرف الرومانيون سبعة عشر يوماً في بناء أربعة بروج تجاه قلعة انطونية المار ذكرها، فدخل يوحنا الجشي مع بعض جنوده في سرداب تحت الأرض. وألقى النار تحت الأبراج فاحترقت، ثم انسلَّ ثلاثة رجال من حزب سمعان بن جيورا فأحرقوا ما بقي منها. وكان كلما عظم الخطب ازداد اليهود بسالة. وأرسل طيطوس يوسيفوس ليقنع اليهود بالارعواء والتسليم فلم تثنِ فصاحته أحد المشاغبين عن عزمه. وأيقن المحاصرون أنه لم يبقَ لهم إلَّا الظفر أو الموت لأنهم رأوا طيطوس منذ بادئ

بدء الحصار صلب خمس مئة شخص من الأسرى في يومٍ واحد وأرسل بعضهم إلى أورشليم بعد أن قطع أيديهم.

وقد كان لطيطوس حليف شديد وهو الجوع فإنه أحاط المدينة بسور طوله نحو سبعة آلاف متر ليمنع المحاصرين من أن يمتاروا لهم طعاماً. فقلَّ الزاد وسطت المجاعة أولاً على الفقراء لقلَّة مؤنهم. وأخمدت الفاقة نار الشفقة فامتلأت البيوت والأزقَّة من الموتى. واضطرَّ الجوع كثيرين أن يستسلموا إلى العدو لكنهم لم يلقوا هناك إلَّا عذاباً أليماً. ودار في خلد السوريين والعرب المتطوعين في جيش الرومانيين أنَّ هؤلاء الفارَّة ابتلعوا قطعاً من الذهب سداً لعوزهم في أسرهم لأنهم رأوا أحد اليهود تغوَّط والتقط ذهباً. فطفقوا يفتحون بطونهم ليفتشوا عن الذهب المخفي فحنق طيطوس من هذا الصنيع وتشدَّد بالنهي عنه. ورأى المشاغبون توفّر عدد الفارين فأكثروا من القساوة على كل من وقعت لهم شبهة عليه. وعلم ابن جيورا أنَّ ثلاثة من ضباط جنده توامروا بأن يفرّوا إلى معسكر الرومانيين فعاقبهم دون شفقة. وقطع رأس ماتيا عظيم الكهنة وثلاثة من أبنائه على مرأى من جنود الرومانيين غامطاً نعمته، لأنه هو الذي أدخل بن جيورا إلى أورشليم كما مرّ. ولم يقوَ المشاغبون أن يمنعوا أصحاب الرومانيين من اليهود أن يبوحوا إليهم بأسرار مدينتهم. فكانوا يُلصقون على نصالهم أوراقاً يبثّون فيها أسرار قومهم وعلى ما كان الثائرون عليه من الجوع وافتضاح أسرارهم لم يألوا جهداً في مناصبة الرومانيين، وتعطيل أعمال حربهم. فلم يدعهم يبنون برجاً يستحكمون منه ضرب قلعة انطونية إلَّا بعد واحد وعشرين يوماً. وبعد اتمامه كرَّ يوحنا الجشي ليحرقه فرُدَّ خائباً. فدكّت مناجق الرومانيين هذه القلعة دكّاً في ١ تموز سنة ٧٠ م.

وارتاع الرومانيون كثيراً إذ رأوا من وراء تلك القلعة سوراً آخر فهاجموه مرات وذعروا وباغتوا المدينة ليلاً فدُحروا بعد اقتتال استمر إلى صباح اليوم التالي. ولكن بقيت قلعة انطونية في يدهم فجعلها طيطوس قاعاً صفصفاً وبطلت حينئذٍ أي في ١٧ تموز الذبائح اليومية إذ لم يبقَ ما يُذبح. وطلب طيطوس يومئذٍ أن يستسلموا إليه فلا يمسّ الهيكل. فأجاب يوحنا الجشي أنَّ مدينة الله لا تُخرب ومستقبل الأمور في يد الله. وبعد تدمير انطونية اقتصر اليهود على الدفاع عن الهيكل. وحاول الرومانيون الوثوب عليه ليلاً فرُدّوا مدحورين. ثم نصبوا مناجقهم يضربون أسوار الهيكل فاضطرَّ اليهود أن يهدموا الرواق الذي كان موصلاً بين الهيكل وقلعة

انطونية، وأن يتذرعوا بكل ما يمكن اصطناعه من الحيَل؛ منها أنهم أضرموا ناراً على بعض شُرف الهيكل وأظهروا أنهم منهزمون فتسلَّق الرومانيون على الجدران وقتل اليهود منهم كثيرين بالسيف أو بالنار، ولكن التهمت النار الناحية الغربية من أسوار الهيكل والأعمدة الجميلة التي كانت هناك. وكانت هذه الأحداث من ٢١ تموز إلى ٢٨ منه.

واشتدَّ الجوع كثيراً وعمَّ كل صنف من أغنياء أو فقراء ولم يعد للفضة قيمة إذ لا تساوي كسرة من الخبز. وكان الناس يقتتلون على قليل من القش أو فلذة من الجلد. وأكل الناس الكلاب والجرذان والحشرات وقد رأوا مرتا الغنية امرأة يشوع عظيم الكهنة تدور في الأزقَّة، باحثة عن قوت قذر تخمد به سغبها بعد أن كانت تبسط الطنافس من دارها إلى الهيكل لئلا تمسّ الأرض بمواطئ رجليها. وكانت امرأة اسمها مرياند فرَّت من عبر الأردن إلى أورشليم بعثها الجوع على أن ذبحت ابنها وأكلت لحمه. وكثُرت جثث الموتى جوعاً وقتلاً في الأزقَّة وأنتنت وأفسدت الهواء، فكان الوباء ثالثة الأثافي مع المجاعة وفتك الأعداء. ومع هذا لم تخمد حمية اليهود ولم يعل صبرهم، بل كانوا يجاهدون طاويي البطن غير مبالين بالوباء أو الموت أو صولة الرومانيين حتى أذهلوا أعداءهم أنفسهم، وقيل أنَّ بعضهم تهوَّد لرؤيتهم ثبات اليهود وتشبثهم بعرى دينهم واعتقادهم أنَّ إلٰههم يُنشئ فيهم هذه الحمية الخارقة سنن الطبيعة ويكلأ مدينتهم.

واستمرَّ الرومانيون يرمون أسوار الهيكل بمناجقهم وباقي أدوات حصارهم من ثاني شهر آب إلى الثامن منه فخرقوا الأسوار ولم يتمكنوا من هدمها. وعزم طيطوس حينئذٍ أن يترك الهيكل وأضرم النار في أبواب السور الخارج. وبقيت تتسعَّر به يوماً كاملاً ثم أمر باطفائها وفتح مجال ليضرب جنوده الهيكل. وعقد لجنة مشورة يستشير أعضاءها أينقض الهيكل أم يُبقي عليه؟ وارتأى بعضهم أن ينقضه لأنه كان منشأ للثورات دائماً وصرَّح هو بالبقاء عليه حباً ببرنيكة أخت اغريبا. ووافقه بعضهم فجزم على الاستيلاء على الهيكل دون نقضه. وخرج اليهود في التاسع من آب على الرومانيين فدُحروا لكنهم لم يتشتتوا. وفي اليوم التالي حاولوا أن يخرجوا عليهم ثانيةً، فاستظهر الرومانيون عليهم وتتبعوا آثارهم فمزَّقوا شملهم كلَّ ممزَّق، وأخذ أحد الرومانيين مقبساً من النار واستعلى كتف أحد أصحابه وألقى المقبس من إحدى النوافذ إلى داخل الهيكل، فاشتعل الخشب الذي وقع عليه،

وانتشر اللهيب وارتفع الدخان، فارتاع كل كمّي وفارقته شجاعته، ووقف كل قتال وأسرع طيطوس وأمر أن يُطفئوا النار فلم يكن من يسمع. وتهافت الرومانيون إلى داخل الهيكل ينهبون ويقتلون من لم يفرّوا. وطيطوس نفسه دخل إلى قدس الأقداس وعُجب برونقه وزخرفه واستمر هناك إلى أن أخرجه الدخان واللهيب.

على أنَّ القتال لم ينتهِ فإنَّ صياح الرومانيين الظافرين وعويل اليهود وانتحابهم على خراب الهيكل ودوي أجيج النار لم يوقف المحاربين عن استئناف القتال بل اقتحم جمٌّ غفير ساحته. وقد سئموا الحياة بعد خراب الهيكل ومكث ألوف من رجال ونساء وأطفال تحت الرواق الجنوبي من الهيكل غير مبالين بدنو الأعداء والنار. وكان بعض الانبياء الكذبة يؤملونهم بالنجاة ولو أمسوا على حافة الهلاك. فانقضَّ الرومانيون عليهم كالصاعقة وبدَّدوا شمل المحاربين وذبحوا المغترّين بقول الانبياء الكذبة. وقد انتقض الهيكل برمته إلَّا أسسه وبعض عضائد في الحائط الغربي، وكان كثير من الكهنة لجأوا إلى أسوار الهيكل، وأقاموا هناك متحملين السغب واللغب إلى أن استسلموا، فأمر طيطوس بذبحهم قائلاً يلزم الكهنة أن يهلكوا مع هيكلهم. وقدَّم الجيوش المظفّرون ذبائح لآلهتهم على أنقاض الهيكل، وسموا طيطوس امبراطوراً وهو لقب بمعنى غازٍ كانوا يُطلقونه على قواد جيوشهم الظافرين. ومن الإتفاقات الغريبة أنَّ الهيكل دُمِّر هذه المرة في مثل النهار الذي دمَّره فيه بختنصر العاشر من آب سنة ٧٠ م.

ثم أمر طيطوس بحرق كل من كان من المدينة في يد الرومانيين فاجتمع رؤساء المشاغبين في المدينة العليا وهي صهيون مع من بقي معهم من الجنود. وضايقهم الرومانيون فيها فطلب يوحنا الجشي وسمعان بن جيورا أن يستسلما إلى طيطوس بشرط أن يترك لهما سلاحهما ليخرجا بأهلهما من المدينة، ويذهبا إلى البرية، فقال أنَّ عليهما أن ينقادا دون شرط فلم يذعنا واستأنف القتال في ٢٠ آب. وأخذ الرومانيون يبنون أبراجاً ليرموا من فوقها على المدينة العليا فلم تُكمل أبراجهم إلَّا في ٧ أيلول. ودافع المشاغبون دفاع الأبطال وانقاد الأدوميون إلى طيطوس فقتل بعضهم وسجن بعضهم. وخارت أخيراً قوى المشاغبين للجوع والجهاد فتسلَّق الرومانيون على الجدران وتهافتوا على المدينة العليا، فأبسلوا كل من وجدوا وفي ٨ أيلول أحرقوا صهيون ودكّوا أسوارها ولم يُبقِ طيطوس منها إلَّا ثلاث دور ذكراً لانتصاره،

وهي المعروفة بدور مريمنا وفازائيل وابيكون. فهكذا ما كان بقي لليهود من استقلالهم السياسي تحت أخربة أورشليم والهيكل.

وقال يوسيفوس (ك ٦ في الحرب فصل ٤٥) إنَّ عدد القتلى في هذا الحصار كان مليون نفس ومئة ألف نفس وأكثرهم من خارج اليهودية كانوا أتوا إلى العيد والجهاد. وأرى أنَّ قول يوسيفوس هذا لا يخلو من المبالغة على عادته وقال إنَّ عدد الأسرى كان سبعة وتسعين ألفاً سلَّمهم طيطوس إلى أحد حاشيته اسم فرنطون يتصرَّف بهم كيف شاء. فأمات منهم اللصوص والمشاغبين الذين كانوا يشكون بعضهم بعضاً. وأبقى من كانوا شباناً أقوياء حسني المنظر ليكونوا شهوداً على الظفر. وأرسل من كان منهم عمره سبع عشرة سنة وما فوق للأشغال الشاقة في مصر. وباع من كانوا دون السابعة عشرة بأبخس الأثمان. وأرسل طيطوس كثيرين منهم إلى بعض المدن في اليهودية وسورية يستخدمهم في المشاهد كما سيجيء. فهذا جزاء الأمَّة التي غمطت نعمة ربها وصلبت مخلِّصها وتمت بخراب أورشليم والهيكل نبوَّات المخلِّص والانبياء.

وأنبأنا يوسيفوس (ف ٣١ ك ٦ في الحرب) إنه قد ظهر في أورشليم قبل خرابها آيات وعلامات منذرة بالدمار منها أنه ظهر نجم ذو ذنب فوق أورشليم واستمر سنة، وبينما كان الشعب قبل الحرب مجتمعاً في الثامن من نيسان لعيد الفصح ظهر من الساعة التاسعة من الليل نور ساطع فوق مذبح الهيكل فدام نصف ساعة وعاد الظلام. ومنها أنه في الساعة السادسة من الليل فُتح باب الهيكل الشرقي من نفسه وكان موصداً وهو من نحاس وثقيلاً حتى يعسر فتحه على عشرين رجلاً. وكان بعد ذلك في السابع والعشرين من أيار ما قال يوسيفوس إنه كان يتردَّد في ذكره مخافة أن يُحسب حكاية لو لم يشهد له به أناس عاينوه، وهو أنه ظهرت عند مطلع الشمس عجلات في الجو ملأى من المحاربين تدور حول المدينة كأنه لتوصدها. ومن ذلك أنَّ الكهنة كانوا في عيد البنديكستي مجتمعين ليلاً في داخل الهيكل، فسمعوا ضجيجاً ثم صوتاً يقول مرات فلنخرج من هنا. ومنه أنَّ رجلاً قروياً اسمه يشوع بن حنان أتى أورشليم في عيد المظال قبل الحرب بأربع سنين، وأخذ يطوف ليلاً نهاراً في أزقَّة المدينة هاتفاً: صوت من المشرق، صوت من المغرب، صوت من الأرياح الأربع، صوت على أورشليم، صوت على الهيكل، صوت على المتزوجين والمتزوجات حديثاً، صوت على الشعب كلِّه، فأخذه

بعض الأكابر وجلدوه لتطيرهم بكلامه وشكوه إلى البين والي اليهودية، فضربه حتى سال دمه فلم يفه بكلمة، ولم تسل من عينيه دمعة، بل كان يقول على كل ضربة الويل لأورشليم! الويل للهيكل! فحسبه مجنوناً وخلى سبيله ولم يعد يقول شيئاً إلى أن تسعرت نار الحرب. فعاد يطوف قائلاً الويل لأورشليم! الويل للشعب! الويل للهيكل! ولما حوصرت أورشليم أخذ يزيد على قوله الويل لي الويل لي! وأصابه حجر شجَّ رأسه ومات (ملخص عن الكتابين الخامس والسادس ليوسيفوس في الحرب).

عد ٤٩٢
تتمة أخبار الحرب

إنَّ فسبسيان جعل اليهودية ملكاً خاصاً به وأمر العمال الرومانيين أن يبيعوا أراضيها بالمزاد. فكان له من ذلك ثروة عظيمة وكان يؤثر المال على الشرف. وأمَّا ابنه طيطوس فعاد بعد خراب أورشليم إلى قيصرية فلسطين، وأقام لأصدقائه حفلات دموية تفاخراً بظفره. فأتى إلى المحفل بوحوش ضارية وأرغم كثيرين من أسرى اليهود أن يصارعوها فظفرت بهم الوحوش وافترستهم . ثم أقام عيداً لمولد أخيه دوميطيان في ٢٤ تشرين الأوَّل وأدخل الأسرى إلى المشهد وأرغمهم أن يقتتلوا حتى أهلك بعضهم بعضاً فصُرع ألفان وخمس مئة شاب من ذوي الحسب. ثم أتى طيطوس إلى قيصرية فيليبوس (بانياس) وكان هناك أغريبا واخته برنيكة فأمر الأسرى والوحوش الضارية أن تتصارع وتعترك فهلك كثيرون من شبان اليهود على مرأى أغريبا واخته. ثم مضى إلى بيروت وكان أهلها جالية رومانية بمعنى أنَّ لأهلها الحقوق التي يتمتَّع بها سكان رومة، وكان منهم جم غفير من المتقاعدين من الجنود الرومانيين، وأقام عيداً لمولد أبيه في ١٧ تشرين الثاني فأهلك كثيرين من اليهود بمثل هذه المصارعات.

أمَّا يوحنا الجشي فاختفى في كنيف وضايقه الجوع وضاق ذرعه عن تحمله فخشع سائلاً العفو من الرومانيين، فحكم عليه بالسجن المؤبَّد. وأمَّا سمعان بن جيورا فبينما كان الرومانيون متشاغلين بالنهب دخل مغارة لا يعرفها إلَّا قليلون، وأخذ بعضَ أصدقائه الأمناء، وحفَّارين معهم أدوات الحفر والخرق وشيئاً من الزاد.

وطفق يحفر سرداباً ينتهي به إلى خارج المدينة. ولكن حال دون مرامه صخر صلد تعسَّر خرقه. وفرغ الزاد فاضطرَّ أن يستسلم وخرج من مخبئه إلى أخربة الهيكل متدَّثراً بثوب أبيض ومتَّشحاً ببرفير، فراع الخفراء الرومانيين مرآه بغتة، وقال خذوني لرئيسكم رفوس، فأتى رئيسهم وقال أنا سمعان بن جيورا فكبَّله بالحديد وأرسله إلى طيطوس، وأخذ يوحنا وسمعان إلى رومة وكانوا في حفلات الظفر يأتون بهما وبغيرهما من الأسرى مكبَّلين بالحديد، وبعنقهم حبال يجرُّونهم بها ويحملون أمامهم آنية الهيكل ومنارة الذهب والمائدة الذهبية ولفافة من التوراة. وكانوا يعرضون لمنظر العامة صور حروب أورشليم وخرابها. وأخيراً ألقوا سمعان من على صخر فمات وبقي يوحنا الجشي في أحد السجون إلى أن قضى.

ومضى طيطوس إلى أنطاكية فخرج الشعب برمته إلى استقباله، وسألوه أن ينفي اليهود من مدينتهم، فقال لم يبقَ لهم موطن فنفيهم حرام، ولم يرض أن يلغى عهد المدينة الرومانية الذي كانوا أعطوه في أنطاكية، ولا أن يكسر الصفيحة النحاسية التي دوِّن عليها هذا العهد. ثم عاد طيطوس إلى أورشليم وأسف على خرابها. ثمَّ سافر إلى الاسكندرية ومنها إلى رومة حيث قوبل بعظيم الاحتفاء كما لو كان عاهلاً. وأجروا له حفلات الظفر وأقاموا له قوس الانتصار المعروف باسمه إلى اليوم في رومة. وبقي اليهود في رومة سنين متطاولة يتحامون المرور من تحت تلك القوس. وحفظت الآنية التي أخذت من هيكل أورشليم في هيكل السلم في رومة ولفافة التوراة في قصر الملك.

وبقيت القلاع الثلاث المار ذكرها وهي: هيروديون في جبل الفريديس، وماكرون في الشمال الشرقي من بحيرة لوط، وماسدة في غربيها. فأمر فسبسيان بسوس الذي جعله والياً على اليهود أن يستحوذ عليها، فمن كانوا في هيروديون دانوا له لأوَّل بلاغ أنفذه إليهم. وأمَّا ماكرون فدافع من كانوا فيها أوَّلاً شديد الدفاع، ثمَّ استسلم أليعازر رئيسهم فهم بسوس أن يصلبه. ولمَّا رأى قومه ذلك أخذتهم الشفقة عليه، فكاشفوا بسوس بأنَّهم يستسلمون إليه إن أبقى على رئيسهم حياً فوعدهم بذلك ولم يخلف وعده. وكان قوم في أسفل الجبل لم يعمهم العفو فقتل منهم ألف وسبع مئة رجل، وباع النساء والأطفال أرقَّاء وعاجل الموت بسوس قبل أن يأخذ ماسدة. فسيلفا خليفته حاصر هذه القلعة الحصينة فأبدى من كانوا فيها آيات البسالة بالدفاع. على أن مناجق الرومانيين أسقطت سورها الأوَّل، وكان

لها سور آخر من خشب أحرقه الرومانيون. ولمَّا يئس المحاصرون أقنعهم أليعازر بن يائر رئيسهم بأنَّ الانتحار أشرف لهم من الوقوع بيد الأعداء فقتلوا أوَّلاً نساءهم وأولادهم ثم انتحروا. وكان ذلك في اليوم الأوَّل من الفصح سنة ٧٣ م. واستمرَّ الرومانيون أعواماً يضربون سكة عليها صورة العاهل من جهة وفي الوجه الآخر صورة امرأة حزينة قائمة تحت نخلة مكبَّلة اليدين، وقد كتب عليها اليهودية المقهورة أو المأسورة، وقد أمر فسبسيان أنَّ الدرهمين اللذين كان اليهود يدفعونها للهيكل يؤدونها فيما بعد لهيكل المشتري في رومة.

إنَّ الذين تمكَّنوا من النجاة في اليهودية تشتَّتوا في كل قطر، وبعضهم لجأوا إلى اخوانهم في ما بين النهرين وبلاد العرب. وأوشكوا أن يحدثوا ثورة في الاسكندرية لو لم تتداركهم الحكومة وبعض عقلائهم. وأمر فسبسيان حينئذ بهدم هيكلهم الذي كان في مصر. وأغريبا واخته برنيكة تركا موطنهما وأقاما في رومة. ويوسيفوس صحب طيطوس عند مضيه إلى رومة وكان معززاً عند العاهل وابنه، وملكه فسبسيان أملاكاً خصبة في اليهودية، وأقامه في بلاطه. وكان لأسرة فلافيوس الرومانية عناية كبرى به ولذلك سمى نفسه فلافيوس يوسيفوس (ملخَّص عن الكتاب السابع في الحرب ليوسيفوس).

(ذيل)

عد ٤٩٣

بعض مشاهير الكتَّاب السوريين الدنياويين في القرن الأول

لم نعثر على أخبار أحداث مدنية مهمة في المدة التي خلت من خراب أورشليم إلى نهاية القرن الأول. وكانت فيها أحداث دينية سيأتي ذكرها في القسم الثاني فنجتزئ بتذييل هذا الجزء بذكر الكتَّاب الدنياويين الذين كانوا في هذا القرن أو قبله. من هؤلاء الكتَّاب نقولا الدمشقي وقد وُلد في دمشق سنة ٧٤ ق.م واستمر حياً في صدر القرن الأول بعد الميلاد وكان صديقاً لهيرودس الكبير. وقد كتب باليونانية روايات ومآسي ومقالات فلسفية، وترجمتَي هيرودس الكبير واغوسطوس قيصر، وتاريخاً عاماً في مئة وأربعة وأربعين كتاباً فصيح العبارة، سهل المأخذ، ولم تُبقِ الأيام من تآليفه إلَّا فقراً أذاعها كواري في باريس سنة ١٨٠٤ م.

واردللي في برلين سنة ١٨١١ م في ثلاث مجلدات عنوانها فِقَر التاريخ اليونانية. وقد كُشف له أخيراً عن فِقَر من ترجمة قيصر ترجمها إلى الافرنسية ديدوت وطبعت سنة ١٨٤٩ م وسنة ١٨٦٢ م.

ومنهم يوسيفوس الذي أوردنا إلى الآن كثيراً من أقواله وهو ابن ماتيا من النسل الكهنوتي. ويتصل نسب أمه بفرع من المكابيين وقد كتب بيده ترجمة حياته. وهي معلقة في صدر تآليفه الموسوم بحرب اليهود مع الرومانيين. وقد وُلد في السنة الأولى لغايوس وهي سنة ٣٧ للميلاد واقتبس العلوم وقال عن نفسه إنَّ الله أولاه ذاكرة جوّادة وعقلاً كافياً. واتَّبع شيعة الفريسيين وزار روما سنة ٦٣ م وهي السادسة والعشرون من عمره ونال حظوة كبرى لدى بوبية امرأة نيرون إذ شفعت له أمام العاهل في اطلاق الكهنة أصدقائه الذين كان فيلكس والي اليهودية أرسلهم إلى روما، وأتحفه بهدايا نفيسة. وسنة ٦٧ م سماه مجمع اليهود في أورشليم والياً على الجليل. فحارب الرومانيين وحاصروه في مدينة يوتاباط (جفت) إلى أن أُكره على التسليم لهم كما مرّ. فأعزه فسبسيان وطيطوس ابنه الذي صحبه إلى روما وقال عن نفسه إنَّ دوميطيان الملك ابن نيرون أيضاً زاد في اكرامه وقطع رؤوس اليهود الذين تجنّوا عليه، وأعفى أملاكه في اليهودية من الخراج وقد أدركته الوفاة نحو سنة ١٠٠ بعد الميلاد.

وقد كتب يوسيفوس تاريخ أمَّته في عشرين كتاباً ثم كتب تاريخ حرب اليهود مع الرومانيين في سبعة كتب دوَّنها أولاً بالسريانية لغة أمَّته حينئذٍ. ثم ترجمها إلى اليونانية كما قال عن نفسه في ترجمته. وردَّ مزاعم ابيون وطعنه بأمَّته في كتابين علقا على تاريخ الحرب. وأفرد كتاباً لمديح الشهداء المكابيين السبعة وقد تُرجمت تآليفه إلى اللاتينية والافرنسية وغيرهما وطُبعت مرات.

ومنهم يوستوس الطبراني (من طيبارية) وهو يهودي مذهباً، كتب كتاباً في تاريخ حرب اليهود سنة ٧٣ م ليتَّهم به يوسيفوس أنه كان عدواً للرومانيين. وحمل الجليليين على الثورة عليهم ليسخط الرومانيين عليه. ولذا ترى يوسيفوس في ترجمة حياته يُخطِّئه في ما كتب ويؤنِّبه على تحامله عليه. ويبيِّن له أنه هو الذي كان رئيس الثائرين. وسطا على بعض مدن السوريين وانتهبها. وشكاه أهلها إلى فسبسيان ولولا أن يشفع فيه اغريبا وأخته برنيكة لقتله. ثم لم يكن أميناً لأمَّته أيضاً

إذ جعل أهل وطنه طيبارية يستسلمون إلى الرومانيين. وقد توفر الانتقاد بينهما في طعن أحدهما في الآخر. وقد أُلقي يوستوس في السجن مرتين ولولا وساطة برنيكة لحُكم عليه بالموت. وبعد أن أعفا اغريبا عنه في المرة الثانية اتخذه كاتباً لسرّه وقد أغضى يوسيفوس عن بعض هفوات الملك في ابان الحرب. فأذاعها يوستوس كاتب سرّه في تاريخه الذي لم يشهره إلّا بعد نحو من عشرين سنة، إذ علم أنَّ دوميطيان الملك أعزَّ يوسيفوس ورخَّص له بإذاعة تاريخه، ولم نعثر إلى الآن على ما يثبت لنا أنَّ تاريخ يوستوس باقٍ برمَّته أو بقيت فقرات منه.

ومن هؤلاء فيلون اليهودي وكان من النسل الكهنوتي، لكنه وُلد في الاسكندرية في نحو سنة ٣٠ قبل الميلاد، وتعمَّق في درس فلسفة اليونان على مذهب أفلاطون، وكان يسمى في حياته أفلاطون اليهودي. وقد جعله اليهود الاسكندريون رئيس الوفد الذي أرسلوه إلى غايوس الملك في أثناء ثورة اليونان عليهم، منتهزين فرصة غضب الملك على اليهود لتمنّعهم عن وضع تمثاله في هيكل أورشليم كما مرّ. فأتمَّ فيلون وفادته وكتب تاريخها في كتاب انطوى على ثمانية عشر فصلاً ذيَّل به تاريخ يوسيفوس في طبعته في باريس سنة ١٧٠٠ م . وتبيَّن منه أنَّ غاريوس لم يُجب سؤلهم بل غايظهم وعادوا بخفي حنين. وقد كتب فيلون تآليف عديدة في اللاهوت على مذهب العبرانيين، وفي التاريخ والفلسفة وأهمهما كتبه في خلق العالم بحسب نصّ موسى. وفي ترجمة موسى، وفي السيرة النظرية، وفي العالم. ففي اللاهوت يجدّ في تفسير الكتاب بالمعنى الرمزي والمجازي. وفي الفلسفة يتبع تعليم أفلاطون، ويحاول أن يوفِّق بينه وبين مذهب اليهود. وقد تُرجمت تآليفه وطُبعت مع ترجمة لاتينية لها في لندرة سنة ١٧٤٢ م، وفي لبسيك سنة ١٨٤٣ م، وأخيراً في باريس سنة ١٨٦٧ م عدا طبعات أخرى.

وكان في هذا القرن أو القرن السابق فيلودومر الابيكوري في كادارا المعروفة اليوم بأم قيس في عبر الاردن (طالع عد ٤٨٩). ومضى إلى روما وكان له فيها تلاميذ وقد كتب في الأدب والفصاحة والموسيقى. وقد كُشف في هركولانو (على مقربة من نابولي) عن فقرات من تآليفه. وأُذيعت في جملة ما كُشف عنه في هذه المدينة. وقد كشف العالِم كروس فقرة له في صناعة الخطابة عنوانها فصاحة فيادومر وعلَّق عليها شروحاً في باريس سنة ١٨٤٠ م، وأشهر له سوب في المانيا سنة ١٨٥٣ م فقرة في الرذايل والفضائل. وكان أيضاً من هذه المدينة منيب الفيلسوف

أقام في الصعيد ولم يتصل إلينا شيء من تآليفه. وكان في عسقلان تليودور العسقلاني الخطيب الشهير. وقال استرابون (ك ١٦ فصل ٧٥٧) إنه لم يبقَ حينئذٍ في صور وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة بل كان كثيرون من أصحاب علم الهيئة والعلوم والرياضة، والخطباء والفلاسفة، ومدارس تقتبس فيها كل فروع العلوم البشرية إلى أن قال: «إنَّ صيداً في أيامنا نشأ فيها كثير من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا وديودوت أبوه. ونشأ في صور انتيباتر وقبله ابولون الذي نظم جدول الفلاسفة الزينونيين وتآليفهم». قلنا وكان في اباميا (قلعة المضيق) فيلسوف يسمي بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه في رودس سنة ٧٨ ق.م وكتب كتباً منها تاريخ حُفظت منه بعض فقرات. وكان أيضاً في سورية في القرن الأول كتّاب آخرون من الهراطقة سيأتى ذكرهم في القسم التالي.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الأول

الفصل الأول

العهد الجديد والمخلِّص له المجد

عد ٤٩٤

العهد الجديد

لما كان العهد الجديد أساً للدين المسيحي ومحوراً يدور عليه كلامنا في هذا القسم ودعاماً لكل التاريخ الديني، تحتَّم علينا أن نطرف قرّاء كتابنا بكلام مجمل في أسفار هذا العهد وعددها وصحتها وتنزهها عن التحريف إلى غير ذلك مما رأيناه نافعاً متابعةً لمساق كلامنا في أسفار العهد القديم.

إنَّ العهد الجديد مؤلف من سبعة وعشرين سفراً حسبما عدَّها المجمع التريدنتيني سنة ١٥٤٦م وحتَّم باعتقادها منزلة وموحاة من الله. وتقدمه في ذلك مجمع فلورنسا سنة ١٤٤١م، ومجمع قرطاجنة الثالث سنة ٣٩٧م، ومجمع ايبونا سنة ٣٩٣م. وهذا المجمع حضره اساقفة افريقيا كلهم والقديس اغوسطينوس. وتلك الأسفار هي: الأناجيل الأربعة، وكتاب أعمال الرسل، وأربع عشرة رسالة لبولس الرسول، ورسالة ليعقوب الرسول ·ورسالتان لبطرس زعيم الرسل، وثلاث رسائل ليوحنا الرسول، ورسالة ليهوذا الرسول، ورؤيا يوحنا وهي منطوية على مئتين وستين فصلاً وعلى ٧٩٥٩ آية. وقد كتبها ستة رسل وهم متى يوحنا ويعقوب وبطرس

ويهوذا وبولس وتلميذان وهما مرقس ولوقا. ونرجئ الكلام في ما كتبه كل منهم إلى حين الكلام فيه. وقد نزّل المؤمنون منذ صدر النصرانية ما كتبوه منزلة أسفار إلهية، وأُذيع سريعاً في الكنيسة كلها. وقبل أن يكتبوها كان الرعاة يعلّمون المؤمنين الحقائق المشتملة عليها. فيعتقدون بها كما نعتقد اليوم. وتلك بيّنة دامغة على البروتسطنت بإنكارهم التقليد.

إنَّ الذين كتبوا هذه الأسفار ما كان يمكنهم أن ينخدعوا ولا أن يخدعوا غيرهم ولو أرادوا، فلا أن ينخدعوا لأنهم جميعاً كانوا شهوداً عيانيين أو كالعيانيين لما كتبوه. والأناجيل أس الباقي موضوعها أمور محسوسة كاقامة موتى أو أبرياء مخلّعين أو مرضى، أو ردّ البصر لعميان أو تسكين أمواج البحر أو المشي على مياهه. وهلمّ جرّا من الآيات التي كانت تتم بحضرة الرسل أو جموع من الناس على فور كلام المخلّص، دون توسّط دواء أو مضي وقت أو وسيلة أخرى. وبولس كان واقفاً على كل ما أجراه المخلّص أو جرى عليه. ومرقس لقّنه بطرس إنجيله ولوقا وإن لم يكن رسولاً فكان تلميذاً للمخلّص. فإذاً لم يكن ممكناً أن ينخدعوا وهم كثيرون.

ثم إنَّ كتبة العهد الجديد لم يكن في مقدورهم أن يخدعوا غيرهم ولو أرادوا لأنهم كتبوا أموراً جرت جهاراً. ونادوا بها علانية أمام من شهدوا آيات المخلّص أو آلامه، فكيف يمكن أن يكون ما دوَّنوه كاذباً ولا يثور الجمهور عليهم لاختلاقهم أكاذيب تقضي على اليهود، وتعيب الكتبة والفريسيين وتذلّ الولاة ورؤساء الكهنة؟ فلو كان تلاميذ المخلّص أربعة أو خمسة فقط لاستحال عليهم الاتفاق على الضلال والثبات فيه حتى الممات. فكيف وقد كانوا ألوفاً؟ وقد وُجد منهم في القرن الأول كثيرون في اليهودية، وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، ومصر وروما وغيرها. ثم ما الفائدة لهم من نشر الضلال؟ وهم يوقنون بل قد رأوا أنَّ ما وراء ما بشروا به وكتبوه إلَّا الامتهان والعذاب وفقد الحياة؟ أيضاً وأية عائدة لهم في أن ينقطعوا إلى عيشة قشفة مضنكة وأن يقاسوا نصباً واضطهاداً وموتاً لمجرد خدعة الناس بأقاصيص لا حقيقة لها؟ وكيف أمكن مع ذلك أن يؤمن الناس بكلامهم في كل صقع وفي أسرع وقت حتى أفحموا مضطهديهم أيضاً؟ فإن كذَّب الكفرة بصحة هذه الأسفار فأنّى لهم أن يكذبوا بأنَّ الإيمان بالمسيح طبق ما في هذه الأسفار قد انتشر منذ حياة الرسل في كل صقع. وقد أثبت ذلك كثير من المؤلفين العالميين منذ القرن الأول نفسه والعقليون (وهم من لا يصدقون إلَّا ما يثبته العقل) لا ينكرون جميع

أسفار العهد الجديد، بل يسلمون ببعضها ومن جملتها رسائل بولس الأربع الأولى. على أنَّ هذه الرسائل نفسها تثبت تعليم الأناجيل وتؤيد أكثر العقائد المسيحية.

إنَّ العقليين وغيرهم من الملحدين يزعمون أنَّ اختلاق أسفار العهد الجديد وتصديق الناس بها كان في القرن الثاني، على أنَّ زعمهم هذا مستحيل فهم وكثير من المؤرخين العالميين يقرّون أنَّ المسيح كان في القرن الأول. وتبعه كثيرون وصحبه رسل وتلاميذ ونجد اسماءهم معلقة على أسفار العهد الجديد. فكيف يسوغ أن يقول إنه انقضى القرن الأول ولم يكتبوا شيئاً. وقد رأيت أنَّ العقليين يسلمون ببعض رسائل بولس. وهب أنهم لم يكتبوا شيئاً في القرن الأول فأهل هذا القرن لم يموتوا جميعاً في آخره. ولا أقل من أنه قد بقي في افسس وبطموس، وأورشليم وازمير كثيرون عاصروا يوحنا الرسول الذي توفاه الله في آخر القرن الأول. فلو سلَّمنا مجاراة أنَّ هذه الأسفار اختلفت في القرن الثاني فكيف يمكن التسليم بأنَّ الناس يصدقونها وجميع المؤمنين الشيوخ في روما وانطاكية واليهودية في القرن الثاني كانوا رأوا الرسولين بطرس وبولس وسمعوا ارشادهما وتلقوا تعليمهما إذ نالا اكليل الشهادة سنة ٦٧م؟ فكيف يصدّقون ما يخالف الأيمان الذي تلقّوه عنهما أو أرشدهم إليه تلاميذهما. ولِمَ لم يحتجّوا عليه؟ وكثيرون من أهل قرنثية وغلاطية وتسالونيكي وغيرهم ممن كتب بولس الرسول رسائله اليهم كانوا وُلدوا أو شبوا في القرن الأول. فكيف يقبلون رسالة مقفلة باسم بولس وهم لم يذكروها ولم يخبرهم آباؤهم بها وتخالف ما علَّمهم إياه هذا الرسول؟

ولنا على صحة هذه الأسفار بينات أخرى قاطعة مفحمة كل الملحدين مأخوذة عن ترجمات هذه الأسفار المقدسة. واستشهاد الآباء الأولين بها وشهادة الهراطقة والكتب المخطوطة القديمة. فبعض الترجمات القديمة قد وُضعت في آخر القرن الأول أو أوائل القرن الثاني. منها الترجمات اللاتينية التي كانت قبل القديس ايرونيموس. وقد قال فيها القديس اغوسطينوس (في كتابه التعليم المسيحي فصل ٢) إنها منذ أزمنة الايمان الأولى. «أي تتصل بعصر الرسل والترجمة المعروفة بالإيطالية. وهي لا تتجاوز سنة ١٥٠م. والترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة والأظهر أنها ترجمت بقلم تادي الرسول بعناية أبجر ملك الرها على ما روى أكثر العلماء السريان. ذكر ذلك ابن العبري والسمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ٣ صفحة ٣١٤). وطالع مقدماتي على تفسير الأناجيل في الترجمة السريانية ولا أقلّ من أن تكون تُرجمت في القرن

الثاني. وتوجد ثلاث ترجمات قبطية أو مصرية أُنشئت في القرن الثالث. والترجمة الحبشية في القرن الرابع فهي معاصرة لنشر الإيمان في الحبشة على يد القديس فرومنسيوس بن ميروبيوس الفيلسوف الصوري المعروف عندهم بأبي سلامة. والترجمة الغططية سنة ٣٦٠ م والترجمة الأرمنية في القرن الخامس وضعها الراهب مسروب الذي أوجد الحروف الهجائية للغة الأُرمنية (وتوفي في ١٩ شباط سنة ٤٤١م). وكل هذه الترجمات متطابقة جوهراً ومعنى إلّا في بعض الأمور العرضية.

وقد استشهد الآباء والمؤلفون البيعيون في القرون الأربعة الأولى بهذه الأسفار المقدسة. ولم تتصل إلينا تآليف جميعهم ومع ذلك يمكن أن يُعد منهم نيف ومئتا مؤلف من آخر القرن الأول إلى آخر القرن الرابع من يونان ولاتينيين وسريان من آسيا الصغرى، وإيطاليا وافريقيا، وسورية وجميعهم يستشهدون الأسفار المقدسة. وكثيرون منهم يوردون ويفسرون أسفاراً عديدة منها. منهم في القرن الأول القديس اكليمنضوس البابا تلميذ بطرس الرسول وخليفته (توفي سنة ١٠٠ أو سنة ٩٨ م). والقديس برنابا نسيب مرقس الإنجيلي ورفيق بولس الرسول في تبشيره (استشهد على الراجح في سلامينا في قبرص سنة ٦٣ م). وفي القرن الثاني القديس يوستينوس، والقديس ايريناندوس، والقديس تاوافيل الانطاكي. وفي القرن الثالث اكليمنضوس الاسكندري، وترتوليانوس، واوريجانوس. وفي القرن الرابع القديس ايلاريوس في بواتيا في افرنسا، والقديسون غريووريوس نيصص، وغريغوريوس النزميزي، واتاناسيوس، وكيرلوس الأورشليمي، وايرونيموس وفم الذهب وغيرهم.

ثم إنَّ الهراطقة الذين كانوا في القرون الأولى لم ينكروا التاريخ الإنجيلي ولم ينبذوا قسماً كبيراً من اسفار العهد الجديد. ولم يدَّعوا أنها مزوَّرة أو مختلقة بل كانوا يستشهدون بها أحياناً. فشردون وقد كان من سنة ١٣٠ إلى سنة ١٤٠ م أقرَّ على ما ذكر اوسابيوس في تاريخه (ك ٤ فصل ١١) بأنَّ أسفار العهد الجديد كلها موحاة. ومرقبون الذي أتى روما سنة ١٤٠ م كان يسلم بإنجيل لوقا وبعشر من رسائل بولس الرسول (يوستينوس في محاماته الأولى واوسابيوس في تاريخه ك ٤ ف ١٤). وتاسيان الذي ادركته الوفاة سنة ١٨٠ م ألَّف كتاباً سنة ١٦٠ م في توفيق الأناجيل الأربعة وكان كتابه ذائعاً في سورية وما بين النهرين. وقد نشر السيد شياسكا ترجمة عربية له في روما سنة ١٨٨٩ م عن نسخة مخطوطة في المكتبة الواتيكانية. ومنتانوس الذي كان في النصف الثاني من القرن الثاني كان

يسلم بالأسفار المقدَّسة دون استثناء كما روى ايفان عند ذكره بدعته وباسيليد الذي كان من سنة ١١٣ م إلى سنة ١٣٨م، ويورد في الأربعة والعشرين كتاباً التي كتبها في الإنجيل شهادة القديس لوقا، والقديس بولس الرسول في رسائله إلى الرومانيين والقرنثيين والأفسسين، ويقول عن نفسه إنه كان تلميذاً لكليوشياس كاتب بطرس الرسول، وإنه كانت له مراسلات مع ماتيا الرسول (رواه كليمنضوس الاسكندري ك ٧ في اللفيف). ووالتان الذي شخص إلى روما سنة ١٣٥ م كان ينسب تعليمه إلى ثيوداس تلميذ بولس وكان يكثر من إيراد شهادات يوحنا الرسول ويقرّ بجميع الأسفار المقدَّسة (كماروى القديس ايريناوس ك ٨ فصل ٩). وهرقليون شريكه أو تلميذه كتب نحو سنة ١٥٠ م أو سنة ١٦٠ م تفسير بشارتي لوقا ويوحنا (كما روى اوريجانوس في تفسير بشارة يوحنا) وهلمّ جراً في غيرهم من الهراطقة.

بل إنَّ اليهود والوثنيين في القرون الأولى كانوا يعزون الأناجيل وباقي الأسفار المقدَّسة إلى تلاميذ المسيح الأولين، ولا يشكّون في حقيقة أصلها وإن ندِدوا بها أو تأولوها بغير معناها الصحيح. فتريفون في جداله مع القديس يوستينوس في القرن الثاني قال إنه يعرف الأناجيل وإنه طالعها مرات لكنه لا يقبل تعليمها لئلا ينكر موسى والانبياء (كما هو بيِّن في محاورة القديس المذكور معه). وشلسوس الذي كان في القرن الثاني يندِّد بالمخلِّص وتلاميذه، ولكن تنديده واعتراضاته نفسها على سيرة المخلِّص وتعليمه تبيِّن جلياً معرفته بالأناجيل الأربعة. ويدَّعي وجود المناقضة فيما كتب عن قيامة المخلِّص ويقول إنه اقتبس اعتراضاته عن كتب النصارى ليحاربهم بسلاحهم، وإنه عالم بكتبنا المقدَّسة وبكل ما نعتقد ويخطئ الهراطقة في بعض التحريف (ذكر كل ذلك أوريجانوس في رده مزاعم شلسوس). ويكفينا أنَّ رنان نفسه مدحه بأنه استاذ في تفسير «الكتاب» وكذلك يقال في اعتراضات برفير العديدة، فإنه يثبت الأسفار المقدَّسة وحقيقة نسبتها إلى تلاميذ المسيح بانتقاده نفسه وتخطئته لها، حتى قال القديس يوحنا فم الذهب (في تفسيره رسالة بولس الأولى إلى القرنثيين خطبة ٦) إنَّ ما كتبه هذان الكافران يكفينا مؤونة البرهان على صحة أسفارنا المقدَّسة وحقيقتها وعدم اختلافها. فإذاً كل من كتبوا في القرن الثاني مؤمنين كانوا أو كفاراً أو هراطقة مجمعون على حقيقة هذه الأسفار. وزد على ذلك أنَّ الخلاف بين المؤمنين والهراطقة والكفرة منذ القرنين الأول والثاني كان

بالعناية الربانية مانعاً كل فريق منهم عن الزيادة أو الحذف أو التحريف لهذه الأسفار، وبيّنة قاطعة على حقيقتها، فلا بيّنة تساوي اتفاق الخصوم على أمر مع اختلافهم فيه. ولذلك كلما وجدت الأسفار مزورة أو تحريف أو حذف كشف الأمر ونبذ المعتلّ وصحَّ الصحيح.

إذا لم تُبقِ الأيام لنا على أصل هذه الأسفار التي كتبها تلاميذ المسيح فقد بقيت لنا نسخ مخطوطة عنها متفاوتة قدماً. وقد عدَّ سكولتس منها نحواً من ألف ومئتي نسخة مشتملة على أسفار العهد الجديد كلها أو بعضها. منها ٦٧٥ للأناجيل و٢٠٠ لأعمال الرسل و ٢٥٠ لرسائل بولس ونحو خمسين للرؤيا. وأما الآن فبلغ عديدها إلى ألفين والمهم منها نسختان كُتبتا في القرن الرابع إحداهما في الواتيكان منذ سنة ١٤٧٥ م والثانية وُجدت في جبل سينا سنة ١٨٥٤ م وطبعها تيشاندرف سنة ١٨٦٣م، ونسختان خطتا في القرن الخامس إحداهما تسمى الاسكندرية وهي في المتحف البريطاني. وهذه النسخ يونانية. والثانية تسمى النسخة الملكية وهي سريانية في مكتبة الأمّة في باريس وقد أُذيعت سنة ١٨٤٣م. ونسخة واحدة خُطّت في القرن السادس وتسمى نسخة بيزا أو نسخة كمبريدج كانت في ليون فأخذها البروتسطنت سنة ١٥٦٢م، ووهبها بيزا لمكتبة كمبريدج سنة ١٥٨١م، وتوجد نسخة أُخرى مشتملة على رسائل بولس خُطّت في القرن المذكور كانت في كارمون وهي الآن في مكتبة الأمّة في باريس، وباقي النسخ مشتتة وأقدمها يتصل إلى القرن التاسع. فدونك بيّنة أخرى حاصلة من هذه النسخ تثبت صحة هذه الأسفار في الأعصر الأولى مؤيدة ما أوردناه من البيّنات وحيث أنَّ اسفار العهد الجديد ورد فيها متواتراً استشهاد اسفار العهد القديم فتكون هذه البيّنات مثبتة حقيقة اسفار العهد القديم أيضاً.

عد ٤٩٥
سنة مولد المخلّص وتبشيره وموته

قد ذكرنا في عد ٤٧٣ الخلاف بين الآباء والمؤرخين على سنة مولد المخلّص من سني خلق الانسان ومن سني تاريخ روما، ولخصنا شيئاً عن التاريخ العامي. ورأينا الآن قبل الكلام في حياة المخلّص وتبشيره وموته أن نبسّط الكلام في السنين

التي وُلد واعتمد وبشَّر ومات فيها ليحيط المطالعين علماً بالخلاف الحاصل بين الآباء والمؤرخين والمفسرين على ذلك.

إنَّ التاريخ المسيحي الذي يستعمله المسيحيون أجمع لم يكن سلفاؤهم في الأعصر الأولى يستعملونه بل كانت كل أمَّة تؤرِّخ بسني مملكتهم أو ملوكهم، إلى أن رأى دانيس الصغير أحد كهنة كنيسة روما (توفي سنة ٥٤٠ م) إنَّ الخليق بالمسيحيين أن يؤرخوا بسنة مولد المخلِّص، وأذاع رأيه سائلاً المتابعة له عليه. ونرى بيدا المكرم (توفي سنة ٧٣٥ م) اتَّبع هذا المذهب في تدوينه تاريخ انكلترا. وباپين وكرلوس الكبير ملكَي افرنسا استطرقاه في تاريخ أعمال حكومتهما. ثم عمَّ استعماله على أنَّ دانيس ابتدأ سنته من أول كانون الثاني مكان أن يبتدئها من ٢٥ كانون الأول. وأجمع المؤرخون على أنه لم يُصب بتعيين سنة المولد فقال بعضهم إنه بدأ في تاريخه بعد أربع سنين من المولد، وقال غيرهم بعد ست منه أو أكثر أيضاً، لأنه افترض أنَّ المسيح وُلد في السنة ٧٥٤ لتاريخ روما مع أنه مؤكد من مراعاة تاريخ موت ارشيلاوس وفيلبوس ابنَي هيرودس ومدة ولاية كل منهما إنَّ أباهما هيرودس توفي سنة ٧٥٠ لروما (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٧ فصل ١٥ وك ١٨ فصل ٦). فالمسيح إذاً لم يولد سنة ٧٥٤ بل سنة ٧٤٩ قبل موت هيرودس بسنة. ويُحتمل أنه وُلد سنة ٧٤٧ لأنَّ هيرودس أمر بعد ذهاب المجوس بقتل أطفال بيت لحم من ابن سنتين فما دون (متى فصل ٢ عد ١٦). وكان لدانيس عذر بخطأه لأنه اعتمد على قول لوقا البشير (فصل ٣ عد ١ وعد ٢٣): «في سنة خمس عشرة من ملك طيباريوس قيصر... وإذ صار يسوع ابن نحو ثلاثين سنة» وظنَّ أنَّ كلام البشير يُراد به ثلاثون سنة بالحصر مع أنه لم يقصد به أن يبيِّن إلَّا أنَّ المخلِّص لم يباشر الكرازة والتبشير إلَّا في السن التي عينته السنَّة لمباشرة خدم الكهنوت. إذ جاء في سفر العدد (فصل ٤ عد ٣) «من ابن ثلاثين سنة فصاعداً إلى ابن خمسين كل من يدخل الجيش يعمل عملاً في خباء المحضر».

وعليه فقد حمل بعض المؤلفين استنادهم إلى التقليد بأنَّ المسيح عاش ثلاثاً وثلاثين سنة، وإلى أنه وُلد قبل التاريخ العامي بأربع سنين على أن يقولوا أنَّ المسيح مات في سنة تسع وعشرين من التاريخ العامي. لئلا يتجاوز حدّ الثلاث والثلاثين سنة من عمره. فيزعمون أنه بدأ في كرازته سنة ٢٦ أو في آخر سنة ٢٥ ومات سنة ٢٩م. ولكي يوفقوا بين قولهم هذا ونصّ لوقا إنَّ المخلِّص اعتمد في السنة

الخامسة عشرة لطيباريوس يحسبون ملك طيباريوس لا من سنة استتباب الملك له بعد موت اغوسطوس بل من سنة مشاركة اغوسطوس في الملك له قبل موته بثلاث سنين. على أنَّ كثيرين من المؤرخين والمفسرين لاعتمادهم على أنَّ سني ملك طيباريوس لا تُحسب إلَّا بعد وفاة اغوسطوس أثبتوا أنّ المخلِّص أخذ يبشِّر في آخر سنة ٢٩ م وإنه مات في سنة ٣٣ م للتاريخ العامي. وهذا يقضي عليهم بأن يقولوا إنه مات وعمره ست وثلاثون أو ثماني وثلاثون سنة وبعض أشهر متابعة لقولهم أنه وُلد سنة ٧٤٩ أو سنة ٧٤٧ لتاريخ روما أعني قبل التاريخ العامي بأربع سنين أو ستٍ. وهذا المذهب قال به كثيرون وهو الأظهر، وأتبعه الأب فيكورو في الموجز الكتابي (مجلد ٣ عد ٤٦ إلى ٤٨) وعنه لخصنا ما مرّ من كلامنا.

قد أيَّد نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الأول مقالة ٢) هذا المذهب بحجج عديدة مع شيء من التغيير، لأنه قال إنَّ المسيح وُلد في السّنة الخامسة قبل التاريخ العامي وأنه تعمَّد في سنة ٣٠ منه والسادسة عشرة لملك طيباريوس. وصرَّح بأنه مات سنة ٣٣ للتاريخ العامي والسابعة والثلاثين من عمره. وأقام على ذلك حججاً وأدلَّة أولها نبوَّة دانيال (فصل ٥) على أنه يكون من صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً (أي تسعة وستون اسبوعاً). وفي نصف الأسبوع السبعين تبطل الذبيحة والتقدمة قائلاً إنَّ ارتحشستا الملقَّب ذا اليد الطولى أصدر أمره ببناء أورشليم في سنة ٢٠ لملكه كما يظهر من سفر نحميا (فصل ٢) وهي سنة ٣٥٥٠ للعالم. فإن أُضيف إليها مدة التسعة والستين اسبوعاً وهي كناية عن ٤٨٣ سنة كان مجموع سني العالم ٤٠٣٣ سنة. (على قول من قالوا أنَّ المولد كان سنة ٤٠٠٤ للعالم). فتوافق سنة ٣٠ لتاريخ الميلاد العامي التي ابتدأ المسيح كرازته فيها، وفي نصف الأسبوع السبعين أي بعد ثلاث سنين ونصف بطلب الذبيحة والتقدمة بموت المخلِّص. فيكون موته سنة ٣٣ أو ٣٤ للتاريخ العامي وهي السنة السابعة والثلاثون من عمره مراعاة للفرق بين التاريخ العامي والحقيقة.

والدليل الثاني من كسوف الشمس الذي حدث عند موت المخلِّص، فقد جاء في الكرونيكون (التاريخ) الاسكندري في سنة ١٩ لطيباريوس ما نصّه: «بل إنَّ المؤلفين الوثنيين خصّوا هذه السنة بالذكر وأثبتوا أنه حدث فيها زلزال. ونخص

بالذكر منهم فليغون (هو مؤرخ يوناني كان في القرن الثاني). فهذا قال في المجلّد الثالث عشر إنه في الأولمبية (تاريخ يؤرخ بها اليونان ابتدأ فيه الأليبيون سنة ٧٧٦ ق.م ويجعلون كل اولمبية أربع سنين) ٢٠٢ في السنة الرابعة منها حدث كسوف عظيم لم يحدث مثله قبله فكان الظلام في الساعة السادسة من النهار شديداً حتى ظهرت الكواكب في السماء. وكان زلزال قوي في الأرض في جهات بيتنيا فهذا ما قاله فليغون الذي عرف أنَّ هذا الكسوف كان خارقاً الطبيعة وغير معتاد. وقد ذكر ذلك اسابيوس في الكرونيكون الذي ترجمه القديس ايرونيموس إلى اللاتينية مورداً شهادة فليغون. وقد ذكره من القدماء القديس ديونيسيوس الأروباجيتي ويوليوس الافريقي، واوريجانوس في الكتاب الثاني من رده مزاعم شلسوس. واستشهد ترتوليانوس (في محاماته فصل ٢١) تواريخ عبدة الأوثان لكسوف الشمس عند موت المخلِّص. ولما كان فليغون وهؤلاء المؤرخون والعلماء قد صرَّحوا بأنَّ هذا الكسوف كان في السنة التاسعة عشرة لطيباريوس، وهذه السنة توافق الثالثة والثلاثين من التاريخ العامي كانت النتيجة صريحة بأنَّ المخلِّص مات سنة ٣٣ للتاريخ العامي وفي بدء السابعة والثلاثين من عمره وذلك طبق قول لوقا البشير أنَّ يوحنا المعمدان ابتدا بكرازته في السنة الخامسة عشرة لطيباريوس.

الدليل الثالث قد صرَّح الإنجيليون واعتقد جميع المؤمنين أنَّ المسيح مات في الخامس عشر من بدر نيسان يوم الجمعة بعد أن كان في الرابع عشر منه يوم الخميس أكل الفصح مع تلاميذه. والحال أنه من جميع السنين الواقع الخلاف في أيها مات المسيح أي من سنة ٣١ إلى سنة ٣٥ من التاريخ العامي لا توجد سنة يقع فيها الرابع عشر يوم الخميس والخامس عشر يوم الجمعة إلّا سنة ٣٣ من هذا التاريخ. فكبرى هذا الدليل ما من مؤمن بالإنجيل يقيم عليها نكيراً وصغراه واضحة من الجداول الفلكية. فسنة ٣١ للتاريخ العامي استهل هلال الفصح في ١٢ آذار في الساعة السادسة بعد نصف الليل يوم الاثنين. فوقعت الرابعة عشرة منه يوم الأحد في ٢٥ من آذار والخامسة عشرة يوم الاثنين في ٢٦ منه. وسنة ٣٢ طلع هلالها في ٣٠ آذار يوم الأحد فكانت ليلة بدرها السبت في ١٢ نيسان والخامسة عشرة منه الأحد في ١٤ منه، وسنة ٣٤ هلَّ هلالها في ٨ آذار يوم الاثنين وأبدر بدرها يوم الاثنين أو الثلاثا ٢٢ أو ٢٣ منه، وسنة ٣٥ بدا هلالها يوم الاربعاء في ٧ نيسان وتم في ٢١ منه الاربعاء، فلا يبقى إذاً إلّا سنة ٣٣ تم بدرها يوم

الجمعة. وكان الفصح أي الرابع عشر منه يوم الخميس. فتعيَّن أن تكون السنة التي مات المخلِّص فيها لأنه أكل الفصح يوم الخميس وصُلب ومات يوم الجمعة.

هذا ولا يُخفى أنَّ كثيرين من الآباء قالوا إنَّ المسيح لم يكن له من العمر عند موته إلَّا ثلاثون سنة. وقال القديسان ايريناوس والذهبي الفم (في تفسير بشارة يوحنا) إنَّ المخلِّص مات وله من العمر لا أقلّ من أربعين سنة وربما خمسون اعتماداً إلى ما رواه يوحنا (فصل ٨ عد ٥٧) من أنَّ اليهود قالوا له: «إلى الآن لم تبلغ الخمسين سنة وقد رأيت ابراهيم». ولا تسهُ عما ذكرناه مرات أنَّ الكنيسة لا تعتد بشيء من هذه الاعداد. وأطلقت لكل أن يعتمد على ما يراه صواباً فيها دون أن تصم عقيدته بخلل.

عد ٤٩٦
نسب المسيح بما أنه انسان

قد ذكر متى في الفصل الأول من بشارته ولوقا في الفصل الثالث نسب المخلِّص فبدأ متى من ابراهيم نازلاً إلى يوسف رجل مريم التي وُلد منها يسوع. وذكره لوقا صاعداً من يوسف إلى هالي إلى ناتان بن داود إلى آدم الذي من الله. وهذا النسب مأخوذ عن الأسفار المقدَّسة إلَّا بعض الآباء الذين من القرون الخمسة أو الستة الأخيرة. فإنَّ اسماءهم مأخوذة عن الأنساب التي كانت محفوظة في الهيكل تحت حراسة الكهنة كما يظهر من قول عزرا (فصل ٢ عد ٦٢) في بني برزلاي وغيرهم إنَّ «هؤلاء بحثوا عن كتابة انسبائهم فلم توجد فخلعوا من الكهنوت». ومن قول نحميا (فصل ٧ عد ٥) ألقى إلهي في قلبي أن أجمع العظماء والولاة والشعب للانتساب فوجدت سفر نسب الذين صعدوا أولاً». فاليهود كانوا يحرصون على أنسابهم محافظة على الميراث بينهم. فحنّة النبيَّة لم تكن تجهل أنها من سبط أشير واليصابات كانت تعلم أنها من بنات هارون كما ذكر لوقا البشير. ونرى يوسيفوس اليهودي ذكر نسبه في ترجمة حياته نقلاً عن السجلات العامة. وكان نسل داود خاصةً معلوماً إلى أيام المخلِّص. وقد رأينا بعض العميان والمتشيطنين ينادون المخلِّص يا ابن داود، بل بقي هذا النسب معلوماً بعد أيام المخلِّص أيضاً. فقد أنبأنا هاجيسبوس الذي توفي سنة ١٨١م أنه وشي بالبعض من

نسل داود إلى دوميطيان الملك فأتى بهم إلى روما. وعليه فيظهر أنَّ الإنجيليين أخذوا الانساب التي لم يذكرها «الكتاب» عن السجلات العامة، وحققت الكنيسة هذه الانساب إذ أبقت عليها في الأسفار المنزلة.

إنَّ بعض الملحدين قد انتقدوا النسب الذي ذكره الإنجيليان بأنَّ أحدهما يخالف الآخر فيه فقالوا إنَّ الانساب التي ذكرها متى من سليمان إلى يوسف غير الأنساب التي ذكرها لوقا من يوسف وهالي إلى داود. ومتى قال إنَّ يوسف بن يعقوب، ولوقا قال إنه ابن هالي. وقد ردَّ الآباء والعلماء زعم الملحدين فقالوا إنَّ الخلاف بين متى ولوقا من جهة الأنساب التي بين يوسف وسليمان وبين يوسف وهالي إلى داود لا يُحفل به، لأنَّ متى أوصل نسب المسيح إلى داود بذكره سليما ورحبعام إلى يوسف. ولوقا أوصله إليه بذكر ناتان بن داود إلى هالي ويوسف. ومرجع النسبين إلى داود وهذا غرض الانجيليين. وأما الخلاف بينهما بأنَّ متى جعل يعقوب ابن يوسف. ولوقا جعله ابن هالي فتوترت في توقيعه أقوال الآباء والعلماء. فقال القديس اغوسطينوس (ك ٢ في توفيق الأناجيل فصل ١٣) إنَّ يوسف كان ابناً طبيعياً ليعقوب وابناً بالذخيرة لهالي. إلَّا أنَّ القديس اغوسطينوس نفسه ارتجع عن رأيه هذا. وقال القديسان ايلاريوس وامبروسيوس (في نفسير هذه الآيات) إنَّ متى ذكر نسب المسيح الملكي، ولوقا ذكر نسبه الكهنوتي. وهذا فيه من الغموض والتعسُّف ما لا يُخفى. وأشهر الأقوال في هذا الشأن ثلاثة: أحدها قال به كثيرون من القدماء منهم يوليوس الافريقي واوسابيوس الدمشقي وكثيرون غيرهما، حتى يمكن أن يقال إنه القول العام إلى القرن الخامس عشر. ومؤداه أنَّ يوسف كان ابناً طبيعياً ليعقوب وابناً شرعياً لهالي. فقد رسم في سفر التثنية (فصل ٢٥ عد ٥) إنه إذا مات أخ ولا أولاد له فليتَّخذ أخوه امرأته ويقيم زرعاً لأخيه. فعسقة تزوجت بمطات فولدت منه هالي. ثم مات مطات فتزوجت بماتان وولدت يعقوب. وتزوج هالي فلم يلد ولداً فأخذ يعقوب أخوه امرأته وولد منها يوسف. فكان يوسف ابناً طبيعياً ليعقوب وابناً شرعياً لهالي كما ذكر لوقا.

والقول الثاني أنَّ ماتان ولد يعقوب أبا يوسف وحنة زوجة هالي، وهو القديس يواكيم والد العذراء. فمتى ذكر جدود المسيح نازلاً من داود إلى سليمان إلى ماتان ويعقوب ويوسف الذي كان يُعتبر أباً للمسيح لأنه كتب إلى اليهود، ولوقا ذكر جدوده من جهة أبي أمه صاعداً من هالي وهو يواكيم ومطات إلى ناتان ابن داود

لأنه كتب إلى الأمم. وكان ذكر أنَّ المخلِّص وُلد من عذراء ولا أب طبيعي له، وأيّد هذا القول ذووه بأنَّ الترجمة اللاتينية روت قول لوقا هكذا: «إنَّ يسوع كان كما يُظن ابن يوسف الذي لهالي» فقالوا إنَّ كلمة الذي إن كانت وصفاً ليوسف فيكون المعنى ابن يوسف الذي هو صهر لهالي أو ابن لهالي بمعنى صهره. وقد ورد مثل هذا التعبير في «الكتاب» مرات. وإن كانت وصفاً ليسوع فيكون المعنى أنَّ يسوع كان يُظن أنه ابن يوسف لكنه كان لهالي أي ابن ابنته مريم ويواكيم والياقيم وهالي بمعنى واحد.

وذكر الحجري في تفسير هذه الآية وجهاً آخر وهو أنَّ النسب الذي ذكره الإنجيليان ينتهي بمريم، لأنه قال إنَّ يعقوب أبا يوسف كان أخا حنه زوجة هالي أي يواكيم وأم العذراء. فمتى ذكر جدود المسيح لأبيه وأمه نازلاً من داود وسليمان إلى ناتان أبي يعقوب (وحنه). وانتهى بذكر يوسف بن يعقوب رجل مريم التي وُلد منها المسيح وهي ابنة حنه. ولوقا ذكر يوسف أباه الشرعي وبدلاً من أن يذكر جده لأبيه وهو يعقوب ذكر جده لأمه وهو هالي أي يواكيم. صاعداً من هالي ومطات إلى ناتان بن داود. وغرض الإنجيليين واحد أن يثبتا أنَّ مريم من نسل داود أباً وأماً. وبالنتيجة أنَّ للمسيح ابنها حق الحبرية التي يظهر أنها انتقلت إلى ذرية ناتان بن داود من جهة هالي. وحق الملك من جهة يوسف وحنه إذ يتصل نسبهما بسليمان وداود، يوسف كان أباً شرعياً ليسوع. وأيّد هذا الوجه الأب دومكس في كتابه في نسب المسيح الذي أذاعه سنة ١٨٩٠م، ويظهر لي أنَّ هذا الوجه لحل المشكل هو الأوجه. (طالع بهذا الشأن ما ذكرته في تفسير الانجيل في فصل ٣ من بشارة لوقا عد ٢٤).

ومما يلزم مراعاته في النسب الذي ذكره متى أنه أسقط ثلاثة من الملوك في ذكر نسبهم، لأنه قال (فصل ١ عد ٨) «يورام ولد عوزيا». والذي في سفر الملوك أنَّ يورام ولد احزيا وأحزيا ولد يواش ويواش ولد امصيا وامصيا ولد توزيا الذي يسمى أيضاً عزريا. فيظهر أنَّ اسماء هؤلاء الملوك الثلاثة كانت ساقطة في الجداول الرسمية رعايةً لقضاء الله على نسل آحاب وايزابل. فإنَّ يورام كان متزوجاً بعتلية ابنتهما فأسقطوا بنيهما إلى الجيل الرابع وتابعهم الأنجيلي على ذلك. وكذا قال متى: (عد ١١) «ويوشيا ولد يوخانيا واخوته في سبي بابل». والذي في «الكتاب» أنَّ يوشيا ولد يوياقيم واخوته ويوياقيم ولد يوخانيا في سبي بابل فالأظهر أنَّ سقوط

يوياقيم في هذه الآية من غفلة النساخ، مع أنَّ ذكره لازم ليكون عدد الآباء من داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلاً كما يقول الأنجيلي.

عد ٤٩٧

حياة المخلّص منذ البشارة به إلى ظهوره للتبشير

في الخامس والعشرين من آذار في السنة الخامسة أو السابعة قبل التاريخ العامي (طالع عد ٤٩٤) أرسل الله جبرائيل رئيس ملايكته إلى مريم العذراء يحييها من قبل الله تحية لم يفز بها بشر قبلها بل كانت محفوظة لمريم (كما قال القديس أمبروسيوس في تفسير بشارة لوقا) قائلا: «السلام لكِ يا ممتلية نعمة، الرب معك مباركة أنت في النساء، قد وجدت نعمة عند الله، فتقبلين حبلاً وتلدين ابناً وتدعين اسمه يسوع» إلى آخر ما جاء في بشارة لوقا فصل ١ عد ٢٦ إلى عد ٣٨. ومن عقائد الإيمان أنَّ مريم لبثت دائماً عذراء. والتقليد وقولها للملاك كيف يكون هذا؟ وأنا لا أعرف رجلاً مؤذنان بأنَّها نذرت حفظ البتولية قبل زواجها بيوسف على ما قال القديس أغوسطينوس؛ أو بعد زواجه بها على ما قال القديس توما. وذهب المفسّرون القدماء إلى أنَّها كانت عند حبلها بيسوع مزوجة، وقال بعض الحدثاء إنَّها كانت مخطوبة فقط ليوسف، وقال بعضهم الآخر إنَّها كانت مزوَّجة لكنَّها استمرَّت في بيت أبيها في الناصرة على عادة اليهود أن تكون غالباً الخطبة وعقد الزواج في وقت واحد، وتؤجَّل حفلة العرس وأخذ العروس إلى وقت آخر. والكتاب لم يقطع بذلك صريحاً إذ سماها تارة مخطوبة وتارة زوجة، وسمى يوسف رجل مريم وبعلها وخطيبها. وصرَّح الكتاب بأنَّ المخلّص تجسّد في حشائها كاملاً في حال بشارة الملاك لها. إذ جاء في إنجيل متى (فصل ٢ عد ٢٠): «لأنَّ الذي ولد بها هو من الروح القدس» فقد حبل به وتنفَّس وتقدَّس واتَّحد الأقنوم الإلهي بناسوته في وقت واحد. قال القديس أغوسطينوس (في ردِّه على النصف أريوسين): «إنَّ ابن الله لم يتَّخذ جسداً بمعنى أنَّه خلقه أوَّلاً ثمَّ اتَّخذه بل خلقه بنفس اتِّخاذه له».

قد ولد المخلّص في الخامس والعشرين من كانون الأوَّل في السنة السابعة قبل التاريخ العامي تبعاً لمن قالوا إنَّ الميلاد كان قبل التاريخ العامي بست سنين. وفي

آخر الخامسة قبله على مذهب من قالوا إن كان قبله بأربع سنين لأنَّ دانيس ابتدأ تاريخ سني المخلِّص من أوَّل كانون الثاني. وقد فصل لوقا (فصل ٢ من عد ١ إلى ع ٢٠ خبر مولده. وقد قدَّمنا في ع ٤٦٦ التوفيق بين قول الإنجيلي إنَّ الميلاد كان في مدَّة ولاية قورينوس بسورية وبين أقوال المؤرخين في ولايته. وقد ختن المخلِّص في الثامن بعد مولده اتماماً للسنة. ودعي اسمه يسوع أي المخلِّص أو الإله المخلِّص. والمسيح وصف له أي الممسوح وكان الملوك والأحبار يمسحون بالزيت إشارة إلى فيضان النعمة.

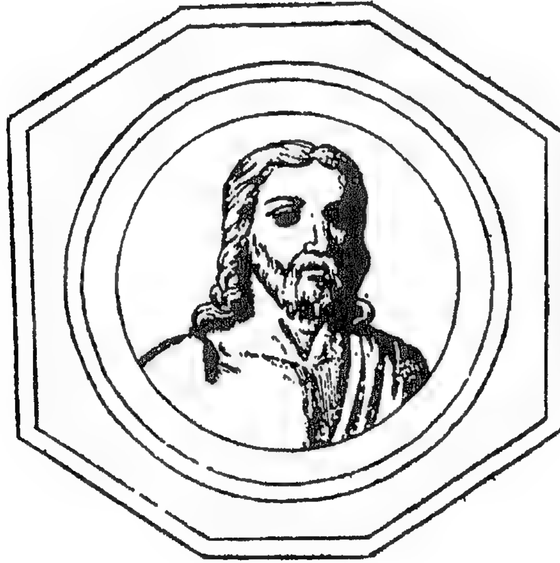
وأنبأنا متى (فصل ٢ عد ١ وما يليه) إنَّ مجوساً وافوا من المشرق إلى بيت لحم يهديهم نجم فسجدوا له وقدَّموا له القرابين ذهباً ولباناً ومراً. وقال بعضهم إنَّ هؤلاء المجوس كانوا من بلاد العرب. وقال غيرهم إنَّهم كانوا من فارس أو بلاد الكلدان وكانوا أمراء أو ولاة، والتقليد العام أنَّ سجودهم للمسيح كان قبل تقدمته إلى الهيكل، وعادة الكنيسة أن تعيد لذلك في اليوم الثالث عشر بعد الميلاد هي منذ صدر النصرانية، فضلاً عن أنَّ هذا ينطبق خير انطباق على قول متى: «فلمَّا ولد يسوع في بيت لحم... وإذا بمجوس وافوا من المشرق» على أنَّ كثيرين من العلماء بل من الملافنة القدماء منهم القديس لاون البابا. والقديس أبيفان وأمونيوس. استمسكوا بأنَّ المجوس لم يبلغوا بيت لحم إلَّا بعد سنة. وربَّما بعد سنتين من مولد المخلِّص واحتجُّوا له أوَّلاً بأمر هيرودس بقتل الأطفال «من ابن سنتين فما دون حسب الزمان الذي تحققه عن الصبي من المجوس»، ثانياً بعدم خوف القديس يوسف والعذراء من الذهاب إلى أورشليم. وتقدمة الرب علانية في الهيكل بعد مولده بأربعين يوماً ولو كان سجود المجوس، وتخبيرهم لهيرودس على أثر مولده لقتله هيرودس، ولم يجسرا أن يذهبا به إلى الهيكل. ثالثاً إنَّ أوسابيوس في تاريخه وأبيفان (في هرطقة ٣٠) وأغوسطينوس قالوا: إنَّ قتل الأطفال كان وعمر المسيح خمسة عشر شهراً. وإنَّ صحّ هذا الرأي كان مؤكداً لمذهب من قالوا إنَّ المسيح ولد قبل موت هيرودس بسنتين أو ثلاث. وإنَّ غلط دانيس في التاريخ العامي كان ست سنين لا أربعاً فقط، على أنَّ أصحاب الرأي الأوَّل يقولون إنَّ هيرودس قد مدَّ أمره إلى قتل ابن سنتين تحوطاً وتحرُّصاً على قتل المسيح بينهم. وبعضهم يجعل قتل الأطفال بعد تقدمة الرب إلى الهيكل ولكن في سنة مولده نفسها.

أنبأنا متى (فصل ٢ عد ١٤) إنَّ ملاك الرب أمر يوسف أن يهرب بالمسيح

وأمّه إلى مصر لئلا يقتله هيرودس. وهرب بهما امّا من بيت لحم وأورشليم امّا من الناصرة بحسب اختلاف الأقوال المار ذكرها آنفاً. واختلف أيضاً في مدَّة اقامة المسيح في مصر من سنتين إلى ثماني. ومن التقليد أنَّ المخلِّص أقام في مصر في اليوبولي (أي مدينة الشمس) في مصر السفلى على مقربة من المطرية. ولمَّا علم يوسيفوس أنَّ أرشيلاوس ولي اليهودية مكان أبيه كما مرَّ أتى الجليل، وسكن الناصرة ودعي ناصرياً. وقرأ بعضهم ناذريا أي نذيراً لله، والصحيح ناصرياً نسبة إلى الناصرة. وأنبأنا لوقا (فصل ٢ عد ٤٢ وما يليه). إنّه لمَّا كان عمره اثنتي عشرة سنة وهي السنة السادسة للتاريخ العامي صعد مع يوسف ومريم كعادتهم إلى العيد في أورشليم. ولما انتهت أيَّام العيد مكث في أورشليم وكان يوسف ومريم يظنانه مع المرافقين. وبعد أن سارا مسافة يوم لم يجداه فعادا إلى أورشليم يطلبانه، ووجداه بعد ثلاثة أيام جالساً في الهيكل وسط العلماء يسمع منهم ويسألهم وكان كل من يسمعه يتعجَّب من حكمته واجابته. وأراد المخلِّص بذلك أن يبدي شعاعاً من حكمته الإلهية ليهيء الناس إلى استماع تبشيره، ولا يدهشوا إذا ظهر بغتة، ولا يسمعوا قبلاً شيئاً عنه. ولم يطرفنا الإنجيليون بشيء من أخبار المخلِّص في باقي عمره إلى أن اعتمد من يوحنا إلَّا بقول لوقا أنَّه كان يطيع يوسف وأمَّه.

وفي سنة ٢٨ أو ٢٩ للتاريخ العامي أتى يوحنا المعمدان من البرية إلى البلاد التي على عدوتي الأردن يكرز بمعمودية التوبة لغفران الخطايا، وينذر باقتراب ملكوت الله، فأتى المخلِّص سنة ٢٩ للتاريخ المذكور الثالثة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين لمولده طالباً من يوحنا أن يعمِّده. فتمنَّع تهيباً قائلاً أنا المحتاج أن أعتمد منك، وأنت أتيت إليَّ، فقال له يسوع دع الآن فهكذا ينبغي لنا أن نكمل كلَّ البر (متى فصل ٣ عد ١٤ و ١٥) أي أنَّ دعوتك ودعوتي تقضيان عليَّ وعليك أن نعلم الناس التواضع والتوبة والطاعة. ولمَّا اعتمد يسوع انفتحت له السماء وحلَّ روح القدس عليه مثل حمامة وسمع صوت من السماء يقول هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. وتلك آية شهد الله بها لارسال ابنه وكشف بها عن ثالوثه فإنَّ الآب بصوته شهد لابنه أنَّه موضوع كل مسرَّة له. والروح حلَّ عليه بهيئة حمامة والابن أعدَّ نفسه لتكملة مشيئة الله وفداء العالم.

وخرج يسوع بعد حلول روح القدس عليه إلى البرية القريبة من أريحا عاكفاً على الصلوات، والتأمُّلات الروحية صائماً أربعين يوماً كما صام موسى قبل تنزيل الشريعة عليه. وكما صام إيليا قبل منجاته الله ليكفّر عن خطايا العالم التي حملها على نفسه. ويستعد إلى ما ألقاه الله عليه كما كان الانبياء يستعدون، ويحارب الشيطان الذي تعمَّد ابادة ملكه. والشيطان لم يكن على جلية من أمره فأراد أن يمتحنه ليعلم أهو ابن الله ليوقعه إذا استطاع بأحبولة النهم أو الكبرياء أو الطمع بمال الدنيا ومجدها (كما روى متى فصل ٤ عد ١ وما يليه). وسمح له المخلِّص أن يأتيه بهذه التجارب ليظهر ظفره به ويعلمنا مقاومة التجارب، ويذلَّ ابليس ولم تكن تجارب المخلِّص داخلية وناشئة في نفسه كما تكوَّن فينا. ولم يكن إيراد الإنجيلي لها على سبيل المجاز لأنَّ ذلك يخالف نص الإنجيل الصريح وتفسير الآباء والمفسرين الكاثوليكيين أجمعين ومعتقد المسيحيين بأسرهم.



وإليك صورة للمخلِّص وجدت في مخبأ القديسة دومتيلا في رومة مصورة هناك منذ القرن الثاني للميلاد.

عد ٤٩٨

اللغة التي تكلم المسيح بها

رأينا ان نلخص قبل الكلام في تبشير المخلص شيئاً من البحث في اللغة التي بشر بها المسيح. فهذا المبحث مهم لأنه إذا عرف معرفة أكيدة ما كانت اللغة التي تكلم المسيح وأنصاره فيها ترتب على ذلك فوائد جمة وبينات حديثة على حقيقة أسفار العهد الجديد، وعلى عقائد كثيرة. فليس من يقيم نكيراً على أنَّ أسفار العهد الجديد سَمّت اللغة التي كان أهل فلسطين يتكلّمون بها في أيام المخلص عبرانية. من ذلك قول يوحنا (فصل ٥ عد ٢): «وكان هناك في أورشليم محل للغسل يسمّى بالعبرانية بيت حسدا» أو بيت صيدا وقوله: (ف ١٩ عد ١٣ وعد ١٧). «وجلس (بيلاطوس) على المنبر في موضع يدعى رصيف الحجارة وبالعبرانية غفيفتا... واخرجوه حاملاً صليبه الى موضع يسمّى الجمجمة وبالعبرانية الجلجلة». وفي اعمال الرسل (فصل ٢١ عد ٤٠): «وقف بولس على الدرج... ونادى باللغة العبرانية قائلاً»: وبعد ذلك (فصل ٢٢ عد ٢) فلما سمعوه يخاطبهم باللغة العبرانية ازدادوا هدوءاً. «وفي محل آخر (فصل ٢٦ عد ١٤) وسمعت صوتاً يكلّمني ويقول باللغة العبرانية شاوول شاوول لِمَ تضطهدني» إلى غير ذلك. وقد اجمع العلماء على أنّ هذه اللغة سمّيت عبرانية لأنها كانت لغة العبرانيين في تلك الايام. وهي تختلف عن العبرانية التي تكلّم بها موسى وداود ومن كتبوا أسفار العهد القديم بالعبرانية. على أنّ هذه اللغة القديمة امست بعد الجلاء الى بلاد الكلدان منسية ميتة وخلفتها اللغة الآرامية التي كانت لغة الآراميين في سورية وبلاد الكلدان والآشوريين. ولما كانت اللغة العبرانية قريبة من الآرامية وكان المسبيون من بني إسرائيل إلى بلاد الكلدان أقل عدداً من الوطنيين فيها اضطرتهم الحال أن يتعلموا لغتهم. ومن ولدوا في مدة الجلاء اقتبسوها من مواطنيهم وندر من بقي حياً ممن استمروا هناك سبعين سنة. ولذا كان كلامهم بعد عودهم إلى فلسطين بهذه اللغة التي سمّيت كلدانية لأنها لغة الكلدان، وعبرانية لكلام العبرانيين بها. ولا جرم أنَّ المسيح كلّم سامعيه بلغتهم.

ومع هذا لم يخلُ هذا المبحث من خلاف فإن فرندرف كتب مقالة حاول أن يُثبتَ بها أنَّ المخلص تكلّم باللاتينية سنداً إلى أنَّ بعض اسماء المكاييل والنقود في

العهد الجديد لاتينية. ولا يُحفل بهذا الزعم خاصةً لأنَّ الرومانيين كانوا يلون البلاد، ومن البديهي أن تدخل الفاظ كهذه في لغة اهلها كما ترى الآن في لغتنا بعد مخالطة الاجانب.

وزعم بعض العلماء أنَّ المسيح تكلّم باليونانية، وأول من قال بذلك إسحق فوسيوس زاعماً أنّهُ اصاب اليهودية ما اصاب غيرها من الاقاليم التي افتتحها اسكندر الكبير وخلفاؤه، فإنّها استعملت لغة الفاتحين، واستُنتِجَ من ذلك أنَّ اهل فلسطين لم يكونوا يتكلّمون إلّا باليونانية بعد الفتح المكدوني على أنَّ مقدمات فوسيوس كاذبة فإذا صحَّ أنَّ دوائر قادة اسكندر الذين صاروا ملوكا في سورية ومصر كانوا يتكلّمون ويكتبون اوامرهم الرسمية باليونانية، فيصِح مع ذلك أنَّ الشعب بقي يتكلّم القبطية في مصر، والآرامية في سورية.

وقد تابع دومينيك ديورتي فوسيوس على مذهبه. وأذاع كتاباً في نابولي سنة ١٧٦٧ م قال فيه إنَّ المسيح والرسل تكلّموا باليونانية فردَّ زعمه العالم برنردس دي روسي في مقالة عنونها في لغة المسيح، والعبرانيين في فلسطين منذ ازمنة المكابيين، ونشرها في رومية سنة ١٧٧٢ م مثبّتا أنَّ العامة في فلسطين لم يكونوا يعرفون اللغة اليونانية. وأنَّ المخلص ومواطنيه كانوا يتكلّمون بفرع من فروع اللغة السامية يسمّى السرياني الكلداني أو الآرامي. وبعد إذاعة هذه المقالة انشأ في المانيا العالم كتلوب بولس راياً متوسطاً. فأقرَّ أنَّ لغة عامة اليهود في فلسطين في بدء التاريخ المسيحي كانت فرعاً آرامياً، لكنّ اللغة اليونانية كانت منتشرة في البلاد لا سيّما في الجليل واورشليم، بنوع أنَّ المخلص وتلاميذه نطقوا بها في خطبهم في الجمهور كلّما رأوا ذلك ملائماً. على أنَّ رأي بولس هذا قد فنّده العالم سيلفسترس دي ساسي وايَّد رأي دي روسي، ولم ينكر أنَّه قد يمكن ان يكون المسيح وتلاميذه استطاعوا ان يتكلّموا وقتاً ما باليونانية، لكنّه يثبت بالحجج الراهنة ان لا بيّنة على أنّهم تكلّموا بها فعلاً، بل انَّ اللغة التي كان اهل فلسطين يتكلمون بها إنّما هي اللغة الآرامية. والذي يعوّل عليه الآن جمهور العلماء والمحققين إنّما هو قول دي روسي ودي ساسي. ومع هذا قد ذاع العالم روبر الإنكليزي سنة ١٨٦٤ م مقالة أيَّد قول بولس المشار اليه إلّا أنَّ حججه منمّقة لكنها غير سديدة.

وقد جرى مثل هذا البحث في بلادنا بين حبرين عالمين فاضلين هما المرحومان

مكسيموس مظلوم بطريرك الطائفة الملكية الكاثوليكية وبولس مسعد بطريرك الطائفة المارونية، فقد أيّد السيد مظلوم زعم فوسيوس، فردّه السيد مسعد رداً مسهباً في كتابه الموسوم بالدر المنظوم رداً على الاسئلة والاجوبة الممضاة باسم السيد البطريرك مكسيموس مظلوم. وجد السيد مظلوم ثانية في اثبات رأيه بمقالة أخرى مؤرخة في غاية تموز سنة ١٨٤٦ م ففنّدها السيد مسعد في نبذة ألحقها بكتابه الدر المنظوم.

وإليك بعض الحجج المثبتة أنَّ المخلص وتلاميذه لم يتكلموا باليونانية بل باللغة الآرامية التي كانت لغة اليهود في فلسطين بعد العود من الجلاء. نورد هذه الحجج بياناً لحقيقة هذا المبحث المهم كما مرّ لا تشيعاً لأحد الفريقين.

أولا أنَّ لغّة المسيح وتلاميذه واهل فلسطين في أيامهم لم تكن اللغة اليونانية بل فرعاً من اللغة السريانية، لأنَّ اسفار العهد الجديد التي ذكرنا آنفاً بعض آياتها نسميها عبرانية لتكلّم العبرانيين بها، لا يونانية وإن كان بعض العلماء والوجهاء في المدن الكبيرة في فلسطين كأورشليم وقيصرية وطيبارية وصفورية يتكلّمون باليونانية. الّا أنَّ لغّة العامة كانت اللغة السريانية التي اقتبسوها من بلاد الكلدان.ولم تكن اللغة اليونانية حينئذٍ إلّا كاللغة الافرنسية او الانكليزية اليوم في القسطنطينية والقاهرة واسكندرية وبيروت. او كاللغة اللاتينية في ممالك اوروبا في الكتب العلمية والبيعية. ولا بينة في كتب المؤلفين القدماء على أنَّ ملوك اليونان في سورية ومصر اجبروا رعاياهم على التكلّم باللغة اليونانية. ولا على أنّ الجاليات اليونانية ربت على السكّان الاصليين حتى تغلبت في البلاد اللغة اليونانية.

وعليه فلم تكن لغة المخلص وتلاميذه إلّا لغة مواطنيهم في فلسطين وهي اللغة الآرامية. وهذا تؤيده حجج راهنة مأخوذة من العهد الجديد ومن الآثار العلمية اليهودية المكتوبة نحو القرن الاوّل من تاريخ الميلاد، فلنا من الأناجيل المقدسة بيّنات عديدة على ما نحن مثبتون مأخوذة من الاعلام، او من بعض العبارات المحفوظة فيها على اصلها ومن نوع التعبير نفسه. فمن الاعلام اسماء يسوع ومريم ويوسف ويعقوب ويوحنا وسمعان وحنه إلى كثير غيرها، ثم كلّ الاسماء المبتدئة بكلمة بر منها بارابا وبرتولماوس وبريونا وبرنابا وبرسابا وبرطميا. فكلّ هذه الكلمات آرامية، لانَّ بار تأويلها ابن، وفي العبرانية بن. ومنها أيضاً اسماء توما أي التوأم، وقيفا أي الصخر أو الانحدار، وسافيرا أي الجميلة، ومرتا أي السيدة، وطابيطا أي

الغزالة وكيفا أي الصخرة، وبوانرجس أي ابناء الرعد. وقد ورد بعض اسماء يونانية منها فيلبوس ونيقوديموس واسطفانوس ونيكانور. ولاتينية مثل مرقس ولوقا لكن هذه الاسماء مأخوذة عن لغة الظافرين اي اليونان والرومانيين. فما مثلها إلّا مَثَل اميل والبر وفردينان في ايامنا فلا يعتدّ بها.

ونرى المخلص لقّب سمعان كيفا أي الصخرة بياناً لمقامه في الكنيسة أي ليكون بمنزلة الاساس لها. فلم يسمّه بطروس باليونانية بل كيفا بالآرامية، ولم يقل له انت تدعى كيفا أي الصفا. وكذا سمّى ابني زبدى بوانرجس أي أبناء الرعد وهذا اللفظ آرامي لا يوناني، بل إنَّ لقب المسيح نفسه ماسيا او مشيحا المترجم باليونانية خريستوس، وفي اللاتينية كريستوس هو لفظ آرامي بحت. فاذاً لم يتكلّم المسيح باليونانية بل بالآرامية. وكذلك اسماء الاماكن فمن البديهي أنَّ الاسماء القديمة استمرّت على حالها واما الاسماء الجديدة فنراها مأخوذة عن اللغة السريانية. منها في اورشليم كغولتو ܓܓܘܠܬܐ أي الجمجمة. وبيت حسدا ܒܝܬ ܚܣܕܐ أي محل الشفقة. وغاباتا او غفيفتا ܓܦܝܦܬܐ أي رصيف الحجارة أو المرتفعة، وحقل دما ܚܩܠ ܕܡܐ اي حقل الدم. فكل هذه الاسماء يظهر لاول وهلة أنّها آرامية. وفضلاً عن أسماء الاعلام المعنية اشخاصاً أو اماكن تجد في أسفار العهد الجديد الفاظا كثيرة تبين لنا أنَّ لغة أهل فلسطين في القرن الاوّل كانت سامية، من ذلك ان الرسل دعوا المخلص متواتراً رابي ܪܒܝ وقد حفظت الترجمات هذه الكلمة على اصلها ومعناها ربي وسيدي وهي سريانية بلا مراء. ومثلها كلمة ربوني ܪܒܘܠܝ التي ذكرها يوحنا (فصل ٢٠ عد ١٦ة) «فالتفتت (مريم المجدلية) وقالت له ربوني الذي تفسيره يا معلم» ومن هذا الباب كلمة أوصانا أو اوشعنا التي ذكر الانجيليون أنَّ الجمع الغفير كان يترنّم بها عند دخول المخلص أورشليم راكباً أتاناً، فهي كلمة آرامية فسّرها فيكورو (في كتابه العهد الجديد والاكتشافات صفحة ٢٧) بمعنى «اسألك أن تخلص».

ثم انّ كتبة العهد الجديد قد استعملوا بعض الفاظ خاصة باليهود ولا مرادف لها باليونانية. فاضطروا ان يبقوها على اصلها منها كلمة مسكر في قول لوقا (فصل ١ عد ١٥) :«لا يشرب خمراً ولا مسكراً» فلوقا أبقى كلمة سكراً الآرامية ومنها كلمة ساتون أي كيل أوصاع الواردة في بشارة متى (فصل ١٣ عد ٣٣). وفي بشارة لوقا (فصل ١٣ عد٢١) بقولهما: «يشبه ملكوت السما خميراً اخذته امرأة

وخبأته في ثلاثة اكيال دقيق». فباليونانية حفظت كلمة ساتا الآرامية وفي العبرانية صاع كالعربية. وكذلك كلمة ܦܨܚܐ الفصح فهي بلا نكير سريانية انتحلتها اليونانية واللاتينية بما يقارب لفظها. وكلمتا الفريسيين والصدوقيين سريانيتان، ولفظة ساتان الشيطان سريانية ايضاً ابقتها اليونانية واللاتينية على اصلها. ومن ذلك كلمة آمين أي حقاً التي تلفَّظ بها المخلِّص متواتراً. وكررها في يوحنا ست وعشرين مرة قائلاً: الحق الحق أقول لكم. وحفظتها الترجمات على أصلها الذي نطق به المخلِّص، ومثلها كلمة راقا الواردة في بشارة متى (فصل ٥ عد ٢٢). «من قال لأخيه راقا» لا شكَّ في أنَّها سريانية وهي في العبرانية ريق وتأويلها بليد أو الخالي من الذكاء، ووردت في التلمود بمعنى الوغد، وحفظت في الترجمات على أصلها. وكلمة جهنَّم منحوتة من جي ابن هينم أي وادي بن هينم وهو الوادي الكائن في شرقي أورشليم وجنوبيها. كانوا يحرقون فيها المحكوم عليهم ويقدِّمون الأطفال ضحايا لملوك الصنم، وحفظتها جميع الترجمات على أصلها. وكذا كلمة قربان الواردة في بشارة مرقس (فصل ٧ عد ١١) بمعنى هدية. وكلمة أبَّا الواردة في هذه البشارة (فصل ١٤ عد ٣٦): «ويقول أبَّا أيُّها الآب» فهي سريانية ܐܒܐ الآب، ومثلها كلمة اتفتج ܐܬܦܬܚ أي انفتح الواردة في بشارة مرقس (ف ٧ ع ٣٤). ولفظتا طاليتا قومي ܛܠܝܬܐ ܩܘܡܝ أي أيَّتها الصبية قومي (مرقس فصل ٥ عد ٤١). وجملة الوهى الوهى لمنوشبقتني ܐܝܠܝ ܐܝܠܝ ܠܡܢܐ ܫܒܩܬܢܝ أي إلهي إلهي لماذا تركتني (متى فصل ٢٧ عد ٤٦ ومرقس فصل ١٥ عد ٣٤)، فكل هذه الألفاظ آرامية وحفظت على أصلها في جميع الترجمات، وهي تقضي بأن المخلِّص تكلَّم بالآرامية.

ثمَّ أنَّ الآثار الباقية من القرن الأوَّل توافق الأناجيل ببيانها أنَّ اللغة التي كان يتكلَّم بها أهل فلسطين في القرن الأوَّل كانت الكلدانية أي الآرامية. فبولس الرسول حفظ لنا في رسالته الأولى إلى القرنثيين (فصل ١٦ عد ٢٢) من كلامهم عبارة مرانا اتا ܡܪܢ ܐܬܐ أي ربَّنا أتى. والمعنى فليكن محروماً إلى مجيء ربَّنا. ثم أنَّ يوسيفوس كان معاصراً الرسل وقد أنبأنا في فاتحة كتابه في تاريخ حرب اليهود مع الرومانيين قائلاً: «هذا ما دعاني أن أكتب باليونانية ارضاءً للأمم الخاضعة للمملكة الرومانية ما كتبته أوَّلاً بلغتي الطبيعية (أي التي ولدت فيها) ليحيط باقي الأمم به علماً» وقال انَّه في مدَّة الحرب مع الرومانيين كان يخاطب جنوده بالعبرانية

أي الآرامية لغة العبرانيين. وإنَّه في مدَّة حصار أورشليم كان يترجم بين اليهود والرومانيين. وشهد أنَّ اليهود الذين كانوا يتكلَّمون بالآرامية الشرقية كانوا يفهمون كلام السريان الذين كانوا يتكلمون بالآرامية الغربية. ومع أنَّه كان أفقه رجال أمَّته وأذكاهم فقد أنبأنا عن نفسه في آخر كتابه تاريخ اليهود أنَّه صرف زماناً في تعلُّم اليونانية. وأنَّه لم يكن يحسن التلفُّظ بها قائلاً: «لا أشكو من اضاعة الزمان الذي صرفته في تعلُّم اللغة اليونانية وإن كنت لا أحسن التلفُّظ بها كما ينبغي. وهذا يعسِّر علينا كثيراً لأنَّنا لا ننكب على هذا الدرس انكباباً كافياً، فإنَّ قومنا لا يقدرون من يتعلَّم لغات كثيرة حق قدره، فلا يعتبرون هذا إلَّا درساً عالمياً يصلح للأرقاء والأحرار، ولا يحسبون حكيماً إلَّا من نبغ في معرفته السنن والأسفار المقدَّسة وعني بتفسيرها». فكل ذلك بينات دامغة على أنَّ لغة العامة في فلسطين في ذلك العصر لم تكن اليونانية بل كانت الآرامية.

ويؤيِّد ذلك أنَّ التراغم (الترجمات) وفصول التلمود القديمة كتبت بالسريانية الكلدانية، فمنذ عود بني إسرائيل من الجلاء كان الكهنة يترجمون للشعب الأسفار المقدَّسة من العبرانية إلى الكلدانية كما في سفر نحميا (فصل ٨ عد ٨) أصح التفسيرات. وتوجد كتب مخطوطة تجد فيها كل آية عبرانية تليها ترجمتها بالكلدانية. فإنَّ اليهود شعروا حينئذٍ بمسيس الحاجة إلى ترجمة العهد القديم إلى لغة يفهمها الشعب. فترجموه إلى الكلدانية لليهود في سورية وإلى اليونانية لليهود الذين في مصر. وكانت هذه الترجمة أوَّلاً شفاهية إلى أن استودعت الصحف وبعضها باقٍ إلى الآن بالكلدانية. ومنها ترغموم يوناتان بن عوزيل الذي كان تلميذ هيلال على ما في التلمود، وعليه فيكون معاصراً للمخلِّص. ثم أنَّ مجمع اليهود أقام في يمينه (أي يبنة) بعد خراب طيطوس أورشليم. وكان يرأسه يوحنان ويصحبه سبعة من مشاهير علمائهم. وخلف يوحنان غمالائيل الثاني حفيد غمالائيل الأوَّل أستاذ بولس الرسول. وعني بجمع الأحكام والشرع التقليدي مكتوبة فكانت بذلك بداية التلمود، وخلف غمالائيل الثاني ابنه سمعان وخلف سمعان ابنه الربي يهوذا. ويلقِّبه اليهود القديس وكان من سنة ١٧٠ إلى ٢٢٥ م وهو الذي وضع المثنى (أي تثنية الشريعة)، ومدار التلمود عليه وهو تلمودان بابلي وأورشليمي. وكلاهما ألف بالكلدانية وتتخلَّله ألفاظ وجمل من لغة العامة وهي آرامية وإن اختلفت لفظاً أو ببعض الحروف عن لغة الربيين والعلماء. ونبه الكاتب القارئ إلى هذه الألفاظ

بقوله: «كما تقول العامة أو كما يقول الشعب وما أشبه. وقد جاء في المثنى أنّه كان في هيكل أورشليم آنية كتب عليها باللغة الآرامية. ومن تقليداتهم أنَّ يوحنان المار ذكره سمع صوتاً سماوياً خارجاً من القدس يقول بالآرامية: «إنَّ الشبان الذين اقتحموا وطيس الحرب مع أنطيوكس سيكونون ظافرين». وأقدم الصلوات التي كان يستعملها اليهود عدا التسابيح التي في الكتاب إنّما هي آرامية. والرسائل التي كتبها غمالائيل لأهل الجليل في شأن تعيين استهلال الهلال كتبت بهذه اللغة أيضاً. فكل ما مرَّ ذكره من هذه الآثار الباقية من صدر النصرانية يثبت اثباتاً قاطعاً إنَّ لغة أهل فلسطين في أيام المخلِّص والرسل كانت آرامية وتقدَّست بفم المخلِّص ورسله (ملخَّص عن فيكورو في العهد الجديد والاكتشافات).

إنَّ العلَّامة فيكورو لم يقتصر على ما لخَّصناه من الحجج في اثبات هذا المبحث، بل أطال وأجاد باقامة الأدلَّة على أنَّ أسفار العهد الجديد حتى ما كتب منها باليونانية يتبيَّن من تصوُّرات كاتبيها، وعباراتهم وبعض ألفاظهم، ونظم تعبيرهم وسبك جملهم، أنَّ لغتهم آرامية. من ذلك مثلاً إنَّك ترى العبارة اليونانية تؤدي المعنى المقصود لكنَّها ساذجة عاطلة لا يحليها شيء من أنواع الفصاحة. ولو كان الكاتب ضليعاً باليونانية لألبسها حلَّة غيرها تبدو به، فهي كصورة فوتوغرافية تهيئ الموضوع لكنها لا تزينه بالألوان. وترى الكاتب أحياناً يتوصَّل إلى تأدية المعنى بغير اللفظ الموضوع له في اليونانية لقصر لغة فلسطين حينئذٍ واتساع اليونانية. فترى مثلاً كلمة ابن مستعملة في هذه الأسفار لمعانٍ لا تعد منها بنو أورشليم وبناتها بمعنى سكانها. وابناء هذا الجليل بمعنى العائشين فيه وابن السلام بمعنى السليم والمسالم. وابن الأثم بمعنى الأثيم. وابناء النور بمعنى المستنيرين. وابناء القيامة بمعنى ما قاموا أو يقومون. وابناء جهنَّم بمعنى الهالكين. وابن الهلاك بمعنى الهالك. وابناء الغضب بمعنى المغضوب عليهم وهلمَّ جرًّا. ولو كان الكتاب يونانياً لأدَّى هذه المعاني بألفاظ اليونانية الموضوعة لها.

ومن ذلك تعبير كتبة العهد الجديد عن الجسد بكلمة بسركس اليونانية. ومعناها اللحم فما ذلك إلَّا ترجمة كلمة ܒܣܪ او ܒܣܪܐ بسر أو بسرا السريانية لافتقار لغتهم. وكلمة سوما اليونانية التي يعبَّر بها عن الجسد تراها مستعملة في بشائر متى ومرقس ويوحنا بمعنى الجثة أو الجسد الميت. وترى بولس ولوقا لمعرفتهما اليونانية أكثر من غيرهما يعبران عن الجسد وطوراً بسوما على الأصل، وطوراً بسركس على

اصطلاح باقيهم. وتجدهم أيضاً يستعملون كلمة بسيكا النفس في اليونانية مترجمين بها كلمة ܢܦܫܐ (نفش) السريانية. وتدل بهذه اللغة على الانسان المؤلف من نفس وجسد وعلى الحياة التي هي نتيجة اتحاد الجسد والنفس. ومدلولها هذا الآخر إنَّما هو خاص بلغة الساميين ومع ذلك تراه متواتر الورود في أسفار العهد الجديد اليونانية. من ذلك «قد مات الذين يطلبون نفس الصبي (متى فصل ٢ عد ٢٠). «لا تهتموا لنفوسكم بما تأكلون» متى فصل ٦ عد ٢٥). «الراعي الصالح يبذل نفسه عن خرافه» (يوحنا فصل ١٠ عد ١١). ففي كل هذه الآيات وكثير غيرها يعبِّر عن النفس ببسيكا اليونانية. وليس لها هذا المعنى إلَّا لوضعهم لها موضع نفش السريانية، بل قد استعملوها أيضاً بدلاً من الضمير كما في فاتحة تسبحة العذراء «تعظِّم نفسي للرب» أي أعظم أنا وهلمَّ جرّا إلى اسماء وأفعال استعملها كاتبو العهد الجديد مأخوذة عن اللغة التي كانت لغتهم وهي السريانية. ومن أحب مزيد بيان فليراجع كتاب فيكورو المذكور لاسيما الفصلين الثاني والثالث من مقالته في لغة المسيح ورسله. وكل ذلك بينات دامغة على أنَّ المخلِّص ورسله كانت لغتهم آرامية لا يونانية. ومن ذلك أيضاً دليل وضاح على صحة أسفار العهد الجديد، وسترى أنَّ كثيراً من الخطوط التي كتبت في تدمر وحوران وعبر الأردن في القرون الأولى هي سريانية مع أنَّ بعض كاتبيها عرب أصلاً.

عد ٤٩٩
حياة المخلص وأعماله بحسب الأناجيل

قد روى الانجيليون أعمال المخلص وأقواله وقلما عيَّنوا وقت حدوثها. واتفق الانجيليون في ذكر أمور، وانفرد بعضهم برواية أمور لم يروها سواه. فالجأت الحال منذ صدر النصرانية إلى وضع كتاب في أعمال المخلص، وأقواله منسوقة بحسب زمان حدوثها. وفي توفيق روايات الانجيليين وذكر المؤرخون كتابين في هذا الشأن أُلِّفا في القرن الثاني: أحدهما للقديس تاوافيل سابع بطاركة أنطاكية بعد القديس بطرس (توفي سنة ١٨٦). والثاني لناسيان (الذي توفي سنة ١٧٣) ألفه قبل انفصاله عن القديس يوستينوس ولحاقه إلى مرقيون الاراتيكي، وهو أشهر وأقدم من الكتاب الآخر. ثم وضع امونيوس الاسكندري (توفي سنة ٢٢٠) كتاباً آخر في

صدر القرن الثالث ففاق الكتابين اشتهاراً. ومنذ القرن السابع عشر توفر عدد التآليف في هذا الشأن على أن تناسق كل هذه الأقوال والأعمال بحسب زمان وقوعها يحول بينه وبين التوكيد وصعوبات عديدة، أخصها كثرة هذه الأقوال والأفعال وعدم تعيين الانجيليين زمان وقوعها. فالمؤكد منها ما نص الانجيليون أو أشاروا بقرينة إلى زمان حدوثه، والباقي لا يتفاوت درجة من الاحتمال.

واليك جدولاً يتبين منه أقوال المخلص وأفعاله كما رواها الانجيليون منسوقة كما نسقها مشاهير العلماء. ونعتمد منهم على فيكورو في الموجز الكتابي مجلد ٣.

أقوال وأفعال	متى		مرقس		لوقا		يوحنا	
	ف	عد	ف	عد	ف	عد	ف	عد
مولد الكلمة الأزلي							١	١
بشارة زكريا					١	٥		
بشارة العذراء					١	٢٦		
زيارتها اليصابات					١	٣٩		
مولد يوحنا					١	٥٧		
هواجس القديس يوسف	١	١٩						
مولد المخلص					٢	١		
ختانته					٢	٢١		
سجود المجوس له	٢	١						
تقدمته إلى الهيكل					٢	٢٢		
هربه إلى مصر	٢	١٣						
نسب المخلص	١	١			٣	٢٣		
عوده من مصر	٢	١٩			٢	٤١		
وجوده بين العلماء					٢	٤٢		
حياته في الناصرة					٢	٥٠		
انذار يوحنا المعمدان وتعميده	٣	١	١	١	٣	١	١	٢٨
شهادة يوحنا للمخلص	٣	١١	١	٧	٣	١٥	١	١٥

أقوال وأفعال	متى		مرقس		لوقا		يوحنا	
	ف	عد	ف	عد	ف	عد	ف	عد
اعتماده	٣	١٣	١	٩	٣	٢١		
صومه وتجربته في البرية	٤	١	١	١٢	٤	١		
شهادة يوحنا الثانية للمخلص							١	١٩
ظهور المخلص للتبشير								
شهادته الثالثة له							١	٢٩
اول من اتبعه من التلاميذ							١	٣٥
صنعه الآية الأولى في قانا							٢	١
اعتزاله في كفرناحوم							٢	١٢
الفصح الأول								
مضي المخلص إلى أورشليم							٢	١٣
طرده الباعة من الهيكل							٢	١٤
أقواله وأعماله بعد ذلك							٣	١٨
مخاطبته لنيقوديمس							٣	١
شهادة المعمدان الرابعة له							٣	٢٣
القاء المعمدان في السجن	١٤	٣	٦	١٧	٣	١٩		
كلام المخلص مع السامرية							٤	٤
عوده إلى الجليل	٤	١٢	١	١٤	٤	١٤	٣	٤٣
الآية الثانية في قانا ابراء ابن القائد							٤	٤٦
رجوعه إلى كفرناحوم	٤	١٣	١	٢٢				
تبشيره في المدن التي حولها	٤	١٧			٤	١٤		
تبشيره في مجمع الناصرة					٤	١٦		
ابراؤه المجنون في كفرناحوم			١	٢٣	٤	٣١		
شفاؤه حماة بطرس	٨	١٤	١	٢٩	٤	٣٨		

أقوال وأفعال	متى ف	متى عد	مرقس ف	مرقس عد	لوقا ف	لوقا عد	يوحنا ف	يوحنا عد
عوده إلى الجليل	٤	٢٣	١	٣٥	٤	٤٢		
تنبيه تلاميذه في شأن اتباعه	٨	١٩			٩	٥٧		
آية صيد بطرس السمك	٤	١٨	١	١٦	٥	١		
تسكينه العواصف	٨	٢٣	٤	٣٦	٨	٢٢		
ابراؤه المجنون الذي كان فيه لجاون	٨	٣٨	٥	١	٨	٢٦		
عوده إلى كفرناحوم	٩	١	٢	١				
شفاؤه المخلع	٩	٢	٢	٢	٥	١٨		
دعوة متى العشار	٩	٩	٢	١٣	٥	٢٧		
ابراؤه ابنة يايرس والمبتلاة بنزيف الدم	٩	١٨	٥	٢١	٨	٤٠		
ابراؤه اعميين	٩	٢٧						
ابراؤه المجنون الأخرس	٩	٣٢			١١	١٤		
الفصح الثاني								
ابراء المخلع على بركة الضان					٥	١		
فرك تلاميذه السنابل يوم السبت	١٢	١٨	٢	٢٣	٦	١		
ابراؤه اليد اليابسة يوم السبت	١٢	٩	٣	١	٦	٦		
ابراؤه مرضى كثيرين ووداعته	١٢	١٥	٣	٧				
اختياره رسله			٣	١٣	٦	١٢		
خطبته على الجبل	٥	١		٦	١٢			
ابراؤه الأبرص	٨	٢	١	٤٠	٥	١٢		
ابراء عبد قائد المئة	٨	٥			٧	١		
اقامة ابن الأرملة في نائين					٧	١١		
مجيء تلاميذ يوحنا إلى المخلص	١١	١			٧	١٨		
المخلص وسمعان والخاطية					٧	٣٦		
بذل بعض النساء المال في خدمته					٨	٢		

أقوال وأفعال	متى		مرقس		لوقا		يوحنا	
	ف	عد	ف	عد	ف	عد	ف	عد
خروج ذويه ليمسكوه			٣	٢٠				
ابراؤه المجنون الأعمى والأخرس	١٢	٢٢	٣	٢٢	١١	١٤		
التجديف على الروح القدس	١٢	٣٠						
ذكره آية يونان النبي	١٢	٣٩						
ذكره أهل نينوى وملكة سبا	١٢	٤٢						
الروح النجس اذا خرج من الانسان	١٢	٤٣						
قول المرأة له طوبى للبطن الذي حملك	١٢	٤٥			٨	٢٠		
مثل الزرع	١٣	٣	٤	٢	٨	٤		
قوله لا يوقد سراج ويوضع تحت مكيال	٥	١٥	٤	٢١	٨	١٦		
مثل الزوان	١٣	٢٤						
مثل حبة الخردل	١٣	٣١	٤	٣٠				
الزرع الذي يطول			٤	٢٦				
مثل الخمير	١٣	٣٣						
مثل الكنز والدرة والشبكة	١٣	٤٤						
رجوع يسوع إلى الناصرة	١٣	٥٣	٦	١				
خطابه للرسل وارسالهم	٩	٣٥	٦	٧	٩	١		
موت يوحنا المعمدان	١٤	١	٦	١٤	٩	٧		
تكثير الخبزات الخمس	١٤	١٣	٦	٣٠	٩	١٠	٦	١
هرب المخلص من التكريم ومشيه على الأمواج	١٤	٢٢	٦	٤٥			٦	١٦
وعده بالاوخاريستيا							٦	٢٢

الفصح الثالث (يوحنا ٤٦)

	متى		مرقس		لوقا		يوحنا	
الطهارة تقتضي ان تكون داخلة	١٥	١	٧	١				
خبر الكنعانية في نواحي صور	١٥	٢١	٧	٢٤				
ابراء الأصم الأخرس			٧	٣٢				

أقوال وأفعال	متى ف	متى عد	مرقس ف	مرقس عد	لوقا ف	لوقا عد	يوحنا ف	يوحنا عد
تكثير الخبزات السبع	١٥	٣١	٨	١				
طلبهم منه آية	١٦	١	٨	١١				
خمير الفريسيين	١٦	٥	٨	١٤				
ابراؤه الأعمى في بيت صيدا			٨	٢٢				
اقامة بطرس اساساً للكنيسة	١٦	١٣	٨	٢٧	٩	١٨		
نبوته على الأمة وتونيبه بطرس	١٦	٢١	٨	٣١	٩	٢٢		
تجليه	١٧	١	٩	١	٩	٢٨		
ابراؤه المعذب في رؤوس الأهلة	١٧	١٤	٩	١٣	٩	٣٧		
نبوته ثانية على آلامه	١٧	٢١	٩	٢٩	٩	٤٤		
اقامته الأخيرة في كفرناحوم ووفاؤه الجزية	١٧	٢٣						
مشاجرة تلاميذه في أيهم الأعظم	١٨	١	٩	٣٢	٩	٤٦		
كلامه في الشك	١٨	٦	٩	٤١				
مثل الخروف الضال والدرهم المفقود والابن الشاطر	١٨	١٢			١٥	١		
النصح الأخوي	١٨	١٥						
كلامه في الصفح عن الاهانات	١٨	٢١						
عيد المظال ومضي يسوع إلى أورشليم					٩	٥١	٧	٢
مروره في السامرة					٩	٥٢		
ابراؤه البرص العشرة					١٧	١٢		
وعظه في الهيكل وانقسام أعدائه							٧	١١
رجوعه إلى الهيكل وتقديمهم إليه المرأة الزانية							٨	١
اثباته لاهوته							٨	٢
ابراؤه المولود أعمى							٩	١١
كلامه في الراعي الصالح							١٠	١
ارساله التلاميذ الاثنين والسبعين وعودهم					١٠	١		
شكره لأبيه	١١	٢٥			١٠	٢١		

أقوال وأفعال	متى ف	متى عد	مرقس ف	مرقس عد	لوقا ف	لوقا عد	يوحنا ف	يوحنا عد
ذكره السامري صاحب الرجمة					١٠	٢٥		
وليمته عند مرتا ومريم					١٠	٣٨		
تعليمه الصلاة والثبات فيها					١١	١		
غذاؤه عند الفريسي وتونيبه الفريسيين					١١	٣٧		
تحريضه على عدم الخوف ممن يقتل الجسد					١٢	١		
وذكر الغني الذي اقبلت ارضه								
حضه على التوبة ومثل التينة التي طلب الكرام قطعها			١٣	١				
كلامه في ضيق باب الخلاص وطلب هيرودس قتله	٣٣	٣٧			٣	٢٣		
دخول بيت أحد الفريسيين في يوم السبت					١٤	١		
ذكره عيد التجديد في أورشليم							١٠	٢٢
ذكره مثل الوكيل الموشى به بانه يبذر اموال موكله			١٦	١				
خبر الرجل الذي كان يلبس الارجوان ويتنعم					١٦	١٩		
جوابه للفريسيين متى يأتي ملكوت الله					١٧	٢٠		
حثه على الصلاة وكلامه في قاضي الظلم والفريسي والعشار					١٨	١		
كلامه في الزواج والتبتل	١٩	١	١٠	١	١٦	١٨		
مباركته الأطفال	١٩	١٣	١٠	١٣	١٨	١٥		
كلامه في الشاب الغني	١٩	١٦	١٠	١٧	١٨	١٨		
وعده الرسل بالمكافاة	١٩	٢٧	١٠	٢٨	١٨	٢٨		
مثل فعلة الكرم	٢٠	١						
مرض العازر وموته واقامته							١١	١
أيام المخلص الأخيرة								
مؤامرة اليهود على قتله							١١	٤٦
اخباره تلاميذه بآلامه	٢٠	١٧	١٠	٣٢	١٨	٣١		

أقوال وأفعال	متى		مرقس		لوقا		يوحنا	
	ف	عد	ف	عد	ف	عد	ف	عد
طلب ابني زبدي ان يجلسا عن يمينه ويساره في ملكه	٢٠	٢٠	١٠	٣٥				
ابراؤه الأعمى في أريحا	٢٠	٢٩	١٠	٤٦	١٨	٣٥		
دخوله بيت زكا وايجابه الخلاص له ولأهل بيته					١٩	١		
مثل الامنان					١٩	١١		
مضي يسوع إلى بيت عنيا عند العازر			١٤	٣	١٢	١		
وليمة سمعان له	٢٦	٦	١٤	٣			١٢	٢
دخول يسوع أورشليم يوم الأحد من سبت الآلام	٢١	١	١١	١	١٩	٢٩	١٢	١٢
رجوعه إلى بيت عنيا	٢١	١٧	١١	١١				
الاثنين عوده إلى أورشليم ولعنه التينة	٢١	١٧	١١	١٢				
طرده الباعة من الهيكل	٢١	١٢	١١	١٥	١٩	٤٥		
عوده إلى بيت عنيا			١١	١٩				
يوم الثلاثاء رؤيتهم التينة يابسة	٢١	٢٠	١١	٢٠				
سؤالهم له بأي سلطان يفعل هذا	٢١	٢٣	١١	٢٧	٢٠	١		
مثل الابنين اللذين طلب ابوهما ان يذهبا إلى الكرم	٢١	٢٨						
مثل عملة الكرم	٢١	٢٣	١٢	١	٢٠	٩		
مثل المدعوين إلى العرس	٢٢	١						
سؤال الهيرودسيين له عن اداء الجزية	٢٢	١٥	١٢	١٣	٢٠	٢		
سؤال الصدوقيين في امرأة أخذها سبعة أخوة وكلامه في القيامة	٢٢	٢٣	١٢	١٨	٢٠	٢٧		
تعليمه ما أعظم الوصايا	٢٢	٣٤	١٢	٢٨				
قوله ان المسيح بن داود وربه	٢٢	٤١	١٢	٣٥	٢٠	٤١		
تونيبه الكتبة والفريسيين	٢٣	١	١٢	٣٨	٢٠	٤٥		

أقوال وأفعال	متى ف	متى عد	مرقس ف	مرقس عد	لوقا ف	لوقا عد	يوحنا ف	يوحنا عد
كلامه في الأرملة وفلسيها			١٢	٤١	٢١	١		
نبوته على خراب أورشليم	٢٤	١	١٣	١	٢١	٥		
مثل العذارى العشر	٢٥	١						
مثل الوزنات	٢٥	١٤						
كلامه في الدينونة الأخيرة	٢٥	٣١						
رغبة بعض اليونان ان يروا المخلص							١٢	٢٠
نبوه المخلص عن دنو موته	٢٦	١						
الاربعاء المؤامرة على المخلص	٢٦	٣	١٤	١	٢٢	١		
وعد يهوذا بتسليمه	٢٦	١٤	١٤	١٠	٢٢	٣		

الفصح الرابع

	متى ف	متى عد	مرقس ف	مرقس عد	لوقا ف	لوقا عد	يوحنا ف	يوحنا عد
الخميس اكله خروف الفصح	٢٦	١٧	١٤	٧	٢٢	١٤		
غسله أقدام رسله							١٣	١
ابداعه الاوخاريستيا	٢٦	٢٦	١٤	٢٢	٢٢	١٩		
قوله ان واحداً منهم يسلمه	٢٦	٣١	١٤	٨	٢٢	٢١	١٣	٢١
كشف المسيح عنه بالخبز المبلول							١٣	٢٣
مجادلة الرسل في أيهم الأكبر					٢٢	٤٢		
وصيته الجديدة ان يحب بعضهم بعضاً							١٣	٣١
هرب الرسل وانكار بطرس	٢٦	٣١	١٤	٢٧	٢٢	٣١	١٣	٣٦
خطبته بعد العشاء السري							١٤	١٦
صلاته لأجل الرسل							١٧	

آلامه

	متى ف	متى عد	مرقس ف	مرقس عد	لوقا ف	لوقا عد	يوحنا ف	يوحنا عد
خروجه إلى بستان الزيتون	٢٦	٣٦	١٤	٣٢	٢٢	٣٩	١٨	١

أقوال وأفعال	متى ف	متى عد	مرقس ف	مرقس عد	لوقا ف	لوقا عد	يوحنا ف	يوحنا عد
صلاته وعرقه دماً	٢٦	٣٧	١٤	٣٢	٢٢	٤١		
القبض عليه	٢٦	٤٧	١٤	٣٣	٢٢	٤٧	١٨	٢
أخذه إلى حنان							١٨	١٣
اشخاصه أمام قيافا	٢٦	٥٧	١٤	٥٣	٢٢	٥٤	١٨	١٥
سؤاله ولطمه							١٨	١٩
الشهود الكذبة عليه	٢٦	٦٠	١٤	٥٥				
قوله أنه ابن الله والحكم عليه	٢٦	٦٣	١٤	٦١				
إنكار بطرس وتوبته	٢٦	٦٩	١٤	٦٦	٢٢	٥٥	١٨	٢٥
ما قاساه مدة الليل					٢٢	٦٣		
الجمعة تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ ليقتلوه	٢٧	١	١٥	١	٢٢	٦٦		
اقتياده إلى بيلاطوس	٢٧	٢	١٥	١	٢٣	١	١٨	٢٨
خنق يهوذا نفسه	٢٧	٣						
سؤال بيلاطوس له وجوابه	٢٧	١١	١٥	٢	٢٣	٢	١٨	٢٩
أخذه إلى هيرودس					٢٣	٦		
تفضيل باراباس عليه	٢٧	١٥	١٥	٦	٢٣	١٣	١٨	٣٩
جلده وتكليله بالشوك	٢٧	٢٦	١٥	١٥			١٩	١
قول بيلاطوس هوذا الرجل							١٩	٤
سؤال بيلاطوس ثانية له							١٩	١٢
الحكم عليه	٢٧	٢٦	١٥	١٥	٢٣	٢٢	١٩	١٣
تسخير سمعان القيرواني	٢٧	٣٢	١٥	٢١	٣٢	٢٥		
النساء اللواتي أتبعنه					٢٣	٢٧		
صلبه	٢٧	٣٢	١٥	٢٢	٢٣	٣٣	١٩	١٧
وقوف مريم عند صليبه مع النسوة	١٩	٢٥						
الشتايم له	٢٧	٣٩	١٥	٢٩	٢٣	٢٥		
إيمان اللصّ الصالح به					٢٣	٤٠		

أقوال وأفعال	متى ف	متى عد	مرقس ف	مرقس عد	لوقا ف	لوقا عد	يوحنا ف	يوحنا عد
أنفاسه وكلماته الاخيرة	٢٧	٥٠	١٥	٣٧	٢٣	٤٦	١٩	٢٨
حصول الظلام والآيات الاخرى	٢٧	٤٥	١٥	٣٣	٢٣	٤٤		
ما كان من القائد وغيره	٢٧	٥٤	١٥	٣٩	٢٣	٤٧		
طعن جنبه بالحربة							١٩	٣١
دفنه	٢٧	٥٧	١٥	٤٢	٢٣	٥٠	١٩	٣٨
حرّاس القبر	٢٧	٦٢						
شراء النساء الطيوب					٢٣	٥٦		
السبت راحة ومشترى النساء الطيب مساءً			١٦	١				
(تمجيده)								
أحد القيامة وذهاب النساء إلى القبر	٢٨	١	١٦	٢	٢٤	١	٢٠	١
ظهور الملائكة	٢٨	٢	١٦	٥	٢٤	٤		
ذهاب بطرس ويوحنا إلى القبر					٢٤	١٢	٢٠	٣
ظهوره للمجدلية			١٦	٩			٢٠	١١
ظهوره للنسوة	٢٨	٣						
الحراس ورؤساء الكهنة	٢٨	١١						
ظهوره لبطرس					٢٤	٣٤		
ظهوره للمنطلقين إلى عمواص			١٦	١٢	٢٤	١٣		
ظهوره للرسل العشرة					٢٤	٣٦	٢٠	١٩
ظهوره لتوما ولعشرة من الرسل							٢٠	٢٤
ظهوره على بحيرة طبرية وتقليده الرياسة لبطرس							٢١	١
ظهوره على جبل في الجليل	٢٨	١٦						
ظهوره في أورشليم وكلامه الأخير			١٦	١٤	٢٤	٤٤		

صعوده إلى السماء	١٦ ١٩	٢٤ ١٥		
كِرازة الرسل		١٦ ٢٠		
خاتمة بشارة يوحنا				٢٠ ٣٠
				٢١ ٢٤

فمن هذا الجدول يستبين ما قاله المخلِّص وعمله مما ذكره الإنجيليون. وذلك من بدء سنة ٣٠ للتاريخ العامي إلى سنة ٣٤ منه على الأظهر، فإنه قد اعتمد بمعمودية يوحنا في ٦ كانون الثاني سنة ٣٠ م وقد اعتادت الكنيسة من أقدم الأعصر أن تعيّد لذلك في اليوم المذكور. وقد مرّ على كرازته أربعة أعياد للفصح كما رأيت وصُلب في الرابع منها. فأسلوب نسقها يبيّن زمان حدوثها باحتمال لا توكيد.

عد ٥٠٠
شهادة أعداء يسوع المسيح له

قد شهد الله ليسوع المسيح أنه ابنه ورسوله إلى العالم بالنبوات التي فاه بها رجال الله من أقدم الدهر، وبالآيات التي أجراها على يده والتي يستحيل على البشر صنعها لا سيما آية قيامته من بين الاموات، وبالمعجزات التي صنعها رسله وأنصاره. وقد أثبتنا حقيقة هذه الآيات باثباتنا صحة أسفار العهد الجديد المشتملة على أخبارها. ومن هذه الآياتِ تبديل هيئة العالم وهداية الناس إلى الإيمان الصحيح بواسطة اثني عشر صياداً أُميين انذروا العالم بأمور جرت من أمدٍ قريب. وكان لها كثيرون شهوداً عيانيين فانتصروا على ملوك وأراكنة وولاة وشعوب، وجعلوهم يتركون عبادة الأوثان المتأصلة فيهم وتقليدات آبائهم وأجدادهم التي تملّكت فيهم ليتشبثوا بدين يكفّهم عن ملاذهم وأميالهم وأرباحهم، ويأمرهم بما تنفر منه الطبيعة كمحبة الأعداء ومجانبة الانتقام والانقطاع إلى الله بالتقشّف والورع، وكبت الأهواء النفسانية حتى ضحى ملايين منهم بحياتهم حباً بهذا الدين. كل ذلك شهادة صريحة من الله بأنَّ المسيح ابن الله ورسوله ومصلح العالم ومخلِّصه. ولم يكتفِ الله بهذه الآيات بل نرى أعداء المخلِّص أنفسهم اضطرتهم الحقيقة إلى

التصريح بها منها شهادة بيلاطوس التي تكلمنا فيها بإسهاب في عد ٤٧٨، وأثبتنا صحتها بشهادة كثيرين من الآباء والعلماء وبسطنا نسخة منها ونزيد ذلك الآن بياناً.

فلا مراء أن كتب بيلاطوس لطيباريوس ما كان في أمر المسيح عملاً بعادة الولاة الرومانيين بل كل الولاة أن يطلعوا حكومتهم على ما يحدث من الأمور المهمّة، فالقديس يوستينوس كتب محاماته الأولى بعد مئة سنة من موت المخلّص. وأورد فيها شهادة بيلاطوس بنوع دال حقيقة على تلك الشهادة كانت بيده، وإنها مثبتة حقيقة دعواه. ويظهر أنَّ بيلاطوس ذكر فيها آيات المخلِّص، وأسرار حياته لأنَّ هذا القديس أوردها ليثبت تمام نبوّات الانبياء على المسيح قائلاً لعمال المملكة هذا لا شك فيه ويمكنكم الاطلاع عليه في العرائض المرفوعة في أيام بيلاطوس البنطي. وأعاد بعد ذلك كلامه قائلاً: «ويمكنكم الاطّلاع على أنه فعل هذه الآيات في العرائض المرفوعة في أيام بيلاطوس البنطي». واستشهد بها ترتوليانوس (في محاماته الأولى) أيضاً محققاً صحة هذه العرائض على سعة اطلاعه قائلاً: «إنَّ كل هذه الأمور المقالة في المسيح رفع بيلاطوس أخبارها إلى طيباريوس، وكان بيلاطوس مسيحياً في ضميره». وذكر اوسابيوس هذه العرائض (في تاريخه البيعي ك ٢ فصل ٢) فقال: «لما كانت العادة القديمة أن يُنبئ عمال الأقاليم العاهل بكل ما يحدث في ولايتهم لئلا يُخفى عليه شيء، أخبر بيلاطوس الملك بقيامة مخلِّصنا يسوع المسيح، وباشتهار أمره في فلسطين كلها مبيّناً أنه سمع أخبار آياته من أفواه كثيرين. وبما أنه عاد إلى الحياة بعد موته فآمن كثيرون بأنه إله. وذكروا أنَّ طيباريوس رفع رسالة بيلاطوس إلى الندوة... إذ كان للرومانيين سنّة قديمة بأن لا يعتبروا إلهاً إلاّ من تصادق الندوة على اعتباره كذلك. فلم تحلّ الندوة رسالة بيلاطوس محل القبول إلاّ أنَّ طيباريوس استمر على رأيه حتى يقال إنه لم يُبدِ ما يصدّ انتشار تعليم المسيح في المملكة كلها». وعليه فإن كانت عرائض بيلاطوس الأصلية قد سطا عليها كرور الأيام، فما رواه يوستينوس وترتوليانوس يقوم مقامها ويُحسب كخلاصة صحيحة لها.

ومن شهادة الخصوم نذكر شهادة يوسيفوس الحبر اليهودي على أمّته في كتابه الثامن عشر (فصل ٤) حيث قال على ما ترجم القديس ايرونيموس في كتابه في المشاهير البيعيين، وكما ترى في كتابه الآن «كان في هذا الزمان يسوع الذي كان

رجلاً حكيماً هذا إن ساغ أن نعتبره رجلاً بالاطلاق (كأنه يقول يلزم أن نسميه إلهاً) لأنه كان يعمل أعمالاً عجيبة ومعجزة. وكان يعلّم من أحبوا أن يعلموا الحق فتبعه كثيرٌ من اليهود بل من الأمم أيضاً، وآمنوا أنه المسيح. فشكاه بعض وجهاء أمتنا حسداً أمام بيلاطوس فصلبه. ومن كان تبعه في حياته لم يتركه بعد مماته لأنه ظهر لهم حياً. وقد قام في اليوم الثالث كما تنبّأ، وعن الانبياء القديسين، وعن أنه يصنع معجزات أخرى كثيرة، والمسيحيون الذين تراهم الآن قد أخذوا اسمهم عنه ونُسبوا إليه».

وقد أثبت كثيرٌ من القدماء والمتأخرين أنّ هذه الشهادة خطّتها يد يوسيفوس منهم اوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين الذي ذكر هذه الشهادة مرتين في تآليفه التي كتبها بعد يوسيفوس بقرنين. والقديس ايرونيموس الذي ترجمها في كتابه في المشاهير البيعيين. ثم بولينوس وسيستوس السيني والكردينالان بارونيوس وبلرمنيوس واوسيوس وغيرهم. ولم يقم على صحة هذه الشهادة نكير إلاّ في القرن السابع عشر إذ نكرها بعض البرتستانت والجاحدين، وزعموا أنّ المسيحيين القدماء دسوها في كتاب يوسيفوس. وقد ردَّ نطاليس اسكندر (في آخر المجلّد الثاني من تاريخ العهد القديم) زعم هؤلاء بحجج راهنة وأدلّة قاطعة منها أنّ هذه الشهادة نراها ثابتة في جميع نسخ كتب يوسيفوس مخطوطة كانت أو مطبوعة. ومنها أنّ كتب يوسيفوس لم تكن في أيدي المسيحيين وحدهم بل في أيدي اليهود والأمم أيضاً، فأنّى يتيسّر لهم هذه الزيادة عليها ولا ينكشف أمرها. ومنها أنّ يوسيفوس حقّق ودقّق في إيراد تاريخ زمانه، وذكر كل ما كان مهماً فيه، فلا يغفل عن ذكر يسوع الناصري وقد ملأت أعماله وأخباره اليهودية، وانتشر تعليمه في الأقاصي بواسطة رسله وتلاميذه. وقد ذكر يوسيفوس يوحنا المعمدان ويعقوب الرسول فلا يصدَّق أنه أغفل ذكر المسيح. ومنها أنّ سياق كلامه وذكره بيلاطوس، ومطابقة ألفاظ تعبيره وأسلوبه في هذه الشهادة لباقي كلامه لا تدع محلاً للريب في أنّ هذه الشهادة مدسوسة في كلامه. بل قد خطّتها يده كما أُثبت عدا من ذكرنا آنفاً القديس ايسيدورس الفرمي في ك ٤ رسالة ٢٢٥ وشدرانوس في مختصر تاريخه ونيكوفورس كاليستوس ك ١ راس ٣٩ وسويدا في المعجم في كلمة يوسيفوس.

وقد ردَّ نطاليس اسكندر في المحل المذكور كل الحجج التي تذرَّع بها من أنكروا صحة هذه الشهادة، هذا في شهادة يوسيفوس. ونجتزئ من شهادات المؤلفين

الوثنيين بذكر ما يأتي: قال سواتونيوس في ترجمة الملك كلود (فصل ٢٥ أنه نفى من روما اليهود الذين كانوا يبدون القلق بسبب المسيح. وقال تاسيتوس (في ك ١٥ من تاريخه راس ٤٤): «إنَّ المسيح حكَم عليه بيلاطوس البنطي بالعذاب على عهد طيباريوس الملك» وكذا قال بلين في رسالته إلى ترايانوس ولمبريديوس في ترجمة اسكندر ساويروس.

عد ٥٠١

شهادة الآثار القديمة للمسيح وتعليمه

لا مشاحة أنه حيث وُجد مسيحيون وُجدت كنائس ومعابد بعضها يتصل بالقرن الأول ولا تخلو كنيسة مما يدلّ على آلام المسيح كصليب. او عَلى ابداعه سرّ اوخارستيا كصورة كأس. وفي روما مخابئ عديدة تحت الأرض تجد فيها معابد كان المؤمنون في القرون الأولى يختبئون فيها للصلوة، والاجتماعات الدينية، وعليها شهادات ناطقة بأنَّ المسيحيين وقتئذٍ كانوا يعتقدون أنَّ المسيح ابن الله، ويباشرون الأسرار التي رسمها. واليهودية وأورشليم خاصة ملأى من تذكارات المخلِّص منها المغارة التي وُلد فيها، والجلجلة التي صُلب عليها، وبستان الزيتون الذي صلّى فيه. وقد اعتاد المؤمنون من صدر النصرانية إلى اليوم أن يحجّوا إلى هذه الأماكن من كل قطر. فمنذ أيام بولس الرسول كان يأتي أناس من المؤمنين إلى أورشليم (ابركسيس فصل ٢٠ عد ٣ و ٤). وفي سنة ٢١٢ أتى فرميليان أسقف قيصرية الكبادوك واسكندر أسقف فلادلفيا لزيارة أورشليم، واوريجانوس اعتزل في اليهودية سنة ٢١٥، والملكة هيلانة تولّت سنة ٣٢٦ على الأماكن المقدّسة باسم قسطنطين، وجدّدت فيها المعابد العظيمة. والقديس ايرونيموس قضى سنين فيها أي من سنة ٣٨٥ إلى سنة ٤٢٩ ولم تنقطع العبادة بالحجّ إلى الأماكن المقدّسة إلى اليوم. فليقل الجاحدون لأي الحقائق بيّنات في المعمور كله، وفي كل عصر مثل الإيمان بالمسيح وصدق إنجيله الكريم وليخجلوا بكفرهم وجنونهم.

قد أتحفتنا المعابد والمخابئ التي تحت الأرض في روما وغيرها ببيّنات لا ترد على صحة الدين المسيحي وصدق تعليم المسيح، من ذلك أنَّ في مقبرة كنيسة القديس بروتستا في روما صورة اعتماد المخلِّص من يوحنا تمثِّل منذ القرن الثاني المسيح

والمعمدان واقفين وحمامة على شجرة متحفّزة لتطير نحو المخلّص. (ذكر ذلك بارات في مخابئ روما مجلد ١ صفحة ٨٠ وكاروشي في تاريخ الصناعة المسيحية مجلد ٢ صفحة ٣٩ عد ١) وفي مخبأ كنيسة القديسة لوسيا صورة أقدم من الأولى تمثل المخلّص خارجاً من مياه الأردن والحمامة تستقرّ على رأسه، والمعمدان آخذاً بيده ليسعفه على الخروج من النهر. وفي مخبأ كنيسة القديس بروتستا أيضاً صورة النازفة نُقشت في القرن الثاني تمثل هذه الامرأة وقد لامست طرف ثوب المسيح وهي جاثية، ويسوع واقف بين تلاميذه. (ذكرها كاروشي في كتابه المذكور صفحة ٣٨ عد ٢). وكان المسيحيون الأولون يعرفون يونان لذكر المسيح له كما روى متى ولوقا. ولذلك نرى صورته في مخابئ كنيسة القديسة لوسيا نُقشت منذ القرن الأول أو منذ بدء القرن الثاني. (كاروشي في كتابه المذكور مجلد ٢ صفحة ٢ دي روسي في روما تحت الأرض مجلد ١ صفحة ١٣). وتجد صورة سجود المجوس للمخلّص في مخبأ دوميتيل منقوشة في القرن الثاني (ذكرها كاروشي أيضاً مجلد ٢ صفحة ٣٠). وفي مخبأ القديس سيرياك صورة العذارى العشر الخمس الحكيمات والخمس الجاهلات تمثل المسيح واقفاً وعليه ثوب أبيض ووشاحا ويمناه مرتفعة يظهر أنه يستدعي الحكيمات الخمس ليأتين إليه ومصابيحهنّ مُشعلة، وعن شماله الجاهلات الخمس ومصابيحهنّ منطفئة وهنّ حزينات، والمخلّص لا يلتفت إليهنّ. وهذه الصورة منذ القرن الرابع، ولكن وُجدت كذلك صورة أخرى من القرن الثاني في مخبأ كنيسة القديسة اغنيسا. وقد ذكر ذلك دي روسي (في خلاصة الأمور القديمة المسيحية في تشرين الأول سنة ١٨٦٣) . ولافور (في مجلد الأشياء القديمة في كانون الأول سنة ١٨٨٠). وكاروشي (في كتابه المذكور مجلد ٢ صفحة ٦٤).

وفي مخبأ كنيسة القديس كاليستوس صورة تمثل المسيح في وسط العلماء كما ذكر لوقا ترى فيها المخلّص جالساً على كرسي، ويمناه مبسوطة كمن يتكلّم وفي يسراه سفر يقلبه، والعلماء من حوله. وترى صورة تحويل المخلّص الماء خمراً في عرس قانا كما ذكر يوحنا، منقوشة على ألحاد قديمة في مقبرة للمسيحيين في اسكندرية مصر (ذكرها دي روسي في المجلة المذكورة في تشرين الأول سنة ١٨٦٥). وتجد صورة السامرية في حائط مخبأ دوميتيل تمثل هذه المرأة واقفة على بئر وحدها. وصورة أخرى في مخبأ كنيسة القديس بروتستا تمثلها مقدمة للمخلّص الواقف أمامها صحناً طافحاً بالماء، والصورتان منذ القرن الثاني. وذكرهما بوتادي

في التماثيل والصورة المقدّسة (مجلد ٢ صفحة ٦١ ولافور في المجلة المذكورة في أيلول سنة ١٨٨٠).

وقد وُجد لقيامة العازر من القبر نحو عشرة صُوَر، وجميعها من القرون الأولى. ومن شاء زيادة على هذه البيّنات الدامغة فليطالع في تآليف الأب فيكورو في العهد الجديد، والاكتشافات الحديثة للآثار القديمة الكتاب الرابع برمته.

على أننا لا نشاء أن نهمل ذكر كرة من عقيق نُقش عليها منذ القرن الثاني رموز كتابية عديدة. وقد شرح ما فيها الأب كاروشي سنى ١٨٥٧ م في مجلة التمدن الكاثوليكي وإليك مثالاً منها.



فترى في اليمين صورة المخلّص الراعي الصالح حاملاً على منكبيه النعجة الضالّة. وفي الوسط صورة الصليب على هيئة حرف التاء في اليونانية واللاتينية. وفي أعلى الصليب حمامة بفمها غصن الزيتون إشارة إلى البشرى بالقيامة مأخوذة عن تبشير الحمامة نوح بانقضاء الطوفان. والصليب مركوز على حمل رمز إلى المسيح حمل الله. وإلى المؤمن الذي هو الخروف الذي ينشده المخلّص وبين الراعي الصالح والصليب صورة سفينة نوح رمزاً إلى الكنيسة. وفي أعلاها الصليب على شبه حرف التاء، وفي الشمال صورة مرساة رمزاً إلى الرجا الذي قال الرسول إنه المرسى الأمين، وبجانبيه سمكتان إشارة إلى المسيح اس رجائنا. وعلى دائرة الكرة حروف يونانية تتألف منها كلمة يختوس، ومعناها السمك. والكناية عن المسيح بالسمك، وبهذه الحروف كانت مطروقة كثيراً من المؤمنين في العصر الأول. فإنَّ

الحروف الخمسة المؤلفة منها الكلمة إذا جعل كلاً منها أول كلمة تألف منها خمس كلمات يونانية يسوس خريستوس ثاو ايوس أي المسيح ابن الله المخلِّص.

ومن شواهد الآثار الصليب الحقيقي الذي صُلب عليه المخلِّص وقد وجدته الملكة هيلانة. وشهد بذلك كثيرٌ من الآباء والعلماء منهم القديس كيرلس الأورشليمي الذي كان معاصراً هذا الاكتشاف، لأنَّ القديسة هيلانة الملكة تولَّت الأماكن المقدّسة سنة ٣٢٦ م والقديس كيرلس شهد لهذا الاكتشاف في كتابه في التعليم المسيحي سنة ٣٤٧ م ثم في رسالته إلى الملك قسطنس بن قسطنطين سنة ٣٥١ م والقديس امبروسيوس (الذي توفي سنة ٣٩٧ م في كلامه على وفاة توادوسيوس). وفم الذهب (توفي سنة ٤٠٧ م) في تفسير بشارة يوحنا وروفينوس (توفي سنة ٤١٠ م) في تاريخه البيعي ك ١ وسلبيسيوس ساويروس (توفي سنة ٤١٠ م) في تاريخه البيعي (ك ٣ ف ٣٤) والقديس بولينوس (توفي سنة ٤٣١ م) في رسالته ٣١ وسقراط (توفي سنة ٤٤٠ م) في تاريخه ك ١ ف ١٧ وسوزومانوس (توفي سنة ٤٥٠ م) في تاريخه ك ٢ ف ١ وتاوادوريطوس (توفي سنة ٤٥٨ م) في ك ١ ف ١٨ إلى غيرهم من الملافنة. وقد أنبأنا روفينوس والقديس كيرلس الأورشليمي وغيرهم أنه منذ سنة ٣٧٩ م كان يحتفل في كنيسة الجلجلة في أورشليم لتذكار وجود الصليب المقدَّس في ١٣ ايلول ومنذ وجدان هذا الكنز الثمين أخذ المؤمنون في كل صقع يغنمون الذخائر منه ويبدون له مزيد الاجلال إلى اليوم.

ومن هذه الآثار الفرجة (أو الشق) التي تُرى إلى اليوم في صخر الجلجلة. وقد نزَّلها القديس كيرلس الأورشليمي منزلة بيِّنة قاطعة على صحة ما جاء في الأناجيل عن تشقق الصخور لدن موت المخلِّص قائلاً (في التعليم): «لا تنكر المصلوب وإن كابرت أبكمتك الجلجلة، وهذه الفرجة المقدَّسة الظاهرة إلى اليوم، والمثبتة حتى الآن كيف تصدَّعت الصخور لموت المخلِّص»، وقد ذكرها القديس لوسيان الكاهن الانطاكي الذي فاز باكليل الشهادة في أيام ديوكلتيانوس. وعاش هذا القديس من سنة ٢٢٠ إلى سنة ٣١٢ م. وروى شهادته روفينوس (في تاريخه البيعي ك ٩ فصل ٦) وأوسابيوس (في تاريخه ك ٩ فصل ٢). وإليك ما قال في هذا الشأن بعض الجوالة في هذ العصر من المشهود لهم بالعلم وأصالة الرأي. قال السيد ميزان في كتابه الأماكن المقدَّسة (مجلد ٢ فصل ٢٣) إنَّ في القرب من مركز الصليب فرجة وسيعة عميقة ممتدة في الصخر إلى أسفل الجلجلة. وقال مندرل البروتسطنتي

الشهير بصدقه: أما كون هذه الفرجة حدثت عند موت المخلِّص فللتقليد وحده أن يثبته، وأما كون الصناعة أو أيدي البشر لا تقدر على ذلك فيكفي أن يكون للانسان عينان فيتيقّنه» وروى أديسون Adisson العالِم الإنكليزي الشهير (في كتابه الموسوم بالدين الطبيعي مجلد ٢) إنَّ رجلاً انكليزياً كان يجد في أن يندِّد بما يعلمه الكهنة الكاثوليكيون في شأن الأماكن المقدّسة. فأتى أورشليم ولما أخذ يتفحَّص الفرجة المذكورة بتدقيق وترو فحص عالِم بالعلوم الطبيعية قال لأحد أصحابه قد ابتدأت أكون مسيحياً. ففحصي الطبيعي والهندسي أداني إلى التيقّن بأنَّ هذه الفرجة وهذا التشقق يخالفان شرائع الطبيعة، وعليه فأرى رأياً جلياً وعلمياً أن لا يمكن أن ينشأ ذلك إلاَّ عن آية ليس للطبيعة أو للصناعة أن تأتي بمثلها. وأشكر الله الذي ساقني إلى هنا لأعتقد لاهوت المسيح (ذكره كاران في كتابه في الأرض المقدّسة) ولعلَّ هذا الإنكليزي هو مندرل الذي ذكره ميزلن.

وقال العلاّمة دي سولسي (في معجم الأمور القديمة): «إني تقصيت في هذه الفرجة بمعظم الجدّ فوجدتها عمودية وهي بهيئة خط متعرّج من الشرق إلى الغرب ومعظم اتساعها خمسة وعشرون سنتيمتراً، ومن الظاهر للعيان أنها ليست عرقاً طبيعياً بين طبقتين متوازيتين، وتضيق تدريجاً من أعلى إلى أسفل». وقال الكاتب الشهير بوجولا: «إنني ممن هم أهل ليشهدوا أنَّ الفرجة التي في صخرة الجلجلة ليست طبيعية، بل تخالف العروق والشقوق التي تكوّنها الطبيعة». فأين السبيل إلى إنكار تاريخ المخلِّص مع كل ما أشرنا إليه من الحجج والشواهد والآثار؟ قال القديس كيرلس ما انتحله بعده شاتوبريان: «إن امترى أحد في الأناجيل في أورشليم فلا يبقى شيء أياً كان مصدقاً.

فما أتينا به في الكلام على صحة الأسفار المقدسة وحقيقتها وعلى شهادة أعداء المسيح له وما ذكرناه هنا من هذه الآثار، كل ذلك ببيّنات قاطعة دامغة علمية تبكم كل ملحد، وتفحم كل مكابر في حقيقة الدين المسيحي، وكل أسفار العهد الجديد. وهل من حقيقة تاريخية أو دينية أو علمية يقام على اثباتها أكثر وأجلى واوكد من هذه الأدلّة الساطعة؟ لعمرك أنه يستحيل على كل دهري أو معتزلي أو عقلي أو كافر، أياً كان نوع كفره إذا خلا إلى نفسه أن لا يرى جلياً حقيقة ما نحن له مثبتون، إلاّ أن يكونوا ممن قيل فيهم لهم عيون ولا يبصرون وعقول ولا يفهمون وآذان ولا يسمعون.

الفصل الثاني

العذراء والرسل

عد ٥٠٢

العذراء والدة الله

قد مرّ في عد ٤٩٦ أنَّ مريم العذراء هي من سبط يهوذا من نسل داود كيوسف. واعتمدنا هناك قول من أثبتوا أنَّ مريم بالنسبة إلى حنه أمها هي بنت حنه بنت ماتان إلى سليمان بن داود. وبالنسبة إلى أبيها يواكيم المسمى أيضاً هالي هي بنت هالي بنت مطات إلى ناتان بن داود. وقد جاء في الإنجيل المعروف بإنجيل ميلاد العذراء وليس هو من الأسفار القانونية أنها قدمت إلى الهيكل منذ نعومة أظفارها، وتربّت فيه وإنَّ الكهنة زوجوها بيوسف وكان شيخاً مكرماً اختاروه لها بآية أنَّ عصاه أزهرت كما أزهرت عصا هرون، فآثر الزواج بها ليكون حارساً لبتوليتها لا ليعيش معها كرجل مع امرأته. فهذه الأخبار لا يمكن تحقيقها على أنه مما لا ريبة فيه أولاً أنَّ الله عصم العذراء منذ الحبل بها من لحاق الخطيّة الأصلية بها. وهذا ثابت بآيات من الكتاب وباجماع الكنائس الغربية والشرقية عليه بتقليدات ابتدأت منذ صدر النصرانية، ودامت غير منقطعة إلى هذه القرون إلى أن جعل بيوس التاسع هذه القضية من عقائد الإيمان الكاثوليكي بعد استشارة رؤساء الكنيسة غرباً وشرقاً. ثانياً إنَّ العذراء نذرت عفتها متبتلة إلى الله ومن عقائد ايماننا الكاثوليكي أنها استمرت بتولاً. وقد قالت للملاك: «كيف يكون هذا وأنا لا اعرف رجلاً». فكأنها تقول قد نذرت وآليت أن لا أعرف رجلاً فكيف أحبل وألد؟ ثالثاً إنَّ لا مرية ولا يجوز الشك في زواجها بيوسف ولكن تساءل الآباء والعلماء أمخطوبة كانت أم مزوجة عند تجسّد المسيح في حشائها. فآيات الكتاب دعتها تارة

خطيبة وتارة زوجة وقد وردت فيه أحياناً كلمة خطيبة بمعنى زوجة وبالعكس. فلم ينجلِ لنا من هذه الآيات القول المفصّل. وأما المفسرون فغير مجمعين على قول. قال عامة المفسرين القدماء أنها كانت مزوجة قبل التجسد. وفسروا قول الإنجيل: «قبل أن يتعارفا وُجدت حبلى من الروح القدس» بمعنى «دون أن يتساكنا مساكنة زَواجية وُجدت حبلى». وقال بعض الحدثاء أنها كانت مخطوبة ولم يُعقد الزواج إلّا بعد قول الملاك ليوسف: «لا تخف من أن تأخذ مريم امرأتك». وعندهم أنَّ الآية قبل أن يتعارفا بمعنى قبل أن يسكنا في بيت واحد. وذكرنا آنفاً قولاً آخر أنَّ العذراء كانت مزوجة قبل التجسّد لكنها كانت باقية في بيت أبيها.

زعم بعض الهراطقة منهم امونيوس والبيذيوس واتباع سوشينوس أنّ مريم لم تستمر عذراء بعد ميلاد المخلص، وتمحلوا لزعمهم حججاً منها أنّ الانجيليين ذكروا ليسوع أخوة وقالوا إنّ هؤلاء ابناء آخرون ليوسف ومريم. لكن الكنيسة حرمت ضلالهم والآباء والعلماء الكاثوليكيون أجمعوا على مخالفتهم وتزييف مزاعمهم، والتقليد العام والمتصل من صدر النصرانية إلى أيامنا محق غوايتهم والآيات المنزلة لا تخالف هذا التقليد بل تثبته، وكل من له أقل المام باللغة العبرانية أو السريانية يعلم أنّ كلمة أخ عند اليهود لا تنحصر دلالتها على الشقيق بل تشمل الأقارب الأدنيين وذرية الرجل الواحد. فكلمة ܐܚ ܐܘ ܐܚܐ (اح أو احا) السريانية تأتي أحياناً مرادفة لكلمة نسيب أوقريب في العربية. وقد جاء ذكر اخوة يسوع واخواته في اثنتي عشرة آية من العهد الجديد ولم يسم أحدهم في أحدها ابن مريم أو ابن يوسف. وبالعكس قد تواترت تسمية يسوع ابن مريم وابن يوسف وتسمية مريم أم يسوع. وقول المخلص من على صليبه: «يا يوحنا هذه أمك ويا مرأة هذا ابنك». صراحة بأنّه لا ابن لها إلّا يسوع وليست أُم يعقوب ويهوذا وسمعان (مرقس ف ٦ ع ٣) الذين يدعون أخوة يسوع، وإلّا لأوصاهم بها ولم تكن حاجةٌ إلى توصاة يوحنا ولا إلى أن يوحنا يأخذها إليه. هذا وقد رأينا الانجيل يثبت أنّ يعقوب ويوسف أو يوسى أمهم مريم أخرى غير العذراء؛ وفي بشارة متى (ف ٢٧ ع ٥٥ وما يليه) «وكان هناك نساء كثيرات ينظرن عن بعد... وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسى». وجاء في بشارة يوحنا (فصل ١٩ عد ٢٥) وكانت واقفة عند صليب يسوع أُمه وأخت أمه مريم اكلاوبا» ٠وفي رواية اخرى ومريم اكلاوبا) أي حلفى. فهذه هي أم يعقوب ويوسى فليسا ابني العذراء. وقوله أخت أمه معناه

نسيبتها فهو برهان آخر مستقل عن البرهان بأنّ يعقوب ويوسى هما ممن سماهما العهد الجديد اخوة يسوع. والظاهر من الآيتين المذكورتين أنهما ابنا مريم حلفى لا مريم أم يسوع. ويؤيده أنّ يعقوب سمّيَ مرات بن حلفى. وورد مرات أنّ يهوذا أخوه. وجاءَ في مرقس (فصل ٦ عد ٣)، وفي متى (فصل ١٣ عد ٥٥) أنّ يوسى وسمعان هما أخوان ليعقوب ويهوذا وهؤلاء الأربعة هم المسمون اخوة يسوع وهم ابناء حلفى. فإذاً ليسوا ابناء مريم ولا ابناء يوسف وربما كان حلفى أخا يوسف أو نسيبه أو نسيب مريم من جهة أبيهما أو أمهما. فالواضح إذاً من الأناجيل نفسها أنّ مَن تسميهم أخوة يسوع ليسوا إلّا انسباءه من جهة أبيه أو أمه، وطاش منهم الملحدون.

ومما تذرعوا به لانكار تبتل العذراء قول متى (فصل ١ عد ٢٥): «ولم يعرفها حتى ولِدَتْ ابنها البكر ودعت اسمه يسوع». لكن هذا التعبير مطروق كثيراً في الأسفار المقدسة ويراد به ديمومة فعل في زمان لا ينقضي بانقضائه. فمن ذلك قول «الكتاب» في الغراب الذي سرحه نوح من السفينة أنّه: « لم يعد حتى نشفت المياه». أي لم يعد البتة وقوله (في سفر الملوك الثاني فصل ٦ عد ٣٣) في ميخال ابنة شاوول أنّها: «لم تلد حتى ماتت». وقوله في الزبور (مزمور ٩): «اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك تحت موطئ قدميك». فميخال لم تلد بعد موتها ولا بطل جلوس المسيح عن يمين الآب بعد أن وضع أعداءه تحت موطئ قدميه، وكذلك لم يعرف يوسف مريم بعد أن ولدت ابنها. على أنَّ بعضهم لم يفهم كلمة يعرف بمعنى يضاجع، بل بالمعنى الموضوعة له، أي أنّ يوسف لم يعرف مريم بما هي عليه من رفعة المقام، واختيار الله اياها أماً لابنه حتى ولدت ابنها، ودعته يسوع. وأما وصف ابنها بالبكر فلا ينولهم مأرباً فالكتاب يدعو بكراً من يولد أولاً، وان كان وحيداً. وقد أمر في سفر الخروج (فصل ١٣ عد ٣) ان يقدم لله كل بكر، ولا غرو أنّه يدخل في ذلك الوحيدون أيضاً. وانما أراد الانجيلي بهذا الوصف أن يبين أنّ ليسوع كل الحقوق التي كانت للأبكار في العهد القديم.

إنَّ العذراء بعد بشارة الملاك لها ذهبت مسرعة إلى زيارة اليصابات أم يوحنا المعمدان نسيبتها، وفي هذا النسب يُحتمل أن تكون أم اليصابات من نسل داود عمة العذراء أو خالتها أو ابنة عمها، ويُحتمل أن تكون حنه أم العذراء من نسل هرون على قول القديس اغوسطوس. (في توفيق الأناجيل فصل ٤) ليكون المسيح

من نسل الكهنة والملوك. والسنّة (في سفر الأحبار فصل ٢١ عد ١٤) لم تحظّر على الكهنة الزواج إلّا بمن كان والداها غير عبرانيين. وعندما سمعت اليصابات سلام العذراء ارتكض الجنين في حشاها، وأوحى روح القدس إليها بحبلها بالمخلّص. فقالت مباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك. من أين لي أن تأتي إليَّ أم ربي. فنطقت مريم بتسبحتها تعظّم نفسي للرب الخ. ثم عادت إلى الناصرة قبل أن تلد اليصابات (لوقا فصل ١ عد ٣٩ وما يليه). ويظهر أنَّ يوسف لم يصحبها بهذه الزيارة لأنَّ الإنجيلي لم يأتِ بذكره لا عند ذهابها ولا عند أيابها. ولو سمع سلام اليصابات وكلامها لعلم شيئاً من سرّ التجسد، ولم تأخذه الهواجس ويهمّ بتخليتها سراً ولم يحتج أن يكشف له الملاك هذا السر (متى فصل ١ عد ١٩). على أنَّ القديس برنردس رأى يوسف أراد تخلية العذراء تهيباً هاجساً في ضميره، إنه لا يستحق أن يُحسب أباً لعمنويل المتجسّد في حشاها، وكأنه يقول ما قال بطرس الرسول للمخلّص: «تباعد عني يا رب لأنني رجل خاطئ» (لوقا ف ٥ عد ٨). لكن هذا يفترض علمه بسر التجسد وعامتهم ترى أنه كان يجهله حينئذٍ.

قد ولدت مريم المخلّص في ٢٥ كانون الثاني في السنة السابعة أو الخامسة قبل التاريخ العامي بناءً على ما مرّ. وسجد له الرعاة والمجوس بحضرتها. وختنته في اليوم الثامن بعد ميلاده. وقدمته بعد أربعين يوماً إلى الهيكل حيث أنبأها سمعان بروح نبوي ما يكون من سقوط وقيام الكثيرين به، وما سوف تقاسيه من الحزن على آلامه. ثم هربت به إلى مصر فأقامت هناك لا أقلّ من سنتين وعادت إلى الناصرة. وكانت تمضي به كل سنة في عيد الفصح إلى أورشليم، ولما كان عمره اثنتي عشرة سنة تخلّف عنها وعن يوسف، ومضى إلى الهيكل يسمع العلماء ويسألهم. فعادا يطلبانه ثلاثة أيام متوجعين إلى أن وجداه. أشرنا إلى هذه الأخبار المصرّحة في الأناجيل تتمة لتاريخ العذراء. ويظهر أنَّ القديس يوسف بعلها توفاه الله قبل أن يأخذ المخلّص في الكرازة إذ لم يذكره الإنجيليون عند ذكر مريم في خبر عرس قانا. ولا ذكر اتيان أمه واخوته إليه وقد أوصى المخلّص عند موته يوحنا بأمه. ولو كان يوسف حياً لما احتاج هذه التوصية. وبعد أن أخذ المخلّص في التبشير كانت العذراء تصحبه في بعض أسفاره. وكانت معه في العرس الذي دُعي إليه في قانا الجليل. ولما رأت أنه يعوزهم الخمر، شفقت عليهم وأتت قائلة: لا خمر عندهم. فقال لها يسوع: «ما لي ولك يا امرأة لم تأت ساعتي بعد» فقال

بعضهم إنَّ مريم خالج قلبها وقتئذٍ فكر افتخار، ولذلك استخشنوا جواب يسوع لها. والصحيح ما قالته عامتهم أنَّ مريم لم تحملها إلّا الشفقة على أهل العرس لتقترح على ابنها صنع آية، والمسيح أراد أن يعلّم تلاميذه أن لا يدعوهم حب الأهل، وتحريضهم على عمل الخير بل يحملهم عليه مجد الله، والرفق بالناس، وشاء أن يبيّن أنَّ صنعه المعجزة من خواص لاهوته فلا علاقة له بوالدته بالجسد. وكلمة امرأة في العبرانية كاليونانية تُشعر بالتكريم لا بالتحقير وبالملاينة لا بالمخاشنة. وقد رأينا المخلّص خاطبها بهذه الكلمة نفسها في معرض التعزية والملاينة لها من على الصليب: «يا امرأة هذا ابنك».

إنَّ العذراء صحبت يسوع عند شخوصه إلى أورشليم في الفصح الأخير، وقاست بقلبها الآلام التي قاساها يسوع بجسمه المقدّس. وقد رافقته إلى الجلجلة ووقفت حذاء صليبه بشجاعة تليق بأم الله، ولا جرم أنَّ المخلّص ظهر لها بعد قيامته قبل انصاره كلهم فهي أحق من جميعهم بهذه التعزية. وكانت مع الرسل عند صعود المسيح إلى السماء. واستمرت معهم في أورشليم منتظرين حلول الروح القدس (أعمال الرسل فصل ١ عد ١٤). وأقامت بعد ذلك في بيت يوحنا الإنجيلي. وكان هذا الرسول يعزها ويجلّها اجلاله لأمه كما روى ابيغان (في بدعة ٧٨) وكيرلس الاسكندري (في تفسير بشارة يوحنا في ك ١٢). ويُظن أنه أخذها معه إلى أفسس. وفي المجمع الأفسسي التيبلي رسالة يتبيّن منها أنَّ بعض الناس كانوا في القرن الخامس يعتقدون أنها ماتت ودُفنت في افسس، على أنَّ هذا المعتقد لم يكن عاماً فإننا نرى بعض من كتبوا في القرن الخامس نفسه يعتقدون أنها توفيت ودُفنت في أورشليم. فقد أنبأنا يوحنا الشماس (في خطبته ٢ في صعود العذراء) ونيكوفر (ك ٢ فصل ٢٣) إنَّ الملك مرقيان والملكة بلوشارية افرغا قصارى الجهد في الحصول على جسم السيدة الطاهر ليكون ذخيرة في كنيسة أقاماها في القسطنطينية، وكتبا إلى يوفينال أسقف أورشليم وقتئذٍ فأجابهما أنَّ مدفنها في الجسمانية، وإنَّ مرقيان استحضر نعشها من أورشليم إلى القسطنطينية وهو من حجر عليه صورة للعذراء بديعة. وقال اندراوس الاكريتي (خطبة ٩) وبقي الناس من ذلك الزمان يدلون على مدفن العذراء في الجسمانية في كنيسة مكرّسة لذلك. وقال القديس يوحنا الدمشقي (في خطبة ٢ في رقاد العذراء) إنَّ الرسل لدن موت العذراء كانوا متفرقين في الآفاق للبشارة فحُملوا بمعجزة إلى أورشليم ليشهدوا

انتقال العذراء. وبعد أن فاضت نفسها دفنوا جسمها المبارك في الجسمانية وظلوا ثلاثة أيام يسمعون ثمّ ترانيم سموية. وابطأ توما ثم حضر وأحبّ أن يرى ذلك الجسد الطاهر ففتح التلاميذ المدفن ولم يجدوا الجثة. فتيقّنوا أنَّ الله أقامها قبل القيامة العامة. على أنه لا سبيل في تحقيق هذه الروايات. وقال القديس ابيفان (بدعة ٧٨) إنه لا يستطيع أن يقول أنها ماتت أو استمرت غير مائتة وأنّها دُفنت أو لم تُدفن، وأنه لا يمتري في أنها إذا كانت ماتت فموتها كان سعادة. وقال كلمت (في معجم الكتاب في كلمة مريم) إنَّ رأي الكنيسة الآن أنها ماتت واختلف العلماء في ما إذا كانت قامت أو ينتظر جسدها القيامة العامة، وفي ما إذا كانت دُفنت في افسس أو في أورشليم أو في محل آخر، ولم يتحقق كم كانت سني حياتها ولا في أية سنة ماتت. وفي رؤيا لإحدى العابدات في هذا العصر تسمى كاترينا اماريك أنها ماتت في افسس مع دلائل للإهتداء إلى مدفنها. وقد بوشر الحفر في المحل المعيّن وهو في جنوبي افسس على ثلاث ساعات منها. ووُجدت بعض الدلائل المرشدة إلى مدفنها في محل يسمى بناكيا قبولي أي باب الكليّة القداسة. وقد طالعنا مقالة مشبعة للأب دي لابرداز مثبتة في المجلة الموسومة بالدروس في نشرتها المؤرخة في آب سنة ١٨٩٧ م عنى مؤلفها بالبحث عن هذه الرؤيا وصحتها، والمتحصّل من كلامه أنَّ العذراء لم تأتِ إلى افسس لأنها رقدت بالرب على ما في الرؤيا سنة ٤٨ أو سنة ٥٢ للمخلّص على ما في غيرها. ويوحنا الرسول لم يأتِ إلى افسس إلّا بعد ذلك بسنين كثيرة. وفي تلك الحقبة كان بولس الرسول ينذر في افسس ويتردّد إليها لا يوحنا الرسول كما يظهر من كتاب أعمال الرسل نفسه. ويختتم كلامه بأنَّ انتقال العذراء لا شك فيه وإن لم يكن من عقائد الإيمان. وإنَّ أساقفة كثيرين رفعوا عريضة لبيوس التاسع في المجمع الواتيكاني ليجعل انتقال العذراء من عقائد الإيمان. وقد طالعنا فصلاً مثبتاً في المجلة الموسومة بالتمدّن الكاثوليكي (في نشرتها الصادرة في ١٦ نيسان سنة ١٨٩٨) جلّ غرض مؤلف ذلك الفصل أن يثبت أنَّ دفن العذراء في افسس ما برح من الآراء المحتملة غير الأكيدة إذ لم يقم عليه الآن دليل قاطع، وإنَّ رؤيا كاترينا اماريك لا يمكن القطع بصحتها لاحتمال أنَّ كاتب رؤياها كان يعرف المحل المذكور الذي في ناحية ازمير، ولمخالفتها رؤيا أخرى للعابدة مريم اكرادا التي قالت إنَّ مدفن العذراء كان في أورشليم. على أنَّ دفن العذراء في أورشليم لم يذكره أحد المؤرخين الثقة قبل القرن

الخامس. وما ورد في المجمع الافسوسي صحيح، المراد منه أنه كان في هذه المدينة معابد للعذراء وليوحنا الإنجيلي لا أنهما مدفونان هناك، وأنه يلزم التفريق بين بيت العذراء ومدفنها، فقد يكون لها بيت في افسس ولا يكون مدفنها هناك. والحاصل أنَّ هذا المبحث لا يمكن القطع به حتى الآن.

قِيل أنَّ لوقا الإنجيلي صوَّر صورة العذراء ولها صوَر في مواضع عديدة يقال أنها أُخذت عن صورة لوقا، على أنَّ القدماء لم ينبئونا بأنَّ لوقا صوَّر العذراء بل ذكروا أنَّ تاوادوريوس قارئ كنيسة القسطنطسنية الذي كان في القرن السادس. روى أنَّ اودكسية أرسلت من أورشليم إلى بلوشارية الملكة في القسطنطينية صورة العذراء. صوّرها لوقا وصرَّح نيكافور كاليست (في ك ٢ فصل ٢٣ من تاريخه) إنَّ لوقا صوَّر صورة العذراء لكنه كان في القرن الرابع عشر ذكر القديس برنردس في خطبته (في مزمور ٩٠) إنَّ العذراء كتبت رسالة للقديس اغناطيوس الشهيد، وهذا القديس كتب إليها، وأهل مسينا يحفظون تقليداً بأنَّ العذراء كتبت إليهم، وعندهم كنيسة يسمونها سيدة الرسالة. وقد ذكرت ذلك في كتابي سفر الأخبار وكذا يدّعي أهل فلورنسا في ايطاليا على أنَّ هذه التقليدات لا سبيل إلى تحقيقها.

على أنه وإن لم تتصل إلينا صورة العذراء التي صوّرها لوقا أو أُرتيب في أنه صوّرها فلنا صوَر من أقدم الأعصر كُشف عنها في المخابئ والمعابد التي تحت الأرض في روما وغيرها، تمثل العذراء وتبكم الملحدين عن التكذيب بالكتاب، منها صورة بشارة الملاك للعذراء نُقشت في القرن الثاني على حائط في مخبأ كنيسة القديسة بريشلاّ، ترى فيها الملاك جبرائيل بهيئة شاب منتصب أمام العذراء جالسة، ومرآها ناطق بتعجبها ودهشتها واضطرابها، ذكرها يوسيوس في كتابه الموسوم «بروما تحت الأرض» (صفحة ٥٤١) وبوتاري (صفحة ١٧٦)، ومنها صورة سجود المجوس للمخلِّص نُقشت في المخبأ الكائن حذاء كنيسة القديسين مرشلينوس وبطرس، وصورة أخرى لهذا السجود في مخبأ دوميتيل ذكرها كاروشي في كتابه في الصناعة المسيحية.

ودونك مثالاً لهذه الصورة فإنك ترى العذراء جالسة على كرسي ويسوع في حضنها وثلاثة رجال يقدمون له هداياهم.



وفي مخبأ كنيسة القديسة بريشلا صورة أخرى منذ القرن الثاني تمثل العذراء حاملة المخلِّص في حضنها وفوق رأسها نجم ساطع واشعيا يدل على هذا النجم. ذكرها بوتاري (صفحة ١٧٦).

وحقّق بعضهم أنَّ العذراء في هذه الآثار نحواً من خمسين صورة وجميع الصوَر التي في مخبأ كنيسة القديسة بريشلا صُنعت في مبادئ القرن الثاني وقد وضعنا صورة للعذراء واشعيا عند كلامنا في هذا النبي.

عد ٥٠٣
الرسل اجمالاً

أنبأنا القديس لوقا الإنجيلي (فصل ٦ عد ١٣) إنَّ يسوع: «دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر وسماهم رسلاً سمعان الذي سماه بطرس، واندراوس أخاه ويعقوب ويوحنا وفيلبوس وبرتلماوس ومتى وتوما ويعقوب بن حلفى وسمعان المدعو الغيور، ويهوذا أخا يعقوب ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه». وقد أُطلق اسم رسول على غير هؤلاء كبولس الرسول وبرنابا كما جاء في أعمال الرسل (فصل ١٤ عد ١٤). وسمى بولس في رسالته إلى الرومانيين (فصل ١٦ عد ٧) اندرونكس ويونياس رسولين مشهورين بين الرسل، وسمى تيموتاوس وسيلفا رسولين أيضاً، وأفصح مرقس (فصل ٣ عد ١٤) بذكر غرض المسيح من اختيار هؤلاء الاثني عشر من بين

تلاميذه قائلاً «وعيّن منهم اثني عشر ليكونوا معه، وليرسلهم للكرازة، وأعطاهم سلطاناً أن يشفوا المرضى ويُخرجوا الشياطين وجعل لسمعان اسم بطرس». وبيّن القديس بطرس (في أعمال الرسل فصل ١ عد ٢١) ما يطلب من الرسول وما هي غاية رسالته قائلاً: في اختيار خلف ليهوذا «فينبغي إذاً أن يعيِّن واحد من الرجال الذين اجتمعوا معنا في كل الزمان الذي فيه دخل وخرج الرب يسوع بيننا منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي فيه ارتفع عنا ليكون شاهداً معنا بقيامته».

وقد كان الرسل اثني عشر ليكون عددهم مقابلاً عدد اسباط بني إسرائيل الاثني عشر. إذ أرسلهم إليهم كخراف ضلّت من بني إسرائيل، وليدينوا في الحياة الأُخرى أسباط إسرائيل الاثني عشر وكما انقسم سبط يوسف إلى فرعين فكذلك دخل في مكان يهوذا الإسخريوطي رسولان متيا وبولس، وقد اختار المسيح هؤلاء الرسل من عامة الشعب. وكان بينهم رسولان مختلفا النزعة والغرض، فمتى كان عشاراً من أعوان الحكومة، وسمعان كان من الغيورين (وهم قوم كانوا حمسين في مناصبة الرومانيين دعوناهم آنفاً المشاغبين) ولذلك وصفه بالغيور، وكان الرسل أجمعين أُميين لا إلمام لهم بالعلوم إلّا متى العشار. وأما بولس فلم يختره في حياته وكانوا صرفوا حياتهم في الأعمال الشاقة، ومنهم اربعة أو أكثر صيادون، وكانوا جميعهم إلّا يهوذا سليمي القلب طيبي السريرة فاختار المسيح جهلاء العالم ليخزي حكماءه، وضعفاءه ليخزي أقوياءه لا بحكمة الكلام لئلا يتعطّل صليب المسيح كما قال الرسول، وقد سموا في بشائر متى ومرقس ولوقا باسمائهم دون خلاف إلّا يهوذا أخا يعقوب فإنَّ متى سماه لابي، ومرقس سماه تادي على أنَّ كلمة لابي بمعنى القلب، وتادي بمعنى الصدر. فالاسمان دالان على كرم الخلق والشجاعة. ولم يدعه المسيحيون الأُولون يهوذا مقتاً ليهوذا الغاش، ولم ينسّق الإنجيليون اسماء الرسل نسقاً واحداً بل قدّم أحدهم بعضاً كما يتبيّن من الجدول الآتي:

متى	مرقس	لوقا	أعمال الرسل
فصل ١٠ عد٢	فصل ٣ عد١٦	فصل ٦ عد ١٤	فصل ١ عد ١٣
بطرس	سمعان بطرس	بطرس	بطرس
اندراوس	يعقوب	اندراوس	يعقوب

متى	مرقس	لوقا	أعمال الرسل
فصل ١٠ عد٢	**فصل ٣ عد١٦**	**فصل ٦ عد ١٤**	**فصل ١ عد ١٣**
يعقوب	يوحنا	يعقوب	يوحنا
فيلبوس	اندراوس	يوحنا	اندراوس
برتلماوس	فيلبوس	فيلبوس	فيلبوس
توما	برتلماوس	برتلماوس	توما
متى العشار	متى	متى	برتلماوس
يعقوب بن حلفى	يعقوب بن حلفى	يعقوب بن حلفى	يعقوب بن حلفى
لابي	تادي	سمعان المدعو الغيور	سمعان المدعو الغيور
سمعان القانوني	سمعان القانوني	يهوذا أخو يعقوب	يهوذا أخو يعقوب
يهوذا الإسخريوطي	يهوذا الإسخريوطي	يهوذا الإسخريوطي	

فترى في هذا الجدول اسم بطرس قبل جميعهم في الأناجيل الثلاثة وأعمال الرسل، ويرجّح أنَّ برتلماوس هو نتائيل الذي اقتاده فيلبوس إلى المخلِّص. وقد سُمِّي متى في بشارة مرقس (فصل ٥ عد ٢٧) لاوي فكأنَّ هذا كان اسمه قبل أن يدعوه المسيح. وسمي بعد أن دعاه متى، وتفسير هذا الاسم هبة الله. ويوصف أحد اليعقوبين بالصغير إما لقصر قامته، وإما لأنه كان أصغر من يعقوب أخي يوحنا. ونرجئ الكلام في ما صنعه كل من الرسل إلى أن نفرد لكل منهم فصلاً براسه. وكان الرسل جميعاً يخدمون المخلِّص، ويتمّون ما يأمرهم به، ويسمعون تعاليمه، ويصغون لارشاده ليفهموا ما يلزم لملكوت الله على أنَّ فهمهم كان قاصراً. وقد ونَّبهم المخلِّص على ذلك مرات، وكان يفسِّر لهم في الخلوة ما قاله جهاراً، وكان يعلِّمهم بمثله. وقد وهبهم السلطان على صنع الآيات واعداً لهم بارشاد الروح القدس في ما يقولونه. وأقامهم كهنة في العشاء الأخير وتبددوا وقت آلامه وظهر لهم مرات بعد قيامته، وكانوا مجتمعين والتلاميذ لدى صعوده كل ذلك بيّن في الأناجيل.

جاء في أعمال الرسل (فصل ١ عد ١٢ وما يليه) إنَّ الرسل رجعوا بعد صعود المخلّص من جبل الزيتون إلى أورشليم، وكانوا مواظبين على الصلاة مع النساء ومريم أم يسوع وغيرهم من التلاميذ وإنَّ بطرس قام في وسطهم. وكان عدد المجتمعين نحواً من مئة وعشرين، وخاطبهم في اختيار رسول بدلاً من يهوذا الذي شنق نفسه، فقدّم التلاميذ اثنين يوسف المسمى برسابا ومتيّا فصلوا ثم ألقوا القرعة بينهما. فوقعت على متيا فأحصيَ مع الرسل الأحد عشر، واستمروا مواظبين على الصلاة إلى أن حلَّ الروح القدس عليهم في اليوم الخمسين بعد قيامته، فحدث بغتةً صوت من السماء كصوت ريح شديدة، وظهرت لهم ألسنة كأنها من نار واستقرّت على كل واحد منهم فامتلأوا من الروح القدس، وطفقوا يتكلمون بلغات أخرى. وكان حينئذٍ في أورشليم رجال من اليهود المشتتين في كل قطر في آسيا وافريقيا واوروبا والجزر كانوا اجتمعوا في عيد الفصح، وظلوا في أورشليم إلى عيد البنديكستي. فهؤلاء لما سمعوا الصوت اجتمعوا ودُهشوا، لأنَّ كلاً منهم كان يسمعهم ينطقون بلغته. وقال بعضهم إنهم شربوا سلافة وسكروا فقام بطرس خطيباً فيهم مبيّناً أنهم ليسوا بسكارى بل أنَّ هذا ما تنبأ به الانبياء، ومثبتاً أنَّ من صلبه اليهود هو المسيح الرب. وقد أقامه الله أبوه من بين الأموات فأثّر كلامه في كثيرين وآمن في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف نفس واعتمدوا.

قال بعض المفسرين في موهبة الكلام باللغات التي وهبت لهم أنَّ الرسل ظلّوا يتكلمون بلغتهم التي كانوا يتكلمون بها قبلاً، لكن السامعين الأجانب كانوا يفهمون كلامهم كأنه بلغتهم؛ على أنَّ جمهور المفسرين أثبتوا أنَّ الله أولى الرسل معرفة اللغات، وكانوا يفهمونها ويتكلمون بها كلما اقتضت ذلك خطتهم الرسولية، ولا موجب للعدول عن تفسير الجمهور. ويؤيد ذلك أنَّ معنى آيات الكتاب التي جاءت في هذا الشأن ظاهر وبديهي سواءً كانت الآيات التي وعد بها المخلّص بهذه الموهبة كما جاء في مرقس (فصل ١٦ عد ١٧): «وينطقون بلغات جديدة»، أم الآيات الواردة في أعمال الرسل كقوله (فصل ٢ عد ٤): «وطفقوا يتكلمون بلغات أخرى كما أتاهم الروح القدس أن ينطقوا»، وكلما ذُكرت هذه الموهبة بعد البنديكستي عبّر الكتاب عنها بهذا الأسلوب نفسه. من ذلك ما جاء في أعمال الرسل (فصل ١٩ عد ٦) عن التلاميذ الذين كانوا في افسس «ووضع بولس يديه عليهم فحلَّ الروح القدس عليهم وطفقوا ينطقون بلغاتٍ» وقال بولس لتلاميذه

(قرنثية أولى فصل ١٤ عد ١٨): «اني أشكر الله أني أنطق بالألسنة أكثر من جميعكم. فهو إنما يشكر الله على علم أولاه اياه لا على علم وُهب لهم ليفهموا كلامه إذ تكون على ذلك الموهبة لهم لا له. ولا جرم أنَّ تفسير الجمهور أنسب للغرض الذي تعمّده المسيح بتنويله الرسل هذه الموهبة. فلو انحصرت الآية على أن يفهم السامعون كلام الرسل لفات المقصود الذي لا يتمّ إلّا بأن بفهم الرسل أيضاً كلام من يبشرونهم، ولا يكفي أن يدرك السامعون كلام الرسل فقط، ولا تسع المجال لاولئك السامعين ليحسبوا أنَّ الموهبة أُعطيت لهم لا للرسل. فالصحيح إذاً أنَّ المخلِّص خوَّل رسله موهبة معرفة اللغات الأجنبية والكلام بها كلما اقتضته خطّة رسالتهم لا سيما في المجتمعات الدينية، وقد كانت هذه الآية في العلّية مقابلة لآية بابل فبلبلة الألسن هناك أوجبت تفرّق البشر واختلاف الشعوب، وآية العلّية أوجبت اتحاد الشعوب في الإيمان والمحبة واقامة جماعة روحية معدّة لأن تضمّ النوع البشري بأسره إلى حظيرة الخلاص.

قد تبدّلت حالة الرسل بعد حلول الروح القدس عليهم. .وبعد أن كانوا أميين جبناء قلقين أصبحوا حكماء شجعاء ثابتين، وضعوا أسس الكنيسة أولاً في أورشليم ثم تفرقوا في الآفاق بحسب أمر المخلِّص لهم أن يعلّموا جميع الأمم، وفتح بطرس باب الإيمان للأمم بتعميده كرنيليوس وذويه، واتسع لبولس المجال حتى سمي رسول الأمم، وانخرط كلٌ منهم في صقع فأناروا العالم وبسطوا فيه بشارة الإنجيل فكانت اساً للخلاص وللتمدّن الحقيقي.

قد شرع المسيحيون الأولون من صدر النصرانية يصوّرون صوَر الرسل ووُجدت في المخابيء والمدافن وعلى التوابيت صوَر كثيرة لهم؛ منها صورة وُجدت على تابوت في مدينة ارل في فرنسا نُقشت عليها صوَر الرسل الاثني عشر، يظهر منها أنهم كانوا يلبسون قميصاً طويلاً يتصل إلى أرجلهم. ورداء فوقه والآثار التي وُجدت في المغرب في القرون الثمانية الأولى تراها تمثل الرسل وقوفاً أو جلوساً عن يمين المخلِّص ويساره، وبعضهم ملتحٍ وبعضهم دون لحية، وبيدهم اليمنى كتاب أو درج ملفوف رمزاً إلى كلام الله الذي كانوا يبشرون به. وترى بيدهم أحياناً اكليلاً رمزاً إلى الظفر والمكافأة السماوية لهم. ويصوِّرون أحياناً صوراً رمزية بهيئة اثني عشر نعجة ست عن يمين المخلِّص وست عن يساره رابضات على صخر تجري من تحته أربعة أنهر الفردوس؛ كناية عن الأناجيل الأربعة. واعتاد المصوِّرون أن يسمّوا

كلاً من الرسل بسمة تميّزه. فيصوّرون بطرس وبيده المفاتيح وبولس وبيده سيف. واندراوس وبيده صليب. ويوحنا وبيده كأس وحية خارجة منه. ويعقوب الصغير وبيده كتاب أو عصاً. وفيلبوس وبيده صليب وفي أعلاه عقد كالقصب. ويعقوب الكبير وبيده هراوة مسافر. وبرتلماوس وبيده كتاب أو مدية. وتوما وبيده بركار. ومتى وبيده حربة. وسمعان وبيده منشار. ويهوذا وبيده دبوس. ومتيا وبيده فأس. تلك رموز إلى طريقة رسالتهم أو إلى نوع استشهادهم. ويعزى إلى الرسل قانون الإيمان مقسوماً إلى اثني عشر جزءاً؛ وهذه النسبة صحيحة ولا أقلّ من أن يكون الرسل اتفقوا على هذا القانون قبل تفرقهم إلى الآفاق وسلموه إلى المؤمنين، إن لم يكن خطأً فتقليداً شفاهياً. وقد أثبت ذلك أبريناوس (ك ١ ضد الهرطقات فصل ٢) وترتوليانوس في كتابه في سقوط دعوى الهراطقة، والبابا شالستينوس الأول في رسالته إلى نسطور، ثم المجمع الأفسسي في عريضته إلى الملك تاوادوسيوس وغيرهم. ويُنسب إلى الرسل أيضاً خمسة وثمانون قانوناً، ولكن هذه النسبة لا صحة لها ولم تقبل الكنائس الشرقية هذه القوانين إلّا في مبادئ القرن السادس. ولم يثبت في الكنيسة اللاتينية منها إلّا خمسون قانوناً أو خمسة وثلاثون إلّا في بداية القرن السادس. ويُنسب إليهم كتاب المراسيم الرسولية مترجمة من اليونانية إلى اللاتينية، ولكن هذه النسبة أيضاً غير صحيحة نظراً إلى الرسل أو إلى البابا اكليمنضوس الروماني بل أنها ألفت بعد عصر الرسل والبابا المذكور بزمن مديد.

عد ٥٠٤

بطرس الرسول

إنَّ بطرس الرسول هو ابن يونا وأخو اندراوس الرسول وُلد في بيت صيدا[١]

(١) تأويل بيت صيدا في الآرامية محل الصيد وهي قرية أو مدينة في جانب بحيرة جاناشر (بحيرة طيبارية) جاء ذكرها في الاناجيل متواتراً. وقال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٨ فصل ٢) أنّ فيليبوس رئيس الربع زاد في أبنيتها وحصنها حتى صارت مدينة وسماها يولية باسم ابنة اغوسطوس، وكانت على بحيرة طيبارية وأنّ فيليبوس مات ودفن فيها في قبر أعده لنفسه. وقال في تأليفه في الحرب (ك ٣ فصل ١٠) انها كانت عند مصب الأردن العلوي وقال هناك (ك ٢ فصل ٩) انها كانت في الجولان السفلى وسماها بلين في تاريخه يولية، وقال انها كانت في شرقي بحيرة طيبارية وذكرها بتولمايس (في الجغرافية)

في الجليل وكان اسمه أولاً سمعان، فسماه المخلِّص عند دعوته إلى الرسالة كيفا. وهي كلمة سريانية معناها الصخرة وكان بطرس مزوجاً، وكانت امرأته وحماته وبيته في كفرناحوم. وقد أثبت اوسابيوس (ك ٣ فصل ٣ من تاريخه) واكليمنضوس الاسكندري وفم الذهب أنه ترك امرأته مذ لحق المسيح أو عاش معها كأخت. وقد دعا المخلِّص أولاً أخاه اندراوس فالتقى بأخيه سمعان وقال له: قد وجدنا مشيح الذي تأويله المسيح (يوحنا فصل ١ عد ٤٢). ولما رآه يسوع قال له: أنت سمعان بن يونا أنت تدعى كيفا الذي تأويله الصفاة (الصخرة) وبقي عند المخلِّص يوماً ثم انصرف مع أخيه إلى تعاطي مهنة الصيد، وهذه كانت الدعوة الأولى لبطرس في أوائل السنة الأولى من تبشير المخلِّص. ثم رآه في أواخرها على شط بحيرة جنشار مشتغلاً مع أخيه اندراوس بغسل شباكهما فركب في سفينتهما.

وقال لبطرس تقدّم إلى العمق والقوا شباككم فقال له بطرس: قد تعبنا الليل كلّه ولم نصطد شيئاً ولأجل كلمتك ألقي الشبكة، فضبطوا سمكاً كثيراً جداً حتى كادت شبكتهم تتمزق، واحتاجوا إلى أن يعاونهم رفقاؤهم في نقل السمك حتى امتلأت السفينتان. فخرَّ بطرس عند قدمي يسوع قائلاً: أسألك يا سيدي أن تتباعد

بين مدن الجليل. ولم يرد في الاناجيل إلا ذكر بيت صيدا واحدة اهي بيت صيدا يولية التي ذكرها المؤرخون المشار إليهم أم وجدت مدينتان تسميان بيت صيدا إحداهما في شرقي الاردن والاخرى في غربيه. فهذا مبحث اشغل العلماء منذ ثلاثة قرون ولم يقل فيه القول الفصل إلى الان. فادريكومبوس وكورازميوس من المتقدمين وردبنيسوت وسقفلاي وكاران من علماء هذا العصر وغيرهم كثيرون اثبتوا ان بيت صيدا يولية غير بيت صيدا بالإطلاق. فالاولى في شرقي الاردن والاخرى في غربيه. على ان ليختفوت وكيابر وسوشان وغيرهم ايضاً ذهبوا إلى ان بيت صيدا واحدة ولكل من الفريقين حجج لا محل لتفصيلها هنا. ومثل هذا الخلاف بينهم في تعيين موقع بيت صيدا في غربي الاردن أو شرقيه فمن ذهبوا إلى انها في غربيه قال بعضهم إنها كانت بين كفرناحوم والاردن حيث القرية المسماة الان ابو زينة، وقال غيرهم انها كانت في محل خان المنية وهو رأي عامتهم الان. ومن ذهبوا إلى انها في شرقي الاردن قال بعضهم انها كانت في محل القرية المسماة الان التل على كيلومتر من الاردن شرقاً وعلى كيلومترين من البحيرة شمالاً. وقال بعضهم انها كانت في المسعدية وهي قرية على نحو من مئتي خطوة على شاطئ البحيرة الشرقي وفي المحل المعروف الان بالعراج على نحو كيلومتر من المسعدية. والتقليد المسيحي على ان بيت صيدا كانت في أحد هذين المحلين طالع معجم الكتاب لفيكورو في كلمة بيت صيدا.

عني لأني رجل خاطئ. فقال يسوع لسمعان لا تخف فإنك من الآن تكون صياداً للناس، وقد لزمه بطرس بعد هذه الدعوة الثانية (لوقا فصل ٥ عد ٢ وما يليه). وبعد أيام أتى يسوع كفرناحوم فشفى حماته من الحمى، وقبل فصح السنة التابعة عاد يسوع إلى الجليل فاختار رسله الاثني عشر، وقد ذكر بطرس في مقدمتهم في كل موضع. ورأى بطرس يسوع ماشياً ليلةً ما على أمواه بحيرة جنشار فسأله أن يأمره أن يأتي إليه على المياه فقال له! تعال فنزل بطرس من السفينة، ومشى على المياه ولما رأى شدّة الريح خاف، وأوشك أن يغرق، فمدّ يسوع يده وانتشله وقال له يا قليل الإيمان لماذا شككت؟ وخطب يسوع في تلاميذه قائلاً إنه يعطيهم جسده ليأكلوه ودمه ليشربوه، فرجع كثير من تلاميذه إلى الوراء لاستصعابهم تصديق كلامه. وقال يسوع للاثني عشر ألعلّكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟ فقال له بطرس يا رب إلى من نذهب وكلام الحيوة الأبدية هو عندك. وكان يسوع ذات يوم في قيصرية فيلبوس وسأل تلاميذه قائلاً من تقول الناس أني أنا؟ فأجابه بطرس: أنت ابن الله الحيّ. وتقدّم الجميع في اقراره الصريح بلاهوت المخلّص، فقدمه على جميعهم قائلاً له طوبى لك يا سمعان بن يونا فإنه لا لحم ولا دم أظهر لك ذلك لكن أبي الذي في السماء. وأنا أقول لك أنك أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ولك أعطي مفاتيح ملكوت السماء، وكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماوات. (متى فصل ١٦ عد ١٣ وما يله) ولما تجلى يسوع بعد أيام على الجبل أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا. وأراهم مجده فدُهش بطرس بما رآه وقال للمخلّص حسنٌ لنا أن نمكث هنا ونصنع ثلاث مظال: لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة. متى (فصل ١٧ عد ١ وما يله). ولما كان يسوع ماضياً إلى كفرناحوم والتلاميذ يتشاجرون فيما بينهم في أيهم هو الأكبر، وسبقهم يسوع وبطرس إلى كفرناحوم، ودنا جباة الجزية إلى بطرس قائلين أما يؤدي معلمكم الدرهمين؟ أمره يسوع أن يمضي إلى البحر، ويلقي الشص، وأول سمكة يرفعها يفتح فاها فيجد استاراً (قيمته أربعة دراهم) فيأخذه ويؤدي الجزية عن المخلّص وعنه.

وكان يسوع ذات يوم يتكلّم في الفصح عن الإهانات. فسأله بطرس كم مرة يخطئ إليّ أخي فأغفر له ألإلى سبع مرات؟ فقال له يسوع لا أقول لك إلى سبع

مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات (متى فصل ١٨ عد ٢١). وكان يسوع في وقت آخر يتكلّم عن المال والغنى، فقال له بطرس هوذا نحن قد تركنا كل شيء واتبعناك فماذا يكون لنا؟ فأجابه يسوع أنتم الذين أتبعتموني إذا جلس ابن البشر على كرسي مجده تجلسون أنتم على اثني عشر كرسياً، وتدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر، وكل من ترك بيتاً أو اخوة... أو حقولاً لأجل اسمي يأخذ مئة ضعف. ويرث حياة الأبد (متى فصل ١٩ عد ٢٧).

وفي نهار الثلاثاء قبل الآلام قال للمخلِّص ها إنَّ التينة التي لعنتها قد يبست. فبيّن له يسوع عظمة قوّة الإيمان (مرقس فصل ١١ عد ٢١). وفي النهار التالي لما كان يسوع جالساً في جبل الزيتون سأله بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس متى يكون خراب الهيكل؟ (مرقس فصل ١٣ عد ٣) ويوم الخميس قبل الآلام أرسل يسوع بطرس ويوحنا ليعدا له الفصح (لوقا فصل ٢٢ عد ٨) وبعد العشاء ترك يسوع ثيابه وأخذ يغسل أقدام رسله ليعلِّمهم التواضع. وتمنّع بطرس قائلاً أأنت يا رب تغسل لي قدمَي؟ وكرر الممانعة فقال له يسوع إن لم أغسل لك فليس لك معي نصيب. فأذعن بطرس قائلاً لا تغسل رجليَّ فقط بل يديَّ ورأسي أيضاً. (يوحنا فصل ١٣ عد ٦). وبعد ذلك قال له يسوع هوذا الشيطان سأل أن يغربلكم مثل الحنطة لكنني صلّيت من أجلك لئلا ينقص إيمانك. وأنت متى رجعت فثبّت اخوتك (لوقا فصل ٢٢ عد ٣١). وبهذا إشارة إلى جحود بطرس وتوبته ووعده بمزية يمتاز بها على اخوته، وهي أنه يثبته بمنزلة رئيس لهم.

وقال له بطرس إنه مستعدّ أن يمضي معه إلى السجن، وإلى الموت، فأعلمه يسوع أنه سينكره ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك. ولما جاء يسوع بعد ذلك إلى بستان الجسمانية أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا ومضى يصلّي، ثم جاء إليهم فوجدهم نياماً. فقال لبطرس هل أنت نائم أو لم تقدر أن تسهر ساعة واحدة؟ (مرقس فصل ١٤ عد ٣٧) ولما أتى يهوذا مع الجنود للقبض على يسوع انتضى بطرس سيفه وقطع اذن ملخوس عبد عظيم الكهنة فقال له يسوع أردد سيفك إلى غمده فمن اخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ، وردَّ إلى ملخوس أذنه (يوحنا فصل ١٨ عد ١٠) وتبع بطرس يسوع إلى بيت قيافا. فسألته الجارية البوابة أما أنت من تلاميذ هذا الرجل؟ فقال ما انا منهم. ثم وقف يصطلي مع العبيد والخدام فقالوا له ألست أنت من تلاميذه؟ فقال لست منهم. وقال له واحد من عبيد رئيس الكهنة

أما رأيتك أنا في البستان معه؟ فأنكر أيضاً. وللوقت صاح الديك والتفت يسوع إلى بطرس كأنه يذكّره، فانتبه بطرس وأخذ يبكي بكاءً مراً على إنكاره (يوحنا فصل ٨ عد ١٧ وما يليه ومتى فصل ٢٦ عد ٦٧). وقد سمح يسوع بسقطته ليكون في رياسته شفوقاً على من يأثمون.

واختبأ بطرس باكياً بعدئذٍ على جحوده سيّده يومَي الجمعة والسبت. ولما أتت مريم المجدلية الأحد باكراً إلى القبر، ولم تجد جسد يسوع أسرعت حالاً فأخبرته ويوحنا، فعجّلا إلى القبر (يوحنا فصل ٢٠ عد١ وما يليه ولوقا فصل ٢٤ عد ١٢) ولما ظهر يسوع للنسوة بعد قيامته قال لهنَّ أن يقلنَ لتلاميذه ولبطرس خاصة أنه قام وأن يسبقوه إلى الجليل (مرقس فصل ١٦ عد ٧). وفي اليوم نفسه ظهر لبطرس أيضاً (لوقا فصل ٢٤ عد ٣٤). كأنه ليعزيه ويحقق له أنه تقبَّل توبته. (فم الذهب في تفسيره رسالة قرنثية الأولى خطبة ٣٨). وبعد أيام عاد بطرس إلى الجليل بحسب أمر المخلِّص، وذهب يصطاد مع بعض الرسل في بحيرة طيبارية، فظهر لهم يسوع على الشاطئ. وأمرهم أن يلقوا شبكتهم من جانب السفينة الأيمن فوجدوا سمكاً كثيراً حتى لم يقدروا أن يجذبوا الشبكة من كثرة السمك. وقال يوحنا لبطرس هذا هو الرب فائتزر بطرس بثوبه، وطرح نفسه في البحر، وتبعه الآخرون في السفينة وهم يجرون الشبكة ثم صعد بطرس وجرّ الشبكة إلى الأرض، وفيها مئة وثلاث وخمسون سمكة؛ ومن بعد أن تغدوا قال يسوع لبطرس يا سمعان بن يونا أتحبني أكثر من هؤلاء؟ فقال له نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك. قال له إرعَ خرافي. وأعاد السؤال عليه فأجابه كالأول فقال له ارعَ غنمي. ثم قال له ثالثة: يا سمعان بن يونا أتحبني؟ فقال له ربي أنت تعلم كل شيء، فتعلم أني أحبك فقال له: ارعَ نعاجي التي يريد بها الرعاة والرؤساء كما سيجئ. ثم أعلمه أي ميتة يموت قائلاً: الحق أقول لك أنك إذ كنتَ شاباً كنتَ تشدّ حقويك، وتذهب حيث تشاء، فإذا شخت فتبسط يديك وآخر يشدّ لك حقويك، ويذهب بك حيث لا تشاء (يوحنا فصل ٢١ عد ١ وما يليه).

وبعد أن صعد يسوع إلى السماء بحضرة تلاميذه عاد بطرس والتلاميذ إلى أورشليم ينتظرون حلول الروح القدس كما وعدهم المخلِّص. فقام بطرس في تلك الأثناء في وسط الاخوة، وسألهم أن يختاروا رسولاً مكان يهوذا الذي شنق نفسه معيّناً لهم شروط الانتخاب. فقدّموا يوسف المسمى برسابا ومتيا. ومن بعد الصلوة

القوا القرعة فوقعت على متيا. (أعمال الرسل فصل ١ عد ١٥ وما يليه). وفي اليوم العاشر بعد صعود المخلِّص حلَّ الروح القدس على التلاميذ، وأولاهم بين باقي مواهبه موهبة التكلّم باللغات. فتحيّر الجمهور الغفير الذي سمعهم ينطقون بلغاتهم على اختلافها. وقال بعضهم أنهم شربوا سلافة وسكروا. فقام بطرس خاطباً فيهم مبيّناً أنه والتلاميذ ليسوا سكارى بل إنّ هذا اتمام النبوّات على المسيح وتلاميذه وكان لكلامه شديد الوقع، حتى نصّر بطرس يومئذٍ نحو ثلاثة آلاف نفس (أعمال الرسل فصل ٢).

وبعد أيام صعد بطرس ويوحنا إلى الهيكل ليصليا الساعة التاسعة، وكان على باب الهيكل رجل أعرج من بطن أمه فسألهما صدقة، فقال له بطرس ليس لي فضة ولا ذهب ولكنني أعطيك ما عندي باسم يسوع الناصري قُمْ وامشِ. فوثب وقام وطفق يمشي، ودخل معهما الهيكل، فدهش الجمهور لما رأوه، واجتمعوا حول بطرس، ويوحنا فخطب بطرس فيهم قائلاً ليس بقوتنا وتقوانا جعلنا هذا يمشي بل باسم يسوع المسيح الذي صلبتموه إلى آخر خطبته (أعمال الرسل). فآمن منهم حينئذٍ خمسة آلاف. واقبل عليهم الكهنة والصدوقيون مشمئزين من ندائهما بيسوع فالقوهما في الحبس، وفي الغد اجتمع عليهما الرؤساء والشيوخ والكتبة وحنان رئيس الكهنة وقيافا. وأقاموهما في الوسط، وسألوهما بأية قوة أو بأي اسم صنعا آية ابراء الأعرج؟ فأجاب بطرس إنّه باسم يسوع الناصري الذي أنتم صلبتموه، والله أقامه من بين الأموات وقف هذا الأعرج أمامكم متعافياً، وإذ نظروا الرجل الذي شفي واقفاً لم يكن لهم ما يقولون، فأمروهما أن لا ينطقا البتة باسم يسوع. فقال لهم بطرس ويوحنا احكموا أنتم ما العدل أمام الله ألكم نسمع أم لله؟ فتهددوهما وصرفوهما إذ لم يجدوا سبيلاً لمعاقبتهما (أعمال الرسل ف ٤).

وكان المؤمنون حينئذٍ يبيعون ما يملكون، ويلقونه عند أقدام الرسل فيوزع لكل حسب احتياجه. وكان رجل اسمه حننيا وامرأته اسمها صافيرا باعا عقاراً، واستبقيا بعض ثمنه وأتى حننيا بالباقي إلى الرسل. فقال له بطرس لماذا ملأ الشيطان قلبك فاختلست من ثمن العقار فهو كان لك قبل بيعه واما بعده فباختلاسك من ثمنه لم تكذب على الناس بل على الله. فعند سماعه هذا الكلام سقط ميتاً. وبعد مدة نحو ثلاث ساعات دخلت امرأته وهي لا تعلم ما جرى لزوجها، فقال لها بطرس قولي لي ابهذا الثمن بعتما العقار؟ قالت: نعم بهذا بعناه. قال لها بطرس اتفقتما

على تجربة روح الرب ها ان أقدام الذين دفنوا رجلك بالباب وهم يحملونك، فسقطت عند قدميه ميتة ووقع خوف عظيم على الجميع (أعمال الرس فصل ٥ عد ١ إلى ١١). وكان عدد المؤمنين يزداد يوماً فيوماً، وتجري على أيدي الرسل آيات كثيرة حتى كان الناس يخرجون بالمرضى إلى الشوارع ليقع ولو ظل بطرس عند اجتيازه على بعضهم فيبرأون من كل علة. والقى رئيس الكهنة والصدوقيون أيديهم على الرسل، وسجنوهم، ففتح ملاك الرب أبواب السجن ليلاً واخرجهم. وقال امضوا وقفوا في الهيكل وكلموا الشعب فدخلوا الهيكل نحو الفجر، وطفقوا يعلمون فانطلق الوالي مع الشرط واحضروهم لا قهراً مخافة أن يرجمهم الشعب. وقال لهم رئيس الكهنة في المحفل أمرناكم أن لا تعلموا بهذا الاسم وها قد شحنتم أورشليم من تعليمكم. فأجاب بطرس والرسل قائلين إنَّ الله احق من الناس بأن يطاع (أعمال الرسل فصل ٥ عد ١٢ وما يليه).

ومن بعد استشهاد القديس إسطفانوس ذهب فيلبوس أحد الشمامسة السبعة إلى السامرة فآمن كثير من السامريين واعتمدوا. ولما كان فيلبوس شماساً لا كاهناً لم يكن له أن يمنح هؤلاء سر التثبيت فمضى بطرس ويوحنا فمنحاهم هذا السر. وكان ممن آمنوا واعتمدوا سيمون الساحر. ولما رأى أن الروح القدس يعطى بوضع أيدي الرسل عرض عليهما نقوداً سائلاً بطرس ويوحنا أن يعطياه هذا السلطان. فقال له بطرس لتذهب فضتك معك إلى الهلاك لأنك ظننت أن موهبة الله تقتنى بالنقود فتب من شرك إلى الرب عسى أن يغفر لك. فقال توسّلا أنتما إلى الرب من أجلي (أعمال الرسل ف ٨). وقد أنبأنا أوسابيوس في تاريخه (ك٢ راس ٤). والقديس أيرونميوس (في كتابه في المشاهير) إن سيمون بعد تونيب بطرس له عاد إلى سحره واغواء الناس به، ومضى إلى رومة في أيام نيرون وبسحره جعل شيطانين يحملانه نحو السماء فصلى بطرس وبولس فترك الشيطانان سيمون فوقع على الحضيض ومات.

ولما خمدت جذوة الاضطهاد خرج بطرس من أورشليم يفتقد المؤمنين مدينة فمدينة، وبلغ لدة وهي المعروفة باللد فصادف رجلاً اسمه أينياس مخلعاً منذ ثماني سنين فقال له بطرس قد أبرأك يسوع المسيح قم وامشِ. فقام للوقت ورآه جميع الساكنين في اللد وجوارها فرجعوا إلى الرب. وكان في يافا تلميذة اسمها طابيطا ومعناه ظبية فمرضت وماتت فغسلوها ووضعوها في علية، وسمع التلاميذ أن بطرس

في اللد فأرسلوا إليه رجلين يسألانه أن يقدم إليهم، فأتى وأخرج الجميع وجثا وصلى والتفت إلى الجثة وقال يا طابيطا قومي ففتحت عيناها. ولما أبصرت بطرس جلست (أعمال الرسل ف٩ ع٣٢ وما يليه).

وكان في قيصرية فلسطين رجل اسمه كرنيلوس قائد مئة رجل وكان تقياً يخشى الله، فرأى في رؤيا جلية ملاك الله داخلاً عليه يقول له أن يرسلَ إلى يافا فيطلب بطرس وهو يقول له ماذا ينبغي أن يعمل. وكان بطرس في يافا صعد على السطح ليصلي فرأى رؤيا أنّ السماء انفتحت وسماطاً عظيماً مدلى على الأرض، وكان فيه كل ذوات الأربع ودبابات وطيور وسمع صوتاً يقول له قم اذبح وكل. فقال بطرس حاشا يا رب لم آكل قط نجساً. فخاطبه الصوت ثانية ما طهّره الله لا تنجسه أنت. وحدث هذا ثلاث مرات ورفع السماط إلى السماء. وبينما كان بطرس متحيّراً في مغزى الرؤيا التي رآها إذا بالرجال المرسلين من قبل كرنيليوس وقفوا على الباب. فقال له الروح هوذا ثلاثة رجال يطلبونك قم انزل وانطلقْ معهم لأني أنا أرسلتهم. فنزل بطرس إلى الرجال فقالوا له أن كرنيليوس قائد مئة رجل صديق أوحى إليه ملاك أن يستحضرك إلى بيته، ويسمع منك كلاماً. ولما دخل بطرس إلى كرنيليوس خرّ ساجداً عند قدميه. فأنهضه بطرس قائلاً قم فإني أنا أيضاً انسان. فأخبره كرنيليوس برؤياه، وكان جمع عنده أنسبائه وأخصّ أصدقائه، فبشرهم بطرس بإيمان المسيح فآمنوا، وحل الروح القدس على جميعهم، وكانوا يسمعونهم يتكلمون بلغات ويعظمون الله، ثمّ أمر بطرس أن يعتمدوا (أعمال الرسل فصل ١٠).

وصعد بطرس بعد ذلك إلى أورشليم فلامه أهل الختان قائلين إنك دخلت على رجال قلف، وأكلت معهم. فقص عليهم بطرس ما كان له. ولما سمعوا ذلك سكتوا، ومجدوا الله لأنه أعطى الأمم موهبة التوبة التي تقتادهم إلى الخلاص كما أعطى اليهود. وكان الذين تبددوا من أجل الضيق الذي حصل، ورجم إسطفانوس، مضوا إلى فينيقية وقبرص وأنطاكية. فآمن عدد كثير في هذه المدينة وبلغ الخبر مسامع الكنيسة التي في أورشليم، فأرسلوا برنابا إلى أنطاكية فانضم إلى الرب جمع كثير، وخرج برنابا إلى طرسوس في طلب بولس، ولما وجده أتى به إلى أنطاكية وترددا معاً سنة كاملة في هذه الكنيسة، وعلما كثيرين وأخذ المؤمنون هناك يسمون مسيحيين. ويظن أن بطرس أتى حينئذٍ إلى أنطاكية، وأقام كرسيه فيها فكان أسقفها

الأول. وقال بعض الآباء إنه بقي في هذه الكنيسة ست أو سبع سنين أي من سنة ٣٥ أو سنة ٣٦ للتاريخ العامي إلى سنة ٤٣ ولم يكن يقيم هناك دائماً بل كان يتردد إلى أورشليم وأعمال آسيا الصغرى وبيتينيا والكبادوك وبنطوس كما روى أوسابيوس (ك٣ فصل١ من تاريخه البيعي)، وكما يظهر من رسالته التي أنفذها إلى المؤمنين في هذه البلاد. بعد ذلك قال القديس ايرونيموس إن لوقا لم يذكر في أعمال الرسل اقامة بطرس في أنطاكية لأن ذلك كان معلوماً عند الجميع في أيامه. وقد ذكره بعد ذلك كثير من الآباء ثم ترك أنطاكية مستخلفاً فيها له القديس أوديوس، ومضى إلى رومة يقيم كرسيه في عاصمة المملكة كما تقتضيه رسالته ولعله فعل ذلك بإلهام من الله. قال أوسابيوس (ك٢ من تاريخه فصل ١٤) إن بطرس أتى إلى رومة في أيام كلود وكان ذلك سنة ٤٢ للتاريخ العامي، وقد أثبت ذلك القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير). وقد اعتقد المؤمنون منذ الأعصر الأولى أنه استمر على كرسي رومة خمساً وعشرين سنة، وذكر أوسابيوس في تاريخه (ك٣ فصل١) إن بطرس إذ كان في رومة في أيام كلود صادق فيلون اليهودي الاسكندري وكانت بينهما مفاوضات.

وعاد بطرس إلى أورشليم سنة ٤٤ للتاريخ العامي وكان هيردوس أغريبا أخذ يضطهد المسيحيين، وقتل بالسيف القديس يعقوب الكبير أخا يوحنا، ولما رأى ذلك يرضي اليهود قبض على بطرس أيضاً، وألقاه في السجن عازماً أن يقدمه للشعب بعد الفصح ليقتلوه، وكان المؤمنون يصلون إلى الله من أجله، وبينا كان نائماً بين جنديين مقيداً بسلسلتين وقف به ملاك الرب، فضرب جنبه وأيقظه قائلاً قم سريعاً. فسقطت السلستان من يديه واتبع الملاك ظاناً أنه يرى رؤيا، ولما انتهيا إلى باب الحديد الذي يفضي إلى المدينة انفتح لهما ذاته وقطعا زقاقاً واحداً، وفارقه الملاك فعلم أن الرب أرسل ملاكه وأنقذه من يدِ هيردوس، وتوجه إلى بيت مريم أم يوحنا مرقس ففرح المؤمنون به، وقص عليهم ما كان له فمجدوا الله وهو خرج ومضى إلى موضع آخر (أعمال الرسل ف١٢).

ولا نعلم أين انطلق بطرس حينئذٍ وما الذي صنعه في تلك المدة إلى أن عاد إلى أورشليم لعقد مجمع الرسل سنة ٥١. والأظهر أنه مضى إلى رومة ثانية ومنها كتب رسالته الأولى نحو سنة ٥٠ للتاريخ العامي. وقد كتب أنه دوّنها في بابل والمراد بها رومة كما فسر كثير من القدماء منهم أوسابيوس في تاريخه (ك٢

ف١٥)، وإيرونيموس (في كتابه المشاهير فصل ٨). وقد أنفذها إلى المؤمنين في بتينيا وبنطوس وغلاطية والكبادوك، وجعل كلامه فيها موجّهاً إلى اليهود المتنصرين، وإن تكلّم عن الأمم المؤمنين أيضاً. وقد كتبها باليونانية وأرسلها على يد سلوانوس ويظهر أنه هو المسمى سيلا في أعمال الرسل. وفي سنة ٥١ طرد بطرس مع اليهود من رومة بأمر كلود الملك فأتى أورشليم، وعقد مجمعاً مع الرسل، وكان الداعي إليه قلق حصل في أنطاكية لأن المؤمنين من اليهود كانوا يريدون أن يكرهوا المتنصّرين من الأمم على أن يختتنوا ويلتزموا بحفظ سنة موسى، ولما عرض بولس وبرنابا هذا الأمر على الرسل عقد المجمع تحت رئاسة بطرس، واجتمع فيه الرسل والكهنة وجرت مباحثة طويلة. فقام بطرس وقال إن الله اختاره لتسمع الأمم من فمه كلمة الإنجيل، وقد أعطوا الروح القدس كما أعطيناه ولا موجب لوضع نير على رقاب التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحتمله. ثم قام يعقوب قائلاً قد شرح سمعان كيف افتقد الله الأمم وإنه يرى ألا يثقّل على من يرجع إلى الله منهم بل أن يرسل إليهم أن يمتنعوا من نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم. فأجمع رأيهم على ذلك وكتبوا كتاباً إلى المؤمنين من الأمم في أنطاكية وسورية وكيليكية حاوياً قرار مجمعهم، وخلاصته أنه قد رئي للروح القدس ولنا أن لا نضع عليكم ثقلاً فوق هذه الأشياء التي لا بد منها، وهي أن تمتنعوا مما ذبح للأصنام ومن الدم والمخنوق والزنى، فإذا صنتم أنفسكم من هذه أحسنتم فيما فعلتم كونوا معافين. وأرسلت هذه الرسالة المجمعية على يد يهوذا وسيلا وتوجها مع بولس وبرنابا إلى أنطاكية، وأذاعا الرسالة ففرح المؤمنون بها (أعمال الرسل ف١٥).

ولم تكن وصية الامتناع عن الدم والمخنوق إلا موقته أمر بها الرسل حينئذٍ ليتيسر تأليف الكنيسة من أمم ويهود، وبعد مدة أتى بطرس إلى أنطاكية وكان يأكل ويشرب مع الأمم ولا يمتنع عن الأطعمة التي حظرتها سنّة موسى. ثم أتى أورشليم أناس من اليهود المؤمنين، فاعتزل بطرس عن الأكل مع الأمم مخافة أن يعيبه اليهود، وخشي بولس الرسول أن يتأول الأمم عمل بطرس بمعنى أن يكره الأمم على أن يتهوّدوا، ويخضعوا لنير السنّة، وهذا يعود بالنقض على ما رسموه في المجمع الأورشليمي. وأنبأنا بولس أنه وبّخ بطرس على ذلك قائلاً: «فلما تقدم كيفا إلى أنطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً» (غلاطية فصل٢ عدد١١) وعلل ذلك بما مرّ.

قد رأى بعض المفسرين أن كيفا الذي ونّبه بولس هو غير بطرس المسمّى كيفا أو الصفا، ورأى آخرون أن الخلاف بينهما كان ظاهرياً ليثبتا للأمم محافظتهما على ما سنه مجمع أورشليم، على أنه وإن حسبنا تونيب بولس لبطرس على ظاهره، وعلى اطلاقه فلا يمس رياسته بشيء، ولا يظهر منه أن بطرس أثمّ بذلك بل ان بولس لأنه شريكه في التبشير وفي المحاماة عن الإيمان نبهه إلى أن تصرفه في ذلك يفضي إلى تأويلات سيئة من جانب الأمم، وقد أراد الله أن ينبه بطرس هذه المرة بفم شريكه في البشارة مكان أن ينبهه إلى ذلك بالرؤيا كما كان في يافا. وبطرس تقبل هذه النصيحة بالتواضع ولم يرد أن يعتمد على سلطته في تبرئة عمله. وقال البابا بيلاجيوس إن الكنيسة كلها تحترم التواضع الذي أذعن به بطرس لتونيب بولس. وكان بين القديسين أغوسطينوس وإيرونيموس مباحثة طويلة في شأن تونيب بولس لبطرس لا محل لتفصيلها هنا.

ولم ينبئنا الكتاب ما عمله بطرس منذ سنة ٥١ التي عقد فيها مجمع أورشليم إلى سفره الأخير إلى رومة قبيل استشهاده. فقد عرف حينئذٍ بوحي أن زمان موته قريب. فكتب إلى المؤمنين الذين تنصّروا على يده رسالته الثانية مذكّراً لهم بالحقائق التي أرشدهم إليها، وأن يثبتوا بها ويمتدح فيها رسائل بولس، ويقول إنها لا تخلو من غموض. وقد بلغ بطرس وبولس إلى رومة كأنّه في وقت واحد نحو سنة ٦٥ وصنعا آيات كثيرة وآمن على أيديهما كثيرون وروى القديس أمبروسيوس (خطبة ٦٨) إنَّ الوثنيين استاءوا كثيراً مما أجراه بطرس على سيمون وصمموا أن يقتلوه. فألح المؤمنون على بطرس أن يخرج من رومة وخرج، ولما انتهى إلى باب المدينة ظهر له المسيح داخلاً في الباب، فسأله أين تمضي ياسيدي؟ فأجابه أتيت رومة لأصلب ثانية. ففهم بطرس أن المسيح يريد أن يمجده بموته، فعاد وقصّ على المؤمنين رؤياه، وقُبض عليه بأمر نيرون وأودع السجن الذي يدل على محله في رومة. ويقال إنه بقي فيه تسعة أشهر وأخيراً صلب في رومة في الـ ٢٩ من حزيران سنة ٧٦ وفي ذلك اليوم قطع رأس بولس في المحل الذي صلب فيه بطرس. وحقق أوسابيوس في تاريخه (ك٣ فصل١)، وفم الذهب (في خطبة ٦٦) وغيرهم أن بطرس علق على الصليب منكساً بحسب طلبه من صالبيه. وقال القديس أمبروسيوس إنه سأل ذلك مخافة أن يظن أنه يتطلب الفخر بصلبه كالمسيح، وليزيد

ألم عذابه. وقال بعضهم أنه دفن أولاً في مدافن بعيدة عن رومة ميليين ثم نقل جسده إلى الواتيكان.

عد ٥٠٥

رئاسة بطرس على الرسل والكنيسة جمعاء

إنَّ كل من تبصَّر في ما رويناه في ترجمة بطرس عن الأناجيل، وكتاب أعمال الرسل بباصرة لم يعمُّها العناد، وبصيرة لم يستغوها الضلال، قضى بأنّ المسيح أقام بطرس رئيساً لرسله وللكنيسة التي أنشأها في العالم. فإذا استقرينا كلام الأناجيل في الرسل نراه ذكر قبل جميعهم مع أنه لم يكن أكبر سناً، ولا أقدم دعوة من جميع الرسل، ونراه مقدامهم في كل عمل خطير عملوه، ولا نرى المخلِّص طوّب غيره من الرسل أو عامله كما عامل بطرس في مواقع عديدة. ورغبةً في الايجاز نقتصر على أربع فقر من الأناجيل تثبت رياسة بطرس هذه اثباتاً قاطعاً، ولا يمكن صرفها إلى غير هذا المعنى إلَّا بتعسّف ظاهر، ومكابرة ذميمة. فأولى هذه الفقر تغيير المخلِّص اسم بطرس وتسميته منذ دعوته إلى الرسالة كيفا أي الصخرة. فلِمَ لم يغيّر اسم غيره من الرسل؟ ولِمَ سمّاه صخرة أو صفا لا باسم آخر؟ فما ذلك إلَّا لينبئنا منذ حينئذٍ أنه سيختاره ليكون صخراً يؤسس عليه كنيسته. وقد أتمّ ذلك كما يظهر من الفقرة الثانية التي هي الآيات الواردة في بشارة متى (فصل ١٦) حيث سأل المخلِّص تلاميذه قائلاً من تقول الناس أنّ ابن البشر هو؟ فقالوا قوم يقولون يوحنا وآخرون ايليا وآخرون ارميا. وقال لهم وأنتم من تقولون؟ أجاب بطرس قائلاً أنت هو المسيح ابن الله الحيّ. فقال له يسوع: «طوبى لك يا سمعان ابن يونا فإنه لا لحم ولا دم أظهر لك ذلك بل أبي الذي في السماء، وأنا أقول لك أنك أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، ولك أعطي مفاتيح ملكوت السماء، وكل ما ربطته في الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما حللته في الأرض يكون محلولاً في السماء».

ففي هذه الآيات استعارات ناطقة بأنّ المخلِّص أراد أن يجعل بطرس رئيساً لكنيسته أولاها استعارة الصخرة. فإنّ المخلِّص لم يشأ أن يضرب أطناب مظلّة أو أن ينصب خباءً، بل شاء أن يقيم بناءً راسخاً على صخر مؤبداً لا تزعزعه الأيام. وهذا

البناء معنوي لا مادي فاستعار كلمة صخرة لبطرس الذي جعله أساساً لهذا البناء الأبدي قائلاً أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي مدينة الخلاص، فلا يقوى عليها المقاومون من كفَرة أو هراطقة عبّر عنهم بأبواب الجحيم. والثانية استعارة المفاتيح إذ قال له: «ولك أعطي مفاتيح ملكوت السماء». فملكوت السماء هو كنيسته، وقد تواتر تعبيره عنها بذلك. وما معنى تسليم مفاتيح دار إلى رجل أو تسليم مفاتيح مدينة إلى ملك أو والٍ غير تسليطهما عليهما واطلاق التصرّف لهما بهما؟ ولم يفهم القدماء ولا الحدثاء ولا يفهم الآن كل منصف بتسليم هذه المفاتيح إلّا هذا المعنى، وهذا بديهي يأبى كل تأويل. والاستعارة الثالثة هي استعارة الحل والربط لسلطة بطرس في ملكوت المسيح الذي هو الكنيسة بحيث أنّ كل ما يربطه بطرس فيها يكون مربوطاً في السماء، وكل ما يحلّه فيها يكون محلولاً في السماء. أجل إنّ المخلّص عبّر بهذه الاستعارة نفسها أيضاً عن السلطة التي منحها لرسله، ليحلّ كلٌّ منهم ويربط في الكنائس الخصوصية التي يدبّرونها على أنّ قوله لهم شامل بطرس أيضاً إذ وجّهه إلى جميعهم؛ أما قوله لبطرس فلا يشملهم لأنه خصّه به، والمقام يقتضي أن يزيده شيئاً عليهم مكافأة له على اقراره بلاهوته دونهم، فلا يستقيم معنى هذا الاختصاص إلّا بأنه منحه سلطة الربط والحلّ العليا على جميعهم وعلى الكنيسة كلها. ولِمَ لا نراه قال مثل ذلك لغيره منفرداً؟ فضلاً عن تأييد لاستعارتين الأولى والثانية لهذا المعنى الذي أجمع عليه الآباء والعلماء والمفسرون الكاثوليكيون.

وما أبطل تمحّل بعض الهراطقة وجهاً ليغشوا سطوع هذه الآيات بقولهم أنّ المخلّص قال لبطرس على ما في اليونانية، واللاتينية أنت هو بطرس وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي. وإنه يريد بالصخرة نفسه فكيف يلتحم هذا التأويل مع باقي كلام المخلّص الذي أراد أن يكافئ بطرس على اقراره بلاهوته. وما يكون معنى قوله أنت بطرس أيحتاج بطرس أن يعلم أنه بطرس؟ ولِمَ عنى المخلّص قوله بأنه الصخرة إنما هي نفسه أضاقت عليه المذاهب في التعبير عن هذا المعنى؟ وهب تمحّلهم للاستعارة الأولى صحيحاً فما يصنعون بالاستعارة الثانية؟ لك أعطي مفاتيح ملكوت السماء هذا وإنّ المخلّص خاطب بطرس بالسريانية ܐܢܬ ܗܘ ܟܐܦܐ ܘܥܠ ܗܕܐ ܟܐܦܐ ܐܒܢܝܗ ܠܥܕܬܝ (أنت كيفا وعلى هادا كيفا ابنا لعيدات) ولِمَ

بدّل اسمه وسماه كيفا؟ وحفظت جميع الترجمات هذه اللفظة على أصلها مفسّرة إياها بصخرة أو صفاة.

الفقرة الثالثة ذكرها لوقا (فصل ٢٢) وهي أنّ الرب قال لسمعان: «هوذا الشيطان سأل أن يغربلكم مثل الحنطة لكني صلّيت لأجلك لئلا ينقص إيمانك. وأنت متى رجعت فثبّت اخوتك». وفي هذه الآية بيّنتان دامغتان: الأولى أنه صلّى لأجل بطرس لئلا ينقص إيمانه فلِمَ يخصّه بالصلاة لئلا ينقص إيمانه إلّا لأنه جعله راساً للرسل والكنيسة؟ وحتى إذا ثبت الرأس والأساس أمن على الأعضاء من الزيغان، وعلى البناء من السقوط كما فسّر أشهر الآباء. وهب أنه أشار بذلك إلى جحود بطرس له كما فسّر بعض الهراطقة خاصة فيبقى البرهان على ثباته وقوّته. فلِمَ هذه العناية بأنه لا ينقص إيمانه إلّا لأنه أس الكنيسة ويهمه أمره وأمرها، وهو وإن جحد المخلّص بلفظه فلم يجحده بقلبه ولم يكن بعد رأس الكنيسة، وجحوده لم يجعل المسيح يخلف وعده له؟ وقد رأيناه بعد ذلك قبيل صعوده يقول له: ارعَ خرافي ارعَ نعاجي. والبيّنة الثانية قوله: «وأنت متى رجعت فثبّت اخوتك» فلمن من الرسل قال المخلّص مثل هذا الكلام؟ ولِمَ يأمره أن يثبّت اخوته إن لم يكن أقامه رئيساً لهم؟ وقد قال له هذا وهو ينذره بجحوده ويرى ما يستحوذ عليه من الضعف. فلو لم يكن عازماً أن يجعله الرئيس بعده لكان الأولى أن يقول مثل هذا الكلام ليوحنا أو غيره من الرسل الذين لم يجحدوه.

وبقيت الفقرة الرابعة وهي بيّنة جليّة مفحمة رواها يوحنا الذي رأى بطرس يدبر الكنيسة مدة نحو من ثلاثين سنة، وعاش بعده نحواً من ثلاثين سنة أخرى. ورأى خليفتيه الأوّل والثاني يدبران وهما في روما الكنيسة كلها. فإنه روى (في الفصل ٢١ وهو الأخير من بشارته) إنّ المسيح ظهر قبل صعوده لرسله وهم يصيدون في بحيرة طيبارية وأمرهم أن يلقوا شبكتهم من جانب السفينة الأيمن وضبطوا سمكاً كثيراً. ولما علم بطرس أنه الرب طرح نفسه في البحر آتياً إليه وبعد أن تغدوا سأل يسوع بطرس ثلاثاً: يا سمعان أتحبني أكثر من هؤلاء؟ فأجابه بطرس ثلاثاً نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك فقال له يسوع في المرة الأولى: «ارعَ خرافي». وفي الثانية «ارعَ غنمي». (على ما في نسختنا السريانية وفي اللاتينية ارعَ خرافي أيضاً) وفي الثالثة «ارعَ نعاجي». فالمسيح أنجز بقوله هذا وعده لبطرس أن يجعله رأساً للكنيسة بنوع لا يحتمل زيادة في التصريح. فلِمَ سؤاله له ثلاثاً إن كان يحبه أكثر من باقي

تلاميذه إلّا لبيان أهمية ما يوليه إياه، كما يسأل الكاهن المعتمد ثلاثاً هل يعترف بالله؟ وكما يأمر المتناول أن يقرّ ثلاثاً أنه ليس أهلاً لتناول جسد ابن الله. وفسّر بعضهم أنه سأله ثلاثاً إن كان يحبه ليمحو جحوده ثلاثاً، ويعده لقبول الموهبة العظمى أن ينوب عنه في تدبير شؤون الكنيسة بعد صعوده. قال القديس امبروسيوس (في تفسيره بشارة لوقا فصل ١٠): «إنه لم يسلم إليه خرافه فقط كما في المرة الأولى، ولا غنمه فقط كما في المرة الثانية بل نعاجه أيضاً. وهذا يبيّن أنه ليس راعياً للخراف فقط بل راعي الرعاة أيضاً». وكذلك أجمع الآباء والمفسرون الكاثوليكيون على أنّ المراد من ذكر المسيح الخراف والنعاج إنما هو أن يبيّن أنّ المؤمنين أجمعين من رؤساء ومرؤوسين خاضعون لرياسة بطرس وسلطته.

وإذا أضفت إلى الآيات السالفة ما جاء في أعمال الرسل عن اهتمام بطرس باختيار خلف ليهوذا، وافتتاحه باب الإنذار لليهود، وعن الرؤيا له ليفتح باب الإيمان للأمم، وتقدمه في مجمع الرسل في أورشليم، وتصدّره أبداً في الكلام، ومجيء بولس إليه بعد ارتداده ليزوره، واقامته عنده خمسة عشر يوماً، ولم يرَ غيره من الرسل إلّا يعقوب (غلاطية فصل ١ عد ١٨). وعوده إليه بوحي ليطلعه مع غيره من الرسل على البشارة التي ينادي بها لئلا يكون سعى عبثاً (غلاطية فص ٢ عد ٣) علمت أنّ هذا المبحث من أوضح المباحث في «الكتاب»، وإنّ هذه العقيدة التي هي من أسس التعليم المسيحي ثابتة فيه ثبوت أساس وضعه الله ليقيم عليه كنيسته. وقد أجمع عليها الآباء والعلماء الكاثوليكيون الغربيون والشرقيون من القرن الأول إلى الآن، ولا ينكر الهراطقة المنفصلون عن وحدة الكنيسة صحة تعليم الآباء والعلماء الذين تقدّموا ظهور بدعتهم أو انفصالهم، بل ينزلون أقوالهم منزلة القواعد والدعائم للدين الصحيح. وهم يصرّحون ويحققون رياسة بطرس على الرسل والكنيسة كلها. وكل ما أدى المنفصلين تنقيبهم في كتب هؤلاء الآباء والعلماء إنما هو وجدانهم في بعضها عبارات قليلة ملتبسة أو تتحمل معنيين أو تقبل التعسّف، فردّ الكاثوليكيون مزاعمهم بعبارات أخرى صريحة لأولئك الآباء أنفسهم تبيّن حقيقة تعليمهم وتخجل المتعنتين.

إنّ بعض البروتستانت المتأخرين لما ضاقت بهم الحيَل عن إنكار رئاسة بطرس لجأوا إلى زعم خالفهم فيه كل من تقدّمهم من الكاثوليكيين وهراطقة ووثنيين أيضاً. فإنهم زعموا أنّ بطرس الرسول لم يمضِ إلى روما، ولم يقم كرسيه فيها، وينقض

زعمهم هذا زعماؤهم أنفسهم نخصّ بالذكر منهم كلونيوس (في مؤلفه شرح تعليمه ك ٤ جزء ٦ فصل ١٥)، لبنيس (في المذهب اللاهوتي). ويثبت هذه الحقيقة الكتاب والتقليد والآثار. أما «الكتاب» فقد صرّح لنا أنّ بطرس كتب رسالته الأولى في بابل (بطرس آ فصل ٥ عد ١٣). ولا يمكن أن يكون المراد ببابل هذه عاصمة الكلدان إذ لم يكن فيها مسيحيون ولا كنيسة في القرن الأول. بل حقق سترابون (ك ١٦) وبلين (ك ٦ فصل ٢١) إنها كانت حينئذٍ خربة وكأنها أرض قفار. وأنبأنا يوسيفوس (ك ١٨ من تاريخ اليهود فصل ٩) إنّ نفراً من اليهود أرادوا الاقامة فيها في تلك الأثناء، فطردوا منها ولا يراد بها بابل في مصر لأنّ هذه لم تكن مدينة ولا قرية بل حصناً للجنود الرومانيين، ولا أثر ولا شاهد على أنّ بطرس بشّر في الإنجيل في مصر أو في بلاد الكلدان. فتعيّن إذاً أن يكون المراد ببابل روما عاصمة الرومانيين. سماها الرسول بهذا الاسم تحرّزاً في ابّان الاضطهاد ولمضارعتها بابل في عظمتها وترفها وشرّها، كما سماها يوحنا بابل في رؤياه (فصل ١٤ عد ١٨ وفصل ١٦ عد ١٩ وفصل ١٧ عد ٥ وفصل ١٨ عد ٢)، ودلّ عليها دلالة واضحة بقوله فصل ١٧ أنّها على سبعة جبال، وأنها المدينة العظمى السائدة على جميع ملوك الأرض، وأنها سكرى من دم القديسين ودم شهداء يسوع. وكما احترز بولس في تعبيره عن نيرون بالأسد بقوله: «نجوت من فم الأسد» (تيموتاوس ٢ فصل ٤ عد ١٧).

أما التقليد المثبت هذه الحقيقة فهو عام شرقاً وغرباً عند المسيحيين وغير المسيحيين، ومتّصل بأيام الرسل، ومجمع عليه إلى الأيام التي تمحل البروتستانت فيها هذا الزعم الواهن. فالقديس اكليمنضوس البابا يذكر القرنثيين في رسالته الأولى التي كتبها إليهم بعد ثلاثين سنة من موت بطرس وبولس بالشهداء العديدين الذين نالوا الأكليل في روما وفي مقدمتهم بطرس وبولس والقديس اغناطيوس الذي صار اسقفاً على انطاكية ٦٨ يذكر الرومانيين بمثل ذلك في رسالته إليهم. وبابيا تلميذ يوحنا الرسول وهاجيسبوس (وقد كان في أواسط القرن الثاني)، والقديس ديونسيوس اسقف قرنثية (كان في عهد مرقس اوريليوس في القرن الثاني)، كتب إلى الرومانيين أنّ القرنثيين والرومانيين شركاء في سماع بشرى الإيمان من بطرس وبولس، فكلاهما دخلا مدينتنا قرنثية، وأرشدانا بازرين بزور تعليم الإنجيل ثم مضيا معاً إلى روما؛ وإذ كانا يرشدانكم كذلك تجرعا مرّ الاستشهاد في وقت واحد.

ذكر ذلك أوسابيوس (في تاريخه ك ٢ فصل ٢٥) وقال إنّ قتل الرسولين بطرس وبولس في روما تثبته اثباتاً قاطعاً آثارهما الواضحة التي ترى في مدافن روما إلى الآن. والقديس ايريناوس تلميذ بوليكربوس واسقف ليون زار في القرن الثاني روما، وعرف بعض المعاصرين لبطرس الرسول، وأثبت لنا هذه الحقيقة (في ك ٣ فصل ١). وغايوس الذي كان في مبادئ القرن الثالث. قال في كتابه في ردّ مزاعم بركليوس أنه يمكنه أن يدلّ على مدفنَي الرسولَين في روما (ذكره اوسابيوس في تاريخه ك ٢ ف فصل ٢٥). وترترليانوس الذي زار روما سنة ٢٠٤ صرّح بقتل نيرون الرسولين في روما في كتابه في سقوط دعوى المخالفين (فصل ٣٦). واكتفى بذكر هؤلاء الآباء الذين كانوا في القرنين الأول والثاني ومبادئ الثالث عن ذكر شواهد غيرهم من الآباء والعلماء التي لا تحصى ولا سيما هذا الكتاب، بل إنّ المؤرخين المسلمين صرّحوا بذلك منهم ابن خلدون (ك ٢ صفحة ١٤٧) حيث قال: «إنّ الذي بعث من الحواريين بطرس ومعه بولس» إلى أن يقول: «أما بطرس كبير الحواريين وبولس اللذان بعثهما عيسى صلوات الله عليه إلى روما» وقد نال بطرس اكليل الشهادة سنة ٦٧ على الأصحّ عمره سبعون أو خمس وسبعون سنة.

ومن الآثار في الحمامات المعروفة بحمامات نوفاتوس بن بودنس أحد رجال الندوة كانوا يدفنون فيها الشهداء خفية، ثم أقيمت فوقها كنيسة على اسم القديستين براكسيدا وبردنتيانا بنتَي بودنس الشهيدتين. وتحت أرضها معبد يسمى معبد الراعي الصالح يحقق التقليد أنه كان ثمة مخدع بطرس الرسول. وهناك ينبوع ماء يقولون أنّ الرسول كان يعمّد بمائه، ومذبح صغير من خشب قديم كُتب عليه «على هذا المذبح كان القديس بطرس يقدّم جسد الرب ودمه لأجل زيادة عدد المؤمنين». (ذكره كبريانوس دورات في تاريخ الآثار درس ٦) ومن الآثار الموقرة في روما من أقدم الأيام المحل المعروف قديماً بسجن مار مرتين حيث الآن كنيسة سجن القديس بطرس. ويدل هناك على الحائط الذي كان الرسول يستند إليه وهو مغلل وعلى بركة الماء التي كان يستقي منها. وقد عمّد بمائها بروشاس ومرتينيانوس؛ ومن أشهر هذه الآثار مدفنا الرسولين بطرس وبولس المقامان على محل استشهادهما خارجاً عن أسوار روما. وكانت جثتاهما أولاً فيهما ثم نُقلتا إلى الواتيكان. وهناك أيضاً مدفن القديسة بطرونلاّ ابنة القديس بطرس بالتبني على الراجح لأنه وإن كان مزوجاً قبل اتباعه المخلِّص فلا يُظن ولا بيّنة على أنه أخذ أهله إلى روما؛ وهذا مدفن

بنته دوميتلاّ الغنيّة التقيّة تلميذة بطرس الرسول، ودُفنت فيه بعد استشهادها (ذكر كل ذلك كبريانوس السابق ذكره). وكل هذه الأماكن يحجّ إليها المؤمنون ويتبرّكون بها منذ صدر النصرانية.

وقد وُجدت صورة على زجاج نُقشت في القرون الأولى ترى فيها رسم الرسولين بطرس وبولس يسندان الكنيسة من جانبيها ممثلة بعمود كما سماها بولس عمود الحق. وفي أعلاها شعار المسيح الذي هو الصليب. فبولس على الشمال وبيده كتاب رسائله وبطرس على اليمين وبيده ملفة وتجاهه ملفة أخرى يشار بهما إلى رسالتيه.

وقد اتحفتنا مخابئ روما بكثير من صوَر الرسولين بطرس وبولس وأعلمتنا بما كانت هيئتهما، فإنّ نوطاً من الصفر نُقشت عليه صورتا الرسولين في القرن الثالث وكثيراً من الصوَر المنقوشة على زجاج مذهّب دلتنا بموجب حكم مصوّرين خبيرين على ما كانت سمات هيئتهما. فكان بطرس طويل القامة مستقيماً ورأسه وذقنه مكسوين بشعر مجعّد قصير، ووجهه مستديراً، وحاجباه مقوسين وأنفه طويلاً أقنى، وأما بولس فكان قصير القامة، وفيها حدبة أسلع الجبهة، طويل اللحية، بيضاوي الوجه مستقيم الأنف طويله. وقد ورد في كتاب تراجم القديسين عند الروم وعند طائفتنا المارونية ذكر مثل هذه السمات لهيئة الرسولين.

عد ٥٠٦

بولس الرسول

إنّ بولس وكان اسمه أولاً شاوول هو من سبط بنيامين وُلد في ترسيس، وروى القديس ايرونيموس أنّ أصل أهله من الجش في الجليل. وقد امترى في ذلك كاران في كلامه على الجش استمساكاً بأنّ بني بنيامين كانت مواطنهم في اليهودية لا في الجليل حيث الجش، على أنه مما لا يتردد فيه أنّ بني إسرائيل لا سيما بعد عودهم من الجلاء لم يحفظ اسباطهم مساكن أجدادهم الأولى. فيوسف ومريم كانا من سبط يهوذا ومساكن آبائهم اليهودية. وقد صرّح الإنجيليون أنهما كانا يسكنان الناصرة في الجليل. وقد وُلد بولس قبل ميلاد المخلّص بسنتين أو ثلاث على القول أنه ناهز السبعين عند استشهاده. وكانت له المدنية الرومانية لأنّ اغوسطوس منح

هذا الحق لوجهاء ترسيس بمكافأة عن ميلهم إليه. وقد أرسله والده منذ صبوته إلى أورشليم حيث درس الشريعة لدى جمليئيل (ابركسيس فصل ٢٢ عد ٣) العالِم الشهير. فنبغ في دروسه وكانت سيرته لا لوم فيها مستمسكاً بطريقة الفريسيين (ابركسيس فصل ٢٦ عد ٤ و ٥). وكان شديد الغيرة يقاوم الكنيسة مجدفاً على المسيح مضطهداً المسيحيين (تيموتاوس أولى فصل ١ عد ١٣). ولما كان اليهود يرجمون اسطفانوس كان يحرس ثياب الراجمين (ابركسيس فصل ٧ عد ٥٧). وكان ذلك سنة ٣٣ للتاريخ العامي بعد موت المخلّص ولما ثار الاضطهاد بعد ذلك على المؤمنين كان شاوول من أكبر المضطهدين لكنيسة الله كما شهد على نفسه في رسالته إلى (غلاطية فصل ١ عد ١٣). وكان يدخل البيوت ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن (ابركسيس فصل ٨ عد ٣ وفصل ٢٢ عد ٤). وقد طلب من قيافا رئيس الكهنة وشيوخ اليهود رسائل إلى اليهود المتوطنين في دمشق ليقبض على المسيحيين فيها. ويسوقهم موثقين إلى أورشليم.

وفيما هو منطلق وقد قرُب من دمشق أبرق حوله بغتة نور من السماء فسقط على الأرض. وسمع صوتاً يقول له: شاوول، شاوول لِمَ تضطهدني؟ فقال من أنت يا رب؟ قال أنا يسوع الذي أنت تضطهده إنه لصعب عليك أن ترفس المهماز. فقال له وهو مرتعد يا رب ما تريد أن أصنع؟ فقال له قم وادخل المدينة وهناك يقال لك ما تصنع. فنهض وعيناه مفتوحتان ولا يُبصر فاقتاده الرجال الذين معه إلى دمشق. ولبث ثلاثة أيام لا يبصر ولا يأكل ولا يشرب إلى أن أوحى الله إلى تلميذ بدمشق اسمه حننيا أن قمْ انطلق إلى شاوول في الزقاق المسمى القويم. فقال حننيا للرب قد سمعت من كثيرين كم من الشرّ صنع هذا الرجل بالقديسين. فقال له الرب انطلق فإني جعلته إناءً مختاراً ليحمل اسمي أمام الأمم والملوك وبني إسرائيل. فمضى حننيا إليه ووضع يديه عليه فعاد بصره وقام واعتمد وأخذ طعاماً وتقوّى (ابركسيس فصل ٩ عد ١ فصاعداً).

إنّ بولس بعد أن بقي أياماً في دمشق يكرز في المجامع مضى إلى بلاد العربية القريبة من دمشق ثم عاد إلى دمشق (غلاطية فصل ١ عد ١٧). وكان يتردد بين دمشق وبلاد العرب التي يرجّح أنّ المراد بها حوران (بوجولا في تاريخ أورشليم). مدة ثلاث سنين يستعدّ فيها لمقاومة أعداء الرب مختلياً تارة كموسى وايليا، وواعظاً تارة. ولما رأى اليهود نجاحه في التبشير وارتداد الكثيرين إلى الإيمان على يده ائتمروا

على قتله. واتفقوا مع والي دمشق عليه وكانوا يرصدون الأبواب نهاراً وليلاً ليقتلوه. وكُشفت مكيدتهم فأخذه التلاميذ ليلاً ودلوه من السور في سلّ وكان ذلك لسنة ٣٧ للتاريخ العامي. وقد ذكر ذلك في رسالته الثانية إلى قرنثية (فصل ١١ عد ٣٢). فقال: «كان الحاكم في دمشق تحت أمرة ارتياس (الحارث) الملك (أي ملك النبطيين) يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض عليّ، فدُليت من كوّة في زنبيل من السور ونجوت من يديه». وبعد أن نجا انطلق إلى أورشليم ليزور بطرس وأقام عنده خمسة عشر يوماً. ولم يرَ غيره من الرسل سوى يعقوب أخي الرب كما قال عن نفسه في رسالته إلى الغلاطيين (فصل ١ عد ١٨ و ١٩). وأما باقي الرسل فكانوا يخافون منه ولم يصدقوا أنه تلميذ إلى أن أخذه برنابا ودخل به عليهم وبيَّن لهم ما أصابه في طريق دمشق وكيف آمن وبشّر فيها بجرأة ففرحوا به.

وأخذ بولس بعد ذلك يبشّر اليهود والأمم وكان كلامه شديداً مفحماً. فالتمس اليونانيون أن يقتلوه فأحدره المؤمنون إلى قيصرية ثم أرسلوه إلى طرسوس. (ترسيس) موطنه (ابركسيس فصل ٩ عد ٢٧) ولبث هناك مبشراً نحواً من خمس أو ست سنين أي من سنة ٣٧ إلى سنة ٤٣ م. ولما كان الرسل أرسلوا برنابا إلى انطاكية ووجد عدد المؤمنين كثيراً فمضى إلى ترسيس وأتى ببولس إلى انطاكية ومكثا فيها سنة كاملة يعلّمان المؤمنين (ابركسيس صفحة ١١ عد ٢٥). ولما حصلت مجاعة شديدة في اليهودية جمع المسيحيون في انطاكية ما تيسّر لهم خدمةً لاخوتهم في اليهودية، وأرسلوا ذلك إلى أورشليم على أيدي برنابا وشاوول (ابركسيس صفحة ١١ عد ٢٨).

وعاد شاوول وبرنابا إلى انطاكية وأخذا معهما يوحنا الملقّب مرقس. ولم يمضِ زمان إلّا وأعلمهما الروح القدس بواسطة الانبياء والمعلمين الذين كانوا في هذه المدينة منهم برنابا وسمعان الملقّب بالأسود، ولوقيوس القيرواني ومناين أن يمضيا ليبشرا في مجال أخرى، فأخذ المؤمنون يصومون فأوحى إليهم الروح القدس أن يفرزوا شاوول وبرنابا للعمل الذي دعاهم إليه. فصاموا حينئذٍ وصلّوا ووضعوا أيديهم عليهما وصرفوهما ليبشرا حيث يلهمهما الروح القدس. قال فيكورو (في الموجز الكتابي مجلد ٤ عد ٥١٦) ما ملخّصه: «إنّ وضع اليد على بولس وبرنابا لم يكن سرّ التثبيت لأنّ هذا السرّ كان يُعطى عادة بعد المعمودية، ولم يكن يمكنهما أن يعظا ولا أن يقدما ذبيحة أو يشتركا فيها كما كانا يصنعان إن لم يكونا مثبتين،

وحاصلين على الدرجات المقدّسة. ولم يكن ذلك أيضاً الرسالة أو الدعوة لأنّ الرسالة ليست درجة.والدعوة لا تكون إلّا من الله، وبولس قد كان نال ذلك قبلاً من الله، فإذاً لم يكن وضع الأيدي عليه وعلى برنابا في انطاكية إلّا ليحوزا الأسقفية أي السلطان الأسقفي، الذي كانا يحتاجان إليه لتثبيت المؤمنين واقامة الكهنة والأساقفة». وقال كلمت (في معجم الكتاب) ويظهر أنه نحو هذا الزمان أي نحو سنة ٤٤ م خُطف بولس إلى السماء الثالثة فرأى ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر كما قال في رسالته الثانية إلى قرنثية (فصل ١٢ عد ٢ وما يليه).

فانحدر شاوول وبرنابا أولاً إلى سلوقية (سويدية) ومن هناك أقلعا إلى قبرص. فانتهيا إلى سلامينا وبشّرا بكلمة الرب في مجمع اليهود. وكان معهما يوحنا مرقس يخدمهما ثم اجتازا في الجزيرة كلها إلى بافس (الباف) فصادفا رجلاً ساحراً اسمه بريشوع مع الوالي سرجيوس بولس. وكان هذا رجلاً ذكياً أديباً فاستحضر برنابا وشاوول وطلب أن يسمع كلمة الله فقاومهما الساحر. وحاول أن يصرف الوالي عن الإيمان فقال له شاوول يا ممتلئاً من كل مكر وخبث وعدو كل برٍ ها يد الرب عليك فتكون أعمى لا تُبصر الشمس إلى حين. فوقع عليه في الحال ظلمة وطفق يجول ملتمساً من يقوده بيده، ولما رأى الوالي ذلك آمن متعجباً من تعليم الرب (ابركسيس فصل ١٣ عد ١ إلى ١٣).

قد ندّد بعض الجاحدين قبلاً بالقديس لوقا كاتب سفر أعمال الرسل بوصفه سرجيوس بولس بكلمة انتيباتوس اليونانية بمعنى والٍ مع أنّ الرومانيين كانوا قسموا أقاليم المملكة بين العاهل والندوة. فالولاة في الأقاليم المختصة بالعاهل يسمّون يوسباتوس. والولاة في الأقاليم المختصّة بالندوة يسمّون انتيباتوس. وقالوا إنّ قبرص كانت تخصّ العاهل فقد غلط لوقا بوصفه واليها بانتيباتوس وكان حقه أن يصفه بيوسباتوس. على أنّ الاكتشافات الحديثة صححت رواية لوقا، وأخجلت المنددين إذ وُجدت في قبرص مصكوكات نُقش عليها اسم يوليوس كردوس واسم اتيوس باسوس والي قبرص سنة ٥١ و ٥٢ حين زيارة الرسول قبرص. والواليان يوصفان بانتيباتوس. ووُجدت قطعة أخرى نُقش عليها من جهة في اللاتينية اسم كلود قيصر ومن الجهة الأخرى «سكة القبرصي في أيام كومينيوس بركلوس انتيباتوس. وأقوى من ذلك أنّ العالِم شسنولا وجد في قبرص صفيحة من رخام نُقش عليها: «تذكرة

ابولوس لأبيه وأمه في أيام بولس انتيباتوس». فبولس هذا هو سرجيوس بولس نفسه تمجّد الله. وقد جاء في التنقيب في كتب القدماء أنّ ديون كاسيوس قال (في ك ٥٣ فصل ١٥) إنّ اغوسطوس قيصر أعطى قبرص لرجال الندوة والشعب وأخذ دلماسيا بدلاً منها، فلم يبقَ في هذا المبحث إلى الريب من سبيل (فيكورو العهد الجديد والاكتشافات).

ظنّ بعضهم أنّ شاوول ابتدأ حينئذٍ يسمى بولس لأنّ لوقا سماه بولس عند ذكر ما تقدّم ولم يعد يسميه شاوول بعد ذلك. وإنه سُمي بولس ذكراً لتنصّر سرجيوس بولس على يده. وقال القديس استر (خطبة ٨) إنه غيّر اسمه عند تنصّره في دمشق. قال فم الذهب خطبة ٢٨ في الأبركسيس إنه غيّر اسمه عند وضع اليد عليه في انطاكية وارتقائه إلى الأسقفية. وقال غيرهم إنه لم يُسمَ بولس وهو لفظ لاتيني إلّا بعد أن أخذ ينذر الأمم لا سيما الرومانيين. وقال آخرون إنه كان يسمى دائماً شاوول بولس. كما كان لكثير من اليهود اسمان أحدهما عبراني والآخر لاتيني. ومهما يكن من هذا الخلاف فلا نرى الكتاب سماه بولس إلّا بعد تنصّر سرجيوس بولس الذي كان سنة ٤٥ م.

ثم أقلع بولس ومن معه من بافس وأتوا إلى برجه (تسمى الآن اسكى قلعة سي أي القلعة القديمة) بمغيلية. وفارقهما يوحنا مرقس عائداً إلى أورشليم ثم تركا برجه وانطلقا إلى انطاكية بيسيدية (بيسيدية من أعمال آسيا الصغرى في شمالي بمفيلية). ودخلا المجمع وكلفهما رؤساؤه أن يتكلما. فقام بولس وألقى فيهم خطبة طويلة أبان فيها أنّ يسوع هو المسيح الذي بشّر به الانبياء ويوحنا المعمدان وأماته اليهود ظلماً وقام بعد ثلاثة أيام. فصغى إليه السامعون وكلفوه أن يكلمهم ثانية في السبت الآخر. ولما انقضى المجمع تبع بولس وبرنابا كثيرون من اليهود والدخلاء فوعظاهم أن يثبتوا في نعمة الله. وفي السبت أتى أكثر أهل المدينة ليسمعوا كلمة الله فامتلأ اليهود حسداً، وجعلوا يقاومون ما قاله بولس. فقال لهم بولس وبرنابا إنه كان يلزم أن يُنذر بكلمة الله لكم أولاً، وبما أنكم رفضتموها فها نحن نتوجّه إلى الأمم. ولما سمع ذلك الأمم فرحوا ومجدوا كلمة الله وآمن كل من أعدّ للحياة الأبدية وانتشر الإيمان في تلك الناحية. أما اليهود فأثاروا اضطهاداً على بولس وبرنابا وطردوهما من تخومهم فنفضا عليهم غبار أرجلهما وأتيا إلى ايقونية (ابركسيس فصل ١٣ عد ١٣ إلى ٥١).

ولما بلغا إلى أيقونية دخلا إلى مجمع اليهود وتكلما فآمن جمهور كثير من اليهود واليونانيين على أنّ من لم يؤمنوا من اليهود أثاروا الأمم وأوغروا صدورهم على المؤمنين. ومكث بولس وبرنابا زماناً طويلاً هناك والرب يشهد لصحة تعليمهما بآيات وعجائب. وانقسم أهل المدينة بعضهم مع اليهود وبعضهم مع الرسولين. وتواثب الأمم واليهود عليهما ليشتموهما ويرجموهما فهربا إلى لسترة ودربة من مدن ليكأوية (لسترة تسمى الآن خاتون سراي إلى سراي السيدة وهي شرقي قونية. ودربة تسمى الآن امبر راس وهي قريبة من لسترة. وليكأونية من أعمال آسيا الصغرى وهي في شمالي بيسيدية وغربي الكبادوك).

وكان في لسترة رجل مقعد من جوف أمه فتفرّس فيه بولس وقال له قم على رجلَيك منتصباً فوثب ومشى. ولما رأى ذلك الجموع رفعوا أصواتهم قائلين إنّ الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا. وسموا برنابا زوسا وبولس هرمس لأنه كان المقدّم في الكلام. وأتى كاهن زوس بثيران وأكاليل وأراد أن يقدمهما مع الجموع تكرمة لهما، فمزّق برنابا وبولس ثيابهما ووثبا نحو الجمع قائلين أيها الرجال لمَ تصنعون هذا نحن بشر نقبل الألم مثلكم ونبشّركم أن ترتدوا عن هذه الأباطيل إلى الله الحيّ. ولم يكفا الجموع عن أن يذبحوا لهما إلّا بجهد جاهد. ثم أتى يهود من انطاكية بيسيدية وايقونية واغروا الجموع. فرجموا بولس وجروه إلى خارج المدينة وظنّوه قد مات. غير أنه بينما كان التلاميذ محيطين به قام ودخل المدينة وانطلق في الغد مع برنابا إلى دربه فبشرا فيها وتلمذا كثيرين ورجعا إلى لسترة وايقونية وانطاكية يثبتان قلوب التلاميذ، وأقاما لهم كهنة في كل كنيسة، ثم اجتازا في بيسيدية ورجعا إلى بمفلية، وبشّرا بكلمة الرب في برجه ثم انحدرا إلى أتاليا (اضاليا)، ومن هناك أقلعا إلى انطاكية سورية من حيث كانا سافرا السنة السالفة وجمعا الكنيسة وقصا عليهم كل ما صنع الله معهما. وإنه فتح للأمم باب الإيمان (ابركسيس فصل ١٤). وكان عودهما إلى انطاكية سنة ٤٧ أو سنة ٤٨ م (فيكورو في الموجز الكتابي مجلد ٤ عد ٥١٥) وهذا هو سفر بولس الأول من انطاكية وعوده إليها.

إنّ لوقا لم يذكر ما عمله بولس بعد عوده إلى انطاكية إلى سنة ٥١ م التي حضر فيها مجمع الرسل في أورشليم، بل اقتصر على قوله أنَّ بولس وبرنابا لبثا في انطاكية مع التلاميذ مدة غير قصيرة. وعقب ذلك بذكره المنازعة التي جرت بين

بولس وبرنابا وبين القوم الذين أتوا من اليهودية على لزوم الختان. ثم ارسال بولس وبرنابا إلى أورشليم من أجل هذه المسألة وعقد مجمع الرسل هناك كما مرّ عد ٥٠٣ وعود بولس وبرنابا إلى انطاكية يعلّمان ويبشران إلى أن قال لوقا، وبعد أيام قال بولس لبرنابا أن يرجعا ويفتقدا الأخوة الذين بشّراهم في آسيا الصغرى. ورأى برنابا أن يأخذا معهما يوحنا مرقس، وخالفه بولس لأنّ يوحنا لم يذهب معهما للعمل. فأقلع برنابا إلى قبرص موطنه وأخذ معه يوحنا مرقس، واختار بولس سيلا وانطلق به فطاف سورية وكيليكيه يثبت الكنائس ويسلّم إليهم وصايا الرسل (ابركسيس فصل ١٥).

ولما انتهيا إلى دربه ولسترة وجدا تلميذاً اسمه تيموتاوس ابن امرأة يهودية مؤمنة لكن أباه يوناني. وكان مشهوداً له من المؤمنين في لسترة وايقونية فأخذه بولس معه بعد أن ختنه أحد اليهود. قال فيكورو (في الموجز الكتابي مجلد ٤ عد ٥٢٥) لم يكن ختان تيموتاوس مخالفاً لرسم مجمع أورشليم لأنّ هذا المجمع أعفى الأمم من الختان. وأثبت أنه ليس ضرورياً للخلاص لكنه لم يمنع اليهود حينئذٍ من الختان إن رغبوا فيه تعبداً أو لسبب آخر. وتيموتاوس كانت أمه يهودية وكان مزمعاً أن ينذر اليهود. وطاف بولس وبرنابا فريجية وغلاطية مثبتين الكنائس في الإيمان ومزيدين عدد المؤمنين كل يوم. والهمهما الله أن يغادرا آسيا فانحدرا إلى تراوس (المعروفة باسكى اسطمبول القديمة بين الدردنيل وازمير). وظهرت لبولس رؤيا أن وقف به رجل مكدوني يسأله أن يعبر إلى مكدونية ويغيثهم، فأيقنا بأنّ الرب يدعوهما للتبشير في اوروبا فأقلعا من تراوس تّواً إلى سموتراكية المعروفة الآن بساموتراقي. وفي الغد إلى نابلس المعروفة الآن بكافيلا في مكدونية وسارا منها إلى فيليبي (وهي فيليبية حصّنها فيلبوس الثاني ملك مكدونية وسماها باسمه). وقال لوقا: «إنها أول مدينة في أرضِ مكدونية وهي كولونية (أي جالية رومانية) ودلّت الآثار على أنها كما وصفها لوقا أعمر مدينة في مكدونية في تلك الأيام. وقد وُجدت سكة لهذه المدينة على وجهها الأول صورة كلود الملك. كُتب عليها كلوديوس قيصر. وعلى وجهها الثاني صورة هذه المدينة مكتوباً حولها كولونية يولية غالية الفيليبيين. ووجد هور وغيره صفائح أخرى من رخام تنبئ بتفصيلات أخرى كثيرة لهذه الكلونية وهي التي كتب بولس بعداً إلى أهلها. وآمنت على أيدي بولس وسيلا ليدية بياعة الأرجوان واعتمدت هي وأهل بيتها. وأتت جارية بها روح عرافة كانت تكسب

مواليها مالاً جزيلاً بعرافتها. وطفقت تمشي في أثر بولس وتصيح هؤلاء الرجال هم عبيد الله العلّي وهم يبشرونكم بطريق الخلاص. وصنعت ذلك أياماً فضجر بولس وقال للروح المستحوذ عليها إني آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها فخرج في الحال. ورأى مواليها أنه ضاع رجاء كسبهم منها فقبضوا على بولس وسيلا وقدّموهما إلى الولاة قائلين إنّ هذين الرجلين يبلبلان مدينتنا وهما يهوديان. فقام الجمع عليهما وأمر الولاة أن يُضربا بالعصي فأثخنوهما جراحاً وألقوهما في السجن مخفورين بتحرز. وعند نصف الليل كان بولس وسيلا يصلّيان فحدثت بغتة زلزلة شديدة زعزعت أسس السجن فانفتحت الأبواب كلها. وانفكّت قيود الجميع وظنّ السجّان المساجين هربوا. وهمّ أن يقتل نفسه فناداه بولس قائلاً لا تفعل بنفسك سوءاً فإننا جميعنا هاهنا. فخرّ لبولس وسيلا مرتعداً وآمن هو وأهل بيته وذووه أجمعين وأخذ الرسولين إلى بيته وأدب لهما مبتهجاً. ولما كان النهار أرسل الولاة يقولون أطلقِ ذينك الرجلين. فقال بولس لقد جلدونا جهاراً من غير أن يُقضى علينا ونحن رومانيان والقونا في السجن أفالآن يخرجوننا سراً؟ فليأتوا هم أنفسهم ويخرجونا. ولما سمع الولاة أنهما رومانيان خافوا وأقبلوا إليهما متضرعين أن يتحوّلا عن المدينة فذهبا ودخلا بيت ليدية وعزيا المؤمنين وانطلقا (ابركسيس صفحة ١٦).

قد انتهى بولس وسيلا من فيلبية إلى تسالونيكي، وكان هناك مجمع لليهود فدخله بولس على عادته، وبشّرهم ببشارة المسيح ثلاث سبوت متتالية. فآمن بعض اليهود وانضمّ جمهور كبير من اليونانيين ومن النساء الشريفات إلى بولس. فأخذت باقي اليهود الغيرة الكاذبة، واتخذوا رجالاً أشراراً من أهل السوق، وبلبلوا المدينة وهجموا على بيت ياسون الذي كان الرسولان فيه طالبين أن يُخرجوهما إلى الشعب. ولما لم يجدوهما جرّوا ياسون وبعض المؤمنين إلى ولاة المدينة يصيحون أنّ هؤلاء الذين فتنوا المسكونة قد حضروا إلى هنا يقولون بملك آخر غير قيصر. فأخذ الولاة كفالة على ياسون والباقين وأطلقوهم. وأرسل المؤمنون بولس وسيلا ليلاً إلى بيرية (وهي فارية الآن في ولاية تسالونيك). إنّ قول لوقا أنّ الثائرين جرّوا ياسون وبعض المؤمنين إلى ولاة المدينة هو في اليونانية إلى بوليترك المدينة، وهذه الكلمة لا وجود لها في كتب المؤلفين القدماء بهذا المعنى. وكان وضعها يحسب غلطاً لفظياً إلى أن جاءت الإكتشافات الحديثة مثبتة صحة رواية لوقا. فقد وُجدت في سالونيك ست صفائح قديمة وبعضها في أيام الرسول تعبّر عن حكام هذه المدينة

بكلمة بوليترك نفسها التي عبّر بها لوقا عنهم. ومن شاء التفصيل في شأن هذه الصفائح فليطالع كتاب فيكورو في العهد الجديد والاكتشافات.

ولما وصل بولس وسيلا إلى بيرية دخلا إلى مجمع اليهود وكان هؤلاء اسمح أخلاقاً من أولئك فإنهم قبلوا كلمة الله بابتهاج، وكانوا كل يوم يفحصون الكتب وآمن كثيرون منهم وعدد ليس بقليل من اليونان من كرام الرجال والنساء. وبلغ اليهود الذين في تسالونيكي ذلك ووافوا إلى بيرية فأثاروا الجموع عليهما فصرف المؤمنون بولس وصحبه بعضهم إلى أثينا وتبعه سيلا وتيموتاوس. ودخل بولس المجمع في أثينا وهذا المجمع آثاره باقية ومكتوب على أحد أبوابه آية المزمور ١١٧: «هذا هو باب الرب والأبرار يدخلون به». وكان يذاكر اليهود والمتعبدين ومن يوجد في السوق كل يوم. وباحثه قوم من الفلاسفة الابيكوريين والرواقيين وجاء به بعضهم إلى محفل باغس الباقية أطلاله إلى الآن. وهناك صخر يمكن الواقف هناك أن يحقق أنه واقف موقف الرسول وكان أولئك يسألونه ما هذا التعليم الذي يتكلّم به. فوقف بولس في المحفل وقال يا رجال أثينا إني في مروري ومعاينتي لمناسككم صادفت مذبحاً مكتوباً عليه للإله المجهول (ذكر كثيرون غير الرسول هذه العبارة للإله المجهول منهم فيلوسترات في ترجمة ايلانيوس وبوسانياس). فهذا الإله الذي تعبدونه وأنتم تجهلونه به أنا أبشّر. وهو الذي صنع العالم وكل ما فيه وقد صنع من واحد جميع أمم الناس، ولا يحلّ في هياكل مصنوعة بالأيدي ولا تخدمه أيدي البشر كأنه محتاج إلى شيء وهو مولي الجميع حياة ونفساً، وبه نحيا ونتحرك ونوجد كما قال بعض شعرائكم أيضاً أننا نحن ذريته. فسخر منه بعضهم وقال غيرهم سنسمع منه ثانية، وآمن بعضهم منهم ديونيسيوس الاريوباغي (أي من علماء المحفل المعروف باريوس باغس). وصار بعد اسقفاً ورسولاً في افرنسة كما يظهر من السنكساري الروماني، ومن كتاب في أعمال الشهدا كُتب منذ القرن الخامس. وآمنت أيضاً امرأة اسمها داماريس وآخرون (ابركسيس فصل ١٧). ولما قدم تيموتاوس من بيرية إلى أثينا أنبأ الرسول بالاضطهاد المثار على المؤمنين في تسالونيكي. فاضطرّ الرسول أن يوجّه به إلى مكدونية ليثبت المؤمنين ويعزيهم كما قال في رسالته إلى تسالونيكي (فصل ٣ عد ٣).

وخرج بولس بعد ذلك من أثينا وجاء إلى قرنثية (فصادف يهودياً اسمه اكيلا كان قد قدم منذ قريب من ايطاليا. وكان مع برسكلّة امرأته صانعي خيام فأقام

بولس عندهما وكان يعاونهما لمعرفته بهذه الصناعة. وكان يباحث في المجمع كل سبت ويحجّ اليهود واليونانيين لكنهم كانوا يقاومونه ويجدّفون على المسيح. فنفض ثيابه وقال لهم دمكم على رؤوسكم أنا بريئ وهأنذا ماضٍ إلى الأمم، وانتقل إلى بيت رجل اسمه تيطس يُستُس وآمن حينئذٍ على يده كرسبس رئيس المجمع هو وكل أهل بيته وأتبعهم كثيرون. وقال في رسالته الأولى إلى قرنثية (فصل ٩ عد ١٤ إلى ١٧) إنه لم يعمّد منهم سوى كرسبوس وغايوس وأهل بيت اسطفانا لأنّ المسيح لم يرسله للتعميد بل للتبشير، وهو اصطلاح عبراني يراد به أنه يفضِّل التبشير على التعميد على نحو قوله أريد رحمة لا ذبيحة. وقال له الرب في الرؤيا لا تخف بل تكلّم ولا تسكت لأنّ لي في هذه المدينة شعباً كثيراً. فلبث سنة وستة أشهر يبشّر بين ظهرانيهم بكلام الله، واتى إليه في هذه الأثناء سيلا وتيموتاوس وعزياه كثيراً بما قضا عليه من حالة المؤمنين في تسالونيكي. فكتب عندئذٍ رسالته الأولى إلى التسالونيكيين وبعد مدة كتب إليهم رسالته الثانية.

ولما كان بولس في قرنثية أتى إليها جليون والي اخائيا فأشخص اليهود بولس إلى محمكة الوالي قائلين إنّ هذا يستميل الناس إلى عبادة لله تخالف الناموس، فلم يستمع جليون شكواهم قائلاً إنه لا يريد ان يتداخل بمباحث كهذه خارجة عن خطته. فأخذ اليهود رئيس المجمع وضربوه قدام المحكمة ولم يبالِ جليون بشيء من ذلك. قال فيكورو في الموجز الكتابي (مجلد ٤ عد ٥٣١) إنّ جليون هذا كان أخا سينكا الفيلسوف وعم لوقا الشاعر. وسُمي والياً على اخائية اعتباراً لأخيه ومات سنة ٦٥ م. ولبث بولس هناك أياماً كثيرة ثم ودّع المؤمنين، وأقلع إلى سورية ومعه اكيلا وامرأته برسكلّة. ولما انتهوا إلى افسس تركهما هناك، وأقلع من افسس إلى قيصرية فلسطين، وسار إلى أورشليم وسلّم على المؤمنين، وقصّ عليهم ما أجراه الله على يده ففرحوا به. ثم مضى إلى انطاكية (ابركسيس فصل ١٨ ألى عد ١٣). وهذا هو سفره الثاني من انطاكية وعوده إليها وقد مضى به نحو ثلاث سنين أي من سنة ٥١ إلى آخر سنة ٥٣ م.

وأقام بولس في انطاكية نحواً من سنتين وأخذ في سفره الثالث سنة ٥٥ م واستمرّ به نحو ثلاث سنين أي إلى سنة ٥٨ م فإنه طاف في غلاطية وفريجية مدينة فمدينة مثبتاً المؤمنين وانتهى إلى افسس. وكان قدم إليها رجل يهودي اسمه ابولس من الاسكندرية وكان غيوراً على التبشير بالمسيح. وهو لا يعرف إلّا معمودية

يوحنا. فشرح له اكيلا وبرسكلّة تعليم الرب أتم شرح ووجد بولس أنّ ابولس عمّد بعض التلاميذ في افسس بمعمودية يوحنا المعمدان، فعمّدهم باسم الرب يسوع أي بمعمودية يسوع الذي علّم بأن تكون باسم الآب والابن والروح القدس. ووضع يديه عليهم فطفقوا ينطقون بلغات ويتنبأون وكانوا نحو اثني عشر رجلاً. ولبث بولس في افسس ثلاثة أشهر يعظ ويعلّم، ولما قست قلوب البعض اعتزل عنهم، وفرز التلاميذ منهم وكان كل يوم يعلّم في مدرسة رجل اسمه تيرنس، وأقام على ذلك سنتين والله يجري على يديه آيات عظيمة حتى كانوا يأخذون عن جسمه مناديل ومآزر إلى المرضى فتفارقهم الأمراض وتخرج منهم الأرواح الشريرة.

وأخذ بعض اليهود يعزمون على الممسوسين قائلين عزمت عليكم بيسوع الذي يكرز به بولس. وكان لسكاوي رئيس كهنة اليهود سبعة بنين يصنعون ذلك فأجابهم الروح الشرير أني أعرف يسوع وبولس أما أنتم فمن تكونون؟ ووثب الرجل الممسوس على معزمين فأثخنهما جراحاً ومزّق ثيابهما. فهربا عريانين مجرحين وانتشر الخبر عند اليهود واليونانيين في أفسس، فخافوا وعظم اسم الرب وآمن كثيرون. وكانوا يأتون معترفين ومخبرين بأعمالهم. لقد أثبت بلرمنيوس وغيره من مشاهير المفسرين أنَّ المراد بهذا الاعتراف الاعتراف السري. ولم يكن هؤلاء المعترفون من الموعوظين بل من المؤمنين، ومن كانوا يسحرون أتوا بكتبهم وأحرقوها أمام الجميع وحسب ثمنها فوجد خمسين ألفاً من الفضة ولا بدع، لأن الكتب لم تكن حينئذ إلَّا مخطوطة. وكانت كتب السحر نادرة وثمينة. وقال في رسالته الأولى إلى القرنثيين (فصل ١٥ عد ٣٢): «إن كنت أنا إنَّما حاربت الوحوش في أفسس بحسب البشرية فما المنفعة لي»؟ وظنَّ بعض الآباء إنَّه ألقي في هذه المدينة للوحوش لتفترسه فأنجاه الله منها، والأوجه أنَّه يريد. بالوحوش خصومه في هذه المدينة بدليل أنَّه لم يذكر طرحه للوحوش، إذ عددَّ مصائبه وبلاياه (قرنثية ٢ فصل ١١). وكانت مدينته الرومانية تعصمه من مثل هذا العذاب. وقد كتب وهو في أفسس رسالته إلى الغلاطيين نحو سنة ٥٦ م. وعزم أن يزايل أفسس ويمر بمكدونية وأخائية ليعود إلى أورشليم قائلاً: «بعد مصيري إلى هناك ينبغي أن أرى رومة أيضاً».

وبلغه حينئذٍ خبر القلق في قرنثية وانقسام أهلها على بعضهم. فكتب إليهم رسالته الأولى، وما برح من أفسس إلَّا نشأ فيها شغب شديد على الدين، فإنَّ

ديمتريوس الصائغ كان يصنع لارطاميس معبودتهم تماثيل صغيرة ويبيعها ممن يحج إلى هيكلها في أفسس الذي كان يعد من عجائب الدنيا السبع. وكان يكسب الصناع كسباً جزيلاً، فجمع حرفاءه وقال قد علمتم أنَّ يسارنا إنَّما هو من صناعتنا، ورأيتم أنَّ بولس هذا أزاغ جمعاً كبيراً في أفسس معلماً أنَّ مصنوعات الأيدي ليست بآلهة. فحف الخطر بمرتزقنا وبعظمة أرطاميس فثار سامعوه، وطفقوا يصيحون عظيمة أرطاميس إلهة الأفسسيين. وعم الشغب المدينة ووثب الجم الغفير إلى المشهد واختطفوا غايوس وارستركس رفيقي بولس. وهمَّ بولس أن يدخل بين الشعب فلم يدعه التلاميذ وعلت الضوضاء، وعظم البلبال في الحشد، وأكثروا من الهتاف نحو ساعتين عظيمة أرطاميس الأفسسيين. فقام كاتب من أعوان الحكومة فقال مَن مِن الناس لا يعلم أنَّ مدينة الأفسسيين متعبدة لأرطاميس العظيمة ولتمثالها الذي هبط من زوس؟ ولما كان هذا لا يختلف فيه لزمكم أن تكونوا على سكينة، وإن كان لديمتريوس وحرفائه دعوى على أحد فإنَّها تقام أيام القضاء بحضرة الولاة، وإن كنتم تطلبون امراً فيُفصل بينكم في محشد شرعي، وإلّا فتشكّون بفتنة ولا حجة لكم في هذا التجمع. ولما قال هذا أرفضَّ الحشد (ابركيس فصل ١٩). إنّ العالم فود الانكليزي عنى منذ سنة ١٨٦٣م باستقصاء الآثار في محل هيكل ارطاميس (المسماة ديانا أيضاً) في افسس. ودام على ذلك منفقاً مالاً جزيلاً فوفق إلى أن يجد آثاراً كثيرة تُثبت اثباتاً علمياً واضحاً ما رواه لوقا في هذا الفصل من أعمال الرسل. فقد ادّاه تنقيبه إلى الكشف لا عن عظمة الهيكل فقط بل عن تماثيل كثيرة لهذه المعبودة وعن صفائح عديدة مشعرة بالعبادة لها يسمّي من كتبوها أنفسهم فيلارتميس أي محبي ارطاميس أو المتعبدين لها. ويقدمون التقادم لها ويحتفلون أعياداً لها منها عيد مولدها. ويفردون شهراً لعبادتها يسمونه ارتاميسيون. وفي هذه الصحف تسمّى ارطاميس العظيمة بنفس اللفظ الذي وصفها لوقا به، وبعضها يبين أنّ بعض الافسسيين وقفَ على هيكلها أملاكه عند موته، وجعلها وارثة له. وبعضها أنّ رجالاً منهم قدّموا لهيكلها تماثيل وصوراً وغيرها مما قال لوقا إنّ ديمتريوس وحرفاءه كانوا يصنعونه. وفي هذه الآثار اسماء الوالي والكاتب باللفظ نفسه الذي ذكره لوقا وتعاطيهما الأعمال على نحو ما ذكره البشير. وانه كان لهم أيام للقضاء بحضرة الولاة وأيام يجتمعون فيها في محشد شرعي. كما ذكر البشير حتى أنّ الكلمة اليونانية التي استعملها البشير للدلالة على تعبد الافسسيين

لارطميس، وهي تاكوروس ولم تكن معروفة قبل اكتشاف فود قد وجدت على صفائح من التي عثر عليها. ويراد بها من يكنّس الهيكل بنوع أنّ هذه الآثار جاءت مصداقاً لما رواه البشير لا من حيث المعاني فقط بل من حيث الألفاظ أيضاً.

ولما سكن البلبال دعا بولس التلاميذ فوعظهم ثم ودعهم وانطلق إلى مكدونية. ثم أتى بلاد اليونان واخائية واقام هناك ثلاثة أشهر ثم زار المؤمنين في قرنثية وجمع صدقاتهم. وكتب رسالته إلى الرومانيين وعاد إلى مكدونية عازماً أن يشخَصَ إلى أورشليم في عيد البندكستي وأقام أياماً في فيليبية وصنع الفصح هناك. وأتى إلى تراوس (تراوادا اسكى اسلامبول) وأقام هناك اسبوعاً واجتمعوا لكسر الخبز، وكان بولس يخطب فيهم إلى نصف الليل. وكان شاب اسمه اوتيكس غلِبَ عليه النوم فسقط من الطبقة الثالثة إلى أسفل وحُمِلَ ميتاً، فنزل بولس وانطرح عليه وعانقه، فقام حياً ثم صعد بولس وكسر الخبز واكل وأطال الحديث إلى الفجر، وأتى إلى جزيرة ميتلانة المسمّاة الآن كسترو. واقلع منها فبلغ في الغد إلى قبالة كيوس (ساقس) ووصل في اليوم الآخر إلى صامس، وفي اليوم التالي إلى ميلتس (مدينة في آسيا الصغرى في جنوبي افسس). فاستدعى كهنة افسس ووعظهم وأعلمهم بأنّه سائر إلى أورشليم ولا يدري ما سيعرض له هناك، إلّا أنّ الروح القدس يشهد له أنّ قيوداً ومضايق معدة له لكنه لا يخشى من هذا شيئاً. وحسبه أنّه تمم سعيه وخدمة الكلمة التي قبلها من الرب، وأنّه عالم أنّهم لا يعاينون وجهه بعد. ويظهر أنّه كان بين هؤلاء الكهنة اساقفة إذ قال لهم الرسول: «احذروا لأنفسكم ولجميع القطيع الذي أقامكم فيه الروح القدس اساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه» ثم شيعوه إلى السفينة باكين (ابركيس فصل ٢٠).

ومضى من هناك إلى كيوس الجزيرة المعلومة وانتهى في الغد إلى رودس ثم إلى باترا. ووجد سفينة تعبر إلى فينيقية فركبها وتبين قبرص ولم يحل فيها بل انتهى إلى صور، وصادف بعض التلاميذ فيها فمكث عندهم سبعة أيام، وكانوا يشيرون عليه أن لا يصعد إلى أورشليم، ثم شيعه المؤمنون أجمع حتى النساء والأولاد إلى خارج المدينة. وأقبل إلى عكا ومكث عند المؤمنين يوماً واحداً ووافى قيصرية ودخل بيت فيلبوس أحد الشمامسة السبعة. فأتى إليه نبي من اليهودية اسمه أغاباس وهو مسيحي من اليهودية يحتمل أنّه كان من تلاميذ المخلّص وحائز موهبة النبوة، وكان قد تنبأ على مجاعة في اليهودية، فكانت في السنة الرابعة لكلود الملك. وشهد

يوسيفوس (ك ٢٠ من تاريخ اليهود فصل ٥) إنَّها أضرَّت بفلسطين كثيراً فأخذ أغابس منطقة بولس وأوثق بها يديه ورجليه، وقال إنَّ الرجل صاحب هذه المنطقة سيوثقه اليهود هكذا في أورشليم. فسأله لوقا الذي كان يصحبه وأهل المكان أن لا يصعد إلى أورشليم فقال ما بالكم تبكون؟ إني مستعد لا للوثاق فقط بل للموت في أورشليم لأجل اسم الرب يسوع. ثم صعد إلى أورشليم ومعه تلاميذه من قيصرية فقبلهم الاخوة بفرح.

وفي الغد دخل إلى يعقوب اسقف أورشليم ، وكان الكهنة كلهم حاضرين فقص عليهم بولس كل ما صنع الله بين الأمم بخدمته. فمجدوا الله وقد حذره يعقوب قائلاً إنَّ اليهود الذين آمنوا بلغهم عنه أنَّه كان يعلم اليهود الذين بين الأمم أن يتركوا سنَّة موسى ولا يختنوا بنيهم. وأشار عليه أن يوقفهم على الحقيقة في اجتماعهم لديه. وقال إنَّ عندنا أربعة رجال عليهم نذر وكان النذيرون لا يحلقون رؤوسهم فخذهم وطهِّر نفسك معهم. وأنفق عليهم ليحلقوا رؤوسهم فيعرف الجميع أنَّ ما بلغهم عنك ليس بشيء، وأنَّك كنت تسلك محافظاً على الناموس. فأتمَّ بولس كل ما أشار عليه به يعقوب إلَّا أنَّه رآه في الهيكل اليهود الذين من آسيا فهيجوا الجمع عليه وألقوا عليه أيديهم صارخين، أنَّ هذا الرجل يعلم جميع الناس في كل مكان ما يخالف الناموس. وقد أدخل يونانيين أيضاً إلى الهيكل، ودنَّس هذا الموضع الطاهر فهاجت المدينة كلُّها، وتبادروا إلى بولس فأمسكوه وجروه إلى خارج الهيكل، وأغلقوا الأبواب وكانوا يريدون قتله. قد روى يوسيفوس في كتابه في الحرب، وفي تاريخ اليهود أنَّ اليهود كانوا يعلقون دفوفاً على السور الثاني للهيكل مكتوباً عليها باليونانية واللاتينية أنَّ الوثنيين ممنوعون أن يدخلوا داخل ذلك السور تحت عقوبة القتل. وقد وجد كارمون كابو ترجمان قنصلية افرنسة في أورشليم سنة ١٨٧١ م دفاً من هذه الدفوف وهو الآن محفوظ في متحف الأستانة، وهذه ترجمة ما كتب عليه: «لا يدخلنَّ أحد الأجانب إلى داخل السور المحدق بالمكان المقدَّس، ومن تجرأ على ذلك فلومه على نفسه في ما يجري عليه من عقاب الموت». فهذا مصداق لما روى لوقا البشير. ولما بلغ الخبر إلى قائد كتيبة الجند التي في أورشليم بأنَّ المدينة قد بلبلت عاد من ساعته بجند، وقواد إليهم، فكفوا عن ضرب بولس، وأمر القائد أن يوثق بسلسلتين وطفق يستخبر من هو وما صنع؛ فكان بعضهم يصيح بشيء وبعضهم بآخر حتى لم يعلم القائد حقيقة الأمر.

ولما بلغ إلى الدرج حمله الجند مخافة أن يسطو الجمع عليه. ولما قارب بولس أن يدخل المعسكر قال لقائد الألف هل لي أن أكلِّمك؟ فأجابه هل تعرف اليونانية أو لست أنت ذلك المصري الذي أثار هيجاناً وخرج إلى البرية بأربعة آلاف رجل من القتلة؟ فقال بولس: أنا رجل يهودي طرسوسي أسألك أن تأذن أن أكلِّم الشعب فأذن له. ووقف بولس على الدرج وأشار بيده إلى الشعب فسكتوا فخطب فيهم باللغة العبرانية (أبركسيس فصل ٢١).

ولما سمعوه يخاطبهم باللغة العبرانية ازدادوا هدوءاً فبيَّن لهم أنَّه رجل يهودي ولد في طرسوس، وربي في أورشليم، ودرس الناموس لدى جمليئيل. وكان غيوراً على ناموس الله كما هم الآن جميعاً، وكان يضطهد المؤمنين رجالاً ونساءً. وقصَّ عليهم ما أصابه في طريقه إلى دمشق، وكيف آمن وما أمره الرب به إلى أن قال: «انطلق سأرسلك إلى الأمم بعيداً فسمعوا له إلى هذه الكلمة» ورفعوا أصواتهم قائلين ارفع عن الأرض مثل هذا لأنَّه ليس بجدير أن يحيا. وأكثروا من الصراخ ونزع ثيابهم وتذرية الغبار إلى الجو. فأمر قائد الألف أن يمتحن بالجلد لكي يعلم لمَ يصيحون عليه هكذا. ولما ربطوه بالسيور قال لقائد المئة أيجوز لكم أن تجلدوا رجلاً رومانياً غير مقضى عليه؟ فأخبر قائد المئة قائد الألف بأنَّ هذا الرجل روماني فدنا إليه قائد الألف وقال: أروماني أنت؟ قال بولس نعم. وقال القائد إني بمال كثير اقتنيت هذه الرعوية. فقال بولس أما أنا فولدت فيها فكف عنه للحال من أزمعوا أن يجلدوه وخاف القائد من أنَّه أوثقه. وفي الغد أراد أن يعلم ماذا يدعي عليه اليهود فحله وأمر روساء الكهنة والمحفل أن يجتمعوا، وأخرج بولس وأقامه لديهم (ابركسيس فصل ٢٢).

فتفرس بولس في المحفل وقال أيُّها الرجال الاخوة لقد تصرَّفت أمام الله بكل نية صالحة إلى هذا اليوم. فأمر حننيا رئيس الكهنة القائمين إلى جانبه بأن يضربوه على فيه. فقال بولس سيضربك الله أيُّها الحائط المبيض أتجلس لتحكم في أمري بمقتضى الناموس، وتأمر أن أضرب بخلاف الناموس. وحننيا هذا قد قتله أحد أعدائه سنة ٦٧ م كما روى يوسيفوس (ك ٢ في الحرب فصل ١٧) فتم ما أنذره به الرسول. وقال الحاضرون لبولس: أتشتم رئيس كهنة؟ فقال ما علمت يا اخوتي أنَّه رئيس الكهنة. فقد كتب لا تلعن رئيس شعبك. وفسَّر بعضهم أن بولس قال إنَّه لا يعلم أنَّه رئيس كهنة لأنَّه اتَّخذ الرياسة بوسائل غير شرعية، وبعضهم لأنَّ

كهنوت هرون كان انتسخ بسنَّة المسيح. والأولى أن يقال إنَّ بولس لتغيُّبه عن أورشليم لم يكن يعلم من كان حينئذٍ رئيس الكهنة أو أنَّ من أمر بضربه كان حننيا. ولما علم بولس أنَّ بعض رجال المحفل صدوقيون وبعضهم فريسيون صاح قائلاً أنا فريسي ابن فريسي وعلى رجاء قيامة الأموات أحاكم. فوقع خلاف بين الفريسيين والصدوقيين وثار صياح عظيم، وطفق كتبة من الفريسيين يخاصمون قائلين أنّا لا نجد في هذا الرجل شراً. ولمَّا اشتدَّ الخلاف أشفق قائد الألف أن يفسخوا بولس فأمر الجند أن يختطفوه من بينهم ويأتوا به إلى المعسكر.

وفي الليلة التالية ظهر الرب له وقال ثق فإنَّك كما شهدت لي في أورشليم ينبغي أن تشهد في رومة أيضاً. ولما كان النهار تحالف أكثر من أربعين رجلاً من اليهود إنَّهم لا يأكلون ولا يشربون حتى يقتلوا بولس. وسألوا رؤساء الكهنة والشيوخ أن يشيروا على قائد الألف أن يخرجه إليهم للتدقيق في فحص أمره فيقتلونه قبل أن يقترب. وعرف ابن أخت بولس بهذه المكيدة فدخل المعسكر وأخبر بولس، فأرسله مع أحد قواد المئتين إلى قائد الألف، فانفرد به فأخبره الغلام أنَّ اليهود تعاهدوا أن يسألوه ليخرج بولس غداً إلى المحفل؛ وفي عزمهم أن يكمن له أكثر من أربعين رجلاً فيقتلوه قبل أن يبلغ إليك. وصرف قائد الألف الفتى وأوصاه ألَّا يخبر أحداً بأنَّه أطلعه على مكيدتهم، وأعدَّ مئتي جندي وسبعين فارساً ومئتي رامح، وأحضر دواباً ليركبوا بولس، وسيرهم في الساعة الثالثة من الليل إلى فيلكس الوالي (تقدَّم خبره في قسم التاريخ الدنيوي). وكان اسم قائد الألف كلود ليسياس فكتب رسالة إلى الوالي فحواه أن اليهود أمسكوا هذا الرجل وأزمعوا أن يقتلوه، فأنقذته لما علمت أنَّه روماني. ووجدت أنَّهم يشكونه بمسائل من ناموسهم وليس عليه شكوى توجب الموت أو القيود. ونبئت بمكيدة منهم عليه فوجهته إليك وأمرت الشاكين بأن يقولوا لديك ما لهم عليه. فأخذ الجند بولس ومضوا به ليلاً إلى أنتيبتريس (كفرسابا أو مجدل بابا طالع عد ٤٨٦) وفي الغد ترك الجند الفرسان يمضون معه، ورجعوا إلى المعسكر وبلغ الفرسان به قيصرية. ودفعوا الرسالة إلى الوالي وقال لبولس ساسمع منك متى حضر خصومك وأمر بحفظه في قصر هيرودس (أبركسيس فصل ٢٣).

وبعد خمسة أيام انحدر حننيا رئيس الكهنة مع بعض الشيوخ وخطيب اسمه

ترتولّوس طفق يشكو بولس أمام الوالي مفتتحاً بالتملّق له، ومستخلصاً بقوله أنّا وجدنا هذا الرجل مفسداً ومثير فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة وإماماً لشريعة الناصريين. وقد حاول أن ينجّس الهيكل فأمسكناه، وأردنا أن نحاكمه بحسب ناموسنا، فأقبل ليسياس وانتزعه من أيدينا، وأمر خصومه أن يأتوا إليك. وإذا فحصته تحققت ما نشكوه به. فأومأ الوالي إلى بولس أن يتكلّم فقال أعلم أنّك قاضٍ لهذه الأمة منذ سنين كثيرة ويسرني أن أجيب عن نفسي أمامك. ويمكنك أن تعلم أنَّ ليس لي أكثر من اثني عشر يوماً أتيت أورشليم للعبادة، ولم يجدوني في الهيكل أفاوض أحداً ولا أهيّج الجمع في المجامع أو في المدينة، ولا بينة لهم على ما يشكونني به الآن على أنّني أقرّ إني بحسب الطريقة التي يسمونها شيعة أعبد إله آبائي مؤمناً بكل ما كتب في الناموس والانبياء. إلى أن قال أو ليقل هؤلاء ماذا وجدوا فيَّ من أثم وأنا قائم أمام المحفل سوى هذا القول أني على قيامة الأموات أحاكم فأمهلهم الوالي قائلاً: متى انحدر ليسياس قائد الألف إنّي أتحقّق دعواكم وأمر قائد المئة أن يحرس بولس ويلطف به ولا يمنع أحداً من ذويه عن خدمته. وبعد أيام استدعى فيلكس بولس وسمع منه عن الإيمان بالمسيح بحضرة امرأته دروسلة فخطب له بولس في البر والعفاف والدينونة الآتية حتى ارتاع الوالي وقال لبولس اذهب الآن وإذا حصلت على فرصة استدعيتك، وكان يؤمل أن يعطيه بولس رشوة فبقي الرسول سنتين في السجن، وخلف فستس فيلكس وأراد فيلكس أن يرضي اليهود فترك بولس مقيداً (أبركسيس فصل ٢٤).

وصعد فستس من قيصرية إلى أورشليم فسأله روساء الكهنة وأعيان اليهود أن يمنَّ عليهم باستحضار بولس إلى أورشليم ليجيب على شكواهم عليه، وأبطنوا أن يكمنوا له في الطريق ليقتلوه، فأجابهم أنَّ بولس مخفور في قيصرية، وأنّه هو مزمع أن يعود إليها سريعاً فلينحدر معه المقتدرون منهم، وليشكوا هذا الرجل. وعاد بعد ثمانية أو عشرة أيام إلى قيصرية وجلس على المنبر، وأمر بإحضار بولس فحضر فأحاط به اليهود الذين نزلوا من أورشليم، وتجنوا بشكاوى كثيرة لم يقدروا أن يثبتوها لتبرئة بولس نفسه من كل جريمة. وأراد فستس أن يرضي اليهود فقال لبولس أتريد أن تصعد إلى أورشليم فتحاكم هناك؟ فأجاب أنا واقف لدى منبر قيصر وأمامه ينبغي أن أحاكم، إني ما ظلمت اليهود بشيء وإن كنت صنعت شيئاً

يوجب الموت فلا أستعفي منه، وإن لم يثبت عليَّ شيء مما يشكونني به فما أحد يستطيع أن يدفعني إليهم إني إلى قيصر رافع دعواي. ففاوض فستس أهل مشورته وقال إلى قيصر رفعت دعواك فإلى قيصر تنطلق.

وبعد بضعة أيام أقبل أغريبا وبرنيكة اخته ليسلما على فستس، فقصَّ عليهما خبر بولس وما كان من أمره إلى رفعه دعواه إلى قيصر، فقال أغريبا كنت أحب أن اسمع هذا الرجل فقال غداً تسمعه. وفي الغد أقبل أغريبا وبرنيكة وفستس إلى دار القضاء، وأحضر بولس فقال فستس إنَّ هذا الرجل سعى إليَّ به جمهور اليهود في أورشليم يصيحون أنَّه لا ينبغي أن يحيا، أما أنا فلم أجد شيئاً يوجب الموت. ورفع دعواه إلى أغوسطوس فقضيت بأن أرسله إليه. وقد أحضرته أمامك أيُّها الملك أغريبا وأمام هذا الحشد حتى يكون لي بعد الفحص ما أكتبه بشأنه، لأني أرى من الجهل أن أبعث أسيراً ولا أبيِّن الدعاوى التي عليه (أبركسيس ص ٢٥).

فقال أغريبا لبولس مأذون لك أن تجيب عن نفسك، فقال إني أحسب نفسي سعيداً أيها الملك أغريبا لأني أحتج اليوم أمامك. وأنت خبير بكل ما لليهود من سنن ومسائل. أنَّ سيرتي منذ صبائي يعرفها من عرفني من اليهود، وقد عشت فريسياً على مذهب ديننا الأقوم، وأنا واقف أحاكم على رجاء وعد الله للآباء أفيحسب عندكم غير مصدق أنَّ الله يقيم الموتى؟ وقد كنت ارتأيت أن أقاوم جهدي اسم يسوع الناصري، وقد حبست كثيرين من القديسين في أورشليم عندما فوَّض إليَّ السلطان من روساء الكهنة، وكنت ممن يرون قتلهم، واضطهدتهم في مدن أخرى وانطلقت إلى دمشق لاضطهادهم بأمر روساء الكهنة وقص ما عرض له في طريقه، وكيف ضربه الله بالعمى، وردَّ عليه بصره إذ آمن وقال فمن ثم لم أكن أيها الملك أغريبا معاصياً للرؤيا السماوية بل بشرت أولاً في دمشق وأورشليم وأرض اليهودية كلها، ثم انطلقت إلى الأمم منذراً لهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله عاملين أعمالاً تليق بالتوبة. فأمسكني اليهود في الهيكل وحاولوا أن يقتلوني لكني بقيت حياً إلى الآن لا أقول شيئاً غير ما قاله الانبياء وموسى من أنَّ المسيح سيتألَّم ويكون أوَّل من قام من بين الأموات، فيبشِّر بالنور للشعب والأمم. فقال فستس قد جننت يا بولس إنَّ كثرة الدروس تصير بك إلى الجنون. فقال لست مجنوناً يا فستس العزيز بل أنطلق بأقوال الحق والحكمة والملك الذي أنا بين يديه عارف بهذه الأمور ولا أظن أنه يخفى عليه شيء منها لأنَّ ذلك لم يحدث في زاوية. والتفت إلى

أغريبا فقال هل تؤمن بالانبياء أيُّها الملك أغريبا؟ أنا أعلم أنَّك تؤمن بها. فقال أغريبا إنَّك بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً. قال بولس أتمنى لك ولجميع الذين يسمعونني أن يصيروا على ما أنا عليه ما خلا هذه القيود. فنهض الملك والوالي وبرنيكا والجالسون معهم وكانوا يقولون إنَّ هذا الرجل لم يصنع شيئاً يستوجب الموت أو القيود. وقال أغريبا لفستس كان يمكن اطلاقه لو لم يكن رفع دعواه إلى قيصر (أبركسيس فصل ٢٦).

وأمر فستس بارسال بولس إلى إيطالية وسلَّمه وأسرى آخرين إلى قائد مئة اسمه يوليوس، ولما بلغت السفينة صيدا عامل يوليوس بولس برفق وأذن له أن يذهب إلى أصدقائه، ثم سارت السفينة بهم في شرقي قبرص لأنَّ الرياح كانت مضادة. وعبروا بحر كيليكية وبمغيلية. وذكر لوقا كاتب أعمال الرسل ورفيق بولس في أكثر أسفاره في الفصل ٢٧ منها أحوال هذا السفر، والمخاطر التي ألمَّت بهم ومهاب الأرياح واسماء الجزر، والمدن التي مروا بها على وجه يثبت صحة ما كتبه ثبوتاً علمياً لا يبقى فيه للانتقاد من سبيل. وقد ثارت عليهم زوابع شديدة قطعت لهم كل رجاء في النجاة، وظهر لبولس ملاك قائلاً له لا تخف أنَّه لا بد لك أن تقف قدام قيصر وها قد وهبك الله جميع السائرين معك منقذاً لهم من الغرق من أجلك. فطيب بولس نفوس رفقائه، وسألهم أن يتناولوا طعاماً لأنَّه لا تهلك من راس أحدهم شعرة. وأخذ خبزاً وشكر الله أمام جميعهم، وكسر وطفق يأكل فطابت نفوسهم. وتناولوا طعاماً وكان عدد المسافرين في السفينة مئتين وستة وسبعين نفساً إلى أن بلغوا مالطة. ودفعوا السفينة إلى الشاطئ فنشب مقدمها لا يتحرَّك وتفكك موخرها من شدَّة الأمواج، وأراد الجند أن يقتلوا الأسرى لئلا يسبح أحدهم فيهرب فمنعهم القائد من ذلك لينجي بولس، وأمر القادرين على السباحة أن يرموا نفوسهم في الأمواج والباقين أن يعبروا على ألواح أو قطع من السفينة فنجوا بأجمعهم (أبركسيس فصل ٢٧).

وأظهر لهم أهل مالطة الذي سماها الكتاب برابرة (كما كانوا يسمون كل من لا يعرف اليونانية أو اللاتينية) ما جاوز المعتاد من المؤانسة، فإنَّهم أضرموا ناراً وتلافوهم من المطر الذي أصابهم والبرد. فجمع بولس كثيراً من الحطب ووضعه على النار فخرجت أفعى وانتشبت في يده، فقال البرابرة لا جرم في أنَّ هذا الرجل قاتل فانَّه بعد أن نجا من البحر لم يدعه العدل أن يحيا، أما هو فنفض الحيوان إلى

النار ولم يمسسه أذى. فقالوا إنَّه إله وأضافهم والي الجزيرة المسمى بوبليوس ثلاثة أيام، وكان أبوه ملقى قد أخذته الحمى والزحار، فصلى بولس ووضع يديه عليه فأبرأه. وكان بعد ذلك أنَّ سائر الذين بهم أمراض في الجزيرة كانوا يأتون إليه ويشفون. ولذلك أكرموا المسافرين اكراماً جزيلاً وزودوهم ما يحتاجون إليه. وأقلعوا من مالطة بعد أن أقاموا فيها ثلاثة أشهر. فارسلت سفينتهم في سراكوسا (في صقلية) ومكثوا هناك ثلاثة أيام داروا وأقبلوا إلى راجيون (وهي المسماة الآن راجيو في كلابريا في إيطالية). وهبَّت ريح الجنوب فوصلت سفينتهم في اليوم التالي إلى بوتيول (وهي بوصول على خليج نابولي قريبة من بومباي). وكان هناك مسيحيون فسألوا بولس أن يمكث عندهم سبعة أيام، ثم انطلقوا إلى رومة براً وأقاموا في هذا السفر في قيصرية إلى بوتيول ستة أشهر، ولما سمع المؤمنون في رومة بقدوم بولس خرجوا للقائه إلى سوق أبيوس على تسعة فراسخ من رومة، وإلى الحوانيت الثلاثة وهي على بعد أربعة فراسخ منها. وظهر من الآثار التي وجدت في بومباي (التي غطتها المواد المنقذفة من الفاسوف سنة ٧٩) إنَّه كان فيها مسيحيون في ذلك الوقت. ويتبين من رسالة بولس إلى الرومانيين التي كتبها قبل سفره ببضع سنين أنَّه كان في عاصمة الملك وفي إيطالية عدد كبير من المسيحيين ولما رأى بولس هولاء المسيحيين شكر الله وتشجَّع (أبركسيس فصل ٢٨ إلى عد ١٦).

إنَّ يوليوس قائد المئة سلم بولس إلى رئيس حرس نيرون ولا جرم أنَّه أخبره بما رآه منه في سفره، وأوصاه به، ولذلك لم يُلق بولس في السجن كما كان في قيصريَّة بل أذن له أن يقيم وحده مع جندي يحرسه كما كان هيرودس أغريبا في أيام طيباريوس على ما روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٨ فصل ٦). ولذلك قال الكتاب (أبركسيس فصل ٢٨ عدد ١٧) وبعد ثلاثة أيام دعا بولس وجوه اليهود إليه وقصَّ عليهم ما أجراه عليه يهود أورشليم حتى اضطرَّ بسبب مقاومتهم أن يرفع دعواه إلى قيصر، فقالوا إنَّها لم تبلغهم كتب من اليهودية في أمره ولا قدَّم أحد من هناك يكلمهم عنه بسؤ، وقالوا إنَّهم يرومون أن يسمعوا منه ما يراه جهة هذا المذهب الذي يعلمون أنَّه يقاوم في كل مكان، وعيَّنوا له يوماً فاجتمع إليه في منزله قوم كثيرون، وطفق يشرح لهم عن ملكوت الله ويحجهم في يسوع من الناموس والانبياء من الصباح إلى المساء فآمن بعضهم، ولم يؤمن الآخرون. فاكتفى بولس أن يقول لمن لم يؤمنوا حسناً كلم الروح القدس آباءكم على لسان أشعيا

قائلاً انطلق إلى هذا الشعب وقل لهم سمعاً تسمعون ولا تفهمون ونظراً تنظرون ولا تبصرون إلى آخر قول أشعيا. وقال فليكن معلوماً عندكم أنَّ خلاص الله أرسل إلى الأمم وهم يسمعونه. فخرجوا من عنده ولهم مباحث كثيرة فيما بينهم». وأقام سنتين كاملتين (أي سنة ٦١ و ٦٢) في بيت استأجره وكان يقبل جميع الذين يأتون إليه ويبشّر بملكوت الله، ويعلم ما يختصّ بالرب يسوع بكل جرأة ولا يمنعه أحد. هكذا ختم لوقا كتاب أعمال الرسل ولم ينبئنا بما كان بعد ذلك من أمر بولس. فربما كان ذلك لأنَّ لوقا كتب هذا السفر في السنة الثانية بعد بلوغهم إلى رومة. وقضى عليه أن يتوجّه إلى محل آخر فتعجل إذاعة سفره لما حواه من تأييد بشرى الإنجيل ومعاونته على نشر الإيمان. ومهما يكن فختام هذا السفر الأبتر دليل واضح على صحته فلو دوّن في القرن الثاني كما يزعم الجاحدون لما أغفل كاتبه أن يتكلّم في ما كان من أمر بولس إلى استشهاده مع بطرس وذلك من الزم الأمور لغرضه.

وأما باقي أعمال الرسول فتنبئنا بها رسائله، وزعم بعضهم أنَّه بقي مخفوراً ثم مسجوناً إلى مماته وجعلوا استشهاده سنة ٦٤م. على أنَّ القول الأعم والأثبت أنَّ نيرون خلى سبيله أولاً سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ م ولا يعلم كيف كانت تخلية سبيله، والظاهر أنَّ خصومه لم يجسروا أن يلاحقوا دعواهم عليه أمام قيصر إذ لا بينة لهم عليه، والذي عليه الجمهور أنَّه عاد بعد ذلك إلى أسفاره الرسولية وأنَّه مضى إلى إسبانية بحسب ما كان وعد في رسالته إلى الرومانيين (فصل ١٥ عد ٢٨) إذ قال: «فإذا قضيت هذا الأمر وختمت لهم هذا الثمر مررت بكم إلى اسبانية» مجتازاً في افرنسة وأنَّه عاد إلى المشرق. وأقام أياماً في ميلتس (تيموتاوس ثانية فصل ٤ عد ٢٠)، وفي كولوسايس (فيلمون فصل ٣ عد ٢٢)، وفي تراوس (تيموتاوس ثانية فصل ٤ عد ١٣)، وفي جزيرة اكريت (طيطس فصل ١ عد ٥)، وفي مكدونية (تيموتاوس ثانية فصل ١ عد ٣)، وفي قرنثية (تيموتاوس ٢ فصل ٤ عد ٢٠) ثم عاد إلى رومة فقبض عليه مع القديس بطرس. وبعد إلقائهما مدة في السجن قطع رأسه في المحل المعروف بطريق أستيا. ويتبيَّن من رسالته إلى أهل فيبية إنَّهم قد بعثوا إليه وهو مخفور في رومة أبفرديتس أسقفهم ليوصل إليه نقوداً ويخدمه. فمرض حتى قارب الموت في رومة ثم ابلَّ من مرضه فبعث إليهم برسالته إلى الأفسسيين والكولسيين وإلى فيلمون.

ويظهر أنَّ تبشيره في رومة نجح كثيراً حتى أنَّه كسب نفوساً من بيت قيصر نفسه، إذ نراه في رسالته إلى الفيلبيين يقول: «يسلم عليكم جميع القديسين ولاسيما الذين هم من بيت قيصر». وروى فم الذهب (في خطبة ٢٦ في أعمال الرسل) إنَّه يقال إنَّ بولس ذهب يزور ساقي نيرون وسرية له ليردها إلى الإيمان، فارتدت السرية وكان نيرون مغرماً بها فقبض على بولس وألقاه في السجن المرة الأخيرة.

وروى بارونيوس (في تاريخ سنة ٦٦) إنَّه كان بين بولس وسينكا مراسلات وداعية على أنَّ هذه الرسائل التي تروى الآن لا تعد صحيحة وإن اعتدها كذلك القديس أغوسطينوس (في رسالته ٥٤). والقديس إيرونيموس في كتابه في المشاهير (فصل ٢١) حتى عد سينكا من الكتبة البيعيين.

فكل ما مرَّ يؤيِّد رأي من قالوا إنَّ بولس خُليَ سبيله أولاً، وعاد إلى تبشيره وإنذاره وأنَّه مضى من رومة إلى إسبانية. ويؤيِّد ذلك أنَّ رسائله الثلاث الرعوية إلى أهل فيليبية وأفسس وكولوسائس لا يمكن تعيين وقت لكتابتها إلَّا سنيه الأخيرة. وإنَّه توجد أمور لا مخرج لها إن كان الرسول بقي سجيناً في رومة أربع سنين أو خمساً. منها قوله لتيموتاوس (في رسالته ٢ فصل ٤ عد ١٣): «أحضر معك عند قدومك الرداء الذي تركته في تراوس عند كربوس والكتب وخصوصاً صحف الرق» فكيف يصدق ذلك إذا كان الرسول مرَّ في تراوس قبل بست سنين أو سبع؟ ومن البينات على ذلك أنَّ الرسول قال ثلاث مرات في رسائله (أي رومية فصل ٥ عد ٢٤ وفيليبية فصل ١ عد ٢٥ وعبرانيين فصل ١٣ عد ٢١) إنَّ له الثقة بأن يخلى سبيله وأن يكمل ما بقي من خدمته. فلو قال هذا الكلام أحد أفراد الرجال لأمكن حمله على التمني والأمل، ولما كان قائله كاتباً يلهمه الله تعين حمله على سبيل النبوة، وقد تمت بلا مراء. هذا وأنَّ الرسول كتب إلى تيموتاوس (رسالته الثانية فصل ٤ عد ١٦ و ١٧) «عند احتجاجي الأوَّل لم يحضر معي أحد بل تركني الجميع لأحاسبهم الله على ذلك، إلَّا أنَّ الرب قد وقف معي وقواني لتكمل بي الكرازة وتسمع الأمم كلها إني نجوت من فم الأسد» يريد به نيرون كما مرَّ. وقد شهد كثير من الآباء القدماء بمضي الرسول إلى إسبانية منهم أكليمنضوس تلميذه (في رسالته الأولى)، والقديس إيرونيموس في كتابه في المشاهير (فصل ٥)،

والقديس إيبوليتس في كتابه في الرسل، والقديس كيرلس الأورشليمي (في تعليم ١٧)، وفم الذهب (خطبة ٧ في متى)، والقديس أبيفان (في هرطقة ٢٧)، وأوسابيوس في تاريخه (ك ٢ فصل ٢٢). وغيرهم كثيرون (ملخّص عن الموجز الكتابي لفيكورو مجلد ٤ عد ٥٥٨).

من لنا بلسان بليغ يصف لنا أتعاب هذا الرسول وجهاده خير منه فقد عرض بذكر ذلك في رسالته الثانية إلى القرنثيين (فصل ١١ عد ٢١ إلى ٣٠) وإليك ما قال: «أقول بنقص الرأي أنَّ كلَّ ما يجترئ أحد عليه. فأنا أجترئ عليه أيضاً. فإن كانوا عبرانيين فأنا أيضاً عبراني. وإن كانوا إسرائيليين فأنا أيضاً إسرائيلي. وإن كانوا من نسل ابراهيم فأنا أيضاً كذلك. وإن كانوا خدام المسيح فأقول كناقص الرأي إني في ذلك أفضل منهم بالكد، أفضل منهم بالضربات ، أفضل منهم بالوثق، أفضل منهم وبالموت مرات كثيرة. وجلدني اليهود خمس مرات أربعين غير جلدة واحدة (أي تسعاً وثلاثين بمقتضى الناموس). جلدت بالقضبان ثلاث مرات، ورجمت مرة واحدة وانكسرت بي السفينة ثلاث مرات، وكنت في البحر بغير سفينة ليلاً ونهاراً. وكنت في الأسفار مرات كثيرة وفي بلية من الأنهار، وفي بلية من اللصوص، وفي بلية من امتي، وفي بلية من الشعوب، وفي أخطار في المدن، وفي أخطار في القفر، وفي أخطار في البحر، وفي أخطار من قبل الاخوة الكذبة، وفي تعب وكد وسهر كثير وجوع وعطش، وأصوام كثيرة وبرد وعرى وأشياء كثيرة. ما عدا الاجتماع الذي كان عليَّ كل يوم واهتمامي بأمر الكنائس كلها، فمن كان يمرض ولا أمرض أنا، أو من كان يشككك ولا أحترق أنا. فإن كان لا بد من الافتخار فأنا أفتخر بأمراضي وجهادي.

وقد ولد الرسول في بدء التاريخ المسيحي أو قبله بسنتين وآمن في المسيح سنة ٣٤ أو سنة ٣٥ م وأخذ في الإنذار في غير اليهودية ودمشق، وبلاد العرب سنة ٤٥ م وقبض عليه في أورشليم سنة ٥٨ م وشخص إلى رومة المرة الأولى سنة ٦٠م وخلي سبيله سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ م وعاد مبشراً في المشرق والمغرب إلى سنة ٦٦ م، ورجع إلى رومة فقبض عليه نيرون وقطع رأسه سنة ٦٧ م وكان عمره ٦٧ سنة، على قول بعضهم، وقد ناهز السبعين على قول آخرين. وكنيستنا المارونية تعيد لبطرس وبولس في ٢٩ حزيران وللرسل اجمالاً في ٣٠ منه.

عد ٥٠٧

رسائل بولس الرسول

إنَّ رسائل بولس التي تعتقد الكنيسة الكاثوليكية أنَّها منزلة أربع عشرة رسالة كتب جميعها باللغة اليونانية، إلَّا رسالته إلى العبرانيين فإنَّه كتبها بلغتهم. ولم يتَّصل إلينا نصُّها الأصلي فهي في السريانية الآن مترجمة عن اليونانية. وقد كانت اللغة اليونانية حينئذٍ كأنَّها عامة في المملكة، وكانت وحدة اللغة تسهل نشر الدين المسيحي. وقد ضمَّت هذه الرسائل إلى بعضها منذ القرن الأوَّل، نسقت على النسق الذي نراها عليه الآن وروعي في نسقها على هذا المنوال أولاً مقام المرسلة إليهم، ثانياً أهمية المباحث، ثالثاً إسهابها أو إيجازها. وقد بدأ الرسول في كتابتها سنة ٥٢ م وانتهى سنة ٦٦م. وأما تعيين الوقت الذي كتب كلاً منها فيه فليس بالأمر اليسير وقد أجهد المفسرون أنفسهم في جمع الآيات التي يستدل منها على شيء من ذلك فكانت نتيجة أبحاثهم كما سترى. ولم يكن خلاف بينهم إلَّا على الرسالة إلى طيطس والرسالة الأولى إلى تيموتاوس لتعسر الاستدلال على حين كتابتهما.

وإليك جدولاً يتبيَّن منه زمان كتابة كل من هذه الرسائل على الراجح غير المقطوع به. فقد كتب الرسول ستاً من رسائله في ست سنين ابَّان أسفاره أعني رسالته الأولى إلى التسالونيكيين تتضمَّن خمسة فصول كتبها من قرنثية في سفره الثاني سنة ٥٢ م.

رسالته الثانية إليهم تشمل على ثلاثة فصول كتبها في السنة والمدينة المذكورتين.

رسالته الأولى إلى القرنثيين تحوي ستة عشر فصلاً كتبها في سفره الثالث سنة ٥٦ م من أفسس.

رسالته الثانية إليهم تنطوي على اثني عشر فصلاً كتبها سنة ٥٧ م من فيليبية.

رسالته إلى الغلاطيين ضمَّنها ستة فصول وكتبها سنة ٥٧ م من قرنثية.

رسالته إلى الرومانيين تشتمل على ستة عشر فصلاً كتبها سنة ٥٨ م من قرنثية.

وقد كتب أربع رسائل في أواخر أسره الأولى أي سنة ٦٢ م من رومة.

رسالته إلى الفيليبيين وهي منقسمة إلى أربع فصول.

رسالته إلى الأفسسيين في ستة فصول.

رسالته إلى الكولسيين ذات أربعة فصول.

رسالته إلى فيلمون وهي فصل واحد.

وكتب ثلاث رسائل بين أسره الأوّل، والثاني وهي رسالته إلى العبرانيين منقسمة إلى ثلاثة عشر فصلاً كتبها سنة ٦٣ م من إيطالية.

رسالة إلى طيطس ذات ثلاثة فصول كتبها سنة ٦٤ م من مكدونية.

رسالته الأولى إلى تيموتاوس تحوي فصول كتبها في السنة والمدينة المذكورتين ثم كتب رسالة واحدة في مدة سجنه الأخير سنة ٦٦ م في رومة وهي رسالته الثانية إلى تيموتاوس حاوية أربع فصول. وأمّا نسقها الآن بمراعاة ما مرّ وكما كانت منسوقة منذ صدر النصرانية إلّا رسالة العبرانيين التي اختلف في وضعها فهو: رسالته إلى الرومانيين ثم رسالته الأولى إلى القرنثيين. ثم الثانية إليهم ثم رسائله إلى الغلاطيين، ثم إلى الأفسسيين، ثم إلى أهل فيليبية، ثم إلى أهل كولوسائس، ثم رسالته إلى طيطس، ثم إلى فيلمون وأخيراً رسالته إلى العبرانيين. ونسب بعضهم إلى الرسول رسالته إلى أهل اللاذقية ولكن لم تعتقد الكنيسة صحة نسبتها إلى بولس الرسول.

أما صحة نسبة هذه الرسائل إلى بولس الرسول فحقيقة لا مرية فيها، ولا يتخالج الكاثوليكيين ولا الهراطقة شك في صدقها، بل لم يمتر العقليون أنفسهم فيها لاسيما الرسائل الأربع الأولى منها، وهي أهمّها وحاوية كل ما في باقيها من أمرٍ ذي شأن. وقد امتدحها بطرس الرسول في رسالته الثانية (فصل ٣ عد ١٥) قائلاً: «كما كتب إليكم أيضاً أخونا الحبيب بولس على حسب الحكمة التي أوتيها كما في رسائله كلها أيضاً متكلماً فيها على هذه الأمور». وقد انطوت عليها ترجمات الأسفار المقدّسة التي وضعت منذ القرن الأوّل والثاني. وقد أثبت آباء الكنيسة من شرقيين وغربيين من القرن الأوّل فصاعداً أنّها قسم من العهد الجديد. وحققوا نسبتها إلى بولس الرسول ونقتصر على ذكر قليل من أقوال بعضهم. قال ترتوليانوس سنة ٢٠٧ (في رده مزاعم مرشيون): «الأحق ما كان أقدم ولا أقدم مما

تلقيناه عن الرسل، ولا جرم أنَّ ما تلقيناه عن الرسل إنَّما هو ما اعتقدته كنائسهم مقدساً، وإلهياً فهلمَّ ننظر في ما يعتقده المؤمنون في هذه الكنائس، وما يتلوه المسيحيون في قرنثية وغلاطية وفيليبية وسالونيكي ورومة». وقال أوريجانوس (سنة ٢٣ في تفسيره سفر يشوع بن نون: «إنَّ ربَّنا يسوع المسيح قد ضرب مدينة العالم المرموز إليها بأريحا، ودمَّرها وأمر رسله وكهنته أن يبشروا في كل صقع بالكلمة المقدَّسة، فكان متى أوَّل من أخذ بيده البوق الإنجيلي، وعقبه مرقس ولوقا ويوحنا، ثم بطرس برسالتيه، ثم يعقوب ويهوذا، ثم يوحنا برسائله ورؤياه، ولوقا بسفر أعمال الرسل، واخيراً من سمى نفسه آخر الرسل فإنَّه برسائله الأربع عشرة نقض قلعة عبادة الأوثان حتى أسَّسها ودك بناء الفلسفة الدنياوية المتشامخ». وقال القديس كيرلسي الأورشليمي (سنة ٣٤٧ في التعليم ال٩): «قد حسن للروح القدس أن يكتب باقي الرسل غير بولس رسائل قليلة، وأراد أن يكتب بولس أربع عشرة رسالة ولِمَ ذلك؟ لأنَّ بولس ابتدأ يضطهد الدين المسيحي. وأحق تعليم ما شهد له الأعداء والمضطهدون».

إنَّنا لا نطيل الكلام في اثبات رسائل بولس لأنَّ الهراطقة والعقليين لا يجحدون صحتها ونكتفي بما بسطناه من البرهان في عد ٤٩٣ في اثبات أسفار العهد الجديدكلها، على أنَّ الرسالة إلى العبرانيين قد أمتري أولاً في نسبتها إلى الرسول، ولذلك عدت من الأسفار القانونية المتأخِّرة، ووضعت في آخر رسائله على أنَّه قد ثبت من أقدم الدهر كونها منزلة، وقد كتبها بولس الرسول ونكتفي لاثبات ذلك بما مرَّ بك قبيله من شهادة أوريجانوس وكيرلس الأورشليمي إذ جعلا عدد رسائل بولس أربع عشرة رسالة.

عد ٥٠٨

يوحنا الرسول

إنَّ يوحنا الرسول هو ابن زبدي وصالومي ولد في بيت صيدا (راجع ما ذكرناه في عد ٥٠٣ عن هذه المدينة). وكان صياداً وظن بعضهم منهم فم الذهب وأبيفان أنَّه تتلمذ أولاً ليوحنا المعمدان قبل أن يتبع المخلِّص ولا حجة راهنة لهذا القول، وكان أخا يعقوب الكبير وقد سماه المخلِّص مع أخيه بوانرجس أي ابني الرعد لشدة

غيرتهما وعظم إيمانهما. وقال بعضهم منهم بولينوس وإيرونيموس إنَّ يوحنا كان أصغر الرسل ولم يكن عمره حين اتَّبع المخلِّص إلَّا خمساً وعشرين سنة أو ستاً وعشرين. وظنَّ بعضهم أنَّه كان العروس في العرس الذي شهده المخلِّص في قانا. والأصح أنَّه عاش متبتلاً إلى الله عمره كله. وكان للمخلِّص انعطاف خاص إليه. وقد سمى نفسه في الإنجيل التلميذ الذي كان يسوع يحبه وقد أظهر له المخلِّص حبه بأخذه ليرى تجليه، وباتِّكائه على صدره في العشاء السري، وكشف المخلِّص له عمَّن يسلمه واعتماداً على محبة المخلِّص له طلبت أمُّه إلى المخلِّص أن يجلسه وأخاه في ملكه أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. فسألهما المخلِّص أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها؟ قالا نعم نستطيع. فأجابهما المخلِّص أنَّ الكأس التي أشربها تشربانها وأمَّا جلوسكما عن يميني ويساري فهو لمن أعدَّه الأب له (متى فصل ٢٠ عد ٢٢). وقد أخذ المخلِّص بطرس ويعقوب ويوحنا إلى بستان الزيتون ليشهدوا حزنه وكآبته. ولم يهرب يوحنا عندما قبض الجنود على المخلِّص بل يظن أنَّه إنَّما هو الذي تبع المخلِّص إلى بيت قيافا، وجعل بطرس بعد ذلك يدخل إلى هناك (يوحنا فصل ١٨ عد ١٥). وقد رافق يسوع إلى المحل الذي صلب فيه ولما رآه قال لأمِّه يا امرأة هذا ابنك. وقال له يا يوحنا امك (يوحنا ف ١٩ عد ٢٦)، وبعدئذٍ اتَّخذ يوحنا العذراء بمنزلة أمِّه واهتمَّ بها وبحاجاتها حتى انتقالها. وبعد القيامة مضى يوحنا وبطرس وغيرهما من التلاميذ يصطادون في بحيرة طبرية. فظهر لهم المسيح على الشاطئ وعرفه يوحنا أولاً وقال لبطرس هذا هو الرب. وبعد أن تغدُّوا سأل بطرس يسوع وما يكون لهذا؟ فأجابه يسوع إن شئت أن يثبت هذا إلى أن أجيء فماذا لك أنت اتبعني. وقال يوحنا عن نفسه: «ذاعت هذه الكلمة فيما بين الاخوة إنَّ ذلك التلميذ لا يموت ويسوع لم يقل إنَّه لا يموت بل أن شئت أن يثبت إلى أن أجيء فماذا لك»؟ (يوحنا فصل ٢١ عد ٢٠) وظنَّ كثيرون بعد ذلك أيضاً أنَّ يوحنا لم يمت على أنَّ هذا يخالف رأي الجمهور والآثار البيعية. وبعد أن قبل الرسل الروح القدس مضى بطرس ويوحنا إلى الهيكل، فأبرأ المخلَّع من بطن أمِّه (أعمال الرسل فصل ٣ عد ١). فكانت هذه الآية سبباً لالقاء بطرس ويوحنا في السجن، لكنهم آخرجوهما في الغد (أعمال الرسل فصل ٤ عد ٣). ولما لم ينفكا يبشران ألقوهما ثانية في السجن مع باقي الرسل ففتح ملاك الرب أبواب السجن وأخرجهم فعادوا يعلمون في الهيكل. فاجتمع عليهم محفل اليهود، فجلدوهم

وأمروهم أن لا يتكلّموا باسم يسوع. وأطلقوا فخرجوا فرحين ولم يفتئوا مبشرين (أبركسيس فصل ٥). وأرسل بطرس ويوحنا إلى السامرة لتثبيت من كان فيلبوس الشماس ردهم إلى الإيمان وعمدهم (أعمال الرسل فصل ٨ عد ٥). وظنَّ بعضهم أنَّه مضى يبشّر البرتيين. وذكرت رسالته الأولى مسماة رسالة إلى البرتيين، وزعم بعضهم أنَّه بشَّر في الهند على أنَّ الأرجح والأمثل أنَّه بشَّر في آسيا، وأنَّه أقام مدة طويلة في أفسس وما جاورها. وأخذ العذراء معه إلى هناك ولا يعلم في أية سنة مضى إلى هناك. والمعلوم أنَّه لم يقم هناك مستمراً قبل سنة ٦٦ م التي قبض فيها على بولس في رومة. ولما أثار دومطيان الملك الاضطهاد على الكنيسة سنة ٩٥ م نفي يوحنا في أفسس واقتيد إلى رومة حيث ألقوه في مرجل زيت يغلي فلم تمسَّه مضرَّة. ذكر ذلك ترتوليانوس في كتابه في سقوط دعوى الهراطقة (فصل ٣٦)، وإيرونيموس في كتابه ضد يوفينيان (ك ١ راس ١٤). ثمَّ نفي إلى جزيرة بطموس وهناك كتب رؤياه، ولما قتل دوميطان سنة ٩٦ م وخلفه نرفا وأعاد المنفيين إلى أوطانهم عاد يوحنا إلى أفسس سنة ٩٧م، فسأله الأساقفة والمؤمنون في آسيا أن يكتب لهم إنجيلاً بما رأى وسمع من المخلّص، فأجاب سؤالهم بعد أن فرض عليهم صوماً وصلوات وجعل دأبه في إنجيله أيراد ما يثبت لاهوت المسيح خلافاً للهراطقة الذين كانوا حينئذٍ. وعاش يوحنا عمراً مديداً حتى لم يعد يمكنه أن يحضر في مجتمعات المؤمنين. فكان تلاميذه يحملونه إليها ولا أن يخطب خطبة طويلة فكان يقتصر على القول أبنائي فليحب بعضكم بعضاً فسئمت نفوسهم هذا التكرار. فقال هذا ما يأمركم به الرب وإذا عملتم به كان كافياً وفاضت نفسه في أفسس، (اغوسطينوس خطبة ٢٥٣) سنة ١٠٠ للتاريخ العامي. واختلف في عمره بين أن يكون من ٩٤ إلى ١٠٦ بل إلى ١٢٨ أيضاً ودفن في جانب افسس (ايرونيموس في المشاهير راس ١٩). وقد مدح المجمع الأفسسي هذه المدينة لاحتوائها على رفات هذا اللاهوتي الالهي. وحض البابا شالنتينوس اباء هذا المجمع أن يتبعوا تعليم يوحنا الرسول الذي من حظهم أن تكون ذخيرة جسده قريبة منهم. وروى بوجولا في مراسلاته في المشرق أنّ جبل بريون الذي في جانب افسس كان المسيحيون منذ الأعصر الأولى يحجون إليه لأنّ فيه مدفني تيموتاوس ويوحنا الرسول. وكنيستنا المارونية تعيد لنجاته من تعذيب دومطيان في ٨ ايار. وتسميه عيد الورد لتزين الكنائس بالورد عوضاً عن الزيت الذي عذب فيه، ثم تعيّد لانتقاله في ٢٩ ايلول.

ويقال في ترجمته إنّه دخل قبره حياً فحجبه نور فلم يرَ تلاميذه له عيناً ولا اثراً فالأولى اصلاح ذلك لمخالفته ما مرَّ من نص المجمع الافسسي.

أما حقيقة نسبة انجيل يوحنا إليه فثابتة بكل ما ورد في الكتب المخطوطة القديمة. وفي القوانين التي تحصي الأسفار المقدسة، وفي التقليد الذي حفظه لنا تاوافيل اسقف أنطاكية (توفي في سنة ١٨٠م)، والقديس ايريناوس (توفي في سنة ٢٠٢م)، واكليمنضوس الاسكندري (توفي سنة ٢١٧م)، وترتوليانوس (سنة ١٩٠م)، فكل هؤلاء ذكروا إنّ هذا الانجيل للرسول الحبيب. وذكر ايريناوس (ك ٢ فصل ٢٢): إنّه كتبه في افسس حيث بقي حياً إلى ايام ترايانوس (الذي ملك من سنة ٩٨ إلى سنة ١١٧م). بل أنّ الهراطقة نفسهم شهدوا بحقيقة نسبة هذا الانجيل إلى يوحنا. فتاوادوت ذكر يوحنا ستاً وعشرين مرة في فقر تأليفه التي أوصلها إلينا اكليمنضوس الاسكندري. وهرقليون فسر انجيل يوحنا ورد اوريجانوس تفسيره بل أنّ ذلك ثابت من نص الانجيل نفسه. فانك ترى يوحنا لم يصرح باسمه احتشاماً حيث كان يلزم التصريح كقوله: «واشار بطرس إلى التلميذ الذي كان يسوع يحبه» الخ وقوله: «هذا هو التلميذ الذي شهد لهذا وكتبه». ولم يسمِ نفسه رسولاً بل تلميذاً، ويؤيده انّه واضح انّ كاتب هذا الانجيل كان يهودياً ومن جملة الرسل ولغته سريانية. حتى ذكر آمين آمين أي الحق الحق أقول لكم خمساً وعشرين مرة في انجيله والحاصل أنّ هذا مما لا يتردد فيه.

ومن البيّن أيضاً أنّ هذا الانجيل كتب بعد الاناجيل الثلاثة لأنّ كاتبه ترك أموراً كثيرة اعتماداً على أنّها كتبت قبله. فقلّ ما كتب شيئاً عن انذار المسيح في الجليل. ولم يذكر ابداع المسيح الاوخارستيا مع أنّه ذكر خطبته في هذا السرّ بأثر تكثيره الخبز. ولم يذكر أيضاً قول المخلص لبطرس أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي. وأهمل ذكر ابراء المعترين من الشيطان. وهلمّ جرّا في أمور لم يرغب عن ذكرها إلّا لأنها كتبت في الأناجيل الثلاثة.وتراه قد أشار مرات كثيرة إلى ما كتب في الأناجيل الأخرى مثلاً قد ذكر في الفصل الأول إنّ يوحنا المعمدان قال عن المسيح: «وأنا رأيت الروح مثل حمامة قد نزل من السماء واستقر عليه». فهذا يفترض العلم بتبشير يوحنا الذي ذكره متى ومرقس. وفي الفصل السادس قال أنّ العازر كان من بيت عنيا قرية مريم ومرتا مع أنّه لم يتكلم عن هاتين الأختين. ولم يشر بشيء إليهما معتمداً أنّ القارئ يعلم ذلك من الأناجيل الأخرى. وبالجملة أنّ

المتأمل في انجيله يرى إنّه تعمد أمرين: أن لا يعيد ما قاله غيره، أو أن يثبت ما كتبه الانجيليون الآخرون بايراد قرائن وتفاصيل حديثه كما ترى في خبر الأعمى الذي فتّح المخلص عينيه (فصل ٩). واما سمو انجيله فبيّن من فاتحته: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله، والله هو الكلمة هذا كان في البدء عند الله كلٌّ به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» الخ.

إنّ ليوحنا أيضاً ثلاث رسائل كتبها في آخر حياته الأولى كتبها سنة ٩٥م وحقق نسبتها إليه الآباء الأولون ونفسها مطابق نفس انجيله. بل قال بعضهم إنّه كتبها تمهيداً لاذاعته الانجيل، وتعتبر كخلاصة له. وقال بعض الآباء القدماء إنّه بعث بها إلى اليهود المتنصرين في بلاد البرتيين كما مرَّ، على أنّه لا حجة للاستمساك بهذا القول. فالأولى أنّه كتبها للكنيسة كلها وهي منقسمة إلى خمسة فصول. واما رسالتاه الثانية والثالثة فنسبتهما إليه محققة كما مرَّ، وان لم تشتملا على اسمه ففي الثانية يهنئ السيدة المصطفاة، وانبائها بمعرفتهم الحق وثباتهم فيه، ويحضهم على الثبات في الايمان والمحبة والأعمال الصالحة، ويحذرهم من المضلين. واما من تكون تلك السيدة المصطفاة فزعم بعضهم أنّها امرأة مسماة مصطفاة سنداً إلى أنّه ذكر في آخر رسالته أختاً لها مسمّاة مصطفاة أيضاً. والكثيرون على أنَّ المراد إحدى الكنائس ككنيسة أفسس أو رومة. فقالوا إنَّ المصطفاة وصف لا علم. وقال آخرون إنَّ السيّدة علم بمعنى مرتا ܡܪܬܐ السريانية والمصطفاة وصف، وجهل الرسول رسالته احتراساً من أن تقع في يد أحد المضطهدين. وأمّا الرسالة الثالثة فوجهها إلى غايوس يظهر له بها حبه وسروره بصدقة وكيفية سلوكه بالحق. ويحذره من ديوترنيس المتكبّر الذي لم يكن يقبل الاخوة ويطرد من الكنيسة من يقبلونهم. وقال في الرسالتين إنَّ أموراً كثيرة لم يحب أن يكتبها بقلم ومداد، لكنه يرجو أن يبلغهم إياها مشافهة. وليوحنا أيضاً سفر الرؤيا وسنفرد للكلام فيه العدد التالي.

عد ٥٠٨ (تابع)

رؤيا يوحنا

كان مستلزماً أن يكون في العهد الجديد قسم نبوي كما كان في العهد العتيق، وأن يكون للكنيسة في مهدها وحي من الله مبين ما سيكون لها ليشجع المؤمنين على تحمّل الاضطهاد الآتي. وكما افتتح العهد القديم بخبر خلق العالم كان

لازماً أن يختتم العهد الجديد بخبر نهاية العالم، وملك المخلِّص الأبدي. فجاءت رؤيا يوحنا متممة ما كان لازماً. وقد أجمع الآباء على حقيقة نسبة هذا السفر إلى يوحنا الرسول. ولم يجحد ذلك العقليون أنفسهم فقد ثبت ذلك بالترجمة الإيطالية سنة ١٥٠م، وفي قانون موراتي للأسفار المقدَّسة سنة ١٧٠م. وقد وضع هذا السفر قبل رسائل بولس وبشهادات هرمس في أواسط القرن الثاني، وإيبوليطوس (الذي توفي سنة ٢٥٠م في كتابه في المسيح والدجال)، وترتوليانوس (في رده مرشيون سنة ٢٠٧)، وقبريانوس (رسالته ٢٦ في سنة ٢٥٦م). وأعظم من كل ذلك شهادة القديس يوستينوس الذي ولد في نابلس وبشَّر في أفسس بعد نحو ثلاثين سنة فقط من موت يوحنا فيها. وذكر في جداله مع تريفون الرؤيا بمنزلة سفر مقدَّس معلوم عند الجميع. ومن شاء الاطِّلاع على البينات المثبتة ذلك فليطالع الموجز الكتابي لفيكورو (مجلَّد ٤ عد ٩٠٢) إنَّ يوحنا الرسول كتب هذه الرؤيا في منفاه في بطموس أو بعده دون مهلة. وقد نفي في آخر ملك دومطيان على ما روى القديس إيرونيموس. فتكون كتابتها سنة ٩٥م وقد قسم هذا السفر إلى ثلاثة أقسام.

أوَّلها يشتمل على فصوله الثلاثة الأولى متضمنة فاتحة كلامه، وتنبيهات إلى أساقفة سبع كنائس في آسية وهي: أفسس، وأزمير وبرغاموس وتيتيرا، وسرديس، وفيلادلفية، واللاذقية حيث يونِّب بعض هؤلاء الأساقفة ويمدح بعضهم. ويحذرهم جميعاً من خطرين الهرطقة في الحال والاضطهاد في الاستقبال؛ والقسم الثاني يبتدئ من الفصل الرابع وينتهي في الفصل التاسع عشر متضمناً رؤى نبوية ظهرت ليوحنا منها أنَّه رأى عرشاً موضوعاً في السماء ومنظر الجالس عليه كحجار ثمينة، وحوله أربعة وعشرون عرشاً عليها أربعة وعشرون شيخاً، وحول العرش أربعة حيوانات ممتلئة عيوناً من قدام ومن وراء يراد بالعرش عرش الله في السماء. والأربعة والعشرين شيخاً اثنا عشر من قديسي العهد القديم والاثنا عشر رسولاً في العهد الجديد. والمراد بالحيوانات الأربعة الإنجيليون الأربعة. وقال إنَّه رأى كتاباً مكتوباً من داخل ومن خارج ومختوماً بسبعة ختوم. ولما فتحت هذه الختوم خرجت أفراس. ورأى المقتولين لأجل كلمة الله وحدثت زلزلة عظيمة، ثم تراءى له ملائكة يريدون الاضرار بالأرض، وقد أعطوا سبعة أبواق وعند نفخ كل منهم في بوقه حصلت ضربة في الأرض. وظهرت في السماء امرأة ملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر، وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً، وهي حبلى تتمخَّض. وظهر تنين له سبعة

رؤوس وعشرة قرون، وعلى أرؤسه سبعة أكاليل. ووقف قبالة المرأة المشرفة على الولادة ليبتلع ولدها وهربت المرأة إلى البرية. ورأى وحشاً طالعاً من البحر وله سبعة أرؤوس وعلى قرونه عشرة أكاليل والحمل قائماً على جبل صهيون ومعه مئة ألف وأربعة وأربعون ألفاً يسبحون تسبحة جديدة. وملاكاً يطير في وسط السماء ومعه الإنجيل الأبدي وتبعه ملاك آخر يقول سقطت بابل العظيمة التي سقت جميع الأمم من خمر غضب زناها، وتبعهما ملائكة ينزلون في الأرض ضربات ويصبون جامات غضب الله عليها. ثمّ جاء أحد الملائكة وأراه دينونة الزانية العظيمة وهلاكها وفسّر له بعض هذه الرموز.

وقد اختلف في تفسير هذه الرموز وللمفسرين فيها أربعة مذاهب. فمن قائل إنّها تشير إلى الحروب والاضطهادات التي تكون للكنيسة إلى نهاية العالم. ومن قائل إنّها نبوات على أحداث تكون في آخر الزمان تتقدّم وترافق مجيء المسيح الأخير. ومن قائل إنّها تشير إلى ما يكون في القرون الأولى من الاضطهاد للمسيحيين، وانتصار الكنيسة على الوثنية ومن قائل إنّ بعضها يشير على ما يكون في القرون الأولى. وبعضها إلى ما سيكون في نهاية العالم. وأنّ الاضطهادات التي أنزلها الملوك الرومانيون بالمسيحيين وانتهت بخراب رومية تمثل الاضطهادات التي يجريها الدجال وتعقبها نهاية العالم. فالمفسرون مجمعون على أنّ هذه الرموز تشير إلى ظفر المخلِّص بأعدائه، وعلى أنّ المراد ببابل رومة مركز الوثنية حينئذٍ لكنهم مختلفون في الزمان والمواقع. والأظهر والذي عليه الجمهور الآن من هذه المذاهب أنّ هذه الرموز تشير إلى معاقبة الوثنية، واضطهادها الدين المسيحي في القرون الأولى. وليس الكلام النبوات قريب، وإنّ الله أمره أن يعجل إذاعتها ولأنّ الغرض منها تعزية المؤمنين وتشجيعهم على تحمُّل الاضطهاد، ولا شيء منهما إن كان لا انتصار ولا راحة إلّا في نهاية العالم. وقد أفصح كاتب الرؤيا بأنّه سيكون زمان راحة وسلم طويل عبر عنه بألف سنة، ولأنّه يستحيل على مفسّر ذي رأي سديد أن يفهم غير رومة ببابل التي وصفها يوحنا بأنّها سكرى من دم القديسين، وإنّها مبنية على سبعة جبال إلى غير ذلك من وصفه لها. فإذاً المراد بالوحش ذي القرون السبعة ملوك رومانيون اضطهدوا المسيحيين. وبالمرأة الملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر، وعلى رأسها اثنا عشر اكليلاً الكنيسة والمسيح شمسها والاثنا عشر رسولاً أكاليلها وهي منتصرة على غير العالم واضطراباته. ويشار إلى ذلك بوضع القمر

تحت قدميها ويشار بالختوم إلى قضاء الله على المضطهدين، وبالأبواق إلى إذاعة هذا الأمر المقضى، وبالجامات إلى تنفيذه بخراب أورشليم، واستيلاء البربر على رومة. وقلَّ الآن من يتردَّد في صحة هذا التفسير أي أنَّ المراد بنبوات الرؤيا ظفر المسيح بالوثنية، وخراب رومة وقرض المملكة المضطهدة بعد أن جعله بصويت الشهير ومن تابعه بمعزل عن الشك.

وأما القسم الثالث من هذا السفر الذي يشتمل عليها الفصل العشرون إلى آخر الثاني والعشرين فموضوعه الكلام في ما يتقدَّم القيامة العامة والدينونة الأخيرة، وانتصار المسيح والقديسيين الأخير، ووصف السماء. ثم خاتمة قال فيها يوحنا: «من زاد شيئاً على هذه يزيد الله عليه الضربات المكتوبة في هذا الكتاب. ومن أسقط من كلمات كتاب هذه النبوات يسقط الله نصيبه من سفر الحياة، ومن المدينة المقدَّسة ومما كتب في هذا الكتاب».

عد ٥٠٩

متى الرسول

إنَّ متى الرسول ولد في الجليل، وكان يهودياً مذهباً، واسم أبيه حلفى (غير حلفى أبي يعقوب). وكان عشاراً يجبي العشر على ما ذكره مرقس (فصل ٢ عد ١٤). وسماه باقي الانجيليين لاوي ولكن سمّى نفسه متى. وقال إنّ المسيح رآه جالساً عند مائدة الجابيين فقال له اتبعني، فقام وتبعه (متى فصل ٩ عد ٩). فذكر مهنته تعظيماً لنعمة المخلص واحسانه إليه. وكان موطنه كفرناحوم. وقد أولم فيها للمخلص وأتى كثيرون من العشارين والخطأة، واتكأوا مع يسوع فقال الفريسيون لتلاميذه: ما بال معلمكم يأكل ويشرب مع العشارين والخطأة؟ فأجابهم يسوع: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب.

قد وهم بعض القدماء واكثر اليونان إنّه أخو يعقوب الصغير ابن حلفى استناداً إلى وصفه بابن حلفى. ولكن ذلك مردود وغير صحيح وروى عنه اكليمنضوس الاسكندري (ك ٢ فصل ١) إنّه لم يكن ياكل لحماً بل كان يقتصر على القوت بالثمار والبقول. واختلف في مكان تبشيره فقال بعضهم منهم بولينوس (في قصيدة ٢٦). وايرونيموس (في تفسير المزمور ٤٥) إنّه بشر ونال اكليل الشهادة في بلاد

فارس. أو في بلاد البرتيين أو في قرمانية الخاضعة لهم وقتئذ. وقال غيرهم منهم روفينوس (ك ١٠ فصل ٩)، وسقراط (ك ١ راس ١٩) إنّه بشر ومات في الحبشة وهو المعول عليه في موجز تراجم القديسين لبولس كاران في ٢١ ايلول. ومما ورد ان ملك الحبشة والملكة آمنا بالمسيح على يده وإنّ ابنتهما افحاني نذرت بتوليتها لله حتى ظن بعض العلماء أنّه منشئ طريقة الرهبانية للأناث. واختلف في ميتته أيضاً. فروى اكليمنضوس الاسكندري (في ك ٤ في اللفيف) إنّه لم يغادر هذه الحياة شهيداً بل قضى حتف انفه. وتابعه على ذلك بعض الآباء الشرقيين على ما يظهر. وقال نيكوفور (ك٢ راس ٤١) إنّ المضطهدين اضرموا حوله ناراً فطفئت بصلاته ثم مضى إلى ربه بدون عذاب. وقال ادون وكثير من الغربيين ان استأثر به شهيداً. وفي تراجم القديسين أنّ أحد ملوك الحبشة ارسل جنوداً قتلوه وهو يقدس لمنعه افحاني المذكورة عن التزوج به. والكنيسة اللاتينية تحتفل بعيده في ٢١ ايلول وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٦ تشرين الثاني وتعمّده شهيداً فاز باكليل الشهادة سنة ٩٠م.

وروى بارونيوس في تاريخ سنة ٩٥٤م. إنّ رفاته نقل من الحبشة إلى بريطانيا أو بيتينيا ثم إلى سالرن في ايطاليا سنة ٩٥٤م وكان مخفياً وجد سنة ١٠٨٠ فاقام الدوق روبر كنيسة كبيرة على اسمه نقلت ذخيرة جسده إليها في عهد البابا غريغوريوس السابع. كما يظهر من براءة لهذا البابا إلى إلغان اسقف هذه المدينة ومن براءة اكليمنضوس البابا (ك ٨ فصل ٢٥). روى اوسابيوس (في ك ٣ من تاريخه راس ٢٤) إنّ المؤمنين في فلسطين رغبوا إلى القديس متى أن يكتب لهم قبل أن يمضي إلى التبشير عند غيرهم ما انذرهم به مشافهة. وعن اوسابيوس وايريناوس أنّ الرسل سألوه ذلك أيضاً، فكتب انجيله في اللغة السريانية لغة اليهود يومئذٍ. واختلف في تاريخ كتابته الانجيل والاظهر الذي رواه فيكورو (في الموجز الكتابي مجلد ٣ عد ٥٢) إنّ ذلك بين سنة ٤٥ وسنة ٤٨م إذ أخذ الرسل في التفرق إلى الآفاق. واجمع الآباء على أنّه كتب في العبرانية لغة اليهود حينئذٍ. وهي السريانية الكلدانية. وممن ذكروا ذلك اوسابيوس القيصري في محال عديدة منها ما ذكرناه آنفاً (ك ٢ فصل ٢٤). وقال القديس ايريناوس إنّ متى كتب انجيله إلى العبرانيين بلغتهم الخاصة. وقال (في ك ٥ فصل ١٠) متكلماً في بنتانوس الفيلسوف إنّه روى عنه إنّه انتهى إلى الهند فوجد انجيل متى عند أهل هذه البلاد قبل وصوله

اليهم لأنّ برتلماوس أحد الاثني عشر رسولاً بشر هناك كما هو الشائع. وترك لهم انجيل متى مكتوباً بالاحرف العبرانية. وقال إنّه كان محفوظاً إلى تلك الأيام. واستشهد (ك ٦ فصل ٢٥) قول اوريجانس في الأسفار المقدسة: «الذي تلقيناه عن التقليد انما هو ان الاناجيل في الكنيسة أربعة لا غير وليس من يخالجه الشك في قبولها وأولها الانجيل الذي كتبه متى الذي كان أولاً عشاراً، ثم رسولاً ليسوع المسيح. وكتب هذا الانجيل باللغة العبرانية واذاعه على اليهود المتنصرين. وكذا قال القديس كيرلس الأورشليمي (في التعلم ١٤)، والقديس ايرونيموس (في المشاهير فصل ٢) وغيرهم كثيرون من الآباء. ولنا بيّنات قاطعة من هذا الانجيل نفسه على أنّ متى كتبه لليهود المتنصرين في فلسطين، بدليل كثرة استشهاده العهد القديم. وذكره نسب المسيح في الجسد بحسب أسفاره، وتسميته ابن داود، وتسميته أورشليم المدينة المقدسة، واكثاره من ايراد شهادات الانبياء. وقوله مرات ليتم ما قيل بالنبي، وكما هو مكتوب، وليتم الكتاب. ولو كتبه إلى الأمم لاستعمل أسلوباً آخر ولما كان دأبه استشهاد العهد القديم، ولكانت له طرايق آخرى في كلامه اليهم ولفسر الشرائع وعادات البلاد التي ذكرها. فإذاً لم يكتب انجيله إلّا إلى اليهود المتنصرين أو إليهم بالنوع الأخص. وقد أثبتنا بالاسهاب أنّ لغتهم العامة في فلسطين كانت في أيامه السريانية الكلدانية (طالع عد ٤٩٦) فيتحتم انّه كتب بهذه اللغة.

على أنّ النص السرياني لم ينتشر كثيراً لأنّ هذا الانجيل ترجم إلى اليونانية منذ القرن الأول. ولا يعلم مترجمه حتى جهله القديس ايرونيموس وبابيا. وقال بعضهم إنّ متى نفسه ترجمه إلى اليونانية كما ترجم يوسيفوس مؤلفه في حرب اليهود من لغة أمته إلى اليونانية. وعزا بعضهم هذه الترجمة إلى يعقوب الصغير اسقف أورشليم. وبعضهم إلى يوحنا الانجيلي أو بولس الرسول أو لوقا البشير أو برنابا. وقد فُقِدَ الأصل السرياني كما فُقِدَت أصول أسفار طوبيا ويهوديت وسفر الكابيين الأول المكتوبة بالسريانية، ولكن قد بقي إلى القرن الخامس انجيل يُعرَف بانجيل العبرانيين أو انجيل متى العبراني، افهذا هو انجيل متى السرياني الأصلي أم هو انجيل آخر؟ فقال كثير من علماء الكنيسة إنّه نص متى السرياني على أنّ الفقر الباقية منه في كتب ايرونيموس واوريجانس واوسابيوس وابيفان تختلف كثيراً عن ترجمة انجيل متى اليونانية لا من حيث الألفاظ وأساليب التعبير، بل من قبل زيادات وحذف وتغيير مهم. وقد أشار القديس ابيفان إلى ذلك (بدعة ٢٩) إذ قال إنّ الانجيل العبراني

كانت تستعمله شعبتان من المتهودين الناصريين، والأبيونيين فيظهر أنّ هؤلاء الهراطقة الذين كانوا يريدون أن يكونوا يهوداً ومسيحيين معاً حرقوا هذا الانجيل. وحذفوا منه وأرادوا تطبيقه على مبادئهم وهذا يبين سبب الخلاف بين الآباء. فإنّ بعضهم كان يعتمد على الانجيل العبراني وبعضهم لا يعتدّ به إلى أن نبذت الكنيسة هذا الانجيل ولم يعد يظهر له أثر بعد القرن الخامس. ونسب بعضهم إلى القديس متى كتباً أخرى منها كتاب طفولة يسوع المسيح، وحرّمه البابا جيلاسيوس وليتورجية في الحبشة لكنها غير صحيحة النسبة إليه.

عد ٥١٠

يعقوب الرسول بن حلفى

إنَّ يعقوب هذا غير يعقوب بن زبدى أخي يوحنا الرسول، ويسمى الصغير امَّا لقصر قامته امَّا لأنَّه كان أصغر سناً من يعقوب بن زبدى كما مرَّ. ويسمَّى أخا الرب لأنَّه كان نسيباً للمخلِّص من جهة حلفى أبيه، أو من جهة مريم أمِّه. وزعم بعضهم أنَّ يعقوب بن حلفى غير يعقوب أخي الرب. وأسقف أورشليم على أنَّ زعمهم هذا منقوض برأي الجمهور وبما أشار إليه لوقا في كتاب أعمال الرسل (فصل ١٥ عد ١٣ وف ٢١ ع ١٨)؛ من أنَّه كان أسقف أورشليم وتصريح الرسول (في رسالته إلى غلاطية ف ١ ع ١٩) بأنَّ يعقوب هذا هو أخو الرب إذ قال: «ولم أرَ غيره (أي غير بطرس) من الرسل سوى يعقوب أخي الرب». وروى عن أكليمنضوس الاسكندري وهجيسبس ذكرهما أوسابيوس (في تاريخه ك ٢ راس ١) إنَّه كان قدوة يقتدى بقداسته وبره حتى لقب بالصديق. وقال أبيفان (بدعة ٧٨) إنَّه كان كاهناً للرب ونذيراً له من حشاء أمه لا يشرب خمراً ولا مسكِّراً ولا يحلق شعره. وممَّا رواه هولاء عنه أنَّه استنزل المطر من السماء بصلاته عند احتباسه مدة طويلة. وجاء في التلمود أنَّه صنع آيات كثيرة حيث يسميه يعقوب تلميذ يسوع النجَّار. وقد تراءى له وحده المسيح بعد قيامته كما ذكر الرسول قرنثية ١ ف ١٥ ع ٧) قائلاً: «ثم تراءى ليعقوب ثمَّ لجميع الرسل». وظنَّ كثيرون أنَّ المسيح أقامه حينئذٍ أسقفاً على أورشليم. من هولاء أوسابيوس في تاريخه (ك ٢ ف ١)، وفم الذهب (في تفسير بشارة يوحنا)، وأبيفان (في بدعة

٧٨). لكنه لم يباشر أسقفيته على أورشليم إلّا بعد براح بطرس والرسل منها. ولمّا أتى بولس المرة الأولى من دمشق إلى أورشليم زار يعقوب أخا الرب بعد زيارته بطرس كما رأيت في قوله السابق ذكره، وقد أبدى رأيه في مجمع أورشليم كما جاء في أعمال الرسل (ف ١٥ ع ١٣)، وعده الرسول بين أعمدة الكنيسة في رسالته إلى الغلاطيين (ف ٢ ع ٩).

ويظهر أنَّ القديس يعقوب أقام على كرسي أورشليم نحواً من ثلاثين سنة على ما روى القديس إيرونيموس في كتابه في مشاهير المؤلفين البيعيين. وكان يجله الجميع لحكمته وفضيلته حتى غير المؤمنين أيضاً كما روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٢٠ ف ٩). على أنَّ هذا لم يقهِ شرَّ الخبثاء منهم وحسدهم فقد ذكرنا (عد ٤٨١) نقلاً عن يوسيفوس إنَّ حنان بن حنان (الذي كان في عهد المخلِّص) رئيس الكهنة انتهز فرصة وفاة فستس والي اليهودية، وتأخّر البيِّن خليفته عن الوصول إلى أورشليم. فجمع مجمعاً وأشخص يعقوب إليه وشكاه بمخالفة السنَّة، وقضى عليه بالرجم فأصعدوه على إحدى شرفات الهيكل واستنطقوه في شأن المسيح، فقال إنَّ يسوع المسيح الذي تقولون إنَّه ابن انسان هو جالس الآن عن يمين العظمة بما أنَّه ابن الله وسوف يأتي على سحب السماء ليدين العالم. فطرحوه من شرفة الهيكل فلم يمت بل جثى على الأرض يصلِّي من أجل أعدائه. فأخذ الكتبة والفريسيون يرمونه بالحجارة بمقتضى حكم حنان. وروى أكليمنضوس الاسكندري وأوسابيوس وأبيفان إنَّه دنا منه أخيراً قصَّار فضربه بهراوة على رأسه، ففاضت روحه القدوسة. وروى أوسابيوس (ك ٢ ف ٢٢) من تاريخه، وإيرنيموس (في المشاهير ف ٢) إنَّه دفن في جانب الهيكل في محل شهادته، فأقام المؤمنون له هناك مدفناً استمرَّ إلى أن أخرب الرومانيون أورشليم. وكانت وفاته سنة ٦٢ أو ٦٣ م للمخلِّص وساء قتله بعض اليهود أيضاً فأرسلوا يخبرون أغريبا والبين بجسارة حنان واغتياله يعقوب، وعزله أغريبا من رياسة الكهنوت ونصب فيها غيره كما مرَّ (في عد ٤٨١). وقد ذكر هجيسبس خبر يعقوب هذا كما رويناه عن يوسيفوس أيضاً. وكان هجيسبوس نحو سنة ١٢٠ م للمخلِّص وهو يهودي أصلاً. وروى أقواله أوسابيوس في تاريخه (ك ٢ ف ٢٣) ومما قاله إنَّ المؤمنين في أورشليم قد حفظوا حرمة ليعقوب الكرسي الذي كان يجلس عليه. وكانت باقية

إلى أيامه (وقد كان أوسابيوس من سنة ٢٦٥ إلى سنة ٣٤٠ م) والكنيسة اللاتينية تعيد لذكراه في شهر أيار. وكنيستنا المارونية في ٩ تشرين الأوّل؛ وقد نقلت عظامه المباركة إلى رومة. والملك كرلس الكبير ملك فرنسة نقل قسماً منها إلى تولون (موجز تراجم القديسين في ١ أيار).

وليعقوب الرسول رسالة يظهر أنّه كتبها سنة ٦٢ م قبيل وفاته إذ يؤخذ منها أنّه دوّنها بعد أن بارح بطرس الرسول اليهودية. وربّما بعد أن كتب رسالته إلى المؤمنين في آسيا الصغرى وبعد أن كتب بولس رسالتيه إلى الرومانيين والغلاطيين. وفسّرهما بعضهم بغير معناها الصحيح، فإنّ كلام يعقوب في لزوم الأعمال الصالحة لا يظهر له سبب إلّا تأوّل هؤلاء بعض أقوال الرسول بغير المعاني الموضوعة لها، ولا مراء في أنّه كتبها في أورشليم لأنّه لم يغترب عنها؛ على أنّ هذه الرسالة وإن كانت من الأسفار القانونية المتأخّرة لامتراء بعضهم أوّلاً في قانونيتها، فقد أجمع الآباء بعداً على أنّها منزلة وموحاة. ونراها مثبتة في الترجمة السريانية التي وضعت في القرن الأوّل، وفي الترجمة الإيطالية التي وضعت في القرن الثاني. وأثبت قانونيتها من الآباء القدماء القديس أكليمنضوس (في رسالته ١ إلى القرنثيين)، والقديس إيريناوس (ك ٤ ف ١٣)، واكليمنضوس الاسكندري على ما روى أوسابيوس (ك ٢ من تاريخه ف ٢٣)، وتورتوليانوس (في كتابه ضد اليهود ٢) وأوريجانوس (رواه أوسابيوس ك ٣ ف ٢٥). ولم ينبذها البروتستنت في هذه الأيام ولا العقليون. ولم يسقطها لوتر من عداد الأسفار المقدّسة إلّا لمخالفتها صراحة زعمه أنّ الأعمال الصالحة لا نفع منها. وهذه الرسالة منقسمة إلى خمسة فصول حض المؤمنين بها على الثبات في الإيمان، وعلى الإحسان إلى الفقراء، وعلى عمل الأعمال الصالحة وعدم الاكتفاء بالإيمان المجرّد عن العمل. وأنّب معلّمي الضلال وأبان فروض بعض طبقات الناس، وأثبت أنّ مسحة المرضى سر من أسرار الكنيسة، وأشار إلى الاعتراف السري، ويعزى إليه نافور القداس المعروف باسمه في جميع فروع الكنيسة السريانية كاثوليكية كانت أم غير كاثوليكية. وحسبه العلماء أوّل نافور في الكنيسة، وإن لم يكن هذا الرسول دونه فلا أقل من أنّه مشافهة إلى الكهنة فحفظ تقليداً إلى أن كتب.

عد ٥١١
باقي الرسل

إنَّ أندراوس الرسول هو بن يونا وأخو بطرس نشأ في بيت صيدا، وكان صياداً وتتلمذ أوَّلاً ليوحنا المعمدان. ولما سمع معلِّمه يقول عن يسوع هوذا حمل الله تبع يسوع مع تلميذ آخر وأتيا مع المخلِّص إلى حيث أقام. فكان أندراوس أوَّل من دعاهم المسيح لاتباعه. وبعد أن مضى من عنده وجد أخاه سمعان فقال له قد وجدنا المسيح، وجاء به إلى يسوع ولما رآه سماه كيفا أي الصفا كما رأيت. على أنَّ أندراوس وبطرس لم يلازما يسوع بعد ذلك على شاطئ بحيرة طيبارية فدعاهما إلى ملازمته قائلاً إنّه سيجعلهما صيادي الناس، فتركا شباكهما واتبعاه (متى فصل ٣ عد ١٨ ومرقس فصل ١ عد ١٦ ولوقا فصل ٥ عد ٢). ولم يكن اندراوس متزوجاً بل كان يقيم ببيت أخيه في كفرناحوم، ولم يذكر اندراوس في الانجيل إلّا ثلاث مرات إذ سأل فيلبس من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟ فقال اندراوس إنّ ها هنا غلاماً معه خمسة أرغفة من شعير وسمكتان (يوحنا فصل ٦ عد ٥ وما يليه). وإذ أتى اناس من الأمم وسألوا فيلبس أن يروا يسوع فجاء فيلبس وقال لأندراوس، واندراوس وفيلبس قالا ليسوع (يوحنا فصل ١٢ عد ٢١)، وإذ سأل يسوع مع غيره من التلاميذ عن خراب الهيكل قائلين له: متى يكون هذا؟ (مرقس ص ١٣ عد ٣).

لم يذكر لنا كتاب أعمال الرسل شيئاً عن اندراوس إلّا ما ذكره عن الرسل اجمالاً. ولم يأتِ ذكرهُ في رسائل بولس والذي أنبأنا به التقليد وأقوال الآباء والعلماء القدماء إنّه بشر في بلاد التتر بعد أن اجتاز مبشراً الجالّات اليونانية على شاطئ البحر المتوسط إلى بوغاز الدردنيل وفي هرقلية وترابيزوند. واقبل إلى بيزنطية وهي القسطنطينية، وعبر من هناك إلى بلاد اليونان (القديس ايرونيموس في رسالته ٥٩ إلى مرسلوس)، وتاوادوريطس (في مزمور ١١٦) ونيكوفورس القسطنطيني في تاريخه، ونيكوفورس كاليستوس (ك ٣ فصل ٣٩). وقال بعضهم إنَّه هو مؤسس كنيسة القسطنطينية، وإنَّه اقام فيها أسقفاً اوسطاكيوس الذي سماه بولس الرسول حبيبه؛ على أنّ البابا نيقولاوس الأول أثبت أنّ هذه الكنيسة لم يؤسسها رسول من الرسل بل اقام اسقفاً في هرقلية كما ذكر البابا جلاسيوس في رسالته إلى اساقفة

الدردنيل. ونال اندراوس اخيراً اكليل الشهادة مصلوباً في اخائيا في بلاد اليونان في مدينة بتراس، ولم نعثر حتى الآن على تاريخ يعين سنة استشهاده. ودفن في بتراس ثم نقلت رفاته إلى القسطنطينية حيث صنع آيات كثيرة كما روى كوميفينيوس في كتابه في كاتبي الأسفار المقدسة، وفي موجز تراجم القديسين المذكور مراراً (في ٣٠ تشرين الثاني) إنّ وفاته كانت سنة ٦٢ م، وانَّ جسده نقله إلى القسطنطينية الملك قسطنطين الكبير، وأنّ ذلك يظهر من خطبة فم الذهب في أنَّ المسيح إله. وكنيستنا المارونية تعيد لذكره في ٣٠ تشرين الثاني كاللاتينية بمنزلة شهيد على الصليب.

يعقوب الكبير هو ابن زبدى وصالومي، وأخو يوحنا الانجيلي وكان من بيت صيدا، وكانت حرفته صيد السمك مع أخيه وأبيه. وقد وجدهم المخلص يصلحون شِبَاكهم في السفينة فدعا يعقوب ويوحنا أخاه، فتركا أباهما في السفينة مع الأجراء واتبعاه (مرقس فصل ١ عد ١٩)، وكانا شاهدين لتجليه كما روى (متى فصل ١٧ عد ٢). ولما دخل يسوع قرية للسامريين ولم يقبله أهلها سأله يعقوب ويوحنا قائلين اتريد ان نطلب أن تنزل نار من السماء وتأكلهم؟ فزجرهما قائلاً لستما تعلمان من أي روح أنتما (لوقا فصل ٩ عد ٥٣). وظن بعضهم أنَّ هذا هو الوجه لتسميتهما بوانرجس أي ابني الرعد. وروى ايرونيموس في كتابه في المشاهير فصل ٢٥ إنَّه بشر اسباط إسرائيل الاثني عشر المتشتتين في الآفاق ولكن هذا لا يمكن فهمه على اطلاقه؛ فالأوجه ما جاء في موجز تراجم القديسين إنّه بشر اليهود في فلسطين وسورية. وبموجب تقليد العلماء الآسيويين وغيرهم انه بشر اليهود في اسباط أيضاً، وعاد إلى أورشليم. وقد جاء في أعمال الرسل (فصل ١٢ عد١) أنّ اغريبا المسمى هيرودس قبض عليه، وقتله بحد السيف في أورشليم سنة ٤٢م أو سنة ٤٤م للمخلص كما مرّ (في عد ٤٧٨)، ودفن جسده في أورشليم، ثم نقله تلاميذه الذين من اسبانيا إلى كاليس في هذه المملكة. والكنيسة اللاتينية تعيد له في ٢٥ تموز، وكنيستنا المارونية في ٣٠ نيسان، وتذكر تبشيره في اسبانيا وعوده إلى أورشليم.

فيليبوس الرسول وِلِدَ في بيت صيدا ودعاه المسيح فاتبعه، ثم وجد فيليبوس نتنائيل فقال له إنَّ الذي كتب عنه موسى في الناموس والانبياء قد وجدناه وهو يسوع بن يوسف من الناصرة (يوحنا فصل ٤٣ وما يليه). قال اكليمنضوس

الاسكندري (ك ٣ في اللفيف) إنَّ فيليبوس هو الذي قال للمخلص عندما دعاه ليتبعه ائذن لي يا رب ان امضي أولاً فادفن أبي؛ فاجابه المخلص دع الموتى تدفن موتاها (متى فصل ٨ عد ٢١). وقال ترتوليانوس (في المعمودية فصل ١٢) لا شك في أنَّ من قال هذا رسول. على أنّ الانجيليين لم يشيروا إلى من قاله ويوحنا الذي ذكر دعوته لم يأتِ بما يدل عليه. ولما اراد المخلص أن يقري الخمسة آلاف رجل سأل فيلبس ليجربه من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟ فأجاب فيلبس إنّه لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأكل كل واحد منهم شيئاً يسيراً (يوحنا فصل ٦ عد ٥).

ولما اراد بعض الوثنيين أن يروا يسوع قبل آلامه أتوا إلى فيلبس قائلين نريد أن نرى يسوع. فأتى هو واندراوس وقالا ليسوع (يونحنا فصل ١٢ عد ٢٠). وفي العشاء الأخير سأل فيلبس يسوع قائلاً يا رب ارنا الآب وحسبنا! فقال له يسوع من رآني فقد رأى الآب (يوحنا فصل ١٤ عد ٨). فهذا كل ما جاء عن فيلبس في الأناجيل. وروى أوسابيوس (ك ٣ فصل ٣٠) إنَّ فيلبس كان مزوجاً وكان له بنات كثيرات. وروى (في فصل ٣١) إنَّه مات في هيرابولي مع بنتيه اللتين استمرّتا عذريين، وبنته الأخرى التي انقطعت للسيرة الروحية دفنت في أفسس. وقال بقوله بوليكرات واكليمنضوس الاسكندري وبابيا وغيرهم. على أنَّ الأظهر أنَّ فيلبس الذي كان له أربع بنات ليس فيلبس الرسول بل فيلبس أحد الشمامسة السبعة، إذ جاء في أعمال الرسل (فصل ٢١ عد ٨): «وفي الغد خرجنا ووافينا إلى قيصرية ودخلنا بيت فيلبس المبشّر... وكان له أربع بنات أبكار يتنبئن.

وأمّا أين بشّر فيلبس وأين مات فقال تاوادوريطوس (في تفسيره مزمزر ١١٦)، وأوسابيوس (ك ٣ راس ٣١) إنَّه بشَّر في فريجية ودفن في هيرابولي. وقال بارونيوس (في تاريخ سنة ٥٤ م إنَّ فيلبس الرسول بينما كان يبشّر في هيرابولي في آسيا الصغرى علّق على الصليب، ورجم بالحجارة مسنداً ذلك إلى قول لاوسابيوس في الكرونيكون، على أنَّ قول أوسابيوس هذا ساقط في نسخ كثيرة مخطوطة. وجاء في كتاب تراجم القديسين الروماني؛ إنَّه علّق على الصليب في هيرابولي، ورجم بالحجارة. وقد يكون ذلك منتحلاً عن قول أوسابيوس الذي لم يتحقّق أنَّه له. وكذلك جاء في تراجم القديسين لبولس كاران؛ وإنَّه حصل عند صلبه زلزال في هيرابولي في فريجية دمر كثيراً من البيوت، وابتلعت الأرض كثيرين. وقال كثيرون إنَّه رقد بالرب في فريجية حتف أنفه. ويظن أن استأثرت

رحمة الله به سنة ٨٠ م، ويقال إنَّه كان عمره حينئذٍ سبعة وثمانين سنة، ودفنه المؤمنون باكرام ثم نقلت رفاته في القرن السادس إلى رومة فوُضعت في كنيسة الرسل، وأخذ قسم منه إلى القسطنطينية. وعند تجديد كنيسة الرسل في رومة وجدت سنة ١٨٧٢ م ذخائر الرسولين فيلبس ويعقوب الصغير تحت المذبح الكبير في تابوت من رخام فريجي. وبعد التحقيق الدقيق أعلن الكردينال بطريتسي نائب قداسته بمنشور مؤرخ ف ١٩ نيسان سنة ١٨٧٣ م صحة ذخائر هذين الرسولين (موجز تراجم القديسين). وكنيستنا المارونية تعيد لذكره في ١٤ تشرين الثاني ويقال في ترجمته: ان الوثنيين علقوه على صليب وحصل زلزال يوم صلبه.

إنَّ برتلماوس (أي ابن تلماوس) كان من الجليل كباقي الرسل. ويظهر أنَّه كان من قانا الجليل. لم يتبيَّن من قول يوحنا الآتي (هذا إن صحَّ أنَّه نتنائل) ولم يرد في الإنجيل إلَّا اسمه، وظنَّ كثيرون أنَّه نتنائل. وأسندوا ظنَّهم هذا إلى حجج الأولى أنَّ الأناجيل لم تذكر دعوة برتلماوس إلَّا أن يكون نتنائل الذي ذكر يوحنا (فصل ١ عد ٤٥) دعوته إذ قال إنَّ فيلبوس وجد نتنائل كما مرَّ قبيله، وقال له قد وجدنا المسيح فقال له نتنائل أمن الناصرة يخرج شيء فيه صلاح؟ ولما أتى إلى يسوع قال هذا إسرائيلي لا غشَّ فيه فقال له نتنائل، من أين تعرفني؟ فقال له: قبل أن يدعوك فيلبوس، وأنت تحت التينة رأيتك . فاعترف نتنائل أنَّه ابن الله وقال له يسوع إنَّك ستعاين أعظم من هذا. ثانيها أنَّ الإنجيليين الذين ذكروا برتلماوس لم يذكروا نتنائل ويوحنا الذي ذكره لم يأت بذكر برتلماوس. ثالثها أنَّ اسم برتلماوس ليس علماً بل معناه ابن تلماوس وعلمه نتنائل. رابعها أنَّ يوحنا يظهر أنَّه ذكره في مصاف الرسل إذ قال (يوحنا فصل ٢١ عد ٢) قد كان اجتمع سمعان بطرس، وتوما الذي يقال له التوأم، ونتنائل الذي من قانا الجليل، وابنا زبدى، واثنان آخران من تلاميذه». وقال السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلَّد ٣ قسم ٢ صفحة ٣ و ٤): إنَّ السريان وشعوب المشرق اعتمدوا هذا القول باجمعهم، وقال هناك برتلماوس يعده السريان من رسلهم، وذكر منهم مادي بن سليمان في ترجمة أدى المبشِّر، وعبد يسوع الصوباوي في كتاب الدر ف ٤، ومختصر القوانين قسم ٩ ف ١ وسماه مادي المذكور نتنائل بن تلمى. ولكن أنكر القديسان أغوسطينوس وغريغوريوس وغيرهم صحة هذا القول في تفسيرهم آية دعوة نتنائل.

وقال كثيرون من السريان وغيرهم إنَّه بشَّر في الهند، وإنَّه أخذ معه إلى هناك

إنجيل متى مكتوباً في العبرانية أي السريانية الكلدانية، وإنَّ القديس بنتانس الفيلسوف المار ذكره (في الكلام على متى) وجد هذا الإنجيل هناك بعد مئة سنة. وممَّن ذكروا ذلك أوسابيوس (ك ٥ ف ١٠) لكنَّه لم يحقِّقه إذ قيد قوله بعلى ما يقال أو بحسب الإشاعة. وقال آخرون إنَّه بشَّر في العربية السعيدة وفي بلاد فارس. وذكر بعضهم الحبشة أيضاً ولكن قال كلمت (في معجم الكتاب) إنَّ هذا غلط، والصواب أن يقال في أرمينية المتاخمة بلاد فارس. ولا علم أكيد لنا بأيَّة ميتة مات، ولا في أي زمان، ولا في أي مكان اخترمته المنية. ولكن أجمع علماء اليونان المتأخرون واللاتينيون على أنَّه مات في مدينة باتوبلي على بحر الخزر في أطراف أرمينية. وهذه البلاد سماها بعض القدماء الهند. وروى نيقيطا وتبعه نيكوفورس كاليستوس، وكثيرون أنَّه مات مسلوخاً معلقاً على الصليب. وهذا ما اعتمده صاحب موجز تراجم القديسين مفصلاً خبر سلخه وصلبه. وقال غيرهم: إنَّه مات مقطوع الرأس، وعن بعضهم أنَّه قضى نحبه سنة ٧١ في أرمينية.

أمَّا توما الرسول (تفسير اسمه التوأم) فلا شك في أنَّه جليلي كسائر الرسل وإن لم يعلم مكان مولده. ذكرت دعوته للرسالة في بشارة لوقا (ف ١ ع ٣) وذكر يوحنا (في ف ١١ ع ١٦) إنَّه لما أراد المخلِّص أن يمضي ليقيم إليعازر وقال توما للتلاميذ: «لنذهب نحن أيضاً لنموت معه» لأنَّه كان يعلم شدَّة حنق اليهود على المخلِّص. وقد سأل يسوع في العشاء الأخير قائلاً أنا هو الطريق والحق والحياة (يوحنا ف ١٤ عد ٥). وقد ظهر المسيح بعد قيامته للرسل وتوما غائب، ولمَّا قصوا عليه الخبر قال إن لم أنزل يدي في جنبه، وأضع إصبعي في موضع المسامير لا أؤمن، فظهر لهم يسوع بعد ثمانية أيام وتوما معهم. وقال هات إصبعك إلى هنا وضعها في يديَّ. وهات يدك وانزلها في جنبي ولا تكن غير مؤمن. فقال ربي وإلهي! قال له يسوع لأنَّك رأيتني آمنت، طوبى لمن لم يروني وآمنوا (يوحنا ف ٢٠ ع ٢٤ وما يليه). وكان توما في جملة التلاميذ إذ ظهر لهم يسوع، وهم يصيدون في بحيرة طيبارية وأكل أمامهم، وسلَّم إلى بطرس خرافه ونعاجه (يوحنا ف ٢١). وصرَّح القديس أفرام أنَّ توما يسمى يهوذا أيضاً ذكره السمعاني (مجلَّد أوَّل في المكتبة الشرقية صفحة ١٠٠).

وبعد تفرُّق الرسل في الآفاق بشَّر توما البرتيين والماديين والفرس وغيرهم من القبائل الخاضعة للبرتيين وقتئذٍ، وأثبت ذلك أوريجانوس على ما روى أوسابيوس (في

ك ٣ من تاريخه ف ١)، وغريغوريوس النزنيزي (خطبة ٢٥)، وإيرونيموس (خطبة ١٤٨)، وأمبروسيوس (في تفسير المزمور ٤٥) وغيرهم. وروى السمعاني (مجلّد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٨٧) في تقليد السريان الكاثوليك واليعاقبة والنساطرة: إنَّ توما رسول المشرق وكذا ذكر ابن العبري في فاتحة تاريخه البيعي. وروى مؤلّف الكتاب الناقص في تفسير بشارة متى إنَّ توما لقي المجوس الثلاثة الذين سجدوا للمسيح بعيد مولده فعمّدهم، وعاونوه على نشر الإيمان بالمسيح في بلادهم. وروى كثيرون منهم ابن العبري في تاريخه أنّ توما الرسول بشَّر بالمسيح في الهند أيضاً، وإنَّه قضى هناك شهيداً في مدينة اسمها كلامينا، وإنَّ رفاته نقلت إلى الرها حيث كان يكرم كل حين. وقد أثبت ذلك كثير من الآباء والعلماء، وورد في كثير من كتب تراجم القديسين، وفي كتاب فرض كنيستنا المارونية ܐܝܟ ܕܐܬܝܩܪ ܬܐܘܡܐ ܒܗܢܕܘ ܘܝܘܚܢܢ ܒܐܦܣܘܣ أي كما تشرف توما في الهند ويوحنا في أفسس. وفي جهة من الهند نصارى يسمون نصارى القديس توما لتيقنهم بأنَّ توما الرسول بشَّرهم بالإنجيل. وعن كلمت في معجم الكتاب يقال النصارى الأوَّلين ارتدّوا إلى الوثنية، ونسوا تعليم توما إلى أن اتاهم توما آخر من سورية فأرجع كثيرين منهم إلى الدين المسيحي. وعاونه على ذلك بعض كهنة من سورية ومصر، وأنَّ نصارى القديس توما في الهند أكثرهم نساطرة إلى أن قال إنَّه يجنح إلى الظن بأنَّ مرجع نسبة هؤلاء المسيحيين إلى توما هذا الآخر لا إلى توما الرسول.

وقال بعضهم إنَّه لم يعرف وجود نصارى في الهند إلّا بعد دخول البرتوغاليين إليها في بداية القرن الخامس عشر. وقال كثيرون إنَّ البرتغاليين وجدوا هناك نصارى نسطوريين وأنَّهم سموا بعد ذلك نصارى القديس توما، والمعول عندي على ما رواه العلامة السمعاني في المكتبة الشرقية، فإنَّه أورد (في مجلّد ٣ صفحة ٢٥ إلى ٣٧) شهادات كثيرين من الآباء والعلماء وآثار عديدة ناطقة بأنَّ توما الرسول بشَّر السريان، والكلدان بل البرتيين الهنود أيضاً، ورد زعم بصناج الذي أنكر تبشيره في الهند. واستشهد بفقره من فرض العذراء في كنيستنا ܐܬܘ ܫܡܥܘܢ ܡܢ ܪܗܘܡܐ ܘܝܘܚܢܢ ܡܢ ܐܦܣܘܣ ܘܬܐܘܡܐ ܡܢ ܗܢܕܘ. أي أتىٰ سمعان من رومة ويوحنا من أفسس وتوما من الهند. وأفرد (في صفحة ٤٧٥) فصلاً للكلام في نصارى القديس توما في الهند خلاصته أنَّ الآثار البيعية عند اليونان واللاتينيين والسريان ناطقة بأن توما كان رسول الهنود وآمن على يده

كثيرون منهم. وكان لهم أساقفة مرجع أمرهم إلى متريبوليت بلاد فارس. ولمّا اضطهدهم الملوك الوثنيون هرب كثير من المؤمنين إلى جبال الملابار، وإنّهم قد اتّبعوا ضلال نسطور إلى أن عاد بعضهم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية. وقال (في المجلّد المذكور صفحة ٣ وما يليها) إنّ السريان والكلدان بشرهم المجوس الذين زاروا المخلّص عند مولده، ثم الرسل بطرس وتوما وبرتلماوس (الذي سماه كثير من علمائهم نتنائل بن تلمى) ومتى ولابي (وهو يهوذا بن يعقوب). ثم ادي أو تادي من الاثنين والسبعين مبشراً وتلميذاه مادى واجي وإنّ توما بشّر في الهند أيضاً.

بل قال بعضهم إنّ توما الرسول بشّر في الصين، وأسندوا ذلك إلى كتاب رحلة كتبه في القرن التاسع رجلان عربيان. وترجم إلى الافرنسية وطبع في باريس سنة ١٧١٨ م وإلى أنّه قيل في فرض السريان: «إنّ ظلمة ضلال الوثنية انقشعت في الهند بتبشير القديس توما، وبتبشيره اهتدى الصينيون والأحباش إلى معرفة الحق وبعنايته اتّصل ملكوت السماء إلى الصين» وقالوا إنّ توما اجتاز من الصين إلى الهند وهناك نال اكليل الشهادة بحسب تقليد كنائس الملابار في مدينة كلامينا. وقال بعض البرتوغاليين إنّهم وجدوا عظام هذا القديس في مدينة مليابور ولذلك سموها مدينة القديس توما. على أنّ زينودر رد قول من قالوا إنّ توما بشّر في الصين أيضاً (يراجع السمعاني في مجلّد ٣ صفحة ٤٣٥) حيث أورد كل ما يعتمد عليه القائلون بأنّ توما بشّر في الصين أيضاً من الآثار والشهود وفنّد كل ذلك بحجج راهنة، وقال إنّ توما لم يبشّر في الصين ولم يمض إليها بنفسه بل مضى إليها تلاميذه في حياته بعد مدة، وهذا هو المرجح والأظهر عند السمعاني. ومن شاء مزيد إسهاب فليطالع ما كتبه بكل فقاهة في المحل المذكور. وروى السمعاني أيضاً (في مجلّد ١ من المكتبة المشرقية صفحة ٣٩٩) عن التاريخ الرهاوي أنّ عظام هذا الرسول نقلت سنة ٧٠٥ م يونانية إلى الرها إلى الكنيسة المشيدة على اسمه في أيام قورش أسقفها. وقال إنّ روفينسون قال بذلك أيضاً (ك ٢ ف ٥). وإنّ إيرونيموس يؤيده. وقال باجيوي في تاريخ ٣٢٧ إنّ هذا يبيّن كذب مقال نساطرة الهند أنّ جسده كان باقياً عندهم إلى هذه القرون المتأخّرة وكنيستنا المارونية تعيد له ٦ تشرين الأوّل.

أمّا القديس سمعان القانوي الملقّب بالغيور فالأظهر في وصفه بالقانوي أنّه كان من قانا الجليل خلافاً لمن زعموا أنّ وصف متى ومرقس له بالقانوي مرادف لوصف

لوقا له بالغيور، ولهم في هذا الوصف له قولان: فمن قائل إنَّ لوقا وصفه بالغيور لشدَّة غيرته، ومن قائل إنَّه وصفه به لأنَّه كان من شيعة الغيورين، وهم أقوام كانوا في ذلك العصر يبدون الحماسة في مخالفة الرومانيين. وقد سميناهم عند الكلام فيهم بالمشاغبين. ولا نرى في الأناجيل وكتاب أعمال الرسل ذكر قول أو عمل لسمعان. وقد اختلف في مكان تبشيره وموته فذهب نيكوفور كاليستوس والمتأخّرون من علماء اليونان إنَّه بشَّر في مصر والقيروان وغيرهما من أصقاع افريقية وفي جزر بريطانيا، وأنَّه صنع الله على يده آيات وقاسى اتعاباً شاقة نال اكليل الشهادة على الصليب. وذهب بيدا (في تفسير أعمال الرسل وعبدياس (ك ٦) إلى أنَّه بشَّر في ما بين النهرين ومات شهيداً في بلاد فارس بشغب أثاره عليه كهنة الأصنام، فقتلوه مع القديس يهوذا الرسول الآتي ذكره. والكنيسة اللاتينية تعيد لهما في ٢٨ تشرين الأوَّل والكنيسة اليونانية في العاشر من حزيران وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٠ أيار.

إنَّ القديس يهوذا الرسول ويسمى تادي ولابي كان ابن حلفى، وأخا يعقوب الصغير، ويظهر أنَّه كان مزوجاً وله أولاد. إذ روى هجيسبس (ذكره أوسابيوس في تاريخه ك ٣ فصل ٢٠) إنَّه كان له أحفاد أشخصوا أمام دوميطيان الملك. وقد جاء في إنجيل يوحنا (فصل ١٤ عد ٢٢) إنَّه سأل المخلِّص قائلاً يا رب كيف أنت مزمع أن تظهر نفسك لنا للعالم؟ فأجابه يسوع «من يحبني يحفظ كلمتي وأبي يحبّه وإليه نأتي الخ». وقد روى القديس بولينوس (قصيدة ٢٦) إنَّه بشّر في ليبيا في افريقية. وروى القديس إيرونيموس (في تفسير الفصل ١٠ من بشارة متى) إنَّه أرسل بعد صعود المخلِّص إلى أبجر ملك الرها. ولكن قال نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الأوَّل من أعمال الرسل) إنَّ تادي الذي أرسله المسيح إلى أبجر على ما يزعمون إنَّما هو أحد السبعين مبشِّراً لا تادي الرسول أي يهوذا، فلم يميز إيرونيموس أحدهما عن الآخر. وقال السمعاني في المكتبة الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٣١٩ إنَّ تادي المرسل إلى أبجر لم يكن من الاثني عشر رسولاً بل من الاثنين والسبعين تلميذاً. وإنَّ هذا رأي السريان العام. وقال كثيرون من علماء اليونان المتأخّرين ومن السريان بشَّر في الرها وما بين النهرين وأرمينية وبلاد فارس ومات في بلاد فارس مرشوقاً بالسهام. ومن تقليدات علماء السريان التي رواها عمر بن سليمان أنَّ تادي الرسول بشَّر في طرسوس واللاذقية.

وللقديس يهوذا الرسول رسالة عامة إلى المؤمنين ذات فصل واحد قد ذكرت في عداد الأسفار المقدَّسة الذي وضعه موراتورى. وفي قانونها الذي ذكره مجمع اللاذقية سنة ٣٦٣م، وفي مجمع أيبونه سنة ٣٩٣م، وقد استشهد بها ترتوليانوس سنة ٢٠٠م، وأكليمنضوس الاسكندري في اللفيف في أواخر القرن الثاني، وأوريجانس (في تفسير بشارة متى فصل ٢٣)، وقد نحا بها يهوذا نحو بطرس الرسول في رسالته على الأظهر، ومن ذلك يظهر أنَّه كتب رسالته هذه بعد استشهاد بطرس سنة ٦٧م، وقد جاءت في هذه الرسالة آيتان كانتا موضعاً للانتقاد والخلاف: إحداهما قوله (عد ٩) إنَّ ميخائيل رئيس الملائكة لما خاصم ابليس وجادله من جهة جثة موسى لم يجسر أن يحكم عليه حكم لعنة، بل قال له ليزجرك الرب. وقد جاءت إشارة إلى ذلك في رسالة بطرس الثانية (فصل ٢ عد ١١). فقال المنتقدون إنَّ هذا القول منتحل عن كتاب غير صحيح وهو الموسوم بارتفاع موسى. وقد ذهب المفسّرون الكاثوليكيون في تفسير هذه الآية مذهبين: فقال بعضهم إنَّ الكتاب المذكور لا يخلو من بعض الحقائق، ويهوذا استطاع بإشارة الروح القدس له بأن يميز ما كان صحيحاً منها. وقال القديس أغوسطينوس (في مدينة الله فصل ٢٤): «إنَّ الكتب غير الصحيحة لا تخلو من حقائق». وقال آخرون إنَّ قول يهوذا ليس منتحلاً عن الكتاب المذكور بل مسنده التقليد أو وحي خاص، أو يشار به إلى نبوة زكريا (ف ٣ ع ١ و ٢) حيث قال: «وأراني يشوع الكاهن العظيم واقفاً أمام ملاك، والشيطان عن يمينه فقال الرب للشيطان لينتهرك الرب يا شيطان لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم». ومما قالوا إنَّ كتاب ارتفاع موسى لم يؤلف إلَّا بعد خراب أورشليم.

والآية الثانية قوله (ع ١٤): «وقد تنبأ على ذلك أحنوخ سابع آدم حيث قال هوذا يأتي الرب في ربوات قديسيه». فقال المنتقدون وهذا القول أيضاً مقتبس من سفر أحنوخ وهو غير صحيح، وأجاب كثيرون من المفسرين الكاثوليكيين إنَّه يمكن إسناد قول يهوذا إلى سفر التكوين في كلامه على أحنوخ. وجعل هذا الكلام بمنزلة نبوة عزاها إلى أحنوخ يشار فيها بخوفه الله واتقيائه له إلى دينونة الله جميع الناس، وحكمه على المنافقين. وقال غيرهم إنَّ الهراطقة الذين كانوا في أيام يهوذا كانوا يسلمون بصحة هذا السفر الذي كتب في القرن الثالث قبل الميلاد، فأورد يهوذا شهادته على سبيل المصادرة للخصم بما يسلم به. وكذا قال

بعضهم في رد الآية الأولى أيضاً .وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٩ حزيران.

ماتيا الرسول كان أولاً من مصاف تلاميذ المخلص وصحب يسوع منذ عمَّده يوحنا إلى صعوده كما يتبيَّن من كتاب أعمال الرسل (فصل ١ عد ٢١). ويظهر أنَّه كان من الاثنين والسبعين مبشراً على ما روى أكليمنضوس الاسكندرى (في اللفيف ك ٤)، وأوسابيوس (بتاريخه ك ١ ف ٢) وغيرهما. ولمَّا اجتمع التلاميذ في أورشليم بعد صعود المخلِّص منتظرين حلول الروح القدس، وقف بطرس في الوسط وكلَّفهم أن يختاروا رسولاً بدلاً من يهوذا الخائن. واقترعوا على أحد اثنين يوسف المسمى برسابا، وماتيا وصلوا إلى الله فأصابت القرعة ماتيا هذا. وانضم إلى الأحد عشر رسولاً واختلف في مكان تبشيره وميتته. ففي بعض كتب تراجم القديسين أنَّه بشَّر أولاً في اليهودية ثم مضى إلى تدمر وطاف ما بين النهرين والعربية الجنوبية. وذهب يفتقد توما الرسول في الهند. وعاد إلى اليهودية موطنه. ثم قضى مرجوماً ودفن في بيروت. وقال ابن العبرى أيضاً في تاريخه البيعي إنَّ تادى دفن في بيروت وكذا قال بعض علماء اليونان إنَّه رقد بسلام في بيروت على ما روى كلمت في معجم الكتاب، لكن هذا مما لا يمكن تحقيقه إذ قال علماء آخرون إنَّه استشهد في بلاد فارس. وفي موجز تراجم القديسين إنَّ ملك بابل الذي كان قد تنصر أتى برفاته ورفات سمعان إلى بابل، ووضعها في كنيسة بناها لاكرامهما ثم نقلت ذخائرهما إلى رومة ووضعت في كنيسة القديس بطرس.

وقال آخرون إنَّه انطلق إلى تبشير الأمم، واتَّصل تبشيره إلى الحبشة فنصَّر كثيرين من الوثنيين. رواه القديس صفرونيوس أو بترتوس الكاسيناوي في خطبته في هذا الرسول، ونيكوفورس كاليُستوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٤٠)، وجاء في ميناون اليونا أنَّه بشَّر في الحبشة الخارجة. أمَّا استشهاده فقال أوبترتوس المذكور إنَّه كان باقتدائه بالمسيح وجهاده المتَّصل، وتقشفاته الدائمة قائلاً مع الرسول لا فخر لي إلَّا بصليب المسيح الذي به صلب لي العالم وأنا صلبت للعالم. ولكن جاء في كتاب تراجم القديسين أنَّ اليهود والوثنيين ثاروا عليه فقتلوه مرجوماً، وإنَّ بعضهم قال إنَّهم صلبوه ثمَّ أنزلوه عن الصليب، فقطعوا رأسه. وإنَّ رفاته نقلتها القديسة هيلانة أم قسطنطين إلى رومة، وإنَّ بعض عظامه الآن في كنيسة مريم الكبرى. ووهبت هذه الملكة ذخيرة منها لمطران تراف (في ألمانيا) ووضعها في كنيسة جعلها على اسمه، ثم أقيم هناك دير وجاء في ترجمته التي نشرها راهب من هذا الدير

مترجمة عن أصل عبراني أو سرياني، كتب في القرن الثاني عشر أنَّه قبض عليه رئيس كهنة اليهود في الجليل، وحكم عليه بالرجم على أثر مقتل يعقوب الصغير في أورشليم فرجم، وقطع رأسه. على أنَّ كثيرين من فحول المؤرخين لم يقطعوا بصحة هذه الرواية وهي مثبتة في ترجمته في سكارنا في ٩ آب وأنَّ استشهاده كان سنة ٦٠ للميلاد.

الفصل الثالث

التلاميذ والمبشرين

عد ٥١٢

التلاميذ اجمالاً

جاءت في العهد الجديد كلمة التلميذ بمعنى المؤمن بالمسيح كقوله ولما تكاثر التلاميذ (أعمال الرسل فصل ٦ عد ١) وكان في دمشق تلميذ اسمه حننيا (ف ٩ عد ١٩) وكان شاوول يضطهد تلاميذ الرب (فصل ٩ عد ٢١). كل ذلك بمعنى المؤمنين بالمسيح. وجاء التلميذ بمعنى الرسول متواتراً في الأناجيل. على أنَّ المراد بالتلاميذ بالخصوص من اتبعوا المسيح، وأرسلهم للتبشير وعددهم اثنان وسبعون تلميذاً أو مبشراً. وقد ذكر لوقا (فصل ١٠ عد ١ فصاعداً) إنَّ المسيح عيَّن أو أفرز سبعين آخرين وأرسلهم اثنين اثنين إلى كل مدينة ازمع أن يدخلها. وقال لهم إنَّ الحصاد كثير والفعلة قليلون إلى آخر ما ألقاه إليهم من الارشاد. وقد وجد لاسيما في الكنيسة اليونانية جداول تنطبق على اسماء هولاء المبشرين على أنَّها ليست قديمة ولا أكيدة. وقد أنبأنا أوسابيوس ك ١ من تاريخه فصل ١٢) الذي كان في القرن الرابع أنَّه لم يكن في أيامه جدول أكيد لاسمائهم، ولكن يمكن أن يعد من مصافهم برنابا وستانيس وماتيا الذي صار رسولاً، وبرسابا وتادي أخو توما

والشمامسة السبعة وهم أسطفانوس وفيلبس وبركوروس ونيقانور وطيمون وبرمناس ونيقولاوس الدخيل الأنطاكي. وذكر الرسول (رومة فصل ١٦ عد ٧) نسيبين له قائلاً: «سلموا على اندرنكس ويونياس نسيبي المأسورين معي المشهورين بين الرسل الكائنين في المسيح قبلي». ثم سيلا وسمعان الأسود ولوقيوس القيرواني، ومناين الذي تربَّى مع هيرودس رئيس الربع، وشاوول (كما في أعمال الرسل فصل ١٣ عد ١) ومناسون القبرصي التلميذ القديم (أعمال الرسل فصل ٢١ عد ١٦)، وحننيا الذي عمَّد بولس. وذكر بابيا أريستيون ويوحنا الكاهن روى ذلك عنه أوساييوس (ك ٣ فصل ٣٩ من تاريخه). وعد بعضهم مرقس ولوقا في جملة التلاميذ الاثنين والسبعين، وخالفهم آخرون ولاسيما في لوقا، والأظهر أنَّ هذا الإنجيلي لم ير المخلِّص ولم يسمع كلامه كما يظهر من فاتحة إنجيله (طالع فيكورو في الموجز الكتابي مجلَّد ٣ عد ٦٤) على أنَّهما إن لم يكونوا من التلاميذ الذين اختارهم المخلِّص فقد كانا من أعظم المبشِّرين به فلا بد من الكلام فيهما.

عد ٥١٣

مرقس الإنجيلي

ذهب كثيرون من العلماء إلى أنَّ مرقس الإنجيلي هو غير يوحنا مرقس الذي ورد ذكره مرات في أعمال الرسل، على أنَّ مذهب الجمهور إنهما واحد خلافاً لما رويت في كتابي تحفة الجيل في تفسير الأناجيل في المقدمة على بشارة مرقس. وأثبت بابيا (ذكره أوساييوس في تاريخه ك٢ فصل١٤)، والقديس إيريناوس (ك٣ ف١) وأكثر القدماء والحدثاء إنه كان تلميذاً لبطرس الرسول، وترجماناً أو كاتباً له كما قال القديس إيرونيموس (رسالته ١٢٠)، وإنه هو من سماه بطرس في ختام رسالته الأولى ابنه؛ حيث قال وقد مضى بعد خروجه من سجن هيرودس إلى بيت أمه حيث وجد كثيرين مجتمعين يصلون أعمال الرسل فصل١٢ عد١٢). وبعد أنّ صحب بولس مدة افترق عنه في أنطاكية، وسار مع برنابا إلى قبرص (أعمال الرسل ف١٥ عد٣٩). ثم لزم بطرس الرسول وانطلق معه إلى رومة ولم يعد يسمى يوحنا مرقس بل مرقس فقط لأن هذا الاسم لاتيني. وهناك كتب انجيلية بتلقين بطرس له ولا أقل من أنّ يكون أثبته، وأمر بتلاوته في الكنائس بل سمى ترتوليانوس (ك٤

ضد مركيون) ما كتبه مرقس إنجيل بطرس؛ وقد كتبه في إحدى السنين التي بين السادسة والأربعين والخمسين بعد أن كتب متى إنجيله. فقد سمى كثيرون انجيل مرقس موجز إنجيل متى، والأمر ظاهر بمعارضة الإنجيليين أحدهما مع الآخر ويمثل مرقس بالأسد لأنه أفتتح إنجيله بقوله: «صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب». ولم يذكر بشارة العذراء ولا مولد المخلص، ولا سجود المجوس له ولا تقدمته إلى الهيكل، ولا هربه إلى مصر. وهذا مما يشعر بانه لم يكتب إنجيله إلى اليهود بل إلى الأمم لا سيما الرومانيين، ولذا لا تراه يسمي المخلص ابن داود بل ابن البشر، وابن الله. ويظهر من إنجيله نفسه إنَّ كاتبه كان يهودياً معاصراً الرسل لكثرة استعماله الاصطلاحات السريانية الكلدانية، وإدخاله كثيراً من كلمات هذه اللغة التي كان يتكلم بها اليهود في أيامه، ولمعرفته بعادات أهل اليهودية واصطلاحاتهم، ولدقته بذكر قرائن أخباره، من ذلك وصفه يايردس برئيس الجمع. والمرأة الكنعانية بانها كانت يونانية من فينيقية سورية، والأعمى الذي أبرأه المخلص في أريحا بانه كان برطيما أي ابن طيما إلى غير ذلك. وذهب بعضهم إلى أنَّ مرقس كتب إنجيله باللاتينية لأنه كتبه للرومانيين، ولأنه علق بعض نسخه المخطوطة انه كتب باللاتينية، وكذلك على بعض النسخ السريانية والعربية. وكذا رأى بارونيوس (في تاريخ سنة ٤٥) وغيره. والأظهر إنه كتبه باليونانية على ما أثبت القديس إيرونيموس في مقدمة الأناجيل والقديس أغوسطينوس (ك١ في توفيق الأناجيل). لأنه كتبه ليمضي به إلى الاسكندرية. ووفق بعضهم بانه كتبه أولاً في رومة باللاتينية ثم ترجمه في الاسكندرية إلى اليونانية والله أعلم.

ذهب بعض الحدثاء إنَّ بطرس أرسل مرقس أولاً إلى أكويلايا في النمسا. فاستمر هناك سنتين وتسعة أشهر، وأقام لهم كنيسة توفر عداد المؤمنين فيها على إنَّ القدماء لم يثبتوا ذلك، ولكن أجمع القدماء والحدثاء على إنَّ بطرس أرسله إلى مصر وأتى الاسكندرية، ونما بتبشيره عداد المؤمنين، وقد تساموا بورعهم وانكبابهم على مباشرة الفضائل، ونقاوة سيرتهم. وقد أثنى عليهم الثناء فيلون اليهودي (في كتابه في السيرة العقلية) مسمياً إياهم الثيرابوتيين أي عباد الله. وقد قال كثيرون من القدماء إنما هؤلاء مسيحيون، ولكن جعلهم فيلون فرقة من اليهود تعظيماً لأُمتهِ، ومن هؤلاء كان النساك والزهّاد الأولون. وقد بدأ القديس مرقس هذه الطريقة ولذلك دعاه أوسابيوس وإيرونيموس وغيرهما مبدأ النساك ورئيسهم الأول. ونما

عديدهم ونمّ عرف فضلهم، وملأوا براري مصر والصعيد، وعنهم أخذت الطريقة الرهبانية.ثم أقام مرقس المدارس في الاسكندرية ونبغ فيها كثير من العلماء والأحبار والشهداء. وقد زهت هذه المدارس خاصة حين رأسها بنتانوس الفيلسوف في أواخر القرن الثاني، ثم خلفه اكليمنضوس الاسكندري. ومن تلامذتها أوريجانس وغريغوريوس الملقب بالأعجوبي وأتيناغورا، واثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس النزينزي فكل هؤلاء وغيرهم تلامذة مدارس القديس مرقس.

وقد حنق الوثنيون على مرقس لنسخه عبادة آلهتهم وردِهِ الناس عنها. فرأى من الصواب أن يتغيب عن الاسكندرية فزايلها مدة ربما مضى فيها إلى رومة. إذ جاء في التاريخ الاسكندري إنه شهد مقتل الرسولين فيها سنة ٦٧م ثم عاد إلى الاسكندرية وطرب إذ رأى نمو المؤمنين عداً وفضلاً، ولكن اشتدت ضغائن الوثنيين عليه وتلهّبت نار بغضائهم له وهاج هائجهم فوثبوا عليه نهار الأحد في ٢٥ نيسان سنة ٦٨م على أحد الأقوال فوضعوا حبلاً في عنقه وأخذوا يجرونه النهار بطوله في الأزقة، وأودعوه السجن مساءً ثم استأنفوا التنكيل به في اليوم التالي كالسابق إلى أنَ فاضت روحه القدوسة. وقال كثيرون إنه قضى نحبه بالنار. ولعلَّ المراد إن أعداءه أحرقوا جثته بعد موته. ونقلت رفاته إلى البندقية سنة ٨٢٧م على التقليد الذي حفظه أهل هذه المدينة؛ وتعيد له كنيستنا المارونية في ٢٥ نيسان وتذكر استشهاده كما مرّ آنفاً.

عد ٥١٤

لوقا البشير الانجيلي

إنَّ للقديس لوقا ولد في انطاكية، وكان طبيباً كما يظهر من قول الرسول (كولوسايس فصل٤ عد١٤): «يسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب». ومن وصف لوقا في إنجيله الأمراض التي أبرأ المخلص الأعلاء منها وصفاً طبياً، ولم يكن يهودياً على الأصح بل وثنياً آمن بالمسيح على يد بولس الرسول في أنطاكية. ثم صحبه في التبشير بالمسيح كما يظهر من قول الرسول: «ومعي لوقا وحده» (تيتموتاوس٢ فصل٤ عد١١). وقوله: «يسلم عليك أبغراس ولوقا معاوني» (فيليمون فصل٣ عد٢٤). ولكن متى صحبه؟ وأين كان معه؟ فذهب بعضهم انه صحبه مذ آمن

على يده ولزمه أبداً، وذهب بعضهم إلى أنه لم يصحبه إلا مذ كان في تراوس وعزم أنّ ينطلق إلى انطاكية كما في كتاب أعمال الرسل (ف١٦ ع١٠). فأنّا نرى لوقا مذ حينئذٍ أخذ يتكلم عن أسفارهم بضمير المتكلمين قائلاً: «ولما رأى الرؤيا طلبنا للوقت أنّ نسير إلى مكدونية». وظن الكثيرون إنه كان مصوراً؛ وأدعى بعضهم إنَّ صور العذراء في أماكن عديدة إنما هي من صنعه أو منقولة عما رسمه، على أنَّ القدماء لم يذكروا إنه كان يحسن هذه الصناعة، وأول من وصفه بها إنما هو نيكوفور الذي كان في القرن التاسع. وذهب القديس أبيفان (في بدعة٥١) إنه بشر بالأنجيل في دلماسيا وافرنسة وإيطاليا ومكدونية.

وذهب سمعان متفرست أنه بشر في مصر وليبيا والصعيد عدا تبشيره مع بولس الرسول. ويظن أنه ناهز الثمانين أو الرابعة والثمانين من عمره، واختلف في محل موته ونوعه. فروى القديس إيرونيموس (في تراجم المشاهير) إنه قضى نحبه في أخائيا. وروى نيكوفور (ك٢ فصل٤٣) إنه توفاه الله في تاب من بلاد اليونان. وإنه كان في أيامه مدفن يحسب إنه ضريح لوقا. ورأى هيبوليتوس إنه اخترمه الموت مصلوباً في آلية في المورة. وقال آخرون إنه مضى إلى ربه في أفسس. وقال القديس غريغوريوس النزينزي وغيره إنه نال اكليل الشهادة؛ وعن حدثاء اليونان إنه صلب على شجرة زيتون، وعن أليا الأكريتي (في خطبة٣) إنه مات حتف أنفه. وقال كلمت (في معجم الكتاب) هذا هو رأي كثير من العلماء الحدثاء وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٨ تشرين الأول.

وقد كتب لوقا الأنجيل الثالث المعروف به، وكتاب أعمال الرسل، وقد كتب الأنجيل أولاً كما يظهر من فاتحة كلامه في كتاب الأعمال إذ قال: «أنشأت الكلام الأول ياثاوفليس في جميع الأمور التي عملها يسوع». وقد فرغ من تدوين كتاب أعمال الرسل في سنة ٦٢ وسنة ٦٣ للميلاد على ما يظهر من أنَّ آخر أخباره فيه إنما هو بلوغ بولس إلى رومة لرفع دعواه إلى قيصر، والتفريج عنه واجتماع اليهود إليه والجمهور على إنَّ هذا كان سنة ٦٢ أو سنة ٦٣م. وعليه فالأظهر أنه كتب الإنجيل في إحدى السنين من الخامسة والخمسين إلى الستين بعد إنجيل مرقس بنحو من ثماني سنين، وبعد إنجيل متى بنحو من خمس عشرة سنة، ولم يرَ لوقا المخلص كما يظهر من قوله الآتي بل انتحل ما كتبه عن إنجيلي متى ومرقس. وتلقى أخبار المخلص وكلامه عن بولس الرسول معلمه، ورفيقه في أسفاره وفي سجنه في قيصرية

ورومة. وكان المسيحيون الأولون يعتقدون انَّ بولس لقن لوقا إنجيله، وأخذ أيضاً كثيراً من أخبار المخلص عن يعقوب الصغير أسقف أورشليم كما يظهر مما كتبه في أعمال الرسل (فصل٢١ عد١٨). وعن بطرس الرسول وغيره من الرسل وبرنابا الذي كان يبشر في أنطاكية حيث تعلم لوقا مبادى التعليم المسيحي؛ وقد لقنته العذراء خاصة وأقرباء يوحنا المعمدان ما كتبه في كتاب الفصول الأولى من إنجيله عن بشارة زكريا وبشارة العذراء، ومولد المخلص ونسبه وتقديمه إلى الهيكل ووجدانه فيه. وإلى هؤلاء جميعاً وأشار في مقدمة إنجيله بقوله: «لأجل إنَّ كثيرين راموا أنّ يكتبوا قصص الأمور التي نحن بها عارفون حسبما عهد إلينا أولئك الذين كانوا منذ القديم (أو منذ البدء) معاينين، وكانوا خدام الكلمة رأيت أنا إذ كنت قريباً من كل ذلك بالاجتهاد أنّ أكتب إليك كل شيءحسب ترتيبه أيها الشريف تاوافيلا».

أما تاوافيلا أو تاوافيلس الذي كتب إليه فذهب بعضهم إلى انه رجل حسيب ذو منصب رفيع في رومة أو أخاتيا. وقال القديس اكليمنضوس الروماني (في ك١٠) إنه كان في أنطاكية وآمن بالمسيح على يد بطرس الرسول، وأقام بطرس كرسيه الأول في داره. وذهب غيرهم منهم أوريجانوس والقديس أمبروسيوس أنَّ تاوافيلا ليس علماً معيناً رجلاً بل يراد فيه محب الله أياً كان، لأن تأويل تاوافيلا باليونانية محب الله. ويظهر من إنجيل لوقا أنه لم يكتبه لليهود لأنه لم يكتب كلمة من كلام المخلص بالسريانية كما ذكر غيره من الانجيليين، بل يسمي الأمكنة مشيراً إلى ما تسمى به بلغة العبرانيين كقوله: «إلى مدينة تدعى الناصرة»، «عند الجبل المسمى جبل الزيتون»، «إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم». بل كتبه إلى الوثنيين كما يظهر من تسميته غير اليهود خطأة لا أمماً كما يسميهم متى، ولانفراده بذكر كثير من الوثنيين الذين أحسن المسيح إليهم كلص اليمين، والابن الشاطر، والمرأة الخاطية، وتفضيله العشار على الفريسي، والسامري على الكاهن واللاوى، وصلاته عن صالبيه إلى آخر ما أشبه ذلك.

وأما كتاب أعمال الرسل فقد كتبه لوقا بعد إنجيله كما مر منطبقاً على أخبار أعمال الرسل لا سيما بطرس وبولس، وانتشار الإيمان في مدة الإيمان نحو ثلاثين سنة بعد موت المخلص. تلقى ما كتبه في الستة عشر فصلاً الأولى عن العذراء والرسل وبعض التلاميذ، ودوّن ما كتبه في الاثني عشر فصلاً الأخيرة عن التعليقات التي كان يعدها في جولانه مع بولس الرسول، وكتب سفريه باليونانية وكلامه

فيهما أفصح من كل ما كتب باليونانية من أسفار العهد الجديد لخبرته بهذه اللغة.

عد ٥١٥

الشمامسة السبعة

أنبأنا كتاب أعمال الرسل (فصل٦ عد١ وما يليه) باختيار هؤلاء الشمامسة إذ جاء فيه أنه: «في تلك الأيام لما تكاثر التلاميذ حدث تذمر من اليونانيين المتنصرين على العبرانيين بأن أراملهم كن مهملات في الخدمة اليومية (أي في إعطائهن نصيبهن من الأموال المشتركة بين المؤمنين). فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ وقالوا لا يحسن أنّ نترك كلمة الله ونخدم الموائد؛ فاختاروا أيها الأخوة سبعة رجال منكم يشهد لهم بالفضل، وقد ملأهم الروح والحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة؛ ونحن نواظب على الصلوة وخدمة الكلمة. فحسن الكلام لدى جميع الجمهور، فاختاروا أسطفانس رجلاً ممتلئاً من الإيمان والروح القدس، وفيلبس وبركوروس ونيقانور وطيمون وبرمناس ونيقولاوس الدخيل الانطاكي، وأقاموهم أمام الرسل فصلوا ووضعوا أيديهم عليهم».

قد أثبت كثيرون من الآباء والعلماء الكاثوليكيين إنَّ خدمة هؤلاء الشمامسة السبعة التي أقامهم الرسل بها باختيار التلاميذ، إنما هي خدمة روحية لتوزيع الأسرار، ومرتبتهم درجة مقدسة، وإنْ قارنها الإهتمام بتوزيع النفقات على المؤمنين. واستدلوا على ذلك أولاً باشتراط الرسل أنْ يكون المختارون مشهوداً لهم بالفضل ممتلئين من الروح القدس، والحكمة وبصلاتهم، ووضع أيديهم عليهم. ولو اختيروا لخدمة الموائد غير المقدسة لما كان محل الاشتراط الصفات المذكورة، ولا لتلاوة صلوة ووضع اليد عليهم. ثانياً بمنح هؤلاء الشمامسة سر المعمودية بطقس حافل بمقتضى درجتهم؛ فان فيلبس أحدهم عمد خصي كنداكة ملكة الحبشة، وكثيرين من أهل السامرة كما جاء مصرحاً في كتاب أعمال الرسل (فصل٨). ثالثاً بأن الشمامسة كانوا في صدر النصرانية يناولون المؤمنين جسد المسيح ودمه عند غياب الكاهن أو يأمره كما روى القديس يوستينوس الشهيد (في محاماته٢). وجاءَ صريحاً في مجمع قرطاجنة الرابع (قانون٣٨) وفي المجمع النيقوي الأول التيبلي (قانون١٨). ومن الآباء الذين أثبتوا أنَّ خدمة الشمامسة خدمة روحية، ومقدسة إيرونيموس (في رسالته ٤٨ إلى

سرسابينيان)، وأمبروسيوس (ك١ في الفروض)، وقبريانوس (في رسالته ٦٥) وأغناطيوس تلميذ بطرس وخليفته في كرسي أنطاكية (في رسالته إلى الترالياتيين فصل٧). ومن شاء مزيد إسهاب في ذلك فعليه بمطالعة تاريخ نطاليس اسكندر (في القرن الأول مقالة ٧ وحاشية يوحنا منسى المعلقة في آخر كلامه هناك.

أما أول هؤلاء الشمامسة إسطفانس (لفظ يوناني تأويله اكليل) فكان يهودياً آمن بالمسيح واختير شماساً. وجاء في كتاب أعمال الرسل (في فصل٦ عد٨) إنه كان مملوءاً نعمة وقوة وكان يصنع عجائب وآيات عظيمة في الشعب. فنهض قوم من مجمع المعتقين (الأظهر أنَّ هؤلاء كانوا من ابناء من أسرهم بمبايوس من اليهودية، وجعلهم أرقاء ثم أُعتقوا فسموا المعتقين)، ومن القيروانيين والاسكندريين والكيليكيين والأسيويين اليهود المجتمعين في أورشليم؛ يباحثون أسطفانوس فافحمهم. فدسوا رجالاً يقولون إنهم سمعوه جدف على موسى والله، ويقول إنَّ يسوع الناصري سينقض المكان المقدس والناموس ويبدل السنن التي سلمها موسى إليهم. وهيجوا الشعب والشيوخ والكتبة، فقبضوا عليه وأتوا به إلى المحفل، فتفرَّس فيه الجالسون فرأوا وجهه وجه ملاك. فخطب فيهم إسطفانس خطبة أنيقة مسهبة مثبتة في الفصل السابع من كتاب أعمال الرسل أبان فيها إنه لم يقل شيئاً على موسى، ولا على خراب الهيكل، بل هم يقاومون كل حين الروح القدس، كما فعل أباؤهم إذ قتلوا الانبياء، وهم قتلوا المخلص فاستشاطوا عليه، وصرفوا باسنانهم. أما هو فتفرس في السماء وقال هأنذا أرى السماوات مفتوحة وابن البشر قائماً عن يمين الله. فصرخوا بصوت عظيم، وسدوا أذانهم ووثبوا عليه وأخرجوه خارج المدينة ورجموه وهو يقول أيها الرب يسوع اقبل روحي ثم جثا على ركبتيه، وصرخ يا رب لا تقم عليهم هذه الخطية. ورقد في الرب وكان شاوول بولس موافقاً على قتله ويحرس ثياب من رجموه. وكان اسطفانس أول الشهداء لأن رجمه في سنة ٣٣م. أو في السنة التالية لها. وتعيد الكنيسة اللاتينية لذكره في أل ٢٦ من كانون الأول وكنيستنا المارونية في أل ٢٧ منه.

أما فيلبس الشماس فقيل إنه كان من قيصرية فلسطين، ويؤيده ما جاء في كتاب أعمال الرسل (فصل٢١ عد٨). «وافينا إلى قيصرية ودخلنا بيت فليبس المبشر الذي هو أحد السبعة، وأقمنا عنده وكان له أربع بنات يتنبأن». وبعد رجم أسطفانس وتشتت التلاميذ من أورشليم، وبقاء الرسل فيها مضى فيلبس يبشر في

السامرة (أعمال الرسل فصل٨ عده)، ويصنع الآيات كاخراج الشياطين من الممسوسين، وابراء المخلعين والعرج. فآمن من على يده كثيرون وعمدهم. ولما لم يكن للشمامسة أنّ يمنحوا سر التثبيت المعبر عنه بنوال الروح القدس أتى بطرس يوحنا فثبّتا المؤمنين الذين عمدهم فيلبس، ولم يتنبأ سيمون الساحر الذي كان فيلبس عمده لأنه عرض عليهما نقوداً ليعطياه السلطان أنّ يثبت بل انتهزه بطرس قائلاً لتذهب فضتك معك إلى الهلاك.

ثم كلم ملك الرب فيلبس قائلاً قم فانطلق إلى غزة، فانطلق وإذا برجل حبشي خصى ذي منزلة عظيمة عند كنداكة أوقنداقة ملكة الحبشة، وقد جاء ليسجد في أورشليم، وكان راجعاً وهو جالس في مركبته يقرأ في أشعيا النبي فالهم الروح فيلبس أنّ أدنُ من المركبة والزمها، ففعل وسمع الخصي يقرأ قد سيق كالحمل إلى الذبح، وكان صامتاً كالشاة أمام الجزار لا يفتح فاه، فسأله فيلبس هل تفهم ما تقرأ فقال كيف يمكنني أنّ أفهم إن لم يرشدني أحد، فأخذ فيلبس يبشره بيسوع وهما منطلقان في المركبة فآمن وانتهيا إلى ماء. فقال الخصي هوذا ماء فما المانع أنْ أتعمد فنزل كلاهما إلى الماء، وعمده فيلبس وخطف الروح فيلبس فلم يعد الخصي يعاينه وسار في طريقه فرحاً (أعمال الرسل فصل٨).

فمن هي كنداكة هذه وأين مملكتها؟ فاسم الحبشة في عهد كتابة أعمال الرسل كان يطلقونه على كل البلاد التي في جنوبي مصر، والأحباش النصارى يتفاخرون بأن كل ما ورد في الكتاب عن الكوشيين والأحباش يراد به أجدادهم، ومن ذلك زعمهم إنَّ كنداكة ملكتهم، والخصي المذكور أول مبشر لهم بالمسيح كما حقق الجوالة في بلادهم، على أنَّ زعمهم هذا لا أس تاريخي له، والذي أثبته أهل العلم في تواريخ الحبشة إنَّ كنداكة لم تكن ملكة الحبشة بالاطلاق، بل كانت ملكة ميروا الواقعة عند مجتمع النيل ونهر وطقاسي، وكان القدماء يظنون هذه البلاد جزيرة، وقد وجدت فيها صفيحة كتب عليها في الهيروكليفية اسم كنداكة الملكة على ما أثبت لبسيوس وبروغش. وقد روى استرابون (ك١٧ فصل١) إنه كان بين العصاة على الرومانيين في أيام أغوسطوس قيصر «قادة عساكر الملكة كنداكة التي كانت في أيامنا تلي الأحباش، وكانت امرأة شجاعة وقد فقدت إحدى عينيها». وقد أدركها بترونيوس القائد الروماني في قصبة ملكها نباتا تحت ميروا. وروى بلين (في التاريخ الطبيعي ك٢ فصل٣٥) إنه كان

في ميروا امرأة ملكة اسمها كنداكة، وهذا الاسم قد تغلب من زمان طويل على ملكات هذه البلاد.

وروى أوسابيوس (في تاريخه ك٢ فصل١): «إنَّ النساء في الحبشة حيث ملكت كنداكة كنّ في أيامه يلين البلاد»، والحاصل من ذلك أنَّ ميروا كانت حكومتها في القرن الأول للميلاد لنسوة يسمين كنداكة، وعليه فيثبت إنَّ كنداكة التي ذكرت في كتاب أعمال الرسل كانت ملكة هذه البلاد، واما خصيها فالأرجح أنه لم يكن خصياً حقاً بل كان هذا اسم منصب عند الملوك القدماء في آسيا ومصر، وإنه كان يهودي الأصل بدليل تلاوته سفر أشعيا، وكان اليهود يحجون إلى أورشليم من كل صوب. وقد أثبت أوسابيوس (في المحل السابق ذكره) وإيرونيموس في تفسير نبوة أشعيا) إنَّ هذا الخصي كان رسول الحبشة. وأورد صفرونيوس تقليداً يتبين منه إنَّ هذا الخصي بشر بالانجيل في العربية السعيدة حتى جزيرة سيلان حيث قضى نحبه، على أنَّ هذا يعسر تحقيقه (معجم الكتاب لفيكورو في كلمة كنداكة). ولم يتنبأ الكتاب ما كان لفيلبس بعد ذلك وعن علماء اليونان الحدثاء. وفي مناوونهم في ١١ تشرين الأول أنه مضى إلى قرال (المسماة الآن سلطان حصار) في آسيا الصغرى حيث بشر بالإنجيل وأقام كنيسة ورقد بالرب. وعن العلماء اللاتينيين تبعاً لإزوارد وأدون إنه لقي ربه في قيصرية فلسطين (عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة فيلبس الشماس).

أما بروكورس فلا نعلم من أخباره إلا أنَّ المؤرخين اليونان يقولون إنه صار أسقفاً على نيكومدية (المعروفة الآن باسميد في آسيا الصغرى)، وانَّ أدون وبعض اللاتينيين يرون إنه أستشهد في انطاكية في ٦ آب بعد أنَّ اشتهر بآيات ومعجزات. ونيقانور لم يتصل بنا من خبره إلا أنه ورد في السنكسار الروماني إنه نال اكليل الشهادة في جزيرة قبرص في العاشر من كانون الثاني. ويعيّد اليونان له في ٢٧ من آب مع القديسين بروكورس وطيمون ويرمناس الشمامسة رفقائه. وروى دوروتاوس إنه نال اكليل الشهادة مع كثيرين غيره يوم مقتل أسطفانس في أورشليم.

وطيمون أيضاً لا علم لنا من أخباره إلا بان اليونان يعيدون له في ٢٨ تموز ويقولون إنه صار أسقفاً على بصرى في بلاد العرب ومات محروقاً بأمر الكفرة. وروى بعض المؤرخين اللاتينيين إنه قضى نحبه في قرنثية في التاسع عشر من

نيسان. ويقولون إنه بشر في بيرية وأتى إلى قرنثية، فطرحه اليهود والوثنيون في النار ولما نجا منها سالماً بقوة الله علقوه على صليب ففاضت روحه. وبرمناس ليس لنا العلم الأكيد أين بشّر ولا كيف توفاه الله سوى إنَّ بعض المؤرخين اليونان رأوا إنه رقد بالرب في حضرة امام الرسل. وروى أدون وغيره من اللاتينيين أنه نال اكليل الشهادة في فيليبية في مكدونية في عهد تريانوس الملك في الثالث والعشرين من كانون الثاني.

وبقي نيقولاوس الذي وصفه الكتاب بالدخيل الأنطاكي لأنه كان وثنياً من أنطاكية. فآمن بالمسيح وأبدى من الورع والغيرة على الدين المسيحي ما أهله أنْ يكون من جملة هؤلاء الشمامسة السبعة الذين شهد الكتاب إنه كان مشهوداً لهم بالفضل، وقد ملأهم الروح والحكمة إلا إنه قد وجد في القرن الأول هراطقة سموا النيقولاويين، وكانوا يتفاخرون بانهم تبّاع نيقولاوس هذا؛ وأقوال الآباء متضاربة في ما إذا كان نيقولاوس هذا رئيساً لبدعتهم، أو استعذروا لنسبتهم إليه بوسيلة من قبله أو هو برأ منها؛ في كل حال روى القدماء إنه كان متزوجاً بامرأة بديعة الجمال، ولما تجند لخدمة المسيح باينها اقتداء بأفاضل التلاميذ والمؤمنين الأولين. وروى أبيفان إنه استغواه جمالها فانثنى عن عزمه وردها إليه. ولكي يبرر عمله علَّم ما يخالف الحق والعفاف، فكان بذلك مبدئاً بدعة النيقولاويين، واعتد القديس أبيفان في قوله هذا على شهادات القديس إيروناوس (في ك١ ف٢٧)، وترتوليانوس (في سقوط دعوى الهراطقة راس ٢٧)، والقديس إيبوليتوس (ذكره فوتيوس)، والقديس إيلاريوس (في تفسير بشارة متى ف٢٥)، والقديس غريغوريوس نيصص (ك٢ في أنوميس)، والقديس إيرونيموس (في رسالته الأولى) والقديس غريغوريوس الكبير (في خطبة ٢٨ في الأناجيل) وغيرهم. على إنَّ أكليمنضوس الاسكندري أثنى (في ك٢ من اللفيف) كثيراً على نيقولاوس هذا. وروى قصته خلافاً لما رواه الآباء المذكورون فقال إنَّ الرسل لاموا نيقولاوس على افراطه في الغيرة على امرأته فاشخصها أمام الجمهور. وقال فليتخذها من شاءها ففرط إليهم منه هذا القول الذي لم يقصد منه إلا بيان قلّة تعلقه بها وميله إليها. وحقق اكليمنضوس المذكور أنه تركها بعدئذٍ ولم يقارن امرأة أخرى البتة وإنَّ بنيه وبناته عاشوا متبتلين إلى الله (ملخص عن معجم الكتاب لكلمت).

وقد أفرد نطاليس اسكندر المقالة التاسعة في تاريخ القرن الأول ليثبت إنَّ

نيقولاوس براءٌ خلاء من أنّ يكون موجداً بدعة النيقولاويين، ومن حججه إنَّ من قال الكتاب إنه مشهود له بالفضل ومملوء من الروح القدس والحكمة لا يصدق عليه إنه ابتدع بدعة النيقولاويين القذرة واستشهد باكليمنضوس المار ذكره، وبارسابوس (في تاريخه ك٣ ف٢٩)، وتاوادوريطس (في ك٣ في أقاصيص الهراطقة ف٢٣)، وكلاهما أورد قول أكليمنضوس الاسكندري. واعتمد عليه ثم جد نطاليس في رد أقوال الآباء الذين أشرنا إليهم أو تأويلها، وصرفها إلى معنى آخر لكننا لن نراهُ بلغ شأوه من تبرئة نيقولاوس بل رأينا يوحنا منسا محشي تاريخه يقول الحق أولى أنّ يقال إنَّ تبرئة نيقولاوس ليست بالأمر اليسير. فان دافع عنه اكليمنضوس وتابعه أوسابيوس وتوادوريطس فقد وصمه كثيرون من الآباء كما رأيت وإن كان أولاً من الشمامسة المشهود بفضلهم فلا نعلم ما كانت العاقبة، ولم نرَ اليونان ولا اللاتين ولا كنيسة من الكنائس يكرمون ذكره فان صح خبر سقوطه كان مثالاً لنعمل عمل خلاصنا بالخوف والرعدة.

عد٥١٦

لعازر وأختاه مرتا ومريم

أنبأنا الإنجيل إنَّ لعازر كان يسكن بيت عنيا من ضواحي أورشليم مع أختيه مرتا ومريم، وإنَّ المخلص كان يضيفهم عند اتيانه إلى هذه المدينة. وفصل يوحنا (في ف١١ من إنجيله) خبر اقامة المخلص له من القبر بعد ان مكث فيه أربعة أيام، وزعم بعض اليونان إنه قضى نحبه بعد قيامته في مدينة شيسيا (لانركة) بقبرص، وإنه كان يدل على مدفنه في خارج أسوار هذه المدينة، وإنه كان في هذه الجزيرة معابد كثيرة مقامة على اسمه. وروى زاناراس (في ك٥) إن الملك لاون الملقب بالحكيم أقام في القسطنطينية نحو سنة ٨٩٠م كنيسة على اسم القديس لعازر وأخذ رفاته من قبرص ضمن تابوت من رخام ووضعها في الكنيسة المذكورة، ولكن روى كثير من العلماء أنَّ اليهود بعد موت المخلص قبضوا على لعازر وأختيه، ويوسف الذي من الرامة وغيرهم وألقوهم في سفينة ناخرة لا شراع فيها وسيروها في البحر المتوسط، فاستقذفهم مهبّ الأرياح بعناية الله إلى نواحي مرسيلية فنشر لعازر وأختاه الأنجيل هناك، وآمن بتبشيرهم كثيرون، وصار لعازر أسقفاً على مرسيلية ورأس كنيستها

نحواً من خمسين سنة، وقضى شهيداً، وأما أختاه مرتا ومريم فانطلقتا إلى تراسكون وقتلتا أحد الوحوش الضارية، وكان التراسكونيون يعيدون للقديسة مرتا ولذكر هذه المعجزة. والحاصل إنَّ أهل جنوبي أفرنسة كانوا شديدي التمسّك بهذا التقليد إنَّ لعازر وأختيه بشروهم بالمسيح وآمنوا على أيديهم خاصة من القرن الحادي عشر الذي وجدت فيه ذخائر لعازر ومرتا ومريم إلى القرن السابع عشر، إذ أُخذ في الانتقاد على مثل هذه التقليدات. فأول مؤرخ ندد بهذه التقليدات إنما هو لونوا الذي كان من سنة ١٦٠٣ إلى سنة ١٦٧٨م ولقب بالمنقب على القديسين. وقال كلمت (في معجم الكتاب في كلمتي لعازر ومرتا) الذي أخذنا عنه ما مرّ من كلامنا إن راعينا الشهود وكثرة الشهادات الموردة رأيناها مؤيدة صحة هذه الروايات على إننا لا نجد أحداً من مؤرخي الأعصر الأول كسلفيان وكسيان وفيكتور من مرسيلية وقيصر من أرل أتوا بشيء من هذه الأخبار. وغرابتها تقضي بأن تقام عليها أدلة قاطعة وبينات راهنة، وقد عدَّ كثير من علماء هذا العصر هذا التقليد من الأقاصيص إذ لم يروِهِ القدماء، على إنّ نطاليس اسكندر أفرد المقالة السابعة عشرة من تاريخ القرن الأول ليثبت فيها إنَّ لعازر وأختيه مرتا ومريم ساقتهم عناية الله إلى فرنسة وبشروا في مرسيلية وغيرها من مدن الجنوب، وأقام على ذلك حججاً وبينات عديدة من جملتها كتاب خط سنة ٥٧٢م قيل فيه: «إنَّ اليهود بعد رجمهم القديس إسطفانس ضايقوا التلاميذ، فوضعوا مريم المجدلية ومرتا مع مرسلّة خادمتها ولعازر ومكسيمينوس وقيدون الذي ولد أعمى، وكثيرين غيرهم في سفينة لا شراع لها لتغرقهم الأمواج فاوصلتهم عناية الله سالمين إلى مرسيلية فبشروا في هذا الاقليم وآمن أهله على يدهم بالمسيح. وذكر أيضاً كتاباً آخر خُط على ما رأى في القرن التاسع، وقد حوى ما يثبت تبشير هؤلاء في جنوبي أفرنسة إلى غير ذلك من الأدلة والبينات التي أقامها لكنها مأخوذة عن آثار القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ورد كثيراً مما يرد على ذلك من الاعتراضات، ودافع في قضية أخرى عن تكريم ذخائر لعازر وأختيه والقديس مكسيمينوس في مرسيلية وتراسكون وغيرهما من جنوبي أفرنسة.

وقد أسهب وأجاد في اثبات صحة هذا التقليد روهربخر في تاريخه البيعي (مجلد٤ طبعة٣ صفحة٤٧٩ وما يليها). وأكثر من اقامة الأدلة والحجج على أنَّ لعازر وأختيه وغيرهم بشروا بالمسيح في جنوبي فرنسة، وقال إنه قبل قرنين كان

الجميع يعتقدون إنَّ لعازر بشر في مرسيلية، وكان أسقفاً عليها وإنَّ أختيه مرتا ومريم المجدلية والقديس مكسيمينوس أحد الاثنين والسبعين بشروا هناك، وكان مكسيمينوس أسقفاً على أكس إلى انه في آخر القرن السابع عشر قام عالم اسمه لونوا موصوم باتباعه اليانسانيين، وتابعه غيره فزعموا إنَّ هذا التقليد غير صحيح بل مستنبط في القرن العاشر ولا أثر له قبل ذلك في كتب العلماء والآباء، وتغلب هذا الرأي في فرنسة حتى غيرت بعض صلوات في الكتب البيعية إلى إنْ قام سنة ١٨٤٨م كاهن افرنسي يسمى فيليون Faillion من جمعية سان سليبس، وأكثر من إيراد حجج وبينات لم تكن معروفة إلى حينئذٍ وهي مثبتة إنَّ هذا التقليد قديم وصحيح، وإن تهافت العلماء على اتباع زعم لونوا لم يكن من السداد في شي، ومن أدلته أولاً انه وجدت ترجمة حياة للقديسة المجدلية كتبت في القرن الخامس أو السادس، ونسخها في القرن التاسع القديس رابان مور رئيس أساقفة مانيس تثبت وجود هذا التقليد برمته حينئذٍ. ثانياً إنه اكتشف عن آثار أقدم من الترجمة المذكورة وهي مدافن وجدت في مقبرة القديسة المجدلية، وأحدها مدفن القديس مكسيمينوس. وأثبت إنَّ هذا المدفن يبين حقيقة التقليد القديم، وإنَّ المسيحيين في القرون الأُولى وربما قبل تأمين قسطنطين الكنيسة كانوا يكرمون القديس مكسيمينوس بمنزلة رسول لهم من الاثنين والسبعين مبشراً. ثالثاً وجود مدفن القديسة المجدلية وهو ناطق بصحة الترجمة المذكورة، وبأن المسيحيين في الأعصر الأُولى كانوا يكرمون ذخائر المجدلية الوارد ذكرها في الإنجيل. رابعاً إنَّ المسيحيين قبل استيلاء المسلمين على جنوبي أفرنسة كانوا يحجون إلى القرية المعروفة بسنت بوم في جنوبي فرنسة بمنزلة محل كانت المجدلية تختلي به، وإلى معبد المخلص الكائن في مدينة أكس كمعبد تقدس بصلاة القديس مكسيمينوس، والقديسة المجدلية فيه. خامساً إنَّ تاريخ استشهاد القديس اسكندر في براشيا في إيطاليا يثبت أن القديس لعازر كان في أيام الملك كلود أسقفاً على مرسيلية، وإنَّ القديس مكسيمينوس كان أسقفاً على أكس وإنَّ محبس القديس لعازر في مرسيلية إن هو إلاّ أثر قديم يثبت رسالته، واستشهاده فيها وإنَّ مدفن القديسة مرتا في تراسكون كان مكرماً في القرنين الخامس والسادس، وإنَّ كلوفيس الأول ملك فرنسا اعتراه مرض فزار هذا المدفن، وبل من مرضه. وإنَّ هذه القديسة كان المؤمنون قبل استيلاء المسلمين يكرمونها بمنزلة مبشرة في مدينة أفينيون، وإنَّ تراجم الشهداء

القديمة في المغرب تثبت رسالة لعازر وأختيه في جنوبي فرنسة إلى غير ذلك من البينات التي أوردها روهربخر في المحل المذكور مصححة هذا التقليد والله أعلم.

واما هل مريم المجدلية هي أخت لعازر ومرتا أو هي مريم أخرى؟ فقال فم الذهب: إنه كانت مجدليتان. وقال أوريجانس وغيره إنهن كن ثلاثاً إحداهن ذكرها لوقا في الفصل السابع عد٣٧ وسماها امرأة خاطئة، والثانية دهنت المسيح بالطيب قبل يومين من آلامه ذكرها متى فصل٢٦ عد٧. والثالثة أفاضت الطيب على رأس المخلص قبل الفصح وآلامه بستة أيام ذكرها يوحنا فصل١٢. والأصح ما ذهب إليه أغوسطينوس (في ك٢ في توفيق الأناجيل فصل٧٩) وقبريانوس وغريغوريوس الكبير وغيرهم وهو إنَّ المجدلية واحدة أخت لعارزر ومرتا، وقد دهنت المسيح بالطيب مرتين كما ذكر متى ولوقا ويوحنا وهو القول الأعم لقول يوحنا (فصل١١ عد٢). «ومريم هذه هي التي دهنت الرب بالطيب ومسحت قدميه بشعرها، وكان لعازر المريض أخاها». واعتمد فيكورو هذا المذهب (في الموجز الكتابي مجلد٣ عد٣٧٠) قائلاً: إنَّ مريم الخاطية التي ذكرها لوقا ومريم المجدلية التي أخرج منها سبعة شياطين، ومريم أخت مرتا هنّ واحدة بعينها وإنَّ هذا هو رأي العلماء والآباء القدماء وقد أيدته الكنيسة الرومانية دائماً في كتبها البيعية وكنيستنا المارونية تعيد لمريم في ٢٢ تموز ولمرتا في ٢٩ منه ونروي في ترجمتهما إنهما نفيتا مع لعازر إلى مرسيلية.

عد٥١٧

تادي رسول أبجر

روى أوسابيوس (في تاريخه ك١ فصل١٣) إنه لما أشتهرت آيات المخلص في كل صوب أمّه كثير من الوثنيين واليهود المتوطنين في بلاد شائعة للبرء من أمراضهم وأوجاعهم، وكان أبجر ملك الأمم في عبر الفرات مصاباً بمرض عضال أعيى الاساة شفاؤه وسمع بآيات يسوع، فارسل إليه رجلاً اسمه حنانيا مصحوباً برسالة إليه يسأله فيها أنَّ يأتي إليه فيبرئه. فاجابه المخلص برسالة إنه سيرسل إليه أحد تلاميذه فيشفيه، وينقذ جميع أسرته وأصحابه. وقد أنجز وعده بعد صعوده فان توما أحد الاثني عشر أرسل بالهام الله تادي أحد السبعين تلميذاً إلى الرها مدينة أبجر مبشرا

الأمم، بالإنجيل وينجز وعد المخلص لملكهم. وقال أوسابيوس إنه أخذ هذه الأخبار عن سجلات الحكومة المحفوظة في مدينة الرها ونسخ عنها رسالة أبجر إلى المسيح، وجواب المخلص وإنه ترجمها بكل دقة وأمانة عن اللغة السريانية المدونة بها وإليك ترجمتها عن كتاب أوسابيوس.

ترجمة رسالة أبجر الملك إلى يسوع أرسلها إليه إلى أورشليم مع رسوله حنانيا من أبجر حاكم الرها إلى يسوع المخلص الصالح الذي ظهر في نواحي أورشليم. السلام انتهى إليّ أمرك، وما تصنعه من الشفاء دون عقاقير وأدوية، فقد ذاع إنك تبرئ العميان والمخلعين، وتطهر البرص وتطرد الشياطين والأرواح الردية، وتشفي المرضى أمراضاً عضالة وتقيم الموتى. فلما بلغتني هذه الأمور عنك رأيت في نفسي إنك إما إله حقيقة هبط من السماء وصنع هذه الآيات وإما إنك ابن الله حقاً ولذلك كتبت إليك سائلاً: أنّ لا تأنف من أن تزورنا وتبرئ أمراضنا. قد سمعت إنَّ اليهود يشنأونك ويحاولون قتلك فلي مدينة جميلة وإن صغيرة فتكفيني وتكفيك».

وروى أوسابيوس جواب المخلص لأبجر نقلاً عن تلك السجلات كما يأتي.

جواب يسوع إلى أبجر الملك مرسلاً مع حنانيا وافده.

«طوباك يا أبجر لأنك آمنت بي دون أنّ تراني، فقد كتب عني إنّ من يرونني لا يؤمنون بي، ومن آمنوا ولم يروني فلهم الحياة. قد كتبت إليّ أنْ آتي إليك ولكن يلزمني أن أكمل كل ما أرسلت من أجله، وإذا تمت ذلك عدت إلى من أرسلني وبعثت إليك حالاً واحداً من تلاميذي يبرئ مرضك، ويوليك وجميع ذويك الحياة».

قال أوسابيوس إنه أضيف إلى الرسالتين المذكورتين باللغة السريانية ما يأتي ملخصاً. وبعد صعود يسوع المسيح أرسل يهوذا المسمى تادي الرسول أحد السبعين إلى أبجر وذاع خبر مجيئه والآيات التي كان يصنعها، فقيل لأبجر إني رسول يسوع على ما وعدك في رسالته، فاستدعاه إليه وبعد كلام طويل بينهما قال أبجر آمنت بالمسيح وأبيه، ووضع تادي يده عليه باسم ربنا يسوع المسيح، فبرئ لوقته من مرضه، وصنع تادي آيات أخرى حتى قال أبجر له إننا متيقنون إنَّ كل ما تصنعه من الآيات إنما هو مصنوع بقوة الله، وسأله أن يقص عليهم كيف أتى يسوع وبأية

قوة كان يصنع كل ما سمعوه عنه، فأخذ تادي يبث إليهم أخبار المخلص وآياته وصلب اليهود له، وصعوده إلى أبيه إلى السماء. فأمر أبجر أهل مدينته أن يجتمعوا في الغد جميعاً، ويسمعوا تبشير تادي فآمنوا، وأراد الملك أنّ يعطيه ذهباً وفضة فأبى قائلاً إننا تركنا ما لنا فكيف نأخذ ما لغيرنا. هذا ما قاله أوسابيوس إنه ترجمه من تلك السجلات المكتوبة باللغة السريانية.

أما وجود ملك اسمه أبجر في الرها في أيام المخلص فما عليه من نكير، وقد وجدت مسكوكات باسم أبجر ملك الرها وقد دام ملك هؤلاء الملوك نحواً من ثلاثة قرون أعني من سنة ٩٩ قبل الميلاد إلى سنة ٢١٧ بعده على ما روى دونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه المعلق في المكتبة الشرقية (مجلد أول صفحة ٤١٧ وما يليها). وكانت قصبة ملكهم الرها واشتهر أهلها منذ صدر النصرانية بالايمان المسيحي حتى سُميت الرها المقدسة أو الرها المباركة. وقد سمي كثير من ملوكها باسم أبجر وعد دونيسيوس المذكور تسعة وعشرين منهم بهذا الاسم وقال إنّ الذي كان في زمان المخلص كان أبجر الخامس وإنه ملك في الرها من سنة ١٣ إلى سنة ٥٠ للميلاد. وروى بركوب في كتابه حرب الفرس (ك٢ ف٢) إنَّ أبجر هذا زار رومة ونال حظوة عند أغوسطوس. وعن ابن العبري في تاريخه البيعي إنَّ كلمة أبجر معناها الأعرج، وأبجر هذا يلقب أوخمواي الأسود من باب التسمية بالاضداد لأن مرضه كان البرص وجسمه كله أبيض.

وأما هل رسالة الأبجر إلى المسيح ورسالة المسيح إليه صحيحتان؟ ففي ذلك خلاف. روى موسى الخوراني المؤرخ الشهير الذي كتب تاريخ أرمينية رسالتي الأبجر والمسيح كما رواهما أوسابيوس وزاد على ذلك أنَّ وافد أبجر إلى المسيح أتى إليه من أورشليم بصورة المخلص، وإنَّ هذه الصورة كانت في أيام المؤرخ (أي في القرن الخامس) في الرها، وقيل إنها نقلت بعد ذلك إلى القسطينية ثم إلى رومة إلى كنيسة القديس سليبستروس أو إلى جانوا، ونقل كثير من المؤرخين اليونان رسالتي المسيح وأبجر عن أوسابيوس والتقليد المنتشر في المشرق، وقد كشف في هذه السنين الأخيرة عما يدل على ذلك ولم يكن معروفاً قبلاً في أوروبا، فقد وجد في مكتبة الأمة في باريس ترجمة أرمنية لتعليم أداي تشتمل على تاريخ تادي التلميذ المرسل إلى الرها، وعلى ما يتعلق بهذا المبحث. فترجم هذا التعليم ترجمتين عني باحداهما يوحنا رافائيل أمين وهي مثبتة في المجلد الأول من مجموع التواريخ القديمة

الأرمنية لفيكتور لنكلوا (صفحة ٣١٥) وعنوانها «لروبنا الرهاوي تاريخ أبجر وتبشير تادي مترجماً المرة الأولى عن الكتاب المخطوط في المكتبة الملكية في باريس سنة ١٨٦٧م». والترجمة الثانية عنى بها اليسهان وهي أكمل من الأولى وعنوانها رسالة أبجر أو تاريخ تنصر أهل الرها كتبه لأبوبلينا الكاتب المعاصر للرسل وقد ترجم عن النسخة الأرمنية المخطوطة في القرن الخامس». وقد طبع هذه الترجمة الرهبان الميكيتاريون في البندقية سنة ١٨٦٨م وهذه الترجمة الأرمنية أُخذت عن الأصل السرياني الذي وجد وأذيع. وفي المتحف البريطاني في لوندرا نسخة منه طبعها كيراتون في لوندرا سنة ١٨٦٤م إلا أن تخلو عن الرسائل التي ذكرها أوسابيوس لسقوط الأوراق الأولى منها. على إنَّ هذا الكتاب وجد كاملاً في المكتبة الملكية في بطرسبرج مكتوباً بالأحرف السرنكالية في القرن السادس وطبعه جرج فيليب في لوندرا سنة ١٨٧٦م.

وإذ عورضت رسالة أبجر المثبتة في هذا الأثر السرياني برسالته التي ترجمها أوسابيوس إلى اليونانية لم يظهر بين الرسالتين فرق يعتد به، وأما جواب المخلص لأبجر الذي روى أوسابيوس إنه كان رسالة مخطوطة ففي الآثار الشرقية المذكورة أنه لم يكن إلا بلاغاً شفاهياً مستجمعاً معنى الرسالة، والناتج من ذلك أن المخلص لم يكتب إلى أبجر رسالة، وإنَّ أوسابيوس روى ما دون في سجلات الرها رواية صحيحة، لكنه ظن البلاغ الشفاهي رسالة مكتوبة، ويلزم تصديق أهل الرها بأن جواب المخلص لم يكن برسالة وإلا لتفاخروا بان المسيح كتب رسالة إلى ملكهم. وأما رسالة أبجر التي هي واحدة في رواية أوسابيوس وفي الآثار الشرقية، فقد أثبت كثير من العلماء الكاثوليكيين أنها صحيحة منهم بارونيوس وتلمُّون وأودين والبولانديون وفلت والسمعاني في المكتبة الشرقية (مجلَد١ صفحة٣١٨) مورداً قول يعقوب السروجي بل تابعهم على ذلك كثيرون من علماء البروتسطنت منهم كاف وكراب ودينك. وقال تلمون (في مجلد١ صفحة٦١٧): «لاندّعي إنَّ تلك الرسائل صحيحة حقاً ولكن نسأل من ينكرون صحتها أنّ يسمحوا لنا بان نتمسك بالقاعدة أنّ لا نرفض ما أبانه لنا القدماء إلا أن توجد حجج قوية لما يخالفه». فهل وجدت في هذا المبحث هذه الحجج القوية؟ فلا شك في وجودها نظراً إلى رسالة المسيح. وأما رسالة أبجر، فأكثر أهل النقد في هذه الأيام على إنَّ الحجج الواردة عليها قوية وكافية لرفضها، ويستندون في ذلك إلى إنَّ كتاب تعليم أداي لم يكتب في أيام أبجر الخامس الذي

كان في أيام المخلص إذ حوى أبحاثاً في أعمال الرسل، ورسائل بولس الرسول، وفي وجدان الملكة بروتونيكه الصليب الحقيقي. ولذلك قال ليبسيوس (في كتابه المطبوع سنة ١٨٨٠م إنَّ الآثار التاريخية في كنيسة الرها التي هي أهل للتصديق لا تتجاوز أبجر الثامن الذي كان من سنة ١٧٦ إلى سنة ٢١٣م. وعد المكاتبة بين أبجر والمخلص من الأقاصيص، والسيهان وفيلبس اللذان شهرا الأثر السرياني المذكور لم يثبتا صحة تعليم أداي برمته. وقالا إنه أدخل عليه زيادات وتغيرات. على انه لا يقرب من الصواب ما زعمه ليبسيوس من ان انتشار الدين المسيحي في الرها تأخر إلى أواخر القرن الثاني، ولكن نرى من جهة أخرى إن الكنيسة في الأعصر الأولى لم تثبت هذه المراسلة بين أبجر والمخلص، وإنَّ البابا جيلاسيوس الذي كان سنة ٤٩٢م قال في مرسومه في الكتب التي يلزم قبولها: «إنَّ رسالة أبجر إلى المخلص غير صحيحة ورسالة المسيح إلى أبجر غير صحيحة. (ملخص عن معجم الكتاب لفيكورو في كلمة أبجر) بمعنى أنه لا يلزم قبولها بين الكتب المقبولة في الكنيسة. ومن العلماء الذين أنكروا صحة هذه المراسلة في القرون السالفة نطاليس اسكندر، فإنه أفرد المقالة الثالثة في تاريخ القرن الأول ليثبت إنَّ هذه المراسلة بين أبجر والمخلص غير صحيحة، وأورد لإنكار صحتها ست حجج منها رسم البابا جيلاسيوس المذكور في مجمع عقده مع سبعين أسقفاً في رومة، ومنها أنّ قول المسيح في هذه الرسالة طوباك يا أبجر لأنك آمنت بي ولم ترني، منتحل عن الإنجيل. ومنها تعليم بعض الآباء إنَّ المخلص لم يكتب شيئاً، ورد نطاليس ما يرد على مذهبه ومن جملته شهادة القديس افرام في وصيته قائلاً إنَّ هذا القديس وأوسابيوس وغيرهما لم يفحصوا عن صحة سجلات الرها كما فحص عنها جيلاسيوس، وخالف كرابيوس نطاليس اسكندر في زعمه، فتعقبه يوحنا مانسي في حواشيه على تاريخ نطاليس، ففي هذا الاختلاف بين مشاهير العلماء يظهر إن هذا المبحث لم يقطع فيه إلى الآن بصحة هذه الرسائل أو عدم صحتها، والذي يظهر لنا إنّ الأرجح في رسالة المسيح إلى أبجر إنها لم تكن مكتوبة بل قال المخلص لوافده ما هو بمعناها، فبعد عود الوافد كتب المسجلون ما سمعوه منه بصفة رسالة. واما رسالة أبجر إلى المخلص فترجع صحتها لتدوينها في سجلات الرها، ورواية أوسابيوس لها وورودها في الآثار الشرقية المشار إليها وقول أكابر من العلماء بها.

وهذا هو رأي أستاذنا العلامة السمعاني (مجلد١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٤) حيث ذكر الخلاف بين العلماء على صحة الرسالتين، وأبان ما أورده كل فريق لتأييد مدعاه واستخلص بقوله: «ولذا أرى أنّ أقوال العلماء المتضاربة يمكن توفيقها بقولنا أنّ المخلص لم يكتب هذه الرسالة بل تلقاها وافد أبجر من فمه الأقدس وبعد عوده واتيان تادي إلى الرها وإيمان أبجر، دونها المسجلون في سجلات الملك ولم تحسب بين الكتب المنزلة لأن كاتبها لم يكن ملهماً، واما رسالة أبجر إلى المخلص فاني على يقين بأنه ليس من دليل يخالف صحتها، وأنّ علماء السريان مجمعون على أنّ أبجر أرسل رسولاً إلى المخلص، وأيد ذلك كثيرون من اليونان واللاتينيين وعادتهم المستمرة أن يرسلوا مع الوافد رسالة.

اما صورة المسيح التي زعم المؤرخون اليونان إنها صورت بآية على منشفة كان المخلص يتمسح بها فلم يذكرها أوسابيوس، وذكرها ثابت في تعليم أداي إلاّ أنه لم يقل فيه إنها صورت بآية بل أنّ حنانيا رسول أبجر صوّرها لأنه كان يحسن التصوير، فلا ريب إذاً في وجود صورة المخلص مكرّمة في الرها من أقدم الدهر وأما من صوّرها فالله أعلم به.

وأما تادي فروى ابن العبري في تاريخه البيعي (مجلد٣ صفحة١٤) إنه بعد أنّ شفى أبجر، وآمن هو وشعبه وبنى بنفقته كنيسة في الرها، مضى هو وتلميذاه أجي ومادي إلى المشرق يبشرون بالإنجيل. ثم عادوا إلى الرها وكان أبجر قضى وخلفه ابنه، وكان وثنياً يبغض المؤمنين فقتل تادي في ٣٠ تموز، ودفن في البيعة التي كان بناها في الرها. وقال أبالوس ولامي مترجما تاريخ ابن العبري إنَّ تادي بشّر في المشرق ١٢ سنة وعن بعضهم عشرين سنة، وإنَّ في كتاب تعليم ادي الذي أشرنا إليه أنّ تادي مات بمرض في ١٤ من أيار، ويعيد السريان له في ذلك اليوم. وقال العلامة السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد٣ صفحة٦١١) إنَّ تادي بعد رجوعه من التبشير توفي في السنة ١٢ بعد صعود المخلص وكان أبجر حياً. ودفن باحتفاء في الكنيسة الكبرى في الرها. هذا ما رواه مادي وعمرو وخالفهما ابن العبري بقوله إنَّ تادي قتله ابن أبجر في ٣٠ تموز على أنّ ما رواه ابن العبري نسبه مادي إلى أجي تلميذ تادي».

عد ٥١٨

خلفاء بطرس في كرسي أنطاكية في القرن الأول

إنَّ بين المؤرخين خلافاً في من خلف بطرس في كرسي أنطاكية أأوديس أم اغناطيوس؟ والأوجه والذي قال به الأكثرون إنَّ أوديوس هو الذي خلفه أولاً وذلك بيّن من رسالة اغناطيوس ١٢ إلى الأنطاكيين حيث يقول: «أذكروا أوديوس الطوباوي أباكم الذي هو أول من دبر كنيستكم بعد الرسل» . على أنّ هذه الرسالة لم يتحقق أنها لاغناطيوس ولكن أياً كان كاتبها فلا تخلو من البرهان على صحة ما نحن مثبتون. وقال أوسابيوس (في ك٣ من تاريخه فصل٢٢): «ولما كان قضى في أنطاكية أوديوس الذي كان أقيم الأسقف الأول (بعد بطرس) على هذه المدينة خلفه الأسقف الثاني اغناطيوس الذي كان شهيراً» وقال القديس إيرونيموس (في المشاهير البيعيين): «إنَّ اغناطيوس الأسقف الثالث بعد بطرس في كرسي أنطاكية». يريد أنَّ بطرس هو الأول وأوديوَّس الثاني واغناطيوس الثالث، على أنه يظهر من خطبة يوحنا فم الذهب في تأمين اغناطيوس أنه هو الذي خلف بطرس في كرسي انطاكية، وعن تاودوريطس أنه نال الأسقفية من يد بطرس ومثل ذلك في رسالة من البابا فليكس الثالث إلى الملك زينون، وخرّج نطاليس اسكندر (مقالة١٤ في تاريخ القرن الأول) أقوالهم بمعنى أنّ بطرس أقام أوديوس واغناطيوس أسقفين معاً على انطاكية حين الاختلاف بين المتنصرين من اليهود والوثنيين، ولما زال نقل اغناطيوس إلى أسقفية أخرى، واستمر أوديوس في انطاكية ولما قضى نحبه خلفه اغناطيوس وقال إنه رأى ما يؤيد ذلك في الكتاب السابع من الرسوم الرسولية والله أعلم. وعن موجز تراجم القديسين في ٦ أيار أنّ أوديوس توفي شهيداً على عهد الملك غلبا سنة ٦٨م والذي في سنكسار طائفتنا أنه خلف بطرس السليح في كرسي انطاكية وجاهد في بشارة الإنجيل. فقبض عليه الوثنيون وعاقبوه عقوبات شديدة حتى نال اكليل الشهادة سنة ٧١م ويعيّد له في ١١ آب. لكن الذي في كتب أكثر المؤرخين أنه استأثرت به رحمة الله سنة ٦٨م. وحيث أنّ الرأى العام إنَّ بطرس ترك انطاكية سنة ٤٢م فيكون أوديوس أقام في كرسي انطاكية ستاً وعشرين سنة على القول الثاني أو تسعاً وعشرين على القول الأول».

أما القديس اغناطيوس أسقف انطاكية الثالث فكان تلميذاً لبطرس ويوحنا الرسولين، ويسمى تاوافورس أيضاً وتأويل الكلمة حامل الله أو المحمول من الله، وقد زعم لذلك بعض علماء اليونان أنه كان الطفل الذي حمله يسوع وقال: «إنْ لم تصيروا مثل هذا الطفل لا تدخلون ملكوت السماء». والأوجه المعنى الأول أي أنّ اغناطيوس كان حاملاً لله أي بمنزلة هيكل له لأنه جاء في قصة استشهاده القديمة جداً أنّ ترايانوس قال: «نأمر أنّ يأخذ الجنود إلى رومة العظمى اغناطيوس الذي يقول إنه حامل المصلوب في نفسه». فهذا صار أسقفاً على أنطاكية سنة ٦٨ أو سنة ٧١م كما مرّ ودبرها بكل قداسة إلى أيام ترايانوس الذي رُقيَ إلى منصة الملك سنة ٩٨م. وقد ذكر أوسابيوس (ك٣ من تاريخه فصل٣٦) أخباره ورسائله فقال ما ملخصه إنه أقتيد من أجل إيمان المسيح من سورية إلى رومة وطُرح فيها للوحوش، وفيما كان مجتازاً في آسيا مخفوراً بالجنود بكل تحرز كان كلما دخل مدينة خطب في المؤمنين محرضاً إياهم على الثبات في الإيمان والتمسك بعروة التقليدات الرسولية، ومحذراً إياهم من الإنخداع بأقوال الهراطقة الحديثي النشأة حينئذٍ، وأتى أزمير وكان فيها بوليكربوس فكتب رسالة إلى كنيسة أفسس وأخرى إلى كنيسة مانيزيا وأخرى إلى كنيسة ترال (المعروفة الآن بسلطان حصار في آسيا الصغرى). ورسالة إلى الرومانيين وبعد أنّ زايل أزمير وأتى تروادا كتب رسالة إلى أهل فيلادلفية، ورسالة إلى كنيسة أزمير ورسالة إلى بوليكربوس أسقفها أوصاه فيها برعيته في أنطاكية وقال أوسابيوس أيضاً إنَّ القديس إيريناوس ذكر استشهاد القديس اغناطيوس ورسائله. ومما رواه إيريناوس عن قوله: «إني حبة حنطة لله فيلزم أنّ تطحنني أنياب الوحوش لأكون صالحاً على مائدة الله».

على أنه يعزى إلى اغناطيوس رسائل أخرى منها ثلاث رسائل أحداها إلى العذراء، واثنتان إلى يوحنا الإنجيلي لكن هذه الرسائل الثلاث لا صحة لنسبتها إليه، ومنها خمس رسائل أخرى إلى امرأة اسمها مريم وإلى أهل ترسيس وأنطاكية وفيليبية وإلى هيرون، وهذه أيضاً ليست له لأن فيها ذكر أمور لم تكن إلا بعد أيامه، أما رسائله السبع التي ذكرها أوسابيوس وإيريناوس والتي نشرها مطبوعة باليونانية إسحق فوسيوس مأخوذة عن كتب محفوظة عثر عليها في المكتبة الماديشية ثم نشرها في اللاتينية أوساديوس مأخوذة عن نسختين مخطوطتين عثر عليهما في مكاتب إنكلترا.

فقد أثبت نطاليس اسكندر (في الفصل١٦ من تاريخ القرن الأول وفي المقالة ٢٣ من هذا القرن) إنها صحيحة، وهذا القديس منشئها ولم يطرأ عليها تحريف ولا تزييف خلافاً لسلماسيوس ودالوس وغيرهما من الكلوينيين. وكنيستنا المارونية تعيد لهذا القديس في ٢٠ ك وتروى خبره كما ذكره أوسابيوس وأنه نال اكليل الشهادة في رومة سنة ١٠٩م.

عد ٥١٩

سمعان خليفة يعقوب الرسول في أورشليم في القرن الأول

قد مرّ (في عد٥١٠) إنَّ يعقوب الصغير بن حلفى كان اسقفاً على أورشليم وقضى شهيداً، وروى أوسابيوس (في ك٣ من تاريخه فصل١١) إنَّ الرسل والتلاميذ اجتمعوا في أورشليم بعد استشهاد يعقوب الرسول مع بعض أنسباء المخلص ليختاروا أسقفاً لأورشليم مكان الشهيد، فأجمعوا على اختيار سمعان بن حلفى الوارد ذكره في الإنجيل (مرقس فصل٦ عد٣)، ويظن إنَّ سمعان هذا كان نسيباً للمخلص لأن حلفى كان أخا يوسف على ما روى هجيسبس. ويؤخذ من قول أوسابيوس (ك٣ فصل٣ من تاريخه) إنَّ سمعان كان من جملة التلاميذ الاثنين والسبعين، ويظهر أنه اعتزل مع المؤمنين في بالا في عبر الأردن ابان محاربة اليهود والرومانيين. وعاد إلى أورشليم بعد خرابها على ما روى أبيفان وأوسابيوس، وتوفرت حينئذٍ آيات الله في كنيسة وتكاثر عداد المؤمنين وتفاقم الاضطهاد لهم وأمر ترايانوس بمزيد التقصي عنهم والتنكيل بهم فوشى بعض الهراطقة بسمعان إلى أيكس والي فلسطين أنه مسيحي ومن نسل داود، فاقتيد إليه وأذاقه أمّر أنواع التعذيب أياماً حتى عجب الوالي والجنود والناظرون من تحمله كل هذا التبريح وعمره مئة وعشرون سنة. فأمر الوالي أخيراً بصلبه فجاد نفيه على الصليب كسيده سنة ١٠٧م (روى ذلك أوسابيوس في تاريخه ك٣ فصل٣٢ نقلاً عن هجيسبس)، وبما إنَّ يعقوب سلفه استشهد سنة ٦٢ أو سنة ٦٣م فيكون سمعان قد دبر كنيسة أورشليم مدة أربع وأربعين أو خمس وأربعين سنة، ويعيّد اللاتينيون له في ١٨ شباط واليونان في ٢٧ نيسان وخلفه يوستوس في أسقفية أورشليم.

عد٥٢٠

بعض أساقفة في مدن سورية في القرن الأول

إنَّ سورية كانت مهد النصرانية فقد بشّر فيها المخلص وآمن به كثيرون، ونشر الرسل والتلاميذ بشارة الإنجيل فيها قبل تفرقهم إلى الآفاق، وتوفرت فيها الكنائس وقام فيها أساقفة كثيرون ولم يبقَ لنا في آثار القدماء ذكر جميعهم. فنذكر منهم من تيسر لنا العلم بهم منهم في دمشق حنانيا الذي عمد بولس الرسول، وأثبت العلماء الشرقيون واليونان المتأخرون إنه كان من الاثنين والسبعين مبشراً، وصار أسقفاً على دمشق وأن ورد في المراسيم الرسولية أنه لم يكن كاهناً. وقال بعضهم إنه كان شماساً، وقال القديس اغوسطينوس (ك٢ رأس ٤٠ من المباحث) إنه كان كاهناً لأن المسيح أرسل إليه بولس لينال سراً لم يخول منحه إلا للكهنة، وقد استشهد حنانيا في دمشق ودفن فيها ويعيّد له اللاتينيون في ٢٥ كانون الثاني والروم وطائفتنا المارونية في ١ تشرين الأول وذكر كثير من المؤرخين أنّ اغناطيوس تلميذ حنانيا كان أسقفاً على هذه المدينة في القرن الأول.

اما بيروت فلم يرد اسمها في الأسفار المقدسة ولكن مما لا يعتري فيه أنّ الرسل اجتازوا بها مراراً عند مضيهم من قيصرية إلى أنطاكية وعند تطوافهم في مدن فينيقية كما جاء في كتاب أعمال الرسل (فصل١١ عد١٩ وفصل١٥ عد٣) يبشرون بالإنجيل الجالية الرومانية واليهود المقيمين فيها، وقد نشر البولانديون في ترجمتي الرسولين بطرس وبولس كتيباً في هذين الرسولين لا يعلم مؤلفه، ومما جاء فيه أنّ بطرس الرسول بعد أنّ أخرجه الملاك من السجن في أورشليم مضى إلى قيصرية وصيدا ثم إلى بيروت وأقام فيها أسقفاً أحد رفقائه، ثم سار إلى جبيل وأطرفنا مؤلف الخطب المنسوبة إلى القديس اكليمنضوس الأول البابا ببعض أخبار عن اقامة بطرس في بيروت. فقال حدث زلزال أثناء بلوغ بطرس إلى بيروت فهرع الناس إلى الرسول يطلبون غوثه، وكان سيمون الساحر فرّ من وجهه من صيدا إلى بيروت فاغتنم الفرصة ليهيج الشعب على بطرس قائلاً: لم تحل بهم هذه الداهية إلاّ لحلوله مدينتهم وإنَّ أبطأوا في طرده تتالت المصائب عليهم، وعرف بطرس ففضح مكر المضلّ ورفقائه فثار الشعب عليهم وطفقوا يضربونهم إلى أنّ أبعدوهم عن المدينة، وعادوا يأتون بالمرضى والسقماء إلى الرسول فيبرئهم، فآمن كثيرون منهم

فعمدّهم وثبّتهم وأقام مدة عندهم، ثم ترك لهم أحد رفقائه الكهنة أسقفاً لهم. وقال بعض العلماء اليونان منهم مؤلف الكتاب المنسوب إلى دوروتاوس وإيبوليطس في كتابه في الاثنين والسبعين تلميذاً إنَّ هذا الأسقف كان اسمه كوراتس وهو من الاثنين والسبعين تلميذاً وقد ورد اسمه في رسالة بولس الى الرومانيين (ف١٦ عد ٢٣) حيث قال:«يسلم عليكم... كوراتس الأخ» وروى البولانديون (في٣ ت٢ مجلد٦١ صفحة٥٨٥) إنَّ السنكسارات اليونانية واللاتينية توجب التكريم للقديس كوراتس. وروى هنري موندر في رحلته من حلب إلى أورشليم من نحو قرنين أنه كان في إحدى كنائس بيروت خطوط يونانية ناطقة باسم «كوراتس أول أسقف على بيروت» كل ما مرّ يحتمل الصدق ولا دليل على خلافه على أنه غير كاف للقطع بصحته وتوكيده كل التوكيد للاستناد فيه إلى كتب لا يعلم مؤلفها أو إلى شهود ليس ما ينزههم عن الغلط.

زعم بعضهم أنّ يوحنا مرقس كان أول أسقف في بلاد جبيل، وإنه سنداً إلى هذا التقليد بنيت فيها على اسمه كنيستها في أيام الصليبيين لكن هذا يخالف ما رويناه عن ثقة المؤرخين بأن يوحنا مرقس الإنجيلي الذي كان مرافقاً لبطرس إلى رومة وأقامه أول أسقف في اسكندرية. وروى لاكويان (في مجلد٣ صفحة٨٢١ من المشرق المسيحي) إنَّ بطرس الرسول اجتاز في طرابلس عند مضيه إلى أنطاكية فأقام فيها أسقفاً وأثنى عشر كاهناً وكان اسم هذا الأسقف ماروتس كما في ٧ك١ رأس٤٥ من المراسيم الرسولية. وكان في بانياس قيصرية فيلبوس ارست أول أسقف على زعم بعض المؤرخين اليونان ولا بيّنة راهنة على ذلك، وكان في قيصرية فلسطين زكي أول أسقف اختاره بطرس الرسول في السنة الأولى بعد صعود المخلص، ثم خلفه تاوافيلوس من أنطاكية ثم كرنيليوس ذكرهم بياجيوس في كتابه الموسوم بسورية المقدسة، وجاء في هذا الكتاب أنّ لوقيوس تلميذ الرسل كان أول أسقف على اللاذقية وهو الذي جاء ذكره في رسالة بولس إلى الرومانيين (فصل١٦ عد٢١). وقد ذكره أيضاً لاكويان في المشرق المسيحي أول أسقف على السويدية (وهي سلوقية سورية) دوسيتناوس ذكره لاكويان في المشرق المسيحي، وعدّ خمسة عشر أسقفاً من أساقفتها لأن أهلها آمنوا بالمسيح عند اجتياز بولس وبرنابا من أنطاكية إلى قبرص (أعمال الرسل فصل١٣ عد٤). وعن دوروتاوس أسقف صور أنّ زيناس معلم الناموس الوارد ذكره في رسالة الرسول إلى طيطوس (فصل٣ عد

١٣٠) كان أسقفاً على الله، وذكره بياجيوس أيضاً. وفي تراجم القديسين في ٢٢ تشرين الثاني أنّ فيليمون تلميذ بولس بشّر في غزة وكان أول أسقف عليها ثم عاد إلى كولوسايس التي كان منها فنال اكليل الشهادة مع أبغية امرأته، ولكن في كتاب المراسيم الرسولية أنّ بولس الرسول أقامه أسقفاً على كولوسايس. وقد كانت مدن أخرى كثيرة أسقفية في سورية في القرن الأول ولكن لم يتسنَ لنا العلم باسماء أساقفتها.

عد٥٢١

المبتدعون الذين كانوا في سورية في القرن الأول

إنَّ أول المبتدعين في كنيسة الله كان سيمون الساحر وقد مرّ في كلامنا على بطرس الرسول أنّ سيمون هذا كان من السامرة، وقد آمن بالمسيح على يد فيلبس الشماس، ولما أتى بطرس ويوحنا إلى السامرة ليثبتا المؤمنين أراد أنّ يعطي بطرس فضة ليمنحه السلطان على إعطاء الروح القدس أي على منح سر التثبيت، فازدجره الرسول قائلاً لتذهب فضتك معك إلى الهلاك لأنك ظننت أن موهبة الله تقتنى بالنقود. فمرق من الدين، وأخذ يعلم غوايات وكان يضل الشعب ببعض تأثيرات فلكية فسمي ساحراً، واتخذ امرأة بغياً من صور كان يعزو إليها شيئاً من الألوهية وخلق العالم، وكان يطوف البلاد معها حتى انتهى إلى رومة واستطاع بشعوذاته أنّ يغوي كثيرين ويكسب احتفاء القوم وايناسهم حتى أقاموا له تمثالاً، وقد ونب الرومانيين على ذلك القديس يوستينوس الشهيد في محاماته الأولى قائلاً: «سيمون نزل منزلة اله في مدينتكم الملكية وأقيم له تمثال كأنه اله»، وقد حاول ذات يوم أنّ يرتفع إلى الجو بسحره وكان القديس بطرس في رومة فخشع إلى الله مصلياً فسقط التعيس على الحضيض فانحطمت ساقاه وحمل إلى محل آخر ولم يتحمل الألم المبرح والخجل الفاضح، فألقى بنفسه من شاهق فانقضت أنفاسه التعيسة، روى ذلك من القدماء أرنوبيوس (في ك٢ ضد الأمم) والقديس كيرلس الأورشليمي (تعليم) وأوسابيوس في تاريخه (ك٢ رأس ١٢) والقديس أبيفان (في بدعة٢١) والقديس أغوسطينوس (في كتابه في البدع) وغيرهم فضلاً عن كثيرين من المؤرخين الحديثين.

أما الغوايات التي بثها سيمون فأخصها أولاً أنّ الملايكة خلقوا العالم. ثانياً إنَّ

النفوس بعد موت الجسد تجتاز إلى أجساد أخرى، ولو كان ذلك صحيحاً لتذكرت ما كان لها من الأجساد الأولى لأن قوى النفس ملازمة لها ولا تنفك عنها (فممن ذكروا هذا البرهان القديس إيريناوس ك٢ في البدع فصل ٥٨). ثالثاً إنَّ لا حرية للانسان وأنّ الأعمال الصالحة ليست بلازمة للخلاص، وهذا الضلال جدده لوتاروس وأشياعه. رابعاً كان يدعي أنه الآله الذي أنزل السنَّة على موسى وأصلح العالم وأنه روح القدس. وروى القديس إيريناوس وتاوادوريطس أنه كان يزعم أنّ من أحسن رجاءَه به وبهيلانة معشوقته لا يلزمه أنّ يعبأ بوصايا السنَّة ولا يخشى التهديدات الواردة فيها، بل يطلق له أنّ يصنع ما شاء إلى غير ذلك من الأضاليل التي لا يحفل بردها ولا تستوجب اضاعة الوقت في تفنيدها.

وكان أيضاً في هذا القرن مينيدروس وكان من السامرة وتلميذاً لسيمون وأخذ في سنة ٧٤ للميلاد يدافع عن أضاليل سيمون، ويزيد عليها أنه أرسل من السماء مخلصاً للعالم (رواه إيريناوس ك١ فصل٢١ وأوسابيوس في ك٣ من تاريخه فصل٢٠) وإنه لا خلاص لأحد أنّ يعتمد بمعمودية ويعد من آمن بتعليمه واعتمد بمعمودية بأنه لا يدركه الموت ولا يشيخ (رواه إيريناوس وأوسابيوس في المحال المذكورة والقديس يوستينوس الشهيد في محاماته٢ وترتوليانس في كتابه في النفس فصل٥٠) ولم نعثر على ما يبين لنا كيف كانت نهاية أنفاسه وأنى كانت فهي أكبر مفند لغوايته.

وخلف ميندروس كيرنتوس وقد تعلم الفلسفة في مصر وكان يناصب الرسل في أورشليم وقيصرية وأنطاكية. وروى أبيفان (في بدعة ٢٨) إنه هو الذي حرَّش بين اليهود والأمم بمسئلة الختان وحفظ سنة موسى التي عقد الرسل مجمع أورشليم لفصلها، ومضى إلى آسيا الصغرى فبث أضاليله التي منها أنّ الله لم يخلق العالم بل أبدعته بعض سلطات لا تعرف الله، وإنَّ حفظ سنة موسى غير لازم مع الإنجيل لينال الانسان الخلاص، وإنَّ يسوع انسان ولد كعامة الناس من يوسف ومريم وحلَّ عليه المسيح بشبه حمامة عند اعتماده في الأردن، وكان أشياعه يحرفون إنجيل متى وينبذون رسائل بولس الرسول وكتاب أعمال الرسل، وزعم أن سيكون بعد القيامة العامة ملك أرضي ليسوع المسيح يتمتع الناس فيه بالملاذ البدنية في أورشليم ألف سنة، وأنبأنا القديس إيريناوس (ك٣ فصل٤) أنّ كيرنتوس دخل الحمام يوماً ورآه يوحنا الرسول ففرَّ قائلاً للحاضرين هلموا نذهب من هنا لئلّا يسقط الحمام علينا

ولم يفرغ من كلامه إلا تداعى الحمام وسقط بزلزالٍ فدفن كيرنتوس تحت أنقاضه قبل أنّ يموت.

وكان في هذا القرن أيضاً أبيون وروى كثير من القدماء أنّ يوحنا الرسول كتب إنجيله ليفند ضلال هذا المبتدع، ومن غواياته أنّ المسيح كان بشراً ولده يوسف ومريم لكنه أحرز الفضائل فاختاره الله ابناً لله، وسلم بعض أتباعه أنّ العذراء حبلت به بفعل الروح القدس لكنهم أنكروا كونه مساوياً للآب، وكان يعلم بلزوم الجمع بين سنّة موسى والدين المسيحي، ولم يكن الأبيون يسلمون إلا بإنجيل متى ويسمونه إنجيل العبرانيين ويسقطون منه فصلين ويحرفونه في آيات كثيرة. روى القديس إيرونيموس أنّ المعمودية كان يمنحها الأبيون لم يرذلها الكاثوليكيون، وقد أذاع أبيون ضلاله أولاً في سورية وبلاد مواب ثم في آسيا الصغرى ورومة أيضاً وقد فندَّ القديس إيريناوس (في ك٣ فصل٢٤ وما يليه) ضلاله بأنَّ المسيح ولد من يوسف والعذراء ولا نعلم متى وكيف قضى أجله.

وكان أيضاً ساتورنينوس وقد نشأ في أنطاكية والذي في التواريخ البيعية أنه بثَّ ضلاله في أوائل القرن الثاني، ولكن ذكرناه هنا لأنه كان تلميذاً لميننדروس وقد تابعنا على ذلك نطاليس اسكندر. ومن أضاليله أنه وجد أب يجهله كل واحد وهو خلق الملايكة، فأبدع سبعة منهم العالم والانسان إذ رأوا نوراً سماوياً أرادوا إمساكه فتوارى عنهم، فخلقوا انساناً على شبهه قائلين لنصنع انساناً على صورتنا ومثالنا، لكن هذا الانسان أمسى كدودة لا تطيق أن تفعل شيئاً، فشفقت القدرة السامية على صورتها وأحلت فيها نطفة فيها فاحيتها، وهذه النطفة تطير نحو السماء من الجسد عند انحلاله. وقالوا إنَّ إله اليهود واحد من هؤلاء السبعة الملايكة عصا أباه فأرسل المخلص بصورة بشرية ليرد هذا الملاك إلى الطاعة، ويخلص من يؤمنون به بإزالة نطفة الحياة فيهم وكان ينهي عن الزواج والولادة بما أنَّ الشيطان اخترعهما، ويزعم أنّ الملايكة خلقوا البشر وبعضهم صالح طبعاً وبعضهم ردي طبعاً، وإنّ المخلص أتى إلى العالم ليساعد الصالحين ويبكت الأردياء مع الشياطين الذين كانوا يسعفونهم إلى غير ذلك من الغوايات، روى ذلك القديس إيريناوس (ك١ فصل١٣) وأبيفان (في بدعة ٢٣) وأوسابيوس (ك٤ من تاريخه فصل٦) وغيرهم.

وكان في هذا القرن أيضاً باسيليدي لكنه لم يكن من سورية بل من

الاسكندرية وبثَّ ضلاله في مصر إلا أنه أخذه عن سيمون وميندروس وزاد على تعليمهما خرافات أخرى لا تحفل بذكرها لأنها لا عبرة بها ولم تنتشر في سورية.

وبقي النيقولايون وكان من ضلالهم أنهم كانوا يتزوجون النساء سفاحاً أي دون سنة ولا كتاب ويبيحون الزواج بايتهنَّ كانت مزوجة أو عذراء، ويزعمون أنّ أبا يسوع المسيح لم يخلق العالم، ويتشدقون بغوايات أخرى منها أنّ الظلمات اقترنت بالروح القدس فولدت زانية ثم ولدت أربعة أيوني (أي أرواح أو مخلوقات أعلى من الناس)، ومن هؤلاء الأيوني الإله الشرير فهذا ضاجع تلك الزانية فولد منها الآلهة والملايكة، والناس وسبعة أرواح الشياطين روى ذلك القديس إيريناوس (ك١ فصل٢٧) وأبيفان (بدعة ٢٥) وفيليمستريوس (في كتابه في البدع فصل٥) وغيرهم.

وقد ذكر يوحنا في رؤياه هؤلاء النيقولاويين بقوله (فصل٢ عد٦) إنك تمقت أعمال النيقولاويين التي أمقتُها أنا أيضاً، وكان هؤلاء الهراطقة يتباهون بانتسابهم إلى نيقولاوس الأنطاكي أحد الشمامسة السبعة وقد استوفينا الكلام في ما إذا كان من صحة لهذه النسبة أو تسبب بها نيقولاوس بذريعة ما (طالع عد ٥٠٥).

الباب الثاني

في تاريخ القرن الثاني

القسم الأول

التاريخ الدنيوي

تمهيد

عد ٥٢٢

لمحة في تاريخ الملوك الرومانيين في هذا القرن

ترايان ويسمى أولبيوس نرفا ترايان ولد في إسبانيا سنة ٥٣ للميلاد وكان والياً في سورية سنة ٧٦م، وتقلب في غير ذلك من مناصب الحكومة إلى أنّ صار قنصلاً سنة ٩١م وأوفدته الحكومة إلى إسبانيا ثم إلى جرمانيا سنة ٩٦م لمهام جلى، وتبناه نرفا الملك سنة ٩٧م وخلفه بعد وفاته سنة ٩٨م وأتى رومة سنة ٩٦م بعد أنّ أمّن شطوط الران مزيلاً الشغب منها. وفي سنة ١٠١م شرع في محاربة أهل داشيا وهي المجر وبعض جوارها فقهرهم ودانوا للمملكة الرومانية وبنى جسراً من حجر على الدنوب سنة ١٠١ إلى سنة ١٠٤م واعتمد في بنائه على أبولورد الدمشقي المهندس الشهير. وأذلّ كرنيلوس بَلما قائد جيشه العرب سنة ١٠٥م وحارب بنفسه البرتيين وأخضع أرمينية وإيبارية، وافتتح قطيسفون وسلوقية وسيس وجعلها وغيرها من مدن ما بين النهرين اقليماً رومانياً سنة ١١٥م. واتصل بغزواته إلى الهند سنة

١١٦م ونشأت ثورة في بلاد العرب أرغمته على الإسراع لاخماد لظاها إلى أنّ أدركته المنية في صقلية سنة ١١٧م. وقد ساد العدل في أيامه وعنى بتقدم الزراعة وأقام معاهد لتربية الأيتام وأحسن نظام تدبير الأقاليم، وأنشأ للملكة آثاراً تذكر فتشكر، منها العمود والمنتدى المعروفين باسمه في رومة ومينا في شيفينا فاكيا، وأخرى في أستيا وطرقات في افريقية وغيرها. وكان في أيامه بلين الصغير ولم يكن اضطهاده للمسيحيين شديداً، ومع ذلك حكم على القديس اغناطيوس أسقف أنطاكية بالموت فريسة للأسد.

وخلف ترايان أدريان وسُميَ اليوس أدريانوس وكان من أنسبائه الأدنين وتبناه وجعله أولاً حاكماً في سورية، ولما مات خلفه في الملك سنة ١١٧م ومن أعماله أنه بنى على الدنوب قلاعاً عديدة، وأكثر من التطواف في مملكته فزار افرنسة سنة ١١٨م وعنى بعمل مرفأ مدينة كارد ومضمار مدينة نيم، وأتى بريطانية وأقام أسواراً بجانب مدينة كاليدوني، ثم جال في إسبانيا وافريقية وعاد إلى رومة، فأقام فيها مدة ثم أقبل إلى المشرق وأقام فيه من سنة ١٢٢م، إلى سنة ١٢٥م. ثم أتى بلاد اليونان سنة ١٢٥م وعاد إلى رومة سنة ١٢٦م ثم أمَّ افريقية سنة ١٢٨م وتجول في آسيا وصحراء تدمر وبلاد العرب وفلسطين، وحارب اليهود وأقام في أورشليم هيكلاً وثنياً على أطلال هيكل أورشليم، وسمى المدينة الياكابيتولينا نسبة إليه وإلى هيكل المشترى في رومة وانتصر على بركوكبا الذي كان قد آثار هذه الحرب ثم قضى أجله سنة ١٣٨م.

وخلفه أنطونيوس المسمى طيطس أورليوس فولفوس ثم طيطس اليوس أدريان أنطونيوس أغوسطوس ويوصف بيبوس أي التقي. ولد سنة ٨٦م للميلاد وتبناه أدريان وخلفه سنة ١٣٨م ويحسب من أحسن الملوك الرومانيين. حافظ على السلم في المملكة وأنشأ رسوماً وقوانين تتكفل بمنفعة القصّر والنساء، وضمها إلى الناموس الروماني، وأخمد دون مشقة حرباً ثارت في مصر سنة ١٤٧م، وكف الاضطهاد عن المسيحيين.

وفي أيامه كتب القديس يوستينوس محاماته على الدين المسيحي ومات مأسوفاً عليه أسفاً عاماً سنة ١٦١م بعد أنّ عين مرقس أورليوس خليفة له، وأقامت الندوة الرومانية عموداً تكرمة له. وله كتاب سماه Itinerarium Provinciarum دليل

الأقاليم، قد أذيع مراتٍ مترجماً إلى لغاتٍ عديدة ونشره برتاي أخيراً في برلين سنة ١٨٤٨م وهو نافع في الجغرافية القديمة ويظن أنه اقترحه على أحد علماء عصره ولم يؤلفه بنفسه. وذكر واديتكتون خطاً وجد في السويدة وهو في عد ١٨٣٦ بين الخطوط التي ذكرها كأنه كتب تحت نصب أقيم له كتب فيه «للملك اليوس قيصر أدريان أنطونيوس بيوس العاهل وذكر خطاً آخر (١٨٨١) كتب على عمودين في هيكل بعلبك وملخص ترجمته: «للآلهة العظام البعلبكيين لسلامة وظفر مولانا أنطونيوس بيوس فيليكس أغوسطس وأمه يولية أغوسطا أقام أورليوس أنطونيوس لنجينوس قائد الفرقة الأولى الأنطونينية هذين العمودين من ماله مسروراً». وعثر على خط آخر في الطريق من تدمر إلى سلمينا عد ٢٦٣٢ كتب فيه: «العاهل القيصر طيطوس اليوس أدريان أنطونيوس أغوسطس بن أدريان المتألهة وحفيد ترايان قاهر البرتيين وابن حفيد نرفا».

وخلفه مرقس أورليوس ويسمى اليوس أورليوس فاروس أنطونيتوس ويوصف بالفيلسوف ولد في رومة سنة ١٢١م من أسرة شريفة وسماه أدريان والياً على رومة على صغر سنه حينئذٍ، واشترط على أنطونيتوس الذي عينه خلفاً له أنّ يتبنى مرقس فكان كذلك، وخلف أنطونيتوس سنة ١٦١م وكانت بواكير ملكه سيئة إذ طغى النهران تيبر وبو فأحدث طغيانهما ما لا يقدر من المضار، وحصلت مجاعة وثقلت وطأة الطاعون وثارت ثورة في بريطانية، وهاجت بعض القبائل في جرمانيا، والبرتيون في آسيا. فاخمد قواد جيشه ثورة البريطانيين، وأرسل لوشيوس فاروس أخاه بالتبني وشريكه في الملك على البرتيين، وتدارك عود القحط باقامة أهراء للحكومة يجمع الأقوات فيها. ثم زحف بنفسه لمحاربة القبائل الجرمانية سنة ١٦٧م فمات فاروس في هذه الحرب سنة ١٦٩م ولم يتخذ لنفسه إلا لقب نائب الملك إذ لم تعرف الندوة إلا ملكاً واحداً، وانتصر الملك على البربر في وقائع عديدة ولم يكفه عن استئصال شأفتهم إلا خبر ثورة أفيديوس كاسيوس والي سورية عليه، فأسرع الملك بجيوشه إلى المشرق فأتاه بعض خلصائه برأس الثائر عليه، فزار بعدئذٍ أقاليم المشرق وأمنها بحلمه، وعاد إلى رومه فاستقبل بها باحتفاء الانتصار سنة ١٧٧م. وفي السنة التابعة استأنف الزحف نحو جرمانيا فأذّل قبائلها، على أنّ طعنه في السن ومشاقه وحروبه وأمراضه نهكت قواه فمات بعيد ذلك في فيانا سنة ١٨٠م. ومما عيبه تسامحه في اضطهاد المسيحيين في ليون سنة ١٦٣م. وقد كان

محباً للفلاسفة الرواقيين وله مؤلف ينطوي على اثني عشر كتاباً حاوية ملاحظات وحقائق أدبية مأخوذة عن تعليم هؤلاء الفلاسفة، وذكر ودينكتون خطاً لاتينياً وجد في قرية أم الجمال في حوران وهو ٢٠٥٧ من خطوطه مشعر بأنه أقيم لهذا الملك أثر هناك إذ كتب في الخط المذكور «للعاهل القيصر مرقس أورليوس أنطونيتوس أغوسنطوس قاهر الأرمن والبرتيين... وورد ذكره أيضاً في خط ١٩٦٩ الذي وجد في صهوة الخضر في حوران أيضاً، وفي الخط ٢٠٧١ الذي عثر عليه في شهبا المسماة فيليبولي نسبة إلى الملك فيلبس العربي. وفي خط آخر في المشنَّف عد ٢٢١٣.

وخلف مرقس أورليوس كومود ابنه سنة ١٨٠م وعمره عشرون سنة، واستوزر رجالاً ساءت سيرتهم وقبحت سريرتهم فعقد صلحاً مذلاً موجباً للعار مع القبائل الجرمانية، وسمح للبرابرة أنّ ينخرطوا في سلك الجندية الرومانية، وأقدم على الاعتساف والحماقة وعكف على الملاذ لا يلويه عنها وازع، فثار قومه عليه فازداد حمقاً وجوراً وأمات لوشيلا أخته، وكرسبينا امرأته، وسلفيوس يوليانس القانوني الشهير، وعدداً كبيراً من رجال الندوة، إلى أنّ هلك سنة ١٩٢م إذ دست له مرسيا معشوقته سماً قضى به. وقد وجد ودينكتون في السويدية في حوران خطاً يونانياً عد٢٣٠٨ مؤذناً باقامة أثر تكرمة للملك كومود اقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية ذكراً لجلبه الماء إلى المدينة وضواحيها في سنة٨ لكومود وهي سنة ١٨٧م. ووجد رنان أيضاً في أرواد خطاً آخر مشعراً بأنّ الأروادين أقاموا تمثالاً للملك كومود ولكنه محطم. وقال (في بعثة فينيقية صفحة٣٠) إنَّ العالم أجر كتب له أنّ عنده نسخة كاملة لهذا الخط يتبين منها أنّ الأروادين كتبوا هذا الخط تحت تمثال أقاموه له، وأنّ الآثار الدالة على كومود نادرة لسؤ مسعاه.

وخلف كومود برتينكس ويسمى سلفيوس ولد في ليكورية سنة ١٢٦م وكان أبوه أسيراً فعتق واشتهر بحذاقته في الأمور الجندية في جرمانيا في أيام مرقس أورليوس الذي جعله من رجال الندوة وقنصلاً، وتقلب في مناصب الولاية في ميسيا وداشيا وسورية ثم أقيم حاكماً على رومة، ولما مات كومود أقامه رجال الندوة ملكاً في ١ك١ سنة١٩٣م وعنى بالإصلاح والمحافظة على النظام الجندي (العسكري)، على أنه أسخط جنوده لذلك فهاجوا عليه وقتله قواد الجيش في ٢٨ آذار من تلك السنة نفسها، وعرضوا الملك ليولوه من يدفع لهم أكثر فكان ذلك من نصيب ديدوس.

ديديوس ويسمى يوليانس ساويروس ولد في ميلان سنة ١٣٣م. وتقلب في مناصب الحكومة على عهد الملك كومود، وبعد مقتل برتينكس شرى الملك الذي كان عرضه أمراء الجيش للبيع، فلم يتسنَ له أنْ يكتسب رضى شعب رومة ولا تمكن من مقاومة ساويروس الذي زحف إليه بفريق من الجيش فقتله جنوده أنفسهم في ٢حزيران سنة ١٩٣م. بشنيوس نيجر كان أولاً من قادة الجيش الروماني، وولي سورية وأحسن تدبير شؤونها، ولما بلغ جنوده مقتل ديديوس أقاموه ملكاً سنة ١٩٣م بينما كان جيش إيليريا أقام سبتيموس ساويروس ملكاً فكانت بينهما حرب استظهر فيها سبتيموس على نيجر وأكرهه على الفرار، فانهزم إلى بلاد البرتيين فقتله جنوده سنة ١٩٤م. فخلفه البينوس ويسمى كلوديوس سبتيموس كان قائداً للجيش الروماني في بريطانية، وعند مقتل برتينكس سنة ١٩٣م بويع بالملك حين بويع به سبتيموس ساويروس، وتلظت نار الحرب بين الملكين فاستظهر ساويروس على البينوس وأخذه أسيراً سنة ١٩٧م ثم قطع رأسه. فحكم بعده سبتيموس ساويروس الذي ولد في افريقية وتقلب في مناصب الحكومة ثم ولي قيادة جيش إيليريا، وعند مقتل برتينكس أقامه جنوده ملكاً وحارب مزاحميه على الملك كما مرّ، وأهلكهم واستتب له الملك. وأجرى حينئذٍ شديد القسوة ليوطد أركان ملكه، ولما كان البرتيون انتهزوا فرصة اختلاف هؤلاء الملوك وتخطوا حدود المملكة في ما بين النهرين، فزحف إليهم سبتيموس بجيشه واستظهر عليهم مراتٍ، واستعاد من يدهم بابل وسلوقية وقطيسفون سنة ١٩٩م، ونظم أحوال المشرق وأقام فيه أربع سنوات، وزار مصر وعاد إلى رومة فأقيم له قوس انتصار بقيت آثاره إلى الآن وجمع إليه كثيراً من العلماء في القوانين، وأذاع بعض رسوم حورت بعض الشرائع وسهلت نوع المحاكمات. وكان عالماً وكتب بعض مذكرات، وعني بتقدم الصنائع، وأقام بعض أبنية استعملت أنقاضها في بناء كنيسة القديس بطرس. واضطهد المسيحيين سنة ٢٠٢م وعزز الجنود وأقام حرساً ملكياً اصطفاه من الجيوش وأدركته الوفاة سنة ٢١١م. وذكر ودينكتون خطاً وجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير دالاً على محطة جندية (وهو في عد١٨٣٨) كتب فيه ما ملخص ترجمته: «لوشيوش سبتيموس ساويروس بن مرقس أنطونيوس بيوس أخو كومود حفيد أنطونيتوس بيوس ابن ابن ابن أدريان ابن ابن ابن ابن ترايان ونرفا القيصر والعاهل الروماني». وفي دير القلعة على الصخر الذي في جانب البئر خط ذكره ودينكتون

في عد ١٨٥٨ وقرأ فيه: «لسلامة مولانا الملك القيصر لوشيوس سبتيموس ساويروس أوغسطوس أقام هذا النصب بومبايوس أبنجيوس نذراً للمشتري» وسنأتي على ذكر بعض أعمال هؤلاء الملوك في سورية.

فصل

ذكر بعض أحداث في سورية على عهد هؤلاء الملوك

عد ٥٢٣
بعض الأحداث في أيام ترايان

كان الرومانيون قد استحوذوا مذ فتح بمبايوس سورية على دمشق وما جاورها إلا أنه بقي بعض الاستقلال لدمشق وبصرى وجرازا المعروفة الآن بحرسا على شاطى بحيرة طيبارية شرقاً وربة عمون التي سماها اليونان فيلادلفيا وهي معروفة الآن بعمان. ثم بترا وهي مدينة حجر في بلاد العرب وكانت عاصمة ملك النبطيين الذي كانت حكومته تمتد إلى دمشق، وكانت هذه البلاد مستوعرة يكثر فيها السلب والنهب وقطع الطرق على ابناء السبيل وسلب القوافل، فأرسل ترايان قائد جيشه كرنيليوس بَلما فاستحوذ على هذه المدن سنة ١٠٥م وجعلها اقليماً رومانياً مسمياً إياها العربية، وجعل بصرى في حوران مقراً لفيلق من الجنود حمى هذه البلاد وتوفرت ثروة أهلها وكثر عديدهم، وأصبحت بترا محطاً للتجارة وغدا القوم الرحّل يرغبون في الصنائع، ورقوا في مدارج الحضارة حتى زينوا مدنهم بآثار تدهش الآن رؤية أطلالها الجوالة. قال دورى في تاريخ ادريان إنَّ هذه المدن استفادت بمصاب ما جاورها من البلاد فإنّ كثيراً من اليونان الذين كانوا تتبعوا خطى اسكندر الكبير وخلفائه إلى أقاصي آسيا اكرهوا على العود من تلك الأقاصي عند تغلب الوطنيين على الولاة الأجانب، فكانت أول محطة أمنية لهم سورية ولا سيما جهات حوران وعبر الأردن. وبعد قهر طيطوس اليهود ظعن جم غفير من غربي الأردن

إلى شرقيه الذي كان حينئذٍ تحت ولاية ملك النبطيين، وبعضهم مضى إلى دمشق وبعلبك. وتدمر حيث وجدت آثار دالة على اقامة جماعات من اليهود هناك. وحقق ذلك دي فوكوي بكشفه عن خطوط قديمة أرامية في تدمر لا سيما الخط ٦٥، وقد هاجر قوم من العرب الحميريين اليمن، واتوا فاستوطنوا حوران والبلقاء، وكانوا يرغبون في الحراثة فحموا بلادهم من العرب الرحّل، وأصبحت بصرى قصبتهم محطة للتجارة في هذه البلاد. وعاون على زيادة تقدمها تأمين ترايان وادريان لها ، وميل العرب واليونان والسريان واليهود إلى التجارة زاد في أسعار هذه البلاد. وذكر ودينكتون خطاً يونانياً عثر عليه في إحدى قرى البثنية وهو بين خطوطه في عد ٢٢٩٦ وعد ٢٢٩٧ يشعر باقامة أثر تكرمة لكرنيليوس بَلما بجرّه الماء إلى الكرك في حوران، وقد وجد خطاً آخر في السويدة في حوران عده ٢٣٠٥ مؤذن بذلك ايضاً، ويؤخذ هذا ايضاً من الخط ٢٤١٢ الذي عثر عليه في الكرك.

قد انبأنا أوسابيوس في تاريخه البيعي (ك٤ فصل٣) إنَّ اليهود هاجموا في قبرص ومصر والقيروان فقتلوا كثيرين من اليونان والوثنيين غير مبالين بسطوة ترايان الملك ووجوده حينئذٍ في المشرق وظفره بالبرتيين والسريان، بل أبدوا حينئذٍ من القسوة والهمجية ما يكاد أنّ لا يصدق. فقد انبأنا ديون كسيوس[1] إنهم كانوا يأكلون من لحوم من قتلوهم، ويشربون من دمهم، ويحتزمون بامعائهم، ويلتفون بجلودهم، وقد شطروا كثيرين من رأسهم إلى أسفل، وارغموا كثيرين أنّ يصارع بعضهم بعضاً، ويتجالدون بالسيوف إلى أن يهلك بعضهم بعضاً مريدين أن يثأروا بدم أبائهم الذين قضوا على هذا النحو بعد خراب أورشليم في أيام طيطوس. وبالغ بعضهم في ذكر من قتلهم هؤلاء الأوغاد فقالوا إنَّ عددهم في ليبية والقيروان مئتان وعشرون ألف قتيل، وفي جزيرة قبرص مئتان وأربعون ألفاً. فلم يتحمل ترايان ولا الشعب هذه الفظائع فقتل سكان الاسكندرية كل من وجدوا فيها من اليهود، واثخن قادة ترايان والقبرصيون في اليهود في جزيرتهم، وطردوا كل يهودي منها وسنوا شريعة حظروا بها على كل يهودي الدخول إلى جزيرتهم، وكانوا يقتلون كل من أقبل عليها ولو ضالاً عن طريقه أو مدفوعاً بعاصف. وأرسل ترايان مرسيوس

(١) وهو عالم يوناني ولد في فينيقية سنة ١٥٥ وتقلب في المناصب الرومانية منها الولاية في اسيا الصغرى وافريقية، وكتب تاريخ الرومانيين إلى عصره في ٨٠ كتاباً، والباقي منها ١٩ كتاباً طبعت أخيراً في باريس سنة ١٨٤٥ إلى سنة ١٨٦٠م.

تربو إلى ليبية ومصر بجيش في البحر والبر، فأهلك منهم جماً غفيراً، وأنفذ إلى ما بين النهرين لوشيوش كوياتس أحد مشاهير قادة جيشه، فأوقع بهم ملاحم وكافأه الملك على إزالة الهرج والشغب مما بين النهرين بأن سماه والياً على فلسطين. ويظن أنّ كثيرين من المسيحيين بادوا في هذه الوقائع قتلهم إما اليهود لبغضهم لهم، وإما الوثنيون لأنهم لم يميزوهم عن اليهود (ملخص عن روهربخر في تاريخ الكنيسة ك٢٧ عن أوسابيوس وعن ديون كاسيوس).

ومن الأحداث في أيام ترايان أنه بعد انتصاره على البرتيين وتدويخه ما بين النهرين وانتهائه إلى خليج العجم، عاد إلى أنطاكية ليمضي فصل الشتاء الذي بين سنة١١٤ وسنة١١٥م، فحدث زلزال أخرب أكثر أبنية المدينة ومات تحت الردم خلق كثير، وكاد ترايان ايضاً يدفن حياً تحت الردم. ونسب الوثنيون هذا المصاب إلى سخط الآلهة على المسيحيين، فاستشهد حينئذٍ القديس اغناطيوس أسقف هذه المدينة كما مرّ. ومن الآثار لهذا الملك في بلادنا خط وجد في فتقا فوق طبرجة في كسروان عثر عليه رنان وأرسل الصفيحة المنقوش عليها إلى متحف اللوفر (في باريس)، وقد كتب عليها ما ملخصه «في سنة١٤ لنرفا ترايانوس أقام ديوجان بن إسباتيوس سور هذا الهيكل رغبة في التعبد».

عد ٥٢٤

أحداث في سورية في أيام ادريان الملك

إنَّ هذا الملك أقام في المشرق من سنة١٢٢ إلى سنة١٢٥م وعاد إليه ايضاً سنة١٢٩م، واصلح ونظم اموراً كثيرة فيه وبنى آثاراً عديدة ونعلم منها أنه شرع في بناء هيكل الشمس في بعلبك، وكمّله خليفته انطونيوس وبنى هناك سبتيموس ساويرس هيكل المشتري. وهؤلاء الملوك هم الذين بنوا ايضاً الرواق القائم على الأعمدة الهائلة والباقية بعض آثاره حتى يومنا. وليس المراد بذلك أنهم ابتدأوا في بناء بعلبك العجيب كما زعم بعض العلماء، بل الأظهر أنّ هذا الاثر كان قبلهم فجددوا فيه هذه الهياكل والأروقة، فإنَّ صخوره الثلاثة الضخمة التي طول كل منها عشرين متراً وعرضه خمسة أمتار وعلوه كذلك هي أقدم من أيام الرومانيين، والأولى نسبتها إلى الفينيقيين أو الآراميين. قال رنان (في كتابه بعثة فينيقية

صفحة٣٢٠): «لا شك إنه كان في بعلبك هيكل قبل عصر الرومانيين لأن مؤلف المقالة في الآلهة السورية أثبت أنه كان في بعلبك معبد لإله مصري، وقد كتبت هذه المقالة قبل أن بنيت ثم الهياكل الرومانية». وقد مضى أدريان إلى تدمر سنة١٣٠م ووُجدت هناك صفيحة يتبين منها أنه أُقيم نصب له حينئذٍ في نيسان سنة١٣١م. ذكر ذلك دى فوكوي في الصفيحة١٦ وودنكتون في خط ٢٥٨٥. وقد بلغ أدريان إلى هناك مع فرقة من الجنود العملة ولا علم لنا بما صنعه هناك، ولكن لا بد من أن يكون أحدث شيئاً في هذا الموقع المهم حرباً وتجارة. وقد ذكر كثير من الجوالة أنّ في الطريق المؤدية من دمشق إلى تدمر ومن تدمر إلى الفرات اطلال اثنين وأربعين حصناً أو قلعة يبعد كل منها عن الآخر مسافة ثلاث ساعات، ولا يحتمل أن جنود الرومانيين اقاموا في هذه المعاقل كلها ولكن لا شك في اقامة الحرس الروماني في بعضها. ولما كان ترايان قد اتى المشرق لحرب هائلة ولم ينتهِ منها إلا وادركته المنية لم يكن له وقت للحيطة على الأمان بهذه الحصون، فيبقى أنّ ادريان هو الذي أنشأ هذه المعاقل، ولا يبعد إنه أحدث شيئاً من الأبنية التي جُدِّدت في تدمر في ذلك العصر، وهو الذي منح هذه المدينة أن تكون لها الحقوق التي للإيطاليين، وأن تكون جالية رومانية. وقد وجد في بعض الآثار أنَّ هذه المدينة تسمى ادريانبل فما ذلك إلا نسبة إليه لما جاد عليها به. وذكر جرج روبنسون أنه عثر على خط قرب باب مدينة جبيل مؤذن بأن أدريان أصلح هذا الباب. وقال رنان (في بعثة فينيقية صفحة٢١٤) إنَّ أدريان جدد بناء مدينة جبيل، وقد يكون غيّر هيئتها كلها لأننا لم نجد من آثارنا الكنعانية إلا بعض المدافن، والأثر الذي كشفنا عنه في جانب القلعة، ولم نجد خطاً جبيلياً قديماً يكافئنا على أتعابنا.

قد مرّ أنّ بَلما قائد جيش الملك ترايان أخضع بلاد العرب لروما سنة١٠٥م. وسنَّ لها ترايان نظاماً سنة ١٠٦م، ولكنه لم يكن من الزمان ما يكفي لتنظيم كل شي فما بقي لازماً أتمّه أدريان، وقد وُجدت مسكوكات في هذه البلاد كتب عليها لمنظم أو مصلح العربية. وبترا قصبتها تسمت باسمه ومسكوكات جرازا (وهي خرسا الآن) كتب عليها اسمه. وقد ضُربت في دمشق سكة كُتب عليها: «إلى الاله أدريان» تملقاً له ورسمت على وجهيها صورته وصورة الملكة، ومن هذه المسكوكات ما هو مؤرخ بسنة ١٢٧م وبسنة ١٢٩م. وقد أسعد ترايان بصرى

باقامته فيها فيلقاً من الجنود فبقيت هذه المدينة تضرب سكتها وقتاً ما دون اسم ترايان ولا اسم أدريان كي لا تجحد فضل الأول.

لا جرم أنَّ قد عنى أدريان بتمهيد طريق القوافل القديمة المؤدية من دمشق إلى بترا، ورصف جنوده الذين كانوا يحسنون مثل هذه الأعمال طرقات جندية في محلات عديدة، تشاهد آثارها الآن حتى في صحراء مواب على ما روى العالِم راي في كتاب سياحته في حوران. واصبحت بصرى عاصمة حوران محطاً لتجارة كبيرة تأتي إلى دمشق بتمر الحجاز وطيوب اليمن، وتجلب إلى العربية الحبوب والزبيب من وادي الأردن، والسلع من آسيا الصغرى.

وكانت فرقة من الجنود من الفيلق العاشر حالّة في أورشليم في محل أخربة الهيكل، فأشغلها أدريان بتمهيد المحلة وبنى هناك هيكلاً للمشتري، واسكن جالية رومانية في جبل صهيون وسمى المدينة الياكابتولينا نسبةً إليه وإلى هيكل المشتري في روما. وقال بعضهم منهم سبرتيان إنه منع اليهود ايضاً من أن يختتنوا أولادهم فهاج اليهود وماجوا وتناسوا ما حلّ بهم في أيام ترايان، وحملت زمر منهم السلاح في محلات عديدة، وهمّت الحكومة بكبتهم فازدادوا جسارة، وقام بينهم رجل اسمه بركوكبا أي ابن الكوكب وحسبوه المسيح الذي كانوا ينتظرونه، وقالوا هذا هو الكوكب الذي يشرق من يعقوب، وسلّمه أحد رؤسائهم المدعو أخبيا صولجان السلطة باحتفاء على مشهد رؤوس الأمة، وامتطى بركوكبا جواد الحرب، واخذوا يبدون الشغب والاعتداء حتى على الجنود، فلم يحفل الرومانيون أولاً بهذه الثورة إذ أذلّوهم في مثلها مرات، على أنهم فسحوا للعصاة بذلك سبيلاً واملكوهم زماناً يكثرون فيه عديدهم ويُعدّون عددهم، وانضم إليهم كثير من اخوانهم المتشتتين في الآفاق وجمهور من اللصوص والراغبين في النهب، فانتبه الرومانيون حينئذٍ إلى اهمية هذه الثورة، فهب إليهم أولاً تينيوس روفوس والي اليهودية، فقتل منهم كثيرين رجالاً ونساءً واطفالاً، على أنّ ذلك لم يكن إلاّ تحريشاً وابسالاً لأنفسهم لتستحب الموت.

فأرسل حينئذٍ أدريان يوليوس ساوير روس حاكم بريطانية الكبرى وقتئذٍ وسيّر معه من الجنود جيشاً مختاراً فلم يشأ هذا القائد المشهور في عصره أنّ يقتحم العصاة دفعة واحدة، بل أخذ يضرب محلاً فمحلاً مضيقاً عليهم وقاطعاً موارد

الرزق عنهم، ودام على ذلك سنتين دمر فيهما نحواً من تسع مئة قرية، وافتتح ونقض خمسين حصناً. وكان عدد القتلى خمس مئة وثمانين ألفاً عدا مَن هلكوا جوعاً أو سقماً ومن حرقوا في البيوت والقلاع، حتى استعظم اليهود مصابهم هذا على مصابهم في حصار طيطوس، وفي حملة بختنصر على أورشليم، وكان بركوكبا رئيسهم من جملة القتلى. وأمات الجنود علماء السنّة الذين كانوا محاصرين في قلعة بيتير (لم يُعيّن محلها ويُحتمل أن تكون في محل بيت جالا الآن وهي آخر القلاع التي بقيت بيد الثائرين) باعذبة مبرحة. فاخيبا مزقوا لحمانه بأسنة محماة بالنار، واخذ الرومانيون منهم كثيراً من الأسرى، فباعوا بعضهم بأبخس الاثمان في سوق ترابينتا وفي سوق غزة، ومن لم يجدوا له شارياً ارسلوه إلى مصر وبعثوا إلى رومة كثيرين من هؤلاء الأسرى، وغذوا الأسود بلحمانهم في ملاعب روما، وحظّروا على اليهود الدخول إلى أورشليم إلاّ يوماً في السنة يؤذن لهم فيه أن يدخلوا إليها لينوحوا على خراب مدينتهم، ويذرفوا دموعهم على أطلال مجدهم وفخرهم. ولم يسمح لهم الرومانيين بذلك إلاّ بعد دفع غرامة جسيمة. وقد استمروا على عاداتهم هذه ينوحون على أورشليم إلى زمان القديس إيرونيموس حيث قال ما ملخصه: «إنه يحظّر على اليهود دخول أورشليم إلاّ لينوحوا على اخربة المدينة التعيسة ولا يرخص لهم في ذلك ما لم يدفعوا مبلغاً من الفضة. فبعد أن شروا دم المخلص يضطرون أن يشتروا دموعهم، فيأتون رجالاً ونساءً وشيوخاً أذلال صاغرين بثياب رثة ينوحون على مدينتهم ومجدهم، وهم يرون الجلجلة حيث صلبوا المخلِّص زاهية بالمجد، ومحل القيامة تنبعث منه الأنوار وعلم الصليب يخفق على جبل الزيتون فيالتعاسة هذا الشعب».

على أنَّ ظفر الرومانيين لم يكن دون مشقات كبيرة وخسائر جسيمة، وهلك من جنودهم كثيرون. ومما يستدل به على ذلك أن الملك في رسالته إلى الندوة في هذا الشأن اهمل السلام المعتاد واعتاض عنه بقوله: «إن كنتم واولادكم على احسن حال فنحن والجيش كذلك». فلم يشأ أن يقول عن الجيش الذي تناقص عديده كثيراً إنه في أحسن حال (ملخص عن دورى في تاريخ الرومانيين وروهربخر في تاريخ الكنيسة العام عن ديون في تاريخ ادريان وغيره من القدماء). والأظهر أنّ هذه الحرب كانت سنة ١٣٢م. من الغريب جداً كثرة الآثار الدّالة على اسم هذا الملك في عمليّ البترون وجبيل وبعض كسروان في لبنان، فتراها في أماكن عديدة من

صنين إلى جبة بشري في أعالي الجبل وفي وسطه حتى عدَّ رنان منها ما ينيف على ثمانين خطاً خلا ما محته الأيام أو لم يَرَهُ، وقلَّ من الجوالة من اهتدى إلى شيء من ذلك ونذكر بعض هذه الأماكن منها خط في غوما حذاء اسمر جبيل كتُب فيه: «العاهل أدريان أغوسطوس». وفي وادي كور على صخر وفي الوادي تحت بسبينا وفي وادي صغار وجربتا وساقية شاريا، وفي فرشع وفي تولا وشبطين وقرب مشمس، وعند درجة الميحال وفي محال عديدة في جوار تنورين وعين القسيس وفم القبور وفوق دير حوب، وفي اماكن عديدة في العاقورة وقرطبة وفي رأس عقبة جنة وفي بقعاتا فوق المشنقة وعلمات وفي جبل موسى في كسروان في المحل المسمى قرنة عنتر، وفي الجبل الصغير والجبل الكبير هناك وفي قرنة الدير وفي الجبل بين فاريا وافقا وفي عين بحر فوق افقا وفي الجريد تجاه صنين.

ولرنان في هذه الخطوط رأيان: أحدهما أنّ البلاد التي فوق جبيل شهيرة بغاباتها من اقدم الأيام وأنَّ أدريان اراد أن يصنع نظاماً لقطع هذه الغابات فكتبت اوامره في محال عديدة منها حفظاً لنظامه، ويؤيد ذلك كون بعض هذه الخطوط كتب فيها: «أربعة أنواع من الأشجار والأشجار المملوكة». فكأن المراد لا تقطعوا أربعة أنواع من الشجر والشجر المملوك. والراي الثاني أن أدريان أقام سنين متطاولة في سورية قبل ملكه وبعده، والمشهور عنه أنه كان مولعاً بزيارة المعابد فيحتمل أنه طاف هذه الأماكن لزيارة الهياكل المقامة فيها وترك أثراً لتطوافه في كل محل منها والله اعلم.

ومن اخبار أدريان أنه لما كان في انطاكية صعد ليلاً إلى جبل كاسيوس المعروف بالجبل الأقرع، وعلوه ألف وخمسماية متر ليرى بزوغ الشمس من المشرق عند الغلّس وصنع كذلك في صعوده إلى جبل اثنا. قال دوري في تاريخ أدريان تفضَّل العالِم دوسولسي بأن بحث لي في مجموع السكك النادرة الذي احرزه عن الآثار التي تركها أدريان في فلسطين، فذكر لي سكة ضربت في أورشليم يُرى على وجهيها صورته وصورة سابينة امرأته، فقد ضُربت قبل سنة ١٣٦م التي ماتت الملكة فيها، ثم سككاً في قيصرية وعسقلون لا تاريخ لها، وسكة في دورة أيَّ الطنطورة تاريخها سنة ١٢٢م وأخرى في طيبارية تاريخها سنة ١٢١م، وسكة في غزة سنة ١٢٨م.

وفي هذه الأثناء شرع الربيون من علماء اليهود يكتبون كتابهم المعروف بالتلمود ليكون جامعة معنوية لأمتهم إذ لم تعد لها جامعة وطنية لتشتتهم في كل صقع. وقد أخذ في كتابته علماء مدرستهم في طيبارية فجمعوا فيه تقليداتهم، وفتاوي علمائهم ورسوم رؤسائهم وما استطرقوه من عاداتهم، وهو مقسوم إلى قسمين: المثنا ومعناه الشريعة الثانية أو تثنية الشريعة وهو النص، والكومار أي التكميل وهو تفسير أو شرح له. ولهم تلمودان يسمى الأول الأورشليمي، وقد بُدِيء في كتابته في القرن الثاني ثم زيد عليه إلى أن تكامل في القرن الرابع، والثاني التلمود البابلي الفه بعض الربيين بعد مهاجرتهم إلى بابل في أثر ما أنزله بهم الملك أدريان، ولم يكمل إلاّ في القرن الخامس أو السادس. والتلمود غامض تعمّد الربيون هذا الغموض فيه كي لا يظهر المعنى الصحيح لبعض النبوات. ولكنهم لم يستطيعوا حجب انوار الحقيقة وهو مفعم بمزاعم وأقاصيص أشبه بأقاصيص القدماء من الوثنيين، وهم يفضلون التلمود على سنّة موسى. وقد قيل فيه: «إنّ الأهتمام بالتوراة قد يكون له استحقاق وقد لا يكون، واما الأهتمام بالمثنا فيستحق الجزاء والمكافأة، على أن الاهتمام بالكومار فضيلة ليس أعظم منها». والمثنا قد كتُب في لغة عبرانية صحيحة قلما فيها من الفاظ لغة أخرى، واما الكومار فقد كتب في لغة عبرانية يخالطها الفاظ كثيرة كلدانية. وقد طبع لأول مرة كاملاً في البندقية في اثني عشر مجلداً سنة ١٥٢٠م. وقد ترجمه إلى الافرنسية الاب شياريني سنة ١٨٣١م. وقد طبع مراتٍ واخيراً سنة ١٨٥٩م وما يليها في باريس.

عد ٥٢٥

ما كان في أيام انطونينوس بيوس في سورية

لم تكن في سورية أحداث مهمة في أيام هذا الملك بل رتعت المملكة كلها في أيامه رتعة الأمن والسلم، وقد قال. بعض المؤرخين إنّه حصل في أيامه ثورة في مصر وهياج في اليهود، على أن ثورة مصر لم تكن ذات بال، وهياج اليهود غير صحيح. وقال كثير من المحققين إنّه لا يُصدّق أنَّ من أذلّهم تريان وادريان وتشتتوا في الآفاق يقدمون على هياج أو عصيان على الحكومة بعد مدة وجيزة، على أن موارد الأخبار في مدة هذا الملك قليلة ناضبه فلم يخلف القدماء ولم يبق في الآثار ما ينجلي به تاريخه كغيره.

وجُلّ ما يمكن ايراده من تواريخ سورية في أيام هذا الملك ذكر العريضة التي رفعها القديس يوستينوس إليه وإلى أبنائه والندوة والشعب الرومانيين. فالقديس يوستينوس هذا كان من نابلس، وقد برع في الفلسفة وتضلع في مذاهبها قبل أن يتنصّر وبعد تنصّره رأى المسيحيين في أسوا حال يقاسون مر الأضطهاد في كل جهة وصقع، فرفع عريضة إلى الملك انطونينوس إليك ديباجتها: «إلى الملك طيطوس اليوس أدريان انطونينوس بيوس قيصر اغوسطس وإلى ابنه فريسيم الفيلسوف ولوشيوس الفيلسوف ايضاً ابن قيصر بالطبيعة وابن بيوس بالتبني، وإلى الندوة المباركة والشعب الروماني، رفعت هذه العريضة محاماة على اناس من كل طبقة حاق بهم الاضطهاد ظلماً. انا يوستينوس بن بريسكس بن باكيوس من جالية نابلس في سورية فلسطين احد هؤلاء المضطهدين».

لا ارى بأساً في أن الخّص بعض فقرات من محاماة هذا القديس فمما قاله فيها لا جور افظع من الطريقة التي يعامَل بها المسيحيون فيتجنى عليهم جنايا فظيعة والحقيقة، إنهم لا يعاقَبون إلاّ على الاسم الذي يسمون به، وعلى تصريحهم بانهم مسيحيون. فان انكروا أنهم مسيحيون خلي سبيلهم للحال، وإن اعترفوا بانهم كذلك عوقبوا دون فحص، على أنَّ النظام والعدل يقضيان بالفحص الدقيق عن عمل كل مشكو، ويعاقَب المرء أو يُخلى سبيله بحسب اعماله، فيسموننا كفرة ونحن كذلك كفرة بالآلهة الكذبة لا بالاله الحق ابي العدل والطهر، ومصدر كل فضيلة، والمنزّه عن كل رذيلة. فيقال إنه وجُد من المسيحيين من كان مجرماً وهذا ممكن، فإنَّ اسم مسيحي كاسم فيلسوف يشمل كثيرين من الناس، وليس لجميعهم شمة واحدة ومسعى واحد، فجُلّ ما نسأله ان يحاكم هؤلاء لا من حيث اسمهم بل من حيث عملهم، فإن وُجدوا مجرمين فليعاقبوا لا بما انهم مسيحيون بل بما انهم ارتكبوا جريمة، وإن ظهرت براءتهم فليُخلَ سبيلهم. واما من يوشون بنا فنسامحهم ولا نطلب عقابهم، فسوء صنيعهم وجهلهم أكبر معاقب لهم.

وما كلامنا لكم على هذا النحو إلاّ حباً بكم، ولا شيء ايسر لنا من أن ننجو من اضطهادكم، فيكفينا أن ننكر كوننا مسيحيين فتعفون عنا وتعزّوننا، لكننا لا نريد أن نحيا بالكذب ونحن نتوقع المجازاة بحياة أبدية. إن افلاطون نفسه كان يعلم أنَّ الأشرار سيحاكَمون ويعاقَبون، ونحن نعتقد نظيره أنّ هذه المحاكمة أو الدينونة لا بد منها، ولكن الذي يجريها إنما هو المسيح الذي يردّ النفوس إلى اجسادنا، ويعاقبها عقاباً ابدياً. فيقول بعضكم إنّ هذا ضلال ولكن أجناية هو على أحد. اننا لا

نسجد للآلهة التي تقيمونها في هياكلكم تفادياً من أن نسمي الصوَر الميتة حية ونسخط الاله الحق، وهذه الصوَر قبل أن يصنعها صانع لم تكن إلاّ متاعاً دنياً، ولا تمثل بعد صنعها إلاّ أرواحاً خيالية. كثيراً ما يقال لكم إننا نتوقع ملكاً فتظنونه حالاً ملكاً بشرياً، وما هذا إلاّ خطأ بيّن، فلو كنا نتوقع ملكاً كهذا لتحاشينا الموت ضناً بحياتنا لنتنعم به، والامر بالعكس إنكم تروننا نتحمل العذاب بفرح لأن امانينا ليست في هذه الأشياء الحاضرة، والملك الذي نتوخاه إنما هو ملك الله، إننا نعاون على حفظ النظام العام اكثر من كل احد بتعليمنا أن الأثيم والبار لا يختفيان على الله، بل ينال كل منهما عقاباً ابدياً أو ثواباً سرمدياً، فلا يمكن سننكم ولا تعذيبكم أن تروّع الأثمة وتكفّهم عن اثمهم، فهم يعلمون أنه يمكنهم أن يختفوا عليكم لأنكم بشر، ولو اعتقدوا وجود اله لا تخفى عليه خافية لا فعل ولا فكر، لكان خوفهم منه اعظم وازع لهم عن الشرّ. فهل من سبيل إلى انكار هذا؟ ولكن يظهر أنكم تخافون أن يحسن كل واحد سيرته ولا يكون لكم أن تعاقبوا احداً، فهذه مزية تليق بجلاد لا بملك صالح.

ولعمر الحق أننا إذ نقول إنَّ الله خلق ونظَّم العالم لا نقول إلاّ ما قاله افلاطون. وإن قلنا أنّ بعد الموت حياة أخرى يعاقَب فيها الاشرار ويثاب الابرار فلا نقول إلاّ ما قاله شعراؤكم وفلاسفتكم. وإن قلنا إنه لا يلزم أن نسجد لعمل اليدين فذلك قول شاعركم ميننذر، وإذا قلنا أنَّ الكلمة وابن الله البكر قد تجسّد بنوع خارق الطبيعة وعُلِّق على الصليب ومات ثم قام وصعد إلى السماء، فلا يحق لكم أن تستغربوا هذا المقال لأنكم تعزون مثل هذه الأمور إلى من تدعون إنهم ابناء المشتري وإلى بعض ملوككم. إنَّ جميع الناس يدعونك ايها الملك تقياً وفيلسوفاً ومحامي العدل ومحب العلم، فيلزمنا أن نرى كذلك. فغيرنا من المشكي عليهم لا تعاقبهم إلاّ بعد أن تفحمهم بذنبهم، واما نحن فاسمنا وحده يكفي للحكم علينا ولعقابنا دون رحمة، فلا نسأل إلاّ أن تفحص عن اعمال من يوشى به إليك، وتعاقب المجرم وتخلي سبيل البار. إلى أن ختم هذا الخطيب المصقع والكاتب المجيد والصنديد الباسل كلامه بقوله: «فإن ظهر لكم هذا الكلام مطابقاً العقل والحق فامتثلوه، وإن حسبتموه بهرج كلام فاذدروه إن شئتم، ولكن لا تقضوا بالموت على من لم يصنع شراً، وقد كان لنا أن نسأل أن نحاكم بمقتضى الامر الصادر من ابيكم ادريان قيصر العظيم والشريف (أن لا يقضي بالموت على مسيحي دون محاكمة). على أننا لا نريد أن نسند ملتمسنا إلاّ إلى عدالة دعوانا.

ومع ذلك فمقدمون لكم مع عريضتنا هذه نسخة من هذا الامر لتروا بهذا ايضاً إننا لا نفوه إلاّ بالحق».

إنَّ محاماة هذا القديس لم تخلُ من نتيجة حسنة فقد روى تلمون وباجي واورسي رسالة كتبها هذا الملك إلى ديوان المشورة العام في آسيا. ومما قاله فيها. «إنكم لا تنكفون عن أنّ تنعتوا هؤلاء الناس وتشكوهم بأنَّ تعليمهم كفري. وتتجنون عليهم بأمور لا بيّنة لكم عليها فاحذروا من ذلك فانكم بدلاً من أن تجعلوهم يغيّرون رأيهم تصّيرونهم أكثر تشبثاً به، فانهم يؤثرون الموت حباً بإلاههم على الحياة، ويفضّلون بذل حياتهم على مطاوعتكم في ما تطلبون منهم فيصبحون هم الظافرين، ويظهر الآن أنكم لا تعرفون الآلهة وتتقاعدون عن الأمور المقدسة، وتجهلون طريقة العبادة لله، وتعنفون من يكرمونه كما ينبغي وتضطهدونهم حتى الموت، إنَّ كثيرين من حكام الأقاليم كتبوا إلى ابي المتألّه في شأن هؤلاء فاجابهم أنّ لا يزعجونهم بشيء إلاّ إذا رأوهم يحاولون عثياناً في المملكة الرومانية، وكثيرون كتبوا إليَّ ايضاً في هذا الشأن وأجبتهم أجوبة مطابقة لنيّة ابي فإن بقي أحد يختلف دعاوى على أحد من هؤلاء بما أنه مسيحي فليخلَ سبيل المشكو ولو ظهر أنّه مسيحي حقيقة وليعاقَب الشاكي بحسب الأصول».

على أنّه وإنّ كانت هذه اوامر الملك فلنا بيّنات عديدة على أنَّ الاضطهاد لم ينقطع عن المسيحيين، لكن انطونيوس بيوس وادريان كانوا اكثر رفقاً بهم من غيرهم من الملوك المضطهدين.

عد ٥٢٦

ذكر احداث في سورية في أيام مرقس اورليوس

مات انطونينوس بيوس سنة ١٦١م كما مرّ وفيها خلفه مرقس أورليوس الذي كان تبناه واشترك في الملك مع لوشيوس فاروس اخيه بالتبني، فكانت هذه أول مرة قام فيها عاهلان معاً في رومة. ومن الأحداث في سورية في أيامهما أنَّ البرتيين حملوا عليها وقهروا جنود الرومانيين فيها، فأرسل مرقس أورليوس جيشاً كثيفاً إلى سورية أمَّر عليه اخاه فاروس شريكه في الملك فبلغ إلى انطاكية، واقام فيها بامر اخيه ليمنع أهل الأعمال المجاورة لها عن الاشتراك مع الثائرين، وارسل قادة الجيش يحاربون الأعداء. وكان بين هؤلاء القادة رجل اسمه افيديوس كاسيوس سوري

الأصل، وابوه كان والياً على مصر في أيام ادريان وانطونينوس، وكان افيديوس متكبراً قاسياً على الجنود حتى أنّه عاقب بالصلب رئيس فرقة ضرب دون امره شرذمة من الأعداء، وانتصر عليها قائلاً له من كان كافلاً لك النصر؟ فقد كان يمكن أن يكون الأعداء تعمّدوا بهذه الحركة حيلة حربية للغدر بنا.

وقد كتب مرقس اورليوس إلى أحد عماله في شأن افيديوس هذا قائلاً قد اقمته بمعية أخي على جيش سورية العائش بالملاذ والترف في دفنة (بلدة على العاصي في الجنوب الغربي من انطاكية). وأنت تعرفه فهو أصرم من كل صارم فيعيد التهذيب العسكري إلى أصله ولا خير في جيش دون هذا التهذيب. فأجابه ذلك العامل أنَّ اختيارك لافيديوس كان بغاية السداد فلا بدّ من قائد شيمته الصرامة وبه الكفاءة ليوصد بوجه هؤلاء الجنود ابواب الحمامات، وينتزع منهم الزهور التي يزيّنون بها رؤوسهم واعناقهم وصدورهم. ولدى استلامه قيادة هؤلاء الجنود اقصى عنهم كل ما يشعر بترفٍ أو تخنّث، وجعلهم يدأبون كل يوم على التعليم العسكري. وقد نجحت غزوة الرومانيين هذه واستردوا المدن والأعمال التي كان البرتيون استحوذوا عليها، وكان افيديوس كاسيوس تآمر في أيامه على انطونينوس، ووقع لفاروس شبهة بالمؤامرة عليه في مدة حرب سورية، فكتب إلى اخيه قائلاً: «حذار منه فكل ما نعمله لا يرضيه ويصرف قصارى جدّه في استمالة الجنود إليه، وفي اكتساب اصدقاء، وأن يحطّ من قدرنا امام الجنود، فيسميك أنت شيخاً متفلسفاً، ويسميني تلميذاً لاهياً». فأجابه اخوه قائلاً: «إن شكوك من كاسيوس لا تليق بعاهل ولا بحكومتنا، فان قيّض الاله له أن يكون ملكاً فلا مناص لنا من ملكه، وإما قولك أن أستحيط في مصلحة أبنائي بقتله فلا يغريني عن إيثار هلاكهم إذا اقتضى خير المملكة أن يحيا هو ويموتوا هم».

على أنَّ فاروس كان مصيباً بتحذيره أخاه فإنَّ مرقس اورليوس أمَّر كاسيوس على الجيش الشرقي الذي كان يقاوم البرتيين، فعمت ولايته كل ما كان من جبل امانوس (اللكام) إلى مدخل مصر، ونشأت ثورة في مصر فسلط كاسيوس على أن يدخل هذه البلاد، فدخلها وخمد الثورة وأنفاس الثائرين سنة ١٧٠م. وكان الملك مشتغلاً بالمدافعة عن الحدود على الدانوب فسوَّلت لكاسيوس نفسه أن يقيمه الجنود ملكاً، وكان على ثقة من عسكره وشعب انطاكية ومصر حيث كان ابوه والياً عليه مدة طويلة. وقال في نفسه لاجددن تاريخ فسبسيان وأشاع الخبر بأنَّ مرقس اورليوس مات، فنادى به بعض جنوده ملكاً، وعند سماع الندوة هذا اعلنت أن كاسيوس عدو

للملكة، وضبطت ماله من الأملاك، فروّع هذا الخبر الجنود الذين اقاموا كاسيوس ملكاً، وقلب له كثيرون ظهر المجن. وتركوه ومن كان ابدى الصرامة عليهم انتهزوا هذه الفرصة، فقطعوا رأسه، وأرسلوه إلى الملك. ولما رآه أسف على أنّ الحكومة خسرت بموته قائداً باسلاً، وخسر هو فرصة أن يبدي حلمه بالعفو عنه. فقال له بعضهم لو انتصر كاسيوس أكان يعفو عنك؟ فقال إن اتقاءَنا الآلهة وصنعنا المعروف إلى الناس كانا يضمنان لنا الظفر. وردّ على ابناء كاسيوس نصف املاكهم ولم يحظّر ترشيحهم إلى المناصب بل قضى ان لا ينصب والٍ على بلد ولد فيها، فكان ذلك سنّة من سننهم القديمة، وقد رأى العاهل أنّ زيارة الأعمال الشرقية من شأنها أن توطّد النظام وسطوة الحكومة، فتجشّم هذا السفر وزار انطاكية وجلُّ ما عاقب به اهلها منعهم عن دخول المشاهد والاحتفاء بالأعياد مدةً ما. واتى الاسكندرية وكان يتردد فيها دون بطانة ولا خفر ولا حرس مترديّاً ثوب فيلسوف منادماً الفلاسفة. وقد مرّ أنه قضى سنة ١٨٠م بعد أن أشرك ابنه كومود في الملك معه. ومن آثاره في سورية خط نقش في جنوبي جسر المعاملتين دال على المحطة ١١ من بيروت كتب فيه: «للقيصر مرقس اورليوس انطونينوس اغوسطوس بن انطونينوس وحفيد ادريان الخ» (ذكره ودنيكتون عد ١٨٤٢م). وأهم من هذا خط نقش على احد صخور نهر الكلب يتبينُّ منه أنّه وسّع الطريق هناك، فقد كتب فيه ما ملخصه: «للقيصر مرقس اورليوس انطونينوس بيوس اغوسطوس لأنه مهد الجبال المشرفة على النهر ليكوس (نهر الكلب)، ووسع الطريق بعناية الفيلق الثالث الافرنسي»، الذي كان في سورية في ذلك العصر (ودنكتون عد١٨٤٥). وهناك خط آخر (عد١٨٤١) حاوٍ الدعاء للملك انطونينوس بيوس اغوسطوس بأن يملك سنين عديدة ظافراً. وقد وجد ودنكتون عدة خطوط في حوران نقشها افيديوس كاسيوس المذكور آنفاً تكرمة للملك مرقس اورليوس في مدة ولايته على سورية، وقبل ثورته وعصيانه على هذا الملك. وقال ودنكتون يظهر أنّ السوريين كانوا يحبون كاسيوس إذ لم يحطموا اسمه كما محوا اسم غيره من الملوك والولاة.

عد ٥٢٧

ذكر ما كان من الأحداث في سورية في عهد سبتيموس ساويروس

قَلَّ ما كان من الأحداث في سورية في أيام الملك كومود بن مرقس اورليوس أو لم يتصل إلينا خبرها، ومثل ذلك في عهد الملك برتينكس خليفة كومود المذكور

لأنه لم يملك إلاّ مدة وجيزة، ولكن اتحفنا المؤرخون بكثير من أخبار وطننا في أيام سبتيموس ساويروس الذي كان متزوجاً بامرأة من سورية اسمها جولية دمنه، وكان قبل ارتقائه منصة الملك قائد فرقة من الجيش في سورية، واقام فيها مداتٍ وخاصة من سنة ١٨٢م إلى سنة ١٨٤م. وكان عارفاً بحالة هذه البلاد وحاجاتها، وبذل جهده في محافظة الجنود على نظامهم العسكري، وفي راحة البلاد وتأمين الطرقات، وتعويد الشعب على العيشة بالسكينة والأمن، وقد كشفت لنا الصفائح والآثار عن كثير من اخباره كان التاريخ ضنَّ علينا بالأنباء بها. ووُجد على مقربة من بيروت صفيحة أُقيمت تكرمة له حاوية الدعاء بسلامته وسلامة ابنائه وامرأته، وإليك ملخص ما كتب عليها: «لسلامة الملك القيصر لوشيوس سبتيموس ساويروس ومرقس اورليوس انطونينوس (اسما كركلا) ابنه، وجولية دمنه أغوسطا أمه (امرأة سبتيموس)، وسائر اهل بيته» (رواه ودنكتون عد ١٨٤٣)، ونُقشت الصفيحة سنة ١٩٦م. وكُشف عن خط آخر في جنوبي بيروت دال على المحطة الأولى من بيروت إلى صيدا خلاصة ما كتب عليه: «قد جدّد الملك سبتيموس ساويروس اغوسطوس وابنه الملك مرقس اورليوس انطونينوس اغوسطوس الطرق الجندية بعناية فيديوس روفوس والي سورية، وفينيقية» (ودنكتون عد١٨٤٤). وتاريخ هذا الخط سنة ١٩٨م. وكانت آسيا الرومانية في أيامه مقسومة إلى اثني عشر عملاً أو اقليماً وكان العمل السابع منها قبرص، وقصبتها بافوس (الباف)، والثامن والتاسع سورية وعاصمتها انطاكية، وكانت الندوة الرومانية تركت مدة ما بعض الإمارات قائمة بنفسها، ينوب الحاكم فيها مناب الشعب الروماني، ويخدم الحكومة بجباية الأموال الاميرية لكنها ضمّت كل هذه الامريات الصغيرة على التعاقب إلى اقليم سورية، فضمت سورية الكومجانية سنة ٧٢م وكاشيس (وهي قنسرين) (أو كاشيس الاخرى وكانت في موقع عنجر في لبنان الشرقي) في أيام دوميتيانوس، والابلية (وكانت قصبتها سوق وادي بردا سنة ٤٨م). وحمص في أيام فلافيانوس ودمشق، وجمهورية تدمر سنة ١٠٦م عند أُخذ العربية الحجرية، وكان العمل العاشر منها اليهودية، وكان ولاتها بصفة نواب يرجعون في الامور المهمة إلى ولاة سورية. فكان ذلك من سنة ٦ إلى سنة ٤١م ومن سنة ٤٤م إلى سنة ٧٠م حين دمرها طيطوس. وجُعلت حينئذٍ اقليماً يحكمه معتمد روماني، ويضبطه فيلق من الجند، ثم جعلت جالية رومانية مسماة أليا وقصبتها قيصرية بدلاً من أورشليم.

اما ساويروس فقسم سورية إلى قسمين وجعل القسم الأول إلى الشمال وفيه سورية الكومجانية، وسورية المجوفة أي السهول التي على ضفتي العاصي إلى انطاكية والبحر، وما بين اللكام ولبنان، والقسم الثاني في الجنوب والشرق وفيه سورية الفينيقية والشطوط البحرية وشرقي لبنان إلى وسط البرية، ومنه بعلبك وحمص ودمشق وتدمر، ونصب حاكماً في القسم الأول ماريوس مكسيموس من احسن قواد جيشه. ولا علم لنا بمن اقام في القسم الثاني من قادة جيشه المحنكين. وكان اهل انطاكية حازبوا اعداءه فعاقبهم بصرامة، إذ كانت الصرامة من شيمته، ولكن ما برحت هذه المدينة تُعدّ من اعظم مدن الرومانيين في المشرق، على أنّه عند عوده من ما بين النهرين اقام فيها مدة لا ليتنعّم بمنتزهات دفنة وملاذ سكانها، بل ليمحو اثر قسوته الحديثة على اهلها، وقد ألبس ابنه فيها سنة ٢٠١م الرداء الرجلي وسماه في السنة التابعة قنصلاً. وكان ذلك مُشعراً باعتداده انطاكية عاصمة، وهذه الحفلات والاعياد التي تبعتها حملت اهل المدينة على أن يتزلّفوا إلى الدولة الجديدة. واتمّ ساويروس المصالحة مع الانطاكيين ببنائه هناك حمامات عظيمة. روى ذلك اوسابيوس والقديس ايرونيموس في الكرونيون في تاريخ سنة ٢٠٢م.

واما في سورية الفينيقية فصنع ساويروس اصلاحات مهمة، فقد وجد في الطريق المؤدية من صور إلى صيدا أربع صفائح دالة على الأميال في الطريق ومؤرخة في سنة ١٩٨م، ومؤذنة بأنَّ نائب هذا الملك عنى بإصلاح الطرق بين هذه المدن، وكشف ايضاً عن صفيحة أخرى كُتب عليها اسم ساويروس في جوار اللاذقية، وهذا دال على أن هذه الاصلاحات عمّت القسم الثاني من سورية ايضاً، رواه وادنكتون في تفسيره الخطوط القديمة في سورية خط ١٨٣٨. واما البلاد التي على البحر المتوسط فكانت من زمان طويل حاصلة على ما كان يمكن التمدن القديم أن يوليها من الحضارة. فإنَّ اسكندر وخلفاءه بثوا التمدن اليوناني عند سكانها الذين اصلهم من الفينيقيين أو الآراميين والجاليات الرومانية التي اقامت هناك، والحامية التي كانت تخفر هذه الأعمال أدخلوا تمدّنهم ونشروا لغتهم اللاتينية التي كان يلزم الجنود أن يتكلموا بها، وكان بعض جنود نيجر أحرقوا صور، فجدد ساويروس بناءها وأسكن فيها القدماء من الفرقة الثالثة المسماة كليكا (الافرنسية)، وخوّلها الحقوق الايطالية أي أن تُحسب جالية رومانية. وأما بيروت التي كانت فيها ذرية من جنود اغوسطوس فكانت حاصلة على هذا الحق منذ زمان مديد، وكان فيها مدرسة كبرى لتعليم الشرع الروماني. واشتهر فيها حينئذٍ بابينيان واولبيان وكثيرون غيرهما

من مشاهير الفقهاء. وقال بعضهم إنَّ اولبيان كان من صور، وكان من اهل بيروت جاهروا اولاً بالمناصبة لساويروس، ولا نعلم أعاقبهم على مناوأتهم له أم خمد بابينيان جذوة سخطه عليهم، والذي نعلمه أنهم ازدلفوا إليه دون ابطاء.

فقد وُجد في جوار بيروت صفيحة كُتب عليها سنة ١٩٦م ما يؤذن بمودّة أهل بيروت له، إذ كتُب عليها أنه أقيم نصب نذراً لسلامة ساويروس وابنه كركلا وجولية دومنه امرأته، رواه ودنكتون في خطوط سورية القديمة خط عد ١٨٤٣، وقد مرّ ذكره بأكثر تفصيل وفي دير القلعة صخر في جانب البئر كتب عليه: «إنّ بمبايوس (ربما كان والياً في بيروت إذ وجد اسمه في بعض الخطوط التي عثر عليها فيها) اقام نصب المشتري لسلامة مولانا الملك لوشيوس سبتيموس ساويروس (ودنكتون عد ١٨٥٨). ووجد ودينكتون خطاً آخر فوق شباك في الدير المذكور كتب فيه: «إنَّ الجالية يولية اغوسطة فيليكس البيروتية اقامت من مالها تمثالاً للملك القيصر لوشيوس سبتيموس ساويروس بيوس برتينكس اغوسطوس».

وكان على الرومانيين بذل عناية كبرى في ما وراء الاردن. فكانت حوران واللجا قبل ترايان على ما كانتا عليه من امد غير قديم أي كانتا صحارى، لا يسكنها إلّا رُحّل همج يرتعون ماشيتهم في سهولها وحزونها، وينتهبون ما وصلت إليه يدهم ويستعصمون في صخورها. فإننا نعلم أن الملك اغريبا اليهودي كان يقول لسكانها إنكم تعيشون كوحوش في عرينها. رواه يوسيفوس في تاريخ اليهود (ك١٤ فصل١٥). فترايان وادريان أدخلا النظام والحضارة في هذه البلاد حيث اقاما مدناً كبيرة زاهية، وساويروس أتمّ عملهما. ورغبةً في أن يمحو أثر كل ثورة في بلاد العرب شخَصَ إليها بنفسه. وقد وجدت في هذه البلاد آثار لرؤساء عشرات من الجنود يسمون سبتيميين، وما ذلك إلاّ نسبةً إليه. وتوجد اطلال مدن كان سكانها يستعملون لغةَ روما ومقاييسها وحسابها وكثيراً غير ذلك من عاداتها، وذاك دليل ناطق بأنَّ سيادة روما أدخلت كل ذلك في هذه البلاد، وقد اثبت ذلك ودنكتون في خطوط سورية القديمة خط عد ٣١٣٦ وما يليه. وقد كتب احد العمال الملكيين إلى العرب الذين لا يمكن الجوالة في أيامنا أن يتوغلوا في بلادهم إلاّ ويحدّق بهم خطر فقدان الحياة، كأنه يكتب إلى الولاة في اسبانيا أو افرنسة ليؤمن بعض المسافرين. وإليك نص ما كتب: «إذا اراد جندي أو مسافر أن يدخل عليكم جبراً فاكتبوا إليّ فتنالون ترضية كافية، انتم لا تحتاجون إلى غريب لأنَّ لكم منازل

تحتلون فيها ولا يقدر أحد أن يكرهكم على فتح أبواب منازلكم، علّقوا هذه الرسالة على محل في مدينتكم حيث ييّسر لكل احد أن يطالعها، ولا يمكن احد أن يعتذر بأنه يجهل ذلك». رواه العالم واد في خطوط سورية القديمة خط عد ٢٥٢٤. وذلك دليل صريح على أنَّ الحكومة الرومانية كانت تبدي في هذه التخوم القاصية ما تبديه من العناية في الاقاليم الدانية. وفي بصرى عاصمة الاقليم العربي كانت كتابة المسكوكات يونانية في ايام ترايان، فاصبحت لاتينية بعد ولاية ساويروس ببعض سنين رواه واد ايضاً في المحل المذكور.

وأما الاثنان والاربعون حصناً التي على الطريق ما بين دمشق وتدمر، وقد أشرنا اليها فلا نعلم أأدريان بانيها ام ساويروس؟ ولا أقلّ من أنَّ سايروس حافظ عليها وكفاها مؤونة الرجال والزاد، لأننا إن لم نجد اثراً مؤكداً له في الطريق إلى تدمر، ونجد آثاره واضحة في تدمر نفسها. وعلى مقتضى الخريطة التي رسمها باتنجر إن الطريق من دمشق إلى تدمر مئتان واثنا عشر ميلاً. وقال بولتر إنَّ المسافة بين المدينتين اربعين ساعة. وقد وجد دي فوكوي ودنيكتون مخافر للجنود الرومانيين على الطريق بطولها من بصرى إلى تدمر، على أنهما لم يجدا لها تاريخاً ينبئنا بمن اقامها (الخطوط القديمة في سورية خط ٥٢٢). وكانت تدمر كباقي المدن تجارية جامعة اناساً من قبائل عديدة، فكان فيها جماعات من البرتيين والارمن والرومانيين واليونان، وجالية يهودية مهمة كان بعض افرادها يساوون اوجه الوطنيين غنى ووجاهة، رواه دي فوكوي (في الخطوط السامية عد٧ و١٦ و٦٥). وعليه فكان لها مجالس مختلطة كما في مصر الآن تفصل الدعاوي بين هؤلاء الأجانب رواه ودينكتون (في خطوط سورية القديمة خط ٢٦٠٦). وكان لأسرة اذينة في تدمر المحل الأول في الوجاهة، وأحد افراد هذه الأسرة المسمى حيران عاون ساويروس كثيراً بإهدائه إلى المواضع، وبتقديمه المؤن لفرق الجنود حتى حمل الملك أن يرخّص له ان يسمى باسمه سبتيموس، فكان قطب هذه الأسرة التدمرية وذلك على مثال ما نعلمه من أن اغوسطوس رخّص لهيرودس الكبير أن يزيد على اسمه اسم يوليوس تقرباً من اسرة القياصرة، رواه ودينكتون ايضاً في المحل المذكور. ولما سمى أحد اسرة اذينة بعد ستين سنة ملك الملوك كان يحامي الملك الروماني في المشرق. وزيادة سبتيموس على اسمه تذكرنا بالزمان الذي لم يكن اجداده إلاّ من اتباع ساويروس. ذكر ذلك دي فوكوي في الخطوط السامية خط ٢٨. واصبحت تدمر جالية رومانية لها الحقوق الايطالية، وكان فيها اعضاء بلدية ومجتمعات للندوة

والشعب حتى كنت تحسبها نظراً إلى آثارها ابنة أثينا، ونظراً لنظامها ابنة روما. وكان من سكانها من كانوا من فرسان الرومانيين أو من رجال ندوتها.

وكان الرحّل حينئذٍ يضطرون كما يضطرون الآن أن يسوقوا ماشيتهم مدة الصيف إلى ينابيع تدمر أو إلى مراعي جبل حوران، ويكثرون من السطو. ولما استتّبت ولاية الرومانيين في هذه الصحارى أمنوها، واقاموا الخفراء فيها حتى اصبحت على أتمّ ما يلزم من الراحة والأمن، وفي اطراف حوران إلى الشرق جبل فولكاني عند سفحه مخفرة لعسكر روماني، عرض اسوارها متران وعليها ابراج وامامها حفرة فيظهر أنّه كان هناك خفراء رومانيون يصدوّن عرب البرّية عن التعدي، وفي قمة هذا الجبل مخفرة مطلة على هذا السهل الفسيح، ويُرى هناك اخربة حمامات وبيوت. رواه دي فوكوي في كلامه على سورية الوسطى وقال لم يطرق هذه البرية قبلنا احد من الأوربيين على أنّ الرومانيين اتوا إليها وجلبوا معهم الحراثة والأمن. وأمّنوا هذه البلاد المسماة بلاد العطش واقاموا فيها مدناً، وبنوا أقنية لجرّ الماء من الجبال. وأول خط رواه واد من خطوط سورية القديمة ناطق بالشكر لترايان على أنّه جرّ الماء إلى قناتا (قنوات). وكان اول ما عنى به كرنيليوس بَلما فاتح العربية جره الماء لاستقاء رعايا الرومانيين الحدثاء. والخطوط القديمة تنبئنا بمخافر للجنود وبمقامات لرؤساء العشرات في اماكن لم يعد يسمع فيها إلاّ عواء الثعالب. وتشاهد من الأماكن العالية صفائح وسيعة منسّقة بجانب بعضها على صفين فهذه طرقات رومانية أنبأتنا بعد سبعة عشر جيلاً بأنَّ شعباً كثيراً اجتاز من هناك. قال ودينكتون بقي كثير من آثار الطريق من بصرى إلى دمشق ومسكوكات سبتيموس هي كثيرة في هذه البلاد، واطلال بعلبك وهي أحسن آثار المشرق واعظمها كان بناؤها في هذا العصر، وهيكل المشترى هناك بناه سبتيموس ساويروس، وهيكل الشمس الذي خربه تاوادوسيوس كان ادريان وانطونينوس اقاماه (مجلة الأمور القديمة في نيسان سنة ١٨٧٧م).

اما فلسطين فكانت وقتئذٍ كما كانت في اكثر اوقاتها مضماراً للاختلافات الدينية، وساحةً للهرج والشغب والسطو، فكان مستلزماً لضبط الاحكام فيها أنّ يشعر العائثون أنّ من فوق رؤوسهم سيف حاكم شديد البأس لا يقلق ضميره استعمال أشدّ القسوة. وكذلك كان سبتيموس يصنع بسكان فلسطين فلم يكن ليغضي على اقل مخالفة للنظام الذي وضعه لفلسطين عند تجوّله فيها كما روى سبرت في ترجمته. وقال فيه اورليوس فيكتور إنه كان هائماً باستئصال ذوي

المفاسد وليته لم يحسب المسيحيين منهم. وعاد في أيامه اليهود والسامريون إلى منازعتهم التي استطرقوها، فأمر الجنود بضربهم وقتل كثيرين منهم. وجاء في الكونيكون لأوسابيوس ان ثارت الحرب بين اليهود والسامريين أو استؤنفت سنة ١٩٩م. وذكر ابو الفرج بن العبري في تاريخه أنّ هذه الحرب كانت سنة ١٩٣م. وقال إنها كانت شديدة. وكيف كانت فقد خمّد ساويروس لظاها حتىأرادت الندوة الرومانية أن تعتدها ظفراً مبيناً، واقامت لابنه كركلا حفلة لظفر ابيه باليهود وإحسانه تدبير امور سورية كما روى سبرت أيضاً في ترجمة ساويروس.

الفصل الثاني

ما يؤخذ عن الآثار من تاريخ سورية في القرن الثاني والثالث

عد ٥٢٨

ما يؤخذ من ذلك عن آثار تدمر وخطوطها القديمة

إننا نتأوه كثيراً لبعدنا عن مكاتب اوروبا وقصر يدنا عن تقليب اساطير العلماء الذين نقبوا عن آثار سورية، وعلقوا عليها الشروح المسهبة، فلا يتيسر لنا الاطلاع في بلادنا إلاّ على نزر مما كتبوا، ويعز علينا الاستقصاء في متون الكتابات القديمة، فنضطر إلى أن نروي بالطل لا بالهطال على أنّ ما لا يدرك كله لا يترك جله فنروي ما اتصل الينا العلم به.

أولاً – إنَّ اللغة التي كانت عامة سكان سورية تتكلم بها في القرن الأول وما يليه إنما هي اللغة الآرامية، وترى الخطوط القديمة (ما عدا قليلاً منها) وُجدت بهذه اللغة. وهذه بيّنة دامغة لما قلناه في الكلام على لغة المسيح ورسله إنها كانت سريانية آرامية، وإن سميت عبرانية نسبةً إلى العبرانيين الذين كانوا يتكلمون فيها. وقال دي فوكوي في كتابه في سورية الوسطى وفي الخطوط السامية: «إنَّ جميع الخطوط التي وفقنا إلى الكشف عنها لا تتجاوز القرن الأول قبيل تاريخ الميلاد، واللغة التي كان شعوب سورية يتكلمون بها كانت اللغة الآرامية إلاّ ما ندر، وجميع الخطوط التي عثرنا عليها في تدمر وحوران وبلاد النبطيين كتبت بهذا الفرع من اللغة السريانية.

ثانياً – إن الظاهر من آثار كثيرة أنَّ قبائل من العرب بني سبأ ارتحلوا إلى سورية في القرون الأولى من التاريخ المسيحي. فإنَّ دي فوكوي قال في المحل المذكور إنَّ الخطوط التي كُشف عنها في صحراء الصفا، وفي جنوبي دمشق وشرقيها يظهر إنها فرع من الخطوط الحميرية، ويلزم أن تكون نقشتها قبائل بني سبأ التي هاجرت من العربية الجنوبية إلى سورية في القرون الثلاثة الأولى، وسمى هذه الخطوط سبئية. وكذا قال العالم وستون الذي كان قنصلاً لبروسيا في دمشق، ونقب عن الخطوط القديمة، ونسخ منها مئتين وستين خطاً عن صخور جبل الصفا، واشهر بعضها في كتاب سنة ١٨٦٠م مثبتاً أن تلك الخطوط إنما كتبتها قبائل هؤلاء العرب السبئيين الظاعنين إلى سورية. وقد انقسم هؤلاء إلى فصيلتين ظعنت احداهما إلى ما بين النهرين فاقامت هناك مملكة الحيرة وتتالى ملوكهم بها. والفصيلة الأخرى اقامت في سورية في عصر ولادة المخلص، واحتلت انحاء دمشق، وسُمي اهلها تنوخيين، وآخوا سكان البلاد الاصليين واستقطع بعض رؤسائهم الرومانيين. فولوهم على بعض الأعمال، وعقب هؤلاء قبيلة الصالحيين، وعزا هذا العالم إلى امرائها بناء بصرى في حوران سنة ١٠٦م وعاونوا الرومانيين على تأمين الصحراء.

ثم أتت على أثرهم في اواخر القرن الثالث فصيلة من بني ازد وسموا غسّان نسبةً إلى ماء نزلوا عليه، وكانت منهم دولة اتفقت مع حكومة الرومانيين، وتولت جميع البلاد التي في عبر الاردن إلى ظهور الاسلام، وكان امراؤها يذبون عن تخوم البلاد مانعين سطو البرتيين والفرس وعرب الحيرة، ثم تنصروا وعنوا بتقدم العلم، والصناعة حتى كثرت آثارهم في حوران والجولان. وذكر دي فوكوي كثيراً من آثارهم في هذه البلاد وعدد وستون كثيراً من الأديرة والكنائس واقنية جر الماء المنسوبة إليهم. ووجد ودنيكتون خطاً يونانياً دالاً على ذلك هو الخط ٢١١٠ من الخطوط التي ذكرها، وكانوا يزيدون على اسم ملوكهم المنذر، ويعزى إلى احدهم بناء قلعة البيضاء كشفت فيها عن خطوط كثيرة تؤيد ما مرّ. فبنو سبأ إذاً استفحل امرهم في هذه البلاد وتركوا على صخوره خطوطاً دالة على ظعنهم إليها، واقامتهم الحصون والآثار فيها، وهذا يحقق ما رواه بعض المؤرخين المسلمين. قال ابو الفدا: «ملوك غسان كانوا عمالاً على عرب الشام وأصل غسان من اليمن من بني الازد بن الغوث، نزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا إليه، وكان قبلهم بالشام قبيلة يقال لهم الضجاغمة... وكان ابتداء ملك غسان قبل الاسلام بما يزيد على

اربع مئة سنة وقيل اكثر من ذلك». ثم عدَّد ملوكهم إلى ظهور الاسلام وقال في احدهم عمرو إنّه بنى بالشام عدة ديورة منها دير حالى ودير ايوب ودير هند. ثم قال في ابن ثعلبة إنه بنى صرح الغدير في اطراف حوران ومثل ذلك قال ابن خلدون عند كلامه في بني غسان.

ثالثاً – إنّ اهل هذه البلاد كانوا يؤرخون سنيهم بتاريخ السلوقيين وهي تبتدي في اول تشرين الأول من سنة ٣١٣ق م، وكثيرون من العلماء يحسبون ابتداها في سنة ٣١١ق م غير ملتفتين إلى الثلاثة الاشهر التي تسبق السنة المسيحية تسهيلاً للتوفيق بينهما وجميع الخطوط القديمة التي وُجدت في تدمر وحوران وانطاكية وغيرها من اعمال سورية تراها مؤرخة بهذا التاريخ اليوناني.

رابعاً – يظهر من الخطوط التي وجدت في تدمر مدوّنة في القرون الأولى أنه كان للتدمريين ندوة كندوة رومة، فتراهم يعزون آثارهم في اكثر خطوطهم إلى الندوة.

خامساً – يظهر من هذه الآثار أنّ التدمريين كانوا يعبدون ملاكبل، وهو اله شمسي وتيمي وتأويله النجاح أو الحظ، وكان العرب يقولون تيم الله أي عبدالله ثم ارنغات معبودة السريان مقترنة مع هدد وشمس أي الشمس واللات معبودة العرب التي كان مقامها في الطائف، وهذا ظاهر من خطوط عديدة ذكرها دي فوكوي في المحل المذكور واخصها الخط الثالث من خطوط تدمر الذي وجده على صفيحة في مدفن الاسلام حيث قيل: «هذا التمثال لاستالي بن حيران اقامته له الندوة لأنه دفع دخلاً سنوياً للذبائح لتقدَّم إلى ملاكبل، وتيمي واترغات الآلهة الصالحين، وكان قيام ذلك في شهر تموز سنة ٤٥١ (يونانية توافق سنة ١٤٠ للميلاد)، ومن الخط الثامن الذي وجده على اعمدة هناك حيث يقال اقيم هذا التمثال لفلان الذي اقام ستة اعمدة ولوّنها تكرمةً لشمش (الشمس)، واللات حملته على ذلك عبادته للآلهة الصالحين اقيم في آذار سنة ٤٤٠ (يونانية توافق سنة ١٢٩ للميلاد).

سادساً – كان لتدمر في تلك الايام تجارة واسعة منبسطة إلى جهات عديدة موصلة بين المشرق والمغرب، فكانت محطة لسلع التجارة الآتية من بلاد الفرس والهند وكانت قوافلها تسير لذلك في دجلة والخليج العجمي، ثم توزّع هذه السلع في المشرق والمغرب، وكانت طريق القوافل في البرية كما هي اليوم، فكان يلزمهم أن يستأجروا أو يسترضوا قبائل العرب الرحّل المنتشرة في تلك الصحارى، وان يتألب

احتياطاً عدد غفير من الرجال والجمال ليعاونوا هذا السفر مدة شهرين، وكان لهم طريقان: الأولى شمالية مؤدية إلى سلوقية التي في ما بين النهرين، ثم تجتاز في ارض البرتيين اعداء الرومانيين الالداء. والثانية جنوبية تمتد في بلاد العرب لا تحف بالمسافرين فيها الأخطار التي تحفهم في بلاد البرتيين. ولهذا كان التدمريون يراعون مراضاة الشعبين المتنازعين أي الرومانيين والبرتيين، ويخضعون ساستهم لما تقتضيه مصالح تجارتهم حتى كانوا يسيرون آمنين في الطريق الشمالية. ولذلك قال فيهم ابيان المؤرخ ناقماً منهم إنَّ هؤلاء تجّار يستأتون من عند الفرس بضائع الهند والعربية ويبيعونها للرومانيين. وقال بلين (في التاريخ الطبيعي ك٢٢) إنَّ مال تجارتهم مع روما وحدها لا يقل عن مئة مليون دينار. وكانوا يجلّون رؤساء القوافل ويعظمون قدرهم، حتى كانوا ينصبون لهم التماثيل مكافأة لهم وانشاطاً لنيرهم. ومما يدلنا على ذلك الخطوط الكثيرة التي اكتشف عنها دي فوكوي في تدمر مبيّنة أنَّ التدمريين اقاموا تماثيل لكثيرين منهم امتازوا بتسييرهم القوافل وتأمينهم لها بحذاقتهم منها الخط الرابع مما ذكره العالم المذكور حيث كُتب على تمثال: «إنَّ هذا التمثال اقيم ليوليوس اورليوس زبيدة مكافأة له على تسييره القافلة التي سار معها إلى فولوجزيا (مدينة بناها على الفرات فولوجز الأول ملك البرتيين). تجلة استحقها في شهر نيسان سنة ٥٥٨ يونانية توافق سنة ١٤٧ للمسيح). والخط الخامس الذي كُتب فيه: «هذا التمثال اقامه لمرقس اسكندر رجال القوافل الآتية من كرك لأنه ترأس عليهم في شهر آب سنة ٤٦٦» (يونانية توافق سنة ١٥٥). والخط السابع الذي كتب فيه هذا التمثال اقامته الندوة والشعب تكرمة ليوليوس اورليوس سالملات لأنه سيّر القافلة مجاناً على نفقته سنة ٥٦٩ (يونانية توافق سنة ٢٥٧ أو سنة ٢٥٨ مسيحية).

سابعاً — وكان من عادة عامة التدمريين الموسرين أن يقيموا أعمدة لزينة مدينتهم، فكانت هذه العادة جارية ايضاً في مدن سورية الكبيرة المبنية في هذا العصر. ويُستدل على ذلك بعدة خطوط ذكرها دي فوكوي في كتابه المذكور منها الخط الذي قيل فيه· أنَّ هذا التمثال لفلان اقامه بنو فلان (الاسم محطم) تكرمةً له لأنه نصب ستة اعمدة، وزيّنها بالالوان تكرمةً لشمس (الشمس)، واللات في آذار سنة ٤١٠ (يونانية توافق سنة ١٢٩م)، والخط الحادي عشر الذي كُتب فيه أنَّ هذا التمثال نصبته الندوة لسورايكو بن حيران تجلة له، لأنه اقام فوق هذه الرفات سبعة اعمدة مع زينتها ودربزونات من الصفر في آذار سنة ٤٩٠ (يونانية توافق سنة ١٧٩ للميلاد).

ثامناً – إنّه كان في تدمر في هذا القرن جماعة من اليهود أنبأنا بذلك المؤرخون إذ قالوا: إنّه بعد خراب أورشليم ارتحل كثيرٌ من اليهود إلى تدمر واقاموا فيها وتوفر عددهم وثروتهم، وجاءت الآثار مثبتة ذلك منها الخط الثالث عشر من الخطوط المذكورة حيث قيل هذا التمثال لمرتا بنت بادا بن وهبلات بن سمعان اقامه سورايكو بن حيران زوجها بعد وفاتها تكرمةً لها في شهر آذار سنة ٤٩٠ (يونانية توافق سنة ١٧٩م)، فاسما مرتا وسمعان دالان بلا مراء على أنَّ هذه الاسرة يهودية، والخط الخامس والستون حيث كتب أن هذا المدفن والمسكن الأبدي مع زخرفه كله بناه زبيدة، وصموئيل بن لاوي بن يعقوب بن صموئيل تكرمة للاوي ابيهم ولانفسهم، واولادهم واولاد اولادهم في شهر نيسان سنة ٥٢٣ (يونانية توافق سنة ٢١٢). ولا شك في أنَّ هذه الاسماء يهودية واستمر اليهود قروناً بعد ذلك في تدمر، فقد روى بنيامين من دي تودل في كتاب رحلته فصل١١ أنه زار تدمر سنة ١١٧٢م ووجد فيها من اليهود نحو ألفي نفس والخط المذكور مؤذن بأنَّ اليهود كانوا حينئذٍ اغنياء وكانوا في الحقوق اسوة سكان تدمر.

تاسعاً – أنبأتنا آثار تدمر ايضاً بأسرة أذينة التي ملكت في هذه المدينة وانبسط ملكها إلى مصر ايضاً في ايام اذينة الثاني، وزوجته زبيدة أو زينب مفصلة افراد هذه الاسرة. فقد جاء في الخط ٢١ من الخطوط المذكورة: «إنَّ هذا المدفن بناه اذينة رجل الندوة ابن حيران بن وهبلات بن نصور لنفسه وابنائه وابناء ابنائه». وفي الخط الثاني والعشرين: «هذا التمثال لسبتيموس حيران بن اذينة رجل الندوة الشريف وامير تدمر اقامه له اورليوس فيليسوس.... رئيس الجنود في بصرى تكرمة له في شهر تشرين سنة ٥٦٣» (يونانية توافق سنة ٢٥١م). وفي الخط الثالث والعشرين: «هذا التمثال لسبتيموس أذينة الرجل القنصلي الشريف، ومولانا أقامه له جماعة الصياغ الذين يشتغلون بالذهب والفضة تكرمة له في شهر نيسان سنة ٥٦٩» (توافق سنة ٢٥٨م). وفي الخط الثامن والعشرين: «تمثال لسبتيموس اذينة ملك الملوك الذي اسف على فقده الوطن بجملته، اقامه له سبتيموس زبدى القائد العام وزباى قائد تدمر بما أنه مولاهما في شهر آب سنة ٥٨٢ (يونانية توافق سنة ٢٧١م) وفي الخط التاسع والعشرين «تمثال لسبتيما بتزبينة (وهي زينب الشهيرة) الملكة البارة والعادلة، اقامه لها سبتيموس زبدى القائد العام وزبّاى القائد في تدمر تكرمة لمولاتهما في شهر آب سنة ٥٨٢» (يونانية توافق سنة ٢٧٢م).

فكان المتحصل من هذه الآثار أنَّ آل اذينة كان جدُّهم الأول في هذا القرن الثاني نصّور ثم وهبلات، وحيران الذي ذكرنا آنفاً أنه عاون سبتيموس ساويروس في حربه مع البرتيين، فجعله عاملاً على بعض البلاد في اواخر القرن الثاني، ثم ابنه سبتيموس اذينة الأول ثم اذينة الثاني التي كانت امرأته بتزبينة، وهي زبيدة أو زينب. فبعد إن رفع سبتيموس ساويروس مقام حيران وولاه ورخص له أن يتسمى باسمه سبتيموس في آخر القرن الثاني رُقي اله في أيام اسكندر ساويروس إلى مقام رجال الندوة، وامّرهم الرومانيين على تدمر وما يليها وحاول سبتيموس اذينة الأول سنة ٢٥٠م أن يخلع نير ولاية الرومانيين فقتله روفينوس قائد جيش الرومانيين، ولكن حالفهم ابنه سبتيموس حيران سنة ٢٥١م فتركوه والياً على تدمر، ولما مات سنة ٢٥٨م سموا ابنه سبتيموس اذينة الثاني خلفاً له ملقباً الرجل العظيم القنصلي، وقد انتصر على الفرس سنة ٢٦٠م واخذ يسمى ملكاً، واقرّ له كاليان الملك بملكه سنة ٢٦٤م فاخذ لقب ملك الملوك على عادة الشرقيين، ولقّب امبراطور على عادة الرومانيين إلى أن قتله معونيوس احد انسبائه سنة ٢٦٦م واتبع به ابنه البكر المسمى هيرودس. وفي ١٩ آب سنة ٢٦٦م رقى ابناه وهبلات واتينودر مع امهم زينب إلى عرش الملك فانبسط حكمهم واستفحل امرهم، واستحوذوا على مصر سنة ٢٦٧م بواسطة قائد جيشهم سبتيموس زبدى. وسنة ٢٧٠م استوى اورليان على منصة الملك في رومة واقر وهبلات في مصر وسورية بصفة رجل قنصلي وامبراطور، وقائد الرومانيين. وسنة ٢٧١م حصلت النفرة بين اورليان ووهبلات فلقب هذا نفسه باغوسطوس ولكن ادركته المنية في تلك السنة، فاخذت زبيدة الملك باسم ابنيها هِرّانيانوس وتيمولاوس وفي الخريف سنة ٢٧٢م تأججت نار العداوة والحرب وكسر جيش زبدى في مصر وفي سنة ٢١٢م انكسرت عساكر زبيدة وسبتيموس زبّاى في حمص، واستظهر اورليان عليهما وفي سنة ٢٧٣م حاصر تدمر وافتتحها واخذ زينب إلى روما ذكرنا كل هذا هنا بياناً لتاريخ هذه الأسرة. وسنزيده بياناً في كلامنا على تاريخ القرن الثالث.

عاشراً – يترجحّ الرأي بوجود مسيحيين في تدمر في القرن الثاني. فقد وجد فيها خط كتب فيه صورة حرف X في اليونانية واللاتينية مرتين قبل فقرة التاريخ وبعدها خلواً من أن يكون له علاقة بالكلام أو يقتضيه معنى من المعاني، وهذا الخط هو السادس والسبعون من الخطوط التدمرية التي ذكرها دي فوكوي وهذه ترجمته: «لمن فليكن اسمه مباركاً إلى الابد اقام هذا المذبح سلمون بن نيزا بن

تصيدا بن باراق لخلاصه وخلاص اولاده X في شهر نيسان سنة ٤٤٧ X (توافق سنة ١٣٥م) ولما كانت صورة هذا الحرف أشبه بصورة صليب ويبتديء به اسم خريستوس المسيح في اليونانية استعملها المؤمنون في المغرب من اقدم الدهر للدلالة على تكريمهم للصليب، وعلى أنهم مسيحيون ولمجانبتهم المجاهرة بذلك تفادياً من الاضطهاد، وهذا ليس من يمتري فيه وقد أثبت العالم دي روسي في تفسيره الخطوط المسيحية في قرطجنة أن علامة الصليب كانت أول علامة استعملها المسيحيون قبل القرن الرابع اخفاءً لتعبدهم للمصلوب، وأورد لذلك أمثلة عديدة مأخوذة عن المخابي أو منقوشة على رخام المدافن أو على كلس جدرانها، وكل تاريخ الكنيسة في الأعصر الأولى يبين لنا أنّ كل ما في المغرب من أشعرة الدين وكثير من الألفاظ الكنسية انتقلت إليه من المشرق، ونرى علامة الصليب في كثير من آثار سورية بعد القرن الرابع دالة على ما مرّ. وقد اورد العالم روسي كثيراً من الآثار المسيحية في سورية يتبين منه أن المسيحيين فيها كانوا يستعملون هذه العلامة للدلالة على مذهبهم، فكل ما مرّ يحملنا على القول بنوع من التوكيد أن هذه العلامة استعملت للدلالة على المعنى المذكور لولا في سورية، وانها في الخط المذكور للدلالة عليه والعبارة الأولى منه وهي: «لمن فليكن اسمه مباركاً إلى الأبد». تساوى قول الكتاب فليكن اسم الرب مباركاً وإن امكن أن يستعمل هذه العبارة اليهود والوثنيون ايضاً، وقد ورد مثلها في أكثر الخطوط التي ذكرها دي فوكوي مأخوذة عن المذابح والمقامات الدينية مزاداً عليها الإله الرحيم الصالح، ويستفاد من ذلك أن وصف الله بالرحمن الرحيم كان قبل الإسلام ايضاً.

عد ٥٢٩

ما يؤخذ من تاريخ هذا القرن عن الآثار في حوران وما يليها

قد وجد في السويداء خط نقش بالآرامية واليونانية على الواجهة الشرقية من مدفن كبير فيها ذكره دي فوكوي في صدر الخطوط التي عثر عليها في حوران وهذه ترجمته: «اثر لكمرة (أو لحمرة أقامه لها اذينة بعلها». وفوق المدفن المذكور قبة كبرى محلاة بأعمدة وكان فوقها هرم لم يبق منه إلاّ اسافله، ويظهر من هيئة البناء أنه قديم حتى ظن دي فوكوي: إنّه بنى في أيام هيرودس الكبير، ورجحّ ودينكتون أن بناءه كان في أيام اغريبا (خط ٢٣٠٨)، وأما من هو اذينة هذا الذي بنى هذا الأثر الجميل لامرأته. اثبت دي فوكوي أنه ليس امير تدمر، وروى كوسان

دي برسفال (في تاريخ العرب قبل الاسلام مجلد١ صفحة٢٣): إن اذينة هو رئيس بني السميذع وأنه كان ذا دولة صغيرة على تخوم سورية والبرية في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد وارتأى ودينكتون (في خطوط سورية خط ٢٣٠٨) إنّ باني هذا المدفن هو رئيس بني السميذع الذي كان في القرن الأول من التاريخ المسيحي، ويؤيد ذلك خط آخر كشف عنه هذا العالم في اخربة السويداء كتب باليونانية في أيام كمود الملك في القرن الثاني، يتبين منه أنه كان بين سكان هذه المدينة بطن أو اسرة تسمى بني السميذع، والكلمة اليونانية تقرب كثيراً من كلمة بني سميذع في العربية، ومنها في الآرامية وكانت السويداء موطن هذه الأسرة. وقد تبين قيام آل السميذع في هذه الناحية بخط آخر يوناني عثر عليه ودينكتون في اذرع اللجا، وهو الخط ٢٤٩٥ من خطوطه وكلماته باليونانية تقرب من هذه الكلمات العربية «حبيبة السميذعة بنت نعم»، فكل ذلك مؤذن بان هذه المرأة ومن بنى قبرها كانا من فصيلة السميذع العربية، وجعلها بعضهم اصلاً لبني اذينة الذين سماهم العالم كوسان دي برسغال (ك٢ في تاريخ العرب ذرية السميذع وقد حكم بنو السميذع زماناً طويلاً على تخوم الأملاك الرومانية، على أنّ استعمال اللغة الآرامية في هذا الخط لا العربية لا ينتج منه ما ينفى كون اصل القبيلة عربياً فإن المهاجرين الأولين من العرب إلى سورية وجدوا لغة عامة سكانها آرامية ولغة خاصتهم يونانية فاستعملوا اللغتين في الكتابة على آثارهم التي أرادوا تخليد ذكرهم بها، وتلك بيّنة اخرى قاطعة بأنّ لغة عامة السوريين في القرون الأولى كانت آرامية، ولما توفر عدد المهاجرين من العربية إلى سورية لا سيما بعد الإسلام خلفت لغتهم العربية لغة الوطنيين الآرامية.

يتبيّن من الآثار والخطوط التي كشف عنها في حوران واللجا وما يليهما أن هذه البلاد كان يليها ملوك من النبطيين في القرن الأول قبل الميلاد، وفي القرن الأول ومبادي الثاني وبعده وأول هؤلاء الملوك هو حارثة أو ارتياس فيلالين وحكم من سنة ٩٥ إلى سنة ٥٠ ق.م وكان مركز ولايته دمشق، ووجد له مسكوكات يونانية في هذه المدينة، وقد تداخل في المنازعات التي كانت بين الاميرين المكابيين هركان وأرسطوبولس متشيعاً للأول منهما حتى أتى، وحاصر أورشليم ورده عنها توسط الرومانيين، وقبض بمبايوس على هذا الملك في مدينة بترا (حجر) في العربية سنة ٦٥ق. م ثم جدد الثورة، فانتصر عليه سكورس نائب بمبايوس سنة ٦٢ق م وطبع صورة انتصاره على الدنانير الرومانية التي ضربها بالفضة التي اخذها من

حارثة المذكور، وقام بعده ملك اسمه ملك ويكتب اسمه ملكوس أو ملكيوس إلى الصيغة اليونانية واللاتينية واستمر ملكه من سنة ٥٠ إلى سنة ٢٢ قبل المسيح. وكان معاصراً لهيرودس الكبير، وكانت بينهما حروب طويلة كان الظفر فيها تارة لملك وتارة لهيرودس، وتداخل في المنازعات التي كانت بين القواد الرومانيين طلباً لمصلحته فكان منجداً لبمبايوس ثم لقيصر ثم لمرقس أنطونيوس واكتاف اغوسطوس وقد وجد دي فوكوي خطاً في بصرى في حوران منقوشا على مذبح فيها: وهو الخط الرابع من الخطوط النبطية قيل فيه «اقام هذا المذبح نترال بن نترال للإله كاسيوس في السنة ١١ لملكيوس الملك».

وخلف ملكاً اوباداس أو عوباد ودام ملكه من سنة ٣٣ إلى سنة ٧ق. م لكنه كان غفلاً، ترك تدبير المملكة لوكيل له يسمى سيلاوس فأوقع الخصومة بين مولاه وهيرودس، وأتى إلى رومة يسأل أغوسطوس أن يجعله ملكاً على بترا فحبط سعيه إذ ناصبه نيقولاوس الدمشقي سفير ملك اليهود، ولم يعثر حتى الآن على خط أو سكة لعوباد، ويظهر أنه في أيامه بنى مليكة الهيكل لبعل شمآيم الباقية اطلاله في سياح على مقربة من قنوات فنصب لهما بنو عبيسة سكان هذه المدينة تمثالين رأساهما الآن في متحف اللوفر في باريس، ونصب أحد آل عبيسة ايضاً تمثالاً لهيرودس الكبير الذي مدّ ولايته إلى حوران فكسر المسيحيون في القرون الأولى هذا التمثال، ووجد دي فوكوي الخطوط الثلاثة المؤذنة بما تقدم وذكرها بين الخطوط التي عثر عليها في حوران.

وخلف عوباد ابنه حارث أو حارثة ويسميه اليونان ارتياس ودام ملكه من سنة ٧ق م إلى سنة ٤٠م بعده وكان له امرأتان صلدة وصقيلة وكان حما هيرودس انتيباس رئيس الربع في الجليل، وقد أشهر ارتياس الحرب على هيرودس لزواجه على ابنته بهيروديا وانتصر عليه، فأرسل طيباريوس فيتيليوس لنجدة اليهود على أن وفاة طيباريوس سنة ٣٧م غيرت سياسة الرومانيين. فإنّ كاليكولا رضى عن اريتاس ووسع تخوم ملكه وأعطاه دمشق. وكان يدبر هذه المدينة بواسطة نائب عنه عند هرب بولس منها سنة ٣٩م وعزا إليه دي فوكوي خطاً وجد في صيدا على صفيحة من رخام قيل فيها: «هذه الصفيحة قدمها... الحاكم ابن زويلا للإلهة دوزارا (ربة كان يعبدها العرب لا سيما في حجر واذرعات وبصرى) في شهر... سنة ٣٢م لأريتاس (الحارثة).

وخلف أريتاس ابنه ملك أو ملكوس الثاني ودام ملكه من سنة ٤٠ إلى سنة ٥٧ بعد المسيح، ويظهر أنه ابن أريتاس من خط ذكر دي فوكوي أنه وجد مكتوباً

على صفيحة فوق باب كنيسة سرخد قيل فيه: «هذا الأثر أقامه رواهو بن ماتابو... للات ربتهم المستقرة في سرخد... في شهر آب سنة ١٧م لملكوس ملك نباط بن حارث ملك نباط المحب لشعبه». ودام على كرسي الملك لا أقل من ثلاث وثلاثين سنة كما يظهر من بعض المسكوكات وهو الذي أتى بجيش لنجدة فسبسيان في حربه مع اليهود سنة ٦٧م. وخلفه ابنه، دابل اوزابل وبقي في المُلكْ من سنة ٧٥ إلى سنة ١٠٥م وكانت وصية عليه أولاً امه المسماة صقيلة ثم اشترك في الحكم مع امرأته المسماة جميلة، ودام حكمه لا أقل من خمس وعشرين سنة كما يظهر من خط وجده دي فوكوي منقوشاً على صفيحة فوق شبابيك كنيسة سرخد قيل فيه: «اقامه قصيو ابن أذنية... لامرأته وغدة في السنة ٢٥م للملك ذابل» ولعله كان الملك الاخير من النبطيين الذي أذل أمام كرنيليوس بَلما، إذ اخضع العربية للملك ترايان سنة ١٠٥م كما مرّ. قال دي فوكوي: هذه سلسلة الملوك النبطيين على ما ظهر لنا من خطوطهم، ونحن بها موقنون إلى أن يظهر الخلاف. وعقب ذلك هذا العالم بقوله وكان هؤلاء النبطيون يتكلمون باللغة الآرامية كما يظهر من الخطوط التي ذكرناها، ولم يبقَ محل للجدال أو الامتراء في هذه المسألة بعد ما تبين من الآثار وما ذكره مشاهير العلماء، منهم العلامة كترمار في الجريدة الآسياوية سنة ١٨٣٥م وقد كان لهؤلاء الملوك أهمية كبرى في سورية الوسطى، وبلاد العرب في القرنين اللذين قبل الميلاد وفي القرن الأول ومبادئ الثاني بعده.

وكانوا ذوي دولة وسطوة وتجارة منبسطة في الآفاق ولهم خطوط كثيرة وآثار عديدة في مدينة بترا ثم انقرض ذكرهم من العالم وإن وجد بعض أفراد يسمون باسمائهم في القرون الوسطى. وقد اختلف في أصلهم فذهب العلامة كترمار وشلصون إلى أن اصلهم قديم جداً، وأنهم ليسوا إلاّ فصيلة من الآراميين هاجرت من المشرق إلى المغرب في أيام بختنصر، إلى أن قال دي فوكوي لا أريد الدخول في هذا المبحث لأن الخطوط التي عثرنا عليها لم تنوّره بشيء واجتزىء بالقول: إنه لا يلزم التعجيل في نسبة شعب إلى الاصل الآرامي سنداً إلى أنه يتكلم باللغة الآرامية لأنه لو صحّ ذلك لصحّ أنه لم يبقَ في المشرق إلاّ شعوب ارامية فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد إلى ظهور الاسلام كانت اللغة الآرامية هي اللغة التي يتكلم بها عامة جميع الشعوب الساكنين بين بلاد فارس ومصر واليهود والساميين المتوطنين في مصر وآسيا الصغرى أيُنْتَجُ من ذلك أن هؤلاء الشعوب كلهم آراميون؟ لعمري لا تصح هذه النتيجة إلاّ إذا صحّ أن سكان مصر والبربر كلهم عرب لأنهم من عشرة

قرون يتكلمون اللغة العربية لا في سورية وبين النهرين فقط بل في شمال افريقيا أيضاً. والذي اراه أن النبطيين الغربيين اصلهم من العرب فان صورة اسماء الاعلام عندهم واسماء معبوداتهم واستعمالهم ال حرف التعريف وتسمية يوسيفوس لهم عرباً تبين كون اصلهم كذلك، وقد اخذوا تدريجياً يتكلمون الآرامية كجيرانهم في سورية واليهودية لتغلب هذه اللغة في هذه البلاد، بل كانوا يكتبون اليونانية ايضاً لتغلبها عند العلماء وفي الكتابات الرسمية عند مواطنيهم.

عد ٥٣٠

آثار أخرى في القرن الثاني في أنحاءٍ عديدة من سورية

إنَّ في بصرى في حوران مشهد قديم لا يمتاز في إنشائه في القرن الثاني لتاريخ الميلاد وهو على جانب كبير من العظمة، وقد حفظ خارجه بنوع أنه لو رفع البناء الذي استحدث فيه لظهرت للعيان الهيئة الداخلية للمشهد القديم، وقد حوله السلاطين الايوبيون إلى قلعة، وبنوا فيه أبراجاً نقلوا إليها الحجار التي كانت في المشهد، وهي ضخمة حتى كان طول بعضها خمسة أمتار. والخطوط العربية المنقوشة عليه تبين أن هذا التحويل كان في النصف الأول من القرن السابع للهجرة. ثم إنّ في الطريق الرومانية المؤدية من دمشق إلى بصرى مخفرة رومانية في قرية اسمها مسمية في اللجا، فهذه المخفرة بنيت في أيام الملكين مرقس اورليوس ولوشيوس فاروس من سنة ١٦٠ إلى سنة ١٦٩م في ولاية افيديوس كاسيوس نائب سورية الشهير بثورته كما مرّ، وبإدارة أنتيسيوس فوسقوس قائد مئة في الفرقة الثالثة المسماة افرنسية، وكل ذلك بينّ من خطوط منقوشة على حجارة هذا الاثر وذكرها ودينكتون في عد ٢٥٢٤ و٢٥٣٧ من الخطوط التي ترجمها، ويظهر أنه استُحدث فيها شي جديد بعد بنائها في ذلك العصر، وقد تحولت بعد ذلك هذه المخفرة إلى كنيسة مسيحية فأحدث ذلك التغيير في هيئتها الأولى.

إن في قرية شقة في حوران أثر يسمى قيصرية شقة، ولا ريب في أن هذا الأثر كان مقراً للعامل الروماني، فإن هيئته تبين أنه لم يكن بيتاً للسكن بل مجموع ردهات معدة للاجتماع ولقضاء مهام الحكومة، وابواب هذا المحل وشبابيكه وكل ما فيه من الاغلاق في الداخل هو من الحجارة كعامة الأبنية القديمة في حوران، وهيئة البناء والنقوش في هذا الاثر كهيئتها في باقي الابنية التي أُنشئت في سورية في عهد الملوك الرومانيين، وكهيئتها في بعلبك وتدمر مع بعض تغيير في دقة النقش لصلابة

الحجر في حوران، ولهذا يعزى بناء هذا الاثر إلى القرن الثاني أو مبادئ الثالث، إلاّ أنه في القرن الرابع تحول هذا البناء إلى معبد مسيحي، ومحي منه بعض الاشعرة الوثنية ونقش عوضها حرف X لدلالة هذا الحرف على الصليب بهيئته، ولأنه صدر كلمة خريستوس (المسيح في اليونانية). وتوجد آثار أخرى ككنيسة شقة المذكورة ودير فيها وكنيسة في قرية نفخة، وكنيسة ما جرجس في اذرع، فجميع هذه المحال أصل بنائها روماني ومحوّلة في القرن الرابع أو الخامس إلى كنائس ومعابد.

وفي قرية سيس في الصفا قلعة وحولها اسوار يظهر إنها كانت من المخافر التي أقامها الرومانيون في القرن الثاني على تخوم البرية منعاً لمهاجمات الرحلّ عن السطو على املاكهم. وقد مرّ ذكرها وقول دي فوكوي في مجلد١ صفحة٧١ في كلامه في هذه القلعة إنها كانت آخر ما انتهى إليه في برية سورية وإنه لم يصل قبله أوروبي إلى هذه الاقاصي.

ومن آثار هذا القرن مدفن في الجبل الاعلى في قرية اسمها بشيذلايا على جانب من العظمة، وقد كتب عليه: «طيباريوس كلوديوس أقام لطيباريوس سوزندروس أبيه ولكلوديا كيباروس أمه هذا الشاهد على تقواه، وحسن ذكره سنة ١٨٢ في ٢٧ من شهر ديستروس استودعك الله يا أبي سوزندروس». ومثل هذه الكتابة على صفيحة في أعلى عمود من حجر واحد علوه سبعة امتار مقام في جانب هذا الاثر أن التاريخ المنقوش عليه هو التاريخ الأنطاكي ويوافق ٢٧ نيسان من سنة ١٣٤ للمخلص. وهناك ايضاً مدفن آخر في قرية اسمها خاتورة أقيم لعامل روماني اسمه أميليوس رجينوس ومن حوله اعمدة مزدوجة وقد كتب عليها خط يتبين منه أن هذا المدفن اقيم في ٢٠ تموز سنة ١٩٥.

عد ٥٣١

ذيل في مشاهير سورية الدنياويين في القرن الثاني

من هؤلاء بولورد ولد في دمشق لنحو سنة ٦١ للميلاد. وكان مهندساً شهيراً في أيام ترايان، وهو الذي بنى له الجسر على نهر الدانوب، وأقام عمود ترايان وغيره في رومة من الآثار التي تنزل المنزلة الأولى في غريب الصناعة، وقد حدثه ترايان يوماً في هندسة بناء فتطفل أدريان مبدياً رأيه، فسخر منه أبولورد قائلاً له اذهب فاشتغل في تصوير يقطينك. وقد كان رأي ادريان يوماً ما مشتغلاً بتصوير

اليقطين، فلما ارتقى أدريان إلى منصة الملك نفاه ثم قتله سنة ١٣٠م ونقض كثيراً من الآثار التي كان بناها.

ومنهم إميل بابينيان وكان من بيروت وأستاذاً في مدرسة الفقه فيها في القرن الثاني، وهو من أشهر الفقهاء الرومانيين وكان سبتيموس الملك من رفقائه في المدرسة. ويروى أنه كان نسيباً للملكة دمنا بنت كاهن حمص، وقرينة هذا الملك ولذلك اعزه وقرّبه إليه، ورفع منزلته عنده بعد أن كان مرقس أورليوس أقامه محامياً لدعاوى الحكومة، ثم رئيساً على الحرس مع ولاية القضاء سنة ٢٠٣م وبقي في هذا المنصب إلى سنة ٢١٢م حين حكم عليه كركلا الملك بالموت، وذلك أن سبتيموس ساويروس أوصى بابينيان عند موته بابنيه كركلا وجيتا فقتل كركلا أخاه، وأراد أن يجبر بابينيان على أن يؤلف خطبة يبرئ بها ساحة القاتل من هذا القتل، وأن يتلوها بحضرة رجال الندوة والشعب فأجابه بابينيان: «إن اقتراف معصية القتل لا يسر من التبرئة منها، واتهام البريء بعد قتله انما هو قتل آخر له». فاسخط هذا الجواب كركلا، فامر بقطع رأسه ونفذ امره سنة ٢١٢م. وله تآليف وتصانيف عديدة اهمها سبعة وثلاثون كتاباً في المباحث وتسعة عشر كتاباً في الأجوبة ابتدأ فيها في ايام كركلا وجيتا وربما لم يكلمها، وكان له بعد موته اعتبار سام وشهرة طائرة في الآفاق حتى عده واضعو الشرائع سنة ٤٣٦م في ايام توادوسيوس بين الخمسة الفقهاء الذين تنزل اقوالهم منزلة شريعة، وإذا تعارضت اقوالهم فالعمل بقوله. على أن تأليفاته لم تصل إلينا كاملة، ولكن وجد منها خمس مائة واحدى وتسعون فقرة في شرائع يوستينيانوس المسماة دي جستي، وثلاث واربعون فقرة في كتاب قديم في الفاتيكان. ووجد بعض فقرات من الكتاب الخامس في الاجوبة في كتاب قديم كتب على رقٍ عثر عليه حديثاً في مصر، ذُكر ملخصها في منشورات الأكادميا في برلين سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٨٠م.

ومنهم اولبيان وهو من الفقهاء الرومانيين ايضاً. وذهب بعضهم أن مولده بيروت وغيرهم أنه صور. وقد ولد في القرن الثاني وتوفي في القرن الثالث سنة ٢٢٨م. وكان معاوناً لبابينيان في رياسة الحرس، ويظهر أنه نفى سنة ٢٢٢م بأمر الملك اليوكبل، ثم استرده اسكندر ساويروس دون ابطاء، واقامه اولاً في منصب فحص الدعاوى ثم عضواً في ديوان مشورة الملك ثم رئيساً على الحرس، وولاية القضاء، واستمر في هذا المنصب الاخير من اول كانون الأول سنة ٢٢٢م إلى أن قتله الحرس سنة ٢٢٨م. وقد

الف كثيراً من الكتب واهمها تفسيره بعض الشرائع وكل ما امكن معرفة تاريخه من تآليفه ألف من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٧م، أي في مدة الخمس السنين التي ضبط فيها كركلا زمام الملك. وتوصف تآليفه بالبتات والوضوح على أن تعجيله في إنشائها اوقعه في نقائص عديدة، تعقبه بها العالم برنيس سنة ١٨٨٥م. وفي شرائع يوستينيانوس ٢٤٦٢ فقرة من تآليفه التي لم يبق لنا منها كتاب كامل إلاّ كتابه الموسوم بالكتاب المفرد في القواعد، وقد كان منه نسخة قديمة في المكتبة الفاتيكانية فطبعها العالم دي تيلت سنة ١٥٤٩م لكنها غير صحيحة النقل.

ومنهم يوليوس بولس وهو من الفقهاء الرومانيين ذهب بعضهم أن منشأه صور، وغيرهم بادوا في إيطاليا وكان معاوناً لبابينيان في رياسة الحرس أيضاً وعضواً في ديوان مشورة الملك سبتيموس ساويروس. فقد نفاه الملك اليوكبل ولكن أعاده الملك اسكندر ساويروس ونصبه رئيساً للحرس. وقد فاق جميع الفقهاء الرومانيين بكثرة التآليف التي وضعها وقد ربت مصنفاته على الثمانين كتاباً، وأكثرها مطول جداً ككتابه في تفسير الشرائع، ومن تآليفه في شرائع يوستينيانوس ألفان وثمانون فقرة، وقد ترجم منها بإيجاز كتاب موسوم بالخمسة الاسفار في الأحكام، وقد وصل الينا هذا الكتاب بين كتب شرائع الرومانيين في أيام الفيزيكوت أي الغطط الغربيين.

ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف أفلاطوني، ولد في صور في القرن الثاني وطاف في العربية وفريجية، واتى رومة في أيام كمود الملك وأنهى حياته في بلاد اليونان، وظن بعضهم أنه كان من المربين لمرقس أوليوس، وله ٤١ مقالة في المباحث الفلسفية والادبية ونفسه فيها جلي عذب، وقد نشرها دانيال هنسيوس مع ترجمتها إلى اللاّتينية سنة ١٦١٤م في لايد ثم طبعت في لبسيك سنة ١٧٧٤م وترجمتها إلى الافرنسية كمبدونو سنة ١٨٠٢م. وقد ذكر اوسابيوس في الكرونيكون إنه كان شهيراً في هذا القرن، وذكر ايضاً أنه كان في هذا القرن فيلسوف آخر من بيروت اسمه تورس لم نعثر على شيء من ترجمته وكان ايضاً في منتصف هذا القرن تريفون اليهودي، فقد كان مرّ في فلسطين في مدة الحرب الاخيرة، وتوطن بلاد اليونان مقيماً في قرنثية وانعكف على درس الفلسفة كما يظهر من كلامه في جداله مع القديس يوستينوس الآتي ذكره، وقال اوسابيوس فيه إنه اشهر اليهود في عصره.

ومنهم لوسيان السميساطي ولد في سميساط في سورية سنة ١٣٧م وعلى رواية أخرى سنة ١٢٠م وسماه بعضهم فولتر عصره تعلم أولاً صنعة نقش التماثيل ثم درس الفقه، وصار محامياً للدعاوى. ثم انكب على درس الفصاحة والفلسفة، وطاف في آسيا وبلاد اليونان وافرنسة وايطاليا، وأقام في أثينا وعمره نحو أربعين سنة يدرس الفلسفة على دمونكس الفيلسوف، وكتب كتباً كثيرة يندد فيها بعادات الناس واوهام معاصريه، وأقامه مرقس أورليوس عاملاً في مصر فشكاه مسودوه وبرأ ساحته بمحاماة توصلت إلينا، وله غيرها نحو ثمانين تأليفاً اشهرها مباحثه في الآلهة وفي الموتى، وفي نسق كتابة التاريخ. وقد اكثر في كتبه من الهزل والتهكم ولم يكن من الدين على شيء، وكان يتهكم على مدارس الفلاسفة وعلى الاديان حتى الدين المسيحي الذي قل ما كان يعرف منه، وقد أتى بمؤلفاته من القسطنطينية إلى إيطاليا سنة ١٤٢٥م، وقد طبعت لأول مرة في فرنسا سنة ١٤٩٦م وترجمها غيره من بعده. وآخر طبعات كتبه كان في باريس سنة ١٨٨٨.

وكان في هذا العصر على الارجح فيلون الجبيلي الشهير الذي اذاع كتاباً في تاريخ الفينيقيين قائلاً إنه ترجمة لكتاب وضعه سنكونياتون البيروتي، على أن بعض ائمة العلم في هذا العصر يرون إن كلمة سنكونياتون منحوتة من ثلاثة الفاظ فينيقية، فذهبوا إلى أن كتاب فيلون مجموع من تقليدات عديدة المصادر، وقد بقي لنا في كتاب اوسابيوس في الاستعداد الانجيلي فقر من ترجمة فيلون أو تأليفه المنسوب إلى سنكونياتون، وقد كتب فيلون ايضاً مقالة في تاريخ الملك ادريان لكنها لم تبلغ إلى ايامنا. وقد جمع فقرات فيلون العالم اورليّ وطبعها في لبسيك سنة ١٨٢٦م واثبتها مولر بين فقر التاريخ اليونانية كما ترى في المكتبة اليونانية التي طبعها ديودت سنة ١٨٤٩م. وقد ذكرنا في عدد ١٤٤ من تأليفنا هذا إن فيلون الجبيلي كان في ايام خلفاء اسكندر، لكننا الآن نرجح قولنا هذا على قولنا هناك.

وذكر رنان في بعثة فينيقية (صفحة ٢٠٧) عالماً آخر في جبيل كان في هذا القرن اسمه اسباسيوس وكان خطيباً ومؤرخاً، ووجد مدفن عليه خط كتب فيه هذا الاسم لكنه قال إن صاحب المدفن كان في ايام اغوسطوس وهو الذي بنى هيكلاً في بلاط في جنوبي جبيل، واسباسيوس هذا كان في ايام ادريان.

القسم الثاني

التاريخ الديني في القرن الثاني

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم وبعض الأساقفة في سورية في هذا القرن

عد ٥٣٢

بطاركة انطاكية في القرن الثاني

قد مرّ في عد ٥١٨ ذكر بطاركة انطاكية في القرن الأول وهم القديس بطرس الرسول، والقديسان اوديوس واغناطيوس، وقد خلف اغناطيوس هرون سنة ١٠٧م على الرأي العام وعن الحواشي التي علقها السيدان ابلوس وتوما لامي على تاريخ ابن العبري. إنّ المؤرخين ليسوا على وفاق في السنة التي استشهد بها اغناطيوس، واقيم هرون مكانه، فقال ايليا النصيبيني إنَّ استشهاد اغناطيوس واقامة هرون مكانه كانا سنة ٤٢١ يونانية التي توافق سنة ١١٠ أوسنة ١١١ للتاريخ المسيحي. وقد ذكر هرون هذا اوسابيوس في تاريخه (ك٣ فصل٣٦ وك٤ فصل٢٠؟). وروى في الكرونيكون أنه استمر على الكرسي الانطاكي عشرين سنة. وقال ابن العبري في تاريخه المشار اليه إنَّ هرون هذا كان في ايام بلينوس الثاني الذي قتل كثيراً من المسيحيين، ولما هاج الشعب عليه كتب إلى ترايان قائلاً في المسيحيين: «إنَّ هؤلاء فضلاً عن انهم لم يسجدوا للاصنام يبكرون كل يوم فيسجدون للمسيح بمنزلة آله على اننا لم نجد فيهم شراً، فانهم ينهون عن القتل والسرقة وما اشبه». فامر ترايان أنّ لا ينقب على هؤلاء المسيحيين وإذا شكوا نُظر في امرهم.

وخلف هرون كرنيليوس وذكره اوسابيوس في الكرونيكون، وفي تاريخه ك٤ فصل٢٠، وفي الحواشي المشار اليها نقلاً عن ايليا النصيبيني أن كورنيليوس رقي إلى الكرسي الانطاكي سنة ٤٤٢ يونانية توافق سنة ١٣١ أو سنة ١٣٠ مسيحية. ويظهر من الكرونيكون إنه استمر في البطريركية ثلاث عشرة أو اربع عشرة سنة لأنه جاء فيه أن اورس خليفته صير بطريركاً سنة ١٤٣م. وقال ابن العبري إنه ظهر في زمان كورنيليوس هذا في قرنثية رجل هرطوقي اسمه كرنيتوس، كان يتباهى أن الملائكة ظهروا له في الرؤيا، وانبأوه بانه سيكون بعد القيامة ملك للمسيح على الارض يتنعم فيه الناس الف سنة بالمآكل والمشارب والزواج.

وخفّ كرنيليوس اورس ذكره اوسابيوس ك٤ فصل٢٠ وقال في الكرونيكون إنّه استمر في البطريركية ثماني وعشرين سنة، وحيث إنه اقيم بطريركاً سنة ١٤٣م فتكون وفاته سنة ١٧١م. وسماه ابن العبري اودس، وقيل في حواشيه يظن أن هذه التسمية زلّة من قلم الناسخ لأن عامتهم تسميه اورس، وكذا رواه ديونسيوس بن صليبا على ما روى السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد٣ صفحة ٣٢٣.

وخلف اورس تاوافيلوس سنة ١٧١م وقد ذكره اوسابيوس في المحل المذكور، وروى في الفصل ٢٤ أنه بقي من كتبه ثلاثة كتب تنطوي على رسوم الايمان وله كتاب آخر في رد هرطقة هرموجانوس اورد فيه شهادات من رؤيا يوحنا، وله كتب اخرى تشتمل على شرح مبادىء ايماننا. وذكر له هذه الكتب القديس ايرونيموس في جدول المؤلفين البيعيين، وزاد عليها أنه كتب مقالات موجزة بليغة في تهذيب الكنيسة. وقال قرأت كتاباً في تفسير الاناجيل وسفر الامثال معزواً اليه ويظهر لي أنه منحط في فصاحة عبارته عن كتبه الاخرى. (عن لاكويان في بطاركة انطاكية في مجلد٣ من كتابه المشرق المسيحي). وذكر ابن العبري ايضاً أنه وضع كتباً تؤيد الايمان الكاثوليكي، واقام في البطريركية ست سنين على ما في الكرونيكون إذ ورد فيه أن خلَفَه مكسيمينوس صُير بطريركاً سنة ١٧٧م. وسيأتي من كلام لاكويان أنّ خلَفَه رُقي إلى البطريركية سنة ١٨٦م فيكون اقام في البطريركية ١٥ سنة.

وخلف تاوافيلوس مكسيميتوس على ما سماه اوسابيوس (ك٤ فصل٢٤) ولاكويان في المحل المذكور. وسماه ابن العبري مكسيموس، وقال إنه بقي في البطريركية ثماني عشرة سنة. قال لاكويان إنه رُقي إلى كرسي انطاكية على ما روى اوسابيوس في الكرونيكون سنة ١٧٧م، ويظهر لي أن الصحيح أنه رُقي إلى الاسقفية

سنة ١٨٦م. وحيث إنّ اوسابيوس يقول إنه استمر في البطريركية ثلاث عشرة سنة فتكون وفاته سنة ١٩٩م، وعلى ما في الكرونيكون سنة ١٩٠م. قال ابن العبري: «وقد ظهر في زمانه يوستوس (الصحيح يوستينوس فهو زلّة من النساخ) الفيلسوف المسيحي من نابلس، ومضى إلى رومة فقدم محاماة للدين المسيحي ولما تدبر انطونيوس الملك حججه اوقف الاضطهاد عن المسيحيين وقد اشرنا قبلاً إلى ذلك.

وخَلَف مكسيمينوس سرابيون قال لاكويان في المحل المذكور ما ملخصه: «روى اوسابيوس في الكرونيكون أنه صُير بطريركياً في السنة الحادية عشرة للملك كمود أي سنة ١٩٠م واستمر بطريركاً ١٢ سنة (في تاريخه ك٥ ف١٩). وذكر تآليفه لا سيما رسائله ضد ابولينار والكتافريجيين، وانتحل القديس ايرونيموس قوله على علاته لأن الصحيح إنه رُقي إلى كرسي انطاكية في السنة السابعة أو الثامنة لسبتيموس ساويروس، وهي سنة ١٩٩ أو سنة ٢٠٠م لا في السنة الحادية عشرة لكمود. وجاء في جدول بطاركة انطاكية المنسوب إلى نيكوفورس القسطنطيني: إنَّ سرابيون استمر في البطريركية احد وعشرين سنة، وإنه في ايامه اجتمع الاساقفة في أورشليم في مسألة الخلاف على تعييد الفصح التي سنأتي على ذكرها. ومما مرّ يظهر اختلاف الاقوال في سنة اقامة هؤلاء البطاركة وسني تدبيرهم البطريركية، ولا يمكن تحقيق احد هذه الاقوال أو ترجيحه، والامثل الاعتماد على ما رواه اوسابيوس، والقديس ايرونيموس لقربهما من عصر هؤلاء البطاركة ولمزيتهما في التدقيق.

عد ٥٣٣

بطاركة أورشليم في القرن الثاني

مرّ في عد ٥١٨ أن يعقوب الرسول خلفه سمعان الشهيد الذي انتقل إلى ربه سنة ١٠٧م وكان الثالث من اساقفة أورشليم يوستوس ويسمى يهوذا ايضاً. على أن الاكثرين أن علمه يهوذا ويوستوس وصف له لأن تأويل الكلمة باللّاتينية البار أو العادل، وقد رُقي إلى الاسقفية بعد استشهاد سمعان سنة ١٠٧م. واقام فيها ثلاث سنين على ما يستلمح من رواية اوسابيوس في الكرونيكون، لأنه ذكر قيامة خليفته في سنة ١١٠ أو سنة ١١١م. وقوله هذا احق بالاتباع من زعم من قالوا إنه استمر في البطريركية ١٧ سنة أو ٧ سنين. وجاء في كلام مكملي كتب البولنديين إنه يهودي اصلاً، وبار فعلاً وإنه آمن بالمسيح عند سماعه انذار يعقوب الرسول، وعمده

سالفه سمعان، ورد كثيراً من اليهود والامم بانذاره وآياته. وذكر هؤلاء أن موته سعيداً بالرب كان سنة ١١٣م.

وخلفه ذكا أو زكريا وهو الرابع من هؤلاء البطاركة والخامس طوبيا، والسادس بنيامين، والسابع يوحنا، والثامن ماتيا أو متى، والتاسع فيلبوس. وقد جاء في الكرونيكون عداد اسمائهم على هذا النمط، ويظهر من كلامه أن اسقفيات هؤلاء لم تدم إلاّ إلى سنة ١٢٤م، إذ ذكر أن خليفة فيلبوس رُقي إلى كرسيه سنة ١٢٤م.

قال اوسابيوس في الكتاب المذكور في تاريخ سنة ١٢٤: «اقيم على كرسي أورشليم بعد فيلبوس الذي هو التاسع سينكا وهو العاشر، ومن بعده يوستوس وهو الحادي عشر ثم خلفه لاوي وهو الثاني عشر، ثم افرس أو افرام وهو الثالث عشر، ثم يوسا أو يوسف وهو الرابع عشر، ثم يهوذا وهو الخامس عشر. وهؤلاء جميعاً كانوا من ابناء الختان أي يهوداً، واستمروا إلى حين خراب ادريان أورشليم». وكان هذا الخراب في سنة ١٣٤ أو سنة ١٣٦م على ما روى لاكويان عند ذكر هؤلاء البطاركة، وقد مرّ ما قاله القديس ايرونيموس من أنه حُظر من ذلك الزمان على اليهود أن يدخلوا إلى أورشليم، فتشتتوا في كل صقع. وقال اوسابيوس في ك٤ من تاريخه فصل: «وامّا كم سنة اقام كل من هؤلاء الاساقفة في أورشليم فلم استطع أن اجده في محل، وكل ما ذكروه أن كلاً منهم اقام مدة وجيزة، وما عرفته من آثار المؤلفين القدماء انما هو أنه قام على اسقفية أورشليم خمسة عشر اسقفاً متخلفاً احدهم للآخر إلى أن خرّب ادريان أورشليم وشتت اليهود، وكان هؤلاء الاساقفة جميعاً عبرانيين متشبثين بعرى ايمان المسيح خير تشبث، حتى اثبت من هم اهل للحكم بهذه الامور انهم كانوا على غاية الاهلية للاسقفية. وكان جميع المؤمنين في كنيسة أورشليم حينئذٍ من اليهود، واستمروا فيها من ايام الرسل إلى خرابها الذي اشرنا اليه، وكان هؤلاء الاساقفة جميعاً من ابناء الختان». ثم عد هؤلاء الاساقفة في تاريخه كما روينا عن الكرونيكون، ويؤخذ من كلام ايفان في هرطقة ٦٦م أن يهوذا الاخير من هؤلاء الاساقفة بقي حياً إلى السنة الحادية عشرة من ذلك من ملك انطونيوس بيوس وهي سنة ١٤٨م.

وخلف يهوذا المذكور مرقس وهو السادس عشر ذكره اوسابيوس في الكرونيكون مبيناً أن ارتقاءه إلى الكرسي كان سنة ١٣٧م إلى ال٢٠ لادريان إذ قال وكان اول اسقف في أورشليم من الامم مرقس، واستمر ١٦ سنة فتكون وفاته

سنة ١٥٣م. ولكن روى تلمون (مجلد٢ من تاريخ الملوك) إن ترقيته إلى الاسقفية كانت سنة ١٣٣م وأنه استمر في البطريركية إلى سنة ١٦ لانطونينوس وهي سنة ١٥٣ للميلاد، فيكون الخلاف في سنة ارتقائه والوفاق في سنة وفاته، وهو محسوب بين القديسين، وتعيد الكنيسة الرومانية لذكره في ٢٢ تشرين الأول.

وخلفه كسيانوس وهو السابع عشر ثم بوبليوس وهو الثامن عشر، وخلفه مكسيموس وبعضهم يسميه مكسيمينيانوس أو مكسيمينوس وهو التاسع عشر، ثم يوليانوس وهو العشرون، ثم غايانوس وهو الحادي والعشرون، ثم سيماخوس وهو الثاني والعشرون، ثم غايوس وهو الثالث والعشرون، ثم يوليانوس وهو الرابع والعشرون، ثم اغابيطس وهو الخامس والعشرون. كذا ذكر هؤلاء اوسابيوس في الكرونيكون في تاريخ سنة ١٦١م، وكذلك ذكرهم في الكتاب الخامس من تاريخه فصل١٢ قائلاً إنَّ سلسلة هؤلاء الاساقفة كانت محفوظة في خزائن كنيسة أورشليم، ويظهر من كلامه أن اغابيطس الاخير من هؤلاء بقي إلى سنة ١٨٥م، وفي تاريخ بارونيوس أنه ادركته الوفاة سنة ١٨٧م.

ثم خلف اغابيطس مكسيموس الثاني وهو السادس والعشرون، ثم انطونينوس وهو السابع والعشرون، ثم والس وهو الثامن والعشرون، ثم دولكيانوس وهو التاسع والعشرون، ثم نرسيس وهو الثلاثون، ثم ديوس وهو الحادي والثلاثون، ثم جرمانيوس وهو الثاني والثلاثون، ثم كرديانوس وهو الثالث والثلاثون، ثم نرسيس ثانية وهو الرابع والثلاثون. وكذا ذكرهم اوسابيوس في الكرونيكون وقال إننا لم نستطع أن نعلم مدة اقامة كل من هؤلاء الاساقفة في أورشليم. فاننا لم نجد ذكراً في محل بطريركيتهم. وذكر ابيفان هؤلاء الاساقفة في كلامه في البدعة ٦٦ مع بعض الخلاف لما يتحصل من كلام اوسابيوس عن سني حبريتهم. وقال اوسابيوس (في تاريخه ك٥ فصل١٢) في نرسيس إنه كان رجلاً فاضلاً اشتهر في خطبه حتى ايامنا. ثم قال فيه (ك٦ فصل٩) ما ملخصه: «إنّه ثار عليه قوم حسد وبغضاء له وتجنو عليه بتُهم فاضحة، واتوا بشهود زور عليه حلف كل منهم عند اداء شهادته سائلاً الله إن يبليه بالحريق أو الوباء إن كان كذب. فإنكاد نرسيس واعتزل لا يدري احد محله واصاب كلاً من الشهود ما طلبه لنفسه. وخلف نرسيس في هذه المدة ديوس وجرمانيوس وكرديانوس، ثم ظهر نرسيس فارغمه المؤمنون على العودة إلى اسقفيته فعاد اليها، وعقد مع توافيلس اسقف قيصرية وغيره مجمعاً للبحث في

مسألة يوم تعييد الفصح سنة ١٩٨م، واستمر في الاسقفية إلى سنة ٢١٢م، وعلى رواية ابيفان إلى سنة ٢٢٢م. وقد بلغ من العمر ١١٦ سنة.

عد ٥٣٤

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن الثاني

قلما بقي لنا في حطام المؤلفين القدماء من ذكر الاساقفة في سورية في القرون الثلاثة الأولى، واما في القرن الرابع وما يليه فيتيسر لنا العلم بكثير منهم بالاطلاع على تواقيعهم في المجامع التيبلية أو الاقليمية الكاثوليكية والاراتيكية، ومن نعرفهم من اساقفة سورية في هذا القرن الثاني توافيلس أسقف قيصرية فلسطين. فقد انبأنا اوسابيوس (في تاريخه ك٥ فصل٢٥) إذ قال في مسألة يوم تعييد الفصح: «اما اساقفة فلسطين الذين ذكرناهم أي نرسيس (رئيس اساقفة أورشليم) وتوافيلوس (اسقف قيصرية) ومعهم كاسيوس اسقف صور وكلاروس اسقف بتلمايس (عكا)، ومن اجتمع معهم من الاساقفة، فبعد إن تفاوضوا في التقليد الذي تلقوه من ايام الرسل بسلسلة كتبوا رسالة ضمنوها اموراً كثيرة واختتموها بقولهم: «اجتهدوا في أن تذيعوا رسالتنا في جميع الكنائس لئلا يعزو الذنب الينا من يسهل لهم الزيغان عن جادة الحق، ولكي يعيد عيد الفصح في اليوم الذي يعيد في الاسكندرية، وقد تبادلت الرسائل بيننا وبين رؤساء المؤمنين هنالك». وسنأتي بالتفصيل الكافي لهذا المبحث.

ثانياً كاسيوس اسقف صور، وثالثاً كلاروس اسقف عكا، وهما اللذان ذكرهما اوسابيوس في قوله الآنف ايراده، رابعا اغابيطس اسقف دمشق جاء ذكره في الكتاب الموسوم بسورية المقدسة للعلامة بياجيوس ترسبي، إذ قال واما الرعاة الذين ائتمنوا على رعية هذه الكنيسة (الدمشقية)، فأول من ذكره المؤلفون بعد حننيا إنما هو اغابيطوس تلميذه، خامساً تاوادوطس اسقف بعلبك إذ جاء في الكتاب المذكور عن توادورطس إنَّ افدكسية الامرأة الشريفة من بعلبك هذبها في مبادي الايمان، ومنحها سر العماد المقدس توادوطس اسقفها في السنين الاخيرة من ملك ترايان الملك. سادساً ابوليناريس اسقف ايرابوليس قد ذكره كثيرون ومنهم اوسابيوس في تاريخه في محال عديدة وعدّد تآليفه (في ك٤ فصل٢٧) إذ قال عزا اليه كثيرون كتباً عديدة ولكن ما بلغ الينا منها انما هو محاماة المسيحيين التي رفعها إلى الملك فاروس انطونينوس، وخمسة كتب ضد الامم وكتابين في الحقيقة وكتابين ضد

اليهود إلى كثير غير ذلك لا سيما ما كتبه رداً على الهراطقة الكتافريجيين، على أن ابوليناريوس هذا لم يتحقق لنا اكان اسقفاً في ايرابوليس التي في شمالي سورية الواقعة في محل كركميش مدينة الحثيين، ام كان اسقفاً في ايرابوليس التي هي في فريجيا في آسيا الصغرى، والارجح الثاني. فهؤلاء من تيسر لنا عرفانهم من الكتب القليلة التي وصلت اليها يدنا لا سيما كتاب المشرق المسيحي للاكويان المرسوم بسورية المقدسة لباجيوس ترسي.

الفصل الثاني

من نعلمهم غير هؤلاء من المشاهير الدينيين في سورية في القرن الثاني

عد ٥٣٥

القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد

ولد هذا القديس في سنة ١٠٣م في مدينة نابلس واسم ابيه برسكس باكوس، وكان اولاً وثنياً متضلعاً في الفلسفة على مذهب افلاطون، وخبيراً في مذاهب باقي الفلاسفة، وكان له نديم مسيحي ذكره ولم يسمه، فارشده إلى الفلسفة الحقيقية وانكب على مطالعة الاسفار المقدسة، ونبوات الانبياء فتَنصّر، وتعَمّد في سنة ٣٠ من عمره ثم اتى إلى رومة، وافتتح مدرسة للفلسفة المسيحية، ورفع حينئذٍ إلى الملك انطونينوس بيوس عريضة يدافع بها عن المسيحيين لخصنا بعضها عد ٥٢٥ عند الكلام في الاحداث التي كانت في ايام هذا الملك، ثم اتى من رومة إلى آسيا الصغرى. وبينما كان في افسس صادف فيها تريفون اليهودي مع جماعة من اصحابه اليهود، وتعرف على القديس يوستينوس وكان بينهما الجدال المثبت في تآليف هذا القديس، ويظهر منه أن يوستينوس افحم تريفون بحقيقة مجيء المسيح وصحة الدين المسيحي حتى ابكمه وجماعته، لكنهم كابروا واصروا على غيهم، ثم

عاد إلى رومة وكان فيها حينئذٍ كراشان الفيلسوف الشهير بخلاعته وبخله، والذي كان مع ذلك متزلفاً إلى مرقس اورليوس، واخذ يناصب القديس يوستينوس ويعنفه فاستدعاه القديس إلى جدال مشتهر بحضرة عدد عديد من الشهود، فافحمه القديس بحججه الراهنة وبيناته الدامغة حتى تبين للشهود أنه لم يعد لكراشان مناص من أن يقر اما بانه يجهل تعاليم المسيحيين اما بانه معاند مكابر. ثم استؤنف هذا الجدال مرات. ورفع حينئذٍ القديس عريضة محاماته الثانية للمسيحيين إلى الملك مرقس اورليوس والندوة والشعب الرومانيين، وعرض فيها بذكر جداله مع كراشان.

لم تكن هذه المحاماة الثانية اقل فصاحة أو بلاغة من محاماته الأولى، ومما قاله فيها: «رب قائل يقول لنا إن كنتم تتوقفون إلى لقاء آلهكم وابيكم فانتحروا واكفونا شرّكم واريحونا منكم، فانا أُبين لِمَ لا نصنع هذا؟ ولِمَ إذ سئلنا جاهرنا علانية بايماننا. فالله خلق العالم ليكون مسكناً للجنس البشري، ولا يمكن أن تستوي لديه تعالى اعمالنا، فهو يحب من يصنع خيراً، ويثني من يصنع الشر، فان قتلنا انفسنا كنا مخالفين لارادة الله، ونكون ساعدنا على ابادة النوع البشري، ومنعنا الانتفاع بنا لمعرفة الحق والتعاليم الآلهية، فنحيا ونموت إذاً لنشهد للحق إذا سئلنا عنه، ولنردكم عن سؤ معتقدكم، وجوركم إن امكن. ومن اقواله فيها: «لا يحسبنّ احد ما نقوله عن النار التي تعذب الاشرار كلاماً باطلاً وتهويلاً، لأنه إذا لم يكن جحيم فلا يكون اله أو يكون الاله غير مميز بين الخير والشر، ومن كان كذلك لم يكن الهاً ثم لا تكون فضيلة ولا رذيلة، ويكون المشترعون جائرين بمعاقبتهم من يخالف الشرائع العادلة». إلى أن يختتم هذه المحاماة بقوله: «نسألكم أن تذيعوا محاماتنا هذه واردفوها بما شئتم من الحواشي والشروح، ليعلم غيركم ما نحن، ويتاح لنا التملص من هذه الاوهام الكاذبة التي تجعلنا عرضة للعذاب. ففي الطبيعة البشرية نفسها القوة على التمييز بين ما هو صالح وما هو سيء، ولا يعلم الناس اننا ننبذ مثل هذه التهم التي يتمحلونها لنا، واننا لذلك نزدري آلهتهم الذين يعزون اليهم شراً من الفظائع التي يعزونها الينا. وإذا امرتم بذلك عرضنا على اعين الجمهور حقائق معتقدنا ليرعووا عن ضلالهم إن امكن، وهذا جلّ غرضنا مما نكتبه. فتعليمنا إذا تدبره ذو ذوق سليم لم يلقه معيباً بل بقضي بانه ارفع من كل فلسفة بشرية، ولا اقل من أن يكون احسن كثيراً مما يكتبه الابيكوريون. ومن الاشعار المملؤة سفاهة والروايات الدنِسة التي تمثل ويقرأها كثيرون بحرية تامة». ومما قاله في هذه المحاماة إنه يتوقع يوماً فيوماً الموت

محروقاً حياً أو مطروحاً فريسة للوحوش بمكائد الفلاسفة ولا سيما كراشان.

وجاء في قصة استشهاده الموثوق بصدقها أن والي رومة المسمى روستيك قبض على يوستينوس مع غيره من المسيحيين، ولما مثلوا لديه حرَّض يوستينوس اولاً أن يطيع الآلهة ويذعن لاوامر الملوك، فاجابه القديس إنَّ من يطيع وصايا مخلصنا يسوع المسيح لا يعاب ولا يشجب، وإن شجب وابسل في هذه الحياة فله حياة خالدة في الاخرى. فسأله الوالي اين يجتمع المسيحيون، فاجابه القديس كل يجتمع حيث اراد أو حيث استطاع فاله المسيحيين ليس بمتحيز في مكان بل هو غير منظور، ويملأ السماء والارض فيسجد له المؤمنون في كل مكان ثم التفت الوالي نحو رفقائه يسأل كلاً منهم أأنت مسيحي؟ فيجيبه نعم بنعمة الله، وبعد أن افرغ جهده على غير طائل ليحملهم على الجحود، ورأى الثريا اقرب من ذلك منالاً حكم عليهم بالجلد اولا ثم بالموت، فقيدوا إلى محل العذاب وهم يترنمون بالتسابيح لله إلى أن قطعت رؤوسهم سنة ١٨٥م، وعلى رواية سنة ١٦٨م. ويعيد لذكر يوستينوس في ١٣ نيسان. واسماء رفقاء القديس يوستينس خريطون واولبيست وهياركس وبيون وامرأة اسمها كاريتان.

قال اوسابيوس (ك٤ فصل١٨ من تاريخه) قد خلف لنا هذا القديس تآليف عديدة ذات فوائد عظيمة، ومما اتصل الينا العلم به من هذه الكتب محاماته عن المسيحيين التي رفعها إلى الملك انطونينوس بيوس، ثم محاماته الثانية لهم التي رفعها إلى الملك انطونينوس فاروس، وله تأليف آخر يرد به مزاعم الامم، جمع به مباحث عديدة مما استطرق الفلاسفة الوثنيون والمسيحيون المناضلة به، وله كتاب آخر ضد الامم سماه الرد أو التنفيذ. وقد اتصل هذا الكتاب الينا وله سفر آخر في ملكوت الله جمع فيه لاثبات غرضه شهادات الاسفار المقدسة بل شهادات المؤلفين الوثنيين ايضاً، وسفر آخر موسوم بالمرتل وصاحب الزبور وكتاب آخر في النفس اورد به ايضاً آراء الفلاسفة الوثنيين، ووعد بانه سيكتب كتاباً آخر يرد به مزاعمهم المخالفة لرأيه، وله ايضاً جداله مع تريفون اشهر يهود عصره ابان فيه ارتداده بنعمة الله إلى الايمان المسيحي، وانكبابه قبل ذلك على درس الفلسفة، وجده في البحث عن الحق. واوضح ايضاً أن اليهود حرفوا وحذفوا واختلقوا اموراً كثيرة عن المسيح والمسيحيين. وقال في هذا السفر ايضاً إن موهبة النبوة ما زالت في الكنيسة إلى ايامه، واورد شاهداً لذلك رؤيا يوحنا، والاوحية التي كانت اليه، وصرح بان يوحنا الرسول كتب هذا السفر وله اسفار اخرى تتداولها ايدي المؤمنين عندنا. وكان

لكتبه عندهم منزلة رفيعة من الاعتبار والتوقير، وقد اعتمد ايريناوس على كثير من اقواله مستشهداً به. فهذا ملخص ما جاء به اوسابيوس في الفصل المذكور.

وعد نطاليس اسكندر تآليف هذا القديس والفيلسوف الشهيد ومحاماتيه الأولى والثانية، وكتبه ضد الامم، وكتابه في ملكوت الله وكتابه الموسوم بالمرتل أو صاحب الزبور، وكتابه في النفس. وقال في هذه الكتب الثلاثة الاخيرة إنَّ الدهر حسدنا عليها فاضاعها بحدثانه وجداله مع تريفون. وهو مثبت بين كتبه، وكتابه في رد مزاعم مرشيون وقد ذكره القديس ايريناوس في كتابه الخامس ضد الهراطقة، ثم كتابه في تنفيذ جميع الهرطقات وقد ذكره يوستينس نفسه في محاماته الأولى. على أن هذه التصانيف الاخيرة لم تسلم من توب الدهر. وقال إنَّ القديس ايرونيموس ذكر كتب يوستينوس هذه ايضاً في كتابه في مشاهير المؤلفين البيعيين، وعد كتباً اخرى كثيرة تعزى إلى هذا القديس، لكنه اثبت أن نسبتها اليه غير صحيحة. وقد طبع ما بقي من كتب يوستينس في اليونانية واللاتينية في باريس سنة ١٧٤٢م وطبعها اخيرا اطو في يانه سنة ١٨٤٧ أو سنة ١٨٥٠م وقد ترجمها حديثاً إلى الافرنسية الابوان شانو وكورسي. وللسيد فريبل الافرنسي مقالة ضافية الذيول في القديس يوستينس اذاعها في باريس سنة ١٨٦٠م.

عد ٥٣٦

غير يوستينوس من العلماء في سورية في هذا القرن

إنَّ من العلماء في سورية بهذا القرن تاسيان وكان تلميذاً للقديس يوستينوس وفيلسوفاً افلاطونياً، ولد في سورية سنة ١٣٠م على ما في المعجم التاريخي الجغرافي لبويليا (في طبعته الحادية والثلاثين)، ثم تنَصر وكتب كتاباً عنوانه خطاب لليونان، ونشره جسنر سنة ١٥٤٦م ثم اطو سنة ١٨٥١م في يانه. على أنه بعد موت القديس يوستينوس توحل بغوايات النيوستيكيين، وصار من رؤساء بدعة القنوعين الذين كانوا يمنعون من شرب الخمر وعقد الزواج. وقال فيه نطاليس اسكندر أنه كتب كتباً عديدة ولم يبق منها إلاّ كتابه في رد مزاعم الامم وهو معلق على تآليف القديس يوستينوس في المجلد الأول من مكتبة الآباء اليونانية اللاتينية. وقال فيه روهر بخر أنّه كان مستعداً للاستشهاد حباً بالمسيح على أنه لم ينل هذا الحظ. وروى أنه كان يقول: «اني لا اهتمام لي بان اكون غنياً، وآنف من تطلب

الكرامات في المناصب وانفر من الفحشاء، ولا اعرّض نفسي لاخطار البحر طمعاً بكسب المال، ولا اتوق إلى اكليل الابطال، ولا ابتغي المجد والشرف، ولا ابالي بالموت وانا مترفع عن الضجر من الامراض ولا تضنك بالحزن نفسي، ولو كنت عبداً لتحملت العبودية بصبر واذا كنت حراً فلا افتخر بحريتي». ومما قاله فيه هذا المؤرخ أنه الف كتاباً في توفيق الاناجيل دسّ فيه غوايات كثيرة، وإنَّ توادوريطس اسقف قورش وجد في ابرشيته نحو مئتي نسخة من هذا الكتاب فاتلفها، ومنع من استعماله. كان يظن أنَّ هذا الكتاب انقطع وجوده إلى أن عثر العلاّمة السمعاني على ترجمة عربية له في المشرق اتى بها إلى رومة.

وكان في هذا العصر ايضاً من المشاهير الدينيين توافيلس بطريرك انطاكية، وقد مرّ معنا ذكره، وعداد تآليفه في الكلام على بطاركة انطاكية، وكان بعده سرابيون من هؤلاء البطاركة ايضاً، وقد ذكرنا تآليفه نقلاً عن لاكويان. وقال نطاليس اسكندر (في الفصل الرابع من تاريخ القرن الثاني الجزء الخامس) إنه كتب رسائل إلى بنطس وكارينوس راداً هرطقة منتانوس وكتاباً ندد به بدمنوس لأنه انحاز إلى اليهود في زمان الاضطهاد، وكتاباً في الانجيل المنسوب إلى بطرس، انفذه إلى بعض المسيحيين الذين كانوا مالوا إلى الضلال بتلاوته، وذكر اوسابيوس (ك٦ من تاريخه رأس ١٠) بعض فقرات من كتابه. وذكره ايضاً القديس ايرونيموس بين المشاهير المؤلفين البيعيين فصل ٢٥.

وممن كانوا في هذا القرن القديس هجيسبس اصله يهودي فتنصر، وقد وُلد في القرن الأول إذ عده المؤرخون بين المؤلفين الذين كانوا في امد قريب من ايام الرسل وسموه الرجل الرسولي. وقال فيه اوسابيوس (ك٤ من تاريخه فصل ٨) إنه كان شهيراً بين المؤلفين، وقد اعتمدنا على شهادته متواتراً في كتبنا السابقة، واثقين به وباخباره في ايراد الاحداث التي كانت في زمان الرسل. فانه كتب تاريخ انذار الرسل في خمسة كتب بنفس ساذج». وقال فيه في كتابه المذكور (رأس ٢٢) أنَّ هجيسبس خلف لنا في اسفاره الخمسة التي بلغت الينا ادلة وشهادات واضحة لايماننا إذ كتب أنه عند سفَره إلى رومة شافه في طريقه كثيرين من الاساقفة وسمع من جميعهم تعليماً واحداً، وبعد أن ذكر شيئاً من رسالة اكليمنضوس إلى القرنثيين قال أن كنيسة القرنثيين استمرت على ايمانها إلى ايام بريموس اسقفها الذي تلقاني بالانس، وفاوضني ملياً إذ كنت مسافراً إلى رومة، واقمت اياماً عند القرنثيين نتبادل التعزية باستمساكنا بالايمان القويم. ولما اتيت رومة لبثت عند انيشاتوس الحبر اياماً،

وكان لديه شماس اسمه الوتارس، وبعد موت انيشاتدس خلفه سوتر ثم الوتارس هذا فقد بقي ثابتاً بتتالي الاساقفة في كل المدن ما ورد في السُنّة والانبياء، وما بشر به مخلصنا. ثم ذكر مبادي الهراطقة الذين كانوا إلى ايامه إلى أن قال اوسابيوس أنَّ هجيسبس كتب اموراً كثيرة اوردنا بعضها في محالها، وأنه اورد شهادات من انجيل العبرانيين السرياني، ومن اللغة العبرانية. ومن هذا يتبين واضحاً أنه كان من اليهود واعتنق الايمان المسيحي. انتهى كلام اوسابيوس. والظاهر من كلامه أنه كان في ايام الملك ادريان الذي كان على منصة الملك من سنة ١١٧م إلى سنة ١٣٨م. ويظهر منه ايضاً أن هجيسبس اقتداءً بفلاسفة اليونان الذين كانوا يطوفون في ايطاليا ومصر وغيرهما من اقاليم المشرق تجوَّل هو في سفره إلى رومة متفقداً الكنائس، ومستقصياً عن التقليدات التي عند اهلها ولكن جلّ غرضه من سفره كان أن يشخص إلى رومة مركز الدين من حيث تنبعث الانوار إلى جميع الكنائس. وفي اقامته في المدينة العظمى انكب على تأليف كتابه في خلافة الاساقفة لا سيما الاحبار الرومانيين من ايام بطرس إلى ايام انيشاتوس، ونأسف كل الاسف على فقدان كنز كتبه التي يظن أنه جمع فيها كل ما كان من الاحداث في الكنيسة منذ آلام المخلص إلى ايامه. ويعيد له في الكنيسة الرومانية في ٧ نيسان.

عد ٥٣٧

من عاصر العلماء المذكورين من العلماء غير السوريين

إننا نرغب في توفر الفوائد نلحق بذكر هؤلاء المشاهير في سورية من عاصرهم في غيرها بما يمكن من الايجاز لخروج الكلام فيهم عن دائرة غرضنا، فمن هؤلاء بابيا اسقف ايرابولس في فريجية. قال بعضهم أنه كان تلميذاً ليوحنا الرسول وهو غير صحيح، إذ قال اوسابيوس (ك٣ من تاريخه فصل ٣٩) إنه كان تلميذاً ليوحنا الشيخ أي الكاهن لا الرسول، الف خمسة كتب في تفسير خطب المسيح قائلاً أنه تلقى اقوال الرسل عمن عاشروهم. وقال إن القديس ايروناوس ذكر كتب بابيا هذه وقال إنه كان تلميذاً ليوحنا وصديقاً لبوليكربوس، على أن بابيا قال في مقدمة كتبه هذه إنه لم يكن تلميذاً للرسل ولا مشاهداً لهم بل اخذ ما كتبه عمن عاشروهم. انتهى كلام اوسابيوس ملخصاً. على أن كتبه المذكورة لم تبق منها عبر الايام إلاّ فقرات. ويقال: إنَّ الألفيين اخذوا منها مجالاً لزعمهم أن المسيح سيملك على

الارض بعد القيامة الف سنة. وقد توفي بابيا في سنة ١٥٦م وتعيد له الكنيسة الرومانية بمنزلة قديس في ١٢ شباط.

ومنهم كوادراتوس اسقف اثينا الف محاماة عن المسيحيين، ورفعها إلى الملك ادريان سنة ١٣٢م وذكره اوسابيوس (ك٤ من تاريخه فصل٤) وقال إن كتاب محاماته هذه تتداولها ايدي كثير من الاخوة. ولدينا نسخة منه وذكر منه فقرة قال فيها: «إنَّ اعمال مخلصنا كانت دائماً بينة ثابتة لأنها كانت حقيقية، فان من ابرأهم من الامراض أو اعادهم إلى الحيوة بعد الموت كان الجميع يرونهم، لا إذ برئوا أو قاموا من الموت بل بعد ذلك في زمان ايضاً، فان بعضهم استمر حياً في مدة تردد مخلصنا في الارض بل بعد صعوده إلى السماء ايضاً، بل بقي بعضهم حتى ايامنا». وقد ذكره ايضاً القديس ايرونيموس في جملة المؤلفين البيعيين، ووهم نطاليس اسكندر أن كوادوراتوس هذا غير كوادوراتوس اسقف اثينا على أن يوحنا منسي اصلح خطأه في حواشيه على كتاب تاريخه.

ومن هؤلاء ايضاً ارستيد وهو فيلسوف من اثينا اعتنق الدين المسيحي ورفع إلى الملك ادريان كتاباً دافع به عن المسيحيين سنة ١٢٥م. وقال فيه اوسابيوس (ك٤ فصل٣): «ارستيد الرجل الامين والمتشبث بعرى ديانتنا رفع إلى ادريان قيصر كتاب محاماة عن ايماننا. وهذا الكتاب تتداوله ايدي كثيرين». وقد ذهبت به الايام بعدئذٍ. ومنهم ميليتون اسقف سرد في آسيا الصغرى كان في ايام الملك انطونينوس فاروس، ورفع اليه كتاباً يدافع به عن المسيحيين ولم يبق منه إلاّ فقر ذكرها اوسابيوس في الكتاب الرابع من تاريخه فصل ٢٦ وعدد كتبه. فقال إنه كتب كتابين في الفصح وكتاباً في الانبياء، وطريقة الحياة بالاستقامة وكتاباً في الكنيسة وآخر في يوم الاحد وآخر في طبيعة الانسان، وكتاباً آخر في النفس والجسد والعقل، إلى غيرها من الكتب، وينسب اليه كتاب في انتقال العذراء ولكن اثبت نطاليس اسكندر أن هذه النسبة غير صحيحة.

وكان منهم ايضاً فيلبوس القورنثي ذكره القديس ديونسيوس القورنثي في رسالته إلى كنيسة اكريت، وقد كان في ايام انطونينوس فاروس والملك كمود وذكره اوسابيوس (في ك٤ من تاريخه فصل٢٤) والقديس ايرونيموس في جملة مشاهير المؤلفين البيعيين (فصل٤١).

ومنهم ايضاً ديونسيوس اسقف قرنثية الذي طار صيت فصاحته ومحبته للكنيسة كلها حتى كان يحسب اسقفاً عاماً بغيرته على جميع الكنائس، كاتباً رسائل عديدة إلى كثير منها، وقد عد له اوساييوس (ك٤ من تاريخه فصل٢٣) ثماني رسائل وذكر فِقر من بعضها. ويجدر بنا أن نروي ما ذكره من رسالته إلى الرومانيين: «قد استطرقتم العادة منذ بادىء بدء النصرانية أن تمدوا الاخوة جميعاً بانواع عديدة من الاحسان، وترسلوا إلى كثير من الكنائس المقامة في المدن ما تحتاج اليه من المساعدات... وسوتر اسقفكم الطوباوي لم يحافظ على هذه العادة فقط بل زاد فيها كثيراً موزعاً بسخاء الحسنات المعينة للقديسين، ومعزياً الاخوة المضنوكين بخطبه الغراء بمنزلة أب تناهى حبه لأولاده وتباً لغير الدهر التي حرمتنا فرائد تعاليمه».

ومن هؤلاء العلماء ايضاً اثيناغورا الاثيناوي موطناً، والفيلسوف المسيحي مذهباً، كان في ايام الملكين مرقس اورليوس وابنه كمود، ورفع اليهما كتاباً دافع فيه عن المسيحيين، شاكياً باسم نصارى بلاد اليونان ما يعانونه من الجور والاعتساف من قبل الحكام، وذكر روهر بخر قسماً كبيراً من هذه المدافعة، وكتب كتاباً آخر في قيامة الموتى مفحماً كل معاند في هذه العقيدة. وقد طبعت كتبه هذه بين كتب الآباء مراتٍ عديدة.

ومنهم ايضاف القديس ايريناوس ولد سنة ١٤٠م في آسيا الصغرى في ازمير أو ضواحيها، وتتلمذ للقديسين بابيا وبوليكربوس اسقف ازمير، ومضى إلى فرنسة نحو سنة ١٧٧م وكان كاهناً اولاً عند القديس يوتينوس اسقف ليون، وارسله إلى البابا الوتارس كما ذكر اوساييوس (في تاريخه ك٥ فصل٤) من قبل الشهداء الذين كانوا يقاسون في ليون العذابات المبرحة. ولما توفى القديس يوستينوس خلفه ايريناوس في كرسي ليون، ومما كتبه خمسة كتب رداً على الهراطقة قد دونها في اليونانية، ولكن لا يوجد منها في اليونانية إلاّ ثمانية عشر فصلاً من الكتاب الاول ذكرها ابيفان في هرطقة ٣١. وظن بعضهم أن القديس ايريناوس نفسه ترجم كتبه إلى اللاتينية، ولكنَّ نطاليس اسكندر خطّأ ظن هؤلاء بدليل أن القديس اغوسطينوس استشهد (في كتابه الاول ضد يوليانوس البيلاجي) بفقرتين من كتاب ايريناوس تختلف ترجمتها عن الترجمة المعروفة في ايامنا. ولو ترجم ايريناوس كتابه إلى اللاتينية لذكر اغوسطينوس كلماته. وقد قضى القديس ايريناوس شهيداً في ايام سبتيموس ساويروس نحو سنة ٢٠٢م وذكره القديس ايرونيموس بين

مشاهير المؤلفين البيعيين رأس ٤٦ واوسابيوس في تاريخه (ك٥ فصل٦).

ومنهم بنتانوس وكان فيلسوفاً من مذهب الرواقيين تنصّر وكان ضليعاً في علم الاسفار المقدسة مضطرماً في الغيرة على نشر الايمان، جال في امصار عديدة من المشرق حتى بلغ الهند، إذ جعله البطريرك ديمتريوس الاسكندري رسولاً للامم الشرقية، ثم صُير سنة ١٧٩م رئيس المدرسة المسيحية في الاسكندرية وكان من تلاميذه اكليمنضوس الآتي ذكره. وقال فيه اوسابيوس (ك٥ من تاريخه ف ١٠) ما ملخصه إنه كان شديد الغيرة على نشر الدين المسيحي حتى اتصل إلى الهند، وقد ذكرت أن كثيرين من المبشرين بلغوا إلى هناك، وإن بنتانوس وجد هناك انجيل متى مكتوبا بالسريانية، إذ كان انذر هناك برتلماوس احد الاثني عشر، وترك لهم على ما يقال انجيل متى مكتوباً بهذه اللغة، وبقي محفوظاً إلى تلك الايام. ثم عاد بنتانوس إلى الاسكندرية، وصُير رئيساً على مدرستها حيث كان يكشف عن كنز العقائد الالهية تارة بالكلام، وطوراً بالكتابة. انتهى كلام اوسابيوس وقد بقي بنتانوس حياً إلى سنة ٢١٦ ويعد من آباء الكنيسة، ويعيّد لذكره في ٧ تموز.

ومن هؤلاء ايضاً اكليمنضوس الاسكندري ولد وثنياً، وانكب على العلوم الفلسفية على مذهب افلاطون ثم تنصّر بارشاد القديس بنتانوس، وخلفه بالرياسة على المدرسة المسيحية في الاسكندرية. ولما ارغمه على تركها اضطهاد سبتيموس ساويروس مضى يبشر بالايمان في أورشليم وانطاكية والكبادوك، ويفحم الفلاسفة الوثنيين، ثم عاد بعد سنين إلى الاسكندرية مثابراً على جهاده في التعليم وتدبير المدرسة إلى أن لقي ربه سنة ٢١٧م. وكان جامعاً بين الفلسفة والعلوم فاستخدم الفلسفة للمدافعة عن الدين. ومن تآليفه كتاب في حضّ الوثنيين على الايمان وتفنيد الوثنية، ومؤلف انطوى على ثمانية كتب جمع فيه تعاليم شتى فلسفية ولاهوتية وتاريخية سماه باليونانية ستراماتس. ونرى أن نترجم الكلمة اليونانية باللفيف اشارة لجمعه اشياء مختلفة. ومما قاله فيه بهذا المعنى: «ليس كتابي كجنة غرست اشجارها منظمة بل هو اشبه بغابة حوَت كل نوع من الشجر على غير انتظام. وكتب ايضاً ثلاثة كتب عنونها بدكوكس أي المعلم ابان فيها لزوم المسيحيين بتعليم اولادهم، وكيفية التربية والاستسارة بالسيرة المسيحية في المأكل والمشرب والملبس وغيره، وندد بالتزين والزهو الباطل وافراط العناية في جمع المال. وكتب ايضاً ثمانية كتب سماها ايوتيوزون أي الارشادات ضمنها الآيات المشكلة في العهدين القديم والحديث، تعقبه

فوتيوس في كثير منها. ولكن قال روهر بخر: إن كتاب اكليمنضوس الذي امتدحه اوسابيوس وايرونيموس هي غير الكتاب الذي ندد به فوتيوس أو حرفه الهراطقة، ثم كتب كتاباً في الفصح، وآخر في الصوم وآخر في الحض على الصبر، وكتاباً للمعتمدين حديثاً وكتاباً في القوانين الكنسية رداً على من يتبعون ضلال اليهود، وكتاباً في من يلخص من الاغنياء، ذكر كل هذه الكتب اوسابيوس (ك٦ من تاريخه فصل ١٤). والباقي من كتبه انما هو الاولى أي الحض للامم وكتبه الثلاثة الموسومة بالمعلم، وكتبه الثمانية المعروفة باللفيف واحسن طبعة لكتبه انما هي طبعة بوتر باليونانية واللاتينية في اكسفورد سنة ١٧١٥م. وطبعة مين في مكتبة الآباء. وقد ترجم كتبه إلى الفرنسية جنود سنة ١٨٣٧م إلى سنة ١٨٤٣م وكان كثيرون يعتدونه قديساً بل وجد ذكره في بعض كتب تراجم القديسين معيداً له في ٤ كانون الاول على أن بناديكتوس الرابع عشر في مقدماته على كتاب تراجم القديسين لم يرَ من الصواب تبجيله بوصف قديس ولا ذكر له في كتاب تراجم القديسين الروماني.

ومنهم ترتوليانوس وقد ولد في قرطجنة سنة ١٦٠م وثنياً ثم تنصر وابانت لنا تآليفه العديدة الآتي ذكرها ما كان عليه من الفصاحة، وتوقد الذكاء، ومن الغيرة في المدافعة عن مذهبه المسيحي. وقد مضى إلى رومة سنة ٢٠٤م وشهد الملاعب البربرية التي تمثل بها، فحمله اشمئزازه منها على أن رفع إلى سبتيموس ساويروس مقالة ضافية الذيول يبين بها قباحة المشاهد، ومضارها بالآداب، ولكنَّ الاكليروس الروماني استهجن افراط صرامته. وعاد إلى قرطاجنة ولسوء البخت تشبث بغوايات منتانوس الاراتيكي. وبث في تآليفه غوايات اخرى كثيرة واصر عليها إلى أن توفي سنة ٢٤٥م. واما تآليفه فهي عديدة فمنها كتاب مدافعته عن التعليم المسيحي، وكتاب ضد اليهود، وآخر ضد مرقيون الاراتيكي، وآخر ضد براسيا الاراتيكي ايضاً، وكتاب في جسد المسيح، وآخر في قيامة الجسد، وكتاب سماه بروسكربسيون اعتادوا أن يترجموه في الكتب البيعية بلفظة استحلال، والاولى أن يسمى المنع من الدعوى، فتلك لفظة فقهية يراد بها أن الخصم لا يحق له الدخول بالدعوى مثلاً لمضي الزمان، أو لأنه لا يصلح خصماً. ويريد ترتوليانوس بها أن الهراطقة لا يحق لهم الدخول بدعوى مع كنيسة المسيح، إذ كانت قبلهم من ايام المخلص إلى ايامهم. وكتابين إلى امرأته، وكتاب في التحريض على العفاف، وآخر في المعمودية، وآخر في التوبة وكتاب في الصلوة، ومقالته في نبذ المشاهد، وكتاب في الوثنية

وفي اكليل الشهداء، وكتاب في زينة النساء إلى غيرها. والكنيسة تقبل وتعتمد كل ما كان منها كاثوليكياً وتنبذ كل ما كان من اقواله اراتيكياً. وكل ما بقي من كتبه طبع مرات واخيراً في طبعة الاب مين لمكتبة الآباء.

عد ٥٣٨

الشهداء في سورية في القرن الثاني

قد كان من الشهداء في سورية في مبدأ هذا القرن القديس اغناطيوس بطريرك انطاكية، والقديس سمعان بن حلفى اسقف أورشليم والقديس يوستينوس، وقد مرّ ذكرهم في كلامنا السابق. وجاء في الكتاب الموسوم بسورية المقدسة أنّ فيلون شماس كنيسة ترسيس، واغابيتوس شماس كنيسة انطاكية وشي بهما انهما اتبعا القديس اغناطيوس إلى رومة، واحضروا بعد استشهاده ذخائره إلى انطاكية فاقتادهما والي المدينة وأجرى عليهما اعذبة مبرحة حتى نالا اكليل الشهادة سنة ٢٠٩ في ايام ترايان الملك.

وكذا جرى على فوقا بطريق انطاكية فانه وشى به أنّه يهيج ويشجع المضطهدين فاستدعاه والي المدينة، واجرى عليه اعذبة متنوعة لقي ربه بها مكللاً باكليل الشهادة سنة ١١٤م. وجاء في الكتاب المذكور ايضاً صفحة ٨٢ نقلاً عن بروكوبيوس أنّ يوستينيانوس الملك اقام في طرابلس كنيسة عظيمة على اسم لاونسيوس القديس الشهيد الذي نال اكليل الشهادة في طرابلس مع ايباسيوس وتريبوتوس وتوادولوس في ايام الملك ادريان.

وقد نال اكليل الشهادة في اباميا القديسان غايوس واسكندر في ايام الملك انطونينوس، وقد جاء في هذا الكتاب المذكور في كلامه في دمشق أنه قد نال اكليل الشهادة فيها حننيا الذي عمد بولس الرسول، ويعتبره الشرقيون اول اسقف على دمشق، ثم استشهد فيها قيصر وداشيوس ورفقاؤهما الخمسة في اواخر سني نيرون الملك، ثم حاز اكليل الشهادة فيها في اوائل القرن الثاني بولس وتاتا امرأته مع اربعة من انسبائهم، وهم سابينيانوس ومكسيموس وروفوس واوجانيوس، ومن هؤلاء الشهداء في سورية القديسة اودكسية من بعلبك ذكرها توادوريطس بين الشهداء الذين فازوا باكليل الشهادة في بعلبك، وقال فيها إنها كانت امرأة شريفة

في المدينة المذكورة نالت سر العماد المقدس من يد تيودولوس اسقفها في اواخر سني الملك ترايان، وحازت اكليل الشهادة في الاضطهاد الذي جرى في ايام هذا الملك على المسيحيين.

ليس هؤلاء كل الشهداء في سورية في القرن الثاني بل من اتصل الينا العلم بهم من الكتب القليلة بين ايدينا، فان المسيحيين كانوا في صدر النصرانية عرضة للاضطهاد واول اضطهاد لهم اثاره شاوول بولس الذي صيره المسيح بعد ذلك الاناء المختار ونال اكليل الشهادة وقتئذٍ اسطفانوس اول الشهداء، وتشتت المسيحيون الذين كانوا في أورشليم كما يظهر من كتاب اعمال الرسل. والثاني اثاره هيرودس اغريبا وقتل فيه يعقوب الرسول، وسجن بطرس رئيس الرسل كما مرّ. والاضطهاد الثالث اثاره نيرون. وممن قتلهم فيه الرسولان بطرس وبولس. والرابع اثاره دوميسيان لا على المسيحيين فقط بل على اليهود من سبط داود ايضاً، إذ روى اوسابيوس (ك٣ فصل١٥ من تاريخه) عن هجيسب إنه قبض على انسباء يهوذا المسمى اخا الرب، وفي هذا الاضطهاد ألقى يوحنا الرسول في مرجل زيت يغلي في رومة ثم نفي إلى جزيرة بطمس حيث كتب رؤياه، ونال اكليل الشهادة كثيرون. والاضطهاد الخامس اثاره ترايان وقتل فيه كثيرون في جهات عديدة. ولما كتب بلين والي بيتيا حينئذٍ إلى ترايان أن المسيحيين يقتلون عفواً دون أن يخالفوا السنّة بشي. اجابه لا يلزم التنقيب عن هؤلاء. وممن نالوا اكليل الشهادة في هذا الاضطهاد القديس سمعان بن حلفى اسقف أورشليم، والقديس اغناطيوس اسقف انطاكية كما مرّ، وقد خمد جذوة هذا الاضطهاد الملك ادريان إذ كتب اليه احد عماله يشكو الجور الجاري على المسيحيين دون موجب فكتب الملك إلى والي آسيا آمراً أن لا يعاقب احد المسيحيين بالموت إلاّ إذا اثبت عليه المخالفة للسنّة كما يظهر من محاماة القديس يوستينوس التي اشرنا اليها. والاضطهاد السادس اثاره مرقس اورليوس ولوشيوس فاروس ونال فيه القديس بوليكربوس اسقف ازمير وغيره من هذه المدينة اكليل الشهادة كما هو بيّن من رسالة كنيسته إلى كنيسة فيلادلفيا وغيرها من الكنائس.

وقد روى اوسابيوس قسماً كبيراً منها في تاريخه (ك٤ فصل١٥). وفيه ايضاً حاز هذا الاكليل القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد كما رأيت. ومن الشهداء

في هذا الاضطهاد من ذكرناهم من شهداء سورية. ثم بوتينوس اسقف ليون في افرنسة وكثيرون غيره من اوجه هذه المدينة وكهنتها كما يظهر من رسالتي كنيستي فيانا وليون إلى كنيستي آسيا وفيجيا التي ذكرها اوسابيوس في الكتاب الخامس من تاريخه (فصل١ و٢ و٣) وسنأتي على ذكر باقي الاضطهادات.

عد ٥٣٩

ممن كان من المبتدعين في سورية في هذا القرن

اول هؤلاء شردون قال فيه نطاليس اسكندر إنه اتى من سورية إلى رومة على عهد البابا هيجينوس، واستشهد لذلك اوسابيوس في تاريخه (ك٤ فصل١٠) حيث قال ما ملخصه: «إنّ القديس ايريناوس روى أنه شخص إلى رومة في ايام البابا هجينوس والنتينوس المبتدع وشدرون منشيء غواية المرقيونيين. ثم ذكر اوسابيوس (فصل١٦) كلمات ايريناوس وملخصها: «إنّ والنتينوس اتى إلى رومة في ايام حبرية هيجينوس وبقي في زمان بيوس والي عهد انبشاتوس، واما شردون الذي تقدم مرقيون (وفي رواية اخرى الذي كان استاذ مرقيون) فاتى في ايام حبرية هجينوس ايضاً، واقر بضلاله لكنه لم ينفك عنه، وكان يبثه تارة خفية وطوراً يقر بانه ضلال ولذلك اقصى من جمعية الاخوة». أي حرم هذا ما قاله ايريناوس في كتابه الثالث رداً على البدع وقال فيه في كتابه الاول: «إن شردون شخص إلى رومة في ايام حبرية هيجينوس وعلم أن الله الذي أنذرت به السنّة والانبياء ليس هو ابا سيدنا يسوع المسيح لأن هذا معروف، وذاك مجهول وهذا عادل وصارم وذاك صالح ورحوم. ثم اتى بعده مرقيون من بنطوس مذيعاً ضلاله ومجدفاً شراً منه». انتهى ما رواه اوسابيوس عن ايريناوس. ومن اضاليل شردون انكاره أن المسيح ولد من العذراء، وزعمه أنه ظهر بشبه الناس فقط واهماً أن المسيح نزل من السماء ليزيل ملك خالق هذا العالم وجوره. روى ذلك ابيفان في بدعة ٤١ ولم يكن يسلم من الاناجيل إلا بانجيل لوقا حاذفاً منه بعض فصول، وكان ينبذ رسائل بولس كلها وكتاب اعمال الرسل، ورؤيا يوحنا. وقد ذكر هذا الهرطوقي القديس اغوسطينوس وقال إن القديس ابولنيوس اسقف قرنثية ردّ مزاعمه وحرمها في مجمع شرقي.

والثاني منهم والنتينوس ولا يعرف منشأه ولكن قال فيه روهر بخر إنّه كان هائماً في الحصول على اسقفية في قبرص، فأثار عليه الاهلون شخصاً قضى بعد ذلك شهيداً، فخنق والنتينوس ولحق بمذهب النيوستيكيين، وهم هراطقة شرقيون كانوا في هذا العصر ليسوا مسيحيين حقيقة ولا وثنيين حقاً بل كانوا يريدون أن يؤلفوا مذهباً جامعاً بين الوثنية والمسيحية، وان يوفقوا بين اقاصيص الآلهة وما جاء في الاسفار المقدسة، وكانوا يسمون انفسهم نيوستيكسسن أي مستنيرين وعلماء. فتابع والنتينوس هؤلاء على مذهبهم، وبعد أن بثه في مصر اتى رومة في ايام البابا هيجينوس كما مرّ مُظهراً أنه كاثوليكي، فقبل في شركة المؤمنين في رومة، ولكن افتضح ضلاله في ايام حبرية البابا بيوس، ونفى من الكنيسة فخرج من رومة محتدماً، واتى جزيرة قبرص واخذ يبث غواياته متمادياً فيها زاعما أن ثلاثين ايوناً (يريد بالايون روحاً متألهاً لكنه احط من الآله السامي آخذاً ذلك عن شعراء اليونان) خلقوا العالم وما فيه إلى غير ذلك من خزعبلاته، وكان يقسم الانسان إلى ثلاثة: ارضي وحيواني وروحي. ويقول أنه واهل بدعته من الروحيين.

والثالث منهم تاسيان وقد مرّ معنا ذكره في الكلام على علماء سورية، وإنّه كان تتلمذ للقديس يوستينوس وبعد موته جحد الايمان، وعلم غوايات منها أنه اخذ عن والنتينوس حكاية الايونيين، واعتبر الزواج بمنزلة فساد، ومنع من شرب الخمر لزعمه أنه يضاد القناعة، وحكم على آدم بانه هالك ولم يكن اتباعه يستعملون في مباشرة الاسرار منه إلاّ الماء فقط حتى سموا مائيين. والف انجيلاً من الاناجيل الاربعة واسقط منه نسب المسيح، وكل الآيات المؤذنة بانه من نسل داود. وقد ذكر اضاليله القديس ايريناوس (ك١ فصل٣١) واوسابيوس في تاريخه (ك١ ف٢٧)، والقديس أبيفان (في بدعة ٤٦ و٤٧ وتوادورويطس (ك١ في اقاصيص الهراطقة فصل ٢٠ وغيرهم).

والرابع برديصان السرياني نشأ في الرها (ارفه)، وكان شهيراً في الكنيسة بعلمه ومدافعته عن الايمان، وقال فيه اوسابيوس (ك٤ فصل٣٠) إنّه لما كثر عدد الهراطقة في ما بين النهرين عنى برديصان العلامة بلغته السريانية، والعدو الالد لمرقيون وغيره من اصحاب المذاهب المختلفة بان كتب كتباً عديدة في لغة وطنه ترجمها تلامذته (وقد كان له تلامذة كثيرون لأنه كان يدافع عن ايماننا) من اللغة السريانية إلى اللغة اليونانية، ومنها كتاب في المقدر انفذه إلى الملك انطونينوس وهو من الفصاحة والبلاغة على غايتها. ويقال أنه الف كتباً كثيرة يبين بها جور الاضطهاد الجاري في

ذلك الزمان على أنّه اتبع اولاً مذهبَ والتينوس ثم فند تعليمه، واثبت أنه ينطوي على اقاصيص كثيرة. والذي رآه من نفسه إنه سلك سراطاً مستقيماً لكنه لم يرحض تعليمه من فساد الضلال». انتهى كلام اوسابيوس، وروى القديس ابيفان إنّه انكر قيامة الموتى وقد فند اضاليله القديس افرام السرياني. وقال نطاليس اسكندر يأسف كثيراً على سقوط هذا الرجل العظيم لأنه افاد الكنيسة كثيراً بمصنفاته العديدة.

وكان في هذا العصر في غير سورية هراطقة كثيرون .منهم كربوكرات الاسكندري الذي زعم أن يسوع ولد من يوسف ومريم كباقي الناس، ولكن فاقهم فضيلة وحكمة منهم النيوستيكيون المار ذكرهم، ثم مرقيون من بنطوس واخصّ ضلاله أنه علِم بوجود الهين اله للخير، وآله للشر، وقد وجد ودنكتون في المحل المعروف الآن بدير علي على مسافة يوم من دمشق جنوباً خطاً يونانياً وهو ٢٥٥٨ من خطوطه كتب على معبد مقام على اسم هذا المبتدع سنة ٦٣٠ يونانية توافق سنة ٣١٨ للميلاد. وقال ودنكتون إن هذا الخط مهم لدلالته على اقامة معبد لأحدى البدع قبل اقامة معابد مشتهرة للمسيحيين لأن قسطنطين لم يكن سنة ٣١٨م تولى المشرق بل المغرب فقط، وكان ليشنسيوس حينئذٍ قابضاً على زمام ملك المشرق كله. ومن الهراطقة في هذا العصر منتانوس من فريجية في آسيا الصغرى. ومن اضاليله أنه جعل نفسه البارقليط الذي وعد المخلص الرسل به وحرم الزواج ثانية زاعماً إنه فسق، وفرض اصواماً اخرى زاعماً انها ضرورية للخلاص، ومنهم توادوطس من بيزنطية انكر المسيح في وقت الاضطهاد ولما ونبه المسيحيون قال إنّه لم ينكر آلهاً بل انساناً، فاخذ يعلّم بان المسيح انسان لم يولد من الآب منذ الازل. ومنهم ايضاً هابيل وكان تلميذاً لمرقيون ومن اضاليله أن ابن الله نزل من السماء فاخذ جسداً من العناصر الاربعة، ولما صعد إلى السماء رده إلى حيث اخذه. ومنهم مبتدعون يسمون الادميين كانوا في اجتماعاتهم يخلعون عذار كل حياء ويتعرون من ملابسهم زاعمين انهم يتشبهون بآدم، ويستبيحون الفحشاء. ومنهم هرموجانوس وكان من الفلاسفة الرواقيين، ومن اضاليله زعمه أن المادة غير مخلوقة ومساوية لله في الازلية. إلى غير هؤلاء من المبتدعين الذين لا اهمية لبدعهم.

خاتمة هذا الباب

عد ٥٤٠

المبحث الذي كان في كنائس سورية في يوم تعييد الفصح

لما كان اكثر المؤمنين في صدر النصرانية من اليهود اعتادوا أن يعيدوا الفصح والقيامة في اليوم الذي يعيّد فيه اليهود، ويظهر أن القديس بطرس عند اقامته كرسيه في رومة رأى أن يعيّد للقيامة يوم الاحد الذي قام فيه المخلص، فاستطرق المؤمنون في رومة واوروبا التعييد كما سلم اليهم الرسول، واما كنائس آسيا الصغرى وما جاورها فاستمروا يعيدون الفصح على عادة اليهود في اليوم الرابع عشر من مستهل نيسان أي يوم وقع من السبّة. وكثر البحث في هذا المعنى وتوفرت مكاتبات الاساقفة، وعقدت مجامع عديدة. ولما اتى القديس بوليكربوس اسقف ازمير إلى رومة بذل البابا انيشاتوس قصارى جهده ليقنعه بتعييد عيد الفصح كما تعيده كنائس رومة وغيرها، فما انفك القديس بوليكربوس متشبثاً بالعمل بعادة الآسيويين حرمة لما سلمه اليهم يوحنا الرسول، ولم يثلم السلم حينئذٍ بين البابا وهذا القديس. ويظهر من رسالة القديس ايريناوس إلى البابا فيكتور ليسترضيه عن اساقفة آسيا (المثبتة بين تآليفه).

إنّ سوتر والوتاروس خليفتي انيشاتوس عنيا كثيراً بيت هذا المبحث وأن سلفاءه وهم بيوس واوجينوس وتلسفور وسيتوس تسامحوا مع الآسيويين حرمة لما سلمه يوحنا الرسول وغيره من الرسل الذين شهد بوليكربوس انهم كانوا يوافقون اليهود بحفلة عيد الفصح، لأن القديس ايريناوس يذّكِر البابا فيكتور بمثال انيشاتوس وسلفائه ولا يأتي بذكر خليفتيه سوتر والوتاروس، على أنّ الاحبار الرومانيين الذين جدوا بابطال هذه العادة راعوا أن الكنائس الاخرى تركت الطقوس اليهودية بعد أن زالت الاسباب التي كانت تضطر الرسل إلى المجاراة في هذا التعييد على عادة اليهود، فان كنيسة أورشليم قبل تخريب ادريان اليهودية كان اكثر المؤمنون فيها من اليهود وكان اساقفتهم من هذه الامة ايضاً، فوافقوا اليهود في تعييد الفصح كغيره من الامور. ولكن لما تغلب عدد المتنصرين من الامم نبذوا الطقوس اليهودية، ووافقوا الكنيسة الرومانية وغيرها من

الكنائس في هذا الامر، وقضى هؤلاء الاحبار أنه يلزم أن يكون كذلك في كنائس آسيا لأنه لما ربا عدد المتنصرين في القرن الثاني من الامم على عدد اليهود كان لازماً أن الكنيسة الآسيوية تنكف عن المجاراة لليهود في طقوسهم كما انكفت كنيسة أورشليم.

وكان الاحبار الاعظمون يخشون من أن تشبث المسيحيين الآسيويين بعادتهم القديمة يكون ناشئاً عن زعمهم أن الانجيل يأمر بتعييد الفصح على عادة اليهود، وإن من خالف ذلك وصية آلهية. وكان بعض الآسيويين اتى إلى رومة وحاول أن يدخل في الكنيسة الرومانية عادتهم في آسيا أن يعيدوا الفصح بحسب شريعة موسى أي في الرابع عشر من الشهر الاول، وهذا ما جعل البابا الوتاروس أن يوقن أو يظن أن هذا التشبث ناشىء عن الضلال المذكور. ولما طال هذا الانقسام عزم البابا فيكتور أنْ يزيله ويبت هذه المسألة ويوّحد رأي الكنائس، فعقد مجمعاً في رومة ودعا اليه اساقفة ايطاليا وحتّم فيه أن لا تكون نهاية الصوم واعياد الفصح إلاّ نهار الاحد المعيّن من زمان الرسل ذكراً لقيامة المسيح، وأن يمنع المخالفين عن التعييد بحسب عادة اليهود. وكتب البابا فيكتور رسالة مجمعية إلى اساقفة الاقاليم ينبئهم بما كان القطع به، فعقد توافيلس اسقف قيصرية مجمعاً دعا اليه اساقفة فلسطين وجمع القديس ايريناوس اسقف ليون، اساقفة افرنسة، وبشيل اسقف قرنثية، اساقفة اخائيا، وديمتريوس اسقف اسكندرية، اساقفة مصر. وبَلما اسقف ابستريس اساقفة بنطوس. واثنى هؤلاء الاساقفة في جميع هذه المجامع على اوامر الحبر الروماني حاتمين بالعمل بها، وكتبوا رسائل إلى البابا يبثون اليه بها متابعتهم على ما حكم به وانهم اتخذوا ذلك دستوراً للعمل.

اما بوليكرات اسقف افسس فجمع اساقفته كالباقين، وتلا عليهم رسالة البابا فيكتور والمجمع الروماني، فبدلاً من أن يذعنوا لأمر رومة، ويتابعوا باقي الكنائس اخذوا يدافعون عن عادتهم القديمة متشبثين بمثال القديس فيلبس، والقديس يوحنا الرسولين، والقديس بوليكربوس اسقف ازمير وغيرهم من الاساقفة الذين كان بعضهم شهداء. وكتب بوليكرات في جوابه إلى البابا أن هؤلاء القديسين جميعاً احتفلوا للفصح بحسب ما جاء في الانجيل، ولم يخلوا بشي بل حافظوا على قاعدة الايمان. وتفاخر بان سبعة اساقفة من اسرته لم يكونوا يعيدون هذا العيد إلاّ على عادة اليهود. وختم رسالته بقوله إن التهديدات لا تروعه ولا تثنيه عن المدافعة عن هذه الحقيقة وأنه يلزم الطاعة لله اكثر من الناس، وكان جميع اساقفته يرون رأيه وإن لم يوقعوا رسالته، إذ روى اوسابيوس (ك٥ فصل٢٤) إنهم لدى تلاوتها اقروها باجماعهم.

فسر البابا فيكتور برسائل باقي المجامع وغُم برسالة بوليكرات، ولاضطرامه بالغيرة جزم أن يفصل كنائس آسيا من شركة المؤمنين ويحرمهم على ما روى اورسي (ك٥)، على أن نطاليس اسكندر (مقالة رابعة من تاريخ القرن الثاني) اورد ببينات عديدة على أن البابا فيكتور لم يحرم الاساقفة الآسيويين، ولم يفصلهم عن شركة المؤمنين بل تهددهم تهديداً في رسائله، إلى أن كان القديس ايريناوس وسيطاً بتسوية هذا الخلاف. على أن الاساقفة الآسيويين اقروا بخطئهم لاعتقادهم تعييد الفصح في الرابع عشر من المستهل بمنزلة وصية آلهية افترضها المسيح في الانجيل، والبابا سمح لهم بالبقاء إلى وقت على عادتهم التي هي طقسية محضاً ولا تمس المعتقد بشيء. على أن هذه العادة لم يلبث أن انتسخت، وتابع الأسيويون سائر الكنائس على التعييد للفصح والقيامة في الاحد الواقع بعد الرابع عشر من شهر نيسان عند اليهود، ثم حكم المجمع النيقاوي حكماً باتاً بان يعيد للفصح والقيامة في الاحد الاول الواقع بعد الرابع عشر من المنتصف الربيعي. ووضع لذلك ضوابط وحافظت الكنيسة بعد هذا المجمع كل المحافظة كي لا يكون خلل في تعييد الفصح في اليوم المعين. ولما ظهر هذا الخلل من المراقبات الفلكية الدقيقة اصلح البابا غريغوريوس الثالث عشر هذا الحساب، ووضع لذلك ضوابط هي المعروفة بالحساب الغريغورياني وبقيت بعض الكنائس الشرقية على الحساب القديم إلى اليوم.

ويجدر بنا أن نورد هنا ما كتبه العلاّمة منسي في حواشيه على تاريخ نطاليس اسكندر. «قال: استمسك الرومانيون بتعيين يوم عيد الفصح سنداً إلى تقليد رسولي واستمسك الآسيويون بعادتهم أن يعيدوا له في يوم عيد اليهود سنداً إلى تقليد نقلوه عن يوحنا الرسول .أاختلف الرسل وقال كل منهم بشي يخالف الآخر؟ كلا! والذي اقدره أن الرسل ما داموا مجتمعين في اليهودية اوجبوا التعييد للفصح على عادة اليهود كما اغضوا عن غيرها من رسومهم الشرعية، واما بعد أن تفرقوا في الآفاق ومضى بطرس إلى المغرب واقام كرسيه في رومة، ورأى اكثر المؤمنين من الامم، وكان هؤلاء ينفرون من اليهود فعلم المؤمنون أن يعيدوا للفصح والقيامة في الاحد التالي الرابع عشر من المستهل لا كعادة اليهود، فجرت هذه العادة مجرى شريعة مسيحية من رومة إلى باقي الاقاليم. واما باقي الرسل الذين انذروا في آسيا وكانت كنائسهم مؤلفة من اليهود على الاكثر فاستمروا محافظين على عادة التعييد كما كانت في أورشليم قبل تفرقهم.